جيامبيترو جوبو

إجراء البحث الإثنوجرافي

ترجمة : محمد رشدي

مراجعة : أحمد زايد

المركز القومي للترجمة

2061



إجراء البحث الإثنوجرافي

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر 2006 تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: رشا إسماعيل

- العدد: 2061
- إجراء البحث الإثنوجرافي
- جيامبيترو جوبو
- محمد رشدي
- أحمد زايد
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى: 2014

هذه ترجمة كتاب:

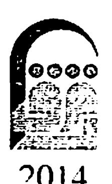
Doing Ethnography
By: Giampietro Gobo

First published 2008

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: 27354524 فاكس: 27354554
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

إجراء البحث الإثنوجرافي

تأليف: جيامبيترو جوبو
ترجمة: محمد رشدي
مراجعة: أحمد زايد



2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جوبو، جيامبيترو

إجـــراء البحـــث الإثنوجرافي/ تـأليف: جيامبيترو جوبـــو،

ترجمة: محمد رشدى، مراجعة : أحمد زايد

ط ١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٤

٦٦٨ ص، ٢٤ سم

١ - الأجناس، علم

(أ) رشدى، محمد (مترجم)

(ب) زايد، أحمد (مراجع)

(ج) العنوان ٥٧٢

رقم الإيداع ٢٥٤٧ / ٢٠١٢

الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978-977- 704 - 932- 0

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفـه بهـا، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عـن رأي المركز.

المحتويات

الجزء الثالث

تحليل المادة

الجزء الرابع

المتلقون (جماهير القراء)

تمهيد

قانون كوبر

إذا لم تكن تفهم كلمة بعينها في قطعة فنية كتابية، فعليك بتجاهلها. سيكون للقطعة معنى ومفهوم تام وكامل بدونها.

أيها الطالب العزيز

هذا كتاب لوصفات إعداد ألوان من الطعام. إنّه يعلمك كيف تطهو... الإثنوجرافيا. إنّ علماء الميثودولوجيا (مناهج البحث) ليسوا معتادين على تقديم وصفات إعداد الطعام، وهم لا يدخلون في التفاصيل الأساسية لكيفية إعداد البحث. إنهم يعتقدون أنّ ما هو أكثر أهمية هو نقل اتجاه معين، أو إجراء استدلالي من واقع مقدمات محددة، أو طريقة للتعامل مع المشاكل، وهم يتركون للباحث الاعتماد على قدرته على الخلق والإبداع، وعلى خبرته في حل المشاكل المحتمل حدوثها وهو يطبق خطوطًا إرشادية عامة على السياق المحدد للبحث. وهم على حق تام في عمل ذلك؛ هكذا قال علماء الميثودولوجيا في الستينيات من القرن العشرين، وأنا أتفق معهم في ذلك، لكن مفهوم "وصفة طهي الطعام" مفهوم خادع ومضلل. منذ بضعة سنين مضت، ابتكر هيوج ميهان ***Huge Mehan*** – عالم منهج الإثنوميثودولجيا (منهجية الجماعة) الأمريكي – إجراء يتبع تعليمات كان ينصح فيه بما يلي:

خذ وصفة إعداد طعام ما من كتاب للطهي، وافعل ما تذكره التعليمات فقط. لا ترتجل أو تلتمس أعذارا.

(وسوف) تكتشف أنّه لا يمكن عمل ضروب النشاط هذه. وفي متابعة تعليمات وصفة الطعام، على سبيل المثال، فإنّ التعليمات تُقدّم لإعداد الطعام، ولإحماء الفرن مسبقا. ونادرًا ما يكون هناك تعليمات محددة وواضحة لوضع الطعام في الفرن. وتشير التعليمات أحيانًا إلى أن البيض يجب أن يوضع في سلطانية الخلط أو يُضرب بقضيب من حديد، أو يتم خفقه بخافق. وأحيانًا تجد أنّه يجب أن تُلقى الكعكات المحلاة الصغيرة المسطحة على أرضية الحجـرة، وليس على صحائف الكعك العريضة. وعبثًا تظل تبحث عن بيان أو تصوير سلوكي للطهي "حتى يصبح الطعام سهل المضغ" أو "سوتيه" (أي مقلي بسرعة فـي قليـل مـن الـدهن)، أو "معالج بالماء الحار أو البخار لنزع القشرة"، أو "مطوي أو ملفوف" (Mehan and Wood, 1975: 234).

من الواضح إذن أن تنفيذ وصفة الطعام، تمامًا مثل اتباع قاعدة ما (كما قال لودفيج فتجنشتاين ***Ludwig Wittgensstein*** الفيلسوف الأسترالي منذ سنوات عديدة)، لا يضمن إنتاج طبق جيد من الطعام بشكل أوتوماتيكي. هناك قدر كبير من المعرفة المفهومة ضمنًا يتم الحصول عليها من الخبرة، وتكون ضرورية بشكل جوهري لبلوغ النجاح، ولا يمكن أن تجدها في وصفة الطعام. ومع ذلك، فلو كنت تريد أن تطهو طبقًا من طعام ما، فإنّ كتابًا لوصفات الأطعمة يكون أفضل من مقالة عن علم الطهي. لماذا ؟ لأنّ وصفات الطعام، رغم أنّها محدودة، ومختزلة، فإنها عملية. وهي في هذه الحالة تختلف كثيرًا عن معظم الكتب المدرسية عن علم المناهج التي لا تزال تُوجه وتُكيف طبقًا للظروف وفقًا لمبادئ وقواعد عمل وسلوك، ويكون أساسها على نطاق قليل جدًا من الممارسة العملية. إنها تؤدي القليل جدا من أجل تقليص الفجوة بين "المعرفة" و"معرفة الطريقة".

وبالتالي ما رأيكم أن نبدأ فورا بالإثنوجرافيا؟ لماذا نضيع الوقت في قراءة كتاب (يكون محشوا بالنظريات) بدلاً من أن نبدأ تصرفا عمليا في الحال ؟ وسوف أفسر ذلك بقصة أخرى.

توفيت جدتي منذ بضع سنوات مضت وقد بلغت عمرًا مديدًا قدره ١٠١ عامًا. كانت قد بدأت العمل في طاحونة عندما بلغت ١٣ عامًا، وبالتالي فقد حصلت على التعليم الأولي فقط. كانت طاهية جيدة تعرف كيف تعد أطباقًا رائعة، لكنها كانت مُدرِّسة سيئة. كانت تعرف ماذا تفعل، لكنها لم تكن تعرف كيف تقوم بتعليم طرائق الطهي. وعندما كنت تسألها عن مقدار الملح الذي ينبغي وضعه في الطعام، كانت تجيبك قائلة "القليل منه"، ولو سألتها، ما المدة التي أقضيها في طهي هذا النوع من الطعام؟ "كانت تقول"، تظل تطهيه حتى ترى أنّه قد تم طهيه".

كانت هذه بلا جدال تعليمات غامضة وغير مفيدة أو نافعة، ولأنها حصلت على قدر ضئيل من التعليم، كانت لا تستطيع أن تجعل معرفتها الضمنية جلية ومحددة، وبالتالي فقد كانت "تعرف الطريقة" لكنها لم تكن "تعرف"، وهذا هو العكس تمامًا لما نجده في الكتب المدرسية. وكانت الطريقة الوحيدة لاكتساب ما كانت جدتي تعرفه، وبالتالي لتعلم الطريقة التي كانت تطهو بها طعامها هي مراقبتها وهي تطهو الطعام. علاوة على ذلك، فبسبب تعليمها البسيط، كانت لا تستطيع تنفيذ تعليمات وصفة الطعام. وفي النهاية كان لديها ذخيرة من أصناف طعام كانت تصل لدرجة الكمال في طهيها لها، لكنها كانت دائمًا نفس القائمة. وكانت قادرة بالتأكيد على تحسين طهيها، ولكن لم تكن تستطيع أن تغير "نماذجها" للطهي سوى في نطاق تعاليمها وعاداتها الخاصة بها. حدث ذات مرة أن تحدثتُ معها حول الطعام الذي يتماشى مع النظام الطبيعي للكون وشرحت لها كيف تعده، لكن ذلك كان هباء منثورًا، فقد كانت لها مقاومة ذهنية للتغيير.

ما الدروس التي يمكن أن نحصل عليها من هذين المثلين؟ أولاً، أنّ المنهجية التي لا تحاول جاهدة تقديم وصفات طعام، ونصائح واقتراحات تُعتبر منهجية عقيمة؛ وثانيا، أنّ وصفات الطعام بدون دليل وإرشاد من نظرية (تتبع الفطرة

السليمة والعلم الصحيح) وصفات غير عملية وغير قابلة للتطبيق. بمعنى آخر، إننا نحتاج نظرية مبنية على التطبيق العملي، ونحتاج تطبيقًا عمليا وممارسات مبنية على نظريات.

وهذا هو ما حاولت القيام به وإنجازه في هذا الكتاب.

مع أطيب تمنياتي،

جيامبيترو جوبو

الزميل العزيز

يا لها من حياة صعبة تلك الحياة التي نحياها ! يجب علينا أن نقوم بأبحاث، وننشر مقالات، وأن نساهم في الحياة الفكرية للقسم الذي تخصصنا فيه، وأن نؤلف ونجمع عشرات الاستمارات ونماذج التقييم على الدوام، وأن نتجنب عقبات البيروقراطية الأكاديمية ونتهرب منهـا. وبعد ذلك علينا أن نقوم بعملية التدريس! يا له من مجهود شاق نقوم به في إعداد الدروس التي تفيد تلاميذنا وتروق لهم، وتجعلهم يقعون في حب مادتنا. مطلوب أمثلة، عدد كبير جدا منها، لجعل فرع الدراسة النظري التجريدي كمناهج البحث قابلاً للفهم، وجعله مثار إعجاب الطلاب أيضا. ولكن أين يمكن أن نجدهم ؟

لم يكن التفكير في إصدار هذا الكتاب منصبا على الطلاب والدارسين فقط، (رغم أنهم الجمهور الرئيسي له)، لكنه كان موجها أيضا لمعلمي هؤلاء الطلاب والدارسين حتى يحتاجوا لبذل قدر أقل من الجهد في تحضير دروسهم، وبالتالي تكون لهم طاقة أكبر على تعليمهم بشكل جيد.

والكتاب يزخر بالأسئلة التي تملأ الدروس بالحيوية، وتحث الجميع على المناقشة مع تقديم أمثلة تجعل حتى أصعب المفاهيم واضحة، مع وجود تمارين (معظمها لمجموعات من الطلاب) يمكن أن يتم تنفيذها إما أثناء الحصة الدراسية (بواسطتكم أو بواسطة معلمين خصوصيين أو مـرشـدين للطلبـة في الجامعة) أو خارج نطاق حجرة الـدراسة. وسـوف يسعدني على وجه الخصـوص إذا ما تمكنت من تخفيف العبء (ولو إلى حد ما على أقل تقدير) عن مهنتنا القاسية التي تتطلب عناية وبراعة فائقة، لكنها مهنة رائعة.

مع أحر الأمنيات،

جيامبيترو جوبو

اعتراف بالفضل

أود أن أقدم الشكر للسيدة أنا ماريا أجيللو، وبربارا تسارنياوسكا، وجاي جوبريام، وأنا ليسا توتا للمساعدة التي قدمنها لي، ولمقترحاتهن وتعليقاتهن القيّمة أثناء مواصلة عملي في الكتاب. وأقدم شكري أيضًا لكيارا سيجافريدو، ورفائللا كولومبو من المركز الأوروبي للنشر العلمي (*SEPS*) لمعاونتهما لي في نشر الكتاب ولأدريان بيلتون لعمله الذي يفوق كل تقدير.

وأشعر بالامتنان على وجه الخصوص لديفيد سيلفرمان، وباتريك بريينديل لتشجيعهما وعونهما لي والاقتراحات التي قدماها لي بسخاء خلال قراءتهما لمسودة الكتاب، ولصبرهما عليَّ. وأخيرًا وليس بآخر، أدين بالكثير لرئيس التحرير الإيطالي، جايانلوكا موري، الذي آمن بالمشروع من البداية، وأدين بالكثير أيضًا لكاروسي إديتوري.

مقدمة

رغم مرور أكثر من قرن منذ اختراع منهج الإثنوجرافيا أو منهج الوصف، فإننا ندرك عند دراسة بانوراما البحث التجريبي المبني على الملاحظة والاختبار في العلوم الاجتماعية، أنّ الإثنوجرافيا (باستثناء قليل من القطاعات) تُعد بلا شك طريقة هامشية قريبة من الحد الأدنى للقبول، وأنّ البحث الإثنوجرافي الأساسي لا يلقى تقديرا كبيرا. ومع ذلك، فإذا كان لنا أن نسأل علماء الاجتماع عن نوع البحث الذي يجدونه الأكثر إغراء لهم، فربما أجاب الكثير منهم قائلين "الملاحظة المشاركة" – وقد يشيدون بوليام فوت وايت ***William Foote White*** وكتابه "مجتمع ناصية الشارع ***Street Corner Society***" وكتاب روبرت وهيلين ليند ***Robert and Helen Lynd*** بعنوان "مدينة ميديلتاون ***Middletown***"، وإيرفنج جوفمان ***Erving Goffman*** وكتابه "مستشفيات الأمراض العقلية ***Asylums***" وأبحاث علماء مدرسة شيكاغو ***the Chicago School*** من بين أروع دراسات الأبحاث في تاريخ علم الاجتماع.

والأسباب الداعية لهذا التناقض كثيرة، وسوف يتم مناقشتها بشكل كامل ومستفيض في هذا الكتاب.

إنّ رغبة كثير من علماء الاجتماع هي إجراء أبحاث في الإثنوجرافيا. ومع ذلك فبسبب التعطل والكسل، أو الخوف من بدء محاولة لا يمكن التكهن بنتائجها، أو محاولة لا تبدو أنها تقدم ضمانات كافية، فقلما توضع هذه الرغبة موضع التنفيذ

الفعلي. والحل الذي يدل على تراجعهم هو تقديم مناهج بحث وطرق معروفة من قبل أو مناهج وأبحاث تتطلب قدرا أقل من الوقت والجهد.

ومع ذلك فإنّ الموقف يتغير. وتبدو علامات التغيير بوضوح في الكتيبات والكتب المدرسية، وفي مجموعة من الدراسات الإثنوجرافية التي يزداد عددها باستمرار، وفي المساحات المخصصة لها التي يزداد حجمها في عدد كبير من الصحف اليومية والدورية. وواضح أنّ نشوء الإثنوجرافيا من جديد عقب السنوات الملحمية من حقبة الستينيات من القرن العشرين ما هي إلا جزء من اتجاه عام متزايد أدى إلى إعادة تقييم البحث" الكيفي"، وازدياد الطلب عليه.

إنّ الهدف من هذا الكتاب هو تقديم متطلبات وأسس ممارسة البحث الذي اعتبر -بشكل غير منصف- ضد الاستدلال المنهجي، ومجرد من الإجراءات والأساليب القياسية وطرق الاستعمال ذات الرموز. وفي الحقيقة، لقد شهدت حقبتا الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين نشر الكثير من الكتب الدراسية وإنتاج برامج حاسوبية حولت جميعها تجارب وخبرات ممارسة الإثنوجرافيا التي تجمعت خلال التسعينيات إلى قوام من المعرفة والخبرات الفنية. ومن الواضح أنّه لا وجود لمنهج إثنوجرافي واحد عالمي وفريد من نوعه؛ ولكن مبدأ المصادفة وحدوث الشيء كيفما اتفق مبدأ غير سائد هو الآخر. وبدلا من ذلك، هناك مجموعة من استراتيجيات البحوث ذات حدود معينة يجري تبنيها طبقًا للمنظور النظري الذي يتم تبنيه. وطبقا لهذا، فإنّ هذا الكتاب ليس كتابا فنيا بشكل غير ممتع أو مشــوق (أو على الأقل فليس هذا هو المقصود منه) لكنّ الأحرى أنّه نص يُظهر على الدوام كيف يمكن الربط بين النظرية والتقنية من جهة وبين التقنية والممارسة من جهة أخرى. ويتكون هذا الكتاب من أربعة أجزاء مخصصة على التوالي كما يلي:

(١) تعريف مناهج البحث الإثنوجرافي وتاريخها وقضايا تصميم البحث.

(٢) القضايا النظرية والأخلاقية والفنية فيما يخص جمع المعلومات، وتنظيم قاعدة البيانات والمعلومات.

(٣) تحليل الأدوات والمواد ومصداقية النتائج والمذكرات.

(٤) تبادل وتبليغ النتائج والمذكرات للجماهير المختلفة والمتنوعة.

والكتاب حافل بالأمثلة ودراسات الحالات (والبعض منها موجود أيضا على الإنترنت)، وبالتمارين التي صُممت بحيث تقدم الطلاب لمناهج البحث وتجعلها سهلة الفهم بالنسبة لهم. أما بخصوص التمارين، فإنها بحق يمكن القيام بها وتنفيذها؛ فقد أعدت بحيث تؤدى بالفعل على أرض الواقع؛ وهي ليست مجرد سد خانة لتقديم ولاء كلامي كاذب للنمط الحالي في كتابة الكتب المقررة. وهي تمارين صممت بحيث تنقل نكهة الأبحاث والصفات المميزة لها، رغم أن البحث ذاته سيكون مسألة مختلفة اختلافًا كبيرًا.

وأخيرًا، حاولت أن أجعل الكتاب دوليًا بشكل أكبر من كتب مدرسية أخرى: الأمثلة في الكتاب تُقدَم من بلاد مثل المملكة المتحدة، والولايات المتحدة، وبشكل واضح، فهي تقدم أيضًا من أستراليا، والنمسا، والبرازيل، وكندا، وكوبا، وإثيوبيا، وفرنسا، وألمانيا، والمجر، والهند، وإيطاليا، واليابان، والمكسيك، ونيو جونوا، ونيجيريا، ونيوزيلاند، والنرويج، ومراكش، وباكستان، والفلبين، وبولندا، وروسيا، ورواندا، وسَاموي، والسودان، والسويد، وسويسرا، وتايلاند، وأوزباكستان. ولا يعني هذا أنني قد نجحت، لكن هذا على الأقل هو في اتجاه ما أردت الذهاب إليه. ومع ذلك، ورغم أقصى ما بذلته من جهد، فإن الكتاب لا يزال محدودًا من الناحية الثقافية: لقد تمت كتابته بواسطة شخص أوروبي لأهل الشمال، وهو يجهل كثيرا من الثقافات، مثل: الثقافة الأفريقية، والأسيوية، والأمريكية اللاتينية.

الجزء الأول

مناهج البحث

الفصل الأول

ما الإثنوجرافيا؟

عندما شغل هيرميس *Hermes* وظيفة نقل الرسائل، وعد زيوس *Zeus* ألاَّ يكذب. لم يعده أن يقول الحقيقة كاملة. كان زيوس يفهم ذلك جيدًا. أمّا المتخصص في الإثنوجرافيا فلم يفهم حتى الآن.

فينسينت كرابانزانو *Vincent Crapanzano, 1986 - 35*

الأهداف التعليمية

- اكتساب خلاصة ومجمل ما يشكّل الإثنوجرافيا.
- فهم الفرق بين الاتجاه والسلوك.
- إدراك الخصائص الرئيسية لمناهج البحث الإثنوجرافي.
- فهم مزايا وعيوب مناهج البحث الإثنوجرافي.
- الحصول على فكرة عامة لتطوره التاريخي.
- تحديد أوجه الخلاف المنهجية الرئيسية بين إجراء البحث الإثنوجرافي في علم الاجتماع وفي الأنثروبولوجيا التقليدية.

١-١ مقدمة

إن معظم أشكال المعرفة كائنة وواقعة. وهي تنشأ من خلال أناس معينين، من أجل أغراض معينة، وهم يعكسون معالميا وملامحيا بما فيها ما يتكرر على نحو رتيب لا يتغير وما يتسم منيا بالتحيز والتعصب، وذلك في فترة زمنية معينة من التاريخ. وليست الإثنوجرافيا مستثناة من هذا الاتجاه.

الإثنوجرافيا منهج بحث له تاريخ يفوق مائة عام من عمر الزمن. ولقد نشأت الإثنوجرافيا في العالم الغربي كشكل من أشكال المعرفة حول ثقافات مختلفة ومتباعدة (وهي على نحو نموذجي ثقافات ليست غربية) لا ينفذ إليها التحليل ولا سبيل لفهمها عبر اتصال ثقافي سريع أو عبر محادثات موجزة. ورغم نوايا الإثنوجرافيا الحسنة (لاكتساب فهم أعمق) فإنها ما زالت طريقة استعمارية يجب أن... يُستأصل الاستعمار منها. وأنتم أيها الطلاب في كل أنحاء العالم، يمكنكم أن تساهموا بقدر كبير وحاسم وصولاً لهذه الغاية.

وتكتسب الإثنوجرافيا رواجًا متزايدا في الوقت الحالي في الأبحاث الاجتماعية والتطبيقية، وقد تصبح ظاهرة جماعية على نطاق واسع في السنوات القادمة. لماذا؟ لأننا نعيش الآن في "مجتمع الملاحظة" (انظر الفصل ١٧)

ويهدف الفصل الأول إلى تعريف مفهوم الإثنوجرافيا، وتحديد مزاياها ونقائصها، وتحديد مهام البحث الإثنوجرافي في المجتمعات الحديثة.

١-٢ نظرة عامة على الإثنوجرافيا

اقرأ النصين التاليين بعناية.

تعديلات وتسويات ثانوية

أول شيء ينبغي ملاحظته وتسجيله هو تفشي البدائل المؤقتة وانتشارها. يستخدم المشاركون في كل مجتمع أشياء متاحة من صنع الإنسان بطريقة ولأهداف ليست بالطريقة ولا الأهداف التي قصد الإنسان صنعها من أجلها، وبذلك فإنهم يغيّرون ويعدّلون في الظروف والأحوال الحياتية المخططة لهؤلاء الأفراد. وقد ينطوي ذلك على تجديد وإصلاح مادي للأشياء التي صنعها الإنسان، أو لمجرد سياق استخدام غير مشروع (...). في المستشفى المركزي كانوا يتحملون الكثير من استخدام البدائل المؤقتة البسيطة بصمت. على سبيل المثال، استخدم النزلاء بكثرة شبكة الأنابيب المستقلة التي تُستخدم للتدفئة المركزية في المستشفى المركزي في تجفيف ملابسهم الشخصية التي يكونون قد غسلوها بأنفسهم وعلى مسئوليتهم، في مغسلة الحمّام، وبالتالي فإنهم أدّوا دورة غسيل خاصة كانت رسميًا من اختصاص المؤسسة وحدها. وفي جناح المستشفى للأثاث والملاعب الخلوية، كان المرضى أحيانًا يحملون معهم جرائد مطوية كي يضعوها بين رقابهم وبين المقاعد الخشبية الطويلة عندما يرقدون. وكانوا يستخدمون المعاطف والفوط الملفوفة والمطوية بنفس الطريقة... وأحيانًا كان المرضى كبار السن العازفون عن التجول أو غير القادرين على التحرك

يستخدمون طرقا استراتيجية يتحاشون بها مهمة الذهاب إلى الحمام أو المرحاض: كان بالإمكان التبول على شبكة الأنابيب الساخنة التي تستخدم للتدفئة المركزية في أحد أجنحة المستشفى دون ترك آثار رائحة تدوم مدة أطول من اللازم؛ وأثناء فترة الذهاب للحلاق التي كانت تتم مرتين في الأسبوع لحلاقة الذقون كان الصندوق المخصص لوضع الفوط المستخدمة فيه يستخدم كمكان للتبول فيه عندما لا يكون الحاضرون ينظرون إليهم... وكان ورق الحمام في المستشفى المركزي يتم "ترتيبه" أحيانا؛ ويمزق وينطوى ويحمل بشكل نظيف، ويستخدمه بعض المرضى شديدي الحساسية في مسائل الذوق بشكل يبررون به أنفسهم على أنه مناديل ورق ناعمة (*Goffman, 1961: 207 – 9*).

موت اجتماعي

عندما تعتبر حالة المريض أثناء علاجه في المستشفى أنها تقترب من الموت أو أنّ مرضه وضعه في نهاية عمره، يُدرج اسمه على جدار في قائمة الحالات الحرجة... وتعمل عملية اللصق هذه كرسالة داخلية وثيقة الصلة بحالته تخطر موظفين مختصين معينين في المستشفى أنّ هناك حالة وفاة وشيكة الحدوث، وأنّه ينبغي عليهم التأكد بشكل تجريبي من إجراء الاستعدادات اللازمة تجاه هذا الاحتمال المتوقع حدوثه. ويصبح إدراج الاسم وجدولة المهام في مشرحة المستشفى من المتطلبات المهمة في ذلك الوقت. ويتم إعداد مسودات أولية تحضيرية لمسئولية العمل المتوقع حدوثه في ذلك الأسبوع، وينبغي توقع العدد المرتقب لتشريح الجثث لمعرفة

سبب الوفاة والتخطيط لتنفيذه إذا كان ذلك ممكنًا. ويستشير المشرف على المشرحة عند إجراء مثل هذه التقديرات القوائم المدرجة على الجدار التي يقوم من خلالها بالتخمين بما سيكون عليه حمل العمل للأسبوع التالي. ويقوم أطباء متعددون، يعملون في المستشفى أيضًا ولديهم اهتمامات خاصة في مناطق تشريحية متعددة، بتقديم استشاراتهم وتوصياتهم، وجعل المشرف على المشرحة ينبه طبيب الجناح أنّ الدكتور إس *S* مثلا كان يريد أن يحصل بقدر المستطاع على عيون كل من سيجري تشريح جثثهم. وكان الدكتور إس هذا طبيب عيون وباحثًا في أمراضها، ولإمداد الدكتور إس بالعيون التي كان يحتاج إليها، اعتاد المشرف على المشرحة أن يراجع قائمة الحالات الحرجة وأن يحاول، من خلال محادثات غير رسمية مع الممرضين والممرضات حول عائلة كل مريض، أن يستطلع ويقيم فرصه في الحصول على إذن من العائلة بأن تتخلى عن حقها وتترك عيني المريض من أجل إجراء الأبحاث عليها. ومن الواضح أنّه عندما كان يحدد مرشحًا محتملاً، أي المريض الذي كان من المتوقع من عائلته أن تعطي الإذن بذلك عند حدوث الوفاة، كان يبلغ أخصائي علم الأمراض الذي يجري الفحوص بعد الوفاة بذلك، فيقوم بدوره ببذل الجهد، عن طريق الطبيب، بأن يُعطى اهتمام خاص بطلب التبرع بالعين. (في أماكن متعددة من المستشفى: على طاولة التصريح بالدخول، وفي المشرحة، وفي استراحات الأطباء، وفي أماكن أخرى من المستشفى، كانت هناك لافتات توضع بشكل دوري مكتوب عليها "الدكتور إس يحتاج عيونًا"، "الدكتور واي *Y* يحتاج كلى "جمع "كلية"، إلخ... (*Sudnow1967: 72 - 3*).

قد يكون هذا أول لقاء غير متوقع لك مع "رواية أو تقرير إثنوجرافي"، وهو ضرب أدبي مميز يشبه الرواية أو القصة الطويلة في نواح كثيرة منه.

> **التمرين ١ - ١**
>
> ناقش مع معلّمك أو رفقائك في الصف الدراسي:
>
> . ردود أفعالكم على القطعتين.
>
> . الانفعالات والأحاسيس التي أثارتاها فيكم.
>
> . هل فكّرت أنّ مثل هذه الأشياء يمكن أن تحدث في أي مستشفى؟

١-٣ تعريف الإثنوجرافيا

كانت كتابة النصين السابقين على أساس *الملاحظة*. كان المؤلفان إرفنج جوفمان وديفيد صدناو ***Erving Goffman and David Sudnow*** حاضرين عندما حدثت هذه الأشياء وشاهداها بأعينهما. والصفة المميزة الثانية هي دقة الملاحظات، والعدد الكبير للتفصيلات التي تم وصفها، وحيوية سرد الموضوع. إنّ المؤلفين يُوثقان الروتين المعتاد لهيئة أو منظمة بفطنة ونفاذ بصيرة عظيمين.

لكن قد يطرح المرء سؤالا: ألم يكن من الممكن تجميع هذه التفاصيل بطريقة مختلفة، بإجراء مقابلات مع بعض المرضى، على سبيل المثال؟ قد يكون هذا ممكنا، ولكن ذلك يتطلب ممن تُجرى معه المقابلة أن يتحلى بقدر عال من المعرفة والإدراك، وقوة تذكر هائلة. والقليل جدا ممن تُجرى معهم هذه المقابلات لديهم مثل هذه القدرات. أكان من الممكن تجميع هذه التفاصيل بعمل استفتاء أو استطلاع رأي مع العاملين في المستشفى؟ بالتأكيد لا، لم يكن من الممكن ذلك.

لم يكن بمقدور أي استفتاء، مهما تمّ بشكل جيد، أن يجمع كل هذه التفاصيل. علاوة على ذلك، فإنّ عمل هذا الاستفتاء ليس هو هدف طريقة المسح، الذي تم اختراعه لأغراض أخرى.

وبالتالي فما الإثنوجرافيا، وكيف تختلف عن المقابلة أو المسح؟

١-٤ تعريف للإثنوجرافيا

نحن نستخدم حواسنا الخمس لمعرفة الأشياء: النظر، والسمع، والشم، والتذوق، واللمس. لكن هذه الحواس لا تكتسب المعرفة بشكل منفصل، أي لا تكتسبها أي حاسة منها لمصلحتها الخاصة. والأحرى، فإنّه أثناء عملية جمع المعلومات والمعارف، فإنّ هذه الحواس تتفاعل بعضها مع البعض بشكل مستمر. ومع ذلك ففي هذا التفاعل، قد يحدث أن تقوم حاسة منها كمحور أو مرتكز للحواس الأخرى (انظر الفقرة رقم ٢ - ٤)، تقريبًا مثل صانع الألعاب في فريق لكرة السلة. في الحقيقة، يمكننا أن نتخيل الحواس الخمس كخمسة أفراد من لاعبي كرة السلة يتناوبون اللعب في دور المحور أو المرتكز الذي يحتاج دائمًا لتعاون كل اللاعبين الآخرين عندما يشغلون هذا الدور.

في منهجية الإثنوجرافيا تكون "الملاحظة" هي أسلوب المعرفة أو الإدراك المحوري. وبالطبع فإنّه من الأمور الجوهرية أيضًا الاستماع والإنصات لمحادثات الممثلين على "خشبة المسرح"، وقراءة الوثائق التي تصدرها الهيئة التي تجري دراستها، وطرح أسئلة على الناس وما إلى ذلك. ولكن أكبر ما يميز الإثنوجرافيا عن غيرها من مناهج البحث هو دور "الفاعل الرئيسي" الذي يقوم بالملاحظة وإذا ما وضعنا هذا جيدًا في اعتبارنا وتذكرناه دومًا، فيمكننا الانتقال الآن لقضايا ومسائل أخرى.

تتضمن منهجية الإثنوجرافيا استراتيجيتين بحثيتين: الملاحظة غير *المشاركة والملاحظة المشاركة*. في المرحلة الأولى يلاحظ الباحث المواضيع "على بعد مسافة معينة" بدون أن يتفاعل معها. إنّ هؤلاء الذين يستخدمون هذه الاستراتيجية لا يهتمون بالبحث والتحري عن المجال الرمزي، ويتأكدون من أنّهم لا يتدخلون في شئون أفعال وحركات المواضيع حتى لا يؤثرون في مجرياتها وتصرفاتها. هناك عدة مواقف وسيطة بين الحدّين الأقصيين لملاحظة المشاركين وملاحظة غير المشاركين (انظر الفقرة ٦ - ٣).

على العكس من ذلك، فإنّ الملاحظة المشاركة لها الخواص والصفات المميزة التالية:

(١) ينشئ الباحث علاقة مباشرة مع من يقومون بأعمال تأخذ في اعتبارها أفعال وردود أفعال الأفراد.

(٢) الإقامة والبقاء في بيئتهم الطبيعية.

(٣) بغرض ملاحظة ومراقبة ووصف سلوكهم.

(٤) بالتفاعل معهم والمشاركة في الإجراءات التفصيلية الروتينية في حياتهم اليومية.

(٥) معرفة مبادئهم وقواعد سلوكهم (أو جزء منها على أقل تقدير) من أجل فهم معنى أفعالهم.

وكما سبق القول، فإن منهجية الإثنوجرافيا تعطي أولوية للملاحظة كمصدر رئيسي للمعلومات. وتقوم بخدمة هذا الهدف أيضا مصادر معلومات أخرى، بطريقة ثانوية وإضافية مساعدة يستخدمها المتخصص في الإثنوجرافيا وهو يعمل في الميدان: محادثات عادية عامية، ومقابلات مع الأفراد والجماعات، ومواد كتابية

وثائقية (دفاتر تدوين اليوميات، ورسائل، ومقالات في الصفوف الدراسية، ووثائق تنظيمية، وجرائد، وصور فوتوغرافية، ووسائل مساعدة سمعية وبصرية). على أي حال، فإن الاهتمام الذي يطغى على غيره من الاهتمامات دائما هو ملاحظة الأعمال والتصرفات وهي تحدث في مواقف واقعية محددة. وانطلاقا من وجهة النظر هذه، لا ينبغي أن نعتبر أن دراسات الجماعات أو الجاليات دراسات إثنوجرافية؛ حيث إنّ، ومع أنّ الباحثين يكونون قد أمضوا فترة زمنية طويلة نسبيا في محيط الجماعة التي تُجرى الدراسة عليهم، تحليلهم كان أساسه المقابلات والوثائق التي جمعوها في المكان الذي يجرون البحث فيه. وكما يؤكد هيريتيج *Heritage* فإنه لو كان المرء مهتما بالفعل، فإنّ ما يذكره الفاعلون الاجتماعيون أثناء المقابلات التي تتم معهم لا يمكن معاملته على أنّه "بديل ملائم لملاحظة السلوك الفعلي "(*1984: 236*)". وفي الحقيقة، هناك فجوة أو ثغرة كثيرا ما تم توثيقها لاتجاهات وأنماط السلوك (*La Pierre 1934*) بين ما يقوله الناس وبين ما يفعلونه (*Gilbert and Mulkay, 1983*).

١–٥ الفجوة بين الاتجاهات والسلوك

منذ عدة سنوات خلت، جادل عالم الاجتماع الأمريكي إدوارد سي. لندمان *Edward C. lindeman (1885 - 1953)* بالطريقة هذه ضد المسح في كتابه "الاكتشاف الاجتماعي" حيث كتب يقول:

يذكر علماء السلوك أنك إذا رغبت في معرفة ما الذى يفعله شخص ما، فإنك بكل الطرق ستمتنع عن سؤاله. من المؤكد أن إجابته ستكون خاطئة، ليس لمجرد أنّه لا يعرف ما يفعله. لكن لأنه يكون بالضبط يرد على سؤال، وأنّه

سيجعل إجابته وفقا لما تتوقعه أنت منه، وليس وفقا للشيء الموضوعي الذي يفعله (*1924*)، نقلا عن: *Converse 1987: 54*.

وقد أظهرت عدة دراسات مدى اتساع الفجوة بين ما نقوله وما نفعله، بين ما يفكر الناس فيه ويشعرون به وبين ما يفعلونه، بين السلوك والاتجاه، بين العواطف والأعمال. وقد تم تجميع بعض من أشهر هذه الدراسات في الكتاب الرائع الذي أشرف ديوتشر (*1973*) ***Deutscher*** على تحريره. من تلك الدراسات الدراسة الرائدة التي قام بها لا بيير ***La Piere*** (١٩٤٣)، والتي ركزت على وجود أو عدم وجود تناغم وتوافق بين اتجاهات الناس وبين سلوكياتهم (وهو موضوع حدثت مناظرات كثيرة حوله في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين). وقد انتهى لا بيير إلى أنّه لا توجد علاقة بينها؛ فمن يقومون بالأعمال الاجتماعية غالبًا ما يكونون متناقضين مع أنفسهم، وغير واعين بما يفعلون، وغير منطقيين. لقد سافر رجل صيني وزوجته، استخدمهما لا بيير في تجربته، حول الولايات المتحدة لمدة عامين، ولم يحدث في أي مناسبة أن رفض أصحاب المقاهي أو المطاعم أو الفنادق أن يقدموا لهما خدماتهم. ثم أرسل لا بيير بعد ذلك استبيانا في البريد لأصحاب الأماكن نفسها الذين تولوا خدمة الرجل الصيني وزوجته أو أصحاب الفنادق الذين أقام الزوجان عندهم، وحصل لا بيير على نتيجة مدهشة، أجاب ٩٢% من أصحاب المقاهي والمطاعم و ٩١ % من أصحاب الفنادق أنهم يرفضون قبول زبائن صينيين، وهم بذلك تناقضوا مع سلوكهم السابق.

دراسة حالة

إعادة كتابة الأفعال

في عام ١٩٥٤ كان عالم الاجتماع الأمريكي هارولد جارفينكيل ***Harold Garfinkel*** يقوم ببحث عن عمل هيئة المحلفين أثناء إحدى المحاكمات القضائية، (واشترك سايول ميندولوفيتز ***Saul Mendolovitz*** معه في إجراء هذا البحث). وكان الغرض من البحث من خلال إجراء مقابلات مع أعضاء هيئة المحلفين هو إعادة ترتيب وتنظيم ووصف الطرق التي كانوا يتصرفون بها، وكيف توصلوا وهم يمارسون عملهم للقرار بأنّ المتهم كان مذنبًا أو بريئًا.

ولاحظ جارفينكيل (*1967: 104 - 15*) وجود مجموعة قواعد غير رسمية كان لزامًا على أعضاء هيئة المحلفين أن يتبعوها كي يصلوا للقرار "الصحيح". ومع ذلك، فلدى ملاحظة جارفينكيل عمل هؤلاء الأعضاء الواقعي الملموس، وجد أنهم لم يطبقوا هذه القواعد إلا نادرًا، والأحرى أنهم استخدموها بشكل استرجاعي يتأملون فيه الأحداث الماضية ويستعيدون ما حدث من أجل تبرير القرار الذي اتخذوه. كانت هذه طريقة لفرض نظام على عملية اتخاذ قرار لا يكون أي شيء سوى أن يكون قرارًا دقيقًا وأمينًا. لقد بدأ أعضاء هيئة المحلفين من نتيجة الفعل ثم عادو أدراجهم لإعادة ترتيب وتنظيم العملية التي توصلهم في النهاية لما اتخذوه من قرار، وبالتالي فإنهم استخدموا القواعد لعقلنة وتبرير ذوي مفعول رجعي كان يمكن لحساباتهم أن تظهر من خلالهما الإحساس الجيد لأي نتيجة، بدلاً من استنساخ ما كان يعتقده الناس عند عملية المداولة.

١–٦ المفارقة الواضحة للملاحظة بالمشاركة

تتطلب منهجية الإثنوجرافيا من الباحث أن يشارك في الحياة الاجتماعية لمن يتم ملاحظتهم، بينما يحافظ في نفس الوقت على المسافة المعرفية المُدركة الكافية

حتى يمكنه (أو يمكنيا) أن يؤدي (أو تؤدي) عمله (أو عملها) العلمي بطريقة مرضية. لذا يجب على الباحث إيجاد توازن صعب بين موقفين متضادين يمكن أن نسميهما "استغراق وانفصال"، ونحن هنا نعيد صياغة عنوان كتاب شهير من تأليف عالم الاجتماع والمؤرخ الألماني نوربرت إلياس ***Norbert Elias***.

ومن وجهة النظر الفلسفية، من المستحيل تحقيق هذا التوازن لأن "المجتمع والناس منظمان بشكل جيد جدًا لدرجة أن أهداف الفهم العلمي والتعاطفي ***emphatic*** (للحصول على المعاني) تُعد أهدافًا تنافسية من حيث المبدأ. وقد لا يكون في الإمكان أن تصبح مشاركًا وعالمًا في وقت واحد" (***Schwartz and Jacobs, 1979: 49***). وكما أشار الفيلسوف النمساوي ألفريد شوتز ***Alfred Schutz***، فإن هذه الاستحالة المعرفية لا تتعلق بالباحث وحده؛ فهي تؤثر أيضًا في من يلعبون أدوارًا اجتماعية ممن يرغب الباحث في دراستهم، إذ يقول:

> **إنّ المبحوث الذي يتولى تسيير شئون نفسه بشكل مستمر لديه في ذهنه حافز ودافع السبب، بمعنى آخر، لأداء أفعاله المستمرة التي تعرض له، كما تمليها الظروف عليه. وبالرجوع للوراء وتذكره لما أنجزه من عمل... عندها فقط يمكنه أن يفهم حافز السبب الذي جعله يعزم على أن يفعل ما قام به من فعل أو أفعال أو ما كان يتخيل أو يعرض أن يفعله. ولكنّه عندما يتوقف عن الفعل؛ فإنّه يصبح ملاحظًا أو مراقبًا لنفسه (١٩٥٣: ٢٢).**

لذا فإنّ المبحوث الذي يقوم بأفعال/ يشارك يختلف بشكل مؤقت ومعرفي عن المبحوث الذي يلاحظ ويراقب. وبالتالي فإن المشاركة والملاحظة ليستا اتجاهين متضادين أو متناقضين؛ وهما بالأحرى وجهان متميزان بارزان للحياة الاجتماعية (مثل الأبحاث). وهما لا يتناقضان مع بعضهما لأنهما لا يتداخلان ولا يتخطى أحدهما الآخر.

وتتضمن الملاحظة بالمشاركة تناقضا ظاهريا آخر وصفه وصفًا حسنا أليساندرو ديورانتي *Alessandro Duranti* عالم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) والعالم اللغوي الإيطالي حين قال:

> **كلما غمر (الإثنوجرافي) نفسه في الحقائق والوقائع الاجتماعية، وكلما اكتسب طريقة في التصرف وفي تفسير الواقع وترجمته بشكل يشبه تغير المبحوثين الذين يقوم بدراستهم، بدا سلوكهم وتصرفاتهم ورؤيتهم النسبية للعالم طبيعية بالنسبة له، وبالتالي يصعب عليه فهمها وإدراكها (*1992: 20*).**

ومع ذلك فمن وجهة النظر العملية التطبيقية، فإنّ التقمص الوجداني (أو التعاطفي) الكلي مستحيل من الناحية المهنية والناحية العملية التطبيقية. وعلى وجه الدقة نقول إنّ التفكير المستمر، وكتابة الملحوظات والمذكرات، وطرح الأسئلة، وإجراء الاستبيان أو استطلاع الرأي، والتقاط الصور الفوتوغرافية، وتسجيل الأحداث، ثم النسخ والتدوين والترجمة والتفسير الذي فرضته مهنتنا هي ما يمنعنا من الخوض بشكل تام "داخل" الثقافة التي نريد دراستها (*1992: 20*).

في ضوء هذه الاعتبارات فإنّ التناقض يضعف من وجهة النظر العملية التطبيقية ويوهنها، رغم أنها تظل تحفظ خصوصيتها وتميزها في جعل البحث العلمي قادرا على التأمل الذاتي. لذا فكون الباحث يصبح "داخل" أو "خارج" القواعد والقوانين الثقافية في آن واحد أو بشكل مُتقطّع، يُعد عنصرًا طبيعيًا للدور الذي يلعبه.

١–٧ مولد منهجية البحث الإثنوجرافي

يرجع تاريخ مولد منهجية الإثنوجرافيا عادة للفترة بين أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وقد تطورت هذه المنهجية داخليا لتصبح إثنولوجيا،

وهو فرع من المعرفة انشق في النصف الأول من القرن التاسع عشر من الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) التقليدية، والذي كانت الصيغة المادية والبيولوجية تتحكم فيه وتسيطر عليه في ذلك الوقت. وكانت الإثنولوجيا تهتم أكثر ما تهتم بدراسة البشر (من خلال مقارنة الأشياء المادية التي صنعها الإنسان) وثقافاتهم وتصنيف ملامحهم وصفاتهم البارزة. وقبل ظهور منهجية الإثنوجرافيا، لم يجمع علماء الإثنولوجيا المعلومات من خلال الملاحظة المستمرة، وبدلاً من ذلك، قاموا بدراسة وفحص علم الإحصاء، وسجلات ومحفوظات الدوائر والبعثات الحكومية، ومراكز التوثيق، وروايات الرحلات والتقارير التي كُتبت عنها، والاكتشافات الأركيولوجية المتعلقة بعلم الآثار القديمة، والسلع الوطنية أو الأغراض التي تم تأثيثها عن طريق من يجمعون القطع الفنية الغريبة والدخيلة، أو أجروا محادثات مع الرحالة وأعضاء البعثات والمستكشفين. واعتبر علماء الأنثروبولوجيا أعضاء الشعوب من المواطنين "بدائيين" أو همجيين غير قابلين للتعلم، ولم يكن يمكن استخدامهم كإخباريين (في الدراسات الميدانية)؛ لأنه لم يكن من الممكن أن توضع فيهم الثقة لتقديم معلومات موضوعية. وانطبق هذا التحيز والتعصب أيضًا على الفقراء في المملكة المتحدة في نهاية القرن التاسع عشر.

لم تصبح منهجية الإثنوجرافيا علمًا بارزًا بقوة فجأة في الأنثروبولوجيا؛ وبالأحرى فإنه نشأ وظهر بالتدريج من خلال أعمال مؤلفين متعددين، من بينهم برونيسلو كي. مالينوفسكي *Bronislaw K. Malinowski (1884-1942)* عالم الأنثروبولوجيا ذي الأصل البولندي، وعالم الأنثروبولوجيا الإنجليزي ألفريد آر. رد كليف- براون (*Alfred R. Radcliffe-Brown (1881-1955*. استوعبت الأنثروبولوجيا الاجتماعية الإنجليزية ذات الطابع الإثنوجرافي المناخ الفكري السائد زمنها لأصحاب الفلسفة الوضعية ووضعت نفسها في المقدمة، طبقًا لما ذكره ردكليف براون (١٩٤٨)، باعتبارها "علمًا طبيعيًا للمجتمع[١]" كان قادرًا أكثر من الطرق الأخرى التي استخدمها علماء الأنثروبولوجيا في ذلك الوقت على تقديم

وصف موضوعي لثقافة ما. كان هجوم ردكليف براون العدواني الجدلي العنيف موجها ضد الأنثروبولوجيا التأملية أو "المكتبية" السائدة، التي كانت تفضل الاعتماد على مصادر ثانوية بدلاً من التعهد باستخدام ملاحظة مباشرة للحقائق الاجتماعية (العادات، والإجراءات التفصيلية الروتينية اليومية) من أجل الكشف عن القوانين التي تحكم المجتمع.

ويعتبر مالينوفسكي عادة أول من وضع منهجا لمنهجية الإثنوجرافيا. ففي مقدمته الشهيرة لكتابه "مغامرو المحيط الباسيفيكي الغربي" الذي يعرض بحثه الذي أجراه حول جُزر تروبرياند ***the Trobriand*** لأرخبيل "مجموعة جزر" ميلانيزيا البعيدة قليلاً عن جنوة الجديدة الشرقية يصف مالينوسكي المبادئ المنهجية التي تشكل الجزء الأساسي من الهدف الرئيسي للإثنوجرافيا، وهو "فهم وجهة نظر المواطن، وعلاقته بالحياة، وذلك لمعرفة رؤيته لعالمه" (***Malijnowski 1922: 25***)؛ وعاش مالينوفسكي من أجل هذا الهدف لمدة عامين (بين عامي ١٩١٤-١٩١٨) وسط أهل كيولا في جُزر تروبرايند. وتعلم لغتهم (أهل كيريوينيا)، واستخدم المواطنين لإبلاغه المعلومات، ولاحظ الحياة الاجتماعية للقرية بشكل مباشر، وشارك في أنشطة الحياة اليومية فيها. لقد دشّن مالينوفسكي مشهدا "من الداخل" كان يمكن لعلماء الأنثروبولوجيا الأمريكان في الخمسينيات من القرن العشرين أن يسموه منظور "مرجعية المبحوث" كمقابل لمنظور "مرجعية الباحث" أو المنظور المقارن، الذي سعى بدلاً من ذلك لإنشاء قوائم تفيد المحللين لكنها ليست مهمة بالضرورة لأعضاء الثقافة التي تتم الدراسة عليهم (للحصول على تفاصيل حول الفرق بين تحليل مرجعية الباحث ***Etic*** والمبحوث ***Emic*** ادخل على الرابط: ***www.sagepub.co.uk/gobo***).

ومنذ العشرينيات من القرن العشرين وما بعدها، أُدمج منهج الإثنوجرافيا مع علم الاجتماع حيث تبناه الباحثون الذين كان معظمهم يتبع قسم علم الاجتماع في جامعة شيكاغو (انظر الفقرة ٣ - ٢) - ثم تم إدماجه مع علم النفس. ومع أنّ منهج الإثنوجرافيا اكتسب فائدته ومعناه من الأنثروبولوجيا، فإنه قبل ذلك بسبعين سنة كاملة كان مهندس التعدين الفرنسي بيير لو بلاي ***Pierre Le Play (1806 -1892)*** الذي أصبح أحد علماء الاجتماع فيما بعد قد استخدم أشكالاً بدائية من الملاحظة المشاركة، عندما أقام مع عائلات الطبقة العاملة التي كان يتولى دراستها. واستخدم الرجل الإنجليزي الخيّر والمحب للبشر سيبوهم بي. راونتري (***Seebohm B. Rowntree (1871 - 1954***) أيضًا أشكالاً بدائية من الملاحظة المشاركة (بعد ١٨٨٦) من أجل تحرياته عن الفقر والظروف المعيشية في أحياء الفقراء في لندن. ومع ذلك، فحتى يومنا هذا، ما زال كثير من علماء الأنثروبولوجيا يعتبرون أن علم الاجتماع والمسح الشامل شيئًا واحدًا، ويحسبون أنفسهم الحراس الأمناء الوحيدين للطريقة الإثنوجرافية. (***Atkinson , Coffey, Delamont, Lofland and Lofland, 2001: 2***)

١-٨ الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع: الاختلافات المنهجية

عندما تبنّى البحث الاجتماعي منهجية البحث الإثنوجرافي - وهو مجال نظامي انضباطي يختلف عن الأنثروبولوجيا - كانت مشاكل التكيّف معه تتطلب مراجعته الجزئية، وهي مراجعة أثّرت في ذلك الوقت في أنثروبولوجية فترة ما بعد الحرب. في الحقيقة أنه في بدايات الأنثروبولوجيا، وطبقًا لرأي بينديكت ***Benedict (1934:7)*** وهو رأي سديد، فإنّ الأنثروبولوجيا تختلف عن العلوم الاجتماعية في أنّها أخضعت المجتمعات التي تختلف في دراستها عن مجتمعاتنا.

ولكن بدءًا من الثلاثينيات من القرن العشرين وما بعدها، درس العديد من علماء الأنثروبولوجيا جماعات العمل في المصانع الأمريكية والبريطانية. وكان هذا هو السبب في نشأة حركة "العلاقات الإنسانية"، والبدء في الأنثروبولوجيا التطبيقية، إضافة إلى الأنثروبولوجيا الصناعية أو التنظيمية. وأعطى هذا الحدث إشارة البدء لزوال المألوف أو الاعتيادي الذي يدرس فيه علماء الاجتماع مجتمعات الغرب الصناعية بينما يدرس علماء الأنثروبولوجيا المجتمعات غير الغربية.

ويثير إجراء الأبحاث الإثنوجرافية في مجتمع يُعتبر الباحث فيه جزءًا منه مشاكل معرفية وعملية تختلف عن تلك المشاكل التي تواجه عالم الأنثروبولوجيا التقليدي. إنّ تطبيق منهجية الإثنوجرافيا في دراسة الثقافات الغربية عن ثقافة الباحث مسألة تختلف كثيرًا عن إجراء أبحاث الإثنوجرافيا في هيئة أو منظمة ما (مدرسة، أو منظمة خدمة اجتماعية أو أعمال تجارية) تكون جزءًا من ثقافة الباحث الخاصة به. كان عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي كلارك ويسلار *Clark Wissler* يفهم هذا فهمًا جيدًا. وعند كتابة مقدمة كتاب "ميدلتاون في حالة الانتقال *Midletown transition*"، تلك الدراسة الشهيرة التي قدمها روبرت وهيلين ليند *Robert and Helen Lynd*، التي وصفها على أنها "محاولة رائدة للتعامل مع نموذج من مجتمع أمريكي بناء على طريقة الأنثروبولوجيا الاجتماعية (من خلال إجراء) أنثروبولوجيا اجتماعية للحياة المعاصرة" (*vi: 1937*)؛ أعلن كلارك في هذا الصدد أنّه:

> **مهما كانت نواقص الأنثروبولوجيا، فإنها تحقق قدرًا كبيرًا من الموضوعية، وذلك لأن المتخصصين في الأنثروبولوجيا "خوارج" بطبيعة الحال في عملهم. أن ندرس أنفسنا كما لو كان ذلك من خلال عيني غريب أو دخيل على جماعة، فتلك هي الصعوبة**

الأساسية الكبرى في العلوم الاجتماعية، وقد تكون مشكلة لا يمكن التغلب عليها (*vi: 1937*).

١-٨-١ ثلاثة اختلافات أساسية:

الاتجاه الطبيعي، واللغة، وأن تكون من السكان المحليين

يجد علماء الأنثروبولوجيا الذين يدرسون مجتمعات غير مجتمعاتهم أنّه من السهولة بمكان الإمساك بالصفات الأساسية لهذه المجتمعات وفهمها جيدًا. وبمجرد وصول هؤلاء المتخصصين المدينة أو القرية الأجنبية التي ينوون دراستها، تتولد أمامهم مجالات واسعة من الظواهر على نحو معرفي وإدراكي (لأنها مجالات جديدة للغاية) وتحتاج فقط أن يتم تسجيلها وتفسيرها. وكما كتب شوتز (*Schutz 1994*)، فإن هؤلاء يمكنهم استغلال المزية المعرفية للمهاجرين أو الوافدين، التي تتكون من القدرة على رؤية طبيعة تآلف وإجماع الذوات لأنماط السلوك والمعتقدات التي تكون طبيعية، وواضحة، ومُسلَّمًا بها جدلاً وعادية بالنسبة للمواطنين. وقد ترك شوتز (١٨٨٩ - ١٩٥٩) النمسا عام ١٩٣٩ تحت تهديد الاحتلال النازي واستقر في نيويورك. وهكذا كان قد اكتسب خبرة هذا الوضع المعرفي أو الإدراكي من مصدرها الأصلي مباشرة. ومع ذلك، وكما يؤكد كل من شوارتز وجاكوبس (*Schwartz and Jacobs (1979 - 251*، فإنّه في هذه الحالة "فإنّ الاتجاه الذي تخلقه حقيقة كون المرء غريبا - الإحساس بأنك على حافة مقعدك المعرفي الإدراكي - يمكن أن يتلاشى بسرعة مذهلة". وبدلاً من ذلك، يستطيع علماء الأنثروبولوجيا "الاحتفاظ باتجاهاتهم" حتى في الوقت الذي يكتسبون فيه المعرفة عن الثقافة الغريبة عليهم. وقد تكون تقنية التغريب (انظر ٩ - ٢) وسيلة للحفاظ على اتجاه المهاجر

أو الوافد أطول مدة ممكنة، والنتيجة استمرار الإثنوجرافي في الإحساس بالدهشة، فتكتسب المناظر والمشاهد الاجتماعية التي تبدو طبيعية وعادية له أو لها الغرابة والحداثة.

اللغة

واللغة وجه آخر يُفرّق من الناحية المنهجية بين عمل الإثنوجرافيين الذين يدرسون التنظيمات في مجتمعاتهم الخاصة بهم وعمل علماء الأنثروبولوجيا الذين يحللون المجتمعات الغريبة عنهم. وبينما يجب على علماء الأنثروبولوجيا أن يتعلموا لغة جديدة، فإن على الإثنوجرافيين أن يتعلموا *قواعد الرسائل الشفوية وتبليغ المعلومات*. ومع ذلك، فمن المفارقات أنّ معرفة لغة الشعوب تجعل الملاحظة أكثر تعقيدًا بكثير. لو استحوذ الباحث على نفس معرفة "أبنية أو أنماط الحياة اليومية"، وأنا هنا بهذا أستخدم تعبيرًا حبيبًا بالنسبة لأخصائيي الفلسفة الظاهراتية (الفينومينولوجية) فكما هو الحال لدى الفاعلين الاجتماعيين، هذا إذا سلمنا أنّه من خلال هذه المعرفة يمكنه أن يدرك ويعي، ويُقنّن أو يُشرّع، ويتحرى الأبنية الاجتماعية، فإنّ الباحث هنا يستخدم نفس الموارد (القوائم الاجتماعية الخاصة بآراء الناس العاديين المرسلة على البديهة التي تتضمنها اللغة المستخدمة العادية) كتلك التي يستخدمها المبحوثون الاجتماعيون الذين يتولى دراستهم (*Zimmerman and Pollner, 1970*). وإذا لم يتم دعم العملية المعرفية الدورية عن طريق ممارسة بحث انعكاسي (أو انتقادي للذات) على مستوى الموارد/ التقييدات المستخدمة لمعرفة الأشياء (انظر ٥ – ٥) فقد يُنتج هذا معرفة تغمرها أشياء مبتذلة (ومن هنا جاء لقب "علم الشعب" الذي يطبقه علماء الإثنوميثودولوجيا (منهجية الجماعة) بطريقة شاملة على العلوم الاجتماعية). وعلى النقيض من ذلك، تتضمن

دراسة المجتمعات الأجنبية والمخالفة من الناحية اللغوية لعلماء الأنثروبولوجيا مشاكل ميثودولوجية تخص العلاقة بين الإخباري (في الدراسات الميدانية) / المترجم وعلماء الأنثروبولوجيا. عندما كانت كريستينا جيوردانو ***Cristina Giordano*** عالمة الأنثروبولوجيا الإيطالية تقوم ببحث في بالوشيستان، وهي منطقة في شمال باكستان، أدركت بعد مدة قصيرة أنّ الشخص الذي يتولى إبلاغها بالأخبار في الدراسة الميدانية (وهو أخصائي اجتماعي يتحدث باللغة الإيرانية التي يستخدمها الناس في باكستان وأفغانستان، وكان يقوم أيضا بدور المترجم) كان يغير الأسئلة التي كانت عالمة الأنثروبولوجيا توجهها للمبحوثات. لم يكن التلاعب في الترجمة متعمدا، لكنّه كان نتيجة رغبة المترجم في أن يقدم عالمة الأنثروبولوجيا بطريقة متناغمة مع برامج التنمية الاجتماعية التي كانت سائدة في المنطقة في ذلك الوقت.

ما الفرد المحلي؟

وأخيرًا، تُقدم الدراسة الشهيرة التي قام بها كل من زيمارمان وبولنار (١٩٧٠) رأيا ثالثًا يتعلق بالفرق بين السكان المحليين والإثنوجرافي بوصفه عالمًا في مؤسسات ومعاهد في مجتمعه. وإذا افترضنا أنّ الإثنوجرافي عضو في المجتمع الذي يدرسه من عدة نواحٍ، يبدو أنّه من غير الملائم أن نصرّ على استخدام مصطلح "سكان محليين" على المبحوثين في دراسته. إنّ مصطلح "فرد محلي " ***native*** يعني "شخص يسكن في مكان مولده". ومع ذلك، فكثيرًا ما يحدث أن السيد براون، مثلاً، الذي يعمل في شركة للخدمات، أو السيد وايتي الذي يعمل مدرسًا في مدرسة ثانوية في إحدى الضواحي يعيش في نفس المدينة مثل الإثنوجرافي وربما يترددان على نفس الأماكن في أوقات فراغهما. وبالنسبة للإثنوجرافي الذي يعمل في بلده – حتى عندما يسافر لمناطق غير التي يعيش

فيها- فإنّ اللغة (على عكس حالة عالم الأنثروبولوجيا) تظل عنصرًا يشاركه فيه المبحوثون من السكان المحليين، وكذلك الحال مع الطعام، والملبس، والموسيقى، والتليفزيون، وبرامج الإذاعة، والصحافة. وحتى الثقافات الأجنبية والمغايرة بشكل أكبر بالنسبة لعالم الإثنوجرافيا الذي يرتكز عمله في وطنه - مثل المجتمعات الصينية، والباكستانية، والفلبينية في المملكة المتحدة - فهي جاليات ليست من مواطني الدولة، لكنها من المهاجرين الذين يخصصون جزءًا من أنشطتهم اليومية للتكامل مع ثقافة الإثنوجرافي. وتتضح الطبيعة غير المؤكدة والمشكوك فيها للحدود بين الإثنوجرافي والساكن المحلي عندما يقوم بالبحث في مجتمعنا. وهذا هو نفس الموقف مع الإثنوجرافي الهندي على سبيل المثال عندما يجري بحثه في الهند.

والإثنوجرافي الذي يدرس (أو تدرس) مجتمعه يُعتبر في نفس موقف عالم الأنثروبولوجيا التقليدي، ولكن فقط في تلك المناسبات النادرة عندما يجري بحثه في مجتمعات مغلقة جدًا يصعب الدخول إليها والتعامل معها بشكل خاص؛ مثال ذلك: جماعات إثنية (سلالية) معينة، أو طوائف أو جماعات تعمل في أنشطة محظورة وغير شرعية. وفي كل الحالات الأخرى، حتى وإن كانت الجاليات أو الجماعات التي تُجرى الدراسة عليها تُسمى سكان جزر شيتلاند شمال اسكتلندا ***Shetland Islanders***، أو جزر أوركني ***orkneyans*** أو مانكسمن ***Manxmen*** - وهي أسماء تبدو أنها مجلوبة ودخيلة تشبه أسماء الشعوب الأجنبية والغريبة الأخرى- فإنّ نماذج ملابسهم، وقيادتهم ووسائل المواصلات، وطرق طلبهم الطعام أو الشراب لا تختلف اختلافًا جذريًا عن نماذج وأنماط مجتمع الإثنوجرافي، على عكس تجربة ما يقوم به عالم الأنثروبولوجيا الذي يعمل في أرض أجنبية. من أجل هذه الأسباب، سوف أتجنب استخدام مصطلح "الفرد المحلي"، وسوف أفضل استخدام مصطلحين مناسبين أكثر منه وهما: "المبحوثون الاجتماعيون"، أو "المشاركون".

١-٩ ملاحظات ختامية

الإثنوجرافيا شكل خاص من أشكال المعرفة ينشأ ويتطور من خلال تقنيات محددة. وتعريف الإثنولوجيا أمر صعب دائمًا لأنّ، وكما سنرى في الباب التّالي، معانيها تتعدد بشكل متزايد. فهناك ثلاثة مصطلحات على الأقل تندمج مع الإثنوجرافيا في معانيها: "الملاحظة المشاركة" و"عمل ميداني أو دراسة ميدانية" و"دراسة الحالة، أو منهج دراسة الحالة". وأنا أقترح التفسير التّالي: إنّ تعبير "دراسة الحالة، أو منهج دراسة الحالة" يشير إلى إجراء بحث على نظام مُقيد في المكان والزمان ومُطوق بإحكام في نص أو سياق كلام ثقافي - اجتماعي مادي وملموس. وتتم إدارة البحث باستخدام مناهج بحث مُنوعة، ومصادر طرق وبيانات ومعلومات مثل الملاحظة المشاركة، والمقابلات، ومواد وأدوات سمعية بصرية، ووثائق، وما إلى ذلك (*Creswell, 1998: 61*). أما مصطلح "عمل ميداني أو دراسة ميدانية" فيؤكد على وجود الباحث الدائم في الميدان، كأمر يتعارض مع مناهج البحث التي تعتمد على مبدأ "اخطف واجري" مثل المسح الشامل، المقابلة المتعمقة، أو تحليل الوثائق والتسجيلات. وفي هذه الحالة أيضًا، يجوز استخدام طُرق ومناهج بحث مُنوعة. وأخيرًا، فإنّ "الملاحظة المشاركة" استراتيجية بحث مميزة. وربما تعامل الملاحظة المشاركة والعمل الميداني أو الدراسة الميدانية الملاحظة على أنّها مجرد تقنية، بينما يؤكد مصطلح "إثنوجرافيا" على الأساس النظري للعمل الذي ينشأ من تاريخ وتقاليد محددة. وبالتالي، لو كانت المصطلحات متكافئة ومتساوية في بعض معانيها من جانب، فإنّها تتضمن ممارسات مختلفة من جانب آخر.

ومع ذلك، فإذا كنت تريد الحصول على فكرة دقيقة أكثر، يمكنك مراجعة أربعة أعمال مُجمعة شاملة: بريمان (*Bryman 2001*) للإثنوجرافيا، وبول *Pole 2004*

للعمل الميداني، وماثيو (*Mathew 2005*) لدراسة الحالة، وهيوز وشاروك *Hughes and Sharrock 2008)* للملاحظة المشاركة.

النقاط الأساسية

- الملاحظة هي الأسلوب المعرفي المحوري والحيوي للإثنوجرافيا.
- تشمل مناهج البحث الإثنوجرافي استراتيجيتين للبحث: الملاحظة غير المشاركة والملاحظة المشاركة.
- يرجع تاريخ مولد منهجية الإثنوجرافيا عادة للفترة ما بين أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.
- كان المؤلفان اللذان ساهما أكثر من غيرهما في نشأة علم مناهج الإثنوجرافيا وتطوره هما: عالم الأنثروبولوجيا برونيسلو كاسبار مالينوفسكي (*Bronislaw Kaspar Malinowski (1884 - 1942* وألفريد ريجينولد رادكليف- براون (*Radcliffe-Brown (1881- 1955*
- إجراء أبحاث إثنوجرافية في الثقافات والمجتمعات التي ينتمي إليها الباحث أمر صعب على وجه الخصوص لأنّه "أو لأنها" يحتمل ألا يرى "أو ترى" (على وجه الدقة بسبب تعودهما) الأبنية الاجتماعية الأساسية التي ترتكز عليها هذه الثقافة أو ذلك المجتمع.
- من أجل هذا ينبغي أن تُستخدم الإثنوجرافيا بحذر ميثودولوجي خاص في مثل هذه الحالات.
- الهدف المعرفي الأساسي لعالم الإثنوجرافيا هو التخلي عن الاتجاه الطبيعي الذي يسلم جدلاً بأنّ التقاليد والأعراف الاجتماعية وأنماط السلوك اليومي المعتاد أمور طبيعية وواضحة.

- هذا الاتجاه الطبيعي يمنع عالم الإثنوجرافيا من رؤية التقاليد والأعراف الاجتماعية وأنماط السلوك الاجتماعي باعتبارها أنشطة يتم تنظيمها وهيكلتها بشكل مستمر من الناحيتين الاجتماعية والمترتبة على مواقف معينة.
- ويمكن التخلص من الاتجاه الطبيعي جزئيا باستخدام تقنيات التغريب. وهذه التقنيات تساعد الإثنوجرافي على الحفاظ على اتجاه الإنسان الغريب أطول مدة ممكنة، حتى يظل (أو تظل) مستمرًا في حالة الدهشة، ورؤية المشاهد الاجتماعية المعتادة في الأصل بالنسبة له على أنّها مشاهد غريبة وجديدة.

المصطلحات الأساسية

دراسة حالة

هي تعبير يشير إلى البحث عن بناء نظام محدد بالمكان والزمان. ويتم إدارة البحث باستخدام مناهج بحث متنوعة، ومصادر طرق وبيانات ومعلومات، ومقابلات، وأدوات ومواد سمعية بصرية، ووثائق... إلخ.

الإثنوجرافيا

الإثنوجرافيا منهجية في البحث تضفي مزية (الأسلوب المعرفي) للملاحظة باعتبارها المصدر الرئيسي للمعلومات الذي يستخدمه الإثنوجرافيون في الميدان: محادثات غير رسمية، ومقابلات فردية أو جماعية، وأدوات ومواد وثائقية (يوميات، ورسائل، ومقالات، ووثاق تنظيمية، وجرائد، وصور فوتوغرافية، ووسائل وأدوات سمعية وبصرية مساعدة). وتشمل الإثنوجرافيا إستراتيجيتين للبحث: الملاحظة غير المشاركة والملاحظة بالمشاركة.

العمل الميداني أو الدراسة الميدانية

مصطلح عام للدلالة على الوجود المستمر للباحث في الميدان، وهو مصطلح مضاد لمنهج البحث الذي يعتمد على طريقة "اخطف واجري" في البحث.

الملاحظة غير المشاركة

الملاحظة غير المشاركة استراتيجية يلاحظ الباحث من خلالها "المبحوثين عن بُعد" دون أن يتفاعل معهم. لا يهتم أولئك الذين يستخدمون هذه الإستراتيجية بالبحث والتحري عن المجال الرمزي ويأخذون الحذر فلا يتدخلون في أفعال المبحوثين حتى لا يؤثروا على تصرفاتهم وسلوكهم.

الملاحظة المشاركة

الملاحظة المشاركة إستراتيجية لها الملامح التالية:

- ينشئ الباحث علاقة مباشرة مع الفاعلين الاجتماعيين،
- البقاء والمكوث لفترة زمنية معينة
- في بيئتهم الطبيعية
- بغرض ملاحظة ووصف تصرفاتهم وسلوكهم
- بالتفاعل معهم وبمشاركتهم في الإجراءات التفصيلية الروتينية في حياتهم اليومية،
- معرفة مبادئهم (أو أجزاء منها على الأقل) من أجل فهم معنى ومغزى أفعالهم وتصرفاتهم.

توصية بقراءة

بالنسبة للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد:

Silverman, David (2006 a)

بالنسبة للخريجين:

Atkinson, Paul and Hammersley, Martyn (1994)

بالنسبة للمتميزين ممن يجرون البحوث:

Delamant, Sara (2004).

التمرين ١-٢

خذ مقالة أو دراسة مفردة أساسها بحث إثنوجرافي

أجب عن الأسئلة الآتية:

- هل تم استخدام الملاحظة المشاركة أو الملاحظة غير المشاركة؟
- في أي موقع تم استخدامها؟
- ما المدة التي قضاها الباحث في ذلك الموقع؟
- ماذا كان الغرض من الملاحظة؟
- ما أنواع السلوك (أمور روتينية، الإجراءات التفصيلية الروتينية اليومية) التي تم ملاحظتها؟

التمرين ١-٣

والآن عليك بتقييم الدراسة التي انتهيت من قراءتها حالا:

- هل تقدم أوصافا دقيقة وتفصيلية للأفعال الاجتماعية الروتينية؟

- ما الذي تعلمته (من الدراسة) وكنت لا تعرفه قبل ذلك؟
- هل وجدت قراءة الدراسة شيئًا ممتعًا أم مضجرًا ويبعث على الملل؟
- هل كانت دراسة مبنية على الملاحظة على وجه الحصر أم هل استخدم الباحث مصادر معلومات أخرى (مقابلات، وثائق، محادثات بين فاعليين اجتماعيين أو لقطات فيديو)؟

اختبار تقييم ذاتي

هل أعددت نفسك للباب التالي؟ راجع معلوماتك ومعرفتك بالإجابة عن الأسئلة التالية ذات النهايات المفتوحة:

١. ما الإثنوجرافيا؟

٢. ما الخصائص الرئيسية للملاحظة المشاركة؟

٣. ما المقصود بعبارة "مصدر ثانوي"؟

٤. ما "المصادر الثانوية" للإثنوجرافيا؟

٥. ما الفوارق الرئيسية بين استخدام طريقة الإثنوجرافيا في الأنثروبولوجيا وفي علم الاجتماع؟

هامش

١. يعكس هذا التعبير التعليم الذي تلقاه هذا الجيل الجديد من علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعيين، الذين كانوا علماء من خلال التدريب. كان مالينوفسكي *Malinowski*، على سبيل المثال، خريج فيزياء وكيمياء من جامعة لندن؛ وكان إليوت سميث *Eliot Smith* متخصصًا في علم الأحياء؛ وكان وليام إتش. آر ريفرز *(William H. R. Rivers 1864-1922)* طبيبًا وعالمًا نفسيًا.

الفصل الثاني

طريقة أم منهج بحث؟
تعيين موضع للإثنوجرافيا على الخريطة المنهجية

الأهداف التعليمية

- أن نفهم أنّ الإثنوجرافيا منهج من مناهج البحث (أسلوب في التفكير والعمل)، وليست مجرد تقنية.
- أن نتعلم تصنيفًا بديلاً لعلوم مناهج أنظمة البحث الاجتماعي، تجنبًا للمعارضة الكيفية/الكمية.
- تعيين موضع الإثنوجرافيا في مجال فن البحث الاجتماعي.

٢-١ مقدمة

يُعد تعريف أي مصطلح من الأمور الصعبة دائمًا لأنّ هناك الكثير من التعريفات، كما أنّ هناك وجهات نظر مختلفة. ويلاحظ كل من أتكينسون وهمرسلي *Atkinson and Hammersley* أنّ:

تعريف مصطلح الإثنوجرافيا كان ولا يزال موضع جدل وخلاف. فهو يشير بالنسبة للبعض إلى صيغة نموذج ملفي يلتزم به المرء التزامًا كاملاً، وبالنسبة لبعض آخر يرمز المصطلح إلى طريقة في البحث يستخدمها المرء بالشكل الملائم عندما يكون الوضع مناسبًا لذلك (*1994: 482*).

لكن الجدل والخلاف يمتد لما هو أكثر من ذلك. لقد أصبح المصطلح في الآونة الأخيرة يتضمن أيضًا ممارسات البحث التي قد يمكن أن يتضمنها عنوان رئيسي هو "الإثنوجرافيا". ومنذ الثمانينيات من القرن التاسع عشر(انظر ٤ – ١) حدث توسع في معنى الإثنوجرافيا إلى الحد الذي يجعله يشمل أشكالاً من البحث تختلف اختلافًا كبيرًا للغاية من وجهة نظر منهجية. كل شيء أصبح الآن إثنوجرافيًا: بدءًا من قصص الحياة وحتى تحليل الرسائل والاستبيانات، ومن السيرة الذاتية إلى التحليل الروائي، ومن بحث الأعمال إلى الأداء، ومن بحث ميداني يستمر أيامًا قليلة إلى بحث ميداني آخر يستمر عدة سنين. ومنذ بضع سنوات مضت، أشار جيمس لول ***James Lull*** إلى أنّ "ما يتداوله الناس على أنّه إثنوجرافيا في الدراسات الثقافية يفشل في تحقيق المتطلبات الأساسية لجمع البيانات والمعلومات وتسجيلها كالنموذج السائد في معظم الأبحاث الإثنوجرافية الاجتماعية والأبحاث الأنثروبولوجية. لقد أصبحت "الإثنوجرافيا (***1988: 242***) كلمة طنانة يُساء استخدامها في مجالنا". وقد عبّر ديفيد مورلي (***David Morley 1992: 186***) عن نفس الرأي.

وعلى النقيض من ذلك، يؤكد بيفرلي سكيجز ***Beverly Skeggs*** "أنّ الإثنوجرافيا النسوية تهدف إلى فهم العملية" (***2001: 427***). ومع ذلك، فحتى عالم الاجتماع الأمريكي جيمس إس كولمان ***James S. Coleman(1926 – 1995)*** وهو رائد في إنشاء النماذج الرياضية في علم الاجتماع، بكتابه "أسس النظرية الاجتماعية" (١٩٩٠) نجده يوافق على أنّ مهمة التحليل الشبكي (تقنية إحصائية) هي وصف العمليات والخطوات والإجراءات. ومن هنا فإنّ تعريف منهج البحث (في هذه الحالة إثنوجرافي) لا يمكن أن يُشتق من موضوع الدراسة (العمليات والخطوات والإجراءات). وينبغي أن يُعرّف منهج البحث طبقًا لممارسات البحث المحددة المعينة التي يشملها، وليس طبقًا لأهدافه المعرفية.

هذه هي الطريقة الوحيدة للخروج من هذا الوضع الفوضوي، إذ إنّ مصطلح إثنوجرافيا قد تم تذويبه ليصبح في بعض الأحيان حشدًا من معان متباينة ومتناقضة وأصبح مرادفًا لدراسات نوعية. وهذا بالتالي توسيع لمصطلح "إثنوجرافي" مما يحرمه من معناه الأصلي. ولكن لماذا ما زال الكثير من المؤلفين يصرون على تسمية الأبحاث التي تُدار بالمقابلات بالأبحاث "الإثنوجرافية"؟ هل أصبح مصطلح "مقابلة" بالفعل بغيضًا وكريهًا إلى النفس لهذه الدرجة بالنسبة لهم؟

يشك المرء فى أنّ مصطلح إثنوجرافيا أصبح لتوّه يتبع الطبقات الاجتماعية العليا لدرجة كبيرة؛ إنّه ما زال مصطلحًا معروفًا على نطاق ضيق لجزء كبير من مجتمع صانعي السياسة وأصحاب المهن، خاصة الأطباء والمحامين، وكذلك لأعضاء كثيرين من مجتمع الأكاديميين؛ وهو منهج بحث جديد نسبيًا وبسيط وممكن إفهامه للجمهور (مقارنة بالمقابلة والمسح المتنقلين من مكان وموضوع إلى آخر). وهو أيضًا مصطلح يثير كل ما هو دخيل وغريب، وملحمي وبطولي، حتى إنّ البعض يرى أنّ الإثنوجرافي نوع من الناس يشبه شخصية إنديانا جونز (انظر *Bryman,1988:8- 9*).

وسوف نرى الآن كيف يمكن وضع الإثنوجرافيا في بانوراما الأبحاث الاجتماعية المعاصرة بطريقة تظهر للعيان اختلافاتها ومميزاتها، وذلك فيما يتعلق بمناهج بحث أخرى. وإذا قمنا بذلك فإننا نقوم بعملية تصنيف.

٢-٢ عن التصنيف

تمييز بارث *Barth*

هناك نوعان من الناس: أولئك الذين يقسمون الناس إلى نوعين، وأولئك الذين لا يفعلون ذلك.

البُرجان التوأمان

إنّ تاريخ ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ تاريخ شهير بشكل مأساوي. اصطدمت طائرتان مخطوفتان بقلب البرجين التوأمين اللذين كانا يُحلقان فوق الأفق في نيويورك. وانهار البرجان عقب الحرائق والنيران التي سببها التصادم. وبعد ذلك بأيام قليلة، بدا نقاش في الدوائر العليا للسياسة وفي وسائل الإعلام: هل كان الهجوم "عملاً إرهابيًا" أم هل كان "عملاً حربيًا"؟ كان هذا قرارًا اسميًا صرفًا بالنسبة لكل المظاهر، أعني أنّ الكلمات تؤدي فيه دور بطاقات التمييز أو التعريف أو التوضيح. ومع ذلك فإنّ مشكلة الاسم أو المصطلح الذي نعطيه للحدث (الشيء الذي يعود إليه التعبير اللغوي) والمعنى (أو المفهوم) الذي ننسبه إليه كان أي شيء سوى أن يكون معنى عاديًا أو مبتذلاً. لم يكن تعريف الحدث تمرينًا فكريًا بسيطًا لكنّه كان له تضمينات محددة غاية في الأهمية. لو تم تعريف الحدث على أنّه "عمل حربي" لأن الولايات المتحدة عضو في الناتو "حلف شمال الأطلسي" (الذي تنص المادة ٥ من معاهدته على أنّ الهجوم المسلح على أي دولة وقعت على الحلف يجب أن يُعتبر هجومًا وقع عليهم جميعًا) فعلى الدول الأعضاء الأخرى، ومن بينهم إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا وإيطاليا، أن تذهب للحرب (كما فعلوا). وبدلاً من ذلك، لو تم تعريف الهجوم على أنّه "عمل إرهابي"، لكانت الولايات المتحدة وحدها هي التي تصرفت إزاءه. فارق ضخم هو إذن ونتائجه خطيرة ذلك الذي ينشأ بوصفه قرارًا بسيطًا حول أي اسم يُطلق على حدث ما. ولكن كان هناك ما هو أكثر شأنًا عما يتبع نتيجة تسمية الحدث. كان البرجان التوأمان مُؤمنًا عليهما، وكما نعلم، فإنّ التعويضات عن التلفيات تعتمد على نوع العقد المنصوص عليه، بالقواعد والبنود

المتعلقة به. وفي هذه الحالة، كان التأمين ضد الأعمال الإرهابية "فقط" وليس ضد "الأعمال الحربية". إذن فالطريقة التي تم تعريف الهجوم بها كانت ليا عواقب ونتائج عملية أيضا. الأسماء حقيقة ليست مجرد كلمات تؤدي دور بطاقات التمييز أو التعريف، فهي في حد ذاتها أشياء ليا وزنها.

هذا المثال المأساوي على فهم أهمية التصنيفات، في البحث الاجتماعي أيضا؛ فالبحث معنيّ ببانورما عريضة ومعقدة من الممارسات، وأعراف وعادات. وعلى الذين يسعون إلى تنظيم ذلك العدد الكبير من ممارسات البحث أن يضعوا في اعتبارهم أنّ أي محاولة لعمل ذلك تتضمن تصنيفًا بالضرورة.

وقد أظهرت النظريات النسقية أنّ الحقيقة (وبالتالي أيضا حقيقة طرق البحث) فوضوية ومضطربة. ونتيجة لهذا فهي ضبابية غامضة، ومُبهمة، وليس لها حدود ذات تعريف واضح. إنّ أي نوع من أنواع التصنيف ليس سوى محاولة فرض نظام ومعنى على حقيقة ليس لها معنى غير الذي يعطيه الملاحظ لها.

ومن هنا، فأي تصنيف (وبالتالي تصنيف البحث الاجتماعي إلى طرق وممارسات) هو نتيجة نشاط ذاتي وغير موضوعي (*Marradi, 1990*)، في محاولة عملية لعمل نظام معين. وهو بهذا الشكل شيء مفروض، وتحريف للحقيقة التي تكون دائمًا أكثر تعقيدًا عن تصنيفها. بمعنى آخر، يمكن أن نقول إنّ التصنيف يقيم الحقيقة.

على أي حال، نحن لا نقول هذا لندلل على أننا لنا الحرية لنقيّم الحقيقة كما نريدها أن تكون. فكي تصبح أوصافنا حقيقة، فلابد لها أن تكسب تأييدا جماعيا في مجتمعنا اللغوي، ويجب علينا القيام بعمل طويل الأمد ومستمر لإقناع مُحاورينا بصحة تصنيفاتنا. إنّ التصنيفات والمفاهيم ليست مسألة صواب أم خطأ، وهي

ليست موضوعية، وهي لا تقف في علاقة *مباشرة* مع الحقيقة. والأحرى أنّها أدوات تُوجّه وتساعد على اكتشاف الأشياء، تم اختراعها من أجل أغراض عملية لكل الأغـــراض العملية، هكذا يقول علماء الإثنوميثودولوجيا ***ethnomethdologists*** (أو منهجية الجماعة)، وهي يمكن في أحسن الأحوال أن تأمل في أن تكتسب تأييدًا شاملاً وتصبح سائدة في المحادثات العامة.

٢-٣ التصنيفات المعاصرة لطرق البحث

تم في الماضي اقتراح وتقديم تصنيفات متنوعة ومختلفة لطرق البحث (بعضها بديل لبعض آخر).

ويفرّق أقدم تصنيف - والذي ما زال أكثرها استخدامًا حتى الآن - بين الطرق الكيفية والطرق الكمية. وتؤسس الطرق الكيفية على أوصاف وتحليلات تفصيلية لحالات محددة؛ بينما تؤسس الطرق الكمية أوصافها وتفسيراتها على أرقام وإحصائيات. ومن الناحية التاريخية، نشأ الفرق بين هذه الطرق من التناقض بين الوضعية والهرمنيوطيقا، بين التفسير والفهم، بين *البحث الفردي* المعتمد على الكتابة بالحروف الرمزية "كالهيروغليفية مثلاً" (الذي يقوم به الباحث لاكتشاف حالة أو قضية واحدة) *والبحث التعميمي* "الاتجاه الاسمي في الفلسفة" (الذي يقوم به الباحث لاكتشاف قوانين اجتماعية)، بين طرق وضعية إيجابية وطرق تفسيرية. وقد تم الآن توهين وتخفيف هذه القضية المتناقضة "في الجدل" لتصبح تمييزًا توكيديًا بسيطًا بين *البحث الكيفي والبحث الكمي* الذي يؤكد على نواحي عملية (بحث) أكثر من نواحٍ نظرية ليس إلا (طرق).

وبعد ذلك بوقت ليس بقصير، حدث نقد شديد من جانب العديد من المؤلفين للتعارض التقليدي بين الكمي والكيفي باعتباره تعارضًا ضعيفًا ومصطنعًا. وهناك

من يؤكد أنّ ثمة اختراقًا وتغلغلاً مشتركًا ومستمرًا بين هذين النوعين من أنواع البحث، وأنّه ليس بالإمكان إيجاد اختلاف صارم بينهما، وأنّهما يتقاربان ويميلان إلى الالتقاء عند نقطة واحدة، ويتطابقان ويتداخلان عند نقاط متعددة. ولهذا هناك من يحث المهتمين بالأمر بشكل مستمر بأن يجدوا حلاً ومصالحة للتناقض الموجود بينهما. ومع ذلك، ينبغي أن نلاحظ أن الخلاف في الثقافة بين البحث الكيفي والبحث الكمي معترف به الآن أيضًا كجزء من عاداتنا وتقاليدنا: يوجد في الواقع مناهج دراسية جامعية تُعلّم الطلبة إما الطرق الكيفية أو الطرق الكمية.

ليس هناك شيء خطأ بشكل متأصل في أي تصنيف منهما، إذا ما سلمنا بأنّه مجرد أداة تُشجع الطالب على اكتشاف الأشياء بنفسه يتم بها البحث والتحري عن الظواهر الاجتماعية. بمعنى آخر، تُستخدم التصنيفات لإلقاء الضوء على الظواهر الاجتماعية، ولإظهار جوانبها ذات الأهمية للباحث.

ورغم ذلك، فهناك موطنان من مواطن الضعف لكل تصنيف منهما.

(١) كل منهما يُبسّط الحقيقة ويُقلل من التعقيد، (هكذا يقول أصحاب النظريات النسقية النظامية).

(٢) كل منهما يركز ويؤكد على بعض النواحي لظاهرة معينة بقصد استبعاد التصنيفات الأخرى.

وبعد أن وضعنا هذا التوضيح في الاعتبار دفعًا لسوء التفاهم، ندرس الآن تصنيفًا آخر من طرق البحث وهو: التصنيف الذي اقترحه مؤلف هذا الكتاب. وقد يسأل القارئ عند هذه النقطة ما إذا كان من الضروري حقيقة وجود تصنيف آخر. وأعتقد أنّ الإجابة هي: نعم، وهذا لأنّ التصنيفات المتاحة حاليًا تصنيفات تجريدية نظرية بشكل كبير، وتصور فقط، وبشكل ضعيف، الممارسات الفعلية للبحث الاجتماعي.

وهي لا تساعد على فهم القرارات التجريبية "المعتمدة على التجربة وحدها من غير اعتبار للعلم أو النظريات" التي لا بـد أن يأخذ بها الباحثون، ولا تساعد على المعرفة المفهومة ضمنًا التي يتخذونها أساسًا لاستنتاجاتهم وتفكيرهم، أو المعرفة المحلية التي يستغلونها ويستخدمونها في ممارسات أبحاثهم. والتصنيف الذي يقترحه المؤلف هنا له على وجه الدقة هدف تقديم تركيز أشد على الاستنتاجات والتفكير العملي وتصرفات وسلوك الباحثين كأفعال قائمة وكائنة.

ومع ذلك، فقبل أن أظهر تصنيفي وأعلن عنه، لابد أن أقدم تعريفًا لمصطلحين لهما أهمية بالغة لمعالجتي هذه، وهما: "مناهج البحث" و"الطريقة البحثية" (أو التقنية البحثية).

٢-٤ ما هو منهج البحث؟

هناك بعض من مناهج البحث وطرق متعددة في العلوم الاجتماعية. ويمكن تعريف منهج البحث (أو المنهجية) على أنّه أسلوب كوني عالمي للتفكير،"أي نهج عام لدراسة مواضيع البحث" ***(Silverman, 2000:77, 88)*** أو "إستراتيجية بحث شاملة" ***(Mason,1996: 19)***.

ويشمل منهج البحث العناصر الأربعة الأساسية التالية على الأقل:

(١) **أسلوب معرفي محوري** من بين الأساليب الكثيرة المتاحة لنا لاكتساب المعرفة (على سبيل المثال السمع، والمشاهدة والملاحظة، والقراءة، وطرح الأسئلة، والمحادثة).

(٢) **نظرية معرفة علمية**، أو مجموعة من الافتراضات المُسبقة حول طبيعة الحقيقة، ومهام العلم، ودور الباحث، ومفاهيم الفعل والفاعل الاجتماعي.

(٣) **نطاق الحلول**، والأدوات والوسائل والحيل المُستخدمة في أي مشكلة من مشاكل البحث.

(٤) **سلسلة متعاقبة** (تقريبًا) من الخطوات الإجرائية النظامية التي ينبغي أن تُتّبع بمجرد اختيار الأسلوب المعرفي.

دراسة حالة

العناصر الأربعة لمنهج البحث

يجري الآن دراسة كل عنصر من هذه العناصر بالتفصيل

١. **الأسلوب المعرفي**. يوجه إجراء كل تجميع للمعرفة أسلوب معرفي واحد على الأقل: فنحن نعرف ونتعلم عن طريق الاستماع والإنصات (للإذاعة على سبيل المثال)، أو المراقبة والمشاهدة (التلفاز على سبيل المثال)، أو القراءة (جريدة أو مجلة أو كتاب)، أو طرح سـؤال أو أكثر على أحد الأشخاص (شخص مقبوض عليه أو مشتبه فيه على سبيل المثال)، أو الحديث مع شخص ما، أو مع أنفسنا من خلال فحصنا لأفكارنا ودوافعنا ومشاعرنا. وقد دعّمت العلوم المعرفية بالوثائق أنّ حواسنا تتفاعل مع بعضها البعض بالطريقة التي تجعلنا نُحصّل معرفتنا وعلمنا عن طريق عمليات وإجراءات حواس متعددة. والأمثلة لذلك وفيرة وتتصل بخبرتنا اليومية. إنّ آذاننا "تنظر" عندما نقتنع ونحن في السينما أن صوت الممثل ينبعث من الشاشة، أو عندما يكون البديل هو مكبرات الصوت الموضوعة على طول جوانب قاعة العرض. ونحن "نفهم" بأيدينا مثل الطبيب عندما يفحص بيده جسد

(أو جعله أملس بفأرة النّجار) وأصبح ذا نعومة كافية، فالنجار يمسح السطح الذي عالجه بالفأرة بقطعة رقيقة من الورق، كي يستطيع أن يلحظ بحواسه أي خشونة من خلال صوت الكشط بالورقة. ونحن أيضا "نرى" بأيدينا كما في حالة الرسام الذي حُرم نعمة البصر ويستطيع الرسم باللمس: في الواقع أظهرت الدراسات الأخيرة أنّ القشرة أو الطبقة الخارجية البصرية يتم تنشيطها عند لمس شيء ما. والعيون قادرة على "الشم"، كما يعطي صانع الخمر المثل بذلك وهو يحكم على كثافة الخمر ليس فقط من نكيتها ولكن من لونها أيضا. في الحقيقة، تمكن بعض الباحثين من خداع براعم حواس تذوق خبراء صناعة الخمور، وذلك بصبغ الخمر الأبيض باللون الأحمر (*Pascuallone,et. al. 2005*). إنّ كل منهج بحث يقوده ويوجهه بشكل سائد (ولكن ليس بشكل حصري) أسلوب معرفي محدد.

٢. **نظريات المعرفة العلمية**. ومنهج البحث هو أيضا نتاج مفهوم معين محدد للعلم يتبناه مخترع ذلك المنهج المحدد. ويتكون هذا المفهوم من افتراضات فيما يخص نواحي معينة على أقل تقدير، وأعني بها:

(أ) **طبيعة الحقيقة**. ولتبسيط الموضوع نقول، قد نقول إنّ هناك بعض من يقومون بالأبحاث النظرية ممن يعتنقون فكرة نموذج ومجموعة الصيغ التجريبية الجديدة التي تعتمد على الملاحظة والتجريب؛ وهناك آخرون ممن يتبنّون نموذج نظرية الواقعية (على غرار بوبر ***Popper***)، وهناك آخرون أيضا ممن يصرون على منظور النزعة الاجتماعية البنائية (على غرار جلاسرزفيلد ***Glasersfeld***)؛ أو ممن يعتنقون منظور النظرية المرتبطة بوجهة نظر نظرية النزعة التصورية (على غرار لاتور ***Latour***)؛ لكن هناك باحثين آخرين يصفون أنفسهم أنّهم أصحاب نظرية نسبية (على غرار بلور ***Bloor***).

(ب) **مهام العلم.** وللتبسيط، مرة أخرى نقول: يعتقد بعض من يقومون بالأبحاث أنّ العلم ينبغي أن يتوقف عند وصف *وتفسير* الظواهر (الوضعية) أي عليه فقط أن يجد قوانين طبيعية راسخة؛ ويؤكد آخرون أنّ العلم عليه أيضًا أن يتدخل ليغير الظواهر التي يتم التحري عن صحتها؛ ويؤكد آخرون (مثل مدرسة فراكفورت)، ومدرسة التحليل النفسي وجورجين هابرماس بالحجة والبراهين أنّ مهمة العلم الرئيسية هي تحرير الجنس البشري.

(ج) **دور الباحث.** ويجادل البعض بأنّه لا ينبغي على الباحثين أن يفعلوا أي شيء سوى إجراء مسح للظواهر التي يلاحظونها وتسجيلها بموضوعية، وأنّهم مراقبون وملاحظون خارجيون (الوضعية الجديدة والوضعية): ويؤكد آخرون أنّ الباحثين يشاركون بهمة ونشاط (وإن يكن بغير دراية) في بناء الحقيقة التي يلاحظونها ويراقبونها: لذا فإنّهم "مشاركون في البناء" والمواضيع الداخلية (وليست الخارجية) للظاهرة التي يتم دراستها.

(د) **مفاهيم الفعل والأداء.** هناك ثلاثة مناظير مختلفة تؤخذ عن الفعل والأداء:

(١) النزعة الكلية المنهجية.

(٢) النزعة الفردية المنهجية .

(٣) النزعة الموقفية المنهجية.

النزعة الكلية المنهجية. تتعلق الكلية المنهجية بالنظريات التي تدير التحليلات الهيكلية للمجتمع على أساس وجهة نظر أصحاب "النزعة" الموضوعية للظواهر الاجتماعية (على سبيل المثال، الماركسية، والوظيفية البنائية لتالكوت

بارسونز *Talcott Parsons*، و"النزعة" الوظيفية لروبرت ك. ميرتون *Robertt K. Merton*، و"البنائية" لإميل دوركايم *Emile Durkheim* في علم الاجتماع، وكلودي ليفي ستروس *Claude Levi Strauss* في "الأنثروبولوجيا").

النزعة الفردية المنهجية. وبدلاً عن ذلك تأخذ الفردية المنهجية وجهة نظر أصحاب النظرية الذاتية (ماكس ويبر *Max Weber* وريموند بودون *Raymond Boudon*، وجون إلستر *John Elster*، والتفاعلية الرمزية لهربرت بلومر *Herbert Blumer*)، أو أحيانًا تجد حتى النظرية الذاتية (ألفريد شوتز *Alfred Schutz*). والنَسخ المعدّلة المعاصرة للفردية المنهجية هي مذهب المنفعة المبني على نظرية الفعل المبني على النزعة الاختيارية الطوعية الإرادية التي تتكشف في مفاهيم "المصلحة"، و"القصد والنية" و"التوجيه القيمي"، و"الرشد" و"الدافعية، التحرك أو الدافعية" والفلسفة الظاهراتية (الفينومينولوجيا) بمفاهيمها حول "الوعي" و"الحالات العقلية" وما إلى ذلك.

النزعة الموقفية المنهجية

وأخيرًا، تسعى *نظريات المواقف المنهجية (الإثنوميثودولوجيا*، وعلم الاجتماع المعرفي... إلخ) إلى أن تُركّب المنهجين الأولين المذكورين أعلاه وتجمع بينهما وذلك بتحويل العمليات والإجراءات العقلية للفلسفة الظاهراتية لأنشطة مشهدية تصويرية مبنية على سياق الموقف وتبحث وتتحرى عنها مستخدمة طرق أبحاث إثنوجرافية. وطبقًا لرانديل كولينز *Randail Coollins (1981)*، النزعة الموقفية المنهجية تتمثل في النزعة الإمبيريقية "المذهب التجريبي" العملية الجديدة التي تتبنى موقفا عقليا تجريبيا بشكل جذري أساسي أكثر مما يتبناه أي منهج اجتماعي سابق.

(هـ) مفاهيم الفاعل الاجتماعي. تعتبر بعض فروع المعرفة والدراسة والمناهج (مثال ذلك: النظرية المعرفية، وعلم الاقتصاديات الجزئية، ومذهب المنفعة الجديد... إلخ) أنّ الفاعل الاجتماعي موضوع عقلي ومنطقي، وتعتبره بعض الفروع الأخرى موضوعًا غير عقلي ولا منطقي وإنّما تدفعه العواطف والجسدية "الوجود الجسدي" (نظريات ما بعد الحداثة) مشروط بسياق الفعل والحركة (الإثنوميثودولوجيا).

٣. نطاق الحلول. يتكون العنصر الثالث من مناهج البحث من "الأساليب الخاصة بالمهنة" (Becker,1998a)، ومجموعة الإجراءات المُنشأة لغرض خاص (Schutz, 1962)، وهي أنواع من خدع وحيل لا توجد عادة في الكتب المقررة، لكنها جزء من خبرة الباحث ويتم استبدالها بشكل غير رسمي بين الزملاء، وأحيانًا يجري جعله أمرًا اجتماعيًا عامًا في الأبحاث أو المقالات الصحفية.

٤. خطوات إجرائية. وأخيرًا، فإنّ مناهج البحث أيضًا سلسلة متعاقبة (تقريبًا) من الخطوات الإجرائية النظامية (تخطيط للبحث، وأسئلة خاصة بالبحث، ومعاينات، شبكات إدارية لجمع البيانات والمعلومات، وتنظيم هذه البيانات والمعلومات، وتحليلها، وهلم جرا)، التي ينبغي أن تُوضع موضع التنفيذ بمجرد اختيار منهج البحث. وهذا العنصر الرابع هو المعنى الذي يُنسب عادة لمصطلح "مناهج البحث". ومع ذلك، ينبغي أن يكون واضحا الآن أنّ هذا واحد فقط من بين عناصر كثيرة تُشكّل منهج البحث.

من أجل هذا يمكن تعريف منهج البحث كطريق أو سبيل يختلف طبقًا للنمط المعرفي الذي يتبناه الباحث. ومن الواضح أنّه لا يمكن تقنين أي شيء في منهج البحث. ويحدث أحيانا أنّ تكون الحلول، والأدوات والوسائل، و"الخدع والحيل

الخاصة بالمهنة" والإجراءات المتاحة للباحث لا تكفي لحل مشكلة معينة – أو مشكلة جديدة تنشأ أثناء المُضي قُدمًا في خطوات البحث. لذا يجب على الباحث أن يخترع حلاً لذلك يتم ترسيخه لو حدث وتم قبوله فيما بعد من جانب المجتمع العلمي (أو جزء منه على الأقل) – ويصبح من الأصول والموجودات التجريدية أو التصورية والمادية لمنهج البحث الذي نحن بصدده.

٢-٤-١ وماذا عن الإثنوجرافيا؟

ينبغي أن يكون واضحا من المناقشة حتى هذه اللحظة أنّنا نختزل عندما نعرف المسح الشامل أو الإثنوجرافيا باعتبارهما طريقتين (بسيطتين) أو أدوات يختارها الباحث الكُفء طبقًا للمناسبة أو طبقا لمشكلة البحث الذي يتناوله. إنّ النمط الثابت الذي لا يتغير وبما ينبغي أن تمليه أسئلة البحث على الطريقة شيء بلا أرضية تجريبية لا تضع اعتبارًا للعلم أو النظريات في الواقع. ولو كان الحال بهذا الشكل، لتوقعنا أن نجد درجة كبيرة من قابلية التغيير المتبادل بين الطرائق التي يستخدمها الباحثون الاجتماعيون. لكن الحال ليس بهذا الشكل. في الحقيقة، فإنّ المسح، والإثنوجرافيا، و"المقابلة المتعمقة" التي تنتقل من موضوع إلى آخر، وما إلى ذلك، ليست طرائق. والأحرى أنها تنتمي لمفهوم النموذج أو الصيغ الذي شكّله توماس كون *Thomas Kuhn (1962)* لأول مرة. بمعنى آخر، إنّها مجموعة طرائق لرؤية (أشياء معرفية) ومجموعة طرائق لأداء أشياء (اجتماعية).

وطبقًا لما يقوله كون، إنّه على العالم (أو العالمة) أن يعتنق (أو تعتنق) صيغتين أو نموذجين على الأكثر خلال مسلكه أو مسلكها المهني: النموذج الذي تدرب عليه أو تدربت عليه؛ ولو قرر أن يغيره، يتحول بالتالي للنموذج الآخر. ومع ذلك، فإنّ غالبية العلماء يعملون في نطاق نموذج محدد واحد طوال مسارهم

المهني (وهم يفعلون ذلك أيضًا لكي يوفروا جهودا معرفية وعملية: فترك نظريات معتادة، وجمع البيانات والمعلومات، وتقنيات التحليل، وتعلم نماذج ونظريات جديدة أمور مكلفة للغاية). إنّ الصيغ والنماذج العلمية تشبه الديانات إلى حد ما: فالمؤمن يعتنق عادة ديانتين كحد أقصى طوال حياته أو حياتها.

إنّ اختيار منهج البحث (المسح الشامل بدلاً من الإثنوجرافيا) بالمثل ليس مجرد مسألة تقنية فنية؛ إنّه يعتمد أيضًا على الوضع النظري للباحث - الذي يتكون من العناصر المتعددة التي سبق أن قدمناها. وعندما نستنبط أو نستنتج منطقيًا من وجهة نظر محددة، فلا يخطر على بالنا مطلقًا أن نطرح أسئلة معينة.

وبالتالي، فمن أجل كل هذه الأسباب المعرفية والعملية يعتنق الباحث عادة منهج بحث واحدًا فقط طوال حياته المهنية. من أجل هذه الأسباب، فإنّي أؤكد بالدليل والحجة أنّ الإثنوجرافيا منهجية بحث وليست طريقة.

ما الطريقة البحثية؟

يمكن أن تكون الطريقة البحثية أداة، أو وسيلة فنية، أو عملية إجرائية محددة ومقنّنة وتُستخدم على نطاق واسع وتتضمن حلولاً تم استنباطها وتدبيرها عبر الوقت بشكل تراكمي بحيث تصبح أكثر دقة وإحكامًا. هناك تقنيات ووسائل فنية لجمع المعلومات أو لإنشاء وتنظيم البيانات؛ وهناك تقنيات ووسائل فنية لتحليل تلك المعلومات والبيانات.

ويمكن استخدام التقنيات من أجل جمع البيانات أو تحليلها بطرق بحثية متنوعة، مع أنّ كل طريقة منها تستخدم التقنيات لأغراض مختلفة (*Silverman 2000: 89*). وهناك حالة متطرفة وهي ما تسمى عادة "طريقة دلفي *the Delphi method* وفيها

تم جمع المعلومات أولا عن طريق إجراء مقابلات متعمقة، ثم عن طريق إجراء استبيان (*Dalkey and Helmer, 1963*).

ويمكننا الحصول على قدر أكثر وضوحًا من الفهم للعلاقة بين منهجية البحث والأداة البحثية بتقديم مناظرة بطريقة علاج فقدان الشهية (وأيضًا بعلاج الشره، وإدمان الكحوليات، أو حالات الإدمان بوجه عام).

هناك ثلاثة مناهج بحث رئيسية (أو مجموعات مبادئ أساسية) لعلاج فقدان الشهية:

(١) أولها أنّ فقدان الشهية *مشكلة تخص الفرد* الذي يعاني من فقدان مستمر للشهية، يصاحبه أحيانًا قرف واشمئزاز من الطعام. ولأن فقدان الشهية يعود إلى توعك داخلي في الصحة، فإنّ المنهجية هنا تكمن في العمل وفق سلوك الشخص المصاب بفقدان الشهية.

(٢) وثانيهما هو أنّ فقدان الشهية *مشكلة ارتباطية*، لذا فهي مشكلة داخلية مرتبطة بوضع المريض التفاعلي (الأسرة على نحو نموذجي). وتكمن المنهجية طبقًا لهذا في علاج العلاقة غير الصحية، والتصرف حيال التواصل المُشوّه بين حالة المريض فاقد الشهية وأعضاء أسرته أو أسرتها.

(٣) وأخيرًا، يمكن اعتبار فقدان الشهية مشكلة اجتماعية تُبتلى بها المجتمعات الغنية (هل هناك حالات كثيرة لفقدان الشهية فيما يُسمى "البلاد النامية"؟ أو كمشكلة جيل من الأجيال، بمعنى أنه ينتشر بشكل اجتماعي في فترة زمنية معينة (على سبيل المثال: في العالم الغربي منذ التسعينيات من القرن العشرين).

يظهر الجدول ٢- ١ أنّ هناك تقنية أو وسيلة فنية محددة مقابل كل منهجية (علاج أو طب نفسي في حالتنا هذه): هناك المقابلة الفردية لأولئك الذين يعتقدون أنّه من الأمور الجوهرية علاج الفرد (التحليل النفسي، والعلاج النفسي بالوسائل السيكولوجية، والطب النفسي أو العقلي)؛ وهناك *المقابلة مع الأسرة* لأولئك الذين يعتقدون أنّه من الأمور الجوهرية الحاسمة العمل بناء على العلاقات بين أعضاء الأسرة (العلاج النفسي للأسرة، وعلاج نفسي ارتباطي، ومنهج مُنظّم... إلخ)؛ وأخيرًا المقابلة الجماعية لأولئك الذين يعتبرون أنّ فقدان الشهية مشكلة جيل من الأجيال (علاج اجتماعي).

الجدول ٢-١ المنهجيات والطرق المستخدمة لعلاج فقدان الشهية

منهج البحث (فلسفة أساسية)	العلاج (النفسي) / الطريقة
مشكلة الفرد (تعامل مع الفرد)	مقابلة فردية
مشكلة ارتباطية	مقابلة مع الأسرة
مشكلة اجتماعية	
(تعامل مع الجماعة)	مقابلات مع جماعات

٢-٦ المنهجيات الرئيسية للعلوم الاجتماعية: تصنيف بديل

نستطيع بناء على مقدمات المصطلحات والمفاهيم التي ذكرناها أعلاه، تحديد ستة مناهج بحث (منهجيات) على الأقل مع أنماطها المعرفية النسبية.

فالأنواع المعرفية الستة الرئيسية لدراسة أي ظاهرة اجتماعية تتدرج فيما يلي:

(١) الاستماع.

(٢) طرح الأسئلة.

(٣) الملاحظة.

(٤) القراءة.

(٥) إجراء عمليات: بمعنى السعي لتغيير المبحوثين (وضعهم تحت الاختبار، وجعلهم يتفاعلون مع بعضهم البعض أو استثارتهم بغرض السيطرة على ردود أفعالهم).

(٦) استبطان أو تأمل ذاتي/ انعكاس وتفكير طويل.

تُشكّل هذه الأنماط المعرفية عائلة مناهج البحث. هذه مجموعة صغيرة إلى حد ما، لكنها تتعلق بنطاق واسع من تقنيات البحث (انظر الجدول ٢ - ٢).

إنّ الغرض الرئيسي من إجراء المقابلة (التفاعلية) الخطابية أو الاستطرادية "المتنقلة من موضوع إلى آخر" هو تمكين الباحث من سماع ما على الفاعلين الاجتماعيين أن يقولوه. والسمة المميزة لهذه المقابلة هي منح من تُجرى معه المقابلة مساحة كافية باستخدام كلماته أو كلماتها وبناء حديثه أو حديثها وفقًا لخطط ومخططات، والاستعارات، والألفاظ الشخصية التي يستعملها أي منهما في الكتابة. وفي هذا تقييد بشكل متطابق ومتواز للمساحة المتاحة للباحث الاجتماعي الذي يجري المقابلة والذي تكون مهمته تكييف أهداف البحث أو أهدافه المعرفية والخطوط الخارجية للمقابلة مع سياق الموقف ولحاجات الفاعل الخطابية. لذا قد يعكس الباحث الذي يجري المقابلة نظام طرح الأسئلة (لو كان هناك نظام لها)، أو يُغير من شكلها، أو يقرر عدم طرح بعضها. ويقرر البناء الخطابي (التفاعلي اللغوي) للمقابلة أيضا نوع التفاعل الذي يحدث فيها.

وفي منهجية المسح واستطلاع الرأي من طرح أسئلة على الشخص وعمل استبيان ويقرأ الباحث الذي يجري المقابلة على من تُجرى المقابلة معه سلسلة من الأسئلة (منبّهات ومثيرات) بترتيب ونظام محدد مصحوبة باختبارات مُوحّدة القياس. ويختار المبحوث إجابة عدد من بدائل ردود محددة يقدمها الاستبيان ذاته. لذا يعبر المبحوث عن أفكاره (أو أفكارها) من خلال قوائم يقترحها صاحب البحث. ويتولى الباحث الذي يجري المقابلة فقط تسجيل هذه الأفكار دون أي تعليق عليها، إذا سلّمنا أنّه (أو أنّها) يتّبع إجراءات موحدة القياس. وفي بعض الحالات (رغم ندرتها)، يستطيع من تُجرى معه (أو معها) المقابلة أن يرد بكلماته (أو كلماتها) الشخصية. وتحدد بنية المحادثة التي يصوغها الاستبيان نوعًا محددًا من تزامن أحداث تفاعلي يعتمد على تبادلات لفظية قصيرة.

الجدول ٢-٢ مناهج البحث الرئيسية وتقنيات البحث الاجتماعي

مناهج البحث	أساليب معرفية	أنماط البحث	بنية التجميع	تقنيات تجميع البيانات	تقنيات إدارة البيانات	تقنيات تحليل البيانات
المقابلة الخطابية (أو المتعمقة)	الاستماع	السيرة الذاتية	غير مقننة أو قليلة التقنين	مقابلة فردية متعمقة، قصصية، نهايتها مفتوحة، شبه مقننة، أبنية الأهمية، محورها مشكلة، مع المقابلة الواقعية المزدوجة أسئلة للسيطرة، مقابلة عائلية، بينة ثقافية، مقابلة إثنوجرافية) مقابلة جماعية (جماعة، بؤرة طريقة دلفي (delphi	تسجيل المقابلة أو وثيقة، وترميزها	تحليل قصصي تحليل الخطاب تحليل الموضوع استخلاص نظرية من البيانات.
المسح	طرح أسئلة	مسح واستطلاع رأي (أو اقتراع) تحفيزي للسوق	ذو بنية (أو مقنن)	استبيان • تقنية التحقق العشوائي	مصفوفة	اكتشافات الاختلافات في الاستجابات
الإثنوجرافيا الملاحظة		تأويلي	غير مقنن	ملاحظة بالمشاركة (مثلا: المشاركة في العبيد، والتسوق والصحبة)	مذكرة ميدانية	تحليل المذكرة الميدانية
				ملاحظة بدون مشاركة	شبكة إدارية	نظرية موثقة
		هندسي بشري	مقنن		مصفوفة	تحليل أحد العوامل
		نصي	جزئية التقنين	رسائل، يوميات، وثائق، صور (فوتوغرافية، فيديو) مشاريع صفية، نسخ صورة طبق الأصل	عملية ترميز	تحليل الموضوع تحليل قصصي تحليل محادثات
البحث الوثائقي		القراءة		مجموعة بيانات نصية كبيرة (جرائد ومجلات)	مصفوفة	تحليل محادثات فوكو Foucault، تحليل محادثات استخلاص نظرية
		أرشيف	مقننة	ملفات بنية قاعدة بيانات للتعداد والتسجيل الرسمي	مصفوفة	تحليل محادثات تحليل المحتوى استخلاص التباينات
بحث إجرائي تحويلي	إجرائية	بحث موجه بحث تدخل بحث مشاركة بحث تعاوني تحليل اجتماعي تحليل نفسي نظامي	قليل التقنين	مقابلة فردية مقابلة جماعية دراما اجتماعية الكاميرا الخفية دراسات توعوية مقابلة فردية مقابلة مزدوجة مقابلة عائلية	نسخ صور طبق الأصل/ تقنين مذكرة ميدانية مصفوفة شبكة إدارية	تحليل الموضوع تحليل المذكرة الميدانية تغاير وصف اجتماعي (سوسيوجرافيا) تحليل عرضي للأعراض
		تصميم تجريبي حاسوبي	ذو بنية	تجربة محاكاة الاختبار	تحليل فيكتور (القوى الموجهة مصفوفة)	تحليل عرضي
						تغاير في الاستجابات

مناهج البحث	أساليب معرفية	أنماط البحث	بنية التجمع	تقنيات تجميع البيانات	تقنيات إدارة البيانات	تقنيات تحليل البيانات
						وصف اجتماعي
البحث التأملي	استبطاني	فينومينولوجي	غير مقنن	خبرات فردية (تجارب فكرية، دراسات نوعوية النظر	ملاحظات شخصية جداول والعينة (متغيرات ثانية)	تحليل الفئة او الطبقة إثنوجرافيا ذاتية تحليل عرضي
	انعكاسي	مقارن	مقنن			المنطق الصوري استخراج المعدلات

يمكن أن تستغرق مناهج البحث المتعمقة والمسح معًا كل ممارسات البحث الاجتماعي تقريبًا. وهي تمثل أيضًا الاتجاهات والقيم والممارسات السائدة في الأبحاث الكيفية والكمية على التوالي(١) (ادخل على الرابط ***www.sagapub.co.uk/gobo*** للحصول على تفاصيل حول الجذور المنهجية والفلسفية للمسح والمقابلة التفاعلية).

ويرشد النموذج المعرفي "للقراءة" المنهجية الوثائقية. وعلى عكس المنهجيات الأخرى، يُبنى هذا المنهج على العمليات والإجراءات الخاصة بالمعلومات التي تم إنشاؤها أثناء أداء الناس لأوجه نشاطاتهم المعتادة، أو المتعلقة بالمؤسسات الخاصة والعامة، وليس أثناء إجراء المسح الذي يفرز نتائج علمية تامة وكاملة أكثر من غيره. ومن أمثلة المصادر الوثائقية: ملفات مكاتب التسجيل أو أي سجلات عامة أخرى، والجرائد، وبرامج التليفزيون، والمحادثات العادية، والإحصائيات التي تجمعها الشركات والنقابات لخطط أعمالها التجارية، وبيانات الإحصاء الرسمي الخاصة بها، والصور الفوتوغرافية التي تُجمع في ألبومات العائلة، والبرامج الرسمية للأحزاب السياسية... إلخ. ولا يفعل الباحث الاجتماعي شيئًا سوى اختيار المعلومات، ثم تكييفها لأغراض التحليل الذي يقدمه الباحث الاجتماعي أو الباحثة الاجتماعية.

ويستخدم الباحثون الاجتماعيون المنهجية التي تحدث حركة تغيير جذري لدراسة المواضيع عن طريق السيطرة والتحكم في حالات معينة والتعامل معها ببراعة (على سبيل المثال: مع التجارب والمحاكاة الصورية) أو بالحث على

إحداث تغييرات في تلك الحالات. وهكذا فإنّ هذه المنهجية توحّد بين جمع المعلومات ومقصد الفعل والحركة. في الحالة الأولى، يستخدم المكان الذي تحدث فيه الدراسة ببراعة وبشكل متعمد كي يفرز (أو للمساعدة على إفراز) تصرفات وأنواع سلوك يمكن جمعها وتحليلها فيما بعد. وفي الحالة الثانية يبدأ البحث من الدعوى بأنّ المعرفة والتدخل هما جزءان من العملية نفسها من هيكلة البنية المعرفية؛ ومن هنا فإنّ كل تحليل هو تدخل بالفعل، وكل تدخل هو تحليل أيضًا. هذه المنهجية تتشابه في تجميع تقنيات بيانات متعددة وتحليل بيانات مع منهجيات أخرى. لكنّه يستخدم أيضًا مناهج "فعالة وعملية" أخرى مُصمّمة لجعل الفاعلين الاجتماعيين يدركون مواقفهم حتى يُغروننا بتعديلها. ومن أمثلة ذلك المنهج التجريبي أو المناهج الاجتماعية النفسية (مثل "البحث التعاوني"، و"البحث بالمشاركة"، و"علم الفعل أو التنمية"، و"التشاور لاتخاذ إجراء"، "التمكين" و"بحث التدخل" وهناك أبحاث أخرى)، وقد يناسب هذا أن يوضع تحت عنوان رئيسي هو "البحث الموجه بالسياسة". ويعتمد هذا النوع من البحوث على الإجراء، فهو الأسلوب المعرفي المحوري في البحث الذي يحدث حركة تغيير جذري، بمعنى أنّ الباحثين يعملون كي يغيروا الخواص والصفات المميزة التي تحت البحث والتحقيق. على سبيل المثال، فهدف بحث التقييم هو إصدار حكم، وإصلاح البرامج التعليمية، ولمساعدة صانعي القرار على اتخاذ قرارات مدروسة، على عكس البحث الأساسي الذي يهدف إلى اكتساب المعرفة فقط.

وتُبنى مناهج الأبحاث *التأملية* على أساس *الاستبطان والتأمل الذاتي* (في حالة التحقيق الظاهراتي) أو على *الانعكاس* (المتصل بالعلاقات الرسمية المنطقية بين المتغيرات). وللتحقيق الظاهراتي جذوره في كتاب هوسيرل ***Husserl*** بعنوان "تأملات ديكارتية" (١٩٥٠) وكتاب ميرلو بونتي ***Merleau-Ponty*** "تجارب نظرية"، وكتاب تشوتز "تجارب الفكر" (١٩٦٢: ١٠٤ – ٩). ومع أنّ هذه الدراسات

دراسات تجريدية، فإنها كانت السبب في صدور دراسات أبحاث عملية واجتماعية متعددة مثل دراسات جارفينكل *Garfinkel* في علم النفس الاجتماعي المتعلقة بانقطاع العلاقات الودية (١٩٦٧: ٤٢-٨)، وهي عبارة عن محاولات لاكتشاف أسس الخبرات واكتشاف الذاتية: كيف نفهم وندرك (من خلال الحواس) الأشياء التي تحيط بنا؛ إنّها المعرفة الفطرية أو المبنية على حسن التقدير التي تنير لنا الطريق لنصدر حكمنا على مختلف الأمور، والافتراضات المُسبقة التي نبني عليها استنتاجاتنا. ويصف تشوتز هذا النوع من الاستقصاء والتحقيق كما يلي:

لا ينكر المتخصص في الظواهر الطبيعية وجود العالم الخارجي، لكنّه، ومن أجل أغراضه التحليلية، يعلق ويؤجل إيمانه بوجودها - بمعنى أنّه يُحجم متعمدًا وبشكل نظامي تصنيفي عن كل الأحكام المتعلقة بشكل مباشر أو غير مباشر بوجود العالم الخارجي. واستعار هوسيرل مصطلحات من التقنية الحسابية، وأطلق على هذه العملية اسم "وضع العالم بين قوسين"... الوسيلة الفنية لعلم الظواهر الطبيعية من أجل تأصيل طريقة ديكارت في الشك الفلسفي، وذلك من أجل تخطي الاتجاه الطبيعي للإنسان الذي يعيش في العالم الذي يقبل العيش فيه، فليكن حقيقة أو مجرد مظهر خارجي... والغرض من استخدام وسيلة فنية من هذا النوع هو الوصول فقط لمستوى من تأكد ثابت ولا سبيل للشك فيه يوجد فيما وراء الحقيقي من الأمور من مجرد الاعتقاد - بمعنى آخر، لكشف مجال الشعور والوعي الصرف (١٩٦٢: ١٠٤).

هذه الممارسات العقلية التأملية لا تعتمد على المقابلات، ولا على الإثنوجرافيا أو غيرها، فهي تتكون قصريًا من التحري والخوض في داخل النفس البشرية والمعرفة الشخصية.

إنّ *الانعكاس* الذي يقدمه راجين *Ragin* في كتابه "التحليل الكيفي المُقارن" (١٩٨٧) انعكاس مختلف بشكل عرفي مصطلحي، لكنّه أيضا انعكاس قريب

ومجانس بشكل جوهري فعلي، والكتاب أساسه تحليل حالات (راجين وبيكر،١٩٩٢)، وتُدرج خصائصه وصفاته المميزة في جداول حقائق ويتم تحليلها طبقًا لمنطق مصطلحي عرفي عارض. وهذا منهج بحث تُضفى عليه الصفة الرسمية يستخدم هياكل حساب التفاضل والتكامل التوكيدي الإسنادي والبياني اللفظي كبناء لجمله وعباراته. ونقطة البداية، من ناحية، علم الجبر الخاص بجورج بول (*George Boole (1815- 1864*، وهو الذي أعطى الصفة الرسمية للمنطق من خلال وسائل ربط خاصة (لذا سُميت وسائل بولينية)، ومن ناحية أخرى، هي طرائق ووسائل جون ستيوارت ميل (***John Stuart Mill 1872***) الذي طبّق "قوانينه الخمسة" لاختبار قضايا عرضية. والمفاهيم الرئيسية التي يستخدمها منهج البحث هذا هي "السبب / النتيجة،" و"إطلاق السبب أو إحداثه"، و"السبب البنائي"، و"الأسباب البسيطة والمُركّبة والمتعددة" و"الشرط الكافي" و"الشرط الضروري". وهناك مناهج أخرى في هذه القائمة، وهي: "التحليل الروائي المقارن"، و"تحليل تتابعي"، و"منهج تحليل بناء الحدث" وقد تم تطبيقها، رغم أنّها لأغراض ضرب أمثلة فقط، لكنها طُبقت من أجل بيانات إثنوجرافية أيضًا (***Corsaro and Heise , 1990***). ويُستخدم منهج البحث هذا على نطاق واسع في العلوم السياسية، عادة للمقارنة بين أشكال الحكومات (الديمقراطية، على سبيل المثال) في مئات البلاد، هذا إضافة لاستخدامه في العلوم الاجتماعية.

٢-٧ التعددية المنهجية

كما قلنا في بداية هذا الباب، إنّ كل تصنيف يلقي الضوء على بعض نواحي الحقيقة ويهمل نواحي أخرى. علاوة على ذلك، لا يمكن مطلقًا أن ننظم أو نرتب منهجيا حقيقة تجريبية لا تعتمد على العلم والنظريات في كونها تامة بكل تعقيداتها

وأوجهها التي لا تُحصى ولا تُعد ونجعلها تصنيفًا معينًا. إنّ التعريف يخدمنا من حيث إنّه يحدد القوائم ويجعلها محددة؛ فهي أوعية ذات علاقة بالمفاهيم أو مؤلفة منها. والتعاريف ليست أدوات حسابية، وليس المطلوب منها فهم وإدراك كل شيء وأي شيء؛ وكل ما علينا أن نقوم به هو تعيين الهوية ووصف وتصوير (خصائص كذا).

ومن هنا فإنّ التصنيفات التي اقترحناها لتونا لها عيوبها ونواقصها، أحدها على وجه الخصوص أنّها لا تدخل في اعتبارها أو حساباتها ممارسات البحث الذي يوضع له عناوين رئيسية باسم "استخدام ثلاث أدوات بحث" ***Web et. al., 1966***؛ ***Denzin, 1970***؛ ***Jick, 1979***؛ ***Miles and Huberman, 1984***)، و"التعددية المنهجية" (***Bell and Newby, 1977***) أو "الطرق المختلطة" (***Brannen, 1992***).

وطبقًا لتفسير هامرسلي (***Hammersley (1996***، حول الطرق التي يستخدم فيها الباحثون أنواعًا مختلفة من البيانات، تقارن ممارسات البحث هذه بين أنواع بيانات مختلفة (على سبيل المثال، الكيفية منها والكمية)، ومناهج بحث مختلفة (على سبيل المثال، الإثنوجرافيا والمسح الشامل). وهي تسعى إلى:

(١) توثيق وتعزيز مصادر البيانات بشكل يدل على علاقة متبادلة بينها ("استخدام ثلاث أدوات بحث") من أجل "تحديد بيان الأوضاع الحقيقية" "والكشف عن الصورة الكلية للظاهرة".

(٢) اكتساب فهم مبدئي حول موضوع ما بغرض تقديم المساعدة بتصميم مسح شامل (وظيفة أو وسيلة تسهيل مساعدة).

(٣) تحقيق أهداف بحث منوعة (على سبيل المثال، فهم عملية اجتماعية) وتوزيعه الإحصائي في السكان (التكامل "في مقابل التماثل").

ومع ذلك، حدث تعبير عن شكوك حول جدارة ومعقولية ممارسات هذه الأبحاث *(Hammersley and Atkinson, 1983: 199; Silverman, 1993: 156-8; 2000: 99;Fielding and Fielding, 1986; Mason, 1996: 27)*. ويؤكد هؤلاء المؤلفون أنّه لا يمكن جمع أنواع مختلفة من البيانات معًا بشكل غير مشكوك فيه ولا يسبب أي مشاكل، وهم يشكون ما إذا كان صحيحًا من الناحية المنهجية مقارنة البيانات التي تم جمعها بمثل تلك الأدوات والوسائل المتنوعة والأهداف المعرفية المختلفة.

وكما رأينا في الباب السابق، أظهرت دراسات متنوعة أنّ هناك اختلافًا مهمًا وواضحًا بين ما يقوله من تُجرى معهم المقابلات وسلوكياتهم التي يتم مراقبتها وملاحظتها. في هذه الحالة، هل كان ينبغي على الباحث أن يعتمد على المادة التي حصل عليها من المقابلات أم هل كان ينبغي عليه أن يعتمد على الإثنوجرافيا؟

٢-٧-١ قياس الحساب المقابل

أنا شخصيًا لا أنكر وجود أو جدوى هذه الممارسات، رغم أني أعتقد أنّ تعدد الطرائق (التقنيات أو الوسائل الفنية) أمر معقول ومقبول أكثر من مناهج البحث المختلطة. ومع ذلك أود أن ألفت النظر إلى أنّ هناك إرباكًا معينًا بخصوص ما يُشكّل بالفعل الطريقة الكميّة. القضية ليست بالضرورة أنّ الباحثين الذين يستخدمون إحصائيات رسمية أو التوزيع التكراري (إحصاء) لأحد المتغيرات في التحري والتحقيق الكيفي يخلطون الطرق التي يستخدمونها. ولا يكفي أن يكون البحث بحثًا كميًا لمجرد أنّه يتضمن أرقامًا. المطلوب أكثر من ذلك، لاسيما وجود طريقة خاصة للتفكير باستخدام الأرقام. في الواقع، إنّ الاختلاف الرئيسي بين الطريقة الكيفية والطريقة الكمية هو أنّ الطريقة الكمية تلتزم وتتقيد بقياس

النموذج أو الصيغة الكمية (التي أعطاها ستيفنز *Stevens* أخصائي القياس النفسي النزعة الرسمية عام ١٩٤٦). التي تؤكد أنّه بالإمكان *قياس* المعاني، بينما لا تشرع الطريقة الكيفية لقياس الأشياء، لكن أقصى ما تستطيع فعله هو السعي وراء عدّها.

فكر لحظة لماذا يُستخدم فعل "يقيس" للارتفاع، وليس للعمر. هل سمعت طوال عمرك عن "قياس" العمر أو قياس عدد الأطفال؟

من أجل هذا ينبغي على المرء ألا يخلط بين القياس والعد؛ وبالتالي بين *وحدات القياس* و*وحدات العد*. يختص *القياس* بالخصائص المستمرة للشيء: نعني أنها خصائص لا يوجد فيها "قفز" صريح وتام بين حالة ما وحالة أخرى، حتّى إنّه يصعب على المرء تمييز الفوارق بينهما. فالدخل، على سبيل المثال، ينتمي لهذه القائمة: لو أنّ شخصا يكسب ١,٢٦٤ دولار وشخصا آخر يكسب ١,٢٦٥ دولار، فليس هنـــاك "قفزة" واضحة بين الحالتين. لكن أن يكون لديك طفل واحد أو اثنان، فتلك مسألة أخرى. ورغم أنّ الرقم "١" هو الفارق في الحالتين فإننا نشعر أنّ هناك اختلافًا كبيرًا وملموسا بين الحالتين. وبالمثل فإنّه من الصعوبة بمكان تحري الدقة التامة في إنشاء "ارتفاع" شخص ما، أو "المسافة" بين شيئين. إنّنا نحتاج أداة (شريط القياس) حتى نؤدي العملية بدقة. لذا فما نعنيه بـــ "وحدة القياس" هو كمية قياسية للشيء الذي نملكه ونريد "قياسه". وقد تكون وحدة القياس أيضًا جمعًا حسابيًا لوحدات قياس أخرى (كيلومترات في الساعة، على سبيل المثال).

وبدلاً من ذلك، فإنّ العد يخص الصفات المنفردة المتميزة لشيء ما؛ تستطيع من خلالها أن تميز أوجه الخلاف بينها بسهولة نسبيا (دون استخدام أدوات محددة): على سبيل المثال: عدد أولاد شخص ما؛ أو عدد المرضى في غرفة الانتظار في عيادة طبيب؛ أو عدد المرات التي يذهب فيها شخص ما إلى السينما في الشهر. ويتم إجراء عمليات حسابية من هذا النوع بكثرة في الأبحاث الإثنوجرافية على

وجه الخصوص (انظر ١٢ – ٥) وفي الأبحاث الكيفية بوجه عام. لذا فإنّه من غير الملائم على الإطلاق اعتبار الصفات والخواص المميزة أشياء قابلة للقياس. وفيما يتصل بهذه النقطة، أكّد سيسوريل (*Cicourel 1964: 18 – 22*) منذ عدة عقود أنّه من الصعوبة بمكان أن تتكلم عن المقاييس في العلوم الاجتماعية، على عكس المفاهيم العامة للعلوم الطبيعية (كالفلك والجيولوجيا)، وأنّ قياسات العلوم الاجتماعية ليس لها تعريف مطابق أو موازٍ لها (سواء معجمي له علاقة بمفردات اللغة، أو مُعد للقيام بمهمة ما) وعليه إجماع عام في المجتمع العلمي. وبينما يُعتبر شريط القياس، وكفتا الميزان، والكرونومتر (أداة لقياس الزمن بدقة بالغة) بإجماع الآراء أشياء ضرورية للتعريف الوظيفي لعبارة "كمية الحركة"، فليس هناك أدوات مقبولة بإجماع الآراء يمكن أن نحصل بها على تعريف وظيفي لمفاهيم من أمثال "الديمقراطية" أو "الترشيد" أو "السلطة" أو "المشاركة السياسية".

٢ – ٨ ملاحظات ختامية

بناء على ذلك فمن الأهمية بمكان أن نتحاشى الارتباك والتشويش الذي كثيرًا ما نجده في كُتيبات مناهج البحث. أولاً، ليس من الصحيح أن نقول إنّ أحد الفوارق الرئيسية بين الأبحاث الكمية والأبحاث الكيفية هو أنهم، عندما يصفون الظواهر أو يفسرونها، فإنّ الأبحاث الأولى تستخدم أرقامًا بينما تستخدم الأبحاث الكيفية كلمات فقط. ثانيًا، لا تعني حقيقة أنّ البحث الكيفي يستخدم أرقامًا ويستخدم التبويب المزدوج أيضًا أنّه ليس هناك اختلاف واضح بين البحث الكمي والبحث الكيفي: في الواقع، إنّ العد ليس القياس ولا يشبهه في شيء.

وأخيرًا، أعتقد أنّ استخدام مناهج البحث المختلفة في مشروع بحث واحد لا يدل على أنها جميعًا لها نفس الأهمية. على سبيل المثال، في السنوات الأخيرة، أدار

العديد من الباحثين الاجتماعيين (كما سنرى في الفقرات ***6.4, 8.5 and 9.5***) إثنوجرافيا بصرية، وبهذا يكونون قد ربطوا الإثنوجرافيا التقليدية بأدوات جديدة للتوثيق البصري السمعي، كما استخدموا في بعض الحالات أيضًا أنظمة الوسائط المتعددة لنسخ الحديث المختزل عادة كتابة ونسخ عناصر تفاعل أخرى. ولدينا في هذه الحالة تكامل واندماج بين منهجي البحث: الإثنوجرافي والوثائقي. ومع ذلك، فإنّ انطباعي الخاص هو أنّه عند تفسير أي ظاهرة ودراستها، فإن منهج بحث واحد يسود على مناهج البحث الأخرى: هناك منهج بحث غالب ومهيمن يستخدمه الباحث بشكل أشمل أو أكثر كثافة، وهناك منهج بحث إضافي يدعم ويساعد المنهج السائد. إنّه منهج البحث المستخدم لاختبار أو لتوثيق فرضيات البحث الأساسي التي ينبغي، وأنا أؤكد على ذلك، أن تُعتبر ذات أهمية أكبر.

من أجل كل هذه الأسباب، أعتقد أن التصنيف الذي اقترحته تصنيف مرض أكثر من تلك التصنيفات التي تُستخدم بشكل تقليدي (وذلك برغم موطن الضعف فيـه والمتمثل في أنّه لا يضع في اعتباره التعددية المنهجية بشكل ملائم أو واف بالمراد.

النقاط الرئيسية

- منهج البحث أسلوب كوني للتفكير يُستخدم للبحث والاستقصاء حول موضوع من موضوعات البحث.
- يمكن تشبيه مفهوم منهج البحث بمفهوم "النموذج أو الصيغة": مجموعة من الطرق *لترى* (مدخل معرفي)
  ولتفعل (مدخل اجتماعي).
- والمنهجية أداة، أو تقنية أو إجراء أو أسلوب إجرائي محدد وله شفرته الخاصة التي تستخدم بكثرة، ويشتمل على حلول تم التخطيط لها بمرور الوقت بشكل تراكمي وموضوعي.

البيانات.

- ومناهج البحث الرئيسية في البحث الاجتماعي هي: المقابلة الخطابية (الاستطرادية أو التفاعلية)، والمسح الشامل، والإثنوجرافيا، والأفلام الوثائقية، والمناهج التحويلية، والمناهج التأملية.
- الإثنوجرافيا بالتالي ليست منهجا *"بسيطا"*، لكنها منهج عام.

المصطلحات الأساسية

التصنيف: تجميع الأعمال، والأشياء، والتوحدات في أنواع وطبقات. من وجهة نظر ثقافية، التصنيف ممارسة تجريبية تحكمية تفرض نظاما معينا وتعطي معنى للحقيقة إدراكا لها بلا أي معنى ذاتي بشكل مستقل عن الملاحظ.

المفهوم: هو فكرة، أو تصور عقلي. المفهوم هو معنى. علاوة على ذلك، المفهوم ليس جزءا من الحقيقة، لكنه جزء من المعتقد والخبرة.

العد: الإحصاء التصاعدي للأشياء (شيء يشير إليه تعبير لغوي) لتحديد كميتها. والعد إجراء يحدد قيما لخواص وصفات متميزة ومتفردة للشيء؛ خواص وصفات تستطيع من خلالها أن تميز أوجه الخلاف بينها بسهولة نسبيا (دون استخدام أدوات محددة) وذلك لتميز أوجه الخلاف بينها. والعد أساسه وحدة عد. والعد ليس القياس ولا يشبهه في شيء.

القياس: يحدث القياس عندما تكون الخصيصة التي تحددت كميتها مستمرة، وهناك وحدة قياس مرتبطة بها. من وجهة نظر عملية، تكون الخصيصة مستمرة عندما لا يحدث "قفز" بين حالة ما من حالتها وحالة أخرى، حتى إنه يصعب على المرء تمييز الفوارق بينهما. وحدة القياس كمية قياسية للخصيصة التي يجري قياسها.

منهج البحث: أسلوب كوني للتفكير، وهو نهج عام لدراسة موضوعات البحث أو إستراتيجية بحث شاملة.

ومنهج البحث له أربعة عناصر على الأقل:

(١) *أسلوب معرفي محوري*.

(٢) *نظرية معرفة علمية*.

(٣) *نطاق الحلول*، ووسائل علاج وحيل المهنة.

(٤) سلسلة متعاقبة (تقريبًا) من *الخطوات الإجرائية* النظامية.

الطريقة البحثية: أداة، أو وسيلة فنية، أو عملية إجرائية محددة ومقنّنة وتُستخدم على نطاق واسع وتتضمن حلولاً تم استنباطها وتدبيرها بمرور الوقت بشكل تراكمي أكثر إحكامًا. ثمة تقنيات ووسائل فنية لجمع المعلومات (لإنشاء وتنظيم البيانات)؛ وثمة تقنيات ووسائل فنية لتحليل تلك المعلومات والبيانات.

ويمكن استخدام التقنيات من أجل جمع البيانات أو تحليلها بمناهج بحث متنوعة، مع أنّ كل منهج منها يستخدم التقنيات لأغراض مختلفة وبطرق مختلفة.

المصطلح كلمة، تعبير لغوي.

توصية بقراءة

بالنسبة للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد:

Silverman, David (2006 b)

بالنسبة للخريجين:

Silverman, David (2005)

بالنسبة للمتميزين ممن يجرون البحوث:

Gobo, Giampietro *(يصدر قريبًا)*

التمرين ٢-١

انظر إلى أرفف كتبك أو اذهب للمكتبة العامة. اختر دراسة أو رسالة علمية أعني كتابًا يقدم نتائج البحث الإمبريقي (التجريبي) تتعلق بأي قطاع من قطاعات العلوم الاجتماعية.

اجب عن الأسئلة التالية:

- ما هو منهج البحث الذي استُخدم في إدارة البحث؟
- هل تم استخدام منهج بحث واحد، أم أكثر من واحد؟
- لو أنه تم استخدام أكثر من منهج بحث واحد، هل تم اختبار وتوثيق البراهين الرئيسية التي عرضها المؤلف من خلال مناهج البحث هذه؟
- ما المنهج الذي استخدم في جمع (المعلومات لبناء) البيانات؟
- ما هو المنهج الذي استخدم لتحليل البيانات؟

اختبار تقييم ذاتي

هل أنت مستعد للفصل التالي؟ راجع معلوماتك بالإجابة عن الأسئلة التالية ذات النهايات المفتوحة:

١. المنهج يتكون من أربعة عناصر. ما هي؟
٢. ما المناهج الرئيسية المستخدمة في العلوم الاجتماعية والعلم السياسي؟ ما الصيغة أو الأسلوب المعرفي الرئيسي؟
٣. ما المنهج الوثائقي؟
٤. ما المنهج التحويلي؟
٥. ما منهج المقابلة الخطابية الاستطرادية المتنقلة من موضوع لآخر؟
٦. ما المنهج التأملي؟
٧. ما منهج المسح الشامل؟
٨. ما الفرق الأساسي بين المنهج الكيفي والمنهج الكمّي؟

هامش

١. ما زالت مناهج البحث الأربعة الأخرى (التي نقدمها فيما بعد) مناهج هامشية، رغم أنّها تصبح شائعة أكثر بشكل متزايد، لاسيما في الإثنوجرافيا.

الفصل الثالث

منهج البحث الإثنوجرافي
مداخل وباحثون وأنماط من البحوث

الأهداف التعليمية

- فهم وإدراك فائدة إعادة البناء التاريخي لمنهجيات البحوث.
- تحديد تاريخ وإعادة بناء ظهور منهج البحث الإثنوجرافي.
- اكتساب معرفة ومعلومات حول المناهج الإثنوجرافية الرئيسية، وأوجه الاختلاف الرئيسية بينها.
- معرفة نقاط القوة ونقاط الضعف الرئيسية بها.
- التعرف على أساليب الإثنوجرافيا.

٣-١ مقدمة

قانون فيلسون *Felson's law*

أن تسرق أفكارًا من شخص واحد، فهذا انتحال للآراء؛ وأن تسرق من كثيرين فهذا هو البحث.

لماذا خصصنا بابًا عن تاريخ الإثنوجرافيا؟ هل هذا أمر ضروري حقًا؟ لقد أصبحنا متعودين رؤية التاريخ ودراسته كنوع من صالة عرض القطع الفنية الزيتية العتيقة. وعندما يوصف التاريخ بهذا الشكل، يكون هناك من ينصرف عنه باعتباره يبعث على الضجر؛ كأنّه فرع من فروع المعرفة تخرج منه رائحة الكرات الصغيرة المصنوعة من النفتالين لصيانة الملابس من العُث. ومع ذلك، فيمكن النظر للتاريخ من وجهة نظر مختلفة؛ يمكن أن يُترجم أو يُفسر على أنه محاولة "لتعديل طبيعة" مقولات عقولنا.

٣-١-١ فائدة النظرة التاريخية المُحدقة

دعني أفسر. نحن نُسلّم جدلاً بأشياء كثيرة؛ إننا مقتنعون أنّ لكل منّا نفسًا، و"هوية" و"شخصية فردية"؛ وأنّ "النوايا" و"الدوافع" هي التي تحث الجنس البشري على الحركة والنشاط؛ أو أنها تنتج من "أسباب"؛ وأنّه يوجد "ماض" و"حاضر" و"مستقبل". ورغم أنّ هذه الأشياء تبدو طبيعية وواضحة، فإنها ليست كذلك في الحقيقة الواقعة. لم يكن الإغريقيون والرومانيون القدماء، والكثير من المجتمعات غير الغربية يعرفون هذه المفاهيم، ولا حتى مفهوم "المستقبل". في الحقيقة، فقد ظهرت أفعال زمن المستقبل في وقت متأخر جدا عقب ظهور زمني الماضي والحاضر، فلم تكن للثقافة الإغريقية القديمة بين القرنين الثاني عشر والثامن قبل الميلاد - الثقافة التي وصفها هوميروس - ولو مفهوم موحّد عن "الجسد". لم يكن الإغريقيون القدماء يتصورون الجسد ويفهمونه كوحدة واحدة كاملة تدركها الحواس؛ بل كانوا يرون "فقط" "ذراعين" و"رقبة" و"رجل" و"قدم" و"صدر" ويصفون هذه الأجزاء كأشياء منفصلة. وكان لهم مصطلح يطلقونه على الجسد وهو "كروس" يشيرون به ليدلهم على "جلد وسطح بدني وصبغ أو خضب" المادة الملونة في

الأنسجة والخلايا؛ بينما كانوا يعنون بكلمة سوما ***soma*** "الجسد كجثمان"، أي جسد ميت، لا حياة فيه، بعد أن تركته الروح أو النفس (نفس الحياة)، و لم تُستخدم كلمة "سوما" مُطلقًا عند هوميروس لتشير إلى "كائنات حية" (***Snell, 1953: 7***) يمكن أن أستفيض في الموضوع، وعندها سيجد كل من يهمه الأمر أمثلة لا حصر لها في الدراسات حول الثقافات القديمة أو في علم الإنسان. ومع ذلك، فما أود أن أركز عليه هو أنّ النظرة التاريخية الشاملة تساعدنا على أن نتفهم أنّ المفاهيم أو المقولات العقلية التي تبدو لنا طبيعية هي في حقيقة الأمر من نتاج ثقافة معينة. إنّ التاريخ يُحصّننا ضد سذاجة نيتنا عندما نعتقد أنّ ما قيل من ٧٠ أو ٨٠ سنة أشياء حديثة ومديدة بالنسبة لنا (وهذا أمر مألوف بشكل متزايد بين الأخصائيين الاجتماعيين المعاصرين. إنّ إلمامنا بالتاريخ ينقذنا من أن نضطر إلى *إعادة اختراع العجلة* (بمعنى أن نعيد فعل شيء من البداية مرة أخرى، وبذلك نبذل مجهودًا لسنا بحاجة لأن نبذله "باستمرار، وأنا هنا أستخدم التعبير الإنجليزي الشائع في هذا المضمار.

إنّ إلقاء نظرة عامة على مولد منهج البحث الإثنوجرافي أمر مفيد لعدة أسباب. فهو يزودنا بفهم لطبيعة وروح الأوقات التي ظهرت فيها الإثنوجرافيا لأول مرة، والمشاكل التي تعاملت معها وقدمت حلولاً لها، والاتجاهات التي تحركت فيها. وهو يخدمنا أيضًا من حيث إنّه يجعلنا ندرك أهمية مناهج وتوجهات معاصرة متعددة تقدّم على أنها نظريات ومناهج بحث مبتكرة عرفها الناس منذ وقت قصير. وأخيرًا، فهذا يخدمنا من حيث إنّه يلقي الضوء على العلاقة بين النظرية الاجتماعية والإثنوجرافيا. وسوف أستعرض الآن –وفي ذهني هذا الهدف– التقاليد الفكرية التي صاغت الإثنوجرافيا لتصبح موردًا لاكتشاف أشياء فشلت مناهج أخرى في إدراكها وفهمها. ويتبع ذلك بالتالي مسح شامل للإسهامات والإضافات النظرية الأساسية التي صنعتها هذه التقاليد.

٣-١-٢ صنع منهج البحث الإثنوجرافي

على عكس ما قد يتصور المرء، ظهر منهج البحث الإثنوجرافي (كما نعرفه الآن) في علم الاجتماع في وقت متأخر إلى حد ما، وقد كان ذلك في السنوات الأولى من الأربعينيات من القرن العشرين - وبرغم الظهور الأول والحديث في نهاية العقد الأول من القرن العشرين، فإنّ المرء يمكنه أن يتحدث عن "منهج بحث إثنوجرافي" سليم وصحيح من بداية الأربعينيات وما بعدها. ومع ذلك، فقد كانت الإثنوجرافيا قد استُخدمت بالفعل في علم الإنسان في نهاية القرن التاسع عشر.

وقد استخدمت مناهج نظرية متعددة منهج البحث الإثنوجرافي بأشكال مختلفة ولأغراض مختلفة. وسوف أقدّم في هذا الفصل صورًا مختلفة لأهم هذه الأشكال وتلك الأغراض: مدرسة شيكاغو، والتفاعلية، النظرية المُوثقة (المؤسسة على شواهد واقعية)، (والبنائية)، والواقعية، والإثنوميثودولوجيا (منهجية الجماعة) أمّا في الفصل التالي فسوف أتحدث عن إثنوجرافيا الاستقبال، والدراسات النسوية، وما بعد الحداثة. واضح أنّ هذا ليس التصنيف الممكن الوحيد للتقاليد الإثنوجرافية في علم الاجتماع، لكنّه يتابع (تقريبًا) القصة بترتيبها الزمني.

٣-٢ فترة التقدم بحذر، وبناء الأسطورة بشكل عفوي:

مدرسة شيكاغو "الأولى"

كما سبق أن ذكرت، ظهر منهج البحث الإثنوجرافي لأول مرة في نهاية القرن التاسع عشر على يد معلمين ومقدمي أبحاث في قسم علم الاجتماع بجامعة شيكاغو. بدأ البحث الإمبيريقي في هذا القسم تحت إرشاد وتوجيه عالمي الاجتماع وليام إسحاق توماس *William Isaac Thomas (1863-1947)* وروبرت إزرا بارك

Ezra Park (1864 -1944)*. كان روبرت قد بدأ حياته العملية في الصحافة، لكنّه في عام ١٩١٤ ترك المهنة وقبل التعيين كمدير لقسم علم الاجتماع في جامعة شيكاغو. ولأنّ بارك وتوماس كانا عالمين وباحثين ذوي قدرة عملية قوية، كانا يوليان اهتمامًا كبيرًا للتغيرات التي كانت تحدث في مدينتهما. وكانت شيكاغو في ذلك الوقت هي بالفعل عاصمة ولاية إلينوى الأمريكية، وكانت تعاني نتيجة لذلك من مشاكل اجتماعية ومشاكل أخرى تعاني منها المدن بكثرة. كانت تلك هي فترة التحريم، والجريمة العنيفة الجامحة، وما تلا ذلك في فترة الكساد الاقتصادي العظيم[١] ففي الثلاثينيات من القرن العشرين، كانت شيكاغو قد امتدت مساحتها وتوسعت بشكل ضخم عقب نموها وتطورها السريع في النصف الثاني من القرن العشرين. ومن بين العوامل التي أدت لهذا النمو الطاغي ذلك التدفق الضخم للمهاجرين القادمين من ألمانيا، وروسيا، وأيرلندا، وبولندا، وإيطاليا والسويد. لذا كان من الطبيعي أن ترتكز اهتمامات أبحاث بارك وتوماس على مدينتهما العصرية العظيمة وعلى تكامل واندماج من هاجروا إليها. وكان بارك على وجه الخصوص يعتقد أنّه على علماء الاجتماع أن يهتموا بمشاكل الخلل الحضري؛ وأكد أنه لا ينبغي ترك مثل هذه الأمور لكتاب الروايات المهتمين بالشئون الاجتماعية مثل الكاتب الفرنسي إيميلي زولا ***Emile Zola***.

كان قسم علم الاجتماع بجامعة شيكاغو غير راض بالمرة عن البيانات الإحصائية التي قدمها المسح الشامل الذي كُلِفت وكالات حكومية بالقيام به. أولاً، لم تقدم البيانات إلا وصفًا سطحيًا للظواهر، وفشلت في الإلمام بتعقدها؛ ثانيًا، لم تغط نواحي معينة في غاية الضرورة لإدراك فهم كامل لحياه المدينة. ونتيجة لذلك، وتحت قيادة بارك، بدأ برنامج بحث بعيد المدى بهدف تم تحديده وهو دراسة "الظواهر الحضرية" بشكل مباشر في مواقعها المحددة والمعتادة. وقام بارك بدفع طلابه وحثهم على هذا النحو:

لقد طُلب منكم أن تكدحوا وتنقّبوا في المكتبة، وأن تُجمّعوا من هناك كمية هائلة من المذكرات والتفسيرات الموجزة. وطُلب منكم أن تختاروا المشاكل حيثما يمكنكم أن تجدوا أكوامًا عفنة مُكدّسة من البيانات والتسجيلات الروتينية مبنية على مقولات وبرامج تافهة أعدّها بيروقراطيون مرهقون وملأ بياناتها طلاب وظيفة غير راغبين فيها طلبا للمعــونـــة أو المصلحون الحمقى أو الكتبة الذين لا يبالون في عملهم. هذا يُسمى "أن تشغل نفسك بكل تفاصيل البحث الحقيقي". أولئك الذين ينصحونك ويقدمون لك المشورة حكماء وأمناء؛ والأسباب التي يقدمونها لها قيمة عظيمة. لكنّ هناك حاجة ماسة لشيء آخر وهو: الملاحظة المباشرة. اذهب واجلس في ردهات وقاعات الانتظار في الفنادق المزودة بأسباب الترف، وعلى درجات أبواب الفنادق الرخيصة؛ واجلس على أرائك "الساحل الذهبي" وعلى أسرة في حي الفقراء؛ اجلس في "قاعة الأوركسترا" وفي "مسرح بيرليسك، النجم والوسام". باختصار، أيها السادة، اذهبوا ووسخوا مقاعد بنطلوناتكم في البحث الحقيقي (مذكرة شخصية كتبها أحد طلبة بارك وكُتب عنها تقرير في بالمر *Bulmer.1984: 97*).

لو طهرنا توصيات بارك من روح التمييز على أساس الذكورة والأنوثة، ونقص الإشارة للطالبات، فإن نصائحه تظل لها قيمتها حتى اليوم.

٣-٢-١ النتائج

وهكذا شرع أخصائيو الأبحاث والطلبة في إعداد وتكوين خرائط موجهة نحو الحاجات والمشكلات الاجتماعية الخاصة بمدينتهم. وفعلوا ذلك بالذهاب إلى

المناطق المجاورة للمدينة وجمعهم لمعلومات مباشرة حول جماعاتهم الإثنية وطبقاتهم الاجتماعية. وكان نهجهم يُطلق عليه نهج "بيئي (نسبة للبيئة)" من حيث إنّه كان يسعى للحصول على العلاقات التي تربط بين البيئة (مظاهرها الجغرافية والمكانية) والبنية الاجتماعية. كان هذا نوعا من الإثنولوجيا البشرية التي حاولت جاهدة أن تؤكد أنّ مورفولوجيا المناطق الحضرية (أنهار، وطرق رئيسية، وجسور، وسكك حديدية) تقسم المدينة إلى مناطق معزولة عن بعضها نسبيا، كل منطقة لها بنيتها الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بها (تُسمى "مناطق طبيعية"). هذا الإجراء يبدو الآن عاديا وواضحا، لكنه كان يعتبر ثمرة كاملة في ذلك الوقت. لقد مكّن نهج بارك هذا الباحثين التابعين له أن يظهروا أنّ الظواهر التي تبدو فوضوية كانت تعرض أنماطًا منتظمة عندما كانت تُدرس بعناية: كانت معدلات الانتحار عالية في شيكاغو في المناطق التي كان الناس يعيشون فيها في غرف مُؤثثة؛ وكانت الجرائم تحدث في مناطق معينة من المدينة (أسماها فريدريك إم. ثراشار *Frederic M. Thrasher* "مناطق جناح أو انحراف")؛ وكذلك كانت تحدث الدعارة والأمراض العقلية. وكان انحراف الأحداث ونشاط العصابات طابع مناطق مجاورة معينة، بينما كانت الأقليات الإثنية توجد في مناطق معينة أخرى في المدينة. كانت الصور الوصفية والخرائط مُقدّمة بالتفصيل الشديد، واستغرق العمل البحثي للحصول عليها عدة سنوات من العمل الميداني (رغم حدوث بعض التجاوزات).

حاول بارك وزملاؤه إعادة بناء البروفيل أو الصور الجانبية الخاصة بالحاجات والمشكلات الاجتماعية والأبعاد الكمّية (من خلال إجراء عد) للسكان الذين كانوا يعيشون في فنادق، وغرف مُؤثثة (مفروشة)، وشقق مُؤجرة، وفي منازلهم الخاصة أو في الشارع. وجمعوا المعلومات أيضًا (التي لم تكن موجودة تماما في ذلك الوقت تقريبا) عن مهن السكان: لاسيما عن فتيات المتجر، أو رجال الشرطة، أو الباعة المتجولين، وسائقي السيارات الأجرة، والحراس الليليين،

وممثلي الفودفيل أو المسرحيات الهزلية، وما كانوا يفعلونه في أعمالهم اليومية المعتادة (*Madge,1962:90*). وهكذا نشأ علم اجتماع المهن. ووصفت هذه الدراسات التغييرات التي كانت تسري في ذلك الوقت في قلب مدينة شيكاغو (والمجتمع الأمريكي) برمته، والانحلال والتفكك الاجتماعي الذي تسببت فيه: وكان من بين الأمثلة على ذلك الاستبدال المستفحل لبيوت الضيافة - التي لا تزال تعيد شعائر الحياة الأسرية للوجود، وإن كان بشكل ضعيف - بغرف مؤثثة (مفروشة). وزادت تلك التحولات بشدة من انهيار الروابط الأسرية والمبادئ الثقافية، وخلفت وراءها حالة لا معيارية، وفقدان الشخصية أو الطابع الشخصي والسعي وراء التجارة بغية الربح الزائد في العلاقات الاجتماعية: مواضيع تمت الإشارة إليها قبل ذلك بثلاثين سنة عن طريق عالم الاجتماع الألماني جورج سيميل ***George Simmel*** وكان بارك *Park* أحد طلابه في ألمانيا من قبل.

٣-٢-٢ النقد

كانت طرق البحث التي استخدمها معظم أعضاء مدرسة شيكاغو طرقًا بدائية إلى حد كبير، فيما عدا بعض الباحثين المُدققين والنظاميين من أمثال فريدريك إم ثراشار وكليفورد شو ***Frederic M. Thrasher and Clifford Shaw*** وكما تتذكر مادجي قائلة، "تُرك الاهتمام بالمنهج بشكل كبير لمبادرة كل باحث علمي على حدة" (*1962: 117*)، وذلك لأن "الحقيقة الدائمة والثابتة هي أنّه يتوحد مع اهتمامه وليس مع مناهجه" (ص ١٢٥)، تلك التي كانت تحظى دائما باهتمام ثانوي. وكانت الملاحظة المشاركة لا تُعطى أهمية من نوع خاص، لكونها مجرد طريقة واحدة من بين طرق كثيرة كانت تستخدمها مدرسة شيكاغو. حقيقة، وعندما نتحدث بشكل صارم ودقيق، لا يمكن أن نطلق على طرق ومناهج مدرسة شيكاغو

أنّها كانت طرقًا "إثنوجرافية"؛ وحتى أعضاؤها أنفسهم استخدموا مصطلحي *إثنوجرافيا*" و"*الملاحظة بالمشاركة*" بوضوح بعد الأربعينيات من القرن العشرين[٢]. ولذلك فإنّ ما سماه المؤلفون منذ الستينيات "إثنوجرافيا" بشكل استرجاعي (وبذلك خلقوا أسطورة – انظر **Hammersley,1989 Platt, 1983;**)؛ لم يكن سوى شكل عام من البحث الكيفي. ولو بأي درجة كانت، قدم باحثو شيكاغو دراسات حالة[٣] (**Platt,1983,1992; Hammersley,1989**)؛ وقُدمت دراسات في حقل ضيق من حقول المعرفة مستخدمة خليطًا من مناهج أبحاث وطرق منها على سبيل المثال:

- استخدام إخباريين في الدراسات الميدانية (أخصائيون اجتماعيون، وضباط شرطة، ورجال سياسة، وبوّابو فنادق، وملاك أراضٍ، وأصحاب فنادق).
- ملاحظة مباشرة (الملاحظة المشاركة والزيارات في البيوت).
- تحليل الوثائق والمستندات الأساسية (خطابات، ومقالات ورسائل مدرسية).
- تحليل وثائق ومستندات ثانوية (مقالات صحفية، سجلات ومحفوظات رسمية، بيانات إحصاء رسمي للسكان، سجلات ومحفوظات رسمية حول منظمات وجمعيات خيرية وأخرى مدعومة بمساعدات مالية، تقارير أخصائيين اجتماعيين، وثائق فيدرالية عن الجريمة، سجلات محاكم، وسجلات في عيادات أطباء).

لكن لم تكن التعددية الميثودولوجية الملحوظة لمدرسة شيكاغو نتيجة اختيار متعمد، وهي بذلك تختلف عمّا يُسمى الآن، على سبيل المثال، براثن "المنهجيات المختلطة" (انظر ٢ – ٧). لقد كانت الملاحظة إحدى الطرائق أو المناهج التي سماها شيلدون ميسينجر (**Sheldon Messinger (1925- 2002**، أخصائي علم

الإجرام "تصيد (أو تشمم) الأخبار" أي البحث والتحري بفضول انتظارا لانتهاز الفرص المواتية لذلك، (انظر: *Lofland, 1980: 4*) والتي لم تكن تهتم بالمشاكل الميثودولوجية - مثل سهولة الدخول للمجال، أخلاقيات البحث "أي إجراؤه بأمانة واحتواؤه على أفضل المعلومات التي حصل عليها الباحث"، ونسبية وجهات نظر الإخباريين "في الدراسات الميدانية" - التي أصبحت لها أهمية ولكن بعد ذلك بفترة طويلة. وأخيرًا فرغم أنّ الدراسات في حقل ضيق من حقول المعرفة التي قامت بها مدرسة شيكاغو كانت دراسات تجريبية مُوثّقة ومؤكدة ومستندة إلى تجارب واقعية، فإنها كان يشوبها نوعان من أنواع التقصير المنهجي الخطير (*Sacks,1992: 254*): (١) قُدّمت البيانات بطريقة جعلت القارئ لا يمكنه تكرار التحليل؛ و(٢) كانت البيانات مبنية بإفراط على (ولم تقدم قرائن كافية) روايات وتصنيفات الإخباريين، فكان من المستحيل نتيجة لذلك تقديم تحليلات مستقلة تحظى بقدر أكبر من الأهمية (للحصول على تفاصيل عن تحليل كريسي المنهجي، وهو عضو مهم في "بدايات" مدرسة شيكاغو، اذهب إلى الرابط <u>***www.sagepub.co.uk/gobo***</u>).

٣-٣ مأسسة الإثنوجرافيا

مدرسة شيكاغو "الثانية"

خلال الثلاثينيات من القرن العشرين، التحق بكلية علم النفس بشيكاغو أعضاء هيئة تدريس جدد، من بينهم لويس ويرث (*Louis Wirth (1897-1952*، وهربرت بلومار ولويد دبليو. وارنر *Herbert Blumer and Lloyd W. Warner* *(1898-1970)*، وإيفريت سي. هيوز *Evertt C. Hughes*. ومن بين أشياء أخرى كان هؤلاء العلماء يتميزون بعلم وإدراك منهجي عظيمين كان ليما تأثير قوي على طلابهم وأتباعهم (من أشهرهم وليام إف. وايت، *William F. Whyte* وهوارد بيكر

Howard Becker، وبلانش جير ***Blanche Geer***، وأنسلم ستراوس ***Anselm Strauss***، وميلفي دالتون ***Melville Dalton***، وإيرفنج جوفمان ***Erving Goffman***، وفريد ديفيز ***Fred Davis***، وروسالي واكس ***Rosalie Wax***) الذين أصدروا – عقب الحرب العالمية الثانية – سلسلة من الدراسات التي أحدثت ثورة في نظريات الانحراف، والتعليم، والعمل. وفي تلك الفترة أيضًا، أصبح البحث الإثنوجرافي تأسيسيًا (له طابعه المؤسسي) بعد أن أصبح يُدرّس للطلبة ويوصف ويُفسر في مقالات، ويخضع للتفكير والدراسة المنهجية، وأصبح في النهاية مُدوّنًا بقانون في الكتب المقررة (في الستينيات).

وقد خرج منهج البحث الإثنوجرافي إلى الوجود إلى حد كبير، كما نعرفه اليوم، من خلال عمل هيوز ***Hughes (1897-1983)***. لقد اشتغل هيوز في كندا بعد أن حصل على الدكتوراه تحت إشراف بارك ***Park***، وفي عام ١٩٣٨، عاد لشيكاغو ليشغل وظيفة يدرس فيها خصيصًا العمل الميداني في الجامعة. وكما يستعيد هربرت جانز ***Herbert Gans***، طالب حصل على الدكتوراه في ذلك الوقت، ذكرياته قائلاً:

عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة، لم يتكلم أحد كثيرًا عن الملاحظة المشاركة؛ نحن فقط الذين فعلنا ذلك. ومثل الكثيرين من زملائي طلاب علم الاجتماع، أضفت اسمي في قائمة منهج هيوز العلمي "*مقدمة في العمل الميداني*"، ومثلهم أيضًا، وجدتها مقدمة شاقة تصيبك بالصدمة؛ لقد أرسلونا لمركز إحصاء للسكان في هايد بارك القريبة منا[٤] وطلبوا منا القيام بدراسة ملاحظة مشاركة صغيرة. وأعطانا إيفريت هيوز بعض كلمات عن المقدمة وعن التعليم والتوجيه، ولكن برغم كونه والدًا طيبًا، دفع بنا بسرعة خارج العش وطلب منا أن يتصرف كل منا بطريقته الخاصة (*1968: 301*).

كان هيوز مقتنعًا أنّ الملاحظة المشاركة هي طريقة لجمع البيانات تُمكّن من موضوعية أوجه نشاط وخبرات فاعلين معينين. كانت المشاركة بهذا المفهوم مساعدة للملاحظة وملحقة بها، مع أنّها كانت تتمة وتكملة لها للإنتاج الصحيح للمادة النظرية.

وقد أعطى المنحى المنهجي الذي استخدمه هيوز ومساعدوه أهمية كبرى للمقارنة المتزامنة والمنهجية التتابعية التاريخية (دراسة الموضوعات التي حدثت في أزمان مختلفة متتابعة)، وبذلك لم يصبح البحث مجرد بحث مرجعي (مُشكّلاً لمرجع أو مشتملاً عليه) ذاتي. وكانت المعلومات التي تم جمعها أكثر من أن تكون معلومات وصفية ببساطة؛ فقد كانت مرتبطة بشكل مستمر بقضايا نظرية عامة، وكان حب الاستطلاع والفضول يستوليان على ذلك الجمع في مناهج أخرى، لاسيما علم الإنسان والتاريخ. وأدار تلامذة هيوز الملاحظة المشاركة على أنشطة مجموعات صغيرة في الشركات والمؤسسات، أو في مواقف محددة، وكانت تقاريرهم غالبًا ما تتصف بعدم التوقير تجاه التعريف الذاتي الذي قدّمه كل فرد ممن أجروا معه مقابلات. وتحت إشراف هيوز، اختار الطلاب موضوع بحث ثم واصلوا العمل فيه لتحقيق أهدافهم عبر عدد كبير من المهن، وقد مكنت هذه الطريقة - المبنية على المقارنات بشكل أساسي - باحثي شيكاغو من فهم وإدراك أوجه حدسية أو بديهية مضادة أشاروا إليها ببراعة. وقدّم هيوز ملاحظة مؤداها أنّ عالم الاجتماع في ميدان العمل يمكنه أن يعرف أمورًا عن الأطباء بدراسة السمكرية وتجار الرصاص، كما يمكنه أن يعرف أشياء عن العاهرات والساقطات بدراسة الأطباء النفسيين (***Huges,1971: 88***).

وعلى أي حال، فإلى جانب أنّ منهج هيوز كان مباشرًا ونظريًا، فقد كان يظهر أيضًا نزوعًا وميلاً لفضح زيف المجتمع، متسببًا في خلق تشوش متعمد بين المستويات العليا والمستويات الدنيا في التوزان الاجتماعي، ومضمرا لعدم توقير خبيث تجاه المهن عالية القيمة، ورافضًا للتصنيف التقليدي للهيبة الاجتماعية.

ومع أنّ هيوز كان يدقق بشدة عند تحليل بياناته، فإنه كان يتشكك كثيرًا في تنظيم أو تنميط طرق ومناهج تجميع المعلومات. وأكّد أنّ مواقف وظروف العمل الميداني شديدة التنوع للدرجة التي يصبح بها أي كتاب مدرسي يحاول أن يضع قواعد تفصيلية ويفرضها كتابًا لا فائدة منه. ويتصف البحث الإثنوجرافي بدرجة عالية من عدم القدرة على التنبؤ بشيء، وكثيرًا ما تحبط تصميمات الأبحاث التي يتخيلها المرء نظريًا أو تجريديًا. ومع ذلك كان منهجه ابتكاريًا بشكل أصيل- لاسيما إذا نُظر إليه فيما يتعلق بالإهمال المنهجي السائد في ذلك الوقت، عندما لم يعتقد أحد أنّه من الضروري تصنيف وتنظيم وتدريس ممارسات البحث. كانت تقنيات الإحصاء تُعتبر عويصة ومُبهمة، لذا كانت تتطلب نوعًا خاصًا من التدريب؛ لكن العمل الميداني، هكذا ساد الاعتقاد، يمكن تعلمه فقط من خلال القيام به. وهكذا، فإنّه حتى النصف الثاني من الثمانينيات من القرن العشرين، لم تكن أقسام مادة علم الإنسان في أمريكا تُدرّس طرق ومناهج البحث الميداني، وكان اعتقادهم هو أنّ كل ما عليهم أن يفعلوه هو إرسال طلابهم إلى قلب الميدان، وهناك يتعلمون مناهج البحث عن طريق التجربة (المحاولة) والخطأ.

التمرين ٣-١

عند مناقشة دراسات البحث التي قدمتها "مدرسة شيكاغو الأولى"، لفت النظر إلى أنّ بعضها ألقى الضوء على حقيقة معينة: وهي أنّ الزوال المستفحل لبيوت الضيافة - التي لا تزال تعيد شعائر الحياة الأسرية للوجود، وإن كان ذلك يتم بشكل ضعيف - وإحلال مساكن مؤسسة وغرف فنادق بدلا منها قد ضاعف من انهيار الروابط الأسرية والمبادئ الثقافية، وخلف وراءه حالة لا معيارية، وفقدان الشخصية أو الطابع الشخصي في العلاقات الاجتماعية.

فكر الآن في غرفتك المفروشة والمزودة بوسائل التسلية في الجامعة:

- لو لم يكن بها مطبخ مشاع؛ حيث تختلط فيه مع طلاب آخرين عند وجبة الإفطار، أو عندما تروّح عن نفسك من عناء الدراسة لفترة ما، أو عندما تصنع لنفسك كوبا من الشاي، أو عندما تعد طعام العشاء، ماذا كانت ستصبح عليه علاقاتك الاجتماعية؟
- كم عدد الصداقات التي كونتها، وكم عدد الأسرار التي تبادلتها، وكم عدد الضحكات التي أطلقتها في المطبخ؟
- هل كانت هذه الأشياء يمكن أن تحدث لو كنت تعيش في فندق أو في غرفة معيشة ونوم في نفس الوقت؟

ناقشوا هذه الأسئلة فيما بين أنفسكم أو مع أستاذكم في الجامعة. فكروا وتأملوا في إمكان أو توافق العلاقات الاجتماعية، ودور المساحات الخالية (المطبخ في حالتنا هذه) في تكوين صداقات.

٣-٤ النظرية التفاعلية

حظى منهج الملاحظة بالمشاركة بدور مميز وأهمية نظرية محددة في النظرية التفاعلية، وهي منحى نظري نشأ في الفترة بين الثلاثينيات والخمسينيات من القرن العشرين بواسطة هربرت بلومر *Herbert Blumer (1900 - 1987)*

ومع أنّ مدرسة شيكاغو (التي نشأت في نطاق قسم علم الاجتماع) والتفاعلية (التي نشأت في نطاق قسم الفلسفة حول الفيلسوف جورج هربرت ميد *George H. Mead*) كانتا حقيقتين مميزتين ومختلفتين، فإنه كانت هناك صلات وتأثيرات

متعددة بينهما. كان عمل ميد في توحد مستمر مع توماس، وبارك **Thomas, Park** وتلاميذهما؛ بينما قدّمت مناهج البحث الخاصة ببارك القواعد الأساسية والمقدمات المنطقية الميثودولوجية لنظريات بلومر، الذي لم يشغل نفسه بشكل جاد مطلقًا بالبحث الميداني.

كان بلومر يعتقد أنّ البحث الاجتماعي يجب أن يتبنى نهجا "طبيعيا" وأن يعتمد على العمل الميداني كي يمسك بتلابيب منظور العمال الاجتماعيين وأن يرى الحقيقة من وجهة نظرهم. وفي هذا تناقض بلومر مع ميد، معلمه الخاص، الذي كان يزكي المنهج التجريبي الذي كان علماء النفس يستخدمونه بالفعل بدلاً من ذلك. وهكذا أسس بلومر القاعدة الميثودولوجية النظرية لممارسة البحث التي كانت مدرسة شيكاغو الأولى قد قدّمتها بشكل جدير بالثناء والإطراء، لكنها كانت قد استخدمتها بطريقة مشوشة. ولقد لخّص كل من دينزين ***(Denzin ,1970:7 – 19)*** وسيلفرمان ***(Silverman 1993: 48, Table 3.2)*** المبادئ الميثودولوجية للتفاعلية تلخيصا جيدا. وهي، كما نذكرها باختصار شديد للغاية:

(١) الربط بين الرموز والتفاعلات، مُظهِرا كيف تنشأ المعاني في سياق السلوك والتصرفات.

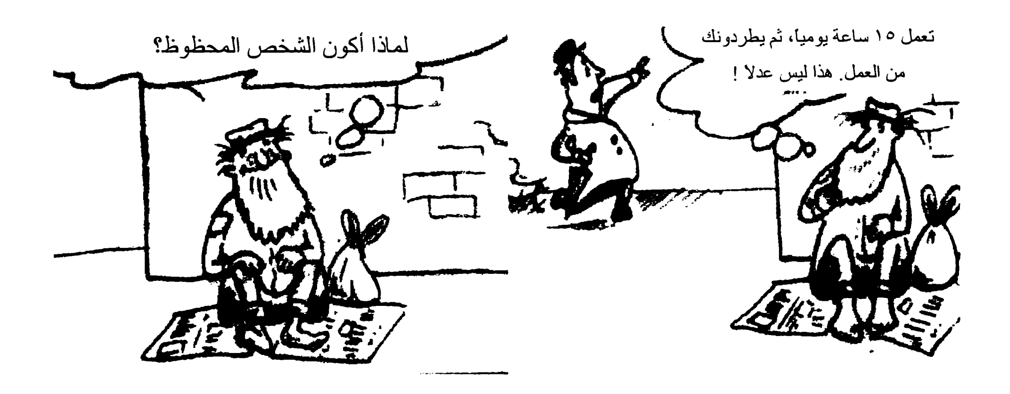
(٢) الأخذ بوجهة نظر المبحوثين.

(٣) دراسة الشخصية "ذات الموقف" للتفاعل.

(٤) تحليل العمليات والإجراءات بدلاً من الهياكل والتركيبات، وتحاشي حتمية "مذهب الجبر" للتنبؤ بالسلوك من الطبقة الاجتماعية، والنوع (من حيث الذكورة والأنوثة)، والنوع أو السلالة. وما إلى ذلك.

(٥) التعميم من المقدمات المتعلقة بالسمات والأوصاف إلى النظريات.





وجهات نظر

ولقد كانت هذه المبادئ جنبًا إلى جنب مع تعاليم هيوز مصدر إلهام لجيل من الباحثين. وبعد ما عُرف عنهم أنّهم "أبناء شيكاغو الجدد"، ميزوا أنفسهم (كما قيل عنهم) عن علم اجتماع الانحراف أو علم اجتماع المهن، من خلال تقديمهم لأبحاث منهجية ونظامية، ومن أبرز الأمثلة لها بحث ***(Becker,et.al. 1961)***، وهو دراسة إثنوجرافية عن الطلبة في مدرسة طبية استغرق إعدادها ثلاث سنوات. على أي

حال، فرغم أنّ أخصائيي النظرية التفاعلية أولوا اهتماما شديدا للمسائل الميثودولوجية أو المنهجية أكثر مما بذله من سبقوهم في هذا المجال، فإن جل اهتمامهم انصبّ على بناء نظريات على أساس إمبيريقي (تجريبي) أكثر من اهتمامهم بتقديم وتطوير منهج قوي للبحث والتحري. وتبعًا لهذا، ففي الوقت الذي رفضوا فيه منهج البحث الوضعي للبحث الإمبيريقي، لم يتمكنوا في كل الأوقات من تجنب اتهاميم بأن استخدامهم للملاحظة المشاركة جعل النتائج لا يمكن الاعتماد عليها، لأنهم لم يحدث أن وضحوا مدى استغراق الباحث واهتمامه بالموقف الذي يلاحظه. علاوة على ذلك، فإنّ حقيقة أنّ أصحاب النظرية التفاعلية كانوا يختارون دائما ملاحظة المجموعات الضعيفة أثارت نوعين من الشك بين النقاد: (١) أنّه كان يمكن أن يتم التلاعب في المعلومات التي جمعوها بسهولة؛ و(٢) أنّ أصحاب النظرية التفاعلية توحدوا لدرجة الانحياز التام مع "الخاسرين وضحايا الظلم والاضطهاد" - مدمني المخدرات، وأصحاب الأمراض العقلية، واللوطيين - الذين اختاروا إجراء دراستهم عليهم في معظم الأحيان.

٣-٥ النظرية المُوثّقة (أو المعتمدة على بيانات)

آلت مهمة إدخال القواعد المنهجية ودقة الإجراءات في النظرية التفاعلية لاثنين من علماء الاجتماع الطبي وهما: بارني جي. جلاسر وأنسيلم ستراوس (*Barney G. Glaser and Anselm Strauss (1916 - 96*. كان بارني قد تلقى تدريبه في قسم علم الاجتماع بجامعة كولومبيا الذي كان يرأسه بول لازرسفيلد وروبرت ميرتون *Paul Lazarsfeld and Robert Merton*؛ وكان الأخير في جامعة شيكاغو. واندمجت خلفية جلاسر الكمية المنطقية مع تحيز ملحوظ على يد ميرتون لبناء وتفسير "النظريات متوسطة المدى" وأُدمج منهج ستراوس الكيفي بشكل إبداعي في

كتابيما "اكتشاف النظرية الموثقة: إستراتيجيات للبحث الكيفي" (*The Discovery of Grounded Theory (1967)*، الذي أصبح بسرعة المرجع الميثودولوجي المثالي لأنّه كان على أقل تقدير أول دراسة مُقنّنة حول مناهج البحث الكيفية. كان هدف جلاسر وستراوس هو سد الثغرة بين النظرية والبحث الإمبيريقي التي فشلت المناهج الأخرى في سدها. ومن أجل هذه الغاية، بدأ في بناء إجراء منطقي أدى إلى اكتشاف نظرية بشكل استقرائي - بمعنى استخدامهما الملاحظات (الموثقة) الإمبيريقية فقط. كانت النظرية الموثقة (*Grounded Theory "GT"*) بالتالي منهجا، نمطا للاستنتاج والاستدلال، طريقة لتحليل البيانات التي يمكن أن تُطبق على كل من البحث الكيفي والبحث الكمي.

كان كتاب جلاسر وستراوس أيضا أول دراسة لتنظيم منهج البحث الإثنوجرافي في مراحله المختلفة: جمع المعلومات، وتصنيفها ثم تحليلها. كان هذا أيضا بفضل خبرة ستراوس العريضة كأخصائي إثنوجرافيا. لماذا استغرقت كتابة العمل المنهجي المنظم وقتا طويلا؟ ربما لأن أخصائيي الأبحاث الكيفية لم يشعروا بأنّ زملاءهم الكميين كانوا يهددونهم أو يتحدونهم. في الحقيقة، فإنّه طبقا لما ذكره باري إي تيرنر(*Barry A. Turner 1988: 112*)، كان السبب الرئيسي الذي أغرى جلاسر وستراوس بكتابة كتابهما، قبل أي شيء، سببا سياسيا: وهو تقديم نص ميثودولوجي يمكن للطلبة والباحثين أن يقتبسوه أحيانا عندما يقدمون مشروع بحث للمنظمات المؤسسية المنحازة عادة ضد البحث الكيفي، الذي اعتبروه بحثا غير علمي. وقد صدر كتابهما في جو كثير المشاكل والنزاعات بشكل خاص (وهذا لم يعد له وجود الآن، فالطرق والمناهج الكيفية أصبحت تُعتبر مناهج شرعية) لأنّه كان على أخصائيي علم الاجتماع الكيفي أن يدافعوا عن أنفسهم ضد أخصائيي علم الاجتماع الكمّي. علاوة على ذلك، كان جلاسر وستراوس قد ملأهما التعب والضجر من رؤية إهمال الكثير من مشاريع تلامذتهما لأنّها لم تكن مبنية على

المسح او الاختبارات أو التجارب؛ ومن هنا كانت نيتهم تزويد تلاميذهما بردود مناسبة وكافية ومنطقية. وعلى أي حال، فلسوء الحظ، استخدم أتباع جلاسر وستراوس كتابيهما للدفاع عن الشرعية العلمية للمنهج الكيفي (ومعارضة المناهج الكمية) أكثر من استخدامهم له في إجراء البحث المدقق. الذي يهتم أكثر بالنقاط الصغيرة.

وهكذا يتم التخلي فيما بعد عن الموقف الوضعي "للمفاهيم الناشئة" في النظرية الموثقة، كما وصفها جلاسر (١٩٧٨: ٢٠٠٢) لصالح منظور نزعة تصويرية اجتماعية تحث القائم بالبحث على أن يفكر بصفة مستمرة في الاختيارات التي تمت داخل نطاق عملية تنفيذ البحث"[٤].

ولقد استعادت النظرية الموثقة شعبيتها من خلال كتاب توم ولين ريتشاردز *Tom and Lyn Richard*، وهما أخصائيان اجتماعيان أستراليان قاما بترجمة مبادئ وتعليمات جلاسر وستراوس النظرية وحولاها لبرنامج يستخدم في الحاسب الآلي، أخذ في الأصل المصطلح التالي: *QSR NUD*IST* – أما الاسم الحالي له فهو: *NVIVO*، وهو يساعد من يقومون بالأبحاث في تصنيف وتحليل البيانات.

التمرين ٣- ٢

ادخل على الرابط: ***http://www.groundedtheory.com/vidseries1.html***

واستمع للمقابلة مع بارني جي جلاسر *Barney G. Glaser*، مخترع النظرية الموثقة (مع أنسيلم ستراوس *Anselm Strauss*)، ثم أجب عن الأسئلة التالية:

- ما النظرية الموثقة (*GT*)؟
- كيف نجري النظرية الموثقة؟
- هل هي طريقة أم منهج كمي أو كيفي؟

٣-٦ إثنوجرافيا أصحاب النظرية البنيوية "البنائية"

التحليل البنائي منهج مثمر آخر أسهم في رفع قيمة ومقام الإثنوجرافيا. يشير المصطلح لنهج يقل اهتمامه بالنواحي الذاتية للفعل (علي عكس التفاعلية) عن اهتمامه بسياقه الاجتماعي، وهناك عبارة شهيرة للمصطلح قالها جوفمان ***Goffman*** (وهو ممثل لهذا المنهج)، يقول فيها إنّه منهج "يهتم إذن، ليس بالرجال ولحظات حياتهم، وإنّما باللحظات ورجالها" (*1976: 3*).

٣-٦-١ وليام فوت وايت *William Foote Whyte*

كان وايت (*2000 - 1914*) نصيرًا فعّالاً لإثنوجرافيا النظرية البنيوية "البنائية"، وبينما كان يدرس للحصول على درجة الماجستير في الاقتصاد من جامعة هارفارد فـــي الأعوام من ١٩٣٦ إلى ١٩٤٠، أدار بحوث الإثنوجرافيا في نورث إند ***North End***، وهو حي فقير في بوسطن (أعاد وليام تسميته ليصبح كورنرفيل ***Cornerville***) كان يسكنه عدد كبير من المهاجرين الإيطاليين. كان هدفه دراسة العلاقة بين الحياة اليومية لعصابات الأحداث في بوسطن، وتكوين قياداتهم وسياستهم في الأحياء أو المناطق المتخلفة. وكانت رسالته العلمية الضيقة، التي نشرها تحت عنوان مثير هو: "مجتمع ناصية الشارع" (*1943a*) أول إثنوجرافيا حضرية نُشرت على الإطلاق. وقد ركز وايت على النمو من القاع للأنشطة السياسية وعلاقاتها بالسياسة في المدينة ككل، ولاحظ وايت مجتمع كورنفيل في ضوء علاقته غير المستقلة مع السياق الحضري العريض. وكان منهجه من هذه الناحية مختلفًا عن مناهج الدراسات الحضرية التي أدارتها مدرسة شيكاغو، التي وصفت حي الفقراء القذر على أنّه مساحات أراض منعزلة لها حكمها الذاتي الخاص بسكانها.

واختلف منهج وايت عن نهج مدرسة شيكاغو في ناحية أخرى. بالنسبة لتوماس وزنانيسكي ***Thomas and Znaniecki*** كانت حالات الانتحار، والجريمة، وحالات الطلاق، والفساد السياسي، والعنف، والأمراض العقلية تظهر بوضوح أن الطبيعة مجهولة المصدر والفوضوية المشوشة للمدينة خلّفت وراءها "حالة من سوء التنظيم والتفكك الاجتماعي". وأكدا أنّ تلك الظواهر كانت أعرضًا لتدهور جماعي في القيم والقواعد والقوانين الاجتماعية التي حلّ مذهب الفردية محليا. كانت هذه رؤية للمدينة تعلمها بارك وزملاؤه من ***Simmel***. على النقيض من هذا، اقترح وايتي - ربما بسبب جهله بتقاليد شيكاغو - وجهة النظر المعارضة، التي يحتمل أنه اكتسبها من ملاحظاته المباشرة للتفاعلات وسط وداخل نطاق عصابات المنطقة. وطبقًا لرأي وايت، فقد خلّفت تلك العصابات "تنظيمًا اجتماعيًا" وليس حالة من سوء التنظيم. كان الفقر في كورنرفيل، وأنشطة سكانها التي لا تعد ولا تحصى (بما في ذلك أنشطة ابتزاز الأموال "بالتهديد والوعيد")، مصادر لنظام يستمد وجوده من رأي استدلالي قوي (وبالتالي فهو رأي منحاز) مثل ذلك الرأي الذي اعتنقه بارك وزملاؤه بشدة:

لقد ركز علماء الاجتماع منذ فترة طويلة جدًا على الأفراد والعائلات التي لم تتمكن من صنع تكيف ناجح مع مطالب مجتمعهم. ونحن نحتاج الآن دراسات للطريقة التي تمكن الأفراد والجماعات من خلالها من معرفة علاقاتهم الاجتماعية وإقرارهم بها وأن يصلحوا من الصراعات الدائرة بينهم ***(1943b: 37)***.

إنّ إثنوجرافية وايت لها أهميتها، ليس فقط على المستوى الواقعي المادي والبنائي؛ ولكن على مستوى ما تعكسه أيضًا من دلالات منهجية، فبعد نشر هذه الإثنوجرافيا، أصبح تأثير "مجتمع ناصية الشارع" ضئيلاً. ومع ذلك ففي عام ١٩٩٥، عندما كان الناشر يفكر في تقرير ما إذا كان سيصدر طبعة أخرى من

الكتاب أم لا، خطرت فكرة على بال وايت بإعطائه اهتماما أكبر، وذلك بإضافة ملحق منهجي له. ولأول مرة في تاريخ الأبحاث يسرد ذلك الملحق الطريقة التي تم بها إجراء ذلك البحث الإثنوجرافي. وهكذا يكون وايت قد قدّم ما يسمى الآن *بالانعكاسية*: التحليل الواعي بذاته وبالديناميات بين من يجري البحث ومن يشتركون فيه، والقدرة الخطيرة على تحديد وتوضيح المكانة التي يفترض أن يتمتع بها الملاحظ في الميدان. والطريقة التي يؤثر بها وضع الباحث على عملية البحث وإجراءاته. وأكد وايت أيضا على "الذاتية الخاصة به" فيما يتعلق بكل من النواحي الأقل تهذيبا لسلوكه في الميدان (كما حدث عندما شارك في عملية احتيال انتخابي) والمشاكل التي تظهر عادة في العمل الميداني. لقد قدم الملحق ابتكارات تُعامل اليوم على أنّها واضحة جليّة، أو تكاد تكون مبتذلة أو عادية. ولكنّ هذا يرجع إلى حد كبير إلى أنّه منذ عام ***1995***، كان يُدرّس ويُضاهى على أيدي باحثين إثنوجرافيين.

٣-٦-٢ إرفنج جوفمان ***Erving Goffman***

كان جوفمان الكندي الجنسية (***1982 - 1922***) ممثلاً قياديا آخر للأثنوجرافيا البنائية. وقد تأثر نموه الفكري بأربعة تقاليد نظرية قدّمت فحواها بإيجاز من قبل وهي: مدرسة شيكاغو، نظرية سيميل، وعمل إيفريت سي. هيوز ***Evertt C. Hughes***، وتحليل دوركايم ***Durkheim***. وفيما يخص التراث الأول، ورغم أنّ جوفمان لم يهتم بصورة دقيقة بعلم الاجتماع الحضري مطلقا، فإنه كان يدرك جيدا البعد البيئي للسلوك الاجتماعي. ويشهد على ذلك مفهومه عن "الفضاء الشخصي" وتقسيمه للمساحة التفاعلية إلى "مناطق أمامية وأخرى خلفية"، وتعريفه للمؤسسات الاجتماعية باصطلاحات مكانية بشكل محدد. كانت "نظرية سيميل" هي التي أثارت اهتمام جوفمان ببنية التفاعل وجها لوجه (ثنائيات سيميل وثلاثياته). وفي تلك

النواحي اليومية المعتادة التي تبدو سريعة الزوال وهامشية، ولكنّها بدلاً من ذلك تشكل أساس النظام والتعايش الاجتماعي. وأكد جوفمان أنّه من الناحية الخارجية السطحية، تبدو الآداب الاجتماعية والتصرفات الحميدة، وقواعد الذوق واللطف والمجاملة، والتصديقات، وإلقاء التحية، واحمرار الوجه خجلاً من الإحراج... إلخ. عناصر ليست ذات جدوى للحياة الاجتماعية، لكنّها في حقيقة الأمر أسس الحراك والتعايش الاجتماعي، وهكذا، فإنّه في نظرية جوفمان، أصبحت التعبيرات والأفكار التافهة أو البذيئة مادة موضوع البحث الأولى والرئيسية في الدراسات الاجتماعية؛ لقد سقطت عنها تفاهتها واكتسبت مغزى وأهمية كبيرة.

وكان من بين من أثروا تأثيرا عميقا في عمل جوفمان مجموعة من علماء الاجتماع والإثنوجرافيين في جامعة شيكاغو الذين أجروا أبحاثهم تحت الإشراف الممتاز لهيوز- والذي كان جوفمان نفسه أحد طلابه. وأخيرًا، تألف التراث الرابع الذي شكّل نمو جوفمان الفكري والذهني من نظريات دوركايم. لذا فإنّ عمل جوفمان يمثل استكمالاً لتراث أصحاب النظرية البنائية. وكان اهتمامه في الطبيعة العُجْزية "نسبة إلى العجُز" والشعائرية الرسمية للذات، وفي طقوس الحياة اليومية وأهميتها في تشكيل الهوية الشخصية مشتقًا من التطبيق الجذري لنظريات دوركايم (*Collins, 1986*). ومع ذلك، أعاد جوفمان صياغة هذه النظريات، وفي النهاية أبعد نفسه عنها.

كان منهج جوفمان وطريقته في البحث الإمبيريقي منهج ملاحظة إثنوجرافية تقريبا على وجه الحصر. ومع ذلك، لم يكن جوفمان باحثًا منهجيا، ولا تشير كتبه وأعماله لخلفيات وإطارات محددة(٦). وعبثًا سعى بعض المؤلفين إلى إعادة تشكيل وبناء منهج جوفمان من خلال دراسة كتاباته وفحصها. ومع ذلك، يتذكر هؤلاء الذين رأوا مذكرات جوفمان الإثنوجرافية أنّ هذه المذكرات مذكرات موجزة بسيطة

سطرها طبقًا لانطباعاته عن اللحظة الواقعية. وعكست إستراتيجية جوفمان في الأبحاث منهجه الذي سار عليه، مع مقارناته غير العادية بين مقولاته وفئاته وسلوكياته ومهنه المتناقضة ظاهريا: اختلطت جميعها مع بعضها البعض من خلال إجراء غير منهجي أو منتظم، وأسلوب انطباعي، ذلك الأسلوب الذي، وباعتراف جوفمان نفسه، (انظر "تمهيد" طبعة *1959*) كان يحاكي أسلوب سيميل ويضاهيه عن عمد. وفي الختام، نقول إنَه من أجل هذا لم يكن منهج البحث الشغل الشاغل والاهتمام الأول لجوفمان؛ كما يشهد على ذلك النص التالي:

واضح أنّ قيمة الكثير من هذه البيانات مشكوك فيها، وأنّ التفسيرات التي أقدمها قد تكون موضع شك بالتأكيد هي الأخرى، لكنّي أعتقد تمامًا أنّ المنهج التأملي غير المحكم أو المترابط لمجال رئيسي من مجالات السلوك أفضل من جهل شديد به ... كانت تجربتي الخاصة في الأساس مع سلوك الطبقة المتوسطة في مناطق قليلة من أمريكا، وتنطبق معظم تعليقاتي على هذه الفئة من الناس **(*Goffman: 1963: 4 – 5*)**.

٣-٧ الإثنوميثودولوجيا "منهجية الجماعة" *Ethnomethodology*

خلال الخمسينيات من القرن العشرين، وجنبًا إلى جنب مع النظرية التفاعلية وأعمال جوفمان، برز منهج جديد أنشأه هارولد جارفينكل (***Harold Garfinkel 1917***)، وأطلق عليه فيما بعد "منهجية الجماعة". وكان يعني باستخدامه هذا اللفظ دراسة الوسائل والطرق التي يستخدمها الناس في حياتهم اليومية؛ وذلك من أجل معرفة وإدراك، وتفسير وتصنيف أفعالهم وأفعال الآخرين. وقد طوّر جارفينكل أفكاره في نهاية الأربعينيات بينما كان يحضر حلقات دراسية يعقدها شوتز، وكان جارفينكل في ذلك الوقت طالبًا شابًا عند تالكوت بارسونز ***Talcott Parsons*** (وحصل على

دكتوراه في الفلسفة تحت إشرافه من جامعة هارفارد عام *1952*). وقد تسببت نظرياته في صياغة التمارين الإلهامية أو الدراسات الإرشادية التي ألّفها جارفينكل لطلابه. كان الهدف من هذه التمارين هو مخالفة وانتهاك عرف أو قاعدة، أو معيار قديم. وُجّهت الدعوة لبعض الطلاب أن يتصرفوا، (من ١٥ دقيقة إلى ساعة كاملة) كما لو كانوا نزلاء في بيوتهم الخاصة، ويتناولون طعامهم بسعر محدد في الأسبوع أو الشهر؛ وكانت مهمتهم في حالات أخرى دخول محل أو دكان والتحدث مع الزبون كما لو كان عضوا من جماعة البائعين في المحل؛ أو دخول سوق مركزي "سوبرماركت" يبيع بأسعار محددة ويحاولون التفاوض حول تخفيض الأسعار. لم تكن دراسات جارفينكل الخاصة هذه شيئًا مبتكرًا بشكل كامل؛ كانت تشبه الأعمال المثيرة الدالة على الجسارة أو البراعة (كالألعاب البهلوانية... إلخ. التي يقدمها منتج الأفلام أو التليفزيون) ***Allen Funt (1914 – 1999)***، وهو مخترع البرنامج التليفزيوني "الكاميرا الخفية ***Candid Camera (1947)***" الذي كان يُصور فيه ردود أفعال ضحايا ليسوا على علم أو اطلاع بأمر أو نبأ ما، أو بخدع سيريالية تقدم ما فوق الواقع. وكانت تلك الدراسات تشبه أيضا تجارب المختبرات في نهاية الأربعينيات من القرن العشرين التي كان يديرها أخصائيون نفسيون مهتمون بالطريقة التي كان المبحوثون يتغلبون بها على التضارب والتعارض، وآليات رد الفعل النفسي للخضوع لضغط الجماعة، أو التمرد والعصيان ضده. وعلي أي حال، لم يكن جارفينكل مهتمًا بالآليات النفسية الفردية، لكنّه كان مهتمًا بالأحرى بقوة افتراضات ودعاوى الفطرة السليمة وبمقاومة النظام الخلقي والاجتماعي. في الحقيقة، سعى جارفينكل، من خلال دراساته أن يظهر ويدلل على أنّ جوهر النظام الاجتماعي يتكون ليس فقط من قيم المجتمع المشتركة، ولكن أيضًا من مصطلحات وتقاليد الفطرة السليمة، والثقة، والتوقعات والآمال المتبادلة. وقد أصبحت "دراسات مخالفة القواعد"، غير المبنية على التجارب، إذا ما توخينا الصحة في التعبير،

(جارفينكل، ١٩٦٧: ٣٨) بالشهرة التي جعلتها تخلق قالبا مكررا على نحو لا يتغير من أخصائي الإثنوميثودولوجيا "منهجية الجماعة": وهو الشخص الفريد الغريب الذي يستمتع- بوقاحة وبخروج عن موضوع البحث، وبشكل مزعج ويبعث على الضيق- بوضع محاوريه في مواقف محرجة بغرض عرض التقاليد والأعراف المقبولة بشكل ضمني والتي تعزز العلاقات الاجتماعية، وتمزيق النظام الاجتماعي.

وجذب الجزء النظري المركزي لمنهجية الجماعة عمل مؤلفين متعددين: فاستمر في دراسة الشروط (الثقة، والتوقعات والآمال المعيارية... إلخ.) التي تدعم *النظام الاجتماعي* (بارسونز)؛ وفي فحص ودراسة خصائص *الاتجاه الطبيعي* (شوتز) الذي يمثله استنتاج واستدلال الفطرة السليمة في العالم الطبيعي والعادي أو "عالم الحياة أي أساس الأسئلة والتحقيقات المعرفية" (هوسرل ***Husserl***؛ وانتقدت أعمالهم مفهوم *القاعدة* كمصدر معرفي قادر على تحديد وتقرير الأعمال البشرية (فتجينشتاين ***Wittgenstein***). وقد خلطت الإثنوميثودولوجيا هذه الأشياء مع مُقومات ومُكونات أخرى معًا وشكّلت تركيبة وتوليفة أصلية كان أساس قوتها الراديكالية التي طُبقت بها النظريات على تحليل أوجه النشاط اليومي الواقعي. واستعرض جارفينكل بشكل تجريبي على وجه الخصوص، إلى جانب توكيده على "المعرفة المعروفة ضمنًا"، وجود سمتين جوهريتين ذاتيتين حقيقيتين (كما كان يعتقد) للممارسات الاجتماعية؛ وهما إمكانية التأشير (الدلالة)، أو نسبية المعنى، والانعكاسية (انظر ٦ - ٥ - ٣).

وفي النصف الثاني من الخمسينيات من القرن العشرين تولى جارفينكل أيضا تنفيذ سلسلة من الملاحظات الإثنوجرافية في إطار مُنظّمات أو مؤسسات: على سبيل المثال، تولى دراسة هيئة محلفين بقاعة إحدى المحاكم (ومعه سول

ميندلوفتز *Saul Mendlovitz*) ودراسة هيئة الأطباء النفسيين في جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس "*U.C.L.A.*" (ومعه إجون بيتنر *Egon Bittner*). ولم تكن هذه الإثنوجرافيات يتم إدارتها بشكل منهجي نظامي ومعني بالتصنيف أو الترتيب، ربما لأنها كان المقصود منها أن تكون *براهين* لحتمية إمكانية التأشير (الدلالة)، أو نسبية المعنى، والانعكاسية وليس *اكتشافات* مبنية على التجربة. لكنها رغم ذلك فتحت الطريق لنوع جديد من الإثنوجرافيا المبنية على العملية التي كانت تسعى لفهم الظواهر جيدًا وهي تظهر للعيان. وقد تسبب هذا المنهج في الشروع في دراسة سلسلة من الدراسات الإثنوجرافية التي أدارها زملاء جارفينكل، ومعاونوه، وتلامذته خلال الستينيات والسبعينيات في مجموعة منوعة في إطار مُنظَّمي أو مؤسسي: أقسام الشرطة، ومكاتب رؤساء التحرير في الصحف اليومية، وساحات المحاكم، ودورات العلاج النفسي، والمستشفيات، ومراكز التأهيل، والفنادق الموجودة في منتصف الطريق في الرحلات الطويلة، وما إلى ذلك.

ومنذ النصف الثاني من الستينيات وما بعدها، شدّت نظريات جارفينكل انتباه عدد متزايد من مناصريه: في حقيقة الأمر في جامعات الدولة في جنوب كاليفورنيا – جامعة لوس أنجلوس في الأساس (حيث قام جارفينكل بالتدريس فيها من عام ١٩٥٤ حتى تقاعده عن العمل)، وجامعة سانتا بربارا، وجامعة سان ديجو – ونشأت هناك حركة إثنوميثودولوجية حقيقية. وكان أهم ممثلي هذه الحركة، بجانب جارفينكل، آرون سيكوريل *Aaron Cicourel 1928*، وهارفي ساكس *Harvey Sacks (1934 – 1975)*. ويمثل سيكوريل الجانب المنهجي للإثنوميثودولوجيا، أو عنصرها الأقل راديكالية الأكثر عُرضة للحوار مع العلوم الاجتماعية التقليدية. وقد ساهم البحث الذي أعده عن التعليم، وعن العلاقة بين الشرطة ومحضّري التشريح الذين يشرحون الجثة قبل محاضرة أستاذ التشريح، والأحداث المقبوض عليهم، والعلاقات بين الطبيب ومرضاه، في خلق منهج إثنوجرافي ذي طابع

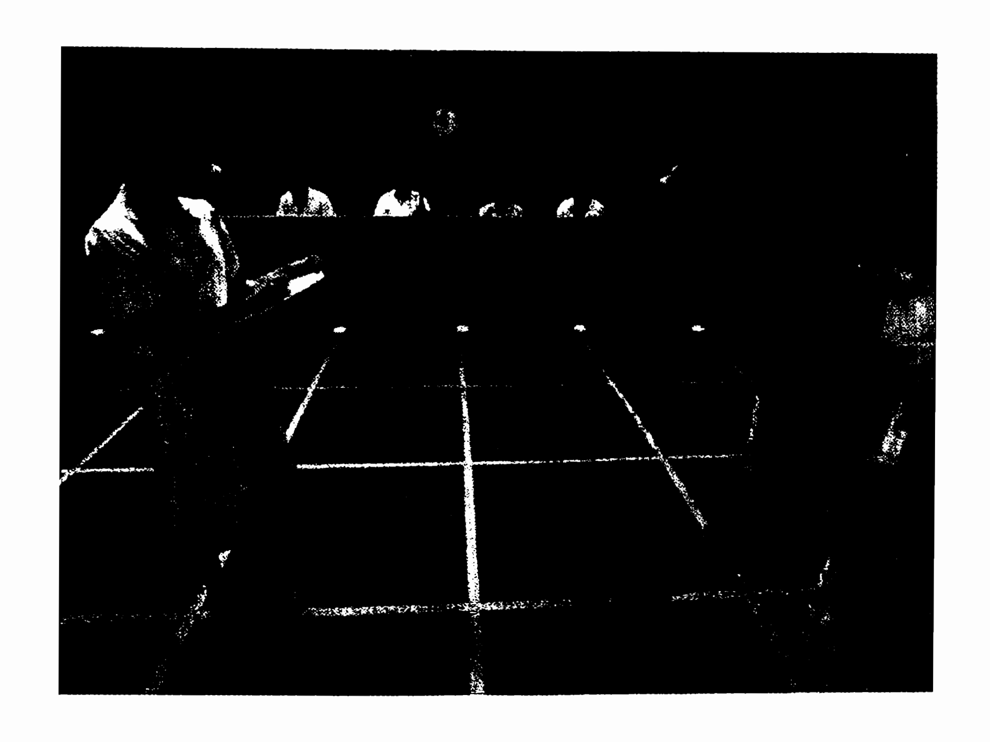
إثنوميثودولوجي. ومع أنّ عمل ساكس غير مبني على الإثنوجرافيا، فإنه افتتح ميدانًا جديدًا للبحث والتحري داخل نطاق الإثنوميثودولوجيا التي اكتسبت انتشارًا ورواجًا عظيمًا منذ أواخر الستينيات وما بعدها وهو: تحليل المحادثات.

٣-٨ الإثنوجرافيا الواقعية: الهندسة البشرية وعلم الأخلاق البشري

يسود الاعتقاد عمومًا بأنّ منهج البحث الإثنوجرافي ينتمي بشكل طبيعي لفئة "المنــاهــج التــأويلية" - أو - على الأقل، هذه هي الطريقة التي تصف مجموع ما كتبه العلماء والباحثون في مجال الميثودولوجيا المعاصرة. ومع ذلك، ففي حقيقة الأمر، لقد تم استخدام الإثنوجرافيا على نطاق واسع كجزء من المنهج الوضعي. ذكر الفيلسوف الفرنسي الذي يُعتبر مؤسس علم الاجتماع أوجست كومت ***August Comte (1798 - 1857)*** أنّ "الملاحظة البحتة" (ومعها التجارب والمنهج المُقارن) كانت أحد الأدوات الثلاث لعلم الاجتماع الوضعي. ومع ذلك، فبعد ذلك بكثير، تم إدارة الإثنوجرافيا داخل نطاق الهندسة البشرية.

الغرض من الهندسة البشرية، التي لها تقليد وعرف طويل الأمد مع البحث التطبيقي، هو تكييف البيئة مع الاحتياجات البشرية، والاستنتاجات والاستدلالات والسلوكيات عن طريق تعديل التقنيات المستخدمة بالفعل، أو عن طريق استخدام تقنيات جديدة. وأشهر هذه التقنيات هو الهندسة البشرية المبنية أساسًا على علم القياس التشريحي وعلم وظائف الأعضاء، وهي تسعى لتكييف الأشياء (مثل الكراسي، والطاولات، والأكواب الزجاجية، والمقابض، وما إلى ذلك) مع الجسم البشري. نشأت إثنوجرافيا الهندسة البشرية بعد الحرب العالمية الثانية كمحاولة للقضاء على تقييدات وتحديدات المناهج التجريبية في المختبرات. وحتى في أيامنا هذه، فإنّ العيب والنقص الأساسي في المختبرات هو أنّها بيئات صناعية وبالتالي

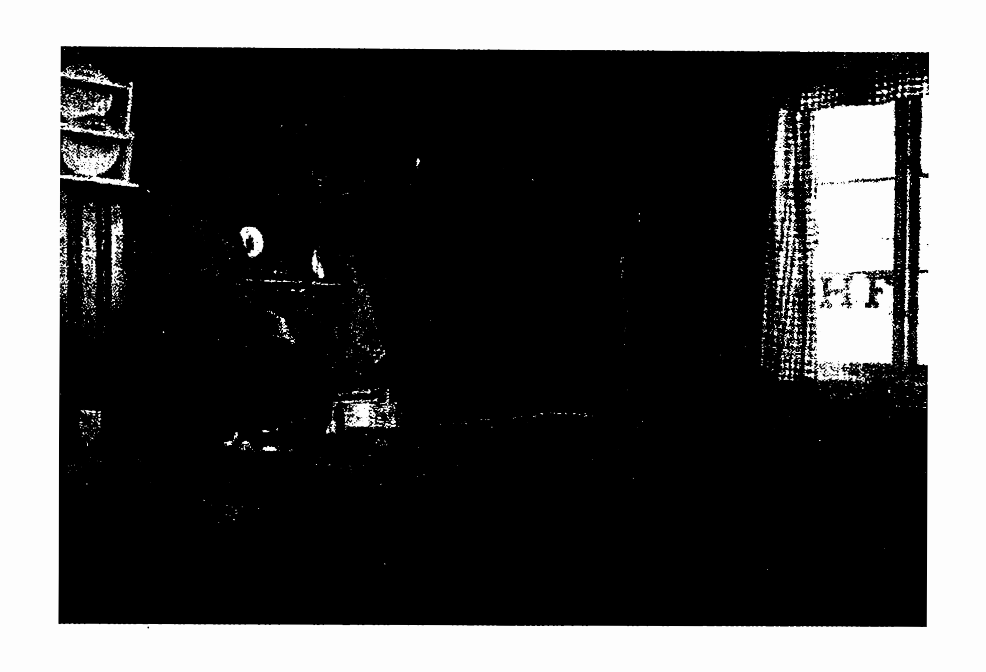
فهي تختلف اختلافًا كبيرًا عن الإطارات أو الخلفيات الطبيعية للحياة اليومية. وتبعًا لذلك، فإنّ المطلوب من مواضيع تجارب المختبرات هو عرض المهام وحل المشاكل التي تختلف كثيرًا عن المشاكل التي يواجهونها في حياتهم اليومية. ومن أجل هذا، نشأت إثنوجرافيا الهندسة البشرية في نهاية الأربعينيات كمنهج لملاحظة أنواع السلوك الحقيقي. ويمكن تكوين فكرة عن هذا الأسلوب في إجراء البحوث من فيلم "حكايات المطبخ" الذي صنعه المخرج النرويجي بنت هامر ***Bent Hamer*** عام ٢٠٠٣. ويحكي الفيلم عن الصداقة التي نشأت ببطء بين باحث (الملاحظ) ومزارع نرويجي (المبحوث). وأساس القصة هو دراسة في إثنوجرافيا الهندسة البشرية يديرها معهد دار الأبحاث السويدي، وهو منظمة صممت أجهزة وأدوات لتنظيم وتبسيط عمل ربات البيوت وهنّ يؤدين المهام الروتينية اليومية. وبعد ذلك قامت ربات البيوت بأنفسهنّ باختبار الأجهزة والأدوات الجديدة في مختبرات، كما هو مُوضح في الصورة التالية المأخوذة من الفيلم (الصورة الفوتوغرافية ٣ - ١).



الصورة ٣-١ اختبار على المجهود البدني الناشئ عن استخدام مكنسة كهربائية

على أي حال، أظهرت الإثنوجرافيات بعض النتائج المدهشة: اكتشف خبراء البيوت والمنازل أنّ مجرد إيجاد وتنظيم أكثر من حاسوب جانبي يتفرع كل منها من حاسوب رئيسي بشكل صحيح وسليم في المطبخ، واستخدام التصميم الداخلي لخط التجميع في المصانع كنموذج لها، يمكن أن يجعل الفوائد المالية لربات البيوت ضخمة وهائلة. أو، كما عبّر عنها إعلان سويدي عن المطبخ النموذجي الجديد، الذي كان يخاطب السيدات قائلاً: بدلاً من أن تضطر ربة البيت للمشي ما يوازي المسافة بين السويد والكونغو فاصل سنة من الطهي المتواصل، أصبحت الآن تحتاج أن تمشي حتى شمال إيطاليا كي تحصل على الطعام على المائدة.

وبعد تنظيم سلوك ربة البيت السويدية في المطبخ ورسمه بالتفصيل التام. شعر العلماء في معهد دار الأبحاث السويدي بأنهم مستعدون للقيام بمغامرة تتعدى حدودهم الجغرافية وتلك التي تُبنى على النوع (من حيث الذكورة والأنوثة). هذه هي الفلسفة الاجتماعية التي تشكل أساس مجموعة محلات قطع الأثاث المنزلية الدولية المُسمّاة "إيكيا ***IKEA***". ويحكي الفيلم كيف أرسل المعهد في بداية الخمسينيات ثمانية عشر ملاحظا لمنطقة "لاندستاد" ***Landstad*** الحضرية بالنرويج. التي تعج بالعزاب من الشباب. بغرض دراسة حياة العزاب الروتينية في المطبخ. ولكي يكون الملاحظون جاهزين للعمل على مدار الساعة، عاش الملاحظون حياة في معسكرات تلتف على شكل البيض حول منازل الشباب الأعزب موضوع البحث. وباستخدام وتطبيق هذا العلم الجديد، ومن كراسي ملاحظة عالية صنعت خصيصا طبقا لمواصفات محددة طلبها الباحثون، ووضعت في أماكن إستراتيجية في كل مطبخ. بحيث لم تغب عن أعين الملاحظين أي صغيرة أو كبيرة تحدث فيه (انظر الصورة الفوتوغرافية ٣ -٢).



الصورة ٣-٢`الباحث يلاحظ المشارك في أنشطته اليومية المعتادة في المطبخ.

وتُلطِّف هذه التفاصيل من المفهوم الوضعي للبحث وأخلاقياته: تبنِّي الملاحظون وضعًا حياديا موضوعيًا؛ وتم السماح لهم بأن يدخلوا ويخرجوا كما يشاءون ولم يكن يُسمح لأحد أن يتكلم معهم أو يجعلهم يشتركون في أداء أنشطة المطبخ تحت أي ظرف من الظروف. إن إثنوجرافيا الهندسة البشرية استعارة ملائمة للغاية للهندسة الاجتماعية، والإيمان الكامل بالتقدم، والموضوعية، والنزعة (أو المذهب) السلوكية، والعصر الذهبي للديمقراطية الاجتماعية.

وبمرور السنين، لم تزودنا الهندسة البشرية بتطبيقات عملية فقط، لكنها أيضًا قامت بإسهامات عظيمة للنظرية والمعرفة الخاصة بالسلوك البشري.

٣-٩ ملاحظات ختامية

يتم تجميع التقاليد المختلفة التي قدمناها في هذا الباب تحت عنوان "الدراسات الكيفية". وقد أحدث هذا التبسيط الشديد تشوشًا بين النظريات التي تكشف بالدراسة الواعية عن اختلافات يتعذر تسويتها أو جعلها أكثر بساطة ولها نتائج مهمة لممارسة البحث.

وأفضل طريقة لفهم وإدراك هذه الفوارق هي قراءة النصوص الأصلية. ومع ذلك، فإنّ هذا يُعتبر اليوم أمرًا صعبًا؛ حيث إنّ تكاثر الكُتيبات، والكتب الدراسية، والملخصات النقدية، والكتب التي تقدم تفسيرات جديدة قد ضاعف بشدة من قراءة النصوص التي تصل إلينا من خلال وسطاء، وليست النصوص الأصلية. يُيسّر هذا الاتجاه من التبسيط الذي ينتهي بإخفاء الاختلافات النظرية والميثودولوجية فيما بين مدارس الفكر المتنوعة.

التمرين ٣ - ٣ التعرف على أساليب الإثنوجرافيا

تضرب النصوص الثلاثة في هذا التمرين المثل على ثلاث طرق مختلفة لإجراء البحث الإثنوجرافي. إنّ مناهج البحث الإثنوجرافي ليست أداة محايدة تصدر نتائج بشكل أوتوماتيكي. وهي تتبع من الأهداف المعرفية لمشروع البحث، التي تحددها نظريات الفطرة السليمة وآراء الناس العاديين إضافة للنظريات العلمية التي يشير إليها الباحث.

ومهمتك بالتالي إذن هي قراءة النصوص (الموجودة في الرابط <u>www.sagepub.co.uk/gobo</u>). وبينما تقوم بهذا الإجراء، حدد هوية الاختلافات الميثودولوجية الأساسية فيما بين أساليب المؤلفين الثلاثة الإثنوجرافية. يمكنك بعد ذلك مقارنة استنتاجاتك مع ملاحظاتي التي تأتي بعد تلك النصوص. إن أول نص مقتبس مأخوذ من الدراسة الشهيرة التي قدّمها هوارد بيكار(***Howard Becker 1951***) بعنوان "موسيقار الرقص المحترف وجمهوره" التي نُشرت لأول مرة في مجلة علم الاجتماع الأمريكية، ثم ضمها لكتابه بعنوان: "الذين يعيشون على الحافة ***Outsiders***"، وهو يضم مجموعة دراسات في علم اجتماع الانحراف (***1963: 85 - 91***). وقد قام بيكار ببحثه في ١٩٤٨- ١٩٤٩ عندما كان يعمل كموسيقي في عدد من نوادي شيكاغو، وهو لا يزال طالباً جامعياً.

والنص الثاني مأخوذ من "السلوك في الأماكن العامة": بعنوان "ملاحظات حول التنظيم الاجتماعي للتجمعات (*1963: 5-181*)، مثّل نموذجي لأسلوب إيرفنج جوفمان.

وأخيراً، القطعة التي كتبها ديفيد سادناو ***David Sudnow*** أخصائي الإثنوميثودولوجيا، وهي مقتطفة من أشهر دراسة أعدها، وبدأها في صيف عام ١٩٦٣ في مستشفيين. وكان عنوانها المرور على: التنظيم الاجتماعي للموت (١٩٦٦: ٧٧ - ٨٣).

النقاط الرئيسية

- تساعدنا الخلاصة التاريخية على أن نرى أنّ ما يبدو أنّها مفاهيم ومقولات طبيعية هي في حقيقة الأمر نتاج ثقافة معيّنة.

- ويتولى تاريخ ميثودولوجيات وتقنيات الأبحاث تحصيننا ضد سذاجة اعتقادنا بأنّ الأشياء التي قيلت بالفعل من ٧٠ أو ٨٠ سنة مضت ما زالت أشياء جديدة ومبتكرة.

- نشأت ميثودولوجيا الإثنوجرافيا في علم الاجتماع (كما نعرفها اليوم) في وقت متأخر إلى حد ما، وكان ذلك في السنوات الأولى من الأربعينيات.

- ومع ذلك، يرجع تاريخ الظهور الأول والبدائي لميثودولوجيا الإثنوجرافيا إلى المرحلة الأولى من "مدرسة شيكاغو" في نهاية العقد الأول من القرن العشرين.

- المدارس الأساسية في مناهج الإثنوجرافيا هي: مدرسة شيكاغو، والنظرية التفاعلية، والنظرية الموثّقة (أو المؤسسة على بيانات)، والنظرية البنيوية (أو البنائية)، والنظرية الواقعية، والإثنوميثودولوجيا، والحركة النسوية (النسائية)، وما بعد الحداثة.

- أول جانب من جوانب البحث الإثنوجرافي (١٩١٠-١٩٤٠) أُطلق عليه "البحث والتحري بإمعان وفضول" ويعني بهذا التعبير استخدام كيفما اتفق للإثنوجرافيا بالتعاون مع مناهج وطرق أخرى كثيرة.

- بدأت المؤسساتية، أو وضع الأنظمة للبحث الإثنوجرافي كأحد مناهج البحث المميز عن مناهج البحث الأخرى في الأربعينيات من القرن العشرين بمدرسة شيكاغو "الثانية".

- وخلال هذه الفترة كان عالم الاجتماع إيفيريت سي. هيوز (١٨٩٧- ١٩٨٣) أحد أوائل من علّموا الإثنوجرافيا كمنهج بحث، وأدخل هو عليه المنهج المقارن.

- وعقب ذلك، وفي الخمسينيات، تبنّت النظرية التفاعلية وجهة نظر المبحوثين للكشف عن معاني الأعمال التي نشأت في سياق السلوك.

- وبدلاً من ذلك، وفي الستينيات، أقام بارني جي. جلاسر وأنسيلم ستراوس النظرية الموثقة (المؤسسة على بيانات) التي أضفت تنظيمًا أو تنميطًا كبيرًا على البحث الإثنوجرافي (الذي انقسم لعدة أشكال)، كما قدمت طريقًا أدق وأقوى للحكم بالمنطق على الفرضيات والنظريات.

- واهتم علماء الإثنوجرافيا البنيوية "البنائية" (وليام إف. وايت، وإرفينج جوفمان، وآخرون) اهتمامًا بالغًا مرة أخرى بالقرائن الاجتماعية للفعل، والارتباطات الشرطية البنائية على سلوك الناس وتصرفاتهم، لكن بدون إهمال قدرة الأفراد الخلاقة على تغيير المواقف لصالحهم.

- ومع الإثنوميثودولوجيا، تم استكشاف أشمل لهذين الاتجاهين - المتقابلين المتعارضين ظاهريًا فقط - وهما (البناء والفعل)، وذلك بالتركيز على النظام الاجتماعي والإستراتيجيات (المناهج) المستخدمة بشكل روتيني بواسطة المبحوثين بغرض التعرف على أفعال الآخرين وأفعالهم هم أنفسهم، وإدراك المراد من هذه الأعمال، وتصنيفها.

- وأخيرًا، ينبغي ألا ننسى أنّه منذ الخمسينيات، استخدم منهج البحث الإثنوجرافي (في إطار عمل واقعي ووضعي) للبحث التطبيقي، لاسيما القيام بدراسات الهندسة البشرية.

- **وجهة نظر الفاعلين:** أخذ وجهة نظر الفاعلين معناه معرفة مفاهيمهم اليومية عن الحقيقة، وعن طريقتهم في رؤية العالم.

- **المنهج المُقارن:** المقارنة والتباين أو المقابلة أنشطة فكرية ذهنية عادية تسعى للكشف عن عملية أساسية تتخذ بعرض أنماطًا كثيرة في مواقف كثيرة. وكان هيوز أحد الأوائل الذين استعرضوا أهمية المقارنة بين تمييز وإدراك تشابهات نظـــرية "أو مفاهيمية"، من أجل تنقية وتنقيح قوة التمييز والتفريق بين الفئات والطبقات، واكتشاف الأنماط والأشكال. وبعد ذلك قدم جلاسر وستراوس (١٩٦٧) ملخصًا وافيًا لطريقة نظامية لأداء هذه العملية التي أطلقوا عليها المنهج المقارن المستمر.

- **المنحى الإيكولوجي:** المنهج اقتراح نظري ومنهجي قدّمه لأول مرة إرنست دبليو. بيرجس (*Ernest W. Burgess 1925*) وهو عضو رسمي في "مدرسة شيكاغو" الأولى. وهو مدخل "بيئي" من حيث إنه يبحث عن الصلات والعلاقات بين البيئة (مظاهرها ونواحيها الجغرافية والمساحية) والبنية الاجتماعية. ويدرك هذا المنحى أنّ التوسع الحضري لا يحدث بالمصادفة، لكنّه يتم التحكم فيه بقوة من خلال قُوى اجتماعية، منها مثلاً قيمة الأرض والأوامر الإدارية بتقسيم المناطق داخل المدينة، ومعالم المناظر الطبيعية داخل البلاد، وأروقة ووسائل المرور الدائري التي تربط الدولة ببلاد أخرى والتوافقات التاريخية (الاحتكاك بالثقافات الأخرى). إنّ العوامل الخارجية لا هي عشوائية ولا هي مقصودة ومُخطط لها، لكنها بالأحرى تنشأ نتيجة لقوى طبيعية في البيئة، وهي التي تحدُّ من العلاقات التكيُّفيّة المساحية والزمنية بين الأفراد.

- **المنهجيات الجماعية:** تلك هي الطرق (المنهجيات) التي يستخدمها الناس في حياتهم اليومية لمعرفة وتفسير وتصنيف أفعالهم وأفعال الآخرين. وهي إستراتيجيات أصبحت روتينية، وإجراءات، وتقنيات يدبرون بها مسائل وشئون الحياة اليومية.

- **المعاني والقرائن:** المعنى نتاج اجتماعي، وهو ينشأ من سياق الكلام ويوجد من خلال التفاعلات بين الأفراد. والمعنى غير مرتبط ارتباطا جوهريا بالأشياء ولا هو متأصل فيها، ولا يمكن أن تأخذه كما تعطيه.
- **الانعكاسية:** تحليل الوعي بالذات للديناميات الاجتماعية بين الباحث والمشاركين في البحث، والقدرة النقدية على تبيين وأيضاح الوضع الذي يتخذه الملاحظ في الميدان والطريقة التي يؤثر بها المكان الذي يوجد فيه الباحث على عملية البحث..

توصية بقراءة

بالنسبة للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد:

Silverman, David (2006 c)

بالنسبة للخريجين:

Gubrium, Jaber (1988a)

بالنسبة للمتميزين ممن يجرون البحوث:

Pollner, Melvin and Emerson, Robert (2001)

اختبار تقييم ذاتي

هل أنت مستعد للفصل التالي؟ راجع معلوماتك بالإجابة عن الأسئلة التالية ذات النهايات المفتوحة:

١. ماذا كان إرفنج جوفمان يعني عندما قال انه على المرء أن يلاحظ "بيتم، ليس بالرجال ولحظات حياتهم، وإنما باللحظات ورجاليا" (*1976: 3*).

٢. اكتب قائمة بالاختلافات المنهجية الرئيسية بين هوارد بيكر (التفاعلية) وإيرفنج جوفمان وديفيد سادناو الإثنوميثودولوجيا (منهجية الجماعة).

٣. ما مواضع النقد من وجهة النظر الميثودولوجية (المنهجية) التي وُجهت لمدرسة شيكاغو؟

٤. ما المبدأ النظري الذي تأسست عليه النظرية المؤثقة (المؤسسة على بيانات)؟

٥. ما الشيء المبتكر الرئيسي في منهج جوفمان؟

هوامش

١. للحصول على فكرة عن الفترة الزمنية والمناخ الاجتماعي الذي عملت فيه مدرسة شيكاغو، عليك بمشاهدة الأفلام التالية الممتعة المستحوذة على الانتباه: رداء الأسقف *Chimere* من تأليف مايكل كيرتز (*Michael Curtiz 1950*)، "اللدغة" من تأليف جورج روي هيول (*George Roy Hioll 1973*)، المنبوذون: أحد أبناء الطبقة الاجتماعية الدنيا في الهند " من تأليف براين دي بالما *Brian De Palma*، "بيكس *Bix*" من تأليف بيوبي أفاتي (*Pupi Avati 1991*)، و"شيكاغو" من تأليف روب مارشال .(*Rob Marshal 2002*).

٢. مع أنّ تعبير "الملاحظة المشاركة" كان قد استُخدم منذ عام ١٩٢٤ (على يد إدوارد سي. ليندمان *Edward C. Lindeman*، فإنه أصبحت له أهمية ميثودولوجية في عام ١٩٣٧ فقط (وذلك في كتاب جوزيف دين لوهمان *Joseph Dean Lohman*)، ثم استُخدم التعبير بشكل نظامي وبطريقة مُصنّفة ومنسّقة بعد نهاية الأربعينيات فقط (هامرسلي، *Hammersley, (1989: 81)*؛ وجينفر بلات *Jennifer Platt, (1996: 47)*. وكما كتب بلات قائلاً، "لم يصبح اصطلاح الملاحظة المشاركة اصطلاحا متداولاً وله وضع التشكل النظامي بمفهومه الحديث إلا في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات. أصبح الاصطلاح حينئذ ترشيديًا وله ما يبرره ومن يؤيده ويدافع عنه فيما يخص المدخل للحصول على المعاني" (*Pla,tt 1996: 40*).

في الحقيقة، عندما استخدم ليندمان (١٩٢٤) تعبير "الملاحظة المشاركة" كان بذلك يشير لمساعد الباحث الذي حدّد فاعلين لتُجرى الدراسة عليهم، وساعد الباحث في الحصول على مشهد "من الداخل". وكان هذا المساعد "أو المساعدة" يماثل الفاعل الاجتماعي الذي اصطلح فيما بعد أن يُطلق عليه (إخباري "في الدراسات الميدانية").

٣. كانت "دراسة الحالة" تحتوي في الأساس على مقابلة يكتبها الشخص الذي تُجرى الدراسة عليه. كانت المقابلة تشبه كثيرا تاريخ الحياة وكانت تُصمم لإبراز المعنى الشخصي الذاتي

الذي يُنسب إلى السيرة الذاتية للمبحوث. ونتيجة لذلك، كان اصطلاح "دراسة حالة" يُستخدم بشكل قابل للتبادل مع اصطلاح "تاريخ الحياة" أو "وثائق شخصية" (*Pla,tt 1996: 46*).

٤. تم تحديد موقع الحي الذي أُقيمت فيه جامعة شيكاغو.

٥. لإعادة صياغة النزعة التصورية للنظرية الموثقة (*Grounded Theory "GT"*)، ولمناقشة حول الخلاف داخل نطاق هذه النظرية من وجهتي نظر "جلاسر" و"ستراوس" – انظر (*Charmaz, 2000*).

٦. باستثناء ثلاثة كتب، وهي: رسالة الدكتوراه التي حصل عليها (١٩٥٣) والتي بُني جزء منها على سنتين من الملاحظة على مجتمع صغير مكون من ٣٠٠ شخص كانوا يعيشون في جزر شيتلاند؛ وكتاب "مستشفى الأمراض العقلية" (١٩٦١)، وهو نتيجة ملاحظة امتدت عاما كاملا في مستشفى القديسة إليزابيث، وهو مستشفى رهيب للأمراض العقلية في حي كابيتول هيل بواشنطون؛ وكتاب "حيث يوجد الفعل" (١٩٦٧) وهو مبني على الملاحظات التي تمت في كازينوهات القمار في لاس فيجاس.

الفصل الرابع

أساليب إثنوجرافية جديدة

الأهداف التعليمية

- اكتساب معرفة حول أساليب الإثنوجرافيا التي نشأت منذ الثمانينيات.
- إدراك وفهم كيف تختلف هذه الأساليب عن أساليب الإثنوجرافيا التقليدية.
- فهم كيف تغيرت مفاهيم الإثنوجرافيا بمرور الزمن.
- تعلم كيف نميز الأساليب الإثنوجرافية الجديدة.

٤-١ مقدمة

كانت المناهج التي قدمناها في الباب السابق متداولة، بنصيب متبادل ومتغير من النجاح، حتى نهاية السبعينيات من القرن العشرين. وبعد ذلك نشأت مناهج جديدة (إثنوجرافيا الاستقبال، وإثنوجرافيا ما بعد الحداثة، والإثنوجرافيا النسوية، وما إلى ذلك) أبعدت نفسها بشكل حاسم عن التقاليد الإثنوجرافية السابقة، رغم أنه من الواضح أنها لم تختف واستمرت في الوجود بخط متواز مع المناهج الجديدة. وتبعا لذلك، أصبح المشهد الإثنوجرافي يكشف عن تنوع كبير.

وكما شاهدنا بالفعل في الفقرة ٢ - ١، مدت أساليب الإثنوجرافيا الجديدة ووسعت في اصطلاح "إثنوجرافيا"، مما نتج عنه بعد ذلك من تخفيف وترقيق في

معناه، فأوجد ذلك عددا وافرًا من المعاني المضادة والمتناقضة أحيانًا للاصطلاح حتى إنّه أصبح مرادفًا للدراسات الكيفية. كان الاصطلاح فيما سبق يشير في الأساس للملاحظة المشاركة، وبالتالي لموقف يكون الباحث حاضرًا فيه في الموقع الذي تجري فيه الأحداث *ويلاحظها* بنفسه بشكل مباشر. ومنذ الثمانينيات وما بعدها، تطور اصطلاح إثنوجرافيا حتى صار يشير إلى ممارسات متنوعة ومختلفة بشكل كبير بما في ذلك مقابلة الحوار وتحليل المستندات والأدلة البصرية المتعلقة بنص الكلام. وكما اعترف شون موريس ***Shaun Moores***، وهو ممثل قيادي لإثنوجرافيا الاستقبال قائلا:

> **قد تؤدي المقارنة بين الدراسات الكيفية الأخيرة لاستقبال الوسائط الإعلامية وتقاليد الأبحاث الاجتماعية والأنثروبولوجية إلى أن نتساءل ما إذا كان هناك أي شيء إثنوجرافي جدًا بخصوص "إثنوجرافيا الجمهور الجديدة" (انظر *Nightingale, 1989*). ومع بعض الاستثناءات القليلة، فقد اعتمدت دراسات استقبال (الوسائط الإعلامية) في الأساس على محادثات مسجلة مع مشاهدين، ومستمعين وقراء على شرائط استماع قد لا تزيد مدة كل شريط منها على ساعة واحدة. ويمكن أن تدمج الاستفسارات والاستعلامات أحيانًا في فترات زمنية قصيرة في صحبة مستخدمي الوسائط الإعلامية مع أساتذة أكاديميين يحاولون المشاركة في التجارب الثقافية الروتينية لمن يجري عليهم البحث والاستقصاء – لكنّ كل هذا بوضوح ليس كمثل الفترات الزمنية المطوّلة للملاحظة المشاركة التي يقوم بها رواد في البحث الميداني (*1993: 4*).**

٤-٢ إثنوجرافيا الاستقبال

خاضت بحوث استهلاك الوسائط الإعلامية في نهاية السبعينيات تجربة ما اصطُلح على تسميته بـ"التحول الإثنوجرافي" (*Moores, 1993: 1*) في العرف البريطاني الفكري العريض "للدراسات الثقافية" التي أسسها البريطاني ريتشارد هوجارت *the Briton Richard Hoggart (1918 -)*، والمؤرخ وعالم الاجتماع الإنجليزي إدوارد بي. ثومبسون *Edward P. Thompson (1924 – 1993)*، والروائي والناقد الويلزي (من إقليم ويلز) الماركسي ريموند ويليامز *Raymond Williams (1921 – 1988)*، في أواخر الخمسينيات. وقد كان هذا "التحول" إيذانًا بظهور منهج جديد داخل نطاق دراسات وسائل الاتصال التي كانت يُطلق عليها بشكل مُنوّع اسم "إثنوجرافيا الاستقبال"، أو" إثنوجرافيـــا الجمهـــور الجـــديـــدة"، أو "الإثنوجرافيا النقدية".

٤-٢-١ من برامج التليفزيون للجماهير

على ماذا كان يحتوي هذا المنهج الجديد؟ قبل "التحول الإثنوجرافي"، كان محللو وسائل الاتصال ينسبون للتليفزيون قوى هائلة في توجيه أذواق وآراء الناس والتحكم فيها. ولقد نشأت وجهة النظر النظرية هذه من المذهب الماركسي (في فرنسا عن طريق الفيلسوف لويس ألثوسير *Louis Althusser*، وفي ألمانيا عن طريق ثيودور أدورنو *Theodor Adorno* وماكس هوركهايمر *Max Horkheimer* من مدرسة فرانكفورت) الذي أكد أنّ وسائل الاتصال كانت أدوات تستخدمها الدولة للدعاية للأيديولوجيا السائدة ونشرها. ولم يكن العلماء والباحثون الذين كانوا يعملون في مجال الدراسات الثقافية معارضين تمامًا لوجهة النظر هذه بقدر ما

أقروا بأن التليفزيون كان وسيلة قوية للإغراء والإقناع، لكنهم انتقدوا "الحتمية النصية" للمذهب أو النظرية، ودعواها بأنّ برنامج التليفزيون كان في حد ذاته قادرا (بشكل أوتوماتيكي إلى وعاجل، كما لو كان حقا بواسطة عملية اختراق بسيطة) علي أن يؤثر في آراء المشاهدين أو يفرض سلفا اتجاهاته ونزعاته. وطبقًا لرأي ستيوارت هول ***Stuart Hall***، وهو ممثل قيادي آخر في الدراسات الثقافية، فإنّه على العكس من ذلك، لم تكن جماهير المستهلكين مستقبلين سلبيين للمعاني على الإطلاق: بل انّهم كانوا يقدمون معانيهم الخاصة بهم، وكان يمكنهم حتى أن يرفضوا تلك المعاني التي كانت تقترحها النصوص التليفزيونية. بالطبع كان النص يسعى لأن ينقل فحوى الرسائل، ولكن إذا لم تتقبلها الجماهير بسرعة وبشكل فعلي، كانت تلك النصوص تصبح بلا أي وقع أو تأثير. لذا فصل الباحثون النظريون في وسائل الاتصال بشكل غير سليم النص (برنامج التليفزيون) من السياق (استقباله)، ناسين أن تفسير النص كان يتأثر بشدة بالظروف التي شاهده الجمهور فيها. لم تكن مشاهدة التليفزيون بالنشاط المنعزل الذي يُعرض في هدوء تام، وأنت جالس وحدك في غرفة مظلمة، كما كان يتخيل العلماء الأكاديميون (***Hobson, 1982: 110***). والأحرى أنّها كانت نشاطا يُؤدى في سياق عائلي محلي عريض يحدد الاستقبال ويقرره: على سبيل المثال: يشاهد الناس برامج التليفزيون أثناء تناولهم لوجبة الغداء بينما يتناقش الملتفون حول مائدة الطعام، ويتدخلون في انسياب وتدفق وسائل الاتصال، وبالتالي يقطعون تواصلهم معها. وتبعا لهذا يصبح هناك مساحة بين المنتج (للبرنامج) والمستهلك النهائي (المشاهد) حيث تحدد أوجه النشاط العائلي ظروف استقبال البرنامج، وبعواقب لا يمكن التكهن بها بسهولة.

من أجل هذا أصدرت "الإثنوجرافيا النقدية" مقالات نقد ضد نظريات وسائل الاتصال السائدة حتى الآن. الأول ضد نظريات وسائط الاتصال التي كانت تستخدم

بكثرة، والثاني ضد المنهجيات التي كانت وما زالت تستخدم بكثرة في دراسة استهلاك الوسائط الإعلامية. على سبيل المثال انتقد آين آنج ***Ien Ang (1991)*** بشكل قاطع منهجية بحث الصناعة التليفزيونية، وعلي وجه الخصوص طرائق "قياس الجمهور" (عداد الجهاز، دفتر اليوميات، و"عداد الناس" وما إلى ذلك) المُستخدمة في تجميع أرقام التقديرات والتخمينات. ومع أنّ تقنيات الأبحاث هذه خدمت المصالح الاقتصادية لصناعة الإعلانات، فإنها لم تتمكن من فهم وإدراك منظومة وسيلة الإعلام الخاصة بجمهور المشاهدين والمستمعين والحاضرين والشكل العلمي المنوع لهذه الممارسة الاجتماعية والثقافية باعتبارها تجربة عايشتها بالفعل. وعلى النقيض من ذلك، استطاعت الإثنوجرافيا وصف ممارسات الاستهلاك من وجهة النظر الفعلية الواقعية للجماهير الحقيقية (***1991 – 1965***) من خلال رسم الخطوط الكبرى للمعاني التي ينسبها مستهلكو وسائل الاتصال للنصوص والتقنيات التي يلقونها في حياتهم اليومية.

٤-٢-٢ المراكز والباحثون

كان هناك ثلاثة معاهد أساسية مشاركة في إثنوجرافيا الاستقبال: مركز الدراسات الثقافية المعاصرة (***CCCS***) في جامعة برمنجهام؛ ومركز الأبحاث للتجديد والابتكار، والثقافة والتكنولوجيا في جامعة برونل؛ ومعهد لودويج أوهلاند الألماني للدراسات الثقافية الإمبيريقية (***EKW***) في جامعة توبنجن ***Tubingen***. ومع ذلك، كانت أول دراسة تستفيد استفادة شاملة من منهج البحث الإثنوجرافي مشروعا أمريكيا استغرق تنفيذه ثلاث سنوات تولى تنفيذه جيمس لول ***James Lull (1980)*** حول ("الفوائد الاجتماعية" للتليفزيون من خلال العائلات).

دراسة حالة

الاستخدامات الاجتماعية للتليفزيون

كانت الدراسة مشروعًا بحثيًا واسع النطاق دحض التحيز والتعصب القائل بأنّ الدراسات الكيفية يمكن أن تُؤدى على عينات صغيرة فقط. وقد تم القيام بهذه الدراسة في ويسكونسين *Wisconsin* وفي كاليفورنيا، حيث أُجريت الملاحظات والمقابلات على عينة مُكوّنة من أكثر من ٣٠٠ أسرة على مدى فترات زمنية تراوحت ما بين ثلاثة إلى سبعة أيام. وتم وضع تسعين ملاحظًا في وقت واحد مع عائلات مجهولة بالنسبة لكل منهم. وتم الاقتراب من تلك الأسر والتعامل معهم من خلال مدارس، ونواد، وهيئات ومنظمات اجتماعية. وبعد ذلك أمضى الملاحظون فترات ما بعد الظهر وأمسيات كاملة في صحبة أعضاء في بيت كل أسرة، ومن ثم حصلوا على مداخل ومعلومات وافية عن أعمالهم اليومية الروتينية. كان الملاحظون "يأكلون مع تلك الأسر، ويؤدون معها مهامها الروتينية الخفيفة، ويلعبون مع أطفالها، ويشاركونها في وسائل التسلية الجماعية التي كانوا يمارسونها، لاسيما مشاهدتهم برامج التليفزيون" (*Lull,1980: 201*). ومن خلال البيانات التي حصل عليها لال من هذه الدراسة، وعلى أساسها، حدّد فائدتين اجتماعيتين أساسيتين للتليفزيون في البيوت: فائدة بنائية هيكلية، وأخرى ارتباطية. في الحالة الأولى، كان التليفزيون يُستخدم: كمورد بيئي- "رفيق في القيام بالأعمال المنزلية المعتادة والروتينية... تدفق مستمر للضوضاء التي تحدث في خلفية الصورة وتتحرك لتصبح في صدرها عندما ترغب الجماعات في ذلك" (ص ١٩٤-١٩٣) - كما كان يُستخدم "كمُنظّم سلوكي" يقدم هيكلة أو بناء للأوقات المحلية المنزلية التي يؤدون فيها مهامهم الخفيفة وأعمالهم الروتينية. أمّا الاستخدام الارتباطي للتليفزيون، الذي درسه لال بتفصيل أكبر وأشمل. فكان يتكون من

"الطرائق التي يستخدم الأعضاء المشاهدون بها التليفزيون لخلق خطط وترتيبات اجتماعية عملية" (ص١٩٤). ويقدم لال عدة أمثلة لترتيبات إيجابية فعالة حول التليفزيون شكلها من ملاحظاته الإثنوجرافية: الزوجان اللذان كان التليفزيون يقدم لهما فرصة الجلوس على الأريكة معا وتبادل عواطف المحبة الجسدية مع بعضهما (ص ١٩٥)؛ وأسرة شابة من طبقة العمال استطاعت التمتع بشيء من العزلة والسرية لأن التليفزيون كان يجعل أقاربهم أو أنسابهم بحكم الزواج الذين يعيشون معهم في البيت يسلّون أنفسهم أمام شاشات التليفزيون في الأمسيات (ص ١٩٦)؛ ثم هناك برنامج التليفزيون الذي يشجع الآباء والأطفال على مناقشة قضايا معينة (وذلك خلافا للتعصب الذي ادعى أنّ التليفزيون قد وضع حدا للتواصل بين أعضاء الأسرة الواحدة). وفي الختام نقول إنّ استهلاك التليفزيون يشمل ليس فقط التفاعل بين النصوص والمشاهدين، لكنه أيضا تفاعل بين أعضاء الأسرة الواحدة.

وقرب نهاية الثمانينيات، بدأ جيمس لال، ودوروثي هوبسون، وديفيد مورلي، وروجر سيلفرستون ***Roger Silverston***، وشون موريس، وآين آنج، وجانيس رادواي ***Janice Radway***، وآخرون كثيرون من إثنوجرافيي الاستقبال في التفكير مليا في مناهج أبحاثهم وفي اختبار فعالية وصحة اكتشافاتهم بشكل انتقادي، وذلك لأنّهم لم يضعوا في اعتبارهم من قبل مطلقًا مدى ما يمكن أن يكون عليه تأثير وجود الباحث في مجال خاص جدا كمجال الأسرة على سلوك المبحوثين المستهدفين الذين تتم ملاحظتهم. علاوة على ذلك، ومع موجة أنثروبولوجيا مرحلة ما بعد الاستعمار (انظر: ***Marcus and Fischer,1986***)، بدأوا يسألون أنفسهم عن علاقات القوى بين الباحثين والمشاركين، وكيف يمكن أن يشتت هذا اللاتناظر (أو اللاتماثل) سلوك المشاركين ويكبح جماح ردود أفعالهم. وأصبحت هذه المواضيع بعد ذلك الفقرات الرئيسية في أجندات الإثنوجرافيين للحركة النسائية وما بعد الحداثة.

٤-٣ الإثنوجرافيا النسوية

إنّ معظم المعرفةِ التي نمتلكها اليوم صدرت من رجال، لماذا هذا؟ هل النساء غير قادرات على القيام باكتشافات، أو اختراع مفاهيم جديدة، أو إجراء أبحاث؟ الإجابة بسيطة للغاية: كانت النساء إلى عهد قريب جدا تُستثنى وتُستبعد عن قطاعات كثيرة من الحياة العلمية والاجتماعية والسياسية. ثم، لماذا، حتى نهاية القــرن التــاسع عشــر، كان كل الفلاسفة، أو العلماء، أو الكتاب، أو السياسيين أو المديرين تقريبا من الرجال؟ لأنّ عددًا لا يكاد يُذكر من النساء كنّ أفرادًا مستقلات بذواتهن يتصرفن بشكل مستقل بعيدًا عن الرجال، وكنّ قد مُنحن القدرة على اتخاذ القرارات خارج نطاق البيت. وفي أحسن الحالات، كان بإمكان المرأة أن تأمل بأن تصبح مصدر وحي وإلهام الفنان الذكر، أو أن تكون معاونة لرجل ناجح في عمله، أو زوجته (للحصول على دراسة حالة شيقة ومهمة جدًا عن امرأة كانت ذات موهبة غير عادية واضطُرت أن تتصرف كزوجة فقط، اذهب إلى الرابط ***www.sagepub.co.uk/gobo***).

وكانت عادة الرجال إلى عهد قريب أن يشكروا زوجاتهم في قسم الشكر والامتنان في الكتب التي يؤلفونها: ونقدم الآن مثلاً واحدًا فقط من بين آلاف الأمثلة الكثيرة التي يمكن أن تجدها في الكتب، وهو ما قدمه جوفمان (*1959,x*) في أحد كتبه قائلاً "وبدون اشتراك زوجتي، أنجيليكا إف. جوفمان، وتعاونها معي، ما كان لهذا التقرير أن يرى النور".

٤-٣-١ آثار إبستومولوجية على المناهج

إنّ لهذه الملاحظات نتائج إبستومولوجية (معرفية) من حيث إنّها تستلزم التفكير مليا في أسس المعرفة العلمية. ولو كانت مثل هذه المعرفة قد صدرت في

معظمها من رجال، فيتبع ذلك أنها ملاحظات غير محايدة أو غير عالمية. وبدلاً من ذلك، فهي معلومات مُتحيّزة توجد من جديد (التحيزات والمُقولبات والأنماط الجامدة) للعقلية الخاصة بالرجال (*haraway, 1991*). إنّ المنظور المذكر (أو "الذكوري" كما قد يقول عنه البعض) قد تفشى بشدة لدرجة أنّه أصبح يتحكم في المناهج والطرائق، والتقنيات، وجمع البيانات والتكنولوجيات - كما يعرف ذلك جيدًا دراسات طلاب وخبراء العلم والتكنولوجيا. على سبيل المثال، لقد نشأت معظم الممارسات الطبية التقليدية،

> **حول نموذج الرجل، وتم تطبيقها على النساء أيضًا دون الأخذ في الاعتبار الفوارق الاجتماعية والنفسية الحيوية بين الجنسين... إن الأدوات والآلات الجراحية الخاصة بعلاج وإصلاح تزويد الشريان التاجي بالدم هي نفسها مثل الأدوات والآلات التي تُستخدم للرجال، ولم يُبذل إلا اهتمام قليل لحقيقة صغر حجم الشرايين التاجية والأوعية الدموية في قلوب النساء مقارنة بنظائرها في قلوب الرجال (Reale, 2004: 103).**

أما وقد قدمنا هذه المقدمة المنطقية، تصبح الخطوة التالية هي أن نسأل أنفسنا السؤال التالي: لو كان العلم، مثل السياسة والاقتصاد، تسيطر عليه النساء (أو جماعة اجتماعية أخرى تعاني من التفرقة كالأجناس السوداء البشرة أو المُعوقين، أو حتى الأطفال، من باب الجدال)، هل كان العلم يصبح مختلفًا؟ هل كان سيصبح لدينا نوع مختلف من المعرفة العلمية؟ في هذه الحالة تكون الإجابة أقل بساطة. لكنها مع ذلك تمكننا من أن نوجه اهتمامنا بقضية ما إذا كان يوجد منهجية نسوية بشكل عام، وإثنوجرافيا نسوية على وجه الخصوص.

لقد ركزت مؤلفات متعددة على أنّ الإثنوجرافيا (وفي هذا الإطار كل مناهج وطرق البحوث الاجتماعية) منهجية بحث اخترعها الرجال: على سبيل المثال، كان

هناك عدد قليل جدا من الإناث أعضاء في مدرسة شيكاغو الأولى (روث إس. كانفان، وفرانسيس دونوفان، وفيفيان إن بالمر، وحفنة من الأخريات). علاوة على ذلك، تؤكد بعض العالمات أنه عندما تجري النساء أبحاثا، فإنهن يستخدمن مناهج البحث التقليدية (وهي خاصة بالرجال) بشكل مختلف ويُعدن صياغتها. وهذا يحثنا على طرح سؤالين: كيف تتغير الإثنوجرافيا عندما تجري النساء أبحاثها؟ ومم تتكون منهجيات الأبحاث النسوية؟

٤-٣-٢ الإثنوجرافيا النسوية مقابل الإثنوجرافيا التقليدية (الذكورية)

عند قراءة تقارير الإثنوجرافيا النسوية ومقارنتها مقابل التقارير التي كتبها رجال، يظهر وجهان رئيسيان للخلاف: أولهما يختص بموضوع البحث المختار؛ أمّا الثاني فهو بشكل تام ودقيق خلاف في منهجية البحث من حيث طبيعته. فيما يتصل بوجه الاختلاف الأول، فإنّ الإثنوجرافيا النسوية دراسات تتم وتُدار على النساء، وبواسطتهن، ومن أجلهنّ *(Stanley and Wise, 1983: 17)*: والهدف منها هو الكشف عن العلاقات الاجتماعية التي تسبب حالات عدم المساواة والتفاوت الاجتماعي والظلم الذي تعاني منه النساء وتبقي عليها. وبالتالي فإنّ هذه الإثنوجرافيات تتعامل، من بين أشياء أخرى، مع: العنف الجنسي (الاغتصاب والتحرش والمضايقات الجنسية التي تحدث عادة في مكان العمل أو في المدارس)، والتفرقة والتمييز ضد النساء في أماكن العمل، وإخضاعهنّ واستعبادهنّ في المجتمع المدني وفي الأسرة، والمشاكل والمصاعب التي يواجهنها في موازنة مسئوليات الأسرة مع مسئوليات العمل، وعلاقتهنّ مع خدمات الرعاية والرفاهية الاجتماعية والمستشفيات، واستخدام العنف معهنّ في البيوت، والحياة الجنسية للنساء في حالات اشتهاء أفراد من نفس الجنس أو السحاق. هذه كلها إثنوجرافيات تهتم في

المقام الأول بحال النساء في المجتمع المعاصر: "ببساطة شديدة، إجراء بحث نسوي معناه وضع الجندر في المقام الأول من تحرى المرء واستقصائه" *(Lather, 1988: 571)* وعلى النقيض من ذلك، قلما تعامل إثنوجرافيات الرجال النساء كدراسة تأمين وضمان وحماية لهنّ في حد ذاتهنّ؛ وبدلاً من ذلك، فهي تُصوّرنهن كأعضاء من فئة اجتماعية ما أو فئة أخرى (المرضى، الفقراء، المنحرفين... إلخ). أو كجماعة مهنية (الأطباء، أطباء العلاج النفسي، الطبقة الكادحة من العمال... الخ). لكن ليس كأفراد.

ومن وجهة النظر المنهجية، تتبع (أو ينبغي أن تتبع) الإثنوجرافيات النسوية مجموعةً من المبادئ المُوجّهة المُرشدة تميّزهُنّ عن الإثنوجرافيات (الذكرية) التقليدية: عليكنّ ببذل قدر أكبر من الاهتمام لعملية فعل الشيء، و"أداؤه" في موعده ومكانه المحددين، وذلك خير من تبني وجهة نظر بنائية للأنشطة الاجتماعية:

- عليكن بالاستماع والإنصات للمشاركات والمشاركين، ودعوهم يتكلمون مستخدمين تقنيات استماع فعالة.

- عليكن بإظهار نيّة وهدف التحرير في الأبحاث التي ينبغي أن تهدف إلى "استثارة ضمائر النساء وتوعيتهن" حتى يصبحن مدركات عدم المساواة، وعليكن بمساعدتهنّ وتشجيعهنّ على تحريرهنّ من القيود الاجتماعية الجائرة: كما تكتب ماري مينارد **Mary Maynard** قائلة، "لكي تعترض على إخضاع النساء ووضعهنّ في مرتبة أدنى، وسلبيتهنّ، وإخماد صوتهنّ وذلك بتشجيعهنّ على الجهر بحالتهنّ على الملأ، وبعمل ذلك، تواجهن الخبراء والرجال المهيمنين بقصور معرفتهم عنهن" *(1994: 93)*.

- ومن هنا، لابد أن يكون للبحث تأثير سياسي وألا يكون بحثا تصويريا وصفيا فقط (مثل معظم الإثنوجرافيات الذكرية). بمعنى أنّه يجب أن يساعد على فهم كيف يتم ظلم واضطهاد النساء ولماذا هذا، وعلى تقديم الحلول الممكنة.

- عليكنّ بإصدار أبحاث تخفف من الظلم والاضطهاد الواقع على النساء، وتشجيع منحهنّ فرصا متساوية في المجالس والشركات والنقابات. عليكنّ بتصحيح قصور النظر وتشتت تجربة المرأة بطرق تكون لها صلة بإنهاء الوضع الاجتماعي غير المتكافئ لهن (*Lather 1988: 571*)، وذلك بتبني منظور دفاعي عنهن.

- عليكن بالحصول على معلومات مُخزّنة (عن طريق الكمبيوتر) حول خبرات وتجارب المشاركين، واستيعاب النواحي الذاتية والعاطفية وغير المنطقية لحياتهم.

- دعن الجماعات المهمشة من النساء (اللاتي تعرضن للعنف، أو اللاتي تم استغلالهن، أو من لا يستطعن الدفاع عن أنفسهن، أو من هجرهنّ أزواجهن، أو السحاقيات والمثليات) يعبّرن عن آرائهنّ، وذلك بتبني منهج يعتمد على كثرة الأصوات وتعددها يجعل كل من هنّ صامتات عادة، يجهرن بما يردن البوح به.

- عليكنّ ببذل قدر أكبر من الاهتمام بالانعكاسية، للطرائق التي يبني بها الباحثون بياناتهم، وذلك بصبغها بغير قصد وبلا وعي بتحيزاتهم ومقولباتهم أي المكررة على نحو لا يتغير.

- عليكنّ بتبني أخلاقيات أبحاث مختلفة مبنية على "المعاملة بالمثل والتبادل الودي، والأمانة، والمحاسبية والمساءلة، والمسئولية، والمساواة... إلخ، كي

تتم معاملة المشاركين في الإثنوجرافيا باحترام.. (ومن أجل) إرساء القصد والنية بعدم الاستغلال" (*Skeggs, 2001: 433*).

- عليكنّ بالاهتمام والعناية (أكثر من الرجال) بالمبحوثات وأن تُقرنّ بأنّ "المحتوى العاطفي لحياة النساء جزء لا يتجزأ من أجندة البحث (*Kasper,1994: 268*)، لأنّ الهدف هو الدخول في حوار مع المبحوثات، وذلك بدلا من معاملتهنّ بشكل هيكلي بنائي كمجرد مصادر للبيانات والمعلومات.
- عليكن بوضع الشخص المُلاحظ والشخص الذي يلاحظه على قدم المساواة حتى تقل علاقة القوة التي يستغلها الشخص الذي يلاحظ عادة، أو حتى تُزال. ولعمل هذا، يمكن للباحثة، على سبيل المثال، أن تخصص وقتًا لتشارك بخبرتها وتجاربها وآرائها مع المشاركات في البحث.
- عليكنّ بالتخلي عن التحكم في البحث والهيمنة عليه، بمعنى أنّه ينبغي أن يكون لدى المبحوث بعض التحكم في البيانات، وأن يكون قادرًا على التعبير عن نفسه، ولو لزم الأمر، أن يُناقش ويُفنّد التصورات والتفسيرات التي يقدمها الإثنوجرافي.
- عليكنّ ببذل قدر أكبر من الاهتمام بروايات النص الإثنوجرافي، وبسياسة التمثيل والتقديم، وبالطريقة التي تقيم النصوص الإثنوجرافية بها الحقيقة.

٤-٣-٣ أين تكمن النسوية في منهج البحث النسوي؟

تلك هي مجموعة المبادئ المُوجّهة المُرشدة للإثنوجرافيا النسوية. ومع ذلك، فإنّ غالبية النسوة الباحثات والعالمات (*Dickens, 1983; harding;1987;Wheatly,1994*) غير مقتنعات بأنّ هناك وجودا فعليا وحقيقيا لمنهج بحث نسوي محدد. وقد نسأل،

ما الشيء النسوي بالتحديد في منهج البحث النسوي؟ هل الوصفات المنهجية الميثودولوجية التي ذكرناها أعلاه مقصورة على الإثنوجرافيا النسوية، أم يمكن أن نجدها في أساليب إثنوجرافية أخرى، مثل الإثنوميثودولوجي (منهجية الجماعة)، والتفاعلية، أو الفينومينولوجيا (الفلسفة الظاهراتية) وما إلى ذلك؟

في بداية العقد الأخير من القرن العشرين، عُقدت مناظرة حول هذه القضية بالتحديد في أعمدة مجلة علم الاجتماع التابعة لجمعية علم الاجتماع البريطانية. وأكد فيها هامرسيلي أنّ "كثيرًا من الأفكار التي تعتمد عليها أخصائيات البحث النسوي تجدها أيضًا في مناهج البحث غير النسوية" (**1992a: 202**)، ولذلك فقد فنّد وناقش الادعاء بأنّ هناك طابعًا نسويًا بالتحديد في ما يُسمى بمنهج البحث النسوي. وردًا على هامرسيلي، أكد عدد من أخصائيات الحركة النسوية أنّ البحث النسوي لم يكن متجانسًا، وأنّه كان يشتمل على مجموعة منوعة من الاتجاهات والأوضاع: من تلك الاتجاهات التي اعتنقت بشكل جوهري فكرة منهج البحث النسوي (باتي لاذر، ودوروثي سميث)، مرورًا باتجاهات أكثر حيادية (بيفرلي سكيجز) إلى الاتجاهات المتشككة (جوديث ستيسي ***Judith Stacey***، وإليزابيث ويتلي). ومع ذلك أشارت كل هذه الاتجاهات إلى أنّه من المشكوك فيه القول بأنّ الادعاء بوصف منهج البحث النسوي هراء وسفاسف هو ادعاء قام به رجل.

ومن الواضح أنّ القضية معقدة وأنّ حلها أمر صعب. فبينما هو من الواضح ومما لا شك فيه أنّ *النظرية* (علمية كانت أو اجتماعية) يتم تعديلها عند تدخل النظرة الجندرية مُحدقة، يظهر منهج البحث على أنّه أقل نفاذًا واختراقًا بكثير.

بناء على ذلك، فإنّ الفرق بين منهج البحث الإثنوجرافي التقليدي (الذكوري) والإثنوجرافيا النسوية ربما يكون تضادًا أو تناقضًا أقل حدة عن اختلاف في الدرجة: عندما تجري النساء بحثًا، فإنّ الغالبية العظمى منهنّ يبذلن

قدرًا أكبر من الاهتمام (عما يبذله الغالبية العظمى من الرجال) بنواح منهجية بحثية معينة. ومع ذلك، فهذه الحساسية الشديدة ليست من المعالم الجوهرية التي تختص بها النساء، فهناك كثير من الباحثين الذكور الآن (لاسيما الشباب منهم) يقومون بأبحاث على أساس نماذج أبحاث تقليدية (وذكرية) بشكل مخفف.

٤- ٤ إثنوجرافيا ما بعد الحداثة

نحن نعيش فيما سُمّي "بعصر ما بعد الحداثة"، وهو تعبير أصبح جاريًا لأول مرة في نهاية السبعينيات من القرن العشرين من خلال أعمال الفلاسفة الفرنسيين، وأبرزهم على الإطلاق جين فرانسوا ليوتارد *Jean Francois Lyotard (1924 – 1988)* وجاك ديريدا *Jacques Derrida (1930- 2004)*. ويتسم عصر ما بعد الحداثة بمجموعة متعاقبة من المُقوّمات تجعله متناقضًا مع العصر الحديث، بدأت (طبقًا لبعض الآراء) بفتح أمريكا (١٤٩٢) وانتهت في ١٩٨٩ بسقوط سور برلين وانحلال الإمبراطورية السوفيتية.

دراسة حالة

المعالم الرئيسية للعصر الحديث

دعنا نُبسّط الأمر لأقصى درجة ونقول إنّ العصر الحديث تقبل بسرور وجهة نظر واقعية آمنت بالطبيعة الظاهرية والموضوعية للحقيقة، وتبعًا لذلك، أخذ يؤكد أنّه من الممكن أن نميز بين الحقيقة والكذب والبهتان. علاوة على ذلك، وطبقًا للوضعية الحديثة (التي ترى أنّ أفضل منهج هو المنهج العلمي) ومذهب بوبر *Popper* العقلي الانتقادي، فإنّ الحقيقة منهجية ومنظمة، ويمكن البحث عنها

بالمنطق السليم والرشد. والعلم، كما جرت عليه حجج براهين الحداثـــة، مشروع أو عمل يختلف اختلافا جوهريًا عن أي نشاط بشري آخر، ولا تلوّث معتقدات الوقت الحاضر حقائقه لأنها حقائق موضوعية مجردة غير متأثرة بالشعور الشخصي تنشأ من علاقة الإنسان المباشرة مع الطبيعة. وكما عبّر عن ذلك ستيفن واينبيرج *Steven Weinberg* (الحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٧٩ قائلاً: لقد وُلد العلم الحديث بخلق خندق بين العلوم الطبيعية التي تُعنى بالمواد غير الحية والثقافة البشرية. والفرق بين قواعد الطبيعة وقواعد الثقافة (مباراة في كرة القدم مثلاً) هو أنّنا لا نخلق قواعد الطبيعة، لكننا نكتشفها فقط. وطبقًا لما قاله جاليليو جاليلي *Galileo Gallilei (1564 - 1642)*، مخترع المنهج التجريبي مع فرانسيس بيكون *Francis Bacon*، فإننا نخلق (بشكل اجتماعي) اللغات فقط التي نصف بها قوانين الطبيعة. لكن هذه القوانين توجد بشكل مستقل عن أي لغة.

دراسة حالة

فكر ما بعد الحداثة

رغم أنّه ما زال علينا تكوين تعريف أساسي لاصطلاح "ما بعد الحداثة"، فإن المرء يمكن أن يقول إنّ ما بعد الحداثة (وتسمى أيضا ما بعد البنيوية أو البْنائية) هي فلسفة تحاول أن تقوض وتشوه الأيديولوجيات الحالية والحقائق الفردية. وبناء على النظريات الفلسفية لفريدريك نيتشه ومارتن هيدجر *Friedrich Nietzsche (1844 – 1900) and Martyn Heidegger (1889 – 1976)*، يدّعي فكر ما بعد الحداثة أنّ كل النظريات العامة التي تفسر التاريخ أو الطبيعة أو العالم – الماركسية على سبيل المثال – ليست سوى "أنساق تفسير": إنّها، بتعبير آخر، مفاهيم ونماذج تحاول جاهدة أن تضع الحقيقة في نماذج وصيغ محددة بشكل

مناسب، لكنّ هجوم التعدديات والأكثريات والعناصر التي تقاوم مثل هذه القوائم المحددة يعوق حركتها بشكل مستمر. ونتيجة لذلك، يجب على المعرفة الجديدة والرشد الجديد أن يستغنيا عن النماذج المُوحّدة في الممارسة والنماذج العالمية وأن تكون بدلاً من ذلك، مُركبة، وتعددية، وإقليمية حتى يكون لكل قطاع من قطاعات الحقيقة منطقه الخاص.

ولقد أنشأ فكر ما بعد الحداثة أيضًا منهجًا مهمًا لتحليل النص، وخصوصًا مدرسة للنقد الأدبي تُعرف باسم "تحلل البنية" (ديريدا ***Derrida***). وانطلاقا من مبادئ النسبية، أو على الأقل تحاشيًا للنظرية الكبرى، ينتقد هذا المنهج المفاهيم النظرية المربكة والمتمركزة حول الإنسان في الثقافة الغربية. ويعرض المنهج النزعة المضادة للنظامية المنهجية ورشاقة الفكر، كفكر مضاد للمذهب العقلي في التقاليد الغربية، وبالتالي يضع أساسًا لعملية نقدية أو لتحلل وتلاشي نظرية "الموضوع".

ويؤكد فكر ما بعد الحداثة (الذي يشكل أحيانًا كتلة مشتركة مع النسبية أو النزعة التصورية) أيضًا أنّ الفارق بين الطبيعة والثقافة لا يفسر على نحو تام ومناسب الموقف المعاصر بأعداده الضخمة (والمتزايدة بشكل مستمر) للأشياء أو الدوافع الهجين أو ذات الأصل المشترك (برونو لاتور ***Bruno Latour***) أو "خليط لمخلوقات" (أو "في الخيال العلمي" مجموعة من البشر تتحكم في قواهم نسائج كمبيوتر مزروعة فيهم كما تطلق عليهم ذلك دونا هاراوي ***Donna Haraway***): كل منهم جنين مُجمّد، وبذرة عبر الجينية، وجسد ضخم ضخامة الحوت الكبير ومزود بياقة أو قلادة بها جهاز إرسال لاسلكي، وعدسات لاصقة، وثديين مزودين بالسليكون (وكذلك الحال مع الشفتين والردفين)، ورقاقات صغيرة الحجم من دوائر كهربائية تحت الجلد، وأوردة حية صناعية منقولة من جسد آخر، وكبد وقلب

(أو من أصل حيواني)، وجراحة تجميل في الوجه، وشعر منقول ومزروع في الرأس، وما إلى ذلك - بأنّ الأشياء من هذا النوع هي ثمرة النفاذ المتبادل بين الطبيعة والثقافة (وتلك هي الاختراعات البشرية).

وأخيرًا، يؤكد فكر ما بعد الحداثة أنّ الحقيقة غير مرتبة أو مُنظمة، وأنّها غير منطقية، وأنّ قوة التفسيرات العلمية ليست مبنية على دلائل أو براهين، لكنها مبنية على كلمات طنانة تتسم عادة بالمغالاة وعدم الصدق، وأنّ ما يوجد فقط هو الحقائق النسبية والتقليدية.

وينبع فكر ما بعد الحداثة من التفكير المنهجي داخل نطاق النموذج الثقافي لما بعد الحداثة الذي نقل مبادئه وحوّلها إلى ممارسة إثنوجرافية. إنّ اصطلاح "إثنوجرافيا ما بعد الحداثة" اصطلاح مظلّي شامل يُستخدم للإشارة إلى عدة مُتغيرات للمنهج فهناك: *إثنوجرافيا تأويلية* (***Denzin, 1997***)، وإثنوجرافيا نقدية (***Kincheloe and McLaren, 1994***) تمتد جذورها في علم اجتماع بيير بورديو ***Pierre Bourdieu***، وفلسفة إثنوجرافية، وإثنوجرافيا ذاتية، ريد داناهاي ***Reed-Danahay, 2001***). وليس لدينا مساحة كافية هنا لنذكر فقرات عن أوجه الخلاف بين هذه المناهج والأساليب. لكن من المهم أن يكون لدينا خريطة ذهنية لقطاع يتوسع بسرعة كما يتنوع ويتشكل بسرعة أيضًا.

إنّ إثنوجرافيا ما بعد الحداثة خط في جديلة داخل نطاق أنثروبولوجيا ما بعد الاستعمار (انظر ***Marcus,1986 Marcus and Fischer,1986;Clifford and***) التي تقوم بتحليل نيّر وليس رحيمًا لأنواع التحيز المتمركز حول السلالة للأنثروبولوجيا التقليدية، وهي علم يخفي هدفه ونثره الواقعي نزعة للتفوق والترفع تجاه "ثقافات أخرى". وقد أغضب مثل هذا التحليل وأثار ما أطلقوا عليه "أزمة التمثيل" عن طريق طرح أسئلة حول الطرق (البلاغية المتكلفة، والأسلوبية، وتلك المتعلقة بالنص) التي توصف الثقافات بها ويُجعل لها شكل محسوس (انظر ١٥ - ٤ - ٢).

وتجادل إثنوجرافيا ما بعد الحداثة بشدة وتشكك في سلطة الملاحظ المشارك الموضوعي وتنتقد الإثنوجرافيات الكلاسيكية (التي وصفناها في أقسام سابقة) لكونها واقعية حقيقية، وموضوعية مجردة، ومحايدة بشكل زائف وخادع (*Denzin, 1997*) لقد وجدت هذه الإثنوجرافيات سلطتها من مبدأ "أعرف لأنّي كنت هناك"، ويحتاج هذا المبدأ أن يُفكك إلى أجزاء أو أن توضع له نهاية بالتدريج. علاوة على ذلك، فإنّ الملاحظة المشاركة تُؤيد وتُخلّد، ربما بشكل غير متعمد أو مقصود، الهدف العلمي القمعي (*Turner,1989: 13*) الذي اختُرعت من أجله؛ وهو ملاحظة وتدوين سلوك السجناء، وأصحاب الأمراض العقلية، والفقراء، وبالتالي ممارسة السيطرة عليهم، والنظرة المُحدقة التي تشمل كل ما يمكن رؤيته بنظرة واحدة (*Foucault, 1975*) تعكس تدخلاً لا حدود له في الحياة الشخصية الذي، وباسم التفسير المُغالى فيه لحقوق العلم، يدوس بقسوة على حقوق الناس، ويعاملهم كأشياء.

وقد أثارت حركة أبحاث ما بعد الحداثة الشكوك حول ميزة أي منهج من أجل حصوله على معرفة موثوق بها عن العالم الاجتماعي. وطبقًا لأخصائيي إثنوجرافيا ما بعد الحداثة، فإنّ الموضوعية والنزاهة وعدم التحيز ليست من معالم العمل التفسيري للإثنوجرافي، لكنّ الأوهام والمجازات هي التي تنشأ وتُعزز من خلال إستراتيجيات بلاغية لنوع النصوص المعروف باسم "الشعر وسياسة الكتابة" (*Marcus and Clifford, 1986*). بتعبير آخر، من خلال الكتابة (على سبيل المثال، إعداد مُسودّة الحساب الإثنوجرافي وتقرير البحث) تتحول *تفسيرات* الإثنوجرافي (الذاتية) إلى (*بيانات* الموضوعية). وهكذا يبني الباحث ثقافات خيالية من خلال سرد وروايات. ومن هنا يُشتق تعبير "ثقافات الورق" الذي يشير إلى أنّ الكتابة بشكل مصطنع تبني تمثيلات الثقافات التي كثيرًا ما تكون بعيدة عن التجارب التي عايشها المشاركون فيها (انظر ١٥ - ٤ - ١).

إنّ تأثير أسلوب النقد الثقافي هذا هو التحرير أو التنوير؛ فهو يكشف عن المصالح والفوائد من وراء ومن خلال المعاني الثقافية التي يُعبّر عنها في النصوص الإثنوجرافيية؛ وهو يكشف أيضًا عن أشكال القوة والسيطرة؛ ونتيجة لهذا فكثيرا ما يُقدّم كنقد للأيديولوجيا. وفي الحقيقة فإنّ أنصار تحلل البنية الراديكاليين يعتقدون أن حساب المجموع الكلي للنظريات تقييدي بدرجة عالية، ومسيطر، بل وحتى فاشستي. لذا فإنّهم يدركون ويُميزون ما هو متعلق بعلم العلامات والأعراض، أي دراسة الحياة المعاصرة كأنظمة للعلامات... وهذا أداة كبرى لتحرير وتنوير النقد الثقافي **(*Marcus and Ficher, 1986: 114*).**

ويعتقد الكثيرون من أخصائيي إثنوجرافيا ما بعد الحداثة أنّه بدلاً من فهم الآخر بطريق أكمل وأعمق، فما ينبغي أن يفعله من يعملون في الميدان هو اكتساب فهم أكمل وأكبر لأنفسهم، وذلك بالكشف عن تحيزهم وتعصبهم، وأيديولوجياتهم، ومعرفتهم المفهومة ضمنًا. وكما رأينا في ٣ - ٦ - ١، فإن عملية التوعية واستثارة الضمير هذه كانت وما زالت تُسمى "انعكاسية": يجب على الكاتب أن يحلل كل وجه من أوجه البحث له صلة بالعملية، بما في ذلك هو نفسه، أو هي نفسها لو كانت كاتبة، والأسلوب الذي يستخدمه أي منهما في الكتابة. وأُطلق على هذا الأسلوب في الآونة الأخيرة "الإثنوجرافيا الذاتية".

دراسة حالة

الإثنوجرافيا الذاتية

إنّ اصطلاح (وربما أيضًا مفهوم) الإثنوجرافيا الذاتية ذو أصل حديث جدًا، وقد نشأ وتطور في مجالي التليفزيون والسينما. وهو شكل مختلف قليلا عن الفيلم

الوثائقي ذي المعيار القديم. وكما يوحي به معنى الاصطلاح، فهو يختلف عن الفيلم الوثائقي في أنّ موضوعه هو صانع الفيلم نفسه/ أو صانعة الفيلم نفسها. وتحدث الإثنوجرافيا بشكل نموذجي تواصلاً بين تجارب وخبرات الحياة وبين الأفكار، وبين آراء ومعتقدات صانع الفيلم، وهي بهذا الشكل كثيرا ما تُعتبر حافلة بالمحاباة والانحياز والتلاعب بالصور ومعالجتها ببراعة. والإثنوجرافيات الذاتية، على عكس أفلام وثائقية وثقافية أخرى، لا تهدف للموضوعية. ومع ذلك، فهي ليست قريبة في أي مكان لأن تكون لها شعبيتها كالأفلام الوثائقية والثقافية التقليدية.

في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، يُعتبر النشاط الذي تشير إليه عبارة التعريف التي تحوي اجتماع لفظين متناقضين في المعنى أحد ممارسات الكتابة الإثنوجرافية الناشئة. إنّه ضرب من ضروب الكتابة والأبحاث التي تربط بين الأمر الشخصي والناحية الثقافية، بوضع النفس داخل نطاق سياق اجتماعي. وهو يتضمن روايات شخصية تحليلية عميقة حول النفس/ الكاتب كجزء من مجموعة أو ثقافة، وذلك في محاولة مزدوجة لتفسير النفس للآخرين وتحليل الموقف الذي يكون المرء فيه مختلفاً أو دخيلاً.

وعادة ما تُكتب الإثنوجرافيات الذاتية بصيغة المتكلم، وتُبرز الحوار، والعواطف، والوعي بالذات كوقائع ارتباطية ومؤسسية متأثرة بالتاريخ، والبنية الاجتماعية والثقافة (*Ellis and Bochner, 2000*). وعندما كتب الإثنوجرافيون الذاتيون عن أنفسهم في أعمالهم باعتبارهم شخصيات كبرى ومهمة، فإنّهم بذلك تحدوا الآراء المتفق عليها حول التأليف أو الإبداع الصامت، حيث لا يظهر صوت الباحث عند تقديم نتائج بحثه. وربما يكون هذا التطور قد حرر بعض الباحثين من قيود الصور الواقعية السائدة للإثنوجرافيا الإمبيريقية لأنّه، وكما أكّد ريتشاردسون *Richardson (1995)*، فإنّ الطريقة التي نتوقع من الباحثين أن يكتبوا بها تؤثر فيما

يمكن أن يكتبوا عنه. في الحقيقة، إنّ الكتابة هي أيضًا عمل سياسي ومُؤسسي يعتمد عليه المستقبل المهني للمؤلفين أنفسهم.

ولا ينبغي أن تكون إثنوجرافيا ما بعد الحداثة سرد شخصي تقليدي، أو وصف بسيط لحكاية، أو عرض لحدث أو حادثة أو تجربة واحدة. وينبغي، حتى بنسبة أكبر، ألا تُصور كنشاط يرتكز على أنّ النفس هي الحقيقة الوحيدة، ويُكتب للنفس باعتبارها الجمهور العريض. ومع ذلك، فإنّ الحد غير واضح أو متميز، وقليل فقط من المؤلفين يتمكنون من تحقيق متطلبات إثنوجرافيا ما بعد الحداثة، وبدلاً من ذلك تجد الكثيرين منهم ينحدرون تدريجيًا إلى أن يصلوا لنوع من ممارسة العادة السرية الفكرية.

بقدر ما لإثنوجرافيا ما بعد الحداثة من مؤيدين كثيرين يدافعون عنها بقدر ما لها من نقاد يحطون من قدرها: في الحقيقة لقد انتقدوها بقسوة. وفي الوقت الذي تظهر النظرية المُوثّقة (المؤسسة على بيانات) أنّها تتجاهل تحركات ما بعد الحداثة (*Travers, 2001b: 171*)، يؤكد التفاعليون الرمزيون من أمثال (جانس *Gans , 1999*)، أن وصف شخص ما لتجاربه الشخصية (السيرة الذاتية التي يكتبها صاحبها بنفسه) ليس له علاقة بتحليل ما يفعله الناس، أو بكيفية عمل المعاهد والمؤسسات، أو بالمشاكل التي تهتم بها المجتمعات. يشك المرء في أنّ التحول للذات والتركيز على شئونه، ودراسة عمله وإنتاجه الفكري يُعتبر بديلاً ملائمًا ومريحًا للعمل الميداني الشاق الذي يتطلب براعة وعناية فائقة والذي يُبدّد الوقت ويستهلكه. علاوة على ذلك، لو ركز الباحث على أفعاله وأفكاره هو، دون ربح عملي أو منهجي بحثي، فإنّه قد ينتهي به الأمر إلى طريق مسدود نتيجة فحص أفكاره ودوافعه ومشاعره. ومثل ذلك يقال عن الإثنوميثودولوجيا (منهجية الجماعة) التي (تقيّم المعرفة على أساس من الخبرة الذاتية)، والفلسفة الظاهراتية، والنسبية التي

تستلزمها إثنوجرافيا ما بعد الحداثة (*Lynch, 2004*) والتي تعطي الانطباع بأنّ هناك من فقد الاتصال مع الحقيقة.

٤-٥ خبر عاجل ...

لقد ترك لنا القرن الماضي وصية بتسلُّم خليط من مناهج إثنوجرافية جديدة (أو بزعم أنّها جديدة) توالدت وتكاثرت، ربما بحماسة اسمية زائدة عن الحد وهي: الإثنوجرافيا التأسيسية (*Mehan, 1979: 16-24*)، والإثنوجرافيا المؤسسية (سميث، ١٩٨٦)، وإثنوجرافيا الأداء (*MCcall , 2000*)، والإثنوجرافيا الكونية (*Burawoy, 2000*). وسوف يخبرنا الزمن فقط كم تكون هذه المقترحات مبتكرة بشكل حقيقي خال من الزيف، وما إذا كانت مجرد تجديد أو تعديل لمناهج موجودة بالفعل. وسوف أناقش اثنتين منهما فقط لأسباب تتعلق بالأسطر والمساحات.

٤-٥-١ الإثنوجرافيا العالمية (الكونية)

في نهاية السبعينيات من القرن العشرين، سار كل من آرون في. سيكوريل *Aaron V. Cicourel*، عالم الاجتمـــاع الأمريكي، والسيدة كارين كنور-سيتينا *Karin Knorr-Cetina (1981)* خطوات نحو تأسيس علم اجتماع يمكن أن يربط بين التفاعلات (الصغرى *micro*) والهياكل الاجتماعية الكبرى (*macro*). كان هدفهما هو مزج تراث الماكروسوسيولوجيا (الدراسة السوسيولوجية للوحدات الكبرى) مع تراث المايكروسوسيولوجيا (الدراسة السوسيولوجية للوحدات الصغرى)، وكانتا قد اتخذتا اتجاهين منفصلين في ذلك الوقت. ومن ثم تمّ إعادة إحياء اقتراحهما الذي سُمّي (الربط بين الوحدات الصغرى والوحدات الكبرى) وإن يكن ذلك من أجل

أغراض مختلفة للمنظر الأمريكي جيفري أليكساندر ***Jeffrey Alexander (1987)***، وعالم الاجتماع الأمريكي راندول كولينز ***(Randall Collins, 2004)***. وقد تلقت أداة الربط هذه في الوقت الحاضر قوة دفع جديدة من جانب الإثنوجرافيا الكونية ***(GE)*** التي اقترحها عالم اجتماع العمل الأمريكي مايكل بيوراووي ***Michael Burawoy*** وتسعة من شباب الباحثين، جميعهم يشكلون جزءا من جماعة مناقشة رسالة دكتوراه تحت إشرافه.

وهم يبدأون بافتراضهم أنّ العولمة تتحدى المناهج العلمية الاجتماعية الحالية للاستقصاء والتحري ووحدات التحليل لأنها تفقد استقرار وحدة ورسوخ العلاقات الاجتماعية، لاسيما الجاليات والمجتمعات الصغيرة والأماكن. لقد تمت عولمة المواقع الإثنوجرافية عن طريق روابط تجتاز أماكن متعددة وحدودا يمكن اختراقها والنفاذ من خلالها، ويمكن مناقشتها والنزاع حولها. إنّ حقيقة أنّ المواقع الإثنوجرافية تمتد عبر الزمان والمكان تثير مشاكل عملية ومفاهيمية للإثنوجرافيا، كما تثير مشاكل سياسية أيضا. ومع ذلك، فلو وضع الإثنوجرافيون أنفسهم داخل نطاق زمن ومكان الفاعلين الاجتماعيين "الذين يعيشون عالم العولمة"، يمكنهم أن يظهروا كيف يتم بناء العمليات الكونية بشكل جماعي وسياسي، وأن يعرضوا الطرق المنوعة التي تأخذ العولمة بها طريقها للشئون المحلية في كل بلد. وتُصور الإثنوجرافيا الكونية الأبعاد المحلية والأبعاد الكونية العالمية كأبعاد تأسيسية إنشائية بشكل تبادلي تعاوني، وتدرس كيف تُشكّل الصراعات المحلية والقوى الكونية العالمية بعضها البعض بالتبـــادل. على سبيــــل المثال، درست ليني هاني ***Lynne Haney***، أحد هؤلاء المؤلفين، وكالات الرعاية الاجتماعية لإحدى البلدان - المجر - التي تعيد الآن بناء مؤسساتها ومعاهدها الخاصة بالرفاهية والرعاية الاجتماعية بعد عقود من الحكم الاشتراكي. وتصف المؤلفة بألم شديد العواقب البشرية "للقوى" - صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، واليونسكو، والجماعات الغربية للأبحاث المكثفة لاسيما في مجالات التكنولوجيا، وحل المشاكل، خصوصا في مجالات التكنولوجيا والإستراتيجيات الاجتماعية أو السياسية،

أو التسليح - التي نصحت البلاد الاشتراكية السابقة، أو أجبرتها في واقع الأمر، على أن تقيم أنظمتها على أساس أوامر ومبادئ ووصايا الولايات المتحدة وممارساتها. وقد أدى هذا الشكل الجديد للاستعمار في المجر إلى تجسيد الحاجة وجعلها أمرا واقعا، وعلى تخفيض مستوى "الرفاهية والرعاية الاجتماعية" لغوث الفقراء، ولنظام مثل ومخز وبغيض.

وطبقا لآراء بوراووي، العولمة ليست عملية كبرى ذات مستوى عال للغاية. والأحرى أنها يمكن دراستها: "من أسفل إلى أعلى" وذلك بالمشاركة في حياة أولئك الذين يمرون بتجاربها. وقد عرض بوراووي وتلامذته مبادئ منهجية "لدراسة حالة ممتدة"، وهي التي ينبغي أن تعطي شكلا وجوهرا للإثنوجرافيا ذات الحرفية الجيدة. إنهم بذلك يأخذون العولمة "لأرض الواقع" ويظهرون كيف تؤثر على الحياة اليومية للناس والشعوب (وهم يدرسون "من بين ما يدرسون" ممرضات وممرضي كيرالا، والمشردين الذين لا مسكن لهم ممن يعيدون تدوير وتصنيع المواد المهمة التي توجد في القمامة، ومعدي برامج الحاسوب في أيرلندا، ومن يتلقون رعاية اجتماعية في المجر، ومناصري المساواة بين الرجل والمرأة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا في البرازيل) من خلال تحديد الحالات التي تتطلب تدخلا أو علاجا طبيا لمرضى سرطان الثدي، والتخلص من النفاية السامة، وخصخصة دور التمريض، وإحلال العاملين من ذوي المستويات المنخفضة مكان العمال من ذوي المستويات المرتفعة، وإنكار حقوق الرعاية الاجتماعية، والتأكيد على وحدات السياسة الحكومية المنظمة المبنية على أساس علم السياسة الطبيعية.

٤-٥-٢ الإثنوجرافيا النظامية

تسعى الإثنوجرافيا النظامية إلى تحقيق عدة أغراض، ويمكن تعريفها بأنها منهج يمكن الناس من استكشاف العلاقات الاجتماعية التي تشكل حياتهم اليومية.

ولقد كان إنشاؤها لأول مرة بغرض أن تكون "علم اجتماع للنساء" على يد عالمة الاجتماع الكندية والقائلة بالمساواة بين الجنسين دوروثي إي. سميث *Dorothy E. Smith (1986)*، ويستخدم الآن الباحثون في العلوم الاجتماعية، والتعليم، والخدمات البشرية، وأبحاث السياسة العامة مثل هذا الأسلوب المنهجي. وتستخدم سميث رمز أو كناية المكعب، الذي يظهر في ثلاثة أبعاد عندما تتصل رؤوسه، لتوضيح كيف تُنظِّم الإثنوجرافيا النظامية ما وراء العلاقات المحلية التي تنسق أنشطة الناس في مواقع محلية بعينها.

ومثلها مثل الإثنوجرافيا الكونية *(GE)*، تبحث الإثنوجرافيا النظامية *(IE)* وتحقق بناء على التجربة والملاحظة في العلاقات الماكرو والمايكرو بين المواقع المحلية للحياة اليومية، والمؤسسات والهيئات، والعمليات وإجراءات ما وراء المحلية للإدارة. وهي تدرس كيف تُشكِّل النظم الاجتماعية والعلاقات المُؤسسية التجربة الفردية؛ وكيف يُترجم الخطاب السياسي ذو المستوى الكلي والمعرفة التنظيمية إلى ممارسات على مستوى الوحدات الصغرى تعوق مداخل الحصول على الخدمة التعليمية، وتتحكم في فرص التشغيل (العمالة) وتُشكِّل نوعية الحياة.

دراسة حالة

سياسات التدريب المهني

تنتشر نظرية رأس المال البشري في كل نواحي سياسة التدريب المهني، ويستمر إلقاء اللوم عليها لعدم توظيفها لعلاج نقص التعليم والمهارات للعمال "غير المهرة". ومع ذلك، ففي دراسة حول برامج التدريب الوظيفي، درس كل من جراهام وجراهام *Grahame and Grahame (2000)* نظرية أو فكرة "المهارة". وأظهرا كيف يخترق نموذج العجز في المهارة سياسة التدريب الوظيفي وتخطيط

البرامج ويُفرض على المحرومين (الأقليات العنصرية/السلالية الفقيرة من النساء). وجد جراهام وجراهام عند دراسة النساء المهاجرات من آسيا أنّ المشاركات دخلن التدريب على الوظيفة ولديهنّ مهارات مختلفة، وأنّه كان هناك تعارض وتناقض بين إدراكهن الحسي لحاجاتهنّ المهارية وحاجات نظام التدريب الوظيفي. ومع أنّ المشاركات ووكالات الجاليات أدركوا أنّ إتقان اللغة الإنجليزية كان الحاجة الأكثر إلحاحًا للمشاركات الآسيويات، فإن القيد في السجلات للاشتراك في تعلم مناهج اللغة الإنجليزية كان ممنوعًا لأنّه لم يكن مُصرَّحًا به طبقًا للعوامل الثابتة التي تحددها وكالات التدريب الوظيفية. واستمرت البرامج في التأكيد على العادات والثوابت الخاصة بالعمل، وليس مهارات اللغة الإنجليزية.

تعتبر الإثنوجرافيا النظامية العلاقات العامة عمليات وممارسات نظامية تتحكم في حياة الناس من خلال العلاقات السائدة، التي يمكن تعريفها على أنّها مسرح الحوادث المتعلق بالنص (مثل التشريع، ومجالس الإدارة واللجان الحاكمة، ومخططي البرامج، والإدارة أو العمليات الإدارية)؛ حيث يتم توليد السلطة أو النفوذ كما يتم التحكم في استمراريتها على الدوام في المجتمع عبر مواقع وأماكن متعددة. والسلطة أو النفوذ أمر مهم بشكل رئيسي للتحليل؛ إذ إنّها تلقي الضوء على الممارسات التي تُهمّش العلاقات السائدة وتظهر كيف تنتقل من خلال العلم والمعرفة، والتجارب والخبرات، والحوارات والمعاهد والمؤسسات.

وتهدف الإثنوجرافيا النظامية أيضا لدمج البحث مع الممارسة، فهي، من وجهة نظر عملية، تُسهم في مشروعات تعليم الكبار وتنمية الموارد البشرية من خلال: (أ) مخاطبة القرائن الكبرى والصغرى؛ (ب) ربط القضايا مع بعضها البعض عبر مواقع متعددة؛ (ج) كشف الستار عن قدرة النصوص على تشكيل حياة الناس والتحكم فيها بطرق غير محسوسة أو مُعترف بها؛ (د) تقديم أدوات عملية تدعم التغيير على المستوى المحلي بمساعدة تعليم الكبار في إيجاد طرق نغير بها

حياتنا وحياة الأخرين - بشكل فردي، وتنظيمي، واجتماعي. إنّ الإثنوجرافيا النظامية شبكة متطورة ومنظمة تنظيمًا جيدًا من العلماء والباحثين من أمثال مارجوري ديفولت *Marjorie DeVault*، وبيتر جراهام *Peter Grahame*، وآخرين، انظر: (*http://faculty.maxwell.syr.edu/mdevault/Default.htm*)

ملاحظات ختامية

تتعايش الأساليب المنهجية التي قدمناها في هذا الباب مع الأساليب التقليدية أكثر، لكنها ليست أقل منها درجة من حيث تأثيرها وفعاليتها، التي أوجزناها في الباب السابق. ونتيجة لذلك، فإنّ مجموعة كبيرة منوعة من المناهج الميثودولوجية النظرية اليوم تعتمد على الإثنوجرافيا باعتبارها المنهج الأساسي لبحوثهما. ويعتمد ما يتم اختياره منها على الوضع النظري للباحث، وعلى ميوله واتجاهاته وإحساسه ووعيه وإدراكه.

أما وقد أتممنا هذا المسح الشامل الضروري، فسوف تركز الأبواب التالية في الكتاب على كيف يتم بالفعل في الواقع إجراء "البحث الإثنوجرافي، ونصف بالتفصيل الخطوات الأساسية، والمشاكل وعلاجها في هذه الممارسة البحثية الخلابة.

النقاط الرئيسية

- توسعت الإثنوجرافيا الجديدة أبعد من الحد في تفسير اصطلاح "إثنوجرافيا" مع تخفيف وترقيق معناها ليشمل حشدًا كبيرًا من معان متضادة ومتناقضة أحيانًا حتى أصبح مرادفًا للدراسات الكيفية.
- تدرس "إثنوجرافيا الاستقبال" الجماعات المستقبلة لمضمون وسائط الاتصال الجماهيري (التليفزيون، والراديو، والكتب... إلخ). وكان هذا

المنهج يرد على نظريات وسائل الاتصال الجماهيري، بادئا بأن المستهلكين لم يكونوا مطلقا مستقبلين سلبيين للمعاني: لقد أصدروا معانيهم الخاصة بهم بفاعلية وحيوية.

- تختلف الإثنوجرافيات النسوية عن إثنوجرافيات الرجال في ناحيتين: فمن ناحية، فهي تهدف للكشف على العلاقات الاجتماعية التي تولّد وتؤكد بالدليل على التفاوت والتحيز الاجتماعي ضد النساء على وجه التحديد؛ ومن الناحية الأخرى فهي تتبع مجموعة مبادئ ميثودولوجية هادية ومرشدة لها: الأخلاق، والاستماع والإنصات الإيجابي، واستثارة ضمائر (النساء)، وتعبير الجماعات المُهمّشة من النساء عن آرائهن، والانعكاسية، والاهتمام والعناية (أكثر من الرجال) بالمشاركات في البحث.
- إنّ إثنوجرافيا ما بعد الحداثة خط في جديلة داخل نطاق أنثروبولوجيا ما بعد الاستعمار التي تقوم بتحليل نيّر وعنيد لأنواع التحيز المتمركز حول السلالة للأنثروبولوجيا التقليدية، وهي علم يخفي هدفه ونثره الواقعي نزعته للتفوق والترفع تجاه "ثقافات أخرى". وقد أثار مثل هذا التحليل ما أطلقوا عليه أزمة التمثيل.

المصطلحات الأساسية

الإثنوجرافيا الذاتية: ضرب من ضروب الكتابة والأبحاث التي تربط بين الأمر الشخصي والناحية الثقافية، بوضع النفس داخل نطاق سياق اجتماعي. وهو يتضمن روايات شخصية تحليلية عميقة حول النفس/ الكاتب كجزء من مجموعة أو ثقافة، وذلك في محاولة مزدوجة لتفسير النفس للآخرين وتحليل الموقف الذي يكون المرء فيه مختلفا أو دخيلا.

أزمة التمثيل: تطرح أسئلة حول الطرائق (البلاغية المتكلفة، والأسلوبية، وتلك المتعلقة بالنص) التي بها توصف الثقافات ويُجعل لها شكل محسوس. وطبقًا لأخصائيي إثنوجرافيا ما بعد الحداثة، فإنّ الموضوعية والنزاهة وعدم التحيز ليست من معالم العمل التفسيري للإثنوجرافي، لكنّ الأوهام والمجازات هي التي تنشأ وتُعزز من خلال إستراتيجيات بلاغية.

الإثنوجرافيا العالمية: محاولة اعتزم القيام بها مايكل بوراووي *Michael Burawoy* لدراسة العولمة: "(الكونية) من أسفل "وذلك بالمساهمة في حياة أولئك الذين يمرون بتجاربها؛ لفهم وإدراك الرابطة الكبرى- الصغرى (الماكرو والمايكرو) "من خلال" دراسة حالة ممتدة"؛ ومن أجل أخذ العولمة "الأرض الواقع" بحيث يظهر كيف تؤثر على الحياة اليومية للناس والشعوب.

الإثنوجرافيا النظامية: منهج بحث واستقصاء يبحث في العلاقات الاجتماعية التي تُشكل حياة الناس اليومية. وهي تبحث وتحقق بناء على التجربة والملاحظة في الروابط ما بين المواقع المحلية للحياة اليومية، والمؤسسات والهيئات وعمليات وإجراءات ما وراء المحلية للإدارة؛ وكيف تُشكّل النظم الاجتماعية والعلاقات المؤسسية التجارب الفردية.

الحداثة: تقبُل العصر الحديث بسرور وجهة نظر واقعية آمنت بالطبيعة الظاهرية والموضوعية للحقيقة، وتبعًا لذلك أخذ يؤكد أنّه من الممكن أن نميز بين الحقيقة والكذب والبهتان.

ما بعد الحداثة: هي فلسفة تحاول أن تقوض وتشوه الأيديولوجيات الحالية والحقائق الفردية. ويؤكد فكر ما بعد الحداثة (الذي يشكل أحيانًا كتلة مشتركة مع النسبية أو النزعة التصورية) أيضا أنَ الفارق بين الطبيعة والثقافة لا يفسر على نحو تام ومناسب الموقف المعاصر بأعداده الضخمة (والمتزايدة بشكل مستمر) للأشياء أو الدوافع الهجين أي ذات الأصل المشترك. وأخيرا، يؤكد فكر ما بعد الحداثة أنَ الحقيقة غير مرتبة أو مُنظمة، وأنّها غير منطقية، وأنَ قوة التفسيرات العلمية ليست مبنية على دلائل أو براهين، لكنها مبنية على كلمات طنانة تتسم عادة بالمغالاة وعدم الصدق، وأنَ ما يوجد فقط هو الحقائق النسبية والتقليدية.

توصية بقراءة

بالنسبة للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد:

- *Moores, Shaun (1993)*
- *Travers, Max (2001a)*
- *Travers, Max (2001b)*

بالنسبة للخريجين

- *Spenser, Jonathan,(2001)*
- *Kitzinger, Celia (2004)*

بالنسبة للمتميزين ممن يجرون البحوث

- *Hammersley, Martyn (1992)a*

- *Gelsthorpe Loraine (1992)*
- *Ramazanoglu, Caroline (1992)*

اختبار تقييم ذاتي

هل أنت مستعد للفصل التالي؟ راجع معلوماتك بالإجابة عن الأسئلة التالية ذات النهايات المفتوحة:

١. ما الفوارق الأساسية بين الإثنوجرافيات التقليدية والأساليب الجديدة؟

٢. ما الأشياء المبتكرة التي قدمها "التحول الإثنوجرافي" في وسائل الاتصال الجماهيري؟

٣. ما المقومات المشتركة بين الإثنوجرافيا النسوية وإثنوجرافيا ما بعد الحداثة؟

٤. لماذا يُعتبر الحديث عن "منهج البحث النسوي" مشكلة محرجة؟

٥. ما الإثنوجرافيا الذاتية؟

٦. ما أوجه النقد التي وُجّهت لإثنوجرافيا ما بعد الحداثة؟

الهامش

١. هذا ليس لأقول إنَي ضد الاستمناء باليد (العادة السرية). إنّها نشاط يبعث على السرور ولا يؤذي أي شخص آخر. في الحقيقة، ما تؤكد عليه شخصية وودي ألين ***Woody Allen***، مخرج الأفلام الشهير هي: "لا توجه نقدا لاذعا للاستمناء باليد. إنها ممارسة الجنس مع شخص أحبه" (في فيلم أني هول ***Annie Hall , 1977***). ومع ذلك، فالاستمناء باليد عادة تبعث السرور لمن يمارسها فقط، وليس لأي شخص آخر. وأنا أفضل الإثنوجرافيات التي تبعث قراءتها السرور لجمهور أكبر من المؤلف أو المؤلفة فقط.

الفصل الخامس

تصميم البحث

قانون هايدي ***Hiade's Law***

إذا كنت لديك مهمة صعبة، كلّف بها رجلاً كسولاً - وسيجد طريقة أسهل للقيام بها.

الأهداف التعليمية

- فهم ما هو تصميم البحث والهدف الذي يخدمه.
- معرفة كيفية تعريف أو تحديد موضوع البحث، وكيفية تكوين تصور أو مفهوم له، وكيفية إجرائه.
- فهم الافتراضات المسبقة بصحة شيء ما والسيطرة عليها.
- كسب الثقة في بناء التعريفات البنائية.

٥-١ مقدمة

إنّ للحقيقة أوجهًا كثيرة؛ ولا يمكن دراستها جميعًا عن طريق دراسة بحث واحد فقط. ولهذا السبب لا ينبغي، ولا يمكن تغطية جميع نواحي مشاكل الأبحاث التي يكلف أخصائيو الإثنوجرافيا أنفسهم بها.

وعندما يخطط أخصائيو الإثنوجرافيا أبحاثهم، فإنهم يحتاجون تعريف معاني بعض الظواهر من أجل الأهداف العملية لدراستهم. وهم يفعلون ذلك عن طريق:

- الربط بين مفاهيم وتصورات مختلفة.
- ملاحظة ومراقبة الفاعلين الاجتماعيين والتفاعل معهم.
- اختيار إستراتيجيات جمع المعلومات.
- اتخاذ قرار فيما يخص النواحي التي ينبغي استكشافها، والنواحي الأخرى التي ينبغي تجاهلها... إلخ.

يتعلق تصميم البحث بهذه القرارات على وجه التحديد. وللتعبير بلغة فنية أكثر - وإن بدت شاقة ومثبطة للهمة للوهلة الأولى - يجب على الإثنوجرافيين وهم يواصلون العمل في أبحاثهم، أن يعرّفوا:

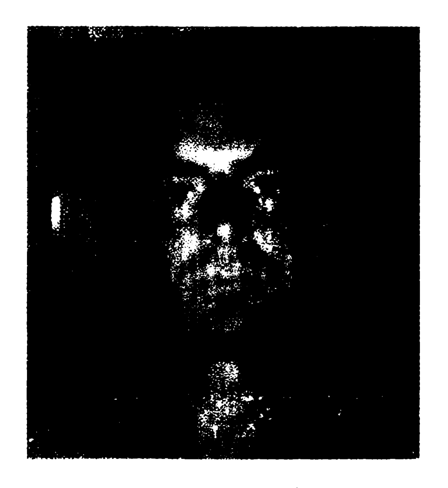
- الخصائص (الصفات المميزة) المتعلقة بموضوع البحث.
- المؤشرات (الدلالات) التجريبية لتلك الخصائص.
- التعريفات الإجرائية التي يتم من خلالها جمع المعلومات وتسجيلها.
- وحدات التحليل.
- عينة بحث.

ولا يتم اتخاذ كل هذه القرارات بوعي وإدراك وبشكل متعمد. العكس هو الصحيح، في الحقيقة، لأن الباحث إنسان وليس رجلاً آليا. ومع ذلك، فممّا لا شك فيه أنّ هذه القرارات تتّخذ أثناء إجراء البحث، وبشكل متكرر.

تصميم البحث، إذن، هو أحد المراحل الحاسمة والمهمة في العمل البحثي الذي أجريه. وتعتمد عليه دقة وصرامة مفاهيمية لا توجد بشكل مستمر في البحث الإثنوجرافي، وفي واقع الأمر، هي التي تحض النقاد على توجيه أحد أهم الانتقادات التي كثيرًا ما تُوجّه بضراوة للإثنوجرافيا وهي: أنها غير دقيقة، وغامضة، وتنقصها الدقة والصرامة.

٥-٢ العمل التفاعلي لتفسير الأعمال

انظر إلى الصورة ٥-١



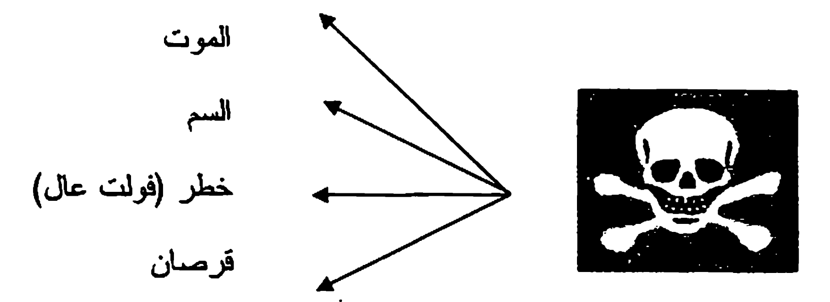
الصورة ٥ - ١

ماذا تُظهر الصورة: إنسانًا؟ رجلاً؟ وجهًا؟ رجلاً أبيض؟ شخصًا له شعر أسود؟ شابًا؟ ابنًا؟ مواطنًا؟ زبونًا أو مستخدمًا؟ موردًا من موارد البلد؟ شيئًا أو دافعًا جنسيًا (لم لا)؟ شيئًا ما آخر إلى جانب ذلك؟ والإجابة هي: كل هذه الأشياء (أو واحد منها) في وقت واحد. كل ذلك يعتمد على النواحي التي تهمنا أو النواحي التي نريد أن نُؤكد عليها.

وبالمثل، عندما تحدث الفيلسوف النمساوي القادم من فينّا ألفريد شوتز *Alfred Schutz* عن كلبه قال:

> **أنظر إليه نظرتي لصديقي ورفيقي روفر *Rover*... دون دافع خاص، لا يغريني أو يدفعني شيء للنظر إلى روفر كحيوان ثديي، أو حيوان، أو شيء قادم من العالم الخارجي، مع أنني أعلم أنّه كل هذه الأشياء أيضًا *(1953: 8)*.**

ما هو المراد من هذا؟ لقد تذكر شوتز من هذا المثال فرضية أصحاب النزعة التقليدية. وهم يؤكدون أنّ العلاقة بين أي شيء واسمه ليست علاقة مطلقة لكنها علاقة تحكمية تعسفية. تأمّل في الرمز أسفل الشكل (٥ - ١). إنّه يمكن أن يفترض أربعة معانٍ مختلفة على الأقل (وسوف تتمكن أنت بالتأكيد أيضًا أن تفكر في افتراضات وتصورات أخرى).



الشكل ٥ - ١ لافتة واحدة لأربعة معانٍ؛ وبالتالي أربعة رموز مختلفة

ولو ذكّرت نفسك بالمناهج التي ناقشناها في أبواب سابقة لما ترددت إزاء منهجية الإثنوميثودولوجيا ولا منهج ما بعد الحداثة في تقبل وضع شوتز. وبالتالي، فعندما يلاحظ أخصائيو الإثنوجرافيا ويدونون ملاحظاتهم على الأحداث، فإنّهم يسجلون حقيقة موجودة "أمامهم هناك" بشكل مستقل عنهم هم أنفسهم كملاحظين، لأنّه:

> **إذا تحرينا المعنى الدقيق لما نقوله، لا توجد أشياء مما نسميها حقائق دامغة وبسيطة... لذا فهي دائمًا حقائق مُفسَّرة ... وهذا لا يعني أنّنا، في الحياة اليومية أو في العلوم، لا نستطيع إدراك حقيقة العالم. إنّما يعني فقط أنّنا نفهم وندرك نواحي معينة منها فقط، وبالتحديد تلك النواحي الوثيقة الصلة بنا إما لمواصلة إتمام ما يشغلنا في حياتنا أو أنّها من وجهة نظر مجموعة من القواعد المتّفق عليها في إجراءات التفكير تُسمى المنهج العلمي** (*Schutz 1953: 5*).

وإذا لم تكن الحقائق العارية غير موجودة، فإنّ الإثنوجرافي يجد نفسه مضطرًا ليس فقط لمجرد أن يسجل الحقائق التي يلاحظها، ولكنه مضطر أيضًا أن يفسرها. بمعنى آخر، إن التصنيفات التي يُدونها الإثنوجرافيون من خلال ملاحظة أفعال وتحركات المبحوثين عبارة عن *تفسيرات* ترجع بالتالي في جزء كبير منها إلى الرسم البياني الذهني الخاص بهم بشكل جوهري، وكذلك حاجاتهم العملية. ألا تُصدّق ذلك؟ اقرأ المثال التالي.

دراسة حالة

العلم في حالة حركة

ما بين شهر أكتوبر ١٩٧٥ وشهر أغسطس ١٩٧٧ أجرى الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي برونو لاتور ***Bruno Latour***، وهو شخصية قيادية في الدراسات العلمية، بحثًا إثنوجرافيا عن معهد سولك ***Salk Institute***، وهو مركز أبحاث جامعي في كاليفورنيا مبني في لا جولا، ساندياجو ***La Jolla, San Diego***.

انضم لاتور لجماعة علماء معهد سولك ومكث معهم لمدة ٢١ شهرًا، تمامًا كما تعود علماء الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) على العيش وسط القبائل أو العشائر الأفريقية. وتبنّى نفس هيئة من يعبرون عن الدهشة منهم أيضًا. ولكنّه قبل كل شيء، استخدم "نظرة محدقة" كانت ساذجة وبريئة وطبيعية؛ نفس النظرة التي لو كانت في حجرة دراسة، لكانت لمن يتصور أنّه يرى (على سبيل المثال)، ليس الصيغ الرياضية التي كتبها المدرس على السبورة، لكن علامات فقط وفي النهاية ... طباشير على السبورة. وبتبني هذا الوضع المادي جوهريًا، يبدو المختبر بيئة مكوّنة أساسًا من علامات، أو -الأفضل أن نقول- كلام منقوش(١) وآثار، وبقع، ونقاط، ورسوم بيانية نسيجية، وأرقام مسجلة، وألوان الطيف، وقمم جبال وهضاب وخلافه، وما إلى ذلك (١٩٧٩: ٨٨. هامش٢) توجد في كل مكان. وتُصدر "وسائل وأدوات النقش" (علماء، وفنيّون، وماكينات ومعدات مختبرات مرتبطة بشكل مستمر بالكمبيوتر، أو آلة الطباعة، التي تصدر مردودًا ومنتجات).

في نظرية لاتور وولجار، هذا المختبر عبارة عن نظام من تعبيرات أو بيانات (كلمات، وتوكيدات، وإثباتات) ونقوش أو كتابات. وطبقًا لآراء لاتور وولجار، هناك خمسة أنواع من التعبيرات والبيانات. وهي توجد في مستوى أعلى من الكلام المنقوش ويتم ترتيبها وتنظيمها في تسلسل هرمي طبقا لدرجة التحكمية التي ينسبها جماعة العلماء إليها (انظر الشكل ٥ – ٢). بمعنى آخر، تحتل (ما يعتبره العلماء أنّه) الحقائق، المستويات المنخفضة في الميزان، بينما تحتل الآراء المستويات العليا منه (ص ص ٧٦ –٨٠) (من أجل تفاصيل لدراسة الحالة المهمة هذه، ادخل على الرابط (*www.sagepub.co.uk/gobo*).

عبارات من النوع ١ (التخمينات أو التأملات)
عبارات من النوع ٢ (أوصاف)
عبارات من النوع ٣ (توكيدات غير نهائية أو محدّدة)
عبارات من النوع ٤ (حقائق متخصصة)
عبارات من النوع ٥ (حقائق مُسلّم بها جدلاً، وتُعتبر أمرًا مفروغ منه)
نقوش (كلام منقوش)

الشكل ٥-٢ تدرج العبارات

ربما لم يكن للاتور وولجار أن يجدا ولا حتى عالمًا واحدًا مستعدًا أن يُصرّح بأنّ اكتشافاتهما تقابل وتماثل حقيقة المختبر، أو أنّ تصنيفاتهما تصنيفات حقيقية - ليس لأنها غير حقيقية - لكن لأنّ التصنيفات دائمًا من إنشاء من يُصدرونها، إنها اختراعات.

ولا يمكن أن تكون غير ذلك، لأنّ عملية الفهم، وكما أظهر علماء النفس المعرفيين، وتذكّر المعلومات واسترجاعها هي خليط من الإدراك والبناء. وما ندوّنه ونُخزّنه هو تفسيرنا الخاص بنا لحدث ما (تصوير وتمثيل له)، وليس الحدث

ذاته. ونحن نضيف شيئًا للحدث من أنفسنا من خلال استنتاج الاستدلالات. ومن هنا، ولأننا نكون قد قمنا بيذا الخلط، نصبح غير قادرين بعد على التمييز بين ما شاهدناه أو سمعناه، وبين ما استنتجناه، أو تحت تأثير "القوالب السلوكية" التي تحثنا على إعادة بناء الأحداث بشكل نمطي، تجدنا نخترع/ نتذكر تفاصيل غير موجودة في الحدث الذي تذكرناه. ونتيجة لذلك، فإنّ ما يتذكره الإثنوجرافي هو خليط من الحدث الذي وقع بالفعل وأشياء وفقرات نستمدها من العناصر القياسية التي تقدمها السيناريوهات الذهنية.

دراسة حالة

مزالق ومآزق الذاكرة

كان التأثير الذي مارسته النصوص المحفوظة على الملاحظة والإدراك الحسي، وتفسير وذكرى الحدث موضوعًا لدراسات متعددة، تم إجراء معظمها خلال السبعينيات. على سبيل المثال، لعلنا نأخذ التجربة التي أجراها كل من أندرسون وبيكيرت ***Anderson and Pickert (1978)***. لقد طلبا من مجموعةً من الطلاب قراءة وصف لبناية، وبينما يفعلون ذلك يتخيلون أنّهم سيقومون في الغالب بشرائها. وطُلب من مجموعة ثانية من الطلاب بدلاً من ذلك قراءةَ وصف نفس البناية بينما يتخيلون أنفسهم من اللصوص الذين يسطون على المنازل. وطُلب من كل مجموعة بعد ذلك أن يتذكروا وصف البناية. وبسبب تأثير النصين المكتوبين المختلفين (نص شاري البناية ونص اللص سارق البنايات) تذكرت المجموعة الأولي المقومات البارزة للبناية من وجهة نظر من سيشتري البناية، بينما تذكرت المجموعة الثانية مقومات البناية من وجهة نظر اللص سارق البنايات. وكان كل نص منهما يبدو وكأنّ كل مجموعة منهما قد قرأت أوصافًا مختلفةً. (لقراءة دراسة حالة أخرى، ادخل على الرابط: www.sagepub.co.uk/gobo .

وإذا سلّمنا أنّ أخصائي الإثنوجرافيا يخلق إلى حد ما الحقائق التي يسجلها (أو تسجلها) بعد ذلك، يُستحسن بالنسبة له (أو لها) بشكل انعكاسي أن يضبط ويراقب نشاط بنية التفسير الذي يقدمه (الذي يكون بلا وعي وغير مقصود في معظم الأوقات)، لذا فإنّ تصميم البحث يكون فرصة (أكثر منها عائقًا) لأنّه يساعد الباحث على أن يتخذ قراره بوعي وإدراك أكثر نحو ما ينظر إليه – أو بمعنى آخر، ما يضمه داخل نطاق مجاله (أو مجالها) في الملاحظة، تمامًا كما قرر شوتز أن يرى كلبه كصديق من بين أصدقائه (وليس كحيوان من الثدييات)، كذلك الإثنوجرافي الذي يعمل في تنظيم أو مؤسسة قد يفضل أن ينظر للعلاقات غير الرسمية مفضلاً ذلك عن النظام الهرمي، والصراعات مفضلاً إياها على التآلف والتناغم والاتفاق الجماعي في الرأي، والدوائر والهيئات الفعالة ذات الكفاءة العالية مفضلاً إياها على الدوائر والهيئات الفوضوية وغير المنظمة، والنواحي غير المنطقية مفضلاً إياها على النواحي العقلانية، وما إلى ذلك.

لذا يجوز لنا أن نقول إنّ عمل الإثنوجرافي، في أصله، يتكون من استخدام المفاهيم واختراع مفاهيم جديدة (وهذا يحدث قليلاً جدًا للأسف).

٥-٣ بناء موضوع البحث

قانون باتون ***Patton***

إنّ خطة جيدة اليوم خير من خطة ممتازة غدًا.

فيما عدا الحالات التي يُبنى فيها البحث بوصفه نتيجة أغراض ونوايا محددة أو فرضيات، فهو في بدايته يكون غير محدد وغامضًا وغير واضح. ويكون كذلك نتيجة أسباب متعددة. وعندما يتم التكليف بإجراء البحث، خلافا لما يمكن للمرء أن

يتوقعه، يكون لدى أعضاء اللجنة المكلفة بإجرائه مجرد فكرة غامضة عمّا يريدون أن يعرفوه، ويصبح اهتمامهم المعرفي واضحا فقط (يمكننا القول إنه يتم بناء الفكرة وإنشاؤها) خلال النقاش والتفاعل مع الباحث. وفي حالات أخرى، يكون اهتمام الجهة التي تطلب البحث (لاسيما لو كانت مُكونة من أفراد غير متولين مناصب أو أعمالا عامة)، منصبا أكثر على حل مشكلة ما أكثر من اهتمامها بالأفكار التحليلية. حتى في الحالة العادية للغاية لمشاريع البحث الذي يُعرض على المنظمات التي تقدم تمويلا للبحث على هيئة منح أو منح دراسية، من غير المحتمل أن يكون المشروع نسخة دقيقة من البحث الذي يتم إجراؤه في الواقع. وأخيرا، في حالة البحث الذي يكلف الباحث نفسه به (أطروحات، ورسالات الدكتوراه، وما بعد الدكتوراه)، فإنّ موضوع البحث يفترض فقط شكلاً محددا ودقيقا *أثناء* إجراء البحث أو نتائج مستمدة من المفاوضات مع رؤساء المنظمة التي يريد الباحث أن يدرسها. وأنا أستخدم متعمدًا تعبير "موضوع" البحث (أي مفاهيمه) بدلا من كلمة "هدف" لأنّ المفروض أنّه قد أصبح واضحًا الآن أنّ عالم العلوم الاجتماعية مملوء بالمفاهيم أكثر من امتلائه بالأهداف والبواعث. ولكي أوضح هذا التعبير - الذي قد يبدو استفزازيا للوهلة الأولى - فسوف أسوق المثال التالي:

دراسة حالة

فهم الشرق

أكّد الكاتب الفلسطيني إدوارد سعيد (١٩٦٣ - ٢٠٠٣) أنّ الشيء الذي نسميه نحن في الغرب "الشرق" هو في حقيقة الأمر "اختراع أوروبي" أو خيال، من نتاج جغرافيا خيالية. بالطبع هناك ثقافات حيّة في الأراضي التي ترمز إليها أوروبا باصطلاح "شرق". ومع ذلك، يلاحظ سعيد، يؤكد على، وجود اختلافات كثيرة،

وليس على أوجه الشبه الكثيرة، بين أوروبا وما يُسمى "بالشرق"، ويصر على أنّ هذه الفئات المفاهيمية ذات شقّين، وغالبا ما يكون كل شق منهما عكس الشق الآخر، يتعلق بصور ولغة مجازية أصبحت بمرور الوقت مُشكلة استطراديًا بواسطة المستكشفين الغربيين، وتجار الفنون، والروائيين، والمؤرخين، وأخصائيي علم الإنسان، وعلماء الآثار. "لكنّ هناك أيضًا بعدًا سياسيًا لهذه المسألة" هكذا يؤكد سعيد في أقواله. إنّ هذه البنية الخيالية تخدمهم من حيث إنّها تبرر وضع التفوق لدى الغرب؛ "إنّ العلاقة بين الغرب (أوروبا وأمريكا) و"الشرق" علاقة قوى ونفوذ، وسيطرة... لذا فالشرقية ليست تعبيرًا وهميًا لخيال أوروبي جامح، لكنها قوام مُنشأ من نظرية وممارسة فيهما استثمار مادي ملموس (*1978: 5 - 6*).

لذا فما نُسمّيه "أهداف" هو في الحقيقة مفاهيم، ومواضيع تشكلها افتراضات ومزاعم نظرية أساسها، بدورها، المعرفة المبنية على الفطرة السليمة وليس على المعرفة العلمية، كما ستظهر دراسة الحالة التالية.

دراسات حالة

إجراء أبحاث عن الأسرة والفقر

ادرس وتأمل في مثالين: بحث عن الأسرة ودراسات عن الفقر.

عليك بدراسة مثالين والتأمل فيهما: بحث عن الأسرة، ودراسات حول الفقر. الأسرة موضوع محسوس وواضح وملموس بدرجة أقل بكثير مما يعتقد الناس عمومًا. ناقش ما الشيء الذي يُشكّل الأسرة مع زملائك في الصف الدراسي أو مع أساتذتك. هل نعتبر أنّ جماعة من الرهبان أو من الطلبة الذين يعيشون تحت سقف واحد يُشكلون أسرة؟ هل زوجان مرحان مبتهجان أسرة؟ هل لابد من وجود زوجين كشرط لوجود أسرة؟ إذا كانت إجابتك بـ "نعم" فأنت بذلك تقصي وتستثني

الأمهات المنفصلات أو المطلقات (مع أولادهن). في الماضي، كانت "الأسرة" تعني اتحاد اثنين من الناس من جنسين مختلفين (بمعنى زوجين كل منهما من أفراد الجنس الآخر) بمراسم وحفلة زواج. أمّا اليوم، فقد أصبح مفهوم الأسرة يختلف كثيرًا، ويمتد ليشمل أنواع علاقات أخرى كثيرة، وتم تعديل البحث الاجتماعي طبقًا لهذا، وهذا مثل آخر لكيف يؤثر المجتمع في العلم.

خذ المثال الثاني، وهو المثال الخاص بالدراسات حول الفقر. حاول تعريف الشخص الفقير: بمعنى الشخص الذي يمكن أن يعرفه شخص آخر يعيش فوق خط الفقر بأنّه فقير. وسوف ترى أن الفقر أيضًا شيء غير واضح ولا يمكن إدراكه، حتى وإن بدت هذه العبارة سخيفة ومثيرة للسخرية. ولكن إذا تركنا جانبًا الأطفال الذين يموتون جوعًا على شاشات التليفزيون، وركّزنا على الفقراء في أوروبا أو أمريكا، ندرك مدى صعوبة تعريف الشخص الفقير (أي أن نحدد المفهوم). هل الفقر ظاهرة اقتصادية فقط؟ لو كان الأمر كذلك، كيف يمكننا أن نعلل أو نفسر حالة كبار السن الذين يعيشون في ظروف (تُعرف بشكل عام على أنّها) فقيرة؟ ولكن يُكتشف عندما يموتون أنّهم كانوا يملكون مبلغًا كبيرًا من المال في البنك أو كان مخفيًا تحت الفراش! لذا أليس الفقر ظاهرة ثقافية أيضًا؟ وإذا كنا لا نستطيع أن نُعرّف الفقر بوضوح، كيف يمكننا أن نبدأ في دراسته؟

وفي الختام نقول إنّ الظواهر الاجتماعية بالتالي هي في المقام الأول مفاهيم وأفكار (*Hayek, 1949, 1972*).

٥-٤ الخطوط العريضة لموضوع البحث

في ضوء المناقشة السابقة يبدو من الواضح أنّ - إلا إذا كان قد تم صياغة فرضيات نهائية محددة بالفعل - موضوع البحث يتم تعريفه وتحديده بدقة شديدة

في *سياق* البحث: إذ تضيق بـؤرته، وتبرز نواحي جديدة (أخلاقية، أو اجتماعية أو سياسية) للمشكلة، وتزداد الموارد وتتضاعف (وقد تم الحصول على التمويل، وعرف الوقت المتاح قبل حلول المواعيد النهائية أو عدد المتعاونين في إجراء البحث). وهذه إحدى دواعي قوة البحث الكيفي، وليست نقطة ضعف فيه؛ وإحدى عناصر مرونته وقدرته على التكيّف بشكل مضاد تماما، على عكس البحث الكمي، الذي "يُخضع" موضوع البحث لمتطلبات المنهج (وليس العكس).

وعادة ما يتم اتخاذ قرار بحصر وتقييد المجال المعرفي بعد بلورة المشكلة على ثلاثة مستويات تتكرر ويمتزج نسيجها في البحث الإثنوجرافي، وهي:

(١) تقديم تصور ومفهوم للظاهرة التي يجري تدارسها وفحصها.

(٢) تعريف إجرائي.

(٣) اختيار نوع العينة لاستخدامه.

في الحقيقية، كتب كثير من المؤلفين (من بينهم سبرادلي ***Spradley, 1980: 34***؛ وهامرسلي وأتكينسون ***Hammersley and Atkinson, 1983: 175***؛ وسيلفرمان ***Silverman, 1993: 46***) أنّ "القمع" هو أفضل استعارة يوصف بها مسار البحث الإثنوجرافي.

فعند اختيار موضوع للبحث، من الأفضل تحاشي المشاريع الطموحة أكثر من اللازم، لأنّها تحمل مجازفات كبيرة لتعرضها للتشتت أو لاحتمال أن تفرز نتائج سطحية فقط. إنّ الانهماك واستغراق الأفكار بغية الحصول على صورة كاملة لظاهرة ما بمشروع بحثي واحد فقط هي أفضل وصفة أو طريقة لتدمير المسعى البحثي (سيلفرمان وجوبريوم ***Gubrium, 1994***).

ويجب أيضًا أن يُعد تصميم خطة البحث بحيث تكون مرنة حتى يمكن تكييفها مع التدفق غير المنظم لقرارات مطلوبة للتعامل مع أحداث غير متوقعة في

الميدان؛ كما ضرب مثلاً بذلك، على سبيل المثال، عالم التنظيم الأمريكي ألفين دبليو. جولدنر *Alvin W. Gouldner*، فبينما كان جولدنر يدرس بيروقراطية شركة تعدين أمريكية صغيرة، أجبره بشكل غير متوقع حدوث إضراب غير مشروع على تعديل خطته الأصلية الأولى، ومن أجل ذلك انتقل لدراسة الصراعات الجماعية، ثم طور نظرية عامة حولها فيما بعد. لذا فمن الأمور المهمة لتصميم البحوث أن تكون "مفتوحة من الناحية المعرفية": بمعنى أن تكون مُخططة ومُنظمة بقصد تطبيق واستخدام محدد لها حتى يكون الأمر "غير المتوقع متوقعا". ومن المشهور في هذا الاتجاه اقتراح بلومر *Blumer (1969: 148)* بأن تُعامل مفاهيم ومقولات البحث على أنّها "مفاهيم مرنة" (مفاهيم مرشدة وهادية) بدلاً من أن تُعامل على أنها "مفاهيم نهائية أو محددة"، والمفاهيم التي ذكرناها أولاً لا تُمكّن:

> **من يستخدمها من الانتقال مباشرة للمثال ومحتواه وثيق الصلة بالموضوع (من حيث إنّها) تعطي مستخدمها إحساسًا عامًا بالإسناد والمرجع والإرشاد عند التعامل مع أمثلة تجريبية. بينما تقدم المفاهيم النهائية المحددة وصفات لما تراه، المفاهيم ذات حساسية تقترح فقط الاتجاهات التي تنظر من خلالها.**

تساعد المفاهيم المرنة الباحثين بالتعامل مع الحقائق التجريبية بأن تضمن لهم أنّهم يمكنهم دائمًا تصحيح أنفسهم.

٥-٥ إدارة مرحلة ما قبل الفرضيات، وما قبل الأحكام والتحيزات: دور الانعكاسية

ملاحظة باروتش Baruch

إذا كانت المطرقة هي كل ما تملك، فإنّ أي شيء سيبدو لك أنّه مسمار.

قبل أن أصف المستويات الثلاثة الرئيسية لتصميم البحث، سوف أؤكد على خطر يأتي دائمًا في مرحلة التفسير: وهو أنه (أو أنها)، مثل المؤلفين الذين يستخدمون دون تفكير فرضيات حول "الشرق" (سعيد)، قد عودت نفسها وكيفت أوضاعها بشكل مبالغ فيه من خلال فرضيات وتحيزات معينة.

والتحيزات قد تكون إمّا إيجابية أو سلبية. وقد يكون لدينا اتجاهًا إيجابيًا نحو من هم مستبعدون أو مستثنون اجتماعيًا (كما كان بعض أعضاء مدرسة شيكاغو) أو قد نحمل توجيا سلبيا نحوهم (كما فعلت النظرية الوظيفية البنائية لعالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز). وسواء كان التوجه إيجابيا أو سلبيًا، فهو دائمًا تحيز. لذا فنحن جميعا لدينا افتراضات مُسبقة أو قبلية، ونصدر أحكامًا مُسبقة ونُضمر تحيزات ونخفيها: فهي أمور لا مفر منها. على أي حال، فإنّ تفكيرنا قد يتأثر بها؛ وقد تجعلنا منحازين إلى مدى كبير أو صغير.

وهنا يأتي الدور على الاتجاه الانعكاسي. إنّ العلوم الاجتماعية مُتخمة للأسف بالنظريات المرتبطة بالثقافة.

دراسات حالة

من المحروم؟

يتذكر عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي جيمس بي. سبرادلي *James P. Spradley* أنّه في الستينيات، أصبحت نظرية "الحرمان الثقافي" نظرية دارجة سائدة. كانت هذه النظرية محاولة لتفسير الفشل التعليمي للعديد من الأطفال، كان معظمهم ينتمون لجماعات اجتماعية معينة: جماعات مواطنين أمريكيين، والجماعات السوداء اللون، وجماعات المقيمين من أمريكا اللاتينية، ومع أنّها كانت على ما

يبدو نظرية تحررية تقدمية تنتقد النظام الاجتماعي الأمريكي، فإنها تغاضت عن حقيقة أنّ تلك الجماعات الاجتماعية أنشأت ثقافات متطورة وتكيّفية كانت ببساطة مختلفة عن الثقافات التي تبنتها النُظم التعليمية التقليدية. وهذا مثال نموذجي للتشتت الذي نتج عن التحيزات الموجودة في ثقافة الباحثين. بعبارة أخرى، "الحرمان الثقافي طريقة فقط للقول بأنّ الناس محرومة من "ثقافتي" (سبرادلي، ١٩٨٠: ١٤). (من أجل دراسة حالة أخرى حول تحيزات الإثنوجرافيين الأوروبيين تجاه سكان الإسكيمو، ادخل على الرابط: www.sagepub.co.uk/gobo).

لــذا فممــا يقرّ بــه المختصون على نطاق واسع اليوم هو مخاطرة عزو أو نسب خصائص للثقافة الجاري دراستها لا تنتمي لتلك الثقافة لكنها تنشأ بدلاً من ذلك من تحيزات *(Cicourel,1964; Garfinkel,1967 ; McHugh,1968; Zammerman and Pollner ,1970 ; Mehan and Wood,1975)*. يواجه العلماء ببراءة وسذاجة خطر بناء هدف سوسيولوجي ينقلون فيه خصائص الجهاز المفاهيمي الذي يستخدمونه في أبحاثهم.

فهل من الممكن الهروب من هذا الوضع الدائري؟ أجابت بالنفي بشكل جوهري تلك المناظرة العريضة التي عُقدت حول هذا السؤال في الماضي، مؤكدة أنّه "من غير الممكن من وجهة نظر نظرية". ومع ذلك، فإنّه من وجهة نظر عملية أكثر، ينبغي أن يوضع في الاعتبار أنّ دائرة التأويل يمكن علاجها لحدود منوعة معينة. وكما عبّر عنها كليفورد جيرتيز *Clifford Geertz (1926 – 2006)* عالم الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية قائلاً:

> **لم يحدث أن تأثرت مطلقًا بالجدال القائل بأنّه، بما أنّ الموضوعية الكاملة مستحيلة في هذه الأمور(لأنها كذلك بالفعل)، فإنّ المرء قد يسمح أيضًا لعواطفه أن تصبح طليقة وغير دقيقة.**

وكما أبدى روبرت سولو *Robert Solow* رأيه قائلاً: "إنّ هذا يشبه القول بأنّ البيئة المُعقّمة تمامًا أمر مستحيل، يمكن للمرء حينئذ أيضًا أن يجري عملية جراحية في بالوعة الصرف الصحي المجاري" (*1973: 30*).

من الممكن إذن اختراع إستراتيجيات يمكن أن تساعد الباحث بشكل انعكاسي لتفادي الأخطـــاء الجسيمـــة، على الأقـــل، وإلى حد ما لعلاج دائرة التأويل التي لا علاج لها. وتكوين المفاهيم والتصورات إحدى هذه الإستراتيجيات.

٥-٦ تكوين التصور حول الموضوع

مذكور في مفردات اللغة الفنية التقنية: أنّ الهدف الرئيسي للبحث هو تحديد *وضع الحالات بناء على خاصية متعلقة بمفهوم* (أو موضوع بحث). قد يبدو هذا التعبير صعب الفهم لغير المُطلعين أو المُدربين، ومع ذلك، فالأمثلة سوف تساعد على توضيح هذا القول. وأبدأ بمثال بسيط جدًا.

طول آن *Anne* خمسة أقدام وعشر بوصات، ويمكن للمرء أن يقول إنّها محظوظة، ولكن لو تركنا جانبًا مشاعر الحسد (التي يمكن فهمها) وركزنا على العبارة المذكورة أعلاه التي تبدو أنّها عبارة لا يمكن فهمها، يمكننا أن نقرر ما يلي: يمكن أن يكون المفهوم (موضوع البحث) سكان مدينة لندن؛ و"الطول" أحد *خصائص* هؤلاء السكان؛ *الحالة* هي آن؛ *ووضعها* في خاصية "الطول" هو خمسة أقدام وعشر بوصات. غير مقتنع؟ ضع المثال الآخر التالي في الاعتبار:

نريد أن ندرس نوعية العلاقة بين شركات التليفون وزبائنها. النوعية تشكلها خصائص كثيرة: السرعة التي يتم بها الرد على المكالمات؛ الكفاءة في التعامل مع الطلبات الخاصة بالمعلومات؛ الاهتمام المبذول في التعامل مع الشكاوى؛ وما إلى

ذلك. دعنا نتناول الخاصية الأخيرة: قد يستنتج بحثنا أنّ الشركات الخمس في العينة لا تهتم بشكل كبير بشكاوى الزبائن. وباستخدام اللغة الفنية، نجد أنّ ما قمنا بدراسته هو وضع (عدم اهتمام) الخمس حالات التي تمت ملاحظتها عن خاصية "القدرة على التعامل مع شكاوى الزبائن المرتبطة بموضوع البحث (مفهومه) "نوعية العلاقة مع الزبائن".

لماذا سميت أنا كلمة "*طول*" *خاصية* "وليس "صفة مميزة" أو "ملكية خاصة" لسكان مدينة لندن؟ وبالمثل لماذا سمّيت القدرة على التعامل مع شكاوى الزبائن "*خاصية*" وليس "صفة مميزة" أو "أحد أوجه المؤسسة التجارية"؟

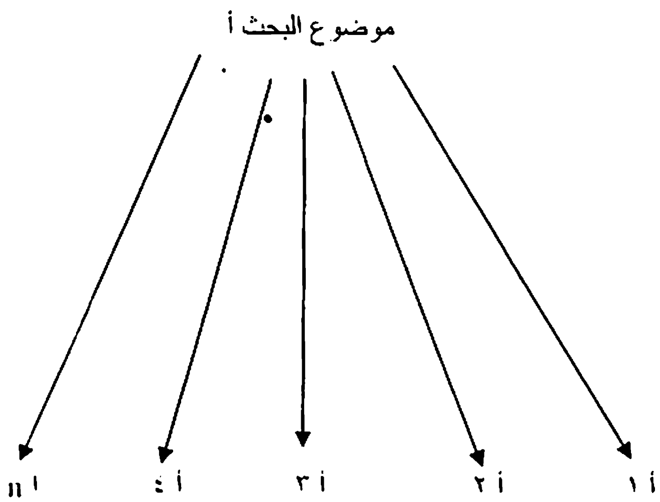
ذلك لأنّ *الصفة المميزة* أو *أحد الأوجه* توحيان أنّ الطول أو القدرة على التعامـــل مع شكاوى الزبائن *ملكيات خاصة لأهداف* "شخص" (في الحالة الأولى) أو مؤسسة" (في الحالة الثانية)، أي أنّهما مُكوّنات هذه الأهداف، وأنّ مهمة الباحث هي ملاحظتهم وتقويمهم وتنظيمهم فقط. إنّ اصطلاح "خاصية" ينقل لنا بوضوح أكثر فكرة أنّ هذه مفاهيم ينسبها الباحث (بشكل بنّاء) لموضوع بحثه (أو بحثها). وما يُسمى بشكل غير سليم صفات مميزة للهدف ليست "أشياء"؛ والأحرى أنّها "أدوات معرفية تنتج دائمًا من عملية تقديرية يقوم بها الباحث".

٥-٦-١ تحليل الموضوع إلى عناصره الرئيسية

واضح من هذه الأمثلة أنّه من المهم أن يفكر الباحث مليا وبعناية في موضوع البحث قبل الدخول في ميدانه والقيام بالملاحظات. إنّ تكوين مفاهيم وتصورات للموضوع يساعد على توضيح نوعية المعلومات الضرورية للبحث وبالتالي فلابد من جمعها في الميدان.

وأول خطوة من خطوات تكوين مفاهيم وتصورات لموضوع تنحصر في التفكير في العلاقات بين موضوع البحث وخواص ذلك البحث. من أجل تحقيق هذا الفرض، يتم تحليل أو تفكيك موضوع البحث إلى عناصر أو أجزاء أبسط (انظر الشكل ٥-٣).

هذا الإجراء المعرفي يوحي للباحث بالنواحي التي ينبغي أن يتم ملاحظتها بعناية، والنواحي التي يمكن أن يتم حذفها من الملاحظة باعتبارها غير متصلة بشكل مباشر بموضوع البحث أو أنها تعرض البحث ليصبح فيه مط وتطويل أكثر من اللازم -مع الوضع في الاعتبار أنّ "الحذف" هنا لا تعني الإزالة أو الإقصاء، لكن تعني "الترك في الخلفية". وإذا سلمنا أنّ ملاحظة كل شيء أمر مستحيل من الناحية المعرفية، فإننا ننصح بالتركيز على نواح قليلة ودراستها بعناية. وهذا أمر طبيعي تماما، إذ إنّ الذاكرة والعمليات الاستنتاجية قامت بالفعل بهذا الاختيار دون أن تدرك.



الشكل ٥ – ٣ موضوع البحث وخصائصه

٥-٦-٢ أسئلة البحث

إنّ التفكير والتأمل في موضوع البحث (أو مفهومه) وتحليله أو تفكيكه إلى عناصر أو أجزاء والدخول في خواصه يساعد الباحث على تحديد وحدات التّحليل، وتحديد العينة بالتالي. ولو تم إهمال هذه الإجراءات فسيتم جمع المعلومات عن حالات متفاوتة جدًا ومختلفة تجعل التحليل المقارن مستقبلاً أمرًا صعبًا. وعندما يفكر الباحث في العلاقة بين الخواص وموضوع البحث، يبرز عدد من الأسئلة، وهذا ما نسميه "أسئلة البحث".

دراسة حالة

تكوين أسئلة البحث

لفهم وإدراك أهمية هذه النقطة إدراكًا تامًا، ادرس المحادثة الخيالية التالية بين زميلين يعملان في إجراء الأبحاث:

أ: أريد أن أدرس العلاقة بين الطبيب والمريض...

ب: لماذا هذه العلاقة بالتحديد وليس شيئا آخر، مثل السياسات الصحية، والبيروقراطية في المستشفيات، واللوبي "أو فرق الضغط" الأطباء وشركات الأدوية والصيادلة؟

أ: لأنني مهتم بالتفاعلات.

ب: إذن أنت تحتفظ في عقلك بمنهج نظري محدد، أليس كذلك؟

أ: نعم، أنا مهتم بمناهج التفاعلات.

ب: ماذا تعني بكلمة "التفاعل؟ ما التفاعلات التي تريد أن تلاحظها؟ تلك التي بين الطبيب والمريض أو أيضا تلك التي بين المريض وسكرتيرة الطبيب، وتلك التي بين الطبيب وسكرتيرته، أو التفاعلات فيما بين المرضى في غرفة الانتظار؟

أ: إيه... لست أدري... ينبغي أن أفكر في الموضوع...

ب: ولكن ما وجه التفاعل بين الطبيب والمريض الذي تريد أن تلاحظه؟ ما التفاصيل المحددة التي تثير اهتمامك؟ خطوات الترحيب، وإجراءات العرض، إستراتيجيات الطبيب البيانية، سوء فهم بين الطبيب والمريض، مشاكل المريض في وصف أعراض مرضه، علاقة القوة والسلطة والتباين الذي بينهما؟

أ: لست أدري... لست أدري... ما زال ينبغي أن أفكر في كل هذه الأمور....

مع أنّ طرح "ب" لأسئلته بهذا الإصرار قد يبدو وقحًا (ويذكّرنا بدراسات جارفينكيل التي يقدم فيها تفاعلات الناس تجاه انتهاك أصول القواعد الاجتماعية التي يتقبلها المجتمع) فإن هذا النوع من أسئلة البحث في الحقيقة له فائدة قصوى للباحث " أ " لأنّها تدفعه وتحثه أن يفكر مليًا في موضوع بحثه وأنّ يقدم مواصفاته ويعين الحدود. علاوة على ذلك، وكما ستكون قد لاحظت، تزداد فائدة وثمرة هذا النوع من الممارسات إذا ما أُجريت مع شخص آخر أو في جماعة، خيرًا من أن تتم من جانب باحث واحد يشغل نفسه في تفكير وتأمل فردي منعزل عن الغير. وبرغم كل شيء، فإنّ أربعة عيون أفضل من عينين، كما يقول المثل.

ومن الواضح أنّه ليس من الضروري للباحث أن يسأله أو يسألها دائمًا كل هذه الأسئلة *قبل* الدخول في الميدان. لكنّه من المؤكد أنّ تكوين مفاهيم وتصورات للموضوع يُعد مطلبًا أساسيًا وضروريًا للبحث الدقيق لأنّه يحلل ويفكك موضوع

البحث ويحوله لأوجه ونواح تجريبية يمكن إجراء ملاحظات عليها. إضافة لهذا، فإن هذا الإجراء يساعد على تكوين أسئلة واضحة ويمكن اختبار صلاحيتها (*Yin , 1984: 29 – 35*).

٥-٦-٣ دور النظرية في تكوين مفاهيم وتصورات للموضوع

من المؤكد أنك ستكون قد لاحظت أنّ أسئلة البحث التي طُرحت في الحوار الخيالي الذي قدمناه أعلاه تعطي ميزة وتفيد منهجا محددا، منهجا يركز على أفعال المشاركين وليس على حالاتهم النفسية الداخلية. إنّها تُسهب فيما يفعله الناس، وليس فيما يفكرون فيه، وهي تركز على العلاقات، وليس على أفراد. وكما يلفت ساكس *Sacks (1992)* نظرنا، يطلب هذا المنهج من الباحث أن يتعامل مع ما يمكن ملاحظته بشكل مباشر جدا (الأعمال) بينما يعطي أهمية ثانوية للدوافع، والاتجاهات، والنزاعات والمخططات الذهنية. والدوافع والاتجاهات وغيرها والتي لا يتم حذفها أو استبعادها تماما (كما يحدث في النزعة أو المذهب السلوكي) لكنّها يمكن أن تُقدّر في النهاية على أساس ما يمكن رؤيته وسماعه: أي بالتحديد الأعمال والمحادثات:

إنّ الأسئلة التي طرحها الإثنوجرافيون بشكل تقليدي – والتي ترتبط "بكيف يرى المشاركون الأشياء؟" – كانت عمليا تعني التسليم بأنّ الحقيقة توجد خارج نطاق الكلمات التي ينطق بها صاحبها في وقت ومكان معينين. ويوحي السؤال البديل، وهو: "كيف يفعل المشاركون الأشياء؟"، أنّ النظام الاجتماعي الصغير يمكن تقديره والعمل به بشكل أكبر وأشمل بدراسة كيف يشكل الكلام وأنواع السلوك المباشر الأخرى الحقيقة داخل نطاق المواقف الدنيوية الفعلية (*Maynard,1989,144*) اقتبست مما كتب سيلفرمان *(Silverman, 1993: 54)*.

ليس على التقرير الإثنوجرافى إذن أن يتطابق مع المعاني التي يعبر عنها الناس أو مع أفكارهم. ويتفق تماما معها، وذلك لأنّ نقل الأخصائيين الاجتماعيين للأمور التافهة في حياتنا اليومية لا يمكن بالتحديد أن يتطابق مع "تجارب المبحوثين مع الأمور التافهة" (*Schwartz and Jacobs, 1979: 183*). وكما يعلق سيلفرمان منتقدا "لو أنّ الإثنوجرافيا قلّصت الحياة الاجتماعية لتعريفات المشاركين المحددة، فإنّها تصبح علم اجتماع ذاتيا غير موضوعى بشكل صرف يتعامى عن الظواهر الاجتماعية" (١٩٩٣: ٥٤).

وتنطبق نفس الاعتبارات على الأنثروبولوجيا المعرفية وعلي البحث الذي يتعامل مع المتغيرات النفسية والاجتماعية المتعلقة بالتمثيلات الاجتماعية التي تكشف عن نماذج عقلية أو رسوم بيانية معرفية ثابتة أو متكررة داخل نطاق جماعة اجتماعية أو منظمة أو مؤسسة. كل هذا يؤكد أنّ الثقافة توجد في عقول وقلوب الفاعلين الاجتماعيين، وطبقا للتعبير الشهير لعالم الأنثروبولوجيا المعرفية الأمريكي وورد جودنوف *Ward Goodenough (1957)*، فهي تتكون من أي شيء على الإنسان أن يعرفه أو يؤمن به كي يعمل ويدبر أموره بطريقة مقبولة لأعضاء مجتمعه في كل المواقف الاجتماعية الأساسية. وبناء على وجهة النظر هذه فإنّ الثقافة يمكن أن تفهم على أنّها إعادة بناء المقولات والتصنيفات من أجل إنشاء شيء مماثل للإثنوجرافيا النظامية، حيث لا يستطيع الناس تمييز الشخص الذي يقوم بها ويعتقدون أنّه عضو كفء من أعضاء الجماعة. ويقدم جيرتز ***Geertz*** قياسا مناسبا للحن معد لأربع آلات موسيقية لبتهوفن ويقول: "أعتقد أنّه لا يمكن أن يطابق أحد اللحن مع نتيجته أو مجموع نقاطه، ومع المهارات والمعرفة المطلوبة لعزفه، ومع فهم العازفين أو المستمعين له" (*1973: 11*). وتماما كما أنّ الموسيقى لا تتكون من نتيجة أو مجموع نقاط. كذلك فإنّ المجتمع لا يتوقف على قواعده.

٥-٧ التعريف الإجرائي للمفاهيم: لماذا نحتاج إليه؟

يتمثل عمل البحث للإثنوجرافيا أساسًا في فهم وإدراك الأحداث (التي يلاحظها) والمراد منها عن طريق تصنيف تلك الأحداث.

> **التمرين ٥-١**
>
> فكر في الطريقة التي تجعل هيئة التمريض في كثير من الاستراحات (بيوت الإقامة) يطلبون من كبار السن المقيمين فيها أن يرقدوا في فراشهم أطول مدة ممكنة. لماذا، في اعتقادك، يفعلون ذلك؟ ناقشوا هذا السؤال فيما بينكم وبين أنفسكم، أو مع أستاذكم في الجامعة، وحاولوا أن تجدوا تفسيرًا لذلك؟

ربما يكون هذا التصرف علامة على:

(١) اهتمام هيئة التمريض بصالح وخير المقيمين كبار السن.

(٢) وجود ممارسات مصممة بغرض تحقيق سيطرة اجتماعية أكبر.

(٣) رد فعل تنظيمي لنقص في هيئة التمريض.

تأخذ العلاقة بين الحدث والمفاهيم (التفسيرات) المختلفة الثلاثة المقترحة شكل *علاقة دلالة*، حيث يكون الحدث *دليلا* على وجود مفهوم محدد أو على عدم وجوده. وليس هذا امتيازًا أو حقًا مقصورًا على المنطق والتفكير العلمي (وبقدر حتى أقل من ذلك لمنهج البحث الكمي). إنّه خاصية رسمية للمنطق البديهي. بمعنى آخر، عندما يفسر المبحوثون الاجتماعيون (ومن بينهم الباحثون) السلوك، نجدهم يربطون دائمًا المفاهيم، والخواص، والمؤشرات والمتغيرات. والتفسير ليس سوى

التنشيط السريع، والمفهوم ضمنًا، والمتكرر لعلاقات المؤشرات والدلائل. وقد استعار جارفينكيل بشكل صريح تعبيرًا من عالم الاجتماع والفيلسوف المجري كارل مانهايم *(1947 - 1893) Karl Mannheim* الذي سمى هذا الإجراء "المنهج الوثائقي للتفسير":

> **يشتمل المنهج على معاملة المظهر الفعلي باعتباره "وثيقة الـ..."، "أو ك" مشيرًا إلى"، أو "يقف نيابة عن أو باسم "نمط مقتضى أو مفهوم ضمنًا". وهذا النمط المفهوم ضمنًا ليس فقط مشتقًا من الدلائل الوثائقية الفردية، لكنّ هذه الدلائل بدورها أيضًا تُترجم على أساس "ما هو معروف" عن النمط المفهوم ضمنًا. يُستخدم كل واحد منهما ليطور الآخر ويُفصّله (*Garfinkel, 1962: 691*).**

٥-٧-١ تعريفات إجرائية

نحن الآن ندرس موضوعًا كان الباحثون الكيفيون ولا يزالون يُعتبرونه "مجرد قلق وضعي". وأنا هنا أشير بذلك إلى التعريف الإجرائي. هل أنت مستعد أن تتعلم شيئًا مختلفًا عما تتفق عليه الكتب الدراسية التقليدية حول المناهج الكيفية؟

دراسة حالة

ما الصعب؟

كانت رسالتي العلمية تتألف من دراسة "لعملية الاستجابة" في المقابلات المُوحَدة، أي المقابلات التي تستخدم الاستبيان. في ذلك الوقت، نهاية الثمانينيات، كان هناك دراسات (ذات نزعات سلوكية) متعددة عن سلوك من يجري المقابلة، أو عن أسئلة موحدة صياغة الكلمات، ونظام السؤال، نظام صياغة البند والفقرة،

الاستجابة البديلة، وما إلى ذلك). لكن كانت هناك دراسات قليلة نسبيًا عما يحدث أثناء المقابلة أو في سلوك الاستجابة أو في الإجراء التفاعلي (بين من يجري المقابلة والمستجيب) الذي تنتج عنه الاستجابة. كان هذا يتطلب دراسة للمقابلة من وجهة نظر المستجيب، وليس من وجهة نظر الباحث أو من يجري المقابلة، وكانت الممارسة المعتادة لذلك كما يلي:

كان أساس رسالتي العلمية الاستماع لحوالي مائة مقابلة موحدة مسجلة على شرائط تسجيل، وتحليل ما دار بها من أحاديث. وقد أجرى أربعة زملاء هذه المقابلات مشكورين نيابة عني. ومن بين الأشياء التي أردت أن أركز عليها ما إذا كان المستجيبون قد وجدوا أنه كان من السهل عليهم نسبيا الإجابة عن الأسئلة التي تكون إجابتها عادة بكلمة "نعم" أو "لا" أو (أسئلة متعددة الاختيار) التي تقدم ثلاث أو أربع إجابات عن كل سؤال وعليهم اختيار إحداها فقط كإجابة بوضع علامة صواب أو دائرة حول الإجابة المختارة، أو ما إذا كانوا يواجهون صعوبات في اختيار استجابة بديلة. وكانت أول مشكلة منهجية واجهتها تخص مفهوم "الصعوبة". من خلال مجرد الاستماع للأشرطة المسجلة، كيف (وقد علمت أنني لم أكن موجودًا أثناء المقابلات) كنت أستطيع أن أقرر الوقت الذي كان المستجيبون يجدون فيه صعوبة في الإجابة؟ ما كان يبدو بالنسبة لي أنه مشكلة قد لا يبدو كذلك بالنسبة لباحث آخر استمع للشريط بعدي (مفهوم الثبات المنهجي). كنت أريد أن يحدث جدال جيد حول تفسيراتي، وذلك لكي أتخذ إجراءات مسبقة تجاه انتقادات الإهمال أو الاعتباطية أو التحكمية التي من المؤكد أن مسح الباحثين سيوجهها لعملي وقد ضايقتهم اكتشافاتي. وانتقادا لمقابلاتي المُوحّدة (انظر جوبو، ٢٠٠٠). وكي أحل مشكلتي المنهجية في البحث، أنشأت أولاً معنى (وبالتالي تعريفا وشرحا) عبارة "صعوبة اختيار استجابة بديلة" ثم وضعت في الاعتبار ما يمكن أن يكون مؤشرات جيدة لهذا المفهوم. باختصار، اخترعت تعريفا إجرائيا "للصعوبة". وبالنسبة للسجل اتخذت أسلوبا إجرائيا تجاه المفهوم من خلال ثلاثة مؤشرات هي:

١. الوقت الذي أمضاه المستجيبون لاختيار استجابة بديلة.

٢. حالات الارتباك / التردد التي عبّروا عنها.

٣. تعليقاتهم لعدم الموافقة أو نقد تصميم الأسئلة متعددة الاختيار.

يتكون التعريف الإجرائي من مجموعة المواصفات التي توجّه النشاط التفسيري للباحث. وهو يسمى *إجرائيا* (من أجل تمييزه عن التعريف المعجمي أو المفرداتي الذي نجده في القواميس) لأنّه يخبرنا بما يجب *فعله*: بمعنى أنّ له قصدا عمليا. ومن هنا، ومن خلال هذه المواصفات، فإنّه يتم تحديد وضع كل حالة في الخاصية رقم كذا، وتنسب لإحدى الفئات التي تم إنشاؤها، ويتم تسجيلها حتى يمكن تحليليا بالتكنيك الذي ينوي الباحث استخدامه. وكثير من هذه المتواصفات عادات تقود وتوجه إجراءات جمع المعلومات على هدي ما تم الاتفاق عليه في التعريف الإجرائي. ومن بين هذه العادات الإجراءات المُستخدمة في الوصول للميدان، والوسائل (الضمانات والعقود الرسمية الغير مختومة... إلخ) المستخدمة في التغلب على عدم ثقة المبحوثين بأنفسهم، والطريقة التي يتم بها جمع الملاحظات الإثنوجرافية، والإجراءات المُتبعة لمراجعة صحة الإجابات التي حصلوا عليها.

ويساعد التعريف الإجرائي الإثنوجرافي في تنظيم الملاحظة، وجمع المعلومات، والخصائص التي يراها (أو تراها) متصلة بالموضوع الذي يتم دراسته داخل نطاق علاقة دلالة وإشارة. بمعنى آخر، إنّ التعريف الإجرائي يمنح الدقة والقوة للنشاط التفسيري للباحث. ومع أنّ جلاسر ***Glaser*** وستروس ***Strauss (1967)*** ودينزين ***Denzin (1971)*** قد أوصوا ألا يتم إنشاء التعريف الإجرائي للمفهوم *إلا* بعد أن يكون البحث قد بدأ بالفعل، وذلك عندما يكون الباحث قد حصل على فهم أولي للظاهرة، وبعد اكتشاف "معنى المفاهيم الموجودة في موضعيا"

(*Denzin, 1971: 268*)، ولا يوجد شيء يمنع الباحث من إنشاء التعريف الإجرائي قبل بدء البحث لو أنه (أو أنها) أصبح لديهما فرضيات علمية محددة للسيطرة والتحكم في مسار البحث (انظر ٥ – ٨).

والتعريف الإجرائي هو النشاط المعرفي الفريد في العلوم الذي يميزه عن المحاولات الأخرى لجمع المعرفة. إنّ كل الأنشطة المعرفية الأخرى التي توجد في العلوم (مثل إنشاء فرضيات، وتصميم عينات، والتعميم، وعقد مقارنات، والقيام بتنبؤات، ومراجعة صحة وصدق البيانات... إلخ)، موجودة أيضًا في منطقية التعليل. لكنّ التعريف الإجرائي ليس كذلك. إنه يساعدنا على تحديد موضوعات الملاحظة (*Cicourel,1964:128*)، *وننزع طبيعة* العالم الاجتماعي الذي نبحث ونتحرى عنه، على النقيض من سلوك العضو الذي يلاحظه عالم طبيعي، وواضح، ونسلم به جدلاً، وعادي طبيعي. ولو وضعنا دراسة الحالة الأخيرة التي قدمناها، نجد بوضوح أنه من غير المحتمل للشخص العادي أن يقوم بعملية تحديد مدى مفهوم "الصعوبة" كما فعلت أنا. وعلى أقصى تقدير، سيتوقف (هو أو هي) عند مستوى التعريف: أي يسأل (يقترح مشاكل) "ما هي الصعوبة أو المشكلة؟" ومع ذلك، فيجب على العالم أن يذهب إلى أبعد من ذلك.

٥-٧-٢ دفاع عن المتغير

قانون أسبورن Osborne

المتغيرات لا تتغير.. والثوابت ليست ثوابت.

كما في حالة المؤشرات، وُجهت انتقادات كثيرة للباحثين الكيفيين لاستخدامهم المتغيرات واعتقادهم أنّ البحث الكيفي ينبغي ألا يكبحه أو يقيده مثل هذه التقييدات الصارمة. قدّم بلومر *Blumer (1956)* مقالة شهيرة حول هذا النزاع والجدال، وفيها

وقف ضد "تحليل المتغيرات" بقوة. ومع ذلك، فإنّ بلومر لم يكن ينتقد استخدام المتغيرات في حد ذاته - "فدراسة الجماعات البشرية تتطلب استخدام مجال أو نطاق كامل من المتغيرات" (١٩٥٦:٦٨٣) - لكنّ استخدامها المُقنّن، بمعنى الاستخدام الأوتوماتيكي لنفس التعريف الإجرائي مع أي بحث: "كل واحد من هذه المتغيرات، حتى برغم كونه اصطلاحًا صفيًا، يكون له أهميته ولكن في سياق تاريخي محدد فقط. والمتغيرات لا تُمثل بشكل مباشر بنودا من حياة الجماعة البشرية التجريدية" (١٩٥٦: ٦٨٤). ومع ذلك، ولأسباب تاريخية، وُضعت مقالة بلومر في الاعتبار ولكن في نواحيها الأكثر سطحية فقط، أما عن غالبية الباحثين الكيفيين فقد "تسببوا في فشل موقف بلومر نتيجة اهتمامه الزائد عن الحد بالتعليمات"، ناسين أنّ استخدام المتغيرات والمؤشرات والدلالات جزء من منطقية التعليل. لقد رأينا في الفقرة ٥ - ٧ أن المنطق الذي يتخذ المؤشر أساسًا له منطق متأصل في منهج التفسير؛ وسوف نرى الآن أنّ المتغيرات موجودة باستمرار في حواراتنا وأفكارنا أيضًا. ادرس تبادل الألفاظ التالي بين الطالب أو اثنين من أصدقائه وهو يراهما وهما يأكلان شرائح من الكعك في الكافيتيريا:

أ: ما هو طعم الكعك؟

ب: يعني. لا هو بالجيد جدًا، ولا بالسيئ جدًا.

ج: بالنسبة لي، طعمه جيد جدًا.

ما الفرق بين هذا التقييم وميزان بدائل الاستجابة الخمسة (جيد جدًا / جيد بشكل مقبول / نصف نصف / سيء نوعا ما / سيئ جدًا) التي تُستخدم عامة في الاستبيانات؟ لا فرق.

التمرين ٥-٢

تدارس التنبؤ بالحالة الجوية. ادخل في الكمبيوتر على صفحة جريدة التايمز بعنوان "خدمات الحالة الجوية" (*http://www.timesonline.co.uk*). انظر نطاق مفاهيم الحالة الجوية (بديل الاستجابة). ثم أجب عما يأتي:

ما بدائل الاستجابة "للمطر"؟ و"الثلج"؟ ما عدد البدائل بالنسبة "للبرَد" بفتح الباء والراء؟

أليست هذه متغيرات؟ بالطبع هي كذلك. من هنا فإنّ الجدل الذي يشنّه أخصائيو مناهج البحث الكيفي والباحثون ضد المتغيرات لا أساس له. في الحقيقة، لو حللنا عمل الإثنوجرافيين دون تحيزات أيديولوجية أكثر من اللازم، سنجد أنّهم يستخدمون مؤشرات ومتغيرات للتمييز بين الخصائص.

دراسة حالة

المؤشرات والمتغيرات في مصارعة الديكة في بالي

(جزيرة أندونيسية شمال أستراليا)

قام كليفورد جيرتز *Clifford Geertz* بدراسة الرهانات السرية التي يراهنون بها على مصارعة الديكة في بالي. ويبدو أنّه من الغريب أنّ جيرتز كان ينبغي أن يختار مثل هذا الموضوع المقصور على فئة معينة ليجري عليه البحث؛ ومع ذلك، كتب أنّ المسألة كانت مسألة "مجاهرة وإظهار لما هو خاص بجزيرة بالي" هو في حقيقة الأمر "مثله مثل تلك الظواهر الأكثر شهرة (١٩٧٢: ١٧٤) مثل الفن، وأشكال القانون، والنماذج التعليمية، وما إلى ذلك". شاهد جيرتز ما مجموعه ٥٧

مصارعة ديكة وكون معنى للممارسة، ولمنطق الرهان وتفاصيل أخرى. وبعد ذلك أجرى تصنيفا للرهانات السرية (مستخدما أحد المتغيرات الثنائية. أستطيع أن أقول ذلك): "عميق" و"ضحل". في الحالة الأولى، عادة:

تكون كميات الأموال عظيمة (في مقابل كميات الأموال القليلة التي يراهنون بها في مباريات سطحية أو ضحلة)، يكون الكثير من الأموال معرضا للخطر أكثر بكثير من فرصة الحصول على مكسب حقيقي: بالتحديد التبجيل، والشرف، والكرامة، والاحترام - في كلمة واحدة نقول... المكانة (الوضع). إنها تكون في خطر بشكل رمزي، لأنّه لا يتغير وضع (أو مكانة) أحد حقيقة من خلال نتيجة مصارعة ديكة (ص ٤٣٣).

ولكن كيف يمكن تمييز مباراة عميقة عن مباراة ضحلة؟ كيف يمكن للملاحظ أن يعرف أنّ نوعا واحدا من المواقف وليس غيره مستمر ومتقدم؟ ماذا كان ذلك الذي يميز أو يُفرّق بين النوعين من المباريات؟

يقدم جيرتز قائمة من ١٧ "حقيقة" (ص ٤٧٣) - ما يمكن أن نُسميها على نحو مستقيم مؤشرات ودلائل - لوجود مباراة عميقة. كان أول مؤشر من بين تلك المؤشرات هو:

الرجل فعليا لا يراهن مطلقا ضد أي ديك يملكه أحد أعضاء جماعته الاجتماعية. وعادة ما يحس أنّه مضطر أن يراهن عليه. كلما فعل ذلك كانت رابطة قرابته اكبر وكان قتال الديك اعمق وأشد. ولو كان متأكدا في عقله أنّ الديك لن يفوز، فقد لا يراهن عليه ابدا. لاسيما لو كان يملكه ابن عمه أو عمته أو ابن عم لأمه أو ابيه فقط. أو لو كان القتال من النوع الضحل. ولكن كقاعدة سيشعر أنّه لابد أن يشجعه. وفي المباريات العميقة. يفعل ذلك دائما تقريبا (١٩٧٢: ٤٣٧)

وبالمناسبة فإنّ ابن العم أو العمة، أو ابن عم لأمه أو أبيه وما إلى ذلك يعكس الوضع أو المقام في الجماعة الاجتماعية المتغيرة ! ولو كان جيرتز يرغب في ذلك، لكان بإمكانه أيضا أن يبني شبكة يظهر فيها تكرار وتواتر كل مؤشر ودليل من بين السبعة عشر مؤشرًا. على سبيل المثال، كان بإمكانه ربط مؤشر "ولاء القرابة" مع المتغير "الرهان ضد ديك أحد الأقارب"، ثم لأضاف الاستجابات البديلة التالية: "كلا، أبدًا" "أحيانًا" و"غالبًا". كان يمكن أن تظهر الملاحظات النظامية أنّه كان هناك ولاء القربى في ٩٥% من الحالات، أو في ٧٢% فقط منها. وكان يمكن للاكتشاف الأخير أن يكوّن اختلافًا ضخمًا في تقييم امتثال المجتمع مع عرف ولاء القربى – الذي بدا في الوهلة الأولى أنّه لا يقدم تنازلات.

التمرين ٥-٣

اقرأ مقالة جيرتز بالكامل، ثم أجب عن السؤال التالي: ما المؤشرات الستة عشر الباقية لوجود مباراة عميقة؟

ولتلخيص كل ما قلناه حتى الآن، ولكي نفعل ذلك بمفردات اللغة الفنية، نقول إنّ التعريف الإجرائي ينقل المؤشرات المتعلقة بخصائص المفهوم ويحولها إلى متغيرات. المتغير إذن هو نتيجة التعريف الإجرائي، ومحطته النهائية، والوسيلة التي يجمع بها الباحث المعلومات أو يحلل بها ملاحظاته ومذكراته الإثنوجرافية. المؤشر والمتغير إذن وجهان لعملة واحدة: المؤشر يتعلق بالمستوى المفاهيمي، أمّا المتغير فيتعلق بالمستوى العملي. وتقدم المتغيرات خدمة كشف أوجه الخلاف ونقلها كما تُنقل البيانات. والفرق الأساسي بينها وبين البحث الكمي هو الاستخدام المُوحّد لهذه الأدوات أو الوسائل. (انظر الجدول ٥ – ١). وعلى

عكس باحثي المسح الشامل أو البــاحثين التجــريبيين، نجــد أنّ الإثنــوجرافيين لا يُجسّدون أدواتهم ووسائلهم باعتبارها أشياء مجردة، ولا يعتبرونها شيئًا ماديًا، ولا يُوحّدون قياسها ويستخدمونها دائمًا بنفس الطريقة في جميع أبحاثهم. وبدلاً من ذلك، فإنّهم يُنظّمون أدواتهم طبقًا للظــروف والمــواقف، بإيجــاد عــلاجات خــاصة لكل مشكلة من مشكلات البحث.

الجدول ٥-١ بعض أوجه الخلاف بين البحث الكمي والبحث الكيفي

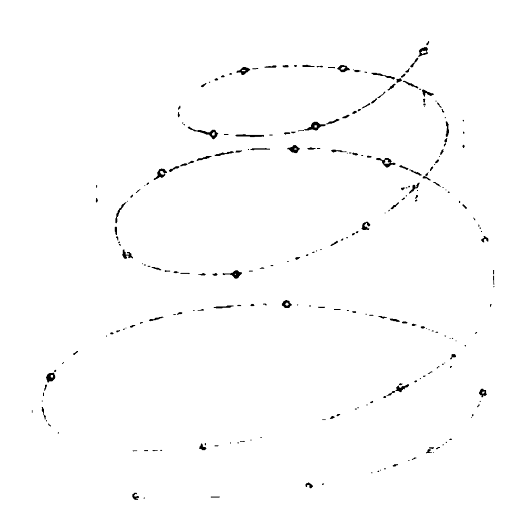
المفاهيم (المعاني)		
الاصطلاحات	البحث الكمي	البحث الكيفي
التعريف الإجرائي	نشاط يجب أن يتم قبل بدء البحث	نشاط قلما يتم قبل بدء البحث. والأغلب أنه يؤدى أثناء إجراء البحث، عندما يكون الباحث قد اكتسب فهم الظاهرة.
المؤشر	أداة مفاهيمية مُوحّدة لتصميم فهم للظاهرة	أداة مفاهيمية تعتمد على الظروف والمواقف بغرض الحصول على فهم أفضل للعلاقة بين الدلائل والنموذج أو النمط الأساسى.
المتغير	أداة إجرائية مُوحّدة لقياس الظاهرة	إمكانية القياس مرفوضة. المتغيرات أدوات إجرائيــة تعتمــد علــى الظروف والمواقف مــن أجــل تحسين شدة وقوة تفسير الباحث.
الفرضيات	يجب التحقق من التأكيدات أو أن يتم وضعها في الاختبار	يجب مراجعة التأكيدات، أو أن يتم توثيقها من خلال وسائل بيانية بلاغية.

٥-٧-٣ الصياغة التصورية والصياغة الإجرائية: عملية انعكاسية

إن ترميز الواقعة أو الحدث في البحث الإثنوجرافي ليس الفعل النهائي في عملية جمع البيانات؛ والأحرى أنّها مرحلة متوسطة فقط في تكوين المتغيرات. وإذا سلمنا بطبيعة البحث الإثنوجرافي الانعكاسية والحلزونية التصاعدية (انظر الشكل ٥ - ٤)،

فإن التعريف الإجرائي يُعدّل وتُعاد صياغته بشكل جزئي أو كلّي في مراحل متعددة من البحث: تعبر المفاهيم، والفرضيات، والمؤشرات. ومن هنا فإن تكوين مفاهيم وتصورات للموضوع وتخاذ الأسلوب الإجرائي يمتزجان في عملية انعكاسية متواصلة لتعديلات متبادلة بمقتضى احتمال حدوث إعادة لمواصفات الصيغة الأصلية لمفهوم ما، أو إعادة تكوين مفاهيم وتصورات للمعطيات: "لابد من انشاء سلسلة متعاقبة من المؤشرات التجريبية مرتبطة بكل قاعدة من قواعد البيانات والفرضيات، وأخيراً، لابد أن يستمر البحث بطريقة تكوينية تترابط فيها الفرضيات والبيانات مع بعضهما بشكل مستمر" (دينزين، ١٩٧١: ٢٦٩).

وفي الختام نقول: إنّ للتعريف الإجرائي أهمية كُبرى في إعطاء تماسك وترابط لتفسيرات الباحث وفي تقليل إمكانية النزاع حول نتائجه (أو نتائجها)؛ وهي بالتأكيد لا تعطيها ميزة التأكد، ولكنها على الأقل تمنحها خاصية توافق موضوعات مختلفة معينة بشكل أكبر.



الشكل ٥ - ٤ : النموذج (ذو الشكل الحلزوني) للبحث الإثنوجرافي

٥-٨ صياغة الفروض

وهناك رأي مألوف آخر حول البحث الكيفي وهو أنّه يقترب من موضوع البحث وهو يخلو من الفرضيات، ويكون هدفه مجرد فيم الظواهر ووصفيا (*Agar, 1986: 12*). ومع ذلك، فأنا أعتقد أنّ وجود فرضيات لا يتعارض مع هذا الهدف، لأنّ الفرضيات أيضا (وأكررها مرة أخرى) أشكال من التفكير المألوف، ونحن نستخدمها بشكل روتيني، وغالبا دون تعمد وبشكل غير مدرك.

دراسة حالة

الفروض كشكل من أشكال التفكير المألوف

ادرس المثالين التاليين:

أنت في طريقك للحاق بالأوتوبيس. ورأيت من على بعد حشدًا كبيرًا من الناس عند موقف الأوتوبيس. ماذا تفعل؟ هل تمدّ في سرعتك لأنّ وجود مثل هذا العدد الكبير من الناس معناه أنّ الأوتوبيس على وشك الوصول؟ أو هل تعتقد أنّه لا داعي للعجلة لأنّ الأوتوبيس لابد أنّه قد تعرض لحادثة أو حدث به عطل فنّي. إنّ كل خيار فرض من الفروض.

أنت الآن تقود سيارتك. وعند نقطة معينة وجدت صفًا من المركبات أمامك. فيم تفكر؟ أنّ الصف قد تكوّن: (أ) بسبب حادثة؛ (ب) بسبب أشغال طرق؛ (ج) بسبب إشارات مرور موجودة على بعد؟ في هذه الحالة أيضا، تكون قد أنشأت دون أن تشعر ثلاثة فروض مختلفة قد يكون لها نتائج عملية طبقًا لما يمكن أن يكون أي أفضلية منهم أكثرهم معقولية وجديرة بالتصديق. لو أنها الفرض الأول، فإنّك سوف تقوم بعملية التفاف وعودة (واحذر الشرطة) وتبحث عن خط سير آخر لتصل إلى المكان الذي تريده. ولو قررت الانتظار بدلا من ذلك، حتى يبدأ المرور في الحركة مرة أخرى، فقد تراجع فروضك وتكتشف سبب وجود الطابور.

إنّ الفرض توكيد -حدسي بطبيعته- حول العلاقات فيما بين خصائص معينة لموضوع البحث. بدلاً من ذلك، *ومن وجهة النظر الإجرائية*، فإنّ الفرض توكيد - حول العلاقات فيما بين متغيرين أو أكثر. ويؤكد كل من جلاسر وستروس (١٩٦٧)، وشاتزمان ***Schatzman*** وستروس (١٩٧٣)، وستروس وكوربين ***(Corbin 1990)*** أنّ الفروض لا غنى عنها في البحوث، لكن ينبغي أن تتكون ويتم التحقق منها فقط بعد جمع الملحوظات الإثنوجرافية (فروض استقرائية) حتى يدخل الباحث في الميدان دون أفكار تصورات أو أفكار مسبقة. وبدلاً من ذلك يؤكد كل من أخصائي الأنثروبولوجيا الأمريكي هايمس ***Hymes (1978)***، وعالم مناهج البحث البريطاني سيلفاروان (١٩٩٣: ٤٤)، وباحث السوق الشهير ين ***Yin (1984: 35 – 29)*** أنّ الإثنوجرافي يمكنه أن يجري بحثًا إثنوجرافيًا توجهه فروض بشكل ممتاز إذا كان لديه من قبل مستوى جيد من المعرفة حول الثقافة التي يدرسها. وكما يشير سيلفارمان متهكمًا: "البحث الكيفي يبدو غريبًا إلى حد ما، بعد مرور أكثر من مائة عام، إذا لم يكن لديه فروض يختبرها" (٢٠٠٠: ٨).

قد يتم إعداد الفرضيات إذن إما قبل جمع المعلومات أو بعد ذلك. علاوة على ذلك، ما إذا كانت الفروض عامة أو محددة، هذا أمر يعتمد على كمية المعلومات التي يجمعها الباحث حول موضوع البحث ويعتقد أنّها بين يديه. في الحالة الأولى، (إذا كانت الفروض عامة) يمكن أن تُكون فروضًا عاملة (شغّالة) بينما في الحالة الثانية (فروض محددة) يمكن تشكيل فروض مرشدة مُوجهة.

دراسة حالة

الفروض الموجهة المرشدة

استُخدمت الفروض المُوجهة المُرشدة، على سبيل المثال، عن طريق عالم النفس الأمريكي ديفيد روزينهان ***David Rosenhan*** في دراسته الشهيرة –

إثنوجرافيا شبه تجريبية – حول تفسير المعاهد الطبية النفسية للمرض العقلي. كان الشك (الذي انتشر في ذلك الوقت في المجتمع العلمي البحثي) بأنّ المرض العقل قد لا يكون بنفس درجة الصحة التي يعتقدها الناس فيه (*1937: 250*) أو قد يكون خرافة، قد دفع روزينهان إلى صياغة فرض يقول إنّ الجنون أو المرض النفسي كان تركيبًا وتفسيرًا يقوم به مستشفيات وأطباء الأمراض الطبية النفسية. لذا طرح على نفسه السؤال التالي: هل الخصائص البارزة التي تؤدي إلى حالات تشخيص الأمراض تكمن في المرضى أنفسهم أم في البيئات المحيطة بهم والسياقات التي يجدها الملاحظون فيهم؟ (***Rosenhan, 1973 ; 250***). وتمكن أولو الأمر من الحصول على الإجابة:

ذلك بإدخال أشخاص عاديين طبيعيين (أي ليس عندهم أعراض اضطرابات في أجهزتهم الطبية النفسية، ولم يتعرضوا لها طوال حياتهم) مستشفيات أمراض طبية نفسية، ثم بتقرير ما إذا اكتشف المسئولون في المستشفى بأنهم عقلاء، ولو حدث هذا، كيف اكتشفوا ذلك؟ وإذا كان المستشفى يكتشف دائمًا حالة الصحة العقلية الجيدة لمثل هؤلاء الذين يدّعون إصابتهم بأمراض طبية نفسية، إذن هناك دلائل بديهية بأن الشخص العاقل يمكن تمييزه من سياق الحالة غير العاقلة التي يجدونه فيها... وأنّ الحالة غير الطبيعية يحملها الشخص داخل نطاق ذاته. ومن جهة أخرى، إذا لم يتم اكتشاف الحالة العقلية الجيدة لمن يدّعون إصابتهم بأمراض طبية نفسية، هنا تنشأ مشاكل خطيرة لمن يؤيدون الطرق التقليدية في التشخيص الطبي النفسي. (ص ٢٥٠).

ومن أجل اختبار الفرض الأول، حصل ثمانية باحثون على إذن بدخول ١٢ مستشفى مختلفة في خمس ولايات في الولايات المتحدة لعلاج الأمراض الطبية النفسية. ومع أنّهم تصرفوا بشكل "طبيعي" تمامًا من البداية، فإنّ المستشفى احتجزهم عدة شهور ثم كتب لهم خروجا وشخص حالاتهم بأنّها "شيزوفرينيا (أي انفصام) خفّت حدّتها". لكي يرى روزينهان ما إذا كان الميل نحو تشخيص حالة

الشخص العاقل بأنّه غير عاقل يمكن أن يُعكس أو يُقلب (١٩٧٣: ٢٥٢)، أجرى تجربة إثنوجرافية أخرى قدمت نوعًا من أنواع الدليل العكسي. قال للفريق الطبي لمستشفى تعليمي وتُجرى فيه أبحاث - وكانوا قد علموا بالبحث السابق الذي أجراه روزينهان لكنّهم أكدوا أن مثل هذه الأخطاء الجسيمة لا يمكن أن تحدث في مستشفاهم - "في وقت ما خلال الثلاثة شهور التالية، سيحاول شخص أو أكثر مما يدعون المرض أن يأمر المستشفى بدخولهم للعلاج" (ص ٢٥٢). ومن بين المائة وثلاثة وتسعين مريضًا الذين دخلوا المستشفى في تلك الفترة، حدد فريق العمل هناك أنّ واحدًا وأربعين منهم ادعوا المرض. لكنّ روزينهان ذكر لهم أنّه "لم يُقدم أحد حقيقي ممن يدعون المرض (على الأقل من جماعتي) طلبا بدخول المستشفى خلال تلك الفترة !".

(ومن أجل المخاطر التي يتعرض لها أولئك الذين يتعاملون مع الفروض، ادخل على الرابط: ***www.sagepub.co.uk/gobo***).

التمرين ٥-٤

رأينا من وجهة النظر الإجرائية أنّ الفرض هو توكيد حول العلاقات بين متغيرين أو أكثر. انظر إلى التوكيدات التالية (وهي ثلاث فروض) ثم أوجد المتغيرات. ثم قارن بين إجاباتك وإجاباتي بدخولك على الرابط ***www.sagepub.co.uk/gobo***.

(١) طلاب العلوم السياسية أكثر جنوحا لجناح اليسار عن طلاب الهندسة.

(٢) طلاب المعاهد التي تُدرّس عامين فقط يدخلون امتحانات أقل مما يدخلها طلاب الجامعات.

(٣) الإيدز مرض يصيب اللوطيين[٢].

٥-٩ رسم النماذج

النماذج تمثيل لرسوم بيانية للفروض، فهي المماثل أو المعادل للاسم الفعلي للنماذج. والفرض قد يكون وصفيًا، من حيث إنّه يحدد وجود علاقة بين خاصتين أو متغيرين، أو قد يكون *تفسيريًا* لأنّه يضع فرضًا لعلاقة عارضة: النموذج (أ) --> (ب) هو معادل الرسم البياني للجملة: يُفترض أنّ هناك علاقة بين المتغير (أ) والمتغير (ب) وأنّ هذه العلاقة أحادية التوجه، بمعنى أنّ (أ) يؤثـر فـي (ب) لكنه لا تتأثر به. على سبيل المثال، أجرى كل من ستروس، وبوتشنار، وإهرليش ***Ehrlich***، وسابشين ***Sabshin (1964)*** بحثًا تجريبيا عن القواعد والاتفاقيات غير الرسمية الموجودة في مستشفيات علاج نفسي متعددة. وبعد ذلك أنشأوا نموذجًا عرضيًا تم فيه تفسير الفوارق الموجودة بين القواعد التي تُطبق في المستشفيات من خلال وجود ممارسات مختلفة للعناية بالمرضى. لكنّ هذه الممارسات كانت بدورها يحكمها النماذج المهنية التي تعلمها هيئة العاملين بالمستشفى (في مدارس مختلفة)، نماذج تعكس أيديولوجيات طبية نفسية.

وقد تأخذ العلاقات بين المتغيرات أشكالاً مختلفة؛ علاقة تداعي المعاني والأفكار البسيطة، وعلاقات متماثلة، أو غير متماثلة. في الحالة الأولى، نعرف أنّ هناك علاقة بين المتغيرين (أ) و(ب)، ولكن من غير الواضح أيهما يؤثر في الثاني. وفي الحالة الثانية، كلا المتغيرين يؤثران في بعضهما، وفي الحالة الثالثة يرجع عدم التماثل أو التناسق لحقيقة أنّه قد تم إنشاء علاقة سببية محددة (سبب العلاقة المحددة بين سبب وسبب) خلال بحثنا.

وأخيرًا، قد تكون المتغيرات من ثلاثة أنواع: مستقلة، وتابعة "أي غير مستقلة"، ووسيطة. الأولى متغيرات تمارس نفوذًا على متغيرات أخرى؛ والثانية هي تلك التي تخضع للتأثير، والثالثة متغيرات تتدخل في العلاقة بين متغيرين، وتصطدم بكليهما وتقلل من قوة العلاقة. ما قلته لتوّي يخص منطق مذهب المصادفة وليس له علاقة بالإحصاء. وسوف توضح بعض الأمثلة هذه النقطة.

التمرين ٥-٥

وفقا لك:

١. هل صناعة الزي السائد (المودة) (أ) تتحكم في الطريقة التي يرتدي بها المجتمع (ب) ملابسه.

٢. هل المجتمع (ب) يتحكم في صناعة الزي (أ).

٣. أو هل يؤثر كل منهما في بعضهما بالتبادل (علاقة متماثلة)؟

ناقشوا هذا السؤال فيما بينكم وبين أنفسكم، أو مع أستاذكم في الجامعة، وحاولوا أن تجدوا تفسيرًا لذلك؟ بالنسبة لوجهة نظري أنا، ادخل على الرابط: *www.sagepub.co.uk/gobo* .

إنّ فهم العلاقة ببن اتجاه العلاقة السببية له أهمية خاصة إذا كان للإثنوجرافيا أن تقدم اقتراحات عملية للإداريين والمديرين. وقد يسأل المرء ما غاية الأخصائيين الاجتماعيين إذا لم يتمكنوا من أن يمدوننا بالنصائح التي لا يستطيع أساتذة غيرهم أن يمدونا بها؟

دراسة حالة

انحلال البيئة والحس المدني

فكر في الحالة المحبطة لمناطق معينة في مدن كبيرة. هل هو نقص في الحس المدني (أ) الذي يسهم في خفض المكانة البيئية (ب)، أو هل يخلق خفض المكانة البيئية (ب) نقص في الحس المدني (أ)؟ وبينما يكون الفرض الأول واضحا إلى حد كبير، فإنّ الفرض الثاني مضاد للحدسية أكثر من غيـــره: وهذا يعني أنّه لو حدث أن كنت في مكان غاية في القذارة، فليس شرطا عليك من الناحية المعرفية أن تمتنع عن القاء النفايات "لأنّ المكان مملوء بالفعل بالقمامة على أي

حال"، بينما قد لا تلقي بالنفايات هذه إذا كان المكان نظيفًا. والفرض الثاني يتبع "نظرية النوافذ المكسورة" التي ألّفها ويلسون وكيلينج ***Wilson and Kelling (1982)*** ودفعا الناس على اتباع سياسة (التي أُعيد تسميتها بشكل غير صحيح على أنّها) عدم التسامح (القائمة على معاقبة أي خرق للقواعد مهما كانت الأسباب) التي فرضها وطبّقها الجمهوري رودولف جولياني ***Rudolph Giuliani*** عمدة نيو يورك من عام ١٩٩٤ حتى ٢٠٠١. ويمكن تلخيص هذا الفرض بطرح المثال التالي: لو كُسر زجاج نافذة في مبنى (مدرسة أو مصنع مهجور... إلخ.) ولم يوضع مكانه زجاج آخر، فلن يشعر المارة بالذنب لو كسروا زجاج نافذة أو نوافذ أخرى في المستقبل. ولو تم إصلاح زجاج النوافذ في الحال بدلاً من ذلك، فإنّ الأطفال يقل إغراؤهم أنفسهم بكسر نوافذ أخرى. ومن هنا، فلو تم إجراء بحث إثنوجرافي في تلك المدينة أو في المنطقة المجاورة لها واستنتج في نهايته أنّه (من بين أشياء أخرى) نقص في الحس المدني (أ) ---> خفض المكانة البيئية (ب)، يُصبح من الضروري استهداف سياسة وتوجيهها للتعليم (مدارس، والمرافق الترفيهية). ولو، بدلاً من ذلك، استنتجت الدراسة أنّ خفض المكانة البيئية (ب) ---> نقص في الحس المدني (أ)، فينبغي على الإدارة إذن أن تتخذ إجراءات تخص البيئة. هاتان سياستان عامتان متعارضتان، وغالبًا لا توجد أموال كافية لوضع كليهما موضع التنفيذ.

ارتباطات وهمية (زائفة)

دعنا ندرس الآن حالة الارتباطات الوهمية: وهذا يعني، عندما نعتقد أنّ أ ---> ب، فإن هذا وهم لأنّ كلا من (أ) و(ب) تتأثران ب (ج) وهو المتغير الذي يتدخل بينهما ولم نضعه في الاعتبار. وكثيرًا ما تتربص مصيدة الارتباط الوهمي وتنتظر، وليس من السهل تجنبها في كل الأحوال.

كما رأينا، لو امتد التفكير المنطقي ليشمل الارتباطات الوهمية، فإنّ البحث يزداد تعقيدًا وصعوبة. لكنّه يجعل تفسيراتنا أقل صراحة، ويجعل نظرياتنا أكثر دقة، ويجعل البحث الاجتماعي له مصداقية أكبر. ادرس المثال التالي الذي أخذناه من علم الاجتماع الموسيقى.

دراسة حالة

هل الأنثى أقل موهبة من الذكر؟

لم تقم العازفات على البيانو في فينّا عاصمة النمسا في القرن التاسع عشر بتقديم موسيقى بيتهوفن (١٧٧٠- ١٨٢٧). وطبقًا لما ذكره النقاد الموسيقيون في ذلك الوقت، كان السبب في ذلك هو أنّ العازفات على البيانو في ذلك الوقت لم يكنّ بنفس براعة نظرائهنّ من الذكور في تنفيذ عزف القطع الموسيقية لذلك الموسيقار العظيم. إذا كانت الموهبة (أ) ---> حققت تنفيذ (ب) لبتهوفن، إذن كانت النساء أقل موهبة من الرجال. ماذا تعتقد؟ هل توافق على هذا التفسير؟ ولا أنا أوافق عليه. ومع ذلك، كانت هذه هي النظرية التي أكدها النقاد الموسيقيون في ذلك الوقت. هل تجد ذلك ارتباطًا وهميًا؟ وكذلك أجده أنا. ولكن هل يمكن أن تفكر في تفسير بديل؟ لقد اقترح عالم الاجتماع في الموسيقى تيا دينورا ***Tia Denora*** تفسيرًا في مقال عنوانه "إضفاء نوع الجنس البشري على البيانو". وبعد إعادة بناء البيئة الاجتماعية لذلك الزمن، لاحظ دينورا أنّه في الخمسين عامًا التي سبقت مجيء بتهوفن، كان كل من عازفي وعازفات البيانو يقدمون عروضًا عامة في العزف. كيف أصبحت النساء بعد نصف قرن آخر أقل امتيازًا في العزف على البيانو بهذا الشكل؟ ويسجل دينورا (١٩٨٦) أنّ بيتهوفن لم يبتكر فقط موسيقى عصره، لكنّه ابتكر أيضًا طريقة تنفيذها: التي اشتُقت منها الصورة النمطية للموسيقار الرومانسي الذي تجيش عواطفه متوهجة في لوحة مفاتيح البيانو. لكن هل يمكن أن تعزف امرأة بنفس الطريقة؟ لا لم تستطع، لأنّ الأعراف الاجتماعية لذلك الزمن لم تكن

لتسمح بذلك. كان على النساء أن يظهرن متحفظات ومتميزات أنيقات في عروضهن الموسيقية على البيانو الشعبي. حتى ملابسهنّ كانت مصممة بحيث تذكرهن كيف ينبغي عليهن أن يتحركن على خشبة المسرح: كان الجزء الأعلى من الثوب ضيقًا وطرفه الأعلى يصل لقرب الرقبة وغائصًا في الصدر (كي يظهر القلادات والمجوهرات) يُقيد حركتهنّ. هل يمكن أن تتخيل عازفة بيانو مزينةً مثل شجرة عيد الميلاد وهي تدق على مفاتحه؟ ويكتب دينورا أيضًا أنّ آلات النفخ الموسيقية (فيما عدا الفلوت أو الناي) كانت النساء قد مُنعن من استخدامها أيضًا لأنّ العزف عليها يتطلب أوضاعًا غير أنثوية و"تجهمات" غير لائقة. ومن هنا كان المتغير الوسيط الذي أثر على الموهبة (المُفترضة) وكان الأداء والعرض الموسيقى من آداب المعاشرة (أو الإتيكيت) في ذلك الزمن. لم يكن الأمر إذن أنّ موسيقى بيتهوفن لم تكن تناسب النساء؛ والأحرى أنّ الأعراف الاجتماعية لذلك الزمن هي التي منعت النساء من العزف كما كانت تتطلب المودة حينئذ.

(من أجل دراسة حالة شيقة أخرى - حول التليفزيون ذي الدائرة المغلقة (*CCTV*) والجريمة، ادخل على الرابط: ***www.sagepub.co.uk/gobo***.

إنّ الارتباطات الوهمية (أو الزائفة) شائعة جدا في كل من استدلال الإحساس العام والنظرية الاجتماعية، وفي العلوم ذات الطبيعة الصعبة والعلوم الطبية الحيوية؛ لذا فليس من السهل اكتشاف السبب الرئيسي لأي ظاهرة (من بين الأسباب الكثيرة التي تتصل بها وتسهم في تكوينها).

٥-٩-١ البسيط أجمل

مما لا شك فيه أنّ أولئك الذين يؤكدون أنّ النماذج عبارة عن بيانات وصور مُبسّطة، وأنّ الحقيقة أكثر تعقيدا منها، هم على حق في ذلك. لقد استنتج البولندي ألفريد إتش. إس. كورزيبسكي (*1879 - 1950*) الأخصائي في دراسة المعنى

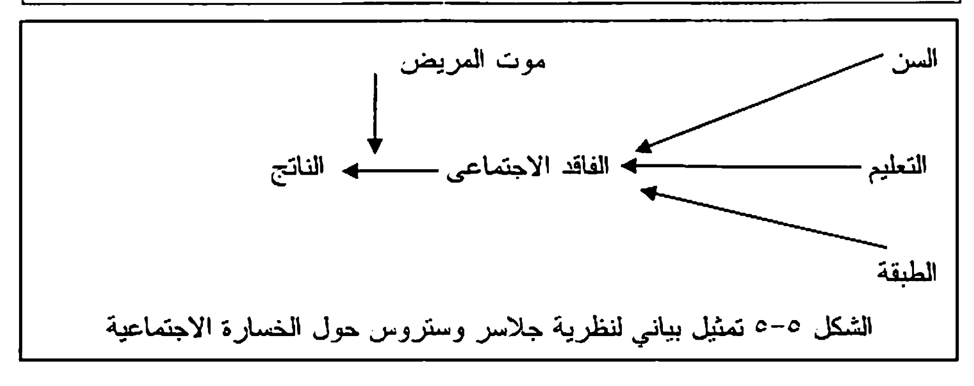
اللغوي ذلك في عبارة شهيرة قال فيها: "الخريطة ليست أرضًا ولا حـدودًا" (١٩٣٣: ٥٨). ومع ذلك فكون المرء يطوّق نفسه ويتحصن في هذا الموقع، فهذا أمر غير مثمر وعقيم، لأنّ من يفعلون ذلك ينسون الحاجة للتواصل ولأن يجعلوا أنفسهم واضحين أمام الآخرين. وأبسط النظريات عادة هي أكثرها نجاحًا. كما أنّ لها أيضًا جاذبية من الناحية الجمالية، علاوة على كونها أنيقة وراقية وواضحة؛ وهي تستجيب وتمتثل للمبدأ الشهير المعروف بمبدأ "ما قل ودل"، والمعنى الأساسي أو العام له هو أنّه لو كانت هناك نظريتان تفسران شيئًا واحدًا، فمن الأفضل أن تختار أقلهما كلامًا أي أكثرهما اقتصادًا في طريقة تفسيرها (يعني النظرية التي تستخدم مفاهيم أقل من النظرية الأخرى). علاوة على ذلك، فقد أصبحت برامج العقل الإلكتروني الآن متاحة لتحليل البيانات النّصية (مثل برنامج *NVIVO*، و*Atlas*... إلخ.) فهي تمثل الفروض والنظريات بشكل بياني (وهذا ليس سوى مجموعات من الفروض الملائمة أو المتطابقة).

دراسة حالة

الخسارة الاجتماعية

أنشأ جلاسر وستروس نظرية اجتماعية تُستخدم في التحليل الكيفي للمعلومات عن "الخسارة الاجتماعية". لاحظ هذان المؤلفان أنّه عندما كانت بعض الممرضات يناقشن شئون المرضى المتوفينّ، فإنّهنّ لم يضعن حالات الوفاة في الاعتبار كخسائر متساوية. كانت بعض حالات الوفاة بالنسبة لهنّ تُعتبر حالات أليمة ومحزنة (الأطفال، والشباب أو أمهات لأطفال صغار)؛ بينما كانت حالات وفاة أخرى تُعامل كما لو كانت حالات خسائر طبيعية تقريبًا (كبار السن وذوو الأمراض المزمنة).

استنتج جلاسر وستروس أنّ عمر المريض، ومستوى تعليمه، ووظيفته كانت عناصر أساسية في حكم الممرضات عما يشكّل خسارة اجتماعية. ولاحظا أيضًا أنّ اتزان ورباطة جأش الممرضات كانت تنهار عند حدوث خسارة اجتماعية مؤلمة وحزينة. وقد صوّر هذه النظرية ورسمها سيلي *(Seale 2000: 170)* هكذا (انظر الشكل ٥ – ٥).



الشكل ٥-٥ تمثيل بياني لنظرية جلاسر وستروس حول الخسارة الاجتماعية

هذا – بقياس الأشياء التي تقلل من إضفاء الصفة الرسمية – مثال ممتاز للطريقة التي تلعب بها الخصائص/ المؤشرات/ المتغيرات (العمر، التعليم، والفئة "أو الطبقة الاجتماعية") والتعريفات الإجرائية، والفروض، والنماذج دورًا جوهريًا في التفكير والبراهين الإثنوجرافية. ومع أنّ تقديم النماذج ما زال ممارسة غير شائعة نسبيًا، فإنها مفيدة جدًا ولها تأثير تواصلي عظيم. والتمثيل البياني سرد حدسي للغاية، رغم كونه عاديًا وواضحًا ويمكن التنبؤ به إلى حد ما بالضرورة. ادرس، على سبيل المثال، الفرق بين الوصف اللفظي الشفهي لنظام القرابة والتمثيل البياني له.

٥-١٠ ملاحظات ختامية

في دراسات الاتصال وعندما يتم مناقشة "جمهور الحاضرين"، أكد خبير التحليل الإعلامي والاتصالي الإنجليزي جون هارتلي ***John Hartley*** أنّه "لا توجد حالة واحدة يصبح جمهور الحاضرين فيها "حقيقيا"، أو خارج بنائه المنطقي" (١٩٨٧: ٢٥)، وهذه حقيقة طبيعية وبديهية وواضحة ضمنا. إنّ ما يُسمى "موضوع" في مشروع البحث وهم وخيال دائمًا يخدم احتياجات المؤسسة أو الباحثين الذين تصوروه أو تخيلوا أنّه قُدّم لهم بشكل طبيعي لدرجة أنّهم يمكنهم أن يضبطوه ويراقبوه ويقيسوه. لهذا فإنّ تصميم البحث ليس مجرد مسألة فهم ظاهرة ما كانت موجودة قبل إجراء البحث.

النقاط الرئيسية

- بالمعنى الدقيق للكلمة، لا توجد أشياء نقول عنها إنّها حقائق صرفة وبسيطة. هناك دائمًا وفقط إذن حقائق مُفسّرة.
- في معظم الحالات، يتم بناء موضوع البحث *أثناء* إجرائه. وهو مشتق من موقف عارض وغير متوقع، من التقييدات والموارد الموجودة داخل نطاق ذلك الموقف، ومن التفاعلات مع أعضاء لجنة البحث، ومع المبحوثين الاجتماعيين الذين يتم البحث عنهم والتحقيق معهم.
- عالم العلوم الاجتماعية تسكنه المفاهيم وتخيم عليه أكثر من المواضيع. والظواهر الاجتماعية التي ندرسها أصلها أفكار في المقام الأول.
- تكوين مفاهيم وتصورات لموضوع البحث معناه تحليله وتجزيئه إلى خصائص مقيدة وأولية بسيطة.

- ويخدم اتخاذ الأسلوب الإجرائي في أنّه يجعل الملاحظات أكثر دقة، ويمكّن الباحثين من توثيق اكتشافاتهم بطريقة أكثر إقناعًا (لهم ولجماهيرهم).

- إنّ افتراضاتنا المسبقة وتحيزاتنا تحدد وتقرر ضمنيًا (بشكل جزئي) إدراكنا الحسي بالأحداث. وهي لا يمكن أن تُجمّد أو تهمد ويتم تثبيطها. ومع ذلك، فبمساعدة تكوين المفاهيم والتصورات، يمكننا أن نتعلم بشكل انعكاسي أن نتعامل معها حتى لا تضلنا أو تخدعنا بشكل مبالغ فيه.

- ورغم أنّه يستحيل تحقيق الموضوعية، فإنّ هذا ليس لنعني أو نفترض ضمنًا أنّ كل شيء ممكن ومسموح به، فهناك درجات ومراحل متعددة بين هاتين النهايتين أو الحد الأقصى لكل منهما، وينبغي أن نركز عليهما بالتحديد. وكما عبر عن ذلك روبرت سولو ***Robert Solow*** من عدة سنوات وقال: تمامًا كما أنّ البيئة المعقمة والمطهرة تمامًا يستحيل وجودها، فإنّ هذا لا يخولنا أو يأذن لنا أن نجري عملية جراحية في قناة أو أنبوبة المجاري.

المصطلحات الأساسية

علاقة أو رابطة   أ ↔

علاقات متناسقة   أ ← ب. أو

أ → ب

الخاصية: جوانب أو مظاهر، وعناصر أو مُكوّنات يتبينها الباحث ويميزها في الظاهرة التي يدرسها. وبينما يتعلق مفهوم "السمة" أو "الصفة المميزة" بوجهة نظر موضوعية لفحواها فإنّ مفهوم "الخاصية" يؤكد على الجانب البنّاء للبحث.

الاتفاقية: نظرية فلسفية تكون كل المبادئ طبقًا لها ليست طبيعية، لكنّها تكون أعرافًا وتقاليد (أو النزعة الاتفاقية) نقية وبسيطة.

المتغير التابع: المتغير الذي يتأثر بمتغير آخر.

الفرض (العلمي): من وجهة النظر المفاهيمية التجريدية، الفرض توكيد – طبيعته ظنّية تخمينية – حول العلاقة بين خصائص معينة لموضوع البحث. ومن وجهة النظر الإجرائية، الفرض هو توكيد حول العلاقات بين متغيرين أو أكثر.

المتغير المستقل: المتغير الذي يؤثر في خلق حالة متغير آخر أو يسهم في خلقها.

السياقية: اصطلاح قدمه واي. بار–هيليل *Y. Bar-Hillel (1954)* وكرره جارفينكل. وهو يشير إلى أنّ معنى أي قول يعتمد دائمًا على سياق الكلام الذي يُقال فيه. بمعنى آخر، ليس هناك تعبيرات موضوعية مُدرَكة.: أي تعبيرات متحررة من السياق.

المؤشر: هو لافتة أو مفتاح المفهوم. ومن المهم أن نتذكر أنّ المؤشرات أدوات تعريفية دائمًا، وليست أشياء كذلك النوع المعين الذي يصدقه منهج البحث الموضوعي.

متغير وسيط: متغير ثالث يصطدم بمتغيرين يُعتقد أنّه مرتبط بعلاقة تماثل أو لا تماثل بهما. كانت هذه العلاقة بدلاً من ذلك علاقة ارتباط وهمية (زائفة).

نموذج: النماذج تمثيلات من رسوم بيانية للفرضيات.

التعريف الإجرائي: مجموعة من المتواضعات توجه النشاط التفسيري الذي يقوم به الباحث ويتم بناء عليه تحديد وضع كل حالة وتعيينها لأحد القوائم التي تم إنشاؤها في الخاصية رقم كذا، ويتم تسجيلها حتى يمكن تحليل التقنيات التي

ينوي الباحث استخدامها. ويساعد التعريف الإجرائي الإثنوجرافي في "ضبط وتنظيم" الملاحظة.

مرحلة ما قبل الفروض: قدمها الفيلسوف الألماني التأويلي هانز- جورج جادامر ***Hans- Georg Gadamer*** الفروض *(1960)*، ويذكرنا مفهوم "ما قبل الفروض" أنّ ملاحظاتنا تكون غير مباشرة مطلقًا؛ والأحرى أنّ التخطيطات المسبقة والمعرفة المبنية على الفطرة السليمة والمجمدة التي توجد قبل التجارب والخبرات وتنتقل من خلال التنشئة الاجتماعية والدراسة تشكل الوسيط وصولاً لتلك الملاحظات.

أسئلة البحث: تساعد الباحث على تعيين وتخصيص موضوع البحث ورسم خط حوله. وتكون لطرح أسئلة حول البحث فعالية وتأثير أكبر لو تمت مع شخص آخر أو في جماعة.

المخطوط الميداني: نموذج أو معرفة تم تصنيفها.

العلاقة المنتظمة أ ⇄ ب

المتغير: المتغير هو نتيجة التعريف الإجرائي، ومحطته النهائية، وهو الوسيلة التي يجمع الباحث بها المعلومات. وتقدم المتغيرات خدمة كشف الفوارق ونقلها وتواصلها. لذا فالمؤشر والمتغير وجهان لعملة واحدة: يتصل المؤشر بالمستوى المفاهيمي، ويتصل المتغير بالمستوى العملي.

توصية بقراءة

بالنسبة للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد:

- ***Silverman David (2006c)***

بالنسبة للطلاب الخريجين

• *Silverman, David (2005a)*

بالنسبة للمتميزين ممن يجرون البحوث:

• *Hammersley, Martyn and Atkinson (1983a)*

اختبار تقييم ذاتي

هل أنت مستعد للفصل التالي؟ راجع معلوماتك بالإجابة عن الأسئلة التالية ذات النهايات المفتوحة:

١. قال أستاذ الأنثروبولوجيا المعرفية مايكل إتش. أجار *Michael H, Agar* إنّ الفروض ... والعينات، والوسائل والأدوات هي خطوط إرشادية خاطئة (١٢: ١٩٨٦). وبدلاً من ذلك قال أخصائي مناهج البحث الكيفي البريطاني إنّه "قد يبدو البحث الكيفي غريبا قليلاً، بعد تاريخ يزيد على مائة عام، إذن لم يكن لديه فروض يختبرها" (٨: ٢٠٠٠). ما رأيك؟

٢. هل توجد حقائق؟

٣. ما الغرض من الانعكاسية؟

٤. لماذا تكون المؤشرات والمتغيرات وجهين لعملة واحدة؟

٥. ما الفرق الوحيد بين التفكير أو الاستدلال المبني على الفطرة السليمة والتفكير أو الاستدلال العلمي؟

٦. ماذا تعني جملة "الخريطة ليست أرضا ولا حدودًا"؟

الهوامش

(١) نشأت النقوش في الأصل كلافتات لها أسلوبها المميز أو رموز تذكارية (على سبيل المثال رموز قبور فخرية تذكارية) في الحقبة الزمنية التي سبقت اختراع الكتابة.

(٢) مع أنّ هذا التعبير قد يبدو سخيفًا وغريبًا، فهذا ما كان الطب الرسمي يعتقده سنة ١٩٧٩، عندما ظهرت الحالات الأولى لمرض الإيدز. في الحقيقة، فإنّه حتى عام ١٩٨٢ كان المرض يُسمى *GRID* أي "نقص المناعة المتعلقة بالمثليين أو اللوطيين". وبعد ذلك، وفي عام ١٩٨٢، أعلن طبيب في دينفر بكولورادو ***Denver, Clorado*** عن حالة لمريض ليس من اللوطيين التقط العدوى بالمرض نتيجة عملية نقل دم. وبهذا انهارت الفرضية الأولى للعدوى بالمرض. ويبدو هذا كمثال ممتاز لمبدأ التزييف الذي قدمه بوبر ***Popper*** بشكل عملي.

الفصل السادس

إدارة المشروع البحثي (تنفيذ البحث)

الأهداف التعليمية

- معرفة ما إدارة المشروع.
- فهم أهمية المعاينة.
- معرفة كيف نؤدي عملية المعاينة النظرية.
- معرفة درجات المشاركة في البحث والالتزام بها.
- معرفة كيفية استخدام جداول جانت *Gantt* ورسومه البيانية.

٦-١ مقدمة

يرسم تصميم البحث الأسس النظرية للأبحاث. ومع ذلك، يجب دمج الأهداف النظرية مع حالات الطوارئ التي تواجه الموقف. وتهتم إدارة المشروع بتعريف الأهداف وتحقيقها بينما تجعل استخدام الموارد مثل الوقت والمال والناس والمواد أقرب ما يكون للكمال (أو بحث أنها تكتفي بتخصيص أدوار استخدام كل مورد من بين هذه الموارد).

دراسة حالة

الجدل غير المحسوم حول مراكز النداء (تقديم الخدمات عبر الهاتف)

قام بعض العلماء والباحثين بتسمية منظمات مراكز النداء "مصانع الخدمة الجديدة" كي يؤكدوا على تشابهها مع تنظيمات العمل في فترة ازدهار شركة فورد لصناعة السيارات: العمل المتسم بالتكرار والمحدد له برامج وجداول عمل صارمة، ومراقبة وإشراف دقيق، وتقسيم وتوزيع الوظائف والمهام, مع ما يصاحب ذلك من الإبعاد والاغتراب وحشد عدد كبير من العمال في مكان مادي واحد. وهم يساوون بين العمل في مركز النداء ويسمى "المهام والأعمال القذرة" في الخدمات، حيث تكون المهارات منخفضة، والأجور والرواتب منخفضة أيضا وآفاق مستقبل ضئيلة الحظ. وقد تمادى بعض المعلقين في وصفهم في هذا المضمار حتى إنهم وصفوا مراكز الدعوة بأنها "نظرية التيلورية التي تنفذ بواسطة الكمبيوتر" (وهي نظرية إدارة تحلل تدفق العمل من أجل زيادة إنتاجية الشركات والمصانع) ألفها مهندس ميكانيكي أمريكي يدعى إف. دبليو. تيلور ***F.W.Taylor***. المبنية على "تأجير الجسد" أو إنها مثل "المصانع الجديدة للاقتصاد الجديد". لكن الرد المنطقي الذي يخلط الجزء بالكل شوّه تلك التحليلات وأفسدها: وأساس تلك التحليلات الدعوة إلى مراكز نداء تجارية وخاصة، وإهمال المراكز العامة وتلك التي لا تدر أرباحًا، ولها مبادئ تنظيمية وممارسات عمل مختلفة إلى حد كبير.

يساعدنا هذا المثال على فهم أهمية عملية المعاينة.

٦-٢ المعاينة

دعوى كوفيو *Coveyou*

إنّ تكوين فصل الأرقام العشوائية مهم جدا بحيث لا يمكن تركه للمصادفة.

بما أنك قادر على الجدال والمناقشة الآن، على عكس المفهوم التقليدي للبحث الكيفي، فإنّ مثل هذا البحث لا يمكن إجراؤه بدون المعاينة. في الحقيقة، رغم أنّه من الواضح أنّ المعاينة جزء من المحاولة العلمية، فإنها أيضا نشاط فعلي جوهري في حياة الناس اليومية: فالبائع يعرض عينة من القماش على الزبون؛ وفي متجر الطلاء، يقرأ الزبون كتالوج ظلال الألوان بسرعة كي يقع اختياره على لون ما؛ ويتذوق المشتري عينات كي يختار زجاجة نبيذ أو نوع الجبن الذي يفضله؛ ويطرح المدرس أسئلة على الطالب لتقييم معرفته (أو معرفتها) في المنهج الدراسي. لذا، فمن الآن فصاعدا، إذا رسبت في امتحانات نهاية المنهج الدراسي، تستطيع أن تدعي وتؤكد دائمًا أنّ المحاضر أدى معاينته بشكل سيئ.

وهناك رأي شائع آخر حول البحث الإثنوجرافي مؤداه أنّه لا يحتاج معاينة لأنه مبني على دراسات حالة، أي على تحليلات في خلفيات ومواقع فردية. ومع ذلك، فهذا الرأي لا أساس له من الصحة من الناحية المعرفية، لأنّه، كما يلاحظ بذكاء كل من جوم ***Gomm*** وهامرسلي ***Hammersley*** وفوستار ***Foster***:

إنّ معنى كلمة "حالة" ذاته يدل على أنّ ما يشير إليه هو *حالة* (مكان، أو مثل أو مثال) لشيء ما. بمعنى آخر، إنّنا نحدد الحالات بالضرورة على أساس فئات عامة... وإنّ الفكرة التي تقوم على أنّ الحالات يمكن تحديدها بطريقة أو بأخرى بشكل مستقل عن توجهاتنا نحوها هي فكرة خاطئة؛ فالحديث عن انفصال الحالات عن بعضها ووحدانيتها حديث مضلل.... يمكننا فقط أن نحدد تميز الحالات على أساس فكرة أو نظرية ما هو مثالي أو ممثل لجماعة فئات أو لجماعة من السكان. (٢٠٠٠: ١٠٤).

لذا فإنّ المعاينة أمر لا يمكن تجنّبه بصرف النظر عن وجهة النظر التي يعبر المرء عنها. السؤال الوحيد هو ما إذا كان ينبغي على المرء أن يتحكم متعمدًا في العملية أو يترك نفسه تحت رحمة الأحداث كأمر بديل.

كيف يتم اختيار العينة؟ تمر العملية خلال مرحلتين: تكوين مفاهيم وتصورات للموضوع (وقد تمت مناقشة هذه النقطة في الباب السابق)، واختيار وحدات الملاحظة. ويوضح الباحث من خلال تكوين مفاهيمه وتصوراته خصائص موضوع البحث الذي ينوي دراسته؛ ثم يقرر أولاً وحدات الملاحظة لكل خاصية من خواصه (وهذا هو إطار المعاينة)، ثم يحدد المكان (أو الأماكن) والمواقع التي يزورها، ثم مجموعة الحالات (العينة).

٦-٢-١ وحدات ملاحظة جديدة

إن لتحديد *وحدات الملاحظة* أهمية قصوى إذا أردنا ألا يكون البحث عملاً أخرق وغير متقن، وغير متناسق من الناحية التجريبية.

دراسة حالة

من الفنان؟

وجد كل من ميتشيل ***Mitchell*** وكارتونين ***karttunen (1991)*** عند تحليلهما لسلسلة من الدراسات الفنلندية حول "الفنانين" أنّ النتائج كانت تختلف طبقًا للتعريف الذي كان يقدمه الباحثون عن الفنان، وهو تعريف كان يؤدي لبناء العينة في ذلك الوقت. وفي بعض الدراسات، كانت فئة "الفنان" تشمل (١) مبحوثين كانوا يعرّفون أنفسهم على أنّهم فنانون؛ وفي دراسات أخرى (٢) أولئك الذين يشغلون أنفسهم

باستمرار في إنتاج أعمال فنية؛ وفي دراسات غيرها (٣) أولئك الذين يعترف بهم المجتمع بأسره ويقدرهم باعتبارهم فنانين؛ وفي دراسات أخرى (٤) أولئك الذين تعتبرهم الأوساط الفنية فنانين مثلهم. وكانت النتيجة الواضحة هي أنّه من المستحيل بالتالي عقد مقارنة بين نتائج هذه الدراسات.

والممارسة المثالية في علم الاجتماع والعلوم السياسية هي اختيار وحدات فردية أو مُجمّعة مُعرّفة ومُحددة بوضوح ويمكن كشفها بسهولة: أشخاص، عائلات، مجموعات، جمعيـــات، حـــركات، أحـــزاب، مؤسسات، منظمات، أقاليم أو مناطق أو دول. ومع ذلك، فإنّ اختيار أفراد يدل على مفهوم "ذري" (مذهب فلسفي) وليس عضويًا للمجتمع الذي نسلّم جدلاً بعناصر بنائه أو يُعتقد أنها تعكس صورتهم في الفرد، بينما يتم إهمال التقاليد السوسيولوجية التي تعطي أولويةً للعلاقات على الأفراد. وكنتيجة لهذا، يتم أيضًا إهمال الوحدات الأكثر ديناميكية التالية:

- أنماط السلوك، العلاقات الاجتماعية، الاجتماعات، التفاعلات، الإجراءات التفصيلية الروتينية اليومية، وشبكات محطات الإذاعة والتليفزيون أيضًا.
- المنتجات الثقافية (مثل الصور، والرسوم الزيتية، والأفلام السينمائية، والمسرحيات وبرامج التليفزيون).
- القواعد والأعراف الاجتماعية.

ومن هنا، يجب تبني نموذج معاينات يمكن الاعتماد عليه ويُقرّ بالتفاعلات (حتى يتم إجراء اختيار العينات على) وحدات تفاعلية (مثل العلاقات الاجتماعية، والمقابلات، والمنظمات) (دينزين، ١٩٧١: ٢٦٩).

ينبغي على الباحث أن يركز بحثه واستقصاءه على هذه الأنواع من الوحدات، ليس فقط لأنّ العمليات الاجتماعية يسهل استبيانها وملاحظتها بشكل

كبير، ولكن أيضا لأنّ هذه الوحدات تسمح بتحليل مباشر أكثر وأعمق لخصائص المميزات التي يتم ملاحظتها.

٦-٢-٢ معاينة أماكن ومواقع مقابل معاينة أفراد وأحداث

وبعد اختيار وحدة الملاحظة، تصبح الخطوة التالية هي اختيار موقع أو أكثر يتم إجراء البحث فيه. على سبيل المثال، زار كل من سادناو ***Sudnow (1967)*** وسيكوريل***Cicourel (1978)*** على التوالي مستشفيين ومنطقتين من مناطق الشرطة. والخطوة الثالثة هي اختيار الأحداث والأفراد أو الحوادث ليجري عليهم الملاحظات. قام جيرتيز ***Geertz (1972)*** بملاحظة ٥٧ مصارعة ديكة؛ وقام أخصائي الأنثروبولوجيا الإيطالي دي مارتينو ***De Martino*** بملاحظة ٢١ ضحية من ضحايا الاضطراب العصبي الناتج عن لدغة عنكبوت يسمى تارانتيولا (انظر ص ٢١)؛ ولاحظ بيكر ***Becker (1951)*** عددًا غير محدد من موسيقيي رقصة مهنية؛ وقام جوفمان ***Goffman (1963)*** بتحليل "مشاهد جانبية صامتة أثناء عرض المسرحية". هذه ممارسة ذائعة الانتشار في البحث الإثنوجرافي، مع أنّها لا تؤدى عن وعيٍ وإدراك في كل الأحوال.

ولسوء الحظ، هناك خلط غير مقصود في الثقافة بين (معاينة) *الأماكن والمواقع* و(معاينة) *الأفراد والأحداث والحوادث*، فكل هذه المسميات يرمز إليها اصطلاح واحد فقط، وهو: حالات. وهذا يسبب ارتباكًا وخلطًا شديدين، لأنّه يؤدي إلى مواقع محيرة ويربك الذهن في التفكير في أنماط السلوك تارةً، وفي الأماكن والمواقع وخلطها مع الأفراد والأحداث تارة أخـــرى. إنّ الإثنـــوجرافي لا يجري ملاحظاته على موقع ما (مستشفى أو سجن أو شركة) في حد ذاته، والأحرى أنّه يجريها على أنماط سلوك وتصرفات، وعلى الإجراءات التفصيلية الروتينية اليومية

وأفعال (وقائع أو أحداث) تحدث في تلك المواقع. من أجل ذلك سوف أتحاشى في الوقت الحالي استخدام كلمة "حالة"، ذلك الاصطلاح الغامض الذي يتسبب في نشأة حالات متعددة من سوء الفهم.

وينشأ الخلط الذائع الانتشار بين الأماكن والأحداث من معالجة أخصائيي مناهج بحث المسح الشامل لمثل هذه المسائل، وهم لا يدرسون الأماكن أو المواقع، لكنهم يدرسون أشخاصًا فقط. في الحقيقة، إنهم يتجنبون الأماكن ويذهبون من وحدات الملاحظة (على سبيل المثال: الاتجاهات العنصرية أو المعتقدات الدينية) مباشرة للأفراد (أولئك الذين تُجرى معهم المقابلات). ولهذا السبب وُجّهت للمسح الشامل تهمة دامت عدة عقود بعدم تقديم الاهتمام الواجب للأماكن والمواقع.

لكن الإثنوجرافي يتصرف بشكل مختلف. وهو يتصرف بحذر أكبر لأنه يجب أن يختار العينة على مستويين: عينة الموقع، وعينة الأفراد أو الأحداث. ويجب عليه أن يتعامل مع كل مستوى (كما سنرى بعد قليل) مع مشكلة التمثيل.

بدلاً من ذلك، يداوم مجموع ما كتبه العلماء والباحثون في مجال الميثودولوجيا الكيفية في استمرارية هذا الخلط. وهذا دليل على أنّه لم يشارك بعد في التفكير المبتكر والمستقل تمامًا بذاته في المبادئ الأساسية لمنهج البحث وأنّه لا يزال يعتمد على الأطر التراثية لمنهجية المسح.

٦-٢-٣ العينات البسيطة مقابل العينات الممثلة

وبعد اختيار الموقع أو الأماكن، تصبح الخطوة التالية اختيار أحداث أو أفراد لإجراء الملاحظة. وبعد تقرير ذلك، يجري الإثنوجرافيون أبحاثهم دائمًا على عينات. ومن المهم هنا التمييز بين العينة *الممثلة* والعينة. دعنا نعد للأمثلة الأولية

التي قدمناها حول الزبون المتسوق والمدرس. كل منهما يركز على جزء كي يحصل على معلومات حول الكل لاعتقادهم بأنّ الجزء (العينة) ممثل للكل (إطار المعاينة)، الذي هو بمعنى معين "نموذج مصغر لها". ولكن بينما يحتمل أن يكون كوب النبيذ مشابهًا للزجاجة التي صُب منها، لا يمكن أن نفترض أنّ الطالب يعرف المنهج الدراسي بالكامل لأنّه أجاب بشكل صحيح عن قليل من الأسئلة من ذلك المنهج، لذا فإنّه أمر حاسم وعصيب أن نميز بين عينة ممثلة (مجموعة فرعية تمثل نموذجا مصغرًا لإطار المعاينة) والعينة (مجموعة فرعية لأحداث يركز عليها كل باحث، مهما كان نوع التحقيق والاستقصاء. كوب النبيذ عينة ممثلة؛ أمّا إجابة الطالب فهي، عوضًا عن ذلك، يمكن أن تكون عينة فقط.

دراسة حالة

أنشطة مدرسة المعاينة

وهناك إيضاح ممتاز تقدمه دراسة قام بها برلاك ***Berlak*** وآخرون حول الممارسة المدرسية التقدمية الأولية في بريطانيا في السبعينيات من القرن الماضي (***Berlak and Berlak, 1981; Berlak et al. 1975***). وقد أكدا في تلك الدراسة أنّ الروايات والحسابات الأمريكية السابقة لم تكن دقيقة لأنّ الملاحظة كانت موجزة ومقتضبة، وكانت تميل للحدوث في منتصف الأسبوع، وليس في يوم الاثنين أو يوم الجمعة. وعلى أساس هذه الملاحظات، حدث استدلال أنّه في الفصول الدراسية التقدمية (النقيض للفصول الدراسية التقليدية) كانت التلاميذ تختار ببساطة الأشياء التي كانوا يريدون أن يفعلوها ويستمرون في ممارستها. ومع ذلك، وكما يدعم برلاك وزملاؤه ما حدث بالضبط بالوثائق، فإن المدرسين كانوا يبدأون العمل الأسبوعي يوم الاثنين، وكانوا يراجعون ويتأكدون في يوم الجمعة أنّ العمل قد

اكتمل بصورة مرضية. وهكذا، فإنّ الدراسات الأولية كانت تُقام على أساس تعميمات مؤقتة زائفة داخل نطاق الحالات التي تحروا عنها ***Gomm, Hammersley and Foster,(2000 – 10)***.

دراسة حالة

الرد المنطقي (الاختزال)

وهناك مثال آخر يقدمه جولدنر ***(Gouldner 1970: 378 – 90)*** أشار فيه إلى أنّ التفاصيل الاستثنائية الشاذة التي قدمها جوفمان حول الإجراءات المعتادة والسلوكيات التي تُوجّه التفاعلات لم تكن تعكس سلوك الغربيين ككل، بل كانت تعكس سلوك الطبقة الأمريكية المتوسطة، حيث إنّ جوفمان بنفسه **(*1963: 5*)** كان أول من ذكر هذا. علاوة على ذلك، لو وضعنا في الاعتبار الخلافات والجدل الأخير الذي أثاره ارتداء النساء المسلمات لأنواع معينة من الحجاب - مثل البرقع، والخمار أو النقاب (وهو حجاب يغطي الوجه بأكمله ولا يترك سوى فتحة شق طولي للعينين) في *مواقف* معينة في كل مكان في أوروبا تقريبًا، لفهمنا بشكل أفضل المدى الذي احتله موقع ملاحظات جوفمان على المحافظة على الوجه من الناحية الثقافية.

ومن هنا، وكما أكد دينزين **(*1971: 269*)** أيضًا، فإنّ العينات الممثلة لها أهمية قصوى في البحث الإثنوجرافي، لأنّه من الضروري للإثنوجرافيين أن يعرضوا تمثيل تلك الوحدات في العدد الكلي للسكان في أحداث مماثلة. كما أكد بيكر **(*1998b: 67*)** من جديد على هذا المطلب الضروري. ومثل اختيار المواقع وانتقاء الأحداث، فإنّ كلا من الأفراد أو الحوادث أنشطة معاينة، ولكي أميّز بينهما بوضوح، سوف أقدم تعبيرين مختلفين أشير بهما لمثل هذه الإجراءات المختلفة للمعاينة: "معاينة الأماكن أو المواقع" و"معاينة الأحداث".

٦-٢-٤ معاينة الأماكن أو المواقع

بصفة عامة، أمام الباحثين ثلاثة خيارات رئيسية متاحة عند اختيارهم لمكان أو موقع ما: يمكنهم ان يختاروا إما عينة (ملائمة ومريحة) *انتهاز الفرصة المناسبة* والإفادة منها؛ أو عينة مُسبّبة "أي لها ما يبرر اختيارها" وأخيرا عينة *عشوائية*. وإذا استبعدنا الخيار الأخير، لأنّ إمكانية تطبيقه غير عملية في البحث الإثنوجرافي (لكنها ممكنة في المسح الشامل فقط)، يتبقى خياران يمكن تطبيقهما. الخيار الأول معناه اختيار أول مكان يكون استخدامه متاحا. أمّا الخيار الثاني عوضا عن ذلك فيتطلب تدقيقا شديدا في الأماكن أو المواقع الموجودة واختيار تلك التي تكون أنسبها لمفاهيم وتصورات الموضوع والتي تبرز أثناء تصميم البحث.

ويتم تحديد عينات الأماكن والمواقع المتاحة للباحث طبقًا لاعتبارات عملية: وقت محدود وغير كاف للاختيار الهادئ للمواقع؛ أو نقص في الموارد والتمويل والتسهيلات؛ أو كسل من جانب الباحثين... إلخ. وقد قوبلت هذه الإستراتيجية بعدم الموافقة بشكل ثابت لا يتغير: في الحقيقة، ترفض كتيبات مناهج البحث هذه العينات وتغض النظر عن ذكرها باعتبارها عينات "عشوائية. على أي حال، هذا نقد ينجم عن التحيز، إذا ما علمنا أنّ جزءا مهمًا من نظرية علم الاجتماع، التي كتبها مؤلفون لهم مكانتهم وقيمتهم من أمثال ألفين جولدنر ***Alvin Gouldner***، وملفين دالتون ***Melvin Dalton***، وهوارد بيكر ***Howard Becker***، وإرفينج جوفمان ***Erving Goffman***، وهارولد جارفينكيل ***Harokd Garfinkel***، وأيرون سيكوريل ***Aaron Cicourel***، يستمد مضمونه من الأبحاث التي تتم في مواقع وأماكن وسائل راحة انتهازية. ومن هنا فإنّه يجب علينا إمّا أن نرفض هذه الدراسات وننبذها، أو أن ننتهي إلى أنّ نقد عينات وسائل الراحة هذه غاية في القسوة وليس هناك ما يبرره بشكل تجريبي.

ولكن قد يسأل المرء قائلاً: إذا كنا نستطيع الحصول على نتائج مهمة من خلال استخدامنا لموقع متاح للباحث، لماذا تزعجنا العملية المرهقة للمعاينة المُسببة؟ والإجابة هي لأنّ المعاينة الأخيرة يمكن أن تحمينا من النقد الموجه إلينا بأنّ اكتشافات أبحاثنا لا تطلق تعميمات أو أحكامًا عامة. والأمثلة لذلك كثيرة، لكني سأذكر هنا مثالاً واحدًا فقط:

دراسة حالة

الرد المنطقي (الاختزال) ٢

أشـار جـولدنر (١٩٥٤) إلى أنّ نمـوذج ماكس فيبر ***Max Weber*** المثالي للبيروقراطية تأسس على دراسات لفئة محددة من البيروقراطيات: تلك التي تعمل في حكومة ما. وقد دفع خطأ فيبر في رده المنطقي (اختزاله) لوضع تأكيد زائد عن الحد على أهمية القواعد الرسمية (المُعرّفة بطريقة ديمقراطية) في حصولها على إجماع في الرأي. لكن عندما درس جولدنر مراعاة القواعد في القطاع الخاص، وجد أنّهم حصلوا عليها عن طريق مصادر أخرى للإجماع في الرأي.

أمام الباحثين، الذيـن يختـارون معـاينة مُسببـة (لموقع أو مكان) خياران على أقل تقدير: معاينة لأماكن عمديّة، ومعاينة لأماكن رمزية.

الأماكن والمواقع العمدية

تتمثل معاينة الأماكن والمواقع العمديّة في تحديد مكانة نهائية لها خواص محددة، أو مواقع تشمل مجال المكانة المتاحة بحيث تضم كل المكانات المتاحة

فتصبح كأنّها موجودة. على سبيل المثال، يمكننا أن نختار مدرستين للتعليم الأولي نعرف من خلال التقارير الصحفية، والدراسات السابقة، والمقابلات أو التجربة الشخصية أننا يمكن أن نجد فيهما موقفين متضادين. يوجد في المدرسة الأولى مشاكل حادة تخص التكامل بين المواطنين والمهاجرين، بينما لا توجد أي مشاكل فعلية من هذا النوع في المدرسة الثانية. ويمكننا أيضا أن نلتقط أوضاع ثلاث مدارس: الأولى بها مشاكل حادة تخص التكامل، والثانية بها مشاكل متوسطة، وبالثالثة مشاكل نادرة من هذا النوع. في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، قام عالم الاجتماع الأمريكي وأستاذ الأنثروبولوجيا ليلويد دبليو. وارنر (١٨٩٨-١٩٧٠) وفريق عمل من زملائه وطلابه بدراسات حول جاليات متعددة في الولايات المتحدة. وعندما شرع وارنر في اختيار العينات، قرر انتقاء جاليات تعكس بنيتهم الاجتماعية ملامح مهمة من المجتمع الأمريكي. اختار أربع جاليات (لها أسماء مُستعارة): مدينة في ماساشوستس (مدينة يانكي) تحكمها تقاليد كتب عنها خمسة كتب؛ وبلدة معزولة في الميسيسبي (ديب ساوث، ١٩٤١)؛ ومنطقة يسكنها السود في شيكاغو (برونزتاون، ١٩٤٥) ومدينة في الميدويست (جونزفيل، ١٩٤٩).

الأماكن أو المواقع الرمزية

قد يكون *للأماكن أو المواقع الرمزية* ما يصل إلى ثلاثة ملامح: ملمح *متوسط* (المستشفى القروي النموذجي، أو منظمة بلدية قرية جبلية نموذجية)، أو ملمح *امتياز* (مؤسسة مشهورة لتصنيع السيارات)؛ أو *ملمح ناشئ* (الرواد أو المتطرفون، مثل موضة الأحداث التي ظهرت أخيرًا). كانت "*ميدلتاون Middletown*" الدراستان الشهيرتان اللتان ألّفهما كل من روبرت إس **Robert. S.** وهيلين إم. ليند **Helen M.** (*Lynd 1929 - 1937*) محاولة رائدة لدراسة جالية أمريكية نموذجية وهي (ميونسي،

إنديانا (***Muncie, Indiana***) بتطبيق طرائق أنثروبولوجية اجتماعية. وكانت العائلات التي تم اختيارها أمريكية "بشكل نموذجي" وليست ممثلة بطريقة إحصائية. وهناك أمثلة أخرى منها بحث دالتون ***Dalton (1959)*** الذي أجراه كملاحظ خفي في ميلو ***Milo*** وفروهلينج ***Fruhling***، وهما شركتان في منطقة صناعية كبرى في الولايات المتحدة؛ أو كانتر ***Kanter (1977)***، الذي أجرى ملاحظة استمرت خمس سنوات على شركة لها كثافة تكنولوجية عالية. ولأن هناك عناصر معينة يمكن كشفها بسهولة أكثر من خلال المقارنة، لذا ننصح بملاحظة موقعين على الأقل خلال فترة دراسة البحث.

٦-٢-٥ معاينة الأحداث والأفراد

تبدأ الملاحظة الحقيقية والصحيحة فقط بعد اختيار المكان أو الموقع. عند هذه النقطة يوجه الإثنوجرافي اهتمامه للظواهر التي ينوى ملاحظتها (أحداث، أفراد، وقائع، وما إلى ذلك) وذلك طبقًا لمنظوره (أو منظورها) النظري.

وهناك ثلاثة أنواع من معاينة الأحداث والأفراد: عينة نظرية، وعينة حصيّة (بالإحصاء)، وعينة كرة الثلج.

المعاينة النظرية

يختار الباحثون المعاينة النظرية[١] عندما لا يكون لديهم معلومات كافية عن إطار المعاينة، وبالتالي فهم ينتقون أحداثا طبقًا لتوافر خاصية أو أكثر مُعرفة على أنها موضوع البحث. وكما يكتب ميسون ***Mason***:

المعاينة النظرية تعني انتقاء مجموعات أو فئات لدراستها بناء على ارتباطها الوثيق بأسئلة بحثك، ووضعك النظري، وإطار عملك التحليلي،

وممارستك التحليلية، وأهم من ذلك كله التفسير أو التقرير الذي تطوره لتقدمه للقارئ. وتختص المعاينة النظرية ببناء عينة... تكون مجدية ومعبرة من الناحية النظرية لأنها تحوي بداخلها خصائص أو معايير معينة تساعد على تطوير نظريتك وتفسيرك لها واختبارها (*1996: 94*).

ويكون أفضل أداء للمعاينة النظرية مع الأحداث، والوقائع، والظروف والملابسات مثل الأعمال، وأنماط السلوك والتفاعلات. أمّا ما هو أقل أهمية وفائدة في أدائها فهو استخدامها التقليدي، بمعنى معاينة الأفراد.

وللمعاينة النظرية ثلاث خصائص أساسية:

- يتم اختيار الأحداث على ضوء النظرية التي تنشأ وتطوّرها، ويتم التحقق من صحتها.
- ويتم أيضا انتقاء "أحداث" منحرفة.
- قد يتغير حجم العينة أثناء سير البحث (*Silverman, 2000: 105*).

المعاينة الحصية

المعاينة الحصية تخص أفرادا وجماعات، وليس أحداثا. وهي تستخدم على نطاق واسع من وضع الحالات الممكنة. علاوة على ذلك، وعلى عكس أنواع أخرى من العينات، فإنّ هذا النوع يُبنى وفقا لما نعتقد أنّه مُتغيرات مستقلة (انظر ٥ - ٩، ص ٨٢). تلك التي تساعد على تفسير الظاهرة التي يجري دراستها: الجنس "تذكير أو تأنيث"، والمفاضلة السياسية، ومستوى التعليم.. إلخ. لذا فهناك نظرية وراء تلك الاختيارات، وينبغي أن توضح خلال تكوين المفاهيم والتصورات للموضوع (انظر ٥ - ٦).

وينقسم إطار المعاينة إلى عدد من المجموعات الفرعية بقدر ما لدينا من خواص نود أن نجري عليها الملاحظات، وتكون نسبة أو حصة كل مجموعة فرعية في العينة هي نفس نسبتها أو حصتها في إطار المعاينة. ويتطلب البحث الإثنوجرافي لعينة من هذا النوع بوضوح استثمارًا بارزًا للوقت، حتى إنه قد يستمر لعدة سنوات. وبالتالي فإنّ هناك أمثلة قليلة للعينة الحصية في التراث الإثنوجرافي. وهناك مثال جيد لتطبيق طريقة المعاينة هذه (بحصص ليست تناسبية) في البحث الإثنوجرافي وهو الدراسة التي قدمها جانكوسكي *(Jankowski 1991)* عن العصابات الإجرامية. أمضى جانكوسكي عشر سنوات في إجراء ملاحظة على ٣٧ طاقمًا أو مجموعة مختلفة كان قد انتقاها طبقًا لأعراقها، وأحجامها، وعمر أعضائها في لوس أنجلوس، ونيويورك وبوسطن. وهناك مثل آخر وهو البحث الذي أجراه جولدنر (١٩٥٤) في منجم جيس (جص) يوجد بالقرب من الجامعة التي كان يعمل بالتدريس فيها (موقع ملائم، إذن) وكان ٢٢٥ فردًا يعملون في المنجم في ذلك الوقت. وأورد جولدنر في الملحق المنهجي للبحث أنّ فريق العمل التابع له أجرى ١٧٤ مقابلة - وبالتالي عن كل إطار المعاينة تقريبًا (٧٧% بالضبط منه). ونفّذت ١٣٢ من بين المقابلات الـ ١٧٤ باستخدام "عينة مُمثلة" للعمال من ذوي الياقات الزرقاء (أي من الطبقة الكادحة) في الشركة، ومن أجل هذا الغرض استخدم جولدنر العيّنة الحصّية مُقسمة إلى طبقات طبقًا للعمر، والمكانة والمهام. ثم كوّن جولدنر بعد ذلك عينة ممثلة أخرى من ٩٢ من طبقة العمال الكادحين الذين طبّق عليهم استبيانًا.

عينة كرة الثلج

تتضمن عينة كرة الثلج اختيار الباحث لأفراد فقط، وهم الذين يقدمون الخواص الضرورية المطلوبة للبحث، وبعد ذلك، ومن خلال توصياتهم، يجد

الباحث أفرادًا آخرين لهم نفس الخواص. ولو كان الباحث سعيد الحظ، فسيكون لديه بعد جولات قليلة عينة مكونة من كثير من المشاركين. ويقدم لنا البحث الذي أجراه وايتى ***Whyte (1943a)*** مثالاً لذلك من خلال "دوك ***Doc***"، الإخباري التابع له في الدراسات الميدانية، وهو شاب عاطل عن العمل ألف التردد على مركز الخدمة الاجتماعية المجاور. ونجح وايتي بالتدريج في الدخول على شبكة معارف "دوك"، وهم الأشخاص والجماعات المنتمون "لمجتمع نواصي الشوارع". هذا النوع من العينات يعتبر عادة أفضل نوع يناسب إجراء أبحاث عن مواضيع حساسة للغاية: سلوكيات موصومة بالعار من الناحية الاجتماعية، على سبيل المثـــال، أو سلـــوك يشعـــر الأفراد الذين يقومون به بالخزي والعار، أو سلوك غير قانوني.

٦-٢-٦ معاينة أحداث وأفراد كعملية تقدمية، وتفاعلية وتكرارية

إذا افترضنا أننا نعرف المسار الحلزوني اللولبي الذي يتبعه التحقيق الإثنوجرافي، فإننا ندرك أنّ المعاينة لا تكتمل بالضرورة في مناسبة واحدة فقط. عندما يواصل الإثنوجرافي إجراء البحث، فإنّه قد يصنع عدة أحداث ومعاينات فردية لأنّه يصقل المفاهيم وينقيها "مثلما يفعل القمع" وتصبح الفرضيات أكثر دقة. بمعنى آخر، (وهذه هي الصفة المميزة للمعاينة النظرية) تغير العينة في وظيفة المفاهيم والخصائص التي يريد الباحث توثيقها، والفروض التي يريد أن يختبرها، وفي ردود الفعل لأحداث مفاجئة وغير متوقعة.

ولأنّ الباحث لا يستطيع القيام بالملاحظة على مدى الأربع وعشرين ساعة في اليوم – أو بمعنى آخر، لأنّه لا يستطيع أن يلاحظ بشكل مستمر إطار المعاينة للمارسات التي تحدث داخل نطاق العينة – كي يعطي تنظيما وتنميطًا لملاحظاته

وتعميما (أو "تمثيلاً داخليًا" داخل التنظيم) لاكتشافاته، فقد يقرر في أي الأوقات، وفي أي الأماكن يقوم بالملاحظة *(Schatzman and Strauss,1973: 39 - 41)* *(Corsaro. 1985: 28-32)*. وهذا ليس بالأمر الصعب، لأنّه بعد مرور بعض الوقت، يجد الباحث أنّ الممارسات الاجتماعية تميل لأن تكرر نفسها بشكل متواتر في أماكن محددة وفي أوقات معينة من اليوم.

لا يمكن مطلقًا أن تكون المعاينة عملية آلية أوتوماتيكية. والأحرى أنّها عملية:

- تفاعلية، لأنها تدخل في حوار مع الأحداث حيث تنشأ وفي الوقت الذي تنشأ فيه.
- متكررة، لأنها متواترة.
- تقدمية، لأنّ ملاءمة الأحداث تتكشف خلال مواصلة الباحث إجراء بحثه.

ملخص القول، تخبرنا الملاحظات الإثنوجرافية إلى أي مدى وكيف تكون الأحداث التي اخترناها مُمثلة.

التمرين ٦-١

شكّل جماعة مع طالبين آخرين، واختاروا مكانًا أو موقعًا تذهبون إليه وتلاحظونه. وحتى لا تضيعوا وقتًا أكثر من اللازم في التفاوض بشأن السماح لكم بالدخول في الموقع، ليكن الموقع الذي تختارونه يُسمح بالدخول فيه مجانًا كأن يكون حديقة مثلاً أو سوقًا مركزيا "سوبر ماركت"، أو كافيتيريا، أو محطة قطار، أو متحف، أو مكتبة، أو مركز تسوق.

الآن أعد جدولاً للملاحظة. سيكون أحدكم حاضرًا في المكان من ٧ صباحًا حتى ١١ صباحًا؛ والثاني من ١١ صباحًا حتى ٤ مساء؛ والثالث من ٣ إلى ٧ مساء. اكتب ملاحظات على نوعية الناس الذين تراهم يترددون على المكان في تلك الأوقات. ثم اعقدوا مقارنة بين ملاحظاتكم.

وأخيرًا أجب عن الأسئلة الآتية:

- هل كان من الضروري حقًا معاينة كل الفترات الزمنية الثلاث؟
- إذا كنتم قد قمتم بالملاحظة أثناء فترة واحدة من الفترات الزمنية الثلاث، هل كنتم ستجمعون معلومات تمثل أنماط السلوك في المكان طوال اليوم بأكمله؟

٦-٣ أنواع المشاركة ودرجات الاستغراق (في البحث)

يستطيع الإثنوجرافيون أن يكونوا جزءًا من جماعة أو تنظيم بطرق منوعة: يمكنهم أن يشاركوا من وقت لآخر في حياة التنظيم، أو قد يفعلون ذلك مع دوام المواظبة. بمعنى آخر، قد يختلف المدى الذي يشاركون فيه ويستغرقون في العمل فيه اختلافًا كبيرًا. وقد كتب سباردلي (*Spradley, 1980: 58*) قائمة بخمسة أنواع للمشاركة والاستغراق في البحث (انظر الجدول ٦ - ١).

الجدول ٦-١ المشاركة ودرجات الاستغراق (في البحث)

نوع المشاركة	درجة الاستغراق
تامة	مرتفعة
إيجابية	مرتفعة بدرجة متوسطة

معتدلة	منخفضة بدرجة متوسطة
سلبية	منخفضة
بلا مشاركة	بلا استغراق

المصدر: مقتبسة من (*Spardley, 1980: 58*).

هناك عدد من المحاذير يجب أن تؤخذ في الاعتبار. يحذّر دينزين (١٩٧٠) من افتراض دورين متعارضين، دور الملاحظ الكامل (الذي لا يشعر بالاستغراق) ودور المشارك الكامل (الذي يشعر باستغراق مرتفع)، ويُعرّف دينزين صاحب افتراض الدورين هذا بأنّه إثنوجرافي من الطراز القديم. يتطلب التراث الميثودولوجي من الإثنوجرافي أن يُحدث توازنًا بين المشاركة والملاحظة، وبين الاستغراق والانفصال، أو بين، ولنستخدم تعبيرات ديفيز ***Davis (1973)*** الملائمة، موقف "المتحول لمذهب جديد" و"أحد السكان الخرافيين لكوكب المريخ". ومع ذلك، فليس من السهل دائما تحقيق ذلك، لأنّ المبحوثين الذين تجري دراستهم قد يطلبون أن يصبح الباحث مستغرقًا. وتُقدم الدراسة التي أُجريت على الجماعة الدينية التي تُعرف بجماعة "نزوات المسيح" التي قدمها كل من روبينز ***Robbins***، وأنتوني ***Anthony***، وكيرتس ***Curtis*** مثالاً لذلك.

دراسة حالة

محاولة لتحويل مذهب الإثنوجرافي

كان أعضاء الطائفة الدينية مقتنعين أنّ أي شخص فهم معتقداتهم بشكل كامل سوف يتحول أوتوماتيكيا لعقيدتهم. ولذلك ارتبكوا وكانوا في حيرة من أمرهم عندما

وجدوا أنّ الباحث كان لا يزال على عقيدته ولم يتحول لملتهم حتى بعد أن فهم مذهبهم فهمًا تامًا. وخرجوا علينا بتفسيرات منوعة لذلك اللغز المحير:

(١) إنّهم كانوا مخطئين عندما اعتقدوا أنّ هناك علاقة بين فهم عقيدة وبين التحول لها والإيمان بها.

(٢) الباحث لم يفهم معتقداتهم فهمًا كاملاً.

(٣) كان الباحث أقل تعاطفًا نحوهم عمّا بدا لهم.

(٤) لم يكونوا مسيحيين حقيقيين صادقين ولم تكن الروح القدس تُكلّم الباحث من خلالهم.

(٥) يمكن أن يكون المرء شخصًا حسنًا دون أن يكون مسيحيًا بالضرورة.

دمّرت المحاولات المتكررة التي قام بها أعضاء الطائفة الدينية لتحويل الباحث لدينهم علاقتهم، وتحولت هذه العلاقة في النهاية إلى عداء صريح: اعتقد الأعضاء أنّ الباحث كان دجالاً وأفّاكًا، بينما فقد الباحث تعاطفه الأولي تجاه أتباع الطائفة.

تثبت هذه الواقعة أنّ التفاعل بين من تتم ملاحظته وبين الملاحظ يتضمن تأثيرات متبادلة قد تلقي بظلال الشك على العقيدة أو السلوك. ينبغي على المرء أيضًا أن يتذكر دور العواطف في نفسية "سيكولوجية" الباحث: يتذكر وايتي أنّه بدأ بحثه "كملاحظ غير مشارك" ولكن عندما أصبحت علاقته مع المبحوثين وثيقة وحميمة (لاسيما مع "دوك" فضّل أن يكون إخباريًا في تلك الدراسة الميدانية)، وغالبًا ما كان يجد نفسه في دور "المشارك غير الملاحظ".

٦-٤ أنواع الملاحظة

بينما تختص المشاركة والاستغراق باتجاه الباحث، فإنّ الوضع والحالة العاطفية، والملاحظة تخص الفاعلين: وعلى وجه التحديد أكثر فهي تخص إدراكهم الحسي ومعرفتهم عن الباحث، وبالطريقة التي يقدّم نفسه بها لهم وبأي هيئة أو منظر يقدم نفسه. وهناك ثلاثة أنواع مميزة من الملاحظة المشاركة في هذا الخصوص: الملاحظة المشاركة المستترة، والملاحظة المشاركة شبه المستترة، والملاحظة المشاركة الظاهرة.

٦-٤-١ الملاحظة المستترة

يكون المبحوثون في الموقف المُسمّى "الملاحظة المستترة" غير مدركين هوية الباحث ولا أهداف بحثه: يقوم الباحث بدوره متسترًا أو متنكرًا، إذا جاز التعبير. ومع أنّ هذا النوع من الأبحاث نادر نسبيًا في الممارسة الإثنوجرافية، فإن هناك دراسات مستترة معروفة ولها شهرتها. على سبيل المثال، درس روي *Roy (1952)* ثقافة الطبقة الكادحة من العمال عن طريق احتلال وظيفة في مصنع لتصنيع مكونات عربة السكة الحديد، وعمل فيه باسم مستعار لمدة عشرة شهور. وقد تكررت صورة طبق الأصل تمامًا لهذه الدراسة بعد ذلك بثلاثين سنة إذ قام مايكل بيرووي. دالتون *Michael Burawoy.Dalton (1959)* بدور المدير في ميلو *Milo* وفي فروهلينج *Fruhling* – وهما شركتان تحملان اسمين وهميين وتقعان في منطقة صناعية كبرى في الولايات المتحدة الأمريكية – وبذلك قام بتحليل التناقضات بين البنيات الهرمية التي يصورها جدول قوائم العاملين في المؤسستين، والقوى غير الرسمية التي تسيطر عليها "عُصبة" شبكات العمل ذات الصلة التي كان لها نفوذ ضخم. ودرس مان *Mann (1969)* ظاهرة غير عادية في تاريخ علم

الاجتماع: الطوابير في الأماكن العامة. وعن طريق إجراء مان بحثه في أماكن ومواقع مختلفة (مسارح، استاد رياضي، وكالات، حانات، ومواقف أوتوبيسات) وفي بلاد مختلفة (أستراليا، نيجيريا، كوبا، الولايات المتحدة، إنجلترا، اليابان، المكسيك وروسيا)، اكتشف أنّ تنظيم الطابور كان مرتبطًا بنظام القيم في البلد المختص. واختلط روسينهان ***Rosenhan*** وزملاؤه (١٩٧٣) بالمرضى في عيادات أمراض نفسية؛ بينما درس فان ديجك ***(1987) Van Dijk*** العنصرية من خلال إرسال أشخاص من أعراق مختلفة للتفاوض على الأسعار مع بائعي سيارات.

المزايا والعيوب

إنّ للملاحظة المستترة بعض المزايا، كما أنّ لها عيوبًا متعددة. وتُستعمل هذه الأداة عادة عندما يُعتقد أن وجود الباحث قد يُغيّر بشدة في السلوك المعتاد للمبحوثين (مفهوم رد الفعل). ومع أنّ وجود الباحث لا يزال ملزمًا بالتأثير على العمل أو الأداء، فهناك مواضيع (على سبيل المثال، التفرقة العنصرية، السلوك اللا قانوني، والممارسات غير المقبولة من الناحية الاجتماعية) من المحتمل أن تتضمن درجة عالية من إمكانية رد الفعل. والمزية الثانية للملاحظة المستتـــرة هـــي أنّها لا تتطلب تفاوضًا لاكتساب الدخول للميدان: الوسطاء، والحراس والبوابون، يتم تحاشيهم بضربة واحدة. ومع ذلك، فقد قيل إنّ هناك عيوبًا متعددة للملاحظة المستترة. أولاً، هناك مخاطرة أن يتم اكتشاف أنّك جاسوس، بما لذلك من عواقب محرجة، أو خطيرة أحيانًا. ثانيا، من الصعب الاستجابة والامتثال للقواعد التنظيمية بأنّه لابد للباحث من تقديم الوثائق (المذكرات المرضية، على سبيل المثال) لتبرير الغياب. ثالثا، يكون الباحث مقيدا بالدور الموكل إليه (أو إليها لو هناك باحثة) مما يعني أن تكون فرصته ضئيلة (لاسيما في الأدوار الروتينية) في الحركة المعرفية

بغرض ملاحظة أماكن أخرى وعلاقات اجتماعية أخرى، رغم أنّ الموقف يصير مختلفًا إذا كان الباحث، كما هو الحال مع دالتون (*1959*)، يشغل وظيفة إدارية. رابعا، يكون الباحث غير قادر على إجراء مقابلات رسمية أو على أن يكون ملحاحا بشكل مُفرط في طرحه للأسئلة، لأنّ "الناس لا تتحمل المقابلات والملاحظات التي لا يُقدّم لهم فيها تفسير لأي غرض أو هدف (*Whyte, 1984: 31*).

الأخلاق والاستثناءات

وأخيرًا، تثير الملاحظة المستترة قضايا أخلاقية لا يمكن تجنبها. يحق للمبحوثين ضمان خصوصيتهم، وأن يعرفوا بالتالي الشخص الذي يتعاملون معه حتى يستطيعوا أن يقرروا ما إذا كانوا يشاركون في البحث أم لا. إنّ الباحثين ليسوا ضباط شرطة، أو مخبرين سريين، أو صحفيين في قسم التحقيقات. ولا يسمح دستورهم الأخلاقي، إضافة إلى قانون حماية البيانات والمعلومات الذي صدر مؤخرًا، بالخداع أو بخيانة حسن النية لدى المشتركين في الحوار (المبحوثين). ومع ذلك فهناك موقفان يصبح فيهما الاستثناء لهذه القواعد والأحكام ممكنًا، الأول عندما يجري الباحث (أو الباحثة) ملاحظاته بدون تفاعله مع المبحوثين، وبالتالي فهو يحتفظ بمسافة معينة بعيدًا عنهم. والمواقع التي تمثل هذا النوع هي أماكن مثل الاستاد الرياضي، والشواطئ السياحية، والمسيرات السياسية، والأوتوبيسات، وصالات الرقص، والطوابير في الأماكن العامة والميادين العامة. في هذه الحالة، تتشابه الملاحظة المستترة مع الملاحظة غير المشاركة. أما الاستثناء الثاني فيختص بالمواقف التي يؤدي فيها المبحوثون وظائف عامة، أو يقدمون خدمات للزبائن (أصحاب المتاجر، وضباط الشرطة، وموظفو المكاتب التنفيذية،

والعاملون في المتاجر، وصرافو البنوك... إلخ.) وبالتالي يكون عملهم غير شخصي والهــدف منه إرضـــاء المرضى والزبائن سواء كان ذلك الشخص بالصدفة باحثًا أو لم يكن كذلك. ويمكن تبرير البحث الذي ذكرناه أعلاه والذي أجراه كل من روزينهان وفان دجيك بناء على هذه الأسباب.

وفي مواقف أخرى، يعتبر كثير من المؤلفين أنّ استغلال طيبة الناس وحسن نواياهم أمرًا يستحق الشجب والتوبيخ مهما كانت أهداف أبحاثهم ذات قيمة علمية أو أخلاقية، ومهما كانت الدوافع الخلقية للباحث (ما يُسمى بنموذج "العواقب الأخلاقية النفعية"، المبنية على القول المأثور المعروف للمفكر السياسي الفلورنسي نيكولو ماكيافيللي (*1469-1527*) *Nicolo Macchiavelli*: الغاية تبرر الوسيلة). تخيل أنّ مريضًا في مستشفى يتحدث مع إثنوجرافي وأنت تعتقد أنّه طالب في كلية الطب (لأنّ أحدهم قدمه إليك بهذا الشكل)، وأنّك أفضيت إليه بمخاوفك الناجمة عن المرض الذي تعاني منه، ماذا كنت تشعر حينئذ؟

من أجل هذا ينبغي أن يضع اختيار الملاحظة المستترة في الاعتبار موضوع البحث ومهنة أو مركز كل من المبحوثين المنخرطين في البحث. وقد يخلق البحث المستتر أيضًا مشاكل أخلاقية للباحث ذاته. ففي دراسة حالة عن الشرطة، يتذكر هولداواي (*1982*) ***Holdaway*** أنّه وجد نفسه في مواقف استخدم فيها رجال الشرطة الذين كان يجري عليهم ملاحظاته العنف مع المشبوهين. ولم يعرف كيف يتصرف: هل يدافع عن المشبوهين (وبالتالي يكشف عن هويته الحقيقية)، أم يظهر عدم الاهتمام (الأمر الذي وجده مرفوضًا من الناحية الأخلاقية). وليست هذه هي المعضلة أو الورطة الأخلاقية الوحيدة التي تنشأ في ميدان العمل، كما سنرى في الباب السابع.

٦-٤-٢ الملاحظة شبه المستترة

وما يقف في منتصف الطريق بين الملاحظة المستترة والملاحظة الظاهرة هي الطريقة المُسماة بالملاحظة إما "شبه المستترة" أو "شبه الظاهرة، طبقًا للمنظور الذي تُرى من خلاله، أو طبقًا لما إذا كانت أغلبية المبحوثين الذين يتم ملاحظتهم أو أقليتهم يدركون أنّ البحث جار إجراؤه. في حالة الملاحظة شبه المستترة يعرف بعض أعضاء الجماعة، أو التنظيم، أو الجالية فقط هوية الإثنوجرافي. على سبيل المثال، روى بيكر **Becker** إنّ "معظم الناس الذين أجريت ملاحظتي عليهم لم يعرفوا أنني كنت أقوم بدراسة عن الموسيقيين" (١٩٥١: ٨٤). ويتذكر وايتي (١٩٨٤: ٣٠) أنّ القليل فقط من الناس الذين تفاعل معهم في منطقة إيطاليا الصغيرة ***Little Italy*** المجاورة في بوسطن كانوا يعرفون أهداف البحث الذي أجراه. وبالمثل، فإنّ أهداف معلومات الدراسة عن متعاطي الهيروين التي أجراها كل من سولواي ***Soloway*** وولتارز ***Walters (1977)***، ودراسة كيزار ***Keiser (1969)*** الذين أجروا ملاحظة مشاركة عن فايس لوردز ***Vice Lords***، أحد أكبر وأقدم عصابة شوارع في منطقة مجاورة لهم، كانت تُعرف لوسطائهم ولبعض الأشخاص الآخرين فقط.

٦-٤-٣ الملاحظة الظاهرة

الملاحظة الظاهرة هي الطريقة الفنية الأكثر استخدامًا من جانب الإثنوجرافيين بشكل لا سبيل إلى الشك فيه، وقد استُخدمت لجمع غالبية المادة الإثنوجرافية في الأدبيات المعروفة. ومن وجهة نظر مزاياها وعيوبها، فإنّ أشكال الملاحظة المستترة والملاحظة الظاهرة عكس بعضهما، بمعنى أنّ عيوب الملاحظة المستترة موارد حاسمة ومهمة للملاحظة الظاهرة. وبنفس الطريقة، تكون مزايا الملاحظة الظاهرة عيوبًا ومثالب في الملاحظة المستترة.

وأحد أهم عيوب الملاحظة الظاهرة ضرورة الحصول على إذن أو تصريح لإجراء الملاحظة في الموقع المختار. والحصول على مثل هذا الإذن يتطلب في معظم الأحيان ضياع قدر كبير من الوقت والجهد، كما سوف نرى في الباب التالي.

ومع ذلك فمن بين مزايا الملاحظة الظاهرة أنّ الباحث لا يضطر لأداء دور أو عمل محدد مما ينتج عنه أنّه يحظى بقدر معين من الحرية، اعتمادًا على المؤسسة التي تتم الملاحظة فيها. وأخيرًا فإنّ الباحث قد يجد أنّه من الصعب إدارة ردود الأفعال التي يُحرّض وجوده على حدوثها بشكل حتمي.

٦-٥ على حدود الإثنوجرافيا: دراسة مجتمعات الإنترنت

ظهر في الساحة مؤخرًا طريقة ملاحظة جديدة: تُسمى إثنوجرافيا رقمية أو افتراضية على الإنترنت ***(Markham, 2005) Hine, 2000 ;*** ، وتتكون من دراسة مجتمعات الإنترنت بأشكالها المختلفة، مثل غرف الدردشة، والمنتديات... إلخ. وفي نواح معينة، يحدث أن ترفض الإثنوجرافيا العملية الطرق التقليدية لإجراء البحوث الإثنوجرافية، لأنه:

عادة ما يتم جمع البيانات على الإنترنت دون إجراء مقابلة مع الأشخاص المعنيين وجهًا لوجه. والسؤال الذي يطفو على السطح هنا هو: هل يجب أن تعتمد الإثنوجرافيا على الحضور البدني للإثنوجرافي وسط الأشخاص الذين تجري دراستهم؟ أو هل يتضمن افتراض أن يكون الإثنوجرافي موجودًا بشخصه بالضرورة مفهومًا قديما لما هو مطلوب للعمل الإثنوجرافي؟ .***(Hammersley, 2006: 8)***

إنّ المشكلة التي أثارتها الإثنوجرافيا الرقمية (الافتراضية) هي مشكلة نظرية ومنهجية: هل يمكن فهم ثقافات الإنترنت فهمًا كافيًا لو تم فقط إجراء تحليل للنصوص؟ لأن هذا هو ما تبلُغه الطريقة: ليس في مقدور إثنوجرافي الإنترنت سوى أن يلاحظ ويحلل النصوص التي تظهر على الشاشة، دون أن يستطيع مقابلة كاتبيها، أو يلاحظ الظروف والسياق الذي أفرز النص، أو أن يكون لديه أي منظور غير المنظور الذي يكتبه أشخاص الإنترنت أو يقولونه عن أنفسهم. ومن الواضح أنّ هذه المشاكل يمكن التغلب عليها وأنّها تختلف من حالة لأخرى. لكنّه من الصعب ربط هذه الطريقة لإجراء البحث بالإثنوجرافيا عندما تتشابه أكثر مع تحليل المحادثة، أو تحليل الخطاب أو، بشكل عام أكثر، تحليل النص.

٦-٦ إدارة مشروع البحث (تنفيذ البحث): تخطيط العمل وتوقيتاته

إنّ إجراء البحث الإثنوجرافي مشروع طويل ومعقد. وبصرف النظر عن رغبات الباحث، فقد يتعرض التنفيذ للإعاقة أو التأخير. (بسبب مشاكل الحصول على إذن أو تصريح بالدخول لموقع العمل، على سبيل المثال)، أو قد تتسارع خطواته فجأة. ومن هنا، فقد يكون من الضروري قضاء بضع سنوات من العمل لإتمام إجراء مشروع البحث. لذا فمن الأمور المهمة للباحث ألا يفقد مسار ما يقوم به من عمل. ويُعتبر جدول جانت ***Gantt Chart*** أو رسمه البياني أداة مهمة في هذا المضمار، وهو يُستخدم لتصميم المشروع ومتابعة تقدم العمل فيه. ويتم تحديد المناشط التي تم تخطيطها مؤقتًا، وتُصور وتُرسم بقضبان تمثل أطوالاً تتناسب مع مدتها الزمنية. ويظهر الشكل ٦ - ١ تخطيط وتوقيتات مشروع إجراء بحث إثنوجرافي عن استشارة حول فيروس نقص المناعة البشرية.

كان هنري إل. جانت ***Henry L. Gantt (1861- 1919)*** أول من أنشأ هذا النوع من الجداول، وقدّمه عام ١٩١٠. كان جانت مهندسًا ميكانيكيًا أمريكيًا،

ومستشارًا إداريًا، ومستشارًا صناعيًا. واستُخدمت جداوله ورسومه البيانية كأداة بصرية لإظهار وعرض التقدم الفعلي والمبرمج زمنيًا للمشروعات. وكان هذا الجدول ابتكارًا ذا أهمية عالمية في العشرينات، وهو مقبول كأداة مألوفة لإدارة المشروعات حتى وقتنا هذا.

المرحلة ١ مقدمة
١-١ تحليل الأدب البحثي
١-٢ تطوير النموذج النظري
١-٣ تقرير تمهيدي
١-٤ اجتماع لجنة البداية
١-٥ ورشة عمل علمية
المرحلة ٢: استشارة حول البرنامج [illegible]
٢-١ المقابلات (الجولة الأولى)
٢-٢ تحليل المعلومات
٢-٣ المقابلات (الجولة الثانية)
٢-٤ مقابلات مع الممارسين والمرضى
٢-٥ تحليل النتائج
٢-٦ تقرير المعلومات
٢-٧ تقرير مرحلي
٢-٨ مؤتمر علمي
المرحلة ٣ تطوير الاستراتيجيات
٣-١ تطوير الاستراتيجيات
٣-٢ المصادقة مع جماعات [illegible]
٣-٣ تقرير الاستراتيجيات
المرحلة ٤ التقييم
٤-١ تشكيل جماعات السيطرة [illegible]
٤-٢ تطبيق الاستراتيجيات
٤-٣ تقرير النتائج
المرحلة ٥ التوصيات
٥-١ تطوير التوصيات
٥-٢ النشر
٥-٣ التقرير النهائي للمشروع
٥-٤ ورشة عمل النشر العلمي

ملاحظات ختامية

الانتقال من المفاهيم لميدان العمل في البحث الإثنوجرافي عملية معقدة تتطلب فكرًا حريصًا واتخاذ قرارات متعددة. وأدق مرحلة في هذه العملية بلا شك هي إجراءات المعاينة. وهذه الإجراءات هي التي تعطي للبحث صلابته، وتضاعف من عملية تعميم اكتشافاته وتجعل الدفاع عنها بسهولة ضد النقد أمرًا ممكنًا.

النقاط الرئيسية

- تنفيذ المشروع يعني نشاط تعريف الأهداف وتحقيقها بينما تجعل استخدام الموارد مثل الوقت، والمال، والناس، والمواد... إلخ. أقـرب ما يكون للكمال (أو أنّها تحددها وتُعيّن مواقعها).
- المعاينة شيء لا يمكن تحاشيه لأنها إلى جانب كونها شيئًا علميًا، فهي نشاط يومي معتاد.
- ويتم اختيار العيّنة على مرحلتين: تكوين مفاهيم وتصورات للموضوع وتعريف وتحديد وحدات الملاحظة.
- العينات الممثلة في غاية الأهمية في إجراء البحث الإثنوجرافي لأنها تحمينا ضد النقد الموجه للتعميم الضئيل والضعيف لنتائج أبحاثنا.
- من المهم التمييز بين معاينة الأماكن ومواقـع العمـل، ومعاينـة الأحـداث أو الأفراد.
- ومع ذلك، فلابد من الوصول للتمثيل على كلا المستويين.
- تتضمن المعاينة النظرية اختيار مجموعات أو قوائم لدراستها طبقًا لصلتها بأسئلة البحث، والوضع النظري وإطار العمل التحليلي للباحث.

- المعاينة عملية تقدمية تصاعدية، تفاعلية، ومتكررة. وهي ليست إجراء أوتوماتيكيا على الإطلاق.
- يثير البحث المستتر مشاكل أخلاقية مهمة: يُخوِّل المبحوثون خصوصيتهم، ولهم الحق في أن يعرفوا الشخص أو الأشخاص الذين يتعاملون معه أو معهم، حتى يمكنهم أن يقرروا ما إذا كانوا سيشاركون في البحث أم لا.
- إنّ إجراء البحث الإثنوجرافي مشروع طويل ومعقد، لذا فمن الأمور المهمة للباحث ألا يفقد مسار ما يقوم به من عمل. ويُعتبر جدول جانت ***Gantt*** أو رسمه البياني أداة مهمة في هذا المضمار.

المصطلحات الأساسية

الحالة: نموذج أو مثال لشيء ما. والحالة هي دائمًا بند يتبع قائمة عامة وينتمي إليها.

البحث المستتر: الموقف الذي يكون الفاعلون فيه غير مدركين هوية الباحث ولا أهداف بحثه، ويقوم الباحث بدوره متسترًا أو متنكرًا.

الإثنوجرافيا الرقمية أو الافتراضية: هي دراسة مجتمعات الإنترنت.

المكان أو الموقع الرمزي : نوع من المعاينة المسببة، وقد يكون لها ما يصل إلى ثلاثة ملامح: ملمح *متوسط* (المستشفى القروي النموذجي، أو منظمة بلدية قرية جبلية نموذجية)، أو ملمح *امتياز* (مؤسسة مشهورة لتصنيع السيارات)؛ أو *ملمح ناشئ* (الرواد أو المتطرفون، مثل موضة الأحداث التي ظهرت أخيرًا).

جدول جانت: أداة نافعة في تخطيط مشروع البحث وتحديد أوقات التنفيذ.

الاستغراق (في الميدان): يخص الموارد العاطفية التي يعرضها الباحث. وهو يتعدل وينتقل بين خمس درجات مختلفة: مرتفعة، ومرتفعة بدرجة متوسطة، ومنخفضة بدرجة متوسطة، ومنخفضة، وبلا استغراق.

أماكن أو مواقع: هذا موقع لعينة مفيدة ومريحة، ويقوم اختيارها على أسباب عملية فقط. ومع ذلك، فقد كانت هذه العينة.

المعاينة المتاحة: هي الأساس الذي بُنيت عليه غالبية الدراسات الإثنوجرافية التي شكلت تاريخ النظرية الاجتماعية.

البحث الظاهر: الطريقة الفنية الأكثر استخدامًا من جانب الإثنوجرافيين بشكل لا سبيل إلى الشك فيه. هنا يعرف كل أعضاء المؤسسة الجاري دراستها هوية الإثنوجرافي.

المشاركة: المقصود بها درجة توحد الباحث مع الجماعة التي يتم دراستها. وهي تتصاعد وتتعدل بين أربع درجات مختلفة: تامة، وإيجابية، ومعتدلة، وسلبية.

عينة الموقع العمدي: هي نوع من العينة المُسببة. تتكون معاينة الأماكن والمواقع العمديّة بتحديد وضع صارم ومتطرف لخواص محددة، أو مواقع تشمل مجال الوضع المتاح بحيث يضم كل الأوضاع الممكنة فتصبح تلك المواقع كأنها موجودة.

المعاينة الحصصية: تنتمي لإجراءات معاينة لأفراد أو جماعات. وهي تُستخدم في مواضيع تشمل مدى واسعًا من الأوضاع. وينقسم إطار المعاينة إلى مجموعات فرعية تزداد بقدر الخصائص التي نريد أن نلاحظها، وتكون نسبة كل مجموعة فرعية في العينة هي نفس نسبتها في إطار المعاينة.

معاينة الموقع المُسببة: تتطلب تدقيقًا شديدًا في الأماكن أو المواقع الموجودة واختيار تلك التي تكون أنسبها لمفاهيم وتصورات الموضوع والتي تبرز أثناء تصميم البحث.

العينات المُمثلة: مجموعة فرعية تُعتبر نموذجا مُصغرًا لإطار المعاينة. وبالتالي فإنّ خصائص إطار المعاينة تُستنسخ على ميزان المعاينة.

العينة: مجموعة فرعية لإطار المعاينة.

إطار العينة: من وجهة النظر النظرية، إطار العينة يوازي امتداد المفهوم. ومن وجهة النظر العملية، ومجموعة الحالات الفردية التي تشكل ظاهرة جماعية خاضعة للدراسة. وهناك مرادفات لإطار المعاينة وهي "البشر" و"السكان" و"القائمة الكاملة".

البحث شبه المستتر: الوضع الذي يعرف بعض أعضاء الجماعة، أو التنظيم، أو الجالية التي تجري دراستها فقط هوية الإثنوجرافي.

عينة كرة الثلج: تنتمي لإجراءات معاينة الأفراد، وهي تتكون من بعض الأفراد الذين يعرضون ويبرزون الخصائص الضرورية والذين تؤدى توصياتهم لأفراد آخرين يتحلون بنفس الخصائص.

توصية بقراءة

بالنسبة للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد:

Silverman, David (2005b)

بالنسبة للخريجين:

Becker, Howard (1998b)

بالنسبة للمتميزين ممن يجرون البحوث

Gobo, Giampietro (2008)

اختبار تقييم ذاتي

هل أعددت نفسك للباب التالي؟ راجع معلوماتك ومعرفتك بالإجابة عن الأسئلة التالية ذات النهايات المفتوحة:

١. ما الفرق بين العينة والعينة الممثلة؟

٢. ماذا يمكن أن يتعلمه المرء من المسح الشامل الذي أجراه ميتشل ***Mitchen*** وكارتونين ***Karttunen*** للدراسات الفنلندية عن "الفنانين"؟

٣. ما الخلط والالتباس حول المعاينة التي لا يزال البحث الكيفي يقع في شركها ويتشابك فيها؟

٤. لماذا تكون الوحدات التفاعلية أكثر فعالية وديناميكية بالنسبة للأفراد؟

٥. ما المعاينة النظرية؟

٦. لماذا يكون نقد معاينة (الأماكن والمواقع) المتاحة نقدًا قاسيًا أكثر من اللازم؟

هامشان

١ - كان جلاسر وستروس (١٩٦٧) أول من قدما هذا التعبير.

٢ - من أجل قراءة تفاصيل حول: دراسات الحالة التي تعاملت مع قضايا المشاركة والاستغراق، ادخل على الرابط: *www.sagepub.co.uk/gobo.*

الجزء الثانى

جمع المادة

الفصل السابع

النزول إلى ميدان العمل



الأهداف التعليمية

- فهم صعوبة النزول إلى الميدان.
- تعلم كيف تنجح في الدخول للميدان.
- معرفة الشخصيات الأساسية في الجماعة أو التنظيم
- معرفة كيف تنجح في مواجهة صورتك وهويتك.
- أن تتعلم من أخطائك وتبدأ من جديد.

٧-١ مقدمة

إنّ أصعب مرحلة في عملية البحث الإثنوجرافي بأكملها هي النجاح في الحصول على إذن بدخول الميدان. على عكس أنواع أخرى من البحث والتحقيق

(المســح الشــامل، وجمــاعة المنــاقشة البؤرية، أو المقابلة) التي قد تزعج التنظيم أو الجماعة أو الفرد لفترة وجيزة فقط، نجد أنّ البحث الإثنوجرافي يتطلب قدرًا أكبر للغاية من التعاون من جانب المشاركين في البحث. هذا المطلب يقلل بشكل جذري من عدد التنظيمات أو المؤسسات أو الجماعات التي يمكن إجراء البحث الإثنوجرافي عليها. ثانيا، بمجر أن يتم النجاح في الحصول على إذن بدخول الميدان، لابد للباحث أن يخصص من وقته وطاقته القدر الهائل من أجل كسب ثقة من سيحاورونه، ومن أجل الحفاظ على هذه الثقة طوال فترة البحث، وإلا فسوف يواجه مقاومة شديدة، وسيكون عاقبة ذلك نقص فهمه وإدراكه للظواهر الواجب ملاحظتها.

دراسات الحالة

الدخول الميمون وغير الميمون للميدان

في عام ٢٠٠٣ شرع عالم اجتماع التنظيم، أتيلا بروني ***Attila Bruni***، في إجراء بحث إثنوجرافي على جمعية من الأطباء المتطوعين الذين كانوا يقدمون رعاية صحية أساسية للمهاجرين غير الشرعيين.

ولم يتول المدير الطبي الرد على رسالة الإدارة المحلية، ولكن المسألة لم تأخذ مني سوى مكالمة تليفونية لتنظيم المقابلة وتحديد زمنها وتأسيس وتوطيد القواعد الأساسية للملاحظة التي سأتولى القيام بها. وتم الاجتماع في غرفة المكتب التي استعملها الطبيب أيضا كعيادة للمرضى، وفي نهاية المقابلة لم يقدم أي اعتراض للقيام بملاحظتي على عمل الخدمة يوما بعد يوم. وقال إنه سيتولى إبلاغ الموظفين، وطلب مني فقط أن أذهب للمركز في نفس اليوم وأن أقدم نفسي لأحد زملائه هو المسئول عن جدولة نوبات العمل للموظفين.

عندما أصل الساعة ١٦:٥٠ (المركز يفتح الساعة ١٧:٠٠) يكون هناك عدد كبير من الناس (حوالي ٢٠) منتظرين في الرواق، بعضهم جالسون على صف من المقاعد خارج غرفة الكشف... وأدق على باب الغرفة، ويفتح لي من يبدو أنّه شاب (وهو طبيب، في الحقيقة، لكنه يبدو مثل أحد الشبان بالنسبة لي) يرحب بي في الحال عندما يسمع اسمي: "طبعًا، تسلمت الإيميل" (الذي أرسله طبيب العيادة الرئيسية ليخطر الموظفين بحضوري عقب اتفاقنا)، "تفضل بالدخول!"

لم أبدأ ملاحظة إثنوجرافية بمثل هذا الترحيب من قبل مطلقًا في حياتي، لكن لم يكن مجيئى المفاجئ ليدوم طويلاً: يريد جلوسيبي ***Gluseppe*** (هذا هو اسم الطبيب) مني أن أعمل! ويشرح لي أنّه موجود بمفرده في العيادة (السكرتيرة غائبة، والطبيب الآخر متأخر عن العمل)، لذا فلو كنت أستطيع أن أساعد في الجزء الإداري من العمل، فإنّه يمكن أن يبدأ في الفحوصات الطبية. "يسرني أن (أ) قدّم لك مساعدة، لكني لا أريد أن أكون مصدر إعاقة لك. ومع ذلك، تشير لهجة جلوسيبي في الكلام أنّه يلقي أوامر وليس يطلب مني المساعدة (*2006: 132*). لم يكن ديفيد سيلفرمان محظوظًا مثلي:

فشلت في الحصول على إذن بالدخول، رغم تعبير بدائي بالاهتمام في موقعين؛ في عيادة لطب الأطفال في بداية الثمانينيات، قال لي طبيب محافظ وتقليدي في لباسه وهو يراقب سترتي المصنوعة من الجلد إنني "لم أكن أحترم مرضاه"، وطردني من العيادة! وقبل ذلك بخمسة عشر عامًا، وكباحث مبتدئ انزلق لساني وكشفت السر وأنا على الغداء أنني كنت أفكر في الانتقال من المملكة المتحدة لأمريكا الشمالية عندما أتممت رسالة الدكتوراه، وواضح أن المنظمة التي كانت تستضيفني اعتبرت هذا التوجه "ذرائعيًا بذيئًا وغير لائق"، وعقب ذلك تم رفض حصولي على الإذن بالدخول الذي كانوا قد وعدوني به.

وقد قسّم كاسيل (*Cassell, 1988: 93 – 5*) إستراتيجيات الإذن بدخول ميدان البحث إلى مرحلتين: "الدخول" (تحقيق الدخول المادي الفعلي للمكان)، و"تحقيق النجاح الاجتماعي").

٧–٢ سياسة الدخول

لا يمكن أن يشمل كُتيّب حول مناهج البحث المدى الكامل للإستراتيجيات التي يُكتسب بها الدخول لمواقع الميدان. ويتم تصميم هذه الإستراتيجيات وضبطها وتعديلها طبقًا لخصائص التنظيم أو الجماعة التي يتم ملاحظتها، ولنوعها (شركة أو مؤسسة)، وحجمها (كبير، أو متوسط، أو صغير، أو صغير جدًا)، ولأهداف البحث، لذا فإنّ هذه الإستراتيجيات تنبثق من الموقف المنوط بالاستفسار والتحقيق من القدرة الإبداعية للباحث. ومع ذلك، يمكننا تقرير بعض الإرشادات والمبادئ التوجيهية التي تساعد الإثنوجرافيين الأقل خبرة، والمبتدئين منهم على وجه الخصوص، على أن يجدوا مواقفهم واتجاهاتهم.

٧–٢–١ الدخول المادي...

أول شيء نضعه في الاعتبار هو نوع الملاحظة التي يتم تصميمها (انظر الشكل ٦–٤) أي ما إذا كانت النية إجراء بحث مستتر أم بحث ظاهر.

في البحث المستتر

إذا اختار الباحث نوع البحث المستتر القائم على الاستفسار والتحقيق، فسوف تختلف إستراتيجيات الدخول إليه طبقًا لنوع الموضوع الذي تتم دراسته، وبالتالي طبقًا لإمكانية الدخول للميدان. وعندما يكون موقع الميدان منظمة عمل،

تكون الممارسة العادية هي استئجار الباحث للعمل كمستخدم أو كاستشاريٍ، وتفعل المنظمة ذلك بتسجيله في إدارة الوظائف المؤقتة أو الرد على الإعلانات في الجرائد. والعائق الوحيد في هذه الإستراتيجية هو أنّ الباحث تكون له "قوة تفاوضية" ضعيفة لأن المنظمة هي التي تختار الباحث، وليس العكس. علاوة على ذلك، قد تُعيّن مهام للباحث المأجور تختلف عمّا نص عليه الإعلان طلبًا لشغل الوظيفة. بمعنى آخر، لا يمكن إعداد تصميم البحث إلا بعد أن يتم اختيار الباحث وانضمامه لقائمة الموظفين في المنظمة.

في البحث الظاهر

يتطلب البحث الظاهر إستراتيجيات مختلفة جدًا. وهو يتطلب *مفاوضات* مع رؤساء المنظمة أو الجماعة. وقد تستمر هذه المرحلة لمدد زمنية مختلفة، ولا يَتوّج عملها بالنجاح في كل الأوقات. علاوة على ذلك، فإنّه يتم تعيين *هويةِ* كل من الباحث والجماعة أو المنظمة بأسلوب إجرائي خلال المفاوضات. يقدم الباحث أوراق اعتماده الأكاديمية، ويعد بأن يتصرف بطريقة سليمة من الناحية الأخلاقية. وتطلب المنظمة ضمانات بأن فضول الباحث وتطفله غير المرغوب فيه لن يُسبب أي تباطؤ في الإنتاج. وترسم المفاوضات بعد ذلك الطريق للمجالات والمساحات التي قد يذهب الباحث إليها، وتضمن أنّه لن تنشأ مشاكل للإدارة ولتنظيم العمل، وما إلى ذلك، وبهذا يقللون من تكاليف وجود الباحث عندهم. ومما يتم التفاوض بشأنه أيضًا موضوع *البر وفعل الخير عمومًا*، أو الميزة التي قد تستمدها المنظمة أو الجماعة نتيجة السماح لغريب لإجراء ملاحظته. وعادة ما ينتج عن هذه المفاوضات المتعددة مجموعة متعاقبة من العهود أو الاتفاقيات الضمنية وظيفتها إنشاء إطار مبدئي يتم من خلاله تنظيم "التزامات وتوقعات متبادلة" (وأنا هنا أستخدم عبارة استخدمها جوفمان)، وتحديد حدود عمل وحركة الإثنوجرافي. والتعيدات والاتفاقيات التي يتم الوصول إليها ليست نهائية أو يستحيل إلغاؤها.

والأحرى أنّها غالبًا ما تكون دلالية إرشادية، لأنّها يتم تعديلها وتغييرها أثناء إجراء البحث كلما قلّت الحساسية النفسية الزائدة والشك المتبادل بين الطرفين. وعلى وجه الدقة، يتضمن العمل الميداني في الحقيقة مراجعة جزئية للتعهدات والاتفاقيات والضمانات بسبب طبيعتها الإجرائية.

وسطاء وضامنون (كفلاء)

ويقدم محتوى ما كُتب في هذا المضمار أربعة أشخاص نموذجيين من بين المشاركين المتعددين الذين يتقابل الإثنوجرافيون معهم أثناء جريان البحث: (الوسيط)، والضامن، وحارس البوابة، والإخباري في الدراسات الميدانية. ويلعب الشخصان الأولان دورًا رئيسيًا أثناء المرحلة التي ينجح الباحث فيها في الدخول المادي الفعلي في المنظمة، أمّا الشخصان الثالث والرابع فلهما أهمية عظمى أثناء مرحلة الدخول الاجتماعي. واضح أنّ هذا التصنيف تحليلي فقط، إذا علمنا أنّ الوسيط والكفيل يساعدان أيضًا في تعزيز ورعاية العلاقة التعاونية بين الباحث والعمال الاجتماعيين.

ويمكن تعريف الوسيط على أنّه الشخص الذي يُنشئ الاحتكاك والاتصال، أو يقيم جسر التواصل بين الباحث وأعضاء معينين من التنظيم أو الجماعة.

دراسة حالة

مجتمع نواصي الشوارع

أدى هذا الدور في بحث وايتي (*Whyte, 1943a*) أخصائي اجتماعي في محل الوحدة الاجتماعية، وهو وكالة خدمة اجتماعية تعمل في قلب كورنفيل.

وعندما فهم الأخصائي الاجتماعي ما كان وايتي يريده، رتب له موعدًا مع دوك *Doc*، وهو مواطن يقيم في المنطقة المجاورة عمره تسعة وعشرون عامًا، وكان قد عمل بالفعل في محل الوحدة الاجتماعية، واستطاع وايتي أن يشرح له الغرض من بحثه، لذا فإن الوسطاء لهم أهمية أساسية في المرحلـــة الأولى للبحث، لأنّ البحث لا يمكن أن يبدأ ويقف على قدميه بدون مساعداتهم. ووجد وايتي أيضًا وسيطًا مفيدًا في شخص مجلة أسبوعية تصدر باللغة الإنجليزية للجالية الإيطالية الأمريكية المحلية، التي ساعدته على إيجاد مسكن مفروش في المنطقة المجاورة. وأرسله رئيس التحرير لعائلة مارتيني، التي كانت تدير مطعمًا وتؤجر غرفًا فوق المؤسسة. ولكن عندما وصل وايتي للمطعم، أخبره صاحبه أنه ليس عنده غرف خالية، ثم طلب رئيس تحرير المجلة نجل مارتيني على الهاتف، فأوجد غرفة لوايتي في الحال.

والضامن (أو الكفيل) هو الشخص الذي يقيم العلاقة بين الإثنوجرافي والجماعة أو التنظيم. وعلى عكس الوسيط، فإنّه (أو إنّها) ينتمي للجماعة، ويثق أعضاؤها فيه. وكان دوك *Doc* قائدًا لطاقم "أولاد الــ" المحلية في البحث الذي أجراه وايتي. وكان دوك معروفًا ومحترمًا في منطقته والمنطقة المجاورة، وقدّم وايتي لمجتمع كورنفيل وأدخله فيه، وطمأنه أن عليك أن "تذكر فقط أنّك صديقي. هذا هو كل ما يحتاجون معرفته. أنا أعرف هذه الأماكن، وإذا قلت لهم إنّك صديقي، فلن يزعجك أحد" (١٩٥٥: ٢٩١).

والكفيل النموذجي هو الشخص الذي له روابط متينة مع كلا الجانبين في الواجهة الإثنوجرافية؛ جانب الباحث وجانب المشاركين فيه، والذي يعرف المشاركين بقدر كاف من الألفة والمودة الحميمة. وعادة ما يكون الكفيل هو القائد

في الجماعات والجاليات المحلية والمجموعات غير الرسمية، وهو يمارس سلطته، كما أنّه مهني محترم، كأن يكون طبيبًا، أو صيدليًا، أو كـاتب عـدل، أو محاميًا أو قسيسًا. وعوضًا عن ذلك، ففي التنظيمات أو المؤسسات الرسمية، يكون الضامن من يلي أعلى شخص مقامًا في التنظيم الجاري دراسته (حارس البوابة): على سبيل المثال، هو مدير المجلس الصحي المحلي في الحالة الأولى أو رئيس الخدمة المباشرة لمدمني المخدرات في الحالة الثانية.

٧-٢-٢ الإذن بالدخول الاجتماعي: حراس البوابات

لكي يكسب الإثنوجرافيون تعاون الفاعلين الاجتماعيين (أو المشاركين)، يجب عليهم أن يحصلوا على اتفاق جماعي في الرأي على مشاريعهم وأن يكسبوا ثقتهم، لذا فإنّهم قد يخضعون للفحص الدقيق الذي يقوم به حراس البوابات، وهم أفراد يشرفون على التنظيم أو على أرض الجماعة:

هناك أشخاص معينون في كل موقع أو مكان يحتاج المرء أن يحظى بقبولهم إياه كي يحصل على إذن بدخول الموقع والمشاركين في مشاريعهم. و(هم) يتحكمون ويسيطرون على من يكون في المكان الذي يمكنهم سماعه فيه، كما يمكنهم أن يشاهدوا ما يحدث فيه أيضًا ***(Schwartz and Jacobs, 1979: 53)***.

وحراس البوابات جزء من الثقافة التي يلاحظها الإثنوجرافي، وهم يقومون بدور له أهمية قصوى. ويزعجهم، برغم تطمينات الكفيل لهم، أنّ البحث قد يضر بصورة التنظيم وأنّ وجود الباحث قد يغير من علاقات التنظيم الداخلية، لذا يجب على الإثنوجرافيين أن يولوا اهتمامًا شديدًا خاصًا بحراس البوابات التنظيميين.

ويبني الإثنوجرافي هويته بطريقة إجرائية وتفاعلية من خلال الإستراتيجيات التي ينشرها لكي يكسب قبول الحراس والمشاركين له، ومع ذلك، فليس فقط هويته (أو هويتها) بل هوية المشاركين أيضًا، فهم يبنونها ويعيدون بناءها فيما يتعلق

بهوية الباحث. وعندما يفعلون ذلك، فإنهم يسترشدون بالرغبة التي وصفها جوفمان بتقديم صورة خاصة عن أنفسهم، ليظهروا أنهم يوافقون أو لا يوافقون على قيم التنظيم الذي يعيشون أو يعملون فيه. لذا فإنّ هوية الباحث والمبحوثين الذين يتولى دراستهم يتم بناؤها بالتبادل خلال فترة إجراء البحث.

٧-٣ أدوار الباحث وهويّاته

مهما كان العمل الذي يقوم به الإثنوجرافي في الجماعة أو التنظيم، فإنّه مُجبر على أن يفترض دورًا له ويتولى القيام به. ويُحدد المبحوثون الاجتماعيون هوية الباحث من خلال هذا الدور، كما أنّه يعطي معنى لــوجــوده فــي الجماعة أو التنظيم. وكما يؤكد كل من شوورتز ***Schwartz*** وجاكوبس (***Jacobs, 1979: 52***) فإنّ، "الدور الاجتماعي للمرء فقط هو الذي يضمن له دخول الأشخاص، والمواقف، ونوع المعلومات التي تجعلها أدوار اجتماعية أخرى غير متاحة". ويستطيع الباحث أن يؤثر جزئيًا فقط في الدور والهوية المنسوبتين إليه لأنّ المشاركين في البحث يعدلون ويغيرون في المعلومات التي يتلقونها بشكل خلاق. فعندما كان بارلي ***Barley (1990)*** يتفاوض للحصول على إذن بالدخول لإجراء بحث في قسم الأشعة بأحد المستشفيات، قدّم نفسه للمديرين كأخصائي في الأنثروبولوجيا، مفضلاً هذه التسمية عن "أخصائي اجتماعي" التي كانت مهنته الفعلية. وقد تغيرت هويته مرة أخرى أثناء إجراء البحث، لأنّ الموظفين بالمستشفى فضلوا أن يقدموه للمرضى باعتباره طالبًا، وليس أخصائيًا في الأنثروبولوجيا.

لذا فإنّ أدوار الباحث وهويّاته يتم بناؤها بشكل مستمر أثناء عملية إجراء البحث، بغض النظر عن نواياه والجهود التي يبذليا، في حين أنّه من الواضح أنّه،

وكما يشير جوفمان، رغم أنّ "كل فرد مسئول عن صورة سلوكه وتصرفاته (*1956b:84*)، فإنّه من الأمور الحقيقية أيضًا أنّ مساهمته في رسم هذه الصورة قد تكون هامشية بالكامل لأنّه لابد من أن يعتمد على الغير لإكمال صورة الذات التي يُسمح له بتلوين أجزاء منها فقط (*1956: 84*). علاوة على ذلك، فإنّ الهوية ليست خاصية منسوبة ثابتة تدوم حتى إتمام البحث، مواجهة الباحث، هي "القيمة الاجتماعية الإيجابية التي يظهر بها الشخص نفسه... وهو يستعيرها من المجتمع فقط؛ ويتم سحبها منه إلا إذا قاد نفسه وسلك سلوكًا بالطريقة التي يستحقها هذا الوجه ويكون جديرًا بها" (*Goffman 1955: 5 and 10*). وأخيرًا، فإنّ خط السلوك الذي يبني به الإثنوجرافي صورته ويطالب باعتمادها يغلب عليه اتخاذ شخصية تأسيسية: "وسيجد خيارًا صغيرًا من الخيوط مفتوحًا أمامه وخيارًا بسيطًا من الوجوه يكون في انتظاره" (١٩٥٥: ٧).

ومع ذلك، فلا ينبغي أن تزعجنا ملاحظات جوفمان الحادة. وبدلاً من ذلك، ينبغي أن تجعلنا ندرك الموارد (التي يمكن أن نعتمد عليها) والتقييدات التي يجب أن نذعن لها) أثناء إجراء ملاحظاتنا. بمعنى آخر، نحن نعرف أنّ هويتنا لا تُعزى أو تُنسب إلينا نهائيًا وإلى الأبد. إنّ أي أخطاء، أو هفوات أو "بدايات خاطئة" يمكن إصلاحها بطريقة تفاعلية بالآليات المعرفية، حيث يميل الحاضر لإعادة كتابة الماضي.

في البحث الظاهر، يكون وجود الإثنوجرافي دخيلاً وفضوليًا دائمًا تقريبًا، لأنّ وجوده يسبب الحرج، والقلق، والتوتر، والإزعاج في جماعة المشاركين. يحدث هذا في بداية البحث، لكنه قد يستمر حتى استكماله. لكن من الممكن فهم سبب الإخلال والتشويش العاطفي، والمعرفي، والاجتماعي الذي يسببه وجود الإثنوجرافي: فهو غريب يقترب من أعضاء الجماعة أو التنظيم لكي يلاحظهم.

لكنّ تدخله هذا وانعكاس ذلك على المشاركين يختلف من جماعة لجماعة أخرى ومن تنظيم لتنظيم آخر طبقًا لمدى استعداد مجتمع المضيفين لاستقبال الغرباء. ورغم أنّه يغلب عدم تجنب توابع التدخل في حياة الناس، فإنه يمكن التقليل من آثاره. دعنا ندرس حالة معقدة على وجه الخصوص: حضور إثنوجرافي راشد وبالغ في مجتمع من الأطفال.

دراسة حالة

ثقافة الأقران في مرحلة ما قبل المدرسة

أجرى الإثنوجرافي الأمريكي وعالم اجتماع الطفولة وليام إي كورسارو *William A. Corsaro* بحثًا في مدارس رياض أطفال إيطالية وأمريكية. كان موضوع بحثه هو ثقافة الأقران في مرحلة ما قبل المدرسة، وكان عليه أن يتولى حل مشكلة متناقضة إلى حد ما: لم يكن يريد من الأطفال أن يعتبروه مدرسًا أو أحد الآباء، لأنّ ذلك يمكن أن يجعلهم يتصرفون نحوه كما يتصرفون مع أي شخص بالغ كبير السن تمامًا. وبدلاً من ذلك، ولكي يكسب مدخلاً عميقًا في قلب ثقافة الأطفال، كان عليه أن يُعتبر ممن لم يبلغوا سن الرشد.. لكنه كان كبيرًا جدًا؛ له ذقن ويضع إضافة إلى ذلك نظارة على عينيه، إذن كيف استطاع أن يجعل هناك فرقًا بينه وبين الشخص البالغ؟ حتى لو تعلم أن يتصرف كالأطفال تمامًا، فإنّ الفوارق الجمالية العادية كانت كفيلة بتذكير الأطفال باستمرار بوضعه المختلف. وكنتيجة لذلك، فإنّه ربما مر بتجربة العداء الذي يظهره الأطفال أحيانًا تجاه الكبار؛ والبديل الآخر هو أن يكون خاضعًا لمطالب وآمال وتوقعات وحب الأطفال التي كثيرًا ما يعبر الأطفال عنها أيضًا نحو الكبار. باختصار، بدا أنّ مشكلته ليس لها حل.

التمرين ٧ – ١

- ماذا كنت تفعل لو كنت مكانه؟
- حاول أن تفكر في بعض الإستراتيجيات لحل مشكلة كورسارو الميثودولوجية.
- ناقش هذه الحلول مع نفسك أو مع مدرسك.

ولكي يقلل كورسارو (١٩٨٥) من تطفله ويُفرّق بين نفسه وبين كبار السن، تولى تصميم إستراتيجيات متعددة أصبح يؤدي من خلالها عكس السلوك الطبيعي الخاص بالكبار:

(١) تبنّى موقفًا "سلبيًا" في التفاعلات.

(٢) كان يذهب لأماكن لا يزورها حصريًا تقريبًا إلا الأطفال.

(٣) كان يُلبّي كل طلبات الأطفال.

(٤) كان يجلس قريبًا جدًا منهم، ويظل صامتًا، ويتواصل معهم بدون كلام.

(٥) كان يرد على أسئلتهم وامتنع عن طرح أي سؤال.

(٦) لم يحاول مطلقًا أن يبدأ أو ينهي تفاعلاً معينًا.

(٧) لم يكن يتدخل للبدء من جديد في نشاط انقطع لسبب أو لآخر.

(٨) لم يقم بتسوية أي نزاع بينهم.

(٩) لم ينسق أي نشاط أو يتولى التوجيه في أدائه.

إنّ إستراتيجية كورسارو تشبه كثيرًا النهج الذي استخدمه علماء الأخلاق أو السلوك المقارن الآخرون: ديان فوسي *Dian Fossey*، على سبيل المثال، التي

درست مجموعة من غوريلات الجبل في راوندا لمدة ١٨ سنة إلى أن قتلها الصيادون (بدون إذن). كانت طريقة فوسي (١٩٨٣) – طريقة ثورية في ذلك الوقت لأنّ الغوريلات كانت تُعتبَر في غاية الخطورة ويجب عدم الاقتراب منها – تتكون من الاقتراب التدريجي منها، مع تبني أخذ وضع أدبي سلبي، وانتظار اقتراب الغوريلات بدورها منها. وكانت أول شخص يصبح له اتصال طوعي اختياري بغوريلا، وذلك عندما قامت إحداها بلمس يدها. كانت قادرة على الجلوس بينها واللعب معها ومع صغارها (شاهد فيلم "غوريلا في الضباب": قصة ديان فوسي وإخراج مايكل آبتِد ***Michael Apted***.

ومما يشهد على نجاح إستراتيجيات كورسارو حقيقة أن هويته تغيرت من شخصية شخص كبير بالغ إلى نوع من الشخصيات الهجين، رآه الأطفال على أنّه "طفل كبير"، أو شخص نصف بالغ أو أخ أكبر لهم. كان هناك خمس دلائل رئيسية على هذا التغيير:

- كنية ("بيل الكبير" في الولايات المتحدة؛ و"بيللو" أو "بيلون" في إيطاليا) تلك الألقاب التي أعطاها الأطفال له.
- حقيقة أنّ الأطفال لم يتوقفوا عن اللعب عندما كان كورسارو يظهر أمامهم.
- فكرة الأطفال عنه بأنّه ليس له سلطة (في المناسبات القليلة التي حاول فيها إعطاء أوامر، كان رد فعل الأطفال عبارة عن تعبيرات مثل "اسكت (اخرس)، أنت لست مدرسنا").
- حقيقة أنّ الأطفال كانوا يجعلونه يجلس معهم في دائرة واحدة في حفلات أعياد الميلاد (بينما كان المدرسون والآباء يقفون على مسافة منهم).
- مزاحهم معه (في إيطاليا) بسبب مهاراته اللغوية الضعيفة.

٧-٤ تأثير الباحث

ومع أنّه يمكن تصميم مجموعة منوعة من الإستراتيجيات لتقليل تأثير الباحث، فإنه يمكن إزالتها أو استبعادها ولكن بشكل جزئي. وطبقًا لمبدأ "اللاحتمية"[١] إنّ ما نراه ليس الحقيقة، لكنّه حقيقة محددة تتولد نتيجة تدخلنا. على سبيل المثال، في دراسة عن "مـــذهب العـــري"، أدرك كل من ورين وراسموسين (*Warren and Rasmussen 1977*)، ونقلها (*Silverman, 2000: 206 – 7*) أنه عندما سأل شخص من الجنس الآخر المشاركين لماذا كانوا يذهبون لشواطئ العُراة، أجابوا بأنّهم كانوا يفعلون ذلك لأسباب تخص "الحرية واتباع المذهب الطبيعي". لكنّه عندما كان الحديث بين أشخاص من نفس النوع، كان السبب الذي يقدمونه في أغلب الأحيان هو الاهتمام بالطبيعة الجنسية (من أجل دراسة حالة أخرى، ادخل على *www.sagepub.co.uk/gobo*).

وقد يحث وجود الإثنوجرافي على أنماط عمل ربما ما كانت لتحدث إذا لم يكن موجودًا.

دراسة حالة

عمل الشرطة

عندما كان الأنثروبولوجي الأمريكي جون فان-مانين ***John Van Maanen*** يفكر ويتأمل في دراساته المتعددة حول منظمات الشرطة الحضرية، سأل ما إذا لم يكن هو نفسه مشاركًا في كثير من الأحداث التي شهدها. في الحقيقة، لم يستطع أن يستبعد أنّها حدثت نتيجة لوجوده ورغبة ضباط الشرطة أن يظهروا له، على سبيل المثال، كيف كانوا يديرون عمليات البحث، وكيف كانوا يجبرون المشكوك فيهم على احترامهم أو كيف اكتسبوا السمعة بأنّهم "رجال أقوياء صارمون".

هذه هي التقنية الشهيرة التي تُسمى باصطلاح "تأثر السلوك بالملاحظة والتجــربـــة"، وهـــو تعبيـــر ابتكـــره عالـــم النفس الأسترالي جورج إلتون مايو *George Elton Mayo (1880 – 1949)*، وطبقًا لرأيه فإنّ وجود الباحث يؤثر دائما تقريبا في سلوك المبحوثين الذين تتم ملاحظتهم(٢). وكما يؤكد كل من شوورتز وجاكوبس، فإنّ هوية الشخص والعمل الذي يمتهنه هو أو هي في الدنيا، لهما دور في "خلق هذا العالم وفي صياغة وصنع العدسات الملونة التي ترى الدنيا من خلالها، وتراها هي أيضًا" *(1979: 50)*

ولا ينبغي أن يُعتبر تأثير الباحث الذي لا يمكن تحاشيه عيب من عيوب الملاحظة، ولكنّ الأحرى أن يعتبر أنّه صفة مميزة جوهرية في البحث. عندما يجري الباحث ملاحظته فإنّه يغير في مجال الملاحظة بمقتضى مبدأ الانعكاسية، الذي يعلن ما يلي:

> **إنّ تصوير مظهر معين من العالم الاجتماعي وتقديم أوصاف له هو في نفس الوقت تصوير داخل نطاق نفس هذا العالم الذي يصوره (وجزء منه). ونتيجة لهذا... لا يوجد مجال في العالم الاجتماعي لمجرد وصف أي شيء. (التصوير) يؤثر في العلاقات الاجتماعية في نفس الوقت، ويُجري تقييمات خلُقية، ويفرز نتائج اجتماعية وخلقية وسياسية، وما إلى ذلك. إن التصوير "يؤدي" تقريبًا أشياء في الموقف الاجتماعي أكثر بكثير من مجرد "تسجيل مجموعة من الحقائق" *(1979: 51)*.**

يتبادل الإثنوجرافيون المعلومات مع المشاركين في البحث، ويتبادلون معهم أيضًا التحركات الاجتماعية؛ وهم يجمعون المعلومات والتعليمات حول كيفية تنسيق تفاعلاتهم مع الإخباريين في الدراسات الميدانية.

دراسة حالة

ثقافة النزلاء

أدرك ويدار (*Wieder (1974*) خلال تفاعلاته مع نزلاء دار منتصف الطريق بشرق لوس أنجلوس لعلاج مدمني الإجرام أنّهم لم يصفوا قانونهم الخلقي فقط، لكنهم كانوا يطبقونه عليه أيضًا. وعندما أخبر ويدار النزلاء عن قانونهم هذا، فإنّهم ببساطة لم يعرّفوا له القواعد السارية المفعول في الدار والتي تجبر الجميع على الالتزام بها، لكنّهم في نفس الوقت (بسبب انعكاسية الخطاب) فعلوا أشياء بجانب ذلك أيضًا، من بينها معاقبة سلوك الباحث الذي يسعى للحصول على معلومات حكموا عليها بأنّها غير ملائمة، فإذا قالوا له أنّ قانون "لا تختلس شيئا أو تأخذه خلسة" يجب أن يُطبق، فإنهم في نفس الوقت كانوا يحرمونه من الحصول على معلومات قيّمة بفرض هذا القانون عليه أيضًا.

وبالمثل، وجد ديورانتي ***Duranti*** أنّ بعض أهالي قرية ساموا تحدثوا معه بشكل ثابت لا يتغير "بلغة جيدة"، الذخيرة الصوتية التي استخدموها مع الغرباء، بينما خاطبه البعض الآخر "بلغة رديئة" القدرة الصوتية التي يستخدمونها فيما بينهم كمواطنين في تلك القرية:

> **في ردود أفعالي اليومية مع سكان القرية، لم يكن من المكن دائمًا أن أتنبأ بالطريقة التي سيتحدثون بها معي. البعض منهم لم يتوقف عن استخدام "لغة جيدة" معي. لكن لا أستطيع أن أقول وأنا متأكد من كلامي بأنّ ذلك كان طريقة لجعلي بعيدًا عنهم، لكي يذكروني بأصولي، وبالطريقة التي جئت بها لأعيش بينهم. بالنسبة**

للبعض، كانت طريقة لجعل شخصيتي الاجتماعية مميزة ومختلفة عن شخصيات الحاضرين الآخرين، لكن لأسباب لم تكن معادية بالضرورة تجاهي. وفي حالات أخرى، كانت اللغة الجيدة تُستخدم لإظهار السيادة على الذخيرة الصوتية وبالتالي لتأكيد الهوية الاجتماعية المرتبطة باستخدام تلك اللغة (لو كان المتحدث مدرسًا، أو عضوًا مؤثرًا في الأبرشية أو الطائفة الدينية المحلية). لذا كان وجودي ببساطة مناسبة للتباهي بناحية معينة لكفاءة التواصل والتخاطب الفردية (١٩٩٢: ٩٧).

لذا فإنّه بناء على هذا الرأي، لم يكن هدف الباحث تغيير مجال الملاحظة بشكل ضئيل بقدر الإمكان (مع أنّ ذلك ينبغي أن يكون الهدف على أي حال) بل كان هدفه الأهم من ذلك هو تفعيل وتنشيط إستراتيجيات جيدة للحصول على أفضل فهم ممكن لما يريده.

٧-٥ في الميدان

علي عكس المظاهر، فإنّ الانتقال من النجاح في الدخول للميدان لمرحلة الملاحظة ليس بالعملية الخطية التي تتواصل بلا انقطاع. من وجهة النظر المعرفية، هذا الانتقال متقطع ويتم بالتناوب، مثل التحول من أن تكون شخصًا غريبًا إلى أن تكون شخصًا مألوفًا في المجتمع الجديد. وكما لاحظ الباحثون النظريون في الجيشتالت *Gestalt* وولفجانج كوهلار *Wolfgang Kohler*، وماكس فيرثيمار *Max Wertheimer*، وكيرت كوفكا *Kurt Koffka* حينما قالوا "فــإنّ الفهم لا يتواصل ويكتمل بشكل خطي، لكنه يتقدم بالأحرى بقفزات معرفية تعيد صياغة المعرفة التي تم اكتسابها". من أجل هذا، ينبغي أن يجعل الإثنوجرافي أول

أسبوعين أو ثلاثة لوجوده في الموقع أو ميدان العمل أقرب ما يكون من الكمال والفعالية في الوقت الذي يكون فيه لا يزال غريبا عن المبحوثين (انظر ٩ – ٢). لذا ننصح بتخصيص الأسابيع الأولى بالكامل للبحث، في الأساس للملاحظة وكتابة ملاحظاته، وتحاشي أي التزامات لا تتعلق بالعمل الإثنوجرافي. في الحقيقة، بعد مرور الأسابيع الأولى، تبدأ مخططات الباحث المعرفية تتشابه مع مخططات المشاركين في البحث.

٧–٥–١ الإخباريون

قانون جوردان

الإخباري الذي لا يُقدّم معلومات خاطئة أو مُضلّلة مطلقًا إخباريٌ منحرف بشكل لا يجعلنا نثق فيه.

ويقابل الإثنوجرافي، إلى جانب الوسيط والضامن والحارس، شخصية رئيسية أخرى خلال إجرائه لبحثه: وهي الإخباري. ولكي نظل مع مثال خدمة مدمن المخدرات، هناك من الممكن أن يكون الإخباريون هم الممرضون والممرضات الذين يعطون عقار الميثادون المُخدّر للمدمنين ويسهرون على راحتهم ورعايتهم، وكذلك حراس الأمن الذين يُعينون في مواقعهم لمنع استخدام العنف، والمدمنون أنفسهم. وعلى عكس حراس البوابات، الذين يوجدون قبل بدء البحث، فإنّ الإخباريين يبرزون بعد البدء في مراحل البحث: وهم جهات فاعلة يكتشفهم الإثنوجرافي في الميدان *أثناء* إجراء البحث. وهم ذوو أهمية حيوية بالنسبة للباحث لأنهم يسرعون من فهمه لثقافة الجماعة أو التنظيم. لابد للباحثين من إنشاء شبكة من العلاقات مع إخباريين يمكن الاعتماد عليهم ويساعدونهم على فهم معاني

الأعمال والكلمات، والرموز، ويعاونونهم في درجة إدراكهم للأمور، ويكشفون لهم مخططات ملاحظات جديدة. ومع أنّ كل أعضاء الجماعة يمكن أن يكونوا إخباريين، فإن قواد تلك الجماعة، أو الإدارة العليا لشركة مثلاً – أولئك الذين تعطيهم أدوارهم نظرة عامة وشاملة عن التنظيم بالكامل – قد لا يكونون أفضل الإخباريين.. ويؤكد الأنثروبولوجيون أنّ الإخباريين قد يكونون أحيانًا فاعلين هامشيين يستخدمون التفاعل مع الباحث ليجعلوا شخصًا آخر يستمع إليهم لكي يتلقوا منه دعمًا. وأخيرًا، ينبغي الوضع في الاعتبار أنّه ليس الحال دائمًا هو أن يكون الأشخاص الذين يرغبون أكثر من غيرهم في التعاون كإخباريين على اطلاع ما أكثر من غيرهم على ما يحدث في الموقع.

التناقض الوجداني

إنّ العلاقة مع الإخباريين علاقة معقدة. ومع أنّهم من ناحية يعتبرون موردًا جوهريًا بالنسبة للباحث، فإنّهم من الناحية الأخرى قد يكونون مصدر إعاقة في ميدان عمله: فبينما قد تفتح العلاقة المميزة مع مواطن واحد بالتحديد بعض الأبواب للمجتمع، فإنّها قد تغلق أبوابًا أخرى. بمعنى آخر، لو اختار الباحث شخصًا يحظى باهتمام بسيط من المجتمع كإخباري له، فإنّ ميدان العمل قد يعاني من ذلك. وتبعًا لذلك، فمن الحكمة بالنسبة للإثنوجرافي أن يدعم علاقته مع الإخباري ولكن بعد أن يكون قد أمضى بعض الوقت في المجتمع المضيف وبعد أن يكون قد فهم الوضع الاجتماعي لمن يتحاور معه، وقبل كل شيء الأسباب التي تدعو المحاور للتعاون. إنّ هناك خطرًا موجودًا دائمًا بأنّ الباحث سيتم التلاعب به. علاوة على ذلك، نظرًا لتحيز الإخباريين الذي لا مفر منه لوجهة نظرهم، فإننا ننصح باختيارهم من كل العناصر المختلفة في الجماعة أو التنظيم. عادة ما تُقسم المجتمعات وتُصنّف طبقًا

لآرائها، ومراكزها الاجتماعية، ومهنها وأدوارها، حتى إنّه إذا تم إقامة علاقات مميزة مع بعض الإخباريين فقط، فإنّ مراكز معينة أو مخططات معرفية معينة قد تكون مُمثّلة بشكل مغالى فيه أكثر من اللازم. لذا ننصح الإثنوجرافي أن يختار عينات من المناظير المعرفية المختلفة الموجودة في الموقع كي يقدّم تقريرًا "متعدد الأصوات"(٣) يعطي صوتًا لمختلف مستويات الجماعة، بما فيهم المنشقون عن تلك الجماعة. وأخيرًا، ينبغي أن يوضع في الاعتبار أنّ توجه الإخباريين قد يتغير كلما تقدم العمل في البحث: قد ينسحب من العمل بالتدريج أشخاص كانوا متعاونين ومساعدين في مراحل البحث الأولى (*Dalton, 1959*)، بينما قد يصبح أشخاص آخرون متعاونين بعد أن كانوا موضع شك ومعادين في البداية.

٧-٥-٢ المشاركون

من بين كل العلاقات التي تمت مناقشتها حتى الآن، ربما تكون العلاقة مع العمال الاجتماعيين أهم علاقة على الإطلاق، ليس فقط بسبب تكرار وجودها (حارس البوابة والإخباريين ليسوا موجودين دائمًا وبشكل مستمر)، لكن لأنّها تحدد أيضًا نوعية وكمية المعلومات التي يتمكن الإثنوجرافي من جمعها. وقد أشار سيكويل كثيرًا إلى أنّ البحث بفاعلين مشكوك فيهم ومعادين محكوم عليه بالفشل بكل تأكيد تقريبًا. إن المشاركين يستخدمون علاقتهم بالإثنوجرافي لتبادل المعلومات معه، وليقرروا ما هى أكثر أنواع السلوك ملاءمة ليتبنوها في تفاعلاتهم التالية مع الباحث:

سوف يحاولون أن يقيسوا إلى أي مدى يمكن أن يثقوا به (أو بها)، وماذا يمكنه أن يُقدّم كأحد معارفهم أو كصديق، وربما أيضا مقــدار سهولة التلاعب به أو استغلاله (*Hammersley and Atkinson, 1983: 78*).

وفي الحقيقة، فقد يجد الإثنوجرافي نفسه أحيانًا مضطرًا أن يناور وسط جماعات متنافسة أو متضاربة (*Dalton, 1959*) داخل نطاق التنظيم. وقد يُطلب منه حتى أن يتولى التحكيم في المنازعات (*Lofland, 1971: 96*) لأنّ الفكرة السائدة عنه هي أنّ تعليمه عال وبالتالي فإنّه يكون نزيهًا وغير متحيز في أحكامه.. وبسبب فطنة الإثنوجرافي ووضعه الفكري، فإنه يجب عليه بالتالي أن يتولى القيام بأدوار مجموعة هويّات متنوعة من بينها أن يكون ناصحًا ومرشدًا، ومعالجًا، وخبيرًا، وصديقًا. وعادة ما تكون أفضل إستراتيجية هي /*لا تفعل* ما يفعله المبحوثون عادة: التعبير عن الآراء، التوسط لحل المنازعات، ردود فعل للإهانات أو السخرية (*Corsaro, 1958; Barley, 1990*). بدلاً من ذلك، ينبغي على الإثنوجرافي ألا يصدر ردود أفعال بقدر الإمكان وأن يمتص كل سلوك غير لائق أو لغة غير مهذبة. ومن هنا ينبغي عليه أن يجعل أسئلة المبحوثين "ترتد إليهم"، وبهذه الطريقة يحثهم على الرد والاستجابة. ومع ذلك، فإنّ هذا الوضع المحايد بشكل متعمد الذي يُقصد منه عدم التأثير في سلوك المبحوثين قد يثير عداء أو خصومة المبحوثين. وقد يصل الأمر بالمبحوثين أن يعتبروا الإثنوجرافي شخصًا غير جدير بالثقة، أو خلوًا من الآراء، أو حتى ما هو أسوأ من ذلك، أنه شخص يعتقد أنّهم أقل منه مرتبة وغير جديرين بالتحدث معهم.. وفي الحقيقة، فإذا ما اتسم سلوك الباحث بعدم الانعكاسية، (إذا اعترفنا أنّه من المستحيل أن يكون الإنسان جامد الشعور تمامًا) فإنّ مثل هذا السلوك يكون شكلاً من أشكال السلوك المخالفة لردود الأفعال الطبيعية، حيث يتبنى الناس مواقف، ويقررون أنّ مشاركًا أو آخر كان على حق، وما إلى ذلك. ونتيجة لذلك، لا يوجد شكل اختياري للسلوك يمكن أن نوصي به الباحث، عليه فقط أن يضع في الاعتبار أنّه ليس هناك *مهلة أو استراحة قصيرة* في علاقات الميدان وأنّ أكبر المناسبات غير الرسمية ظاهريًا هي تلك الأوقات التي يتم فيها الحكم عليك في غالب الأمر (*Silverman, 2000, 199*).

وقد تكون محاولات الإثنوجرافي لكسب قبول الجماعة التي يتولى دراستها محاولات ناجحة، أو قد لا تكون كذلك (من أجل دراسة حالة، ادخل على الرابط: (**www.sagepub.co.uk/gobo**

وقد تتسبب عوامل خارجية خارجة عن إرادة الإثنوجرافي أيضًا في تدهور العلاقة بينه وبين المبحوثين. ونظرًا لطبيعة الإثنوجرافي المُطولة الممتدة، فقد يحدث أن يكون التنظيم أو الجماعة التي يجري دراستها تحت المجهر ويتولى دراستهم مهنيين آخرين في نفس الوقت (صحفيون بشكل نموذجي، أو أخصائيون في علم النفس، أو علماء سياسيون، أو رجال اقتصاد... إلخ.). وإذا تم نشر تقارير هؤلاء المهنيين أثناء استمرار الباحث في إجراء بحثه، فإنّ رد فعل المشاركين السلبي المحتمل قد يؤثر على عمل الإثنوجرافي، وربما يجبره على التخلي عن المشروع بسبب خوف المشاركين من حدوث مزيد من الأضرار التي تلحق بصورتهم.

٧-٦ السياق التاريخي الخفي

تمامًا كما أنّ السمك لا يرى الماء الذي يسبح فيه، وأنّنا لا نرى الهواء الذي نتنفسه، فإنّ الإثنوجرافي قلما يلاحظ التأثيرات التي يتأثر بها الموقع نتيجةً للفترة التاريخية التي يتم فيها إجراء البحث. إنّ الإثنوجرافيا تتطور في الوقت الحاضر في فترة زمنية مقيدة ومحددة، وكما يؤكد بيوراوي ***Burawoy*** وزملاؤه (***2000***)، فإنّها تجد الإجراءات الاجتماعية والتاريخية التي تحيط بالموقع صعبة الفهم والاستيعاب.

دراسة حالة

دور التاريخ في البحث الميداني

ناقش القسم ٣ - ٨ فيلم "حكايات المطبخ". لقد واجه الباحث السويدي الذي كان يعمل في شركة للهندسة البشرية، والتي كانت شركة سويدية هي الأخرى، صعوبة شديدة في دخول ميدان العمل، وهو منزل رجل عجوز أعزب يعيش في منطقة ريفية في النرويج. كان الرجل قد وافق في البداية أن تتم ملاحظته وهو

يمارس أنشطته اليومية في المطبخ، لكنه غيّر موقفه بعد ذلك، مما سبب مصاعب للباحث. وعندما بدأت العلاقة بين بطلي الرواية في التغير وبدأ في التخاطب والتواصل، ظهر (من بين الأسباب المتعددة لبرود الرجل) ضغينة معينة يشعر بها النرويجيون تجاه السويديين. كان ذلك في بداية الخمسينيات وكان النرويجيون لم ينسوا بعد كيف تعاون السويديون مع النازيين خلال الحرب. وفي حين احتل الألمان النرويجيين احتلالاً عسكريًا (مع كل العواقب التي يفرزها الاحتلال) فإن السويديين فضلوا التعاون. واعتبر النرويجيون هذا خيانة.

لا تستطيع الإثنوجرافيا دائمًا فهم وإدراك التأثير الضمني العميق للتاريخ (حتى مسح المقابلة المتعمقة فهو أقل فهمًا للتأثير الضمني). ورغم ذلك، فالتأثير موجود، حتى وإن كان بشكل خفي.

٧-٧ البحث عن الوثائق

من الصعب أن تقرر على وجه الدقة ما هو ذلك الشيء الذي يُشكّل تنظيمًا ما: البعض يقول إنّها الإجراءات التفصيلية الروتينية اليومية (جوفمان)، والبعض الآخر يُنوّه بالممارسات الاجتماعية (الإثنوميثودولوجيا أو منهجية الجماعة)، لكن آخرون يستشهدون بممارسات الخطاب أو الحوار (نظرية فعل الكلام، وتحليل الخطاب، وتحليل المحادثة) أو العمليات المعرفية (كارل ويك ***Karl Weick*** ومفهومه حول "العملية التي يعطي الناس من خلالها معنى للتجربة"). وربما كانت كل هذه الآراء صحيحة إلى حد ما. لكن يتم تشكيل التنظيمات أو المؤسسات أيضًا بالنصوص، حيث يُقصد "بالنصوص" المعلومات المبنيّة على عمليات أو إجراءات تخلقها الأنشطة العادية للناس أو المنظمات الخاصة أو العامة. هذه هي المعلومات التي "تصدر" بمشاركات وتُستخدم بطرق مُنظّمة بشكل اجتماعي

(*Atkinson and Coffey, 1997: 47*) بواسطة مشاركين، بدلاً من أن يخلقها الباحث - على هيئة مذكرات ميدانية على سبيل المثال. والباحث لا يفعل أكثر من اختيار نصوص من بين تلك النصوص وتكييفها لأغراض التحليل الذي يقدمه.

وهناك ثلاثة أنواع رئيسية للنص:

- تلك الأنواع التي تُسمى *وثائق عامة* (ملفات، وقواعد بيانات، واستمارات ونماذج، وإحصائيات رسمية، وتقارير شركات، وإجراءات رسمية، وقوائم طعام في مطاعم، وما إلى ذلك).
- *وثائق شخصية* (رسائل، ويوميات، وسير ذاتية، ومذكرات انتحار، بطاقات ومغلفات بريدية، وما إلى ذلك).
- صور، وصور فوتوغرافية، ورموز، وجداول زمنية، ولافتات، وإشعارات، وتحذيرات ومحظورات، وصفحات الويب، ووسائل الاتصال الشبكي الداخلي (شبكة إنترنت عادية تستخدم نفس التقنية المستعملة في الإنترنت، لكنها مصغرة بحيث تسمح للأعضاء المسجلين بمنظمة أو مؤسسة ما فقط بالدخول إليها) والاتصال الشبكي الخارجي (هي الشبكة التي تربط شبكات الإنترنت الخاصة ببريد إلكتروني، وبرامج التليفزيون).

وتخضع هذه المواد لـ "تقنيات غير تفاعلية" أو "تدابير غير بارزة" لدراسة الجماعات أو الأفراد، لأنّها يمكن جمعها بينما نبتعد عن "تأثير الباحث" ونقلل من حجمه وأهميته. وتمتلئ التنظيمات والمؤسسات بنصوص ليست مجرد ملاحق ولا تعليقات نقدية أو تفسيرية للممارسات، لكنّها بدلاً من ذلك تُشكّل أجزاء تكاملية ومهمة لها. ضع في اعتبارك مستشفى: الطبيب يفحص المريض، ثم يطلب منه أن يصف أعراض مرضه بينما يكتب هو ملاحظاته. ثم يحوّل الطبيب الملاحظات

التي حصل عليها من التفاعل المتبادل بينهما إلى تقرير كتابي (قائمـــة، أو ملف، أو تاريخ حالة). ومن ثم يبني زملاؤه ومساعدوه (أطباء وممرضون) قراراتهم على هذا التقرير الطبي، لأنهم لا يمكنهم الدخول مرة أخرى للوصول إلى مصدر البيانات، بالتحديد التفاعل الأصلي بين الطبيب والمريض. وهكذا يصبح التقرير المبني على ملاحظة مباشرة للمريض عاملاً مستقلاً بذاته تمامًا يقيم الحقيقة ويصدرها. من الواضح إذن أنّ الوثائق، اعتمادًا على نوع التنظيم المختص، مهمة في صنعها وإنتاجها كما أنّها مهمة في نسخها ونقلها.

ويمكن تحليل وثائق ونصوص التنظيم (كما سنرى في ١٣ – ٣) بعدة طرق مختلفة.

(١) يمكننا أن ندرس *محتواها* بحثًا عن القيم، أو القوالب النمطية، أو طرق التفكير. وهكذا تصبح النصوص مؤشرات ودلائل لثقافة المنظمة.

(٢) أو يمكننا تحليل ما حققته هذه الوثائق كعوامل غير بشرية تقيم الحقيقة بشكل مستقل ذاتيًا، كما هو الحال في مثال التقرير الطبي الذي ذكرناه أعلاه.

أو مرة أخرى، يمكننا دراسة وفحص "وسيط" الوثيقة: بمعنى، ليس المحتوى، بل الوعاء. بمعنى آخر: إنّ نوع الوسيلة المختارة للتواصل داخل نطاق تنظيم معين قد يكون مؤشرًا لسياسة ذلك التنظيم، ومعاملته لموظفيه، وثقافته التنظيمية. على سبيل المثال، لو استخدمت شركة ما البريد الإلكتروني المختصر (أو إنترانت الشركة) لتبلغ الموظفين أنّ الشركة على وشك أن تُدمج مع شركة أخرى، فقد يكون هذا مؤشرًا لأسلوب إداري هرمي أو تكنوقراطي "ذي خبرة فنية"، في موقع ينقصه ثقافة المشاركة. وبالمثل، إذا اكتشف الموظفون في يوم ما أنّ شركة أخرى ستتولى إدارة شركتهم (وأنّها غيرت حتى اسمها) من حقيقة أنّ شارات دخولهم لم تعد تصلح للاستعمال، فما مفهوم الموارد البشرية الذي لدى الإدارة العليا للشركة؟

والوثائق، مثلها مثل المقابلات الإثنوجرافية (انظر الباب ١٠) لا يمكن أن تُستخدم كبديل للملاحظة - "كبدائل لأنواع أخرى من البيانات" (أتكينسون وكوفي، ١٩٩٧: ٤٧). والأحرى، (أ) أنّها يمكنها أن تساعدنا على تحديد العناصر والمواضيع التي نعيد تركيز ملاحظاتنا عليها؛ (ب) يمكن استخدامها لاختبار الفروض؛ (ج) يمكن أن يُستشهد بها لدعم ملاحظاتنا ("تثليث": انظر ١٣٣)؛ أو (د) يمكن أن تُقدّم معلومات تُحسّن وتُطور فهمنا عما لاحظناه.

٧-٨ ملاحظات ختامية

إنّ معالجة العلاقات الميدانية مهمة غاية في التعقيد والإجهاد بالنسبة للباحث. لذا ليس هناك ما يدعو للدهشة إذا عرفنا أنّ هناك علماء اجتماعيين متعددين يفضلون إجراء أبحاثهم باستخدام مناهج بحث أخرى (المسح الشامل، أو المقابلة المتعمقة، أو تحليل الوثائق، أو تحليل الخطاب أو تحليل المحادثة، وما إلى ذلك) لا تتطلب منهم قضاء وقت طويل جدًا في الميدان أو الإبقاء على الاتصال والاحتكاك طويل الأمد مع المبحوثين. اكتساب الإذن بدخول الميدان إذن أحد أدق النواحي في الإثنوجرافيا: "هو مجال يؤكد الكثيرون أنّه أكثر المجالات علمية في العلوم الإنسانية، وأكثرها إنسانية في النواحي العلمية" (*Maanen, 2006: 13*).

النقاط الرئيسية

- اكتساب الإذن بدخول الميدان أصعب مرحلة في العملية الشاملة للبحث الإثنوجرافي.
- يمكن تقسيم إستراتيجية دخول الميدان إلى مرحلتين: "الدخول" (تحقيق الدخول المادي الفعلي للمكان أو الموقع و"تحقيق النجاح الاجتماعي").

- أثناء المفاوضات، ننصح بتحديد التبرعات أو الميزات التي قد يحصل التنظيم أو الجماعة عليها من السماح لغريب أو دخيل بملاحظة أي منهما.
- ومن بين المشاركين المتعددين الذين يقابلهم الإثنوجرافي نجد الوسيط، والكفيل أو الراعي، والحارس، والإخباري. ويؤدي أول اثنين منهما دورًا كبيرًا أثناء المرحلة التي يحقق الباحث فيها الدخول في التنظيم؛ ويكتسب الثالث والرابع الأهمية الكبرى أثناء مرحلة الدخول الاجتماعي.
- يتم إنشاء هوية الباحث وهويات الجماعة أو التنظيم بشكل إجرائي وتبادلي خلال المفاوضات على الدخول، ولكن، وقبل كل شيء، أثناء فترة إجراء البحث يومًا بعد يوم بعد دخول الميدان.
- لأنّ شخصية الباحث لا تُنسب إليه نهائيًا وعلى نحو حاسم، فإنّه يمكن إصلاح أي أخطاء، أو هفوات أو "بدايات خاطئة" بطريقة تفاعلية بالآليات المعرفية حيث يميل الحاضر لإعادة كتابة الماضي.

المصطلحات الأساسية

الوثيقة: المعلومات المبنيّة على عمليات أو إجراءات تخلقها الأنشطة العادية للناس أو المنظمات الخاصة أو العامة.

الواجهة: طبقًا لما ذكره جوفمان، فإنّ الواجهة هي "القيمة الاجتماعية الإيجابية التي يظهر بها الشخص نفسه بشكل فعال... وهو يستعيرها من المجتمع؛ ويتم سحبها منه إلا إذا قاد نفسه وسلك سلوكًا يتسق مع الطريقة التي يستحقها هذا الوجه ويكون جديرًا بها.

حارس البوابة: شخص تتضمنه الثقافة التي يلاحظها الإثنوجرافي، ويقوم بدور له أهمية قصوى. ويزعجه تطمينات الضامن له أنّ البحث قد يضر بصورة التنظيم وأنّ وجود الباحث قد يغير من علاقات التنظيم الداخلية.

الدخول: تحقيق الدخول المادي الفعلي للمكان أو الموقع.

النجاح والتقدم: تحقيق النجاح الاجتماعي.

الكفيل (الضامن أو الراعي): الشخص الذي يطمئن الجماعة أو التنظيم على السمعة الطيبة التي يتحلى بها الإثنوجرافي وجدارته بالثقة.

تأثر السلوك بالملاحظة: ظاهـــرة تم اكتشافها في العشرينيات وقام إلتون مايو ***Elton Mayo*** بتحليلها وتفسيرها. وما يتضمنه هذا هو أنّ وجود الباحث يؤثر دائمًا تقريبًا في سلوك من يلاحظهم "أي المبحوثين".

الهوية: صورة الذات وطبقًا لما ذكره جوفمان، فإنّه رغم أنّ كل فرد مسئول عن صورة سلوكه فإنّه من الأمور الحقيقية أيضًا أنّ مساهمته في رسم هذه الصورة قد تكون هامشية بالكامل لأنّه "لابد لأنّه" لابد من أن يعتمد على الغير لإكمال صورة الذات التي يُسمح له بتلوين أجزاء معينة منها فقط.

مبدأ اللاحتمية: تمت صياغته عام ١٩٢٧ بواسطة الفيزيائي الألماني هايسنبيرج ***Heisenberg***، وهو المبدأ الذي يقرر أنّ ما يراه الباحثون ليس الحقيقة، لكنّه حقيقة محددة تتولد نتيجة لتدخلهم.

الإخباريون: أشخاص داخل نطاق الجماعة أو التنظيم الذي تتم ملاحظته، وهم مطلعون على بواطن الأمور. وهم ذوو أهمية حيوية بالنسبة للباحث لأنهم يسرعون من فهمه لثقافة الجماعة أو التنظيم. وعلى عكس حراس البوابات، الذين يوجدون قبل بدء البحث، فإنّ الإخباريين يبرزون بعد البدء في مراحل

البحث: وهم جهات فاعلة يكتشفهم الإثنوجرافي في الميدان *أثناء* إجراء البحث.

الوسيط: الشخص الذي يُنشئ الاحتكاك والاتصال، أو يقيم جسر التواصل بين الباحث وأعضاء معينين من التنظيم أو الجماعة.

الفضول غير المرغوب فيه ظاهرة، وفقًا لها يفرز الوجود المادي الفعلي للباحث تغيرات في سلوك المبحوثين الذين يجري الملاحظة عليهم.

المشاركون: المبحوثون الاجتماعيون الذين يقيمون في موقع البحث.

فكرة تعدد الأصوات: مفاهيم قدّمها باتشتين ***Bachtin*** وتم تكييفها للبحث الاجتماعي. وهي تفيد بأنّه يجب إعطاء صوت لكل عناصر المجتمع، بما في ذلك المنشقون منهم.

التفاعلية: ردود أفعال المشاركين تجاه الفضول غير المرغوب فيه. وتتراوح بين الإحراج، والقلق، والإجهاد، والخوف، إلخ... إلى عرض سلوك مصطنع للغاية.

توصية بقراءة

بالنسبة للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد:

(Bruni, Attila 2006)

بالنسبة للخريجين

(Fielding, Nigel (2004

بالنسبة للمتميزين ممن يجرون البحوث:

اختبار تقييم ذات

هل أعددت نفسك للباب التالي؟ راجع معلوماتك ومعرفتك بالإجابة عن الأسئلة التالية ذات النهايات المفتوحة:

١. لماذا يدّعي الكثيرون أنّ الإثنوجرافيا "أكثر المواد الإنسانية علمية وأكثر المواد العلمية من الناحية الإنسانية" (فان مانين، ٢٠٠٦: ١٣)؟ ما المفهوم ضمنيًا من هذا التلاعب بالألفاظ؟

٢. ما الشيء المبتكر الذي قدّمه أخصائي السلوك الأمريكي ديان فوسي ***Dian Fossey***؟

٣. لماذا، طبقًا لرأي ديفيد سيلفرمان، لا يوجد "مهلة أو استراحة قصيرة" في البحث الإثنوجرافي؟

٤. كيف نستطيع أن نقرر ما إذا كنا، باعتبارنا إثنوجرافيين، قد قُبلنا من الجماعة أو التنظيم (المبحوثين)؛ أو بمعنى آخر، كيف يمكننا أن نعرف أننا نجحنا في تحقيق النجاح الاجتماعي؟ ما المؤشرات والدلائل التي يمكن أن نضعها في الاعتبار؟

٥. ما المقصود بـــ: لا يوجد مكان أو مجال في العالم الاجتماعي لمجرد وصف أي شيء؟

الهوامش

١ - تشكل هذا المبدأ عام ١٩٢٧ على يد الفيزيائي الألماني الحاصل على جائزة نوبل ويرنار كارل هايسينبرج ***Werner Karl Heisenberg (1901 1976)*** ، ومبدأ اللاحتمية حجر الزاوية للتقنية الكمية.

٢ - تأثر السلوك بالملاحظة والتجربة ظاهرة اكتشفها كل من روثليسبيرجر، ديكسون ***Roethlisberger, Dickson)*** ورايت ***Wright 1939*** في العشرينيات. هذان الباحثان، اللذان كانا ينتميان لفريق يرأسه مايو ***Mayo*** كانا يجريان تجارب في علم النفس الصناعي في محطة كهربائية شمالية عندما لاحظا أنّ هناك تحسنات في الإنتاجية أو النوعية نتجت من مجرد حقيقة أنّ العمال عرفوا أنّ هناك دراسة تُجرى عليهم، أو أنهم جار ملاحظتهم ومراقبتهم.

٣ - قدّم عالم فقه اللغة والناقد الأدبي الروسي ميكيل باتشتين ***Michail Bachtin (1895 – 1975)*** "فكرة تعدد الأصوات". اتفق باتشين على أنّ هناك أصواتًا عديدة يتردد صداها في كل كلمة، وبالتالي يكون لها معان متعددة رسّبها أولئك الذين استخدموها من قبل.

الفصل الثامن

مآزق أخلاقية

الأهداف التعليمية

- فهم الفرق بين الأخلاقيات (العادات الأخلاقية) والأخلاقيات المهنية.
- إدراك الأشكال المتعددة لأخلاقيات البحث.
- معرفة المبادئ الأخلاقية المهنية الرئيسية التي ترشد البحث وتقيده.
- تعلم كيفية معالجة المآزق الأخلاقية المهنية.
- اكتساب موقف أخلاقي مهني ذى حساسية منهجية.

٨-١ مقدمة

إنّ الكثير من أعمالنا اليومية توجهها وترشدها العادات الأخلاقية: يجب ألا نكذب على شركائنا، أو آبائنا أو أطفالنا؛ ويجب ألا نخدعهم، ولا نضرهم؛ ويجب أن نسعى إلى احترام رغباتهم. ويجب أن نمتثل للمبادئ الأخرى لآداب المهنة في أماكن عملنا: يجب أن نتحلى بالولاء للشركة، ولزملائنا، ونكون مهذبين مع الزبائن والمستخدمين. نحن خاضعون للقوانين والأعراف الأخلاقية حتى ونحن في الشارع: يجب أن نحاول أن نقدم المعلومات لمن يطلبونها منا، ونساعد من

يواجهون مصاعب ومشاكل بدلاً من أن نتجاهلهم. إنّ المسائل تختلف قليلاً في المشاريع العلمية، لذا ففي هذه الحالة أيضًا هناك استمرارية بين الحياة اليومية والعلم.

دراسة حالة

مآزق أخلاقية

في منتصف الثمانينيات كنت على وشك أن أبدأ في دراسة بحث عن انحراف الأحداث. وكان الأخصائيون الاجتماعيون في وزارة العدل قد أعطوني قوائم من الشباب من ذوي السجلات الإجرامية كي أتصل بمن يمكن أن يصبحوا إخباريين لي. على أي حال، كان تزويدي بالقوائم مقابل وعدي بألا أُخبر الضيوف الذين أجري معهم مقابلات في المستقبل كيف حصلت على أسمائهم. وكان السبب في هذه السرية هو أنّ الشباب كانوا "قد سدّدوا دينهم للمجتمع". وبالتالي لم يكن لهم شأن آخر بالخدمات الاجتماعية. ولو كانوا قد اكتشفوا أنّ أسماءهم كانت لا تزال في قوائم الأخصائيين الاجتماعيين، فقد يعتبرون أنفسهم موصومين بالعار مدى الحياة. ونتيجة لذلك، عندما اتصلت بالشباب وسألوني عن الطريقة التي حصلت بها على أسمائهم، ووجهت بمأزق أو ورطة: هل أكذب عليهم، أو أحنث بوعدي مع الأخصائيين الاجتماعيين؟ في أي من الحالتين، كنت سأخالف أحد معايير الميثاق الأخلاق المهني الخاص بي.

ولكي نتعامل مع مثل هذه المواضيع، نحتاج أن نستخدم اصطلاحين مهمين وهما: الأخلاقيات أو العادات الأخلاقية وعادات الأخلاق المهنية. ومع أنّ الكلمتين غالبا ما يتم استخدامهما بالتبادل، فإنّ الأخلاقيات أو العادات الأخلاقية معنية بمجموعة العادات التي توجّه سلوكنا وتصرفاتنا في الأماكن الخاصة والعامة، بينما تختص الأخلاقيات المهنية بالعادات التي تنظم السلوك في المجال المهني.

بناء على ذلك، فأثناء المراحل المتعددة لعملية إجراء البحث، يجب على الباحث أن يتخذ قرارات تتعلق بالمواثيق الأخلاقية المهنية الخاصة به بصفته من العلمـــاء وأحد المهنيين. على سبيل المثال، في القسم المتعلق بالبحث المستتر (انظر ٦ – ٤ – ١) واجهنا المشاكل الأخلاقية المهنية التي يثيرها ذلك النوع المحدد من أنواع الملاحظة. إن لدى الإثنوجرافيين، مثلهم مثل مهنيين آخرين، "مسئولية ليس فقط حماية المشاركين في البحث من الضرر، ولكن عليهم أيضا أن يراعوا حقوقهم" (*Murphy and Dingwall, 2001: 339*) إنّ المشاركين ربما يعانون ليس فقط من القلق والضغط والإجهاد أثناء جمع البيانات، لكنهم قد يُعاملون أيضا بشكل غير عادل أو ظالم. من أجل هذا، تم وضع مواثيق أخلاقية مهنية لتطبيق هذه المبادئ التجريدية ولمساعدة الباحثين على مواجهة مواقف ملموسة وواقعية (انظر، على سبيل المثال، الخطوط الإرشادية الأخلاقية المهنية لجمعية الأبحاث الاجتماعية بدخولك على موقع الرابط: -*www.the-sra.org.uk/documents/pdfs/ethics03.pdf:* –

ويعرض الموقع أيضًا ببليوغرافيا ممتازة، إضافة إلى تقديم مساعدات في حل المشاكل الأخلاقية المهنية بواسطة أعضاء ذوي خبرة في ***SRA*** أي جمعية الأبحاث الاجتماعية. ومع ذلك، فإنّ المواثيق الأخلاقية للجمعيات المهنية لا تحقق أهدافها في كل الأحوال: كثيرًا ما تقدم خطوطًا إرشادية عامة فقط، أو تضع قواعد تجريدية ذات مساعدة بسيطة للباحثين في حل مشاكلهم العملية. والمشكلة – وهي الصدام الذي لا حل له بين القاعدة (التي تكون عامة دائمًا) والموقف (الذي يكون خاصا دائمًا) - معروفة جيدًا وتمت معالجتها بإسهاب عن طريق الإثنوميثودلوجيا "منهجية الجماعة" (انظر ٣ – ٧). ويبدو الجانبان على خلاف مع بعضهما البعض تمامًا. علاوة على ذلك، وكما أكد كثير من المؤلفين، (القائمة طويلة جدا لدرجة أن ذكر بعض المؤلفين منهم فقط يصبح فيه ظلم لمن استبعدنا ذكرهم)، فإنّ التبديل الآلي للمواثيق الأخلاقية للبحث الإثنوجرافي واجه مشكلتين أساسيتين: الأولى...

(هذه المواثيق) ليست حساسة منهجيا (و) قد تُقيِّد إجراء البحث بشكل غير ضروري وغير ملائم. الثانية... قد لا تُقدم حماية حقيقية للمشاركين في البحث، ولكنها تُزيد علـــى الطبيعـــة مـــن المجازفة بحدوث أذى أو ضرر بسبب تبلد حساسية الإثنوجرافيين فيما يخص القضايا المنهجية المحددة التي تنشأ خلال إجراء البحث ***(Murphy and Dingwall, 2001: 340)***.

٨-٢ الأخلاقيات المهنية المتنافسة

واضح أنّ موضوع أخلاقيات البحث المهنية موضوع معقد للغاية، وقد اتخذ الباحثون مواقف مختلفة جدا حول هذه المسألة.

مذهب المنفعة

يتفق البعض أنّه ينبغي الحكم على الأعمال طبقًا لما ينتج عنها من عواقب، أكثر من المقاصد والنوايا التي وراءها، وبالتالي فيما يتعلق بمدى ما تزيده هذه الأعمال أو تنقصه من الصالح العام للمشاركين في البحث. ومن هنا فهناك اتجاه لتقليل الضرر الأخلاقي الذي قد يتعرض له المشاركون لأنّه يتم التعويض عنه من خلال الفوائد التي نحصل عليها من زيادة المعرفة العلمية. هذا الرأي يضفي الشرعية على أشكال الخداع والكذب التي تُستخدم مع المشاركين، بشرط ألا يتعدى الضرر الأخلاقي المزايا المتوقعة، وألا يدعي أي مشترك في البحث أنّه أصابه الضرر من البحث أو من نشر اكتشافاته. وهكذا تُبرّر انتهازية الباحثين، ويمكنهم الاستفادة بشكل فعال من الثقة وعلاقة الصداقة التي تنشأ في الميدان. هذا المذهب الانتهازي بأنّ الغاية تبرر الوسيلة هو الأساس لإجراء التجارب والبحث المستتر. ومع ذلك، فمن الصعب أن نتفق على سلوك مهني مجرد من الشرعية الأخلاقية،

لأنّه من المستحيل أن نتنبأ مسبقًا ما إذا كان البحث سيضيف إضافة مهمة وفعالة للمعرفة العلمية أم سيكون مجرد بحث رديء. علاوة على ذلك، قد يطرح المرء سؤالاً: من الشخص الذي يقرر ما ينبغي أن تبدأ من عنده النسبة المقبولة للإيذاء أو الضرر؟

نزعة ما بعد الحداثة والنسوية

مقابل النزعة الأخلاقية

وما يتعارض مع هذا المذهب النفعي هو الوضع الذي يمنح ميزة لحقوق وصلاحيات المشاركين في البحث ويضع مرتبة أدنى منهم للفوائد العلمية. ومع ذلك، فإنّ هذا الوضع يتضمن منظورين متناقضين.

- تؤكد فلسفة ما بعد الحداثة والنزعة النسوية (***Ellis, 1995 and Denzin, 1997***) أنّه آن الأوان للانفصال عن الإثنوجرافيا التقليدية وعيوبها ("النزعة" الموضوعية، والمذهب الطبيعي، والاستعمار، واستغلال المشاركين، وما إلى ذلك) والتحول إلى *إثنوجرافيا المشاركة* التي تُبنى على أساس مفهوم "الرعاية" التي يحدد فيها كل من الباحث والمشاركين متكاتفين معًا نواحي معينة من تصميم البحث، ويناقشون نتائج البحث، وأحيانًا يكتبون معًا التقرير النهائي.
- وبدلاً عن ذلك، فإنّ الأخلاقيات المهنية تُبنى على مفهوم "العدالة". وتتبنى وضعًا معياريًا "وصفيًا"، واستبداديا "مذهب السلطة المطلقة" الذي تُمثله خير تمثيل قواعد السلوك المهني المتعلقة بالأخلاق والواجبات الأدبية. (مع كل العواقب المؤذية التي رأيناها في القسم السابق).

ونظرًا لهذا التنوع في المواقف، أصبح من الواضح أنّ الباحث يُواجه أثناء إجراء بحثه بمآزق متعددة، أو بمشاكل لا يوجد لها حل أمثل. وأنّ القرار الذى يتم اتخاذه سيكون حتمًا تقريبًا ثاني أفضل قرار. وربما كانت أفضل طريقة لاكتساب اتجاه أخلاقي مهني هي دراسة المآزق الرئيسية التي واجهها الإثنوجرافيون القدامى والتعلم من خبرتهم. وطبقًا لذلك، سأوجز الآن المآزق التي كثيرًا ما تنشأ في البحث الإثنوجرافي.

٨-٣ حول أهداف البحث

تلزمنا المواثيق الأخلاقية أنّه لابد من إعطاء المشاركين معلومات كاملة عن أهداف البحث حتى يمكنهم أن يقرروا ما إذا كانوا يوافقون عليه أم لا. ومع أنّ هذا المبدأ يبدو صحيحًا بديهيًا، فإنه عندما يريد المرء أن يضعه موضع التنفيذ، يصبح أمرًا صعب الحل ويسبب مشاكل كثيرة. على سبيل المثال، فإن البحث المستتر (انظر ٥ - ٤ - ١) يتم رفضه وحظره في الحال. ولكن حتى بدون الذهاب للحد الأقصى هذا، فإنّ أولئك الذين يجرون بحثًا ظاهرًا يدركون جيدًا أنّه ليس من المستحسن دائمًا (في بحث عن اتجاهات وسلوكيات أصحاب مهن معينة كالمحامين، والقضاة، ورجال السياسة، وضباط الشرطة... إلخ.) أن يفسر الباحث الغرض من البحث، لأنّه من جهة قد يجعل المشاركين متشككين بشكل لا داعي له في دوافع الباحث الحقيقية، بينما من الجهة الأخرى فإنهم قد يتصرفون بطريقة مختلفة عن تصرفاتهم الطبيعية، وبهذا الشكل فهم يفسدون نتائج البحث. وحتى الباحثون الذين يحاولون أن يكونوا واضحين وضوح الشمس في تصرفاتهم مع المشاركين في البحث ربما يواجهون مشاكل ومصاعب، فليس من السهل أن يقدموا شرحًا كاملاً لهدف علمي "دون أن يرسلوا الإخباريين والمتعايشين معهم لكلية الدراسات العليا" (*Brewster Smith, 1979: 14*، واقتبسها *Murphy and Dingwall, 2001: 342*). وبالنسبة للعلماء غير الاجتماعيين، تُغلف المصالح

الأنثروبولوجية والسوسيولوجية بالتعتيم المنيع الغامض الذي لا سبيل إلى فهمه (*Glazier, 1993*). وينبغي على المرء أيضًا أن يضع في الاعتبار القول المأثور "توقع ما هو غير متوقع"، لأنّ البحث قد يُغير فجأة بؤرته وتركيزه ويأخذ الباحث على حين غرة. وبالتالي، أقرت الأعمال الأخيرة أنّ الفرق بين البحث المستتر والبحث الظاهر أقل بساطة مما نتخيله أحيانًا... تعتمد كل الأبحاث على "التواصل بين التستر والظاهرية" (*Murphy and Dingwall, 2001: 342*).

٨-٤ عن الولاء والكذب

قد يحدث أن يضطر الإثنوجرافي إلى أن يقدّم التزامًا أخلاقيًا لأشخاص يشغلون وظائف مختلفة، ويُحتمل أن يكونوا ممثلين لمصالح متضاربة. وكما قلنا في بداية هذا الفصل، فقد وجدت نفسي مشاركًا في صراع بين الوسطاء والمشاركين.

لذا يجد الباحثون أنفسهم أحيانًا مضطرين لانتهاك ميثاق *الثقة* مع المبحوثين، أو مضطرين ألا يخبروهم بالحقيقة الكاملة، أو أن *يخفوا معلومات* عنهم. في بعض أنواع البحث (على سبيل المثال، مدمنو المخدرات، مدمنو استخدام العقاقير، المصابون بالأمراض العقلية، المعوقون، أو من كانوا سجناء من قبل) ليس من الممكن في كل الأوقات أن تقول للمبحوثين لماذا وكيف تم اختيارهم للمقابلة. كيف نستطيع أن نقول لشخص ما "إنك تهمني لأنك مدمن مشروبات كحولية (الخمور)"، أو "أريد أن أجري معك مقابلة لأنك كنت مسجونًا"؟ ولو قلنا ذلك بالفعل، ألا يحث هذا الكلام ذلك الشخص بأن يتصرف وفقًا للصورة النمطية التي أعطاها له المجتمع؟ (انظر "حكايات حزينة" من تأليف جوفمان *Goffman's sad tales*)، وإذا لم نقل ذلك، فإنّ هذا يعطي الشخص الفرصة بأن يتخلى عن الصورة النمطية لمدمن المشروبات الكحولية أو السجين السابق ويحكي للباحث حكايته بشكل مختلف اعتقادًا منه أنّه لا يعرف قصته.

تجهيل الأسماء

وهناك مبدأ آخر واضح ظاهريًا وهو أنّه لابد من ضمان عدم ذكر أسماء المشاركين وأماكن أو مواقع إجراء البحث. والإجراء المُتّبع عادة هو استخدام أسماء مستعارة مع تغيير التفصيلات حتى لا يمكن تحديد الأماكن والأشخاص. ومع ذلك فهذا لا يضمن التجهيل بشكل كامل لعدة أسباب: عند قراءة تقرير البحث، قد يتعرف المشاركون على أنفسهم أو على أشخاص آخرين أو قد يكون موقع البحث أو مكانه مميزًا جدًا فيمكن للصحفيين، أو الشرطة، أو الخبراء التعرف عليه.

دراسة حالة

عن تجهيل الأسماء

أجرى كل من فيدتش ***Vidich*** وبنسمان ***Bensman*** ***(1985)*** دراسة على مدينة ريفية صغيرة (وأطلقا عليها اسما مستعارًا هو "سبرينجديل ***Springdale***") في ولاية نيويورك. وبرغم هذا الاسم المستعار، فإن الناس عرفوا اسمها الحقيقي، واحتجّ مواطنوها بصخب بأنّ الكتاب كان صورة ازدرائية وتحط من قدر مجتمعهم. وجر احتجاجهم هذا معه حتى جامعة كورنيل القريبة من مدينتهم، التي كان فيدتش وبنسمان يعملان فيها، ووجه النقد إليهما أيضا بعض زملائهما في الجامعة. وقد سبق أن اشتعل جدل وخلافات مشابهة بسبب "ميدلتاون" الشهيرة (انظر ١ – ٨ و ٦-٢-٤) والكتب الأولى في سلسلة كتب مدينة يانكي (انظر ٦ – ٢ – ٤). عموما، لا يحس المشاركون في البحث (المبحوثون) بالرضا مطلقًا عن الأوصاف والتفاصيل التي يقدمها الباحثون عنهم، حتى وإن كان الباحثون قد ذكروا الحقيقة. لكن بالنسبة لهذه المسألة، كيف يكوم رد فعلنا نحن أنفسنا إذا لفت أحدهم الانتباه لعيوبنا؟

وبالتالي، فبصرف النظر عن نوايا الباحث ومقاصده، فإنّ نشر نتائج بحثه قد يسبب (وأحيانا يسبب بالفعل) أذى وإساءة للمبحوثين، وأيضا لأنّ (لو كان البحث شيقا على وجه الخصوص) وسائل الإعلام قد تستخدم نتائج البحث في تشويه سمعة التنظيم الذي أجريت الدراسة عليه، وسمعة أعضائه. وقد يحدث أيضا أن يُتّهم الباحث بكشف القوانين والممارسات الثقافية لصالح أولئك الذين يمارسون الضبط والقمع الاجتماعي. ومثال على ذلك لود همفريس (*Laud Humphreys (1970*، الذي كان قسا أو راعي أبرشية ثم أصبح باحثا سوسيولوجيا وأجرى بحثا مستترا على اجتماعات مثليي الجنس من الذكور في دورات المياه العامة في مدينة أمريكية كبيرة: جنس شخصي عابر وسري بين مواطنين شرفاء ظاهريا. كانت التفاصيل التي قدمها لود عنهم دقيقة للغاية حتى إنّه اتهم بكتابة كُتيّب ودليل ممتاز للشرطة كي تستخدمه في قمع مقابلات مثليي الجنس من الذكور في الأماكن العامة.

السرية

عندما يؤدي الإثنوجرافيون العمل الميداني فقد يعرفون التفاصيل الشخصية عن المبحوثين المشاركين أو يكونون مطّلعين على أسرارهم بإذن منهم. والتأكد من أنّ هذه المعلومات لا تفسد علاقات الإثنوجرافي مع المبحوثين أمر يُقال بسهولة أكثر مما يُفعل في واقع الأمر. وتماما مثل ما هو مهم ألا نخون ثقة الإخباريين فينا، الذين يفضحون أنفسهم أحيانا كي يساعدوا الإثنوجرافي، فكذلك من المهم ألا نخون ثقة حراس البوابات، والكفلاء والرعاة، والوسطاء، والمشاركين الذين ضمنت موافقتهم نجاح إجراء البحث. وتكون هذه الناحية على وجه الخصوص واضحة أثناء كتابة تقرير البحث. لأنّ في هذا الوقت بالذات لابد للباحث أن يُحدث توازنا صعبا بين ما يود الباحث أن يقوله، وبين ما يمكنه أن يقوله، وبين ما يجب عليه أن يقوله كما رأينا في حالة فيدتش وبنسمان (*1958*)، وهي حالة من بين الحالات الكثيرة التي يمكن أن نقدمها كمثال في هذا المجال.

٨-٥ الموافقة عن علم

قانون الأثر الرجعي لستيوارت

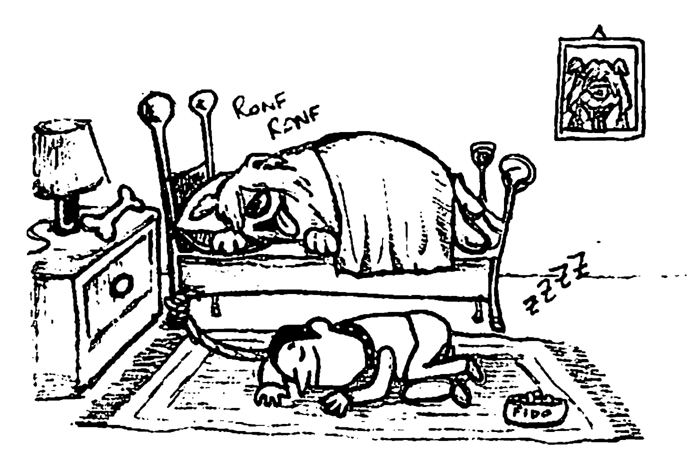
الحصول على العفو أسهل من طلب الإذن.

الموافقة عن علم هي وسيلة وأداة غاية في الأهمية في البحث الإثنوجرافي حاليًا، ومن وجهة نظر قانونية أيضًا. وهي تتكون من مجموعة من الممارسات صُممت لتعطي المشاركين في البحث المعلومات التي يحتاجونها كي يقرروا ما إذا كانوا سيشاركون في البحث أم لا. ويجب على الباحث بعد ذلك أن يتأكد من أنّ المشاركين قد فهموا المعلومات وأن مشاركتهم في البحث طوعية وبإرادتهم. وأخيرًا لو كان المشاركون قُصّرًا أو غير أكفاء أو عاجزين، فيجب على الباحث أن يحصل على إذن من الأوصياء عليهم. على سبيل المثال، عندما كان كورسارو (١٩٨٥) يجري بحثه في روضة الأطفال، وقبل أن يصور فيلمًا عن ردود أفعال الأطفال، كان عليه أن يحصل على إذن رسمي من آبائهم. ولأنّه لم يحصل على هذا الإذن لكل الأطفال، كان عليه أن يوقف التصوير عندما ظهر طفل ممن لم يحصل لهم على إذن في عدسة كاميرا الفيديو.

كان استخدام الموافقة عن علم هو الإشارة الأكثر وضوحًا على أنّ الأشخاص الذين تتم دراستهم هم مبحوثون (في الحقيقة، أصبح أكبر الاصطلاحات ملاءمة هو المشاركون)، وليسوا موضوع *أو* هدف الملاحظة. وعادة ما يتم الحصول على الموافقة بجعل المشتركين يوقعون على استمارة موافقة تشرح أهداف البحث وتطلب السماح بتناول معلوماتهم الشخصية. ولقد صاغت أخصائية علم اللغة الاجتماعي الأمريكية سوزان إيرفن- ترَيّب ***Susan Ervin- Tripp*** استمارة مُفصلة للغاية بها قائمة بالاستخدامات الممكنة التي يمكن أن تتم من خلال البيانات التي تُجمع (لأغراض البحث، وللنشر، والتي تُقدم في الاجتماعات العلمية،

والتي تذاع في التليفزيون أو الراديو). ويطلب من الفاعلين أن يوقعوا على تلك الاستمارة، ويعطوا إذنهم أو لا يعطوه لكل بند في هذه الاستخدامات (انظر *Silverman 2000: 202. Table 15.2*، وادخل الآن على الرابط: *(www.sagepub.co.uk/gobo)*. ومع ذلك، يجب أن نضع في الاعتبار أنّ الموافقة المبدئية التي يوقع المشارك عليها قد لا تكون كافية، لاسيما عندما يحدث تسجيل على أشرطة – وهو إجراء قد يقرر الباحث أن يستخدمه ولكن بعد أن يكون البحث قد بدأ. وفي هذه الحالة، ننصح بالحصول على موافقة رسمية أخرى لاستخدامها حول المعلومات الشخصية للمشاركين. ومع ذلك، فحتى هذه الطريقة لا يمكن الاعتماد عليها بشكل كامل. لأنّه من الصعب في المواقع الكبيرة أن تحصل على الموافقة من كل شخص موجود، وقد يكون البعض منهم قد ذهب للموقع بالصدفة *(Ryan; 2004)*.

٨-٦ الإفصاح الذاتي: الاستغلال والتبادلية



المعاملة بالمثل "التبادلية"

في الآونة الأخيرة، عالج عدد من العلماء والباحثين - لاسيما أنصار الحركة النسوية وأخصائيو علم الإنسان في مرحلة ما بعد الاستعمار - مشكلة الكشف أو الإفصاح الذاتي والتبادلية. وقد نعرض السؤال التالي: هل هو أمر أخلاقي مهني أن يخفي الباحث (عن إخبارييه) أو يكذب في جوانب معينة منها، مثل انتمائه الديني أو تفضيلاته السياسية أو توجهاته الجنسية؟ وبدلاً من ذلك، ألا يخرق خداع الباحث مبدأ توقعات وسلوك المعاملة بالمثل "التبادل الودي" إذا أعلن الإخباريون والمشاركون عن هذه الجوانب؟ وبشكل عام أشمل من ذلك، ألا يخلق هذا قدرة وصلاحية متباينة وغير متناسقة بين الباحث والمبحوث أو المبحوثين؟ وأخيرا، أليس هذا موقفًا يتم استغلال المبحوثين فيه؟ مرة أخرى، لو تمت معالجة المشكلة من الناحية الفلسفية فمن الصعب إيجاد حل لها. ولكن لو نظرنا لها بدلا من ذلك من منطلق عملي "طبقًا لحالة محددة وموقع محدد لميدان إجراء البحث. يصبح حل المشكلة أسهل وأيسر. وكما أشارت مارجوري وولف *1996 Marjorie Wolf*، ومن وجهة نظر الحركة النسوية، فإن كلمة "استغلال" صارمة ومبالغ فيها إلى حد ما ويمكن تطبيقها على أنواع معيّنة من الأبحاث فقط، وهي، بشكل نموذجي، الأبحاث التجريبية التي تتبنى نموذجا نفعيًا (وقد حظرت المواثيق الأخلاقية المهنية "التي تفرض عقوبات قاسية على من لا يطبقها" استخدامه بشكل رسمي الآن). علاوة على ذلك، ينبغي تقليص نفوذ وسلطة الباحث ووضعها في إطار محدد: قد يكون ذلك أنّه في بعض المواقع تكون للباحث سلطة ونفوذ كبير، ولكنّه غالبا. وبشكل متزايد، (وبسبب انتشار المواثيق الأخلاقية المهنية)، يكون مدينا بالفضل للمبحوثين الأقوياء، الذين يمنعون ويعترضون، كما يقاطعون أو يحددون شروط قبول الباحث للدخول في الميدان. وأخيرا، فإنّ صورة الباحث القوي ذي

السلطة والنفوذ تتعلق بمفهوم مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية للإثنوجرافي. واليوم، فقد منحت إجراءات التحديث المستمرة حتى في البلاد النائية والغريبة لأبعد حد سلطة للسكان المحليين. ويدرك الأنثروبولوجيون هذا جيدًا، حيث إن الإخباريين يصححون لهم حتى أصغر أخطائهم النحوية (*Duranti, 2002: 161*). ويعلمونهم كيف يتصرفون بشكل مهذب في معاملاتهم الودية التبادلية مع المواطنين، ويجيزون ويصادقون على أي طلبات يرى الأنثروبولوجيون أنها غير ملائمة.

٨-٧ عن الحياد

ينبغي على الباحثين اتخاذ موقف حيادي تجاه كل المشاركين الذين يقابلونهم خلال إجراء البحث. ومن الواضح أنه من المستحيل تقريبًا تطبيق هذا المبدأ أيضًا. إنّ عواطفنا وميولنا تجعلنا نفضل بعض العلاقات عن البعض الآخر: فنحن نجد بعض المشاركين أظرف من مشاركين آخرين؛ ونشعر بانتماءات نحو بعضهم، ولكن قد نكون غير مكترثين تمامًا ببقيتهم. وقد تواجهنا أيضًا معضلات ومآزق معقدة وحرجة، كما حدث لعالم الأنثروبولوجيا الأمريكي في التنظيمات، جون فان ماآنين(*John Van Maanen (1983*.

دراسة حالة

مآزق الولاء

بين عامي ١٩٧٠ و١٩٧٣، أجرى جون فان ماآنين بحثًا عن الشرطة في "يونيون سيتي *Union City*" (وهو اسم مستعار للمدينة). وخلال إحدى دوريات الشرطة التي رافقها فان ماآنين كملاحظ، رأى رجال الدورية (بعد أن استدعاهم

أفراد من الشعب) يهاجمون بعنف سكّيرًا أسود كان يقاوم عملية القبض عليه. وأولت الصحف المحلية اهتمامًا بهذه القضية بناء على مبادرة من صحفي كان يتسكع في منطقة اختصاص الشرطة المحلية. وكوّن الصحفي صداقة مع جون فان ماآنين وحصل منه على معلومات سرية خصوصية (حتى الإثنوجرافيون يشعرون أحيانًا أنهم لابد أن يأتمنوا أشخاصًا على أسرارهم). وفي عام ١٩٧٤ عُرضت القضية على المحكمة، وتلقى جون فان ماآنين استدعائين للمثول أمام المحكمة: أحدهما يستدعيه كشاهد، والثاني يأمره بتسليم مذكراته الإثنوجرافية، لذا فقد كان غير قادر على أن يقرر أي الأمرين يفعل لأنّ أيًا منهما كان يمكن أن تكون له نتائج سيئة: هل يدلي بشهادته وبالتالي يخون ثقة ضباط الشرطة فيه إذ سمحوا له بدافع كرمهم أن يلاحظهم أثناء تأدية واجبهم، أو يظل صامتًا ويُعرّض نفسه للقبض عليه؟ ولكن، وبعموم أكثر، لمن يدين بولائه: لإخبارييه أم للمجتمع؟ وذهب فان ماآنين للمحكمة لكنه رفض أن يُسلم مذكراته الميدانية مطالبًا بحقه في الحفاظ على أسرار وخصوصيات البحث. وبعد ذلك رفع محامو الجريدة قضية على فان ماآنين على أساس أنّ حق المجتمع في معرفة الحقيقة يطغى على حقه في حماية مصادره. ولحسن حظ ماآنين، الذى جعله رفضه معرضًا للقبض عليه ولاحتمال وضعه في السجن، رفض القاضي النظر في الدعوى وانتهت المسألة عند هذا الحد.

ومع أنّ قضية جون فان ماآنين قد تبدو مبالغًا فيها، فإنّ مآزق وورطات من هذا النوع، حتى وإن كانت أقل جدية وخطورة من هذه القضية، تحدث بمعدل معين.

التمرين ٨-١

ناقشوا فيما بين أنفسكم أو مع أستاذكم الحالة التالية التي حدثت لباتريشيا إي آلدار (*Patricia A. Alder (1985*. وهي تمثل مأزقًا في الخيار بين الولاء لإخباري المفروض أن يعمل معها في المستقبل وبين المسئولية تجاه المجتمع.

إنك تكتشف أنّ أحد جيرانك وهو صديق لك في نفس الوقت مهرب وتاجر مخدرات (وليس تاجر مخدرات بسيط). ماذا تفعل؟ هل تحتفل بأنك وجدت أحد المطلعين الممتازين على بواطن الأمور في تجارة المخدرات ستبدأ معه إجراء بحث جديد عن تجارة المخدرات أم تُبلّغ عنه الشرطة؟

٨-٨ عن البر وعمل الخير: التعويض

يمكن تعريف البر هنا على أنه الميزة التي يستحقها التنظيم أو الجماعة من السماح لأي من كان بإجراء بحث لدراستهما. في الحقيقة، يجب أن نسأل دائمًا لماذا يسمح التنظيم لنفسه أن يجري غريب ملاحظة عليه؟ إنّ أي نوع من أنواع البحث مخاطرة محتملة لهوية الجماعة: قد ينقل صورة مختلفة عن الصورة المرجوّة؛ وقد يكشف عن نزاعات وانقسامات داخل الجماعة؛ أو قد يعوق وجود الباحث تنفيذ أوجه النشاط اليومية المعتادة. علاوة على ذلك، فإن المنظمات تقدم أحيانًا مجالات وخدمات وتجعلها مُتاحة لاستخدام الإثنوجرافي؛ مكتب مثلاً، أو منضدة، أو دخول كافيتيريا. وباستخدام لغة علم النفس، ما هي الحوافز والمكافآت التي يمكن أن نقدمها للمشاركين في البحث لنعوضهم عن تطفلنا ودخولنا في حياتهم؟ ليس كافيًا أن نقدم أسبابًا وجيهة، لابد لنا أيضًا من أن نعطيهم شيئًا. ويستلزم ذلك تقديم اتفاق أو تعهد أو عقد يستفيد منه الطرفان (الباحث والجماعة).

التمرين ٨ - ٢

تخيل أنك لابد أن تتفاوض على الدخول للميدان. ما الأشياء التي يمكن أن تقدمها للتنظيم أو الجماعة؟

يمكن تقديم مجموعة منوعة كبيرة من أعمال الخير. مع الاعتماد كثيرا على القدرة الخلاقة للإثنوجرافي. ومع ذلك، فإن بعضها فقط مناسب للمشاركين. وينبغي توخي الحذر لضمان أن يكون ما تقدمه ملائما لهم وللموقع. وإليك قائمة بأمثلة (غير مدرجة بالسياق) بما يمكن أن يفعله الباحث: تقديم استشارات بعد انتهاء البحث؛ تولى تدريب المشاركين تدريبا مبنيا على خبرته وعلى نتائج البحث؛ استخدام نتائج البحث في تحليل ما هو داخل نطاق التنظيم؛ وتقديم نسخة من تسجيلات الفيديو؛ أو تنظيم اجتماع أو حدث عن موضوع البحث ودعوة ممثلي التنظيم للتعبير عن آرائهم.

٨-٩ التراث الإيكولوجي ومستقبل المشاركين

لقد تلقى التراث الإيكولوجي "المتعلق بالعلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها" اهتماما قليلاً في مجموع ما كتبه الإثنوجرافيون. ولكن تماما كما أنّ من المبادئ الأخلاقية المقبولة الآن التزام الآباء بتوريث تراث البيئة لأطفالهم بنفس الحالة التي ورثوه بها على الأقل، فبالتالي لا ينبغي على الإثنوجرافي "حرق أو تدمير" المجال للأبحاث التالية. وسوف يتم معالجة هذا الموضوع بشكل أكثر شمولا في الفصل السادس عشر حول "ترك ميدان العمل"، لكنه من المطلوب الآن إجراء معالجة تمهيدية له. قد يحدث أن تكون تجربة المشاركين مع الإثنوجرافي تجربة سيئة

للغاية بحيث يرفضون التعاون مع أي باحث آخر في المستقبل. وهناك حالة نموذجية لذلك وهي حالة نقض الوعود: يعد الإثنوجرافي بمناقشة نتائج البحث مع المشاركين فيه أو مع الوسطاء، أو أن يقدم لهم تغذية راجعة، أو استشارات مجانية، أو إرسال نسخة بتقرير البحث لهم. وعندما يرى المشاركون أنّ شيئًا من هذا لم يحدث، رغم أنّهم كرسوا وقتهم للبحث وساعدوا الإثنوجرافي في التعامل مع مشاكل عملية متعددة وعلاجها، هنا يشعرون أنّهم قد تم استغلالهم، فيصبحون عازفين عن تكرار التجربة مع باحث آخر.

وينبغي أن يضع الإثنوجرافي في الاعتبار أيضًا الآثار المحتملة لبحثه على الإخباريين، لكونهم الأشخاص الذين أمضى الباحث معهم أطول مدة من الاتصالات والاحتكاكات. واضح أنّ التنبؤ بهذه النتائج والتأثيرات مستحيل، لكن ينبغي على الباحث مع ذلك التنبؤ بها.

دراسة حالة

تعطيل حياة المشاركين وإزعاجها

من أشهر الأمثلة لتعطيل حياة أحد المشاركين وإزعاجها هي حالة دوك ***Doc*** (وكان اسمه الحقيقي دين بيكسي ***Dean Pecci***) الذي كان الإخباري الرئيسي لوايتي ***Whyte*** في دراسته الشهيرة (***1943a***). وطبقًا لما ذكره بويلين (***Poelen 1992***)، الذي أجرى مقابلة مع أطفال دوك، وأصدقائه ومعارفه، والذي زار كورنفيل على فترات لمدة ٢٠ عاما (من ١٩٧٠ حتى ١٩٩٠)، فقد توفي دوك عام ١٩٦٧ بعد أن ترك المنطقة المجاورة وداهمه هاجس الشعور بالذنب لخيانته لأهله وعشيرته لمساعدة وايتي. وغيّر البحث ونجاح الكتاب الذي تلا ذلك حياة دوك بيكسي

وشخصيته. ومع أنه أصبح شهيرًا في معاهد التدريس (إذا حكمنا بذلك من الدعوات الكثيرة لإلقاء محاضرات، وندوات وحلقات دراسية في ماساشوسيتس)، كان قد فقد ثقة أصدقائه (بسبب ما باح به لوايتي) الذين اعتبروه خائنًا وواشيًا. ربما يكون قد فقد قيادة جماعة نورتون من أجل هذه الأسباب، وربما يكون ذلك قد تسبب في إرهاقه العصبي وفي حدوث مشاكل نفسية متعددة له - دقّق وايتي في توثيقها، وهكذا جعلها شائعة ومنتشرة وتزيد من فضيحة دوك وخزيه. باختصار لم يعد دوك قادرًا على أن يظل وضعه كما كان عليه من قبل، لقد أصبح شهيرًا، لكنّه لم يعد قائدًا كما كان، كان قد أصبح من ذوي الشهرة في المدينة، لكنّ سمعته كانت قد شُوّهت كخائن في المنطقة التي كان يعيش فيها. وأخيرًا، كان دوك قد نقّح حساسيته وإدراكه الاجتماعي الطبيعي، لكنّه لم يصبح أخصائيًا اجتماعيًا، حتى إذا (نظرًا لأوصافه المتعددة وتفسيراته التحليلية لأعمال وايتي) كان يُعتبر مشاركًا له في "مجتمع نواصي الشوارع".

وتلقي هذه الحالة الضوء على كيف يمكن أن تُشوّش الإثنوجرافيا (أكثر من أي منهج بحث آخر) على حياة وهوية الجماعة التي تجري الملاحظة عليها.

التمرين ٨-٣

ناقشوا حالة دوك بيكسي فيما بينكم وبين أنفسكم أو مع أستاذكم في الجامعة. وطبقًا لما اكتسبناه في السنوات الأخيرة (من السهل جدًا النقد بالإدراك المؤخر "إدراك طبيعة الحدث بعد وقوعه" لدراسة تمت في الأربعينيات)، من الحساسية

الميثودولوجية والأخلاقية المهنية، ماذا كنت تفعل، ما الإجراءات التي كنت تتخذها لتمنع ما حدث لدين بيكنسي بعد نشر كتاب وايتي ***Whyte***؟

٨-١٠ ملاحظات ختامية

رأينا في هذا المسح للمبادئ الأخلاقية المهنية التي ينبغي أن تكون دليلاً للبحث الإثنوجرافي أنّها ليست سهلة التطبيق. هل ينبغي علينا بالتالي أن ننبذها معتبرين أنّه لا فائدة منها؟ لا، لا ينبغي أن نفعل ذلك. والأحرى أن نتذكر أنّ هناك مشاكل لا توجد حلول جاهزة لها - وإن لم يكن هذا أهم سبب، فهو ليس أقل الأسباب أهمية، لأنّ هناك مشاكل محددة ترجع أسبابها لنـواح معيّنة في المكـان أو الموقع كثيرًا ما تبرز في ميدان العمل وتتطلب ردود فعل مشروطة غير متوقعة. كل ما يستطيع الإثنوجرافي عمله هو الاعتماد على "أخلاقيات مهنية موقفية" لاختراع حلول أخلاقية مهنية تحقق على الأقل المعيار القائل ألا تفعل للآخرين ما لا تريد منهم أن يفعلوه معك - ربما يكون هذا معيار عادات أخلاقية إلى حد ما لكنّه مع ذلك معيار نافع ومفيد.

النقاط الرئيسية

- إنّ البحث، مثله مثل أفعالنا في حياتنا اليومية، يخضع هو الآخر لأعراف أخلاقية.
- والإثنوجرافيون، مثلهم مثل أصحاب المهن الأخرى، عليهم مسئولية ليس فقط حماية المشاركين في البحث من الأذى أو الضرر، ولكن أيضًا مراعاة حقوقهم.
- ومع ذلك، فإنّ المواثيق الأخلاقية للروابط والمنظمات المهنية لا تحقق إلا بعض أهدافها: كثيرًا جدًا ما تقدم خطوطًا إرشادية عامة فقط، أو تضع قواعد تجريدية فوائدها قليلة في حل المشاكل العملية التي تواجه الباحث.

- علاوة على ذلك، فإنّ المواثيق الأخلاقية المهنية ليست لها حساسية للطريقة المتبعة في البحث، وقد تقيد العمل فيه بلا ضرورة لذلك وبشكل غير ملائم. وقد لا تقدم حماية حقيقية للمشاركين في البحث لكنها في الواقع تضاعف من المخاطرة بحدوث أذى وضرر يجعل حساسيات الإثنوجرافي بليدة للقضايا المحددة للطريقة التي تنشأ بالفعل أثناء إجراء البحث.

- هناك مواثيق أخلاقية مهنية متعددة للبحث تكون مبادئها أحيانًا متضاربة ومتعارضة. على سبيل المثال، إنّ المواثيق الأخلاقية النفعية لنموذج العواقب تعطي أسبقية لجودة النتائج، حتى تبرر الغاية الوسيلة المتبعة. أمّا ما بعد الحداثة ومبدأ المواثيق الأخلاقية المهنية فهما مضادان للمواثيق الأخلاقية النفعية.

- في عملية إجراء البحث، يواجه الإثنوجرافي مآزق متعددة، أو مشاكل ليس لها حل أمثل. ومن هنا فإنّ القرار الذي يتخذه الإثنوجرافي دائمًا يأتي في المرتبة الثانية لأفضل قرار.

لأنّ هناك مشاكل أخلاقية مهنية لا توجد لها حلول جاهزة (وإن لم يكن هذا أهم سبب، فهو ليس أقل الأسباب أهمية: لأنّ هناك مشاكل محددة ترجع أسبابها لنواح معيّنة كثيرًا ما تبرز في ميدان العمل وتتطلب ردود فعل مشروطة غير متوقعة) فإنّ كل ما يستطيع الإثنوجرافي عمله هو الاعتماد على "أخلاقيات مهنية موقفية" لاختراع حلول أخلاقية مهنية تحقق على الأقل المعيار القائل ألا تفعل للآخرين ما لا تريد منهم أن يفعلوه معك.

المصطلحات الأساسية

مذهب السلطة المطلقة: أحد قواعد السلوك والانضباط المعني بالتزامات فئات معينة من الناس، المهتيون منهم بشكل نموذجي، وبحقوق زبائنهم، ومستخدميهم، ومحاوريهم. ويبدأ مذهب السلطة المطلقة من الافتراض بأنّه توجد التزامات أخلاقية بديهية لا تتغير لمجرد حدوث تغير في الظروف (أي أخلاقيات مهنية في المواقف التي تبرز على السطح). وأحد أهم نتائج مذهب السلطة المطلقة هو أنّ الأهداف الجديرة بالثناء لا يمكن أن تبرر الأعمال غير الخلقية مطلقًا، وهذا يتناقض مع المذاهب التي تدعي أنّ الغاية تبرر الوسيلة. إنّ مذهب السلطة المطلقة معارض بشكل مباشر من وجهة النظر القائلة بأنّ قيمة العمل تُستمد من قيمة نتائجه فقط (ص ١١٩).

المأزق: موقف أو مشكلة ليس لها حل أمثل. وأي قرار يتخذه الباحث فيما يتعلق بمأزق يواجهه يكون قرارًا غير مُرضٍ، وقد نشأ عن نظرية جيم ***Game*** نسق من نماذج أساسها المآزق. وأشهر هذه النماذج هو مأزق السجين.

الميثاق الأخلاقي: إنّ أي جمعية أو اتحاد مهني (علماء النفس، والأنثروبولوجيين، وعلماء الاجتماع، وأيضًا المهندسين، والمهندسين المعماريين، وما إلى ذلك) وضعوا مذهب السلطة المطلقة الذي يقرر المبادئ التي ينبغي أن تكون دليلا ومرشدا لجمعياتهم أو اتحاداتهم في معاملاتهم مع المشاركين والزبائن.

مبدأ الأخلاق المهنية: منهج أخلاقي مهني مبنى على مفهوم "العدالة". ويتبنى هذا المبدأ وضعًا معياريًا "وصفيًا"، واستبداديًا "ويمثله خير تمثيل المواثيق الأخلاقية ذات السلطة المطلقة".

الأخلاق: تخص الأخلاق مجموعة النماذج والمعايير التي تنظم السلوك في المجال المهني.

الموافقة عن علم: مجموعة من الممارسات صُممت لتعطي المشاركين في البحث

المعلومات التي يحتاجونها كي يقرروا ما إذا كانوا سيشاركون في البحث أم لا. وعادة ما يتم الحصول على الموافقة عن علم بجعل المشاركين يوقعون علـــى استمارة موافقة تشرح أهداف البحث وتطلب السماح بتناول بياناتهم الشخصية.

الأخلاقيات: تخص مجموعة العادات التي توجه سلوكنا في الأماكن العامة والخاصة.

ما بعد الحداثة: منهج أخلاقي مهني مبني على مفهوم "العناية". وهو يعزز إثنوجرافية المشاركة والأخلاق النسوية يحدد فيها كل من الباحث والمشاركين متكاتفين معًا نواحي معينة من تصميم البحث، ويناقشون نتائج البحث، وأحيانًا يكتبون معًا التقرير النهائي.

أخلاقيات المواقف: تُعرف أيضًا باسم نظرية المواقف "تفسير السلوك في ضوء الموقف". وهي تنص على أنّ أخلاقيات أي عمل من مهام حالة النظام في الوقت الذي يُؤدى هذا العمل فيه. وتُعتبر المستويات التجريدية أقل أهمية بكثير عن العمليات الجارية التي ينخرط المرء فيها بشكل مادي حقيقي وشخصي. وأخلاقيات الموقف منهج تطبيقي مترابط منطقيًا وغائيًا "من الغاية" يعنى بنتيجة وعواقب العمل؛ ولا تعتبر أنّ العمل خاطئ ولا أخلاقي بشكل فعلي وحقيقي كما هو الحال في منظور علم الأخلاق والواجبات الأدبية. وفي حالة أخلاقيات الموقف، يمكن للغاية أن تبرر الوسيلة.

الأخلاقيات النفعية: منهج أخلاقي مهني يميل إلى التقليل بقدر الإمكان من الضرر الأخلاقي الذي قد يتعرض له المشاركون لأنهم يتم تعويضهم من الفوائد التي يحصلون عليها من المعرفة العلمية. وطبقًا لمبدأ فعل أي شيء يكون له أفضل النتائج يمكن للغايات أن تبرر الوسائل لأنّه يتم الحكم على القرارات

فيما يتصل بنتائجها في المقام الأول.

توصية بقراءة

بالنسبة للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد:

Cohen, Martin (2003)

بالنسبة للخريجين:

Murphy, Elizabeth and Dingwall, Robert

بالنسبة للمتميزين ممن يجرون البحوث

Edwards, Rosalind and Mauthner, Melanie (2002)

التمرين ٨-٤

ادخل على موقع الويب لجمعية الأبحاث الاجتماعية ***www.the-sra.org.uk/documents/pdfs/ethics03.pdf*** إنّ خطوطه الإرشادية الأخلاقية تغطي نطاقًا عريضًا من نواحي الممارسة الأخلاقية. وهناك أربعة التزامات على وجه التحديد يتم التركيز عليها، وهي:

(١) المجتمع.

(٢) الممولون وأصحاب العمل.

(٣) الزملاء.

(٤) المبحوثون.

تخيل أنك وُضعت في موقف تصبح فيه غير قادر على الوفاء بالتزاماتك للأطراف الأربعة المذكورة أعلاه جميعًا، لكنك لابد أن تهمل أحدهم. لأي هؤلاء الأربعة تشعر بأكبر التزام أخلاقي مهني؟ ولأيهم تشعر بأقل التزام أخلاقي؟

اختبار تقييم ذاتي

هل أعددت نفسك للباب التالي؟ راجع معلوماتك ومعرفتك بالإجابة عن الأسئلة التالية ذات النهايات المفتوحة:

١. ما نقاط الضعف الرئيسية للمواثيق الأخلاقية المهنية؟

٢. ما الموافقة عن علم؟

٣. ما الفرق بين أخلاقيات "العناية" وأخلاقيات "العدالة"؟

٤. كيف تُمنع عملية استغلال الإخباريين؟

٥. ما أخلاقيات المواقف؟

الفصل التاسع

كيف تلاحظ

إنّ الرحلة الحقيقية للاكتشاف لا تتكون من السعي وراء المناظر الطبيعية، ولكن من السعي لأن يكون لك عينان جديدتان.

مارسيل بروست *Marcel Proust*

الأهداف التعليمية

- فهم أهداف النظرة الظاهرية.
- إدراك مزايا التغريب.
- تعلم كيفية الملاحظة.

٩-١ مقدمة

كما أكدت عالمة اجتماع التربية الإنجليزية سارا ديلامونت *Sara Delamont*، فإنّ أكبر مشكلة يواجهها المبتدئون وهم يُعدّون أنفسهم لميدان العمل الإثنوجرافي هي أن كتب المنهج ليست واضحة ومفسّرة بما فيه الكفاية لما ينبغي أن يلاحظوه، وكيف يجرون الملاحظة وما ينبغي أن يسجلوه كتابة (*2004: 225*).

في الحقيقة، إننا ونحن ونراقب الأنشطة التي تحدث في الموقع، فإننا نُغرى بكتابة كل شيء نراه: كل الإشارات والتلميحات، والخصائص والتفاصيل. لكن سرعان ما يفتر حماسنا عندما ندرك أنّ هناك قدرًا هائلاً من المعلومات يمكن كتابته. ولكي نتخذ إجراءات مُسبقة إزاء هذا الشعور الطبيعي بالعسر، فإنّنا ننصح بتضييق مجال الملاحظة من البداية. وبالتالي فإنّ التصميم الجيد للبحث هو أفضل علاج للمصاعب التي تنشأ فيما بعد، وعلى أي حال، فإنّه لا ينبغي على بحث واحد فقط أن يشرع في التعامل مع أشياء أكثر من اللازم. ونتيجة لذلك, فقبل أن يبدأ الإثنوجرافيون في ميدان العمل، عليهم أن يقرروا، ليس فقط *ما الذي* يلاحظونه, ولكن أيضًا كيف يجرون الملاحظة. و"كيف" و"ماذا" (كما رأينا في ٥ - ٦ حول الموقف التجريدي أو التصوري) ليست أسئلة لها إجابات مباشر وصريحة وعامة، لأنها تعتمد على المنظور النظري الذي يُقرر الباحث أن يتبنّاه.

٩-٢ كيف تلاحظ: تقنيات التغريب

في وقت أو آخر، شعرنا جميعًا بإحساس غريب بأنّ هناك ما يُبعدنا أو يجعلنا ننفر من موقع أو مكان اجتماعي. قد نكون في حفلة، ونتناول الغداء مع أصدقاء، أو في صحبة شخص ما، وفجأة نُصاب بإحساس غريب بأنّنا في مكان آخر. ونشعر أيضًا بأننا منفصلون ومعزولون داخل نطاق أنفسنا، ويبدو الآخرون الذين معنا غرباء. هذه العزلة الوجدانية (أعني الشعور بالغربة) هي شكل أولي وبسيط من أشكال الابتعاد عن الحقيقة. لكنّ الشعور بالاغتراب لا يرتبط في كل الأحوال بعدم الراحة. عندما نسافر للخارج، ربما نستمتع بمشاهدة الأشياء الغريبة (بالنسبة لنا) التي يفعلها المواطنون. وهناك أشكال أخرى من الابتعاد عن الحقيقة وهي: أحلام اليقظة، (السماح لأفكارنا بالتجول بحرية)، والاستغراق في أحلام

اليقظة "الحلم بعينين مفتوحتين" بينما ينسحب الأطفال المنطوون على أنفسهم أو المبدعون والكبار البالغون من الحقيقة، والتدريب ذاتي التوالد واليوجا. ويُعد الشعور بالحرج والارتباك الاجتماعي شكلاً آخر من أشكال الغربة *Goffman 1956*. إنّ الغربة، وأحلام اليقظة، والاستغراق فيها ظواهر عادية تظهر لنا أنّ الإدراك الحسي للحقيقة بناء عقلي فكري. وقد يكون المرض أيضا إحدى تجارب هذا الشعور بالغربة.

دراسة حالة

المرض كأحد مظاهر الشعور بالغربة

في رواية الجبل السحري (١٩٢٤) التي ألفها الروائي الألماني الحائز على جائزة نوبل توماس مان (*1875 - 1955*) *Thomas Mann* ، المرض أحد العناصر التي تُقصي بطل الرواية وتفصله عن المجتمع (كان مريضًا بالسل ومحجوزًا في مصحة في دافوس *Davos*، في قمة جبال الألب السويسرية) بعيدًا عن عالم الصناعة والعمل والحرب. وقاده هذا الوضع إلى تأملاته الفلسفية في الوجود حول ظروف الحالات البشرية وساعده على النضج داخليًا. وأخيرًا، وفي عملية النضج الفردي لشخصيته، أخذ المرض شكل الرفض للنظام والسلطة؛ نوع من الهروب من التنظيم المضاد للعلاقات الاجتماعية الاقتصادية. ويصبح هذا الوضع من أعراض مرض نفسي نتيجة لاغتراب الفرد وابتعاده وعزلته عن المجتمع.

يمكننا أن نفهم من هذه الأمثلة أنّ الإثنوجرافيين أمامهم طريقتان على الأقل للاقتراب والدخول إلى موضوع الدراسة الخاصة بهم:

إننا أردنا أن نجد شيئاً، فإنّ إحدى الطرائق لعمل ذلك هي البحث عنه في أماكن مختلفة من العالم. والطريقة الأخرى هي تغيير طريقتنا في النظر للعالم كي نكتشفه. وتعنى الملاحظة المشاركة التقليدية بالإجراء الأول في المقام الأول (البحث عن الشيء في كل مكان في العالم (*Schwartz and Jacobs, 1979: 247*).

مسخ طبيعة الشيء الحقيقية

إنّ تغيير طريقتنا في النظر إلى الأشياء تعني التحول من طريقة وسلوك الرجل العادي الذي تلهمه به الواقعية البريئة الصريحة، تلك التي ترى المشاهد أمامها باعتبارها مشاهد من الطبيعة، طبيعية وواضحة ومقبولة على ما هي عليه، إلى طريقة وسلوك الباحث (أو الباحثة) الذي يضع لنفسه مهمة مسخ طبيعة العالم الاجتماعي الذي يتولى بحثه. إنّ أنسب اتجاه معرفي للباحث المتصدي لإثنوجرافيا المعلومات الظاهراتية (من الظواهر) هي ما أسماه شوتز اتجاه "الغريب": "الفرد الكبير البالغ في عصرنا وحضارتنا الذي يحاول أن يكون مقبولاً على الدوام أو على الأقل تتحمله الجماعة التي يحتك بها" (*1944/1962: 91*). ويضم شوتز مجموعة منوعة كبيرة من الأفراد الذين نضعهم في قائمة "الغريب" ومنهم:

المتقدم لطلب عضوية في ناد مغلق يخصص عضويته لمن يعملون في نفس المؤسسة، والعريس المرتقب الذي يريد أن يُسمح له بالانضمام لعائلة الفتاة، ونجل المزارع الذي يدخل الجامعة، المقيم في مدينة الذي يسكن في بيئة قروية، و"المستدعى للخدمة العسكرية الإلزامية" الذي يلتحق بالجيش كجندي بالقوات المسلحة، وأسرة المرأة المحاربة في الجيش التي تنتقل لمدينة مزدهرة اقتصاديا وعمرانيا (*1944/1962: 91*).

والمهاجر هو أكبر مثال لافت للنظر للغربة.

ماذا يفعل المهاجر؟ لأنّ المهاجر لا يعرف نواحي كثيرة عن الجماعة التي يحاول أن يدخلها، فإنّه يسعى - من خلال الملاحظة والاهتمام بالتفاصيل - لفهم أعرافهم واصطلاحاتهم حتى يتمكن من التصرف كعضو كفء من أعضائها. ويمكنه أن يلاحظ تفاصيل تكون بالنسبة للمشاركين الآخرين في الجماعة عادية وتافهة ولا صلة لها بموضوع الحديث معهم أو تكون غير مرئية لهم. هذا هو التوجه المطلوب من الإثنوجرافي كي يحصل على الإذن بدخول الهياكل الضمنية للثقافة التي سيجري البحث في محيطها.

إنّ الباحث يجد أنّ تبني هذا الاتجاه المعرفي أسهل من غيره كلما بعدت المسافة بينه وبين الجماعة التي يلاحظها، كما في حالة الأنثروبولوجيين القدامى الذين كانوا أحيانًا لا يعرفون إلا القليل حتى عن اللغة التي كانت المجتمعات التي درسوها تتحدث بها. ولسوء الحظ، فإنّ الوضع يختلف جدا مع الأخصائي الاجتماعي، الذي كثيرًا ما يدرس المعاهد والمؤسسات في بلده ومجتمعه الذي يعيش فيه (كما ذكرت ذلك سابقًا مرارًا وتكرارًا). وبجانب الفرق بين الأخصائي الاجتماعي وبين الأنثروبولوجي الكلاسيكي، الذي كان يغير المشاريع والخطط المعرفية بشكل بطيء جدا نسبيًا فإنّ مشاعر حب الاستطلاع والدهشة بالنسبة للأخصائي الاجتماعي قد تتدهور بسرعة (لأنّه لا يمكـــن مطلقـــا أن يكون غريبًا أو دخيلاً على مجتمعه) إذا ما اقترب من الجماعة التي يدرسها.

وما يستتبع ذلك هو اختراع الباحث لأسلوب معرفي (مصطنع بالضرورة) يمكّنه من الحفاظ أطول مدة ممكنة على توجيه لمسخ أو تعديل طبيعة العالم الاجتماعي الذي يتولى بحثه. ولقد أطلق شورتز وجاكوبز على هذا الأسلوب المعرفي "أداة الغريب الثقافية". و(هي) أداة لطيفة على وجه خاص لاستكشاف الكفاءات في حضارة يعرفها الجميع دون أن يتعلموها بالدراسة بشكل صريح *(1979: 250)*.

إنّ تصرف الباحث كغريب (أو أجنبي) أثناء إجراء البحث يعني دائما تعليق السلوك الطبيعي والتوقف مؤقتا عن العمل به، أو "وضعه بين قوسين" كما كان يطلق عليه هذا الاصطلاح الفيلسوف الألماني هوسرل ***Husserl***. ولسوء الحظ، ولأنّ الإثنوجرافيين غالبا ما لا يكونون غرباء، ولا يمكنهم أن يكونوا كذلك، في المواقع التي يلاحظونها، فإنّه من الصعب تحقيق هذا التعليق أو تأجيله. كيف يمكنهم علاج هذه المشكلة؟ ومن بين طرق العلاج استخدام تقنيات "مسخ طبيعة العالم الاجتماعي" أي الطرق العملية التي تعلّق السلوك الطبيعي أو تؤجله وتجبر الإثنوجرافي على رؤية *مجموعات من الأنشطة* في (ما يُفترض أنّها) "الحقائق الاجتماعية". على سبيل المثال، "إنّ الشجرة أو النجم بالنسبة للعين العادية شيء موجود (حقائق)، أمّا بالنسبة للفيزيائي فهما أحداث تحدث أمامنا" (شورتز وجاكوبز، ١٩٧٩: ٢٦١).

دعا جارفينكل ***Garfinkel*** طلابه أن يؤدّوا "إجراءات مُلهمة" (انظر ٣ - ٤) حتى يتمكنوا من أن يجعلوا أنفسهم غرباء عن المشهد الذي يجرون الملاحظة فيه، وأن يكتشفوا العادات والتقاليد الضمنية التي تنشئ التفاعلات. وأدى جوفمان إجراءات ملهمة هو الآخر - رغم كونها بشكل ما أقل تشوشًا وإعاقة عن أخصائيي منهجية الجماعة - وذلك لاختبار الفرض لدراسته في مستشفى الأمراض العقلية بأنّ هناك ارتباطًا بين البناء الهرمي لمرحلة الكهولة ومفهوم الأخلاق المقارن للإقليم أو المساحة الشخصية التي يشعر المرء بالراحة فيها ما دام لا يتطفل أحد عليه داخل هذه المساحة.

دراسة حالة

الأفعال الملهمة

كان مريض كهل ومحترم يشغل بانتظام، أحد الكراسي الخشبية الكبيرة الموضوعة بالقرب من الضوء ومن شبكة التدفئة المركزية في جناح المستشفى، وكان سائر المرضى والعاملين بالمستشفى قد منحوه هذا الحق.

ولإجراء أحد تجاربي، انتظرت إحدى الأمسيات التي تم فيها نقل ثاني كرسي جيد إلى جزء آخر من الغرفة، وجلست على كرسي ذلك المريض قبل وصوله محاولاً أن أعطي مظهر شخص يقرأ شيئًا ببراءة. وعندما وصل الرجل في ساعته المعتادة، ألقى على نظرة طويلة وهادئة. حاولت أن أقدم له رد شخص لم يكن يدري أنّه كان هناك من ينظر إليه. أما وقد فشل المريض في تذكيري بمكاني بطريقته، فقد أخذ يتفحص الغرفة بحثًا عن الكرسي الجيد الآخر فوجده وأعاده لمكانه الطبيعي بجانب الكرسي الذي كنت أجلس عليه. ثم قال لي بنبرة محترمة غير معادية: "هل يضيرك، يا ولدي، أن تنتقل لذلك الكرسي، من أجل خاطري؟" فانتقلت إليه منهيًا تجربتي عند هذا الحد.

على أي حال، يمكن للإثنوجرافي أداء مثل هذه الأعمال نادرًا فقط في المدة التي يجري فيها بحثه، وإلا فإنه قد يضر بعلاقته مع المشاركين في البحث، ويبعد نفسه عن المجتمع تحت الدراسة ويجعلهم ينفرون منه.

هناك بالتالي إستراتيجيتان متممتان يمكن استخدامهما لتحليل بنية المشهد الذي تتم ملاحظته، ولجعل الأشياء المألوفة أشياء غريبة، أحدهما عقلية، والأخرى عملية.

٩-٢-١ تجارب الفكر

إنّ أول إستراتيجية نفور وابتعاد عقلية هي نوع من أنواع تجارب الفكر تكمن في القلب أو النقض "الفعلي" للمواقف التي تتم ملاحظتها. إنّ تعبير "التجارب الفكرية أو تجارب الكرسي ذي دعامات للذراعين (الذي يجلس من ستُجرى التجربة عليه ليشعر بالراحة والاسترخاء)" ترجمة لاصطلاح ألماني صاغه

الفيزيائي والفيلسوف إرنست ماتش *Ernst Mach* بمعنى "فكرة افتراضية". والتجربة الفكرية محاولة لحل مشكلة باستخدام قوة الخيال البشري ورأس الإنسان كمختبر. وتتضمن كثير من التجارب الفكرية مفارقات ومتناقضات واضحة حول مـــا هــو معــروف أو مقبول، الأمر الذي أدى بمرور الوقت لإعادة صياغة نظريات معينة أو تنقيحها.

ولقد استُخدمت التجارب الفكرية في وضع أسئلة في الفلسفة منذ العصور الإغريقية القديمة على الأقل؛ وهناك مثل شهير لذلك وهو كيف أفلاطون "الصراع بين الوهم والحقيقة"، ولكنّ هناك أمثلة أخرى يرجع تاريخها لما قبل عصر سقراط. وهي تُستخدم في الفلسفة المعاصرة أيضا. ويرجع تاريخ الكثير من التجارب الفكرية الشهيرة في علم الفيزياء إلى القرن التاسع عشر والقرن العشرين على وجه الخصوص، لكن يمكن أن نجد أمثلة لذلك على الأقل منذ عهد جاليليو: كان أساس رفضه لقانون أرسطو عن الجاذبية جدال وحجج فكرية تجريدية نظرية (مفاهيمية) فقط، لأنّه لم يعرض مطلقا تجربة بُرج بيزا المرتبطة بالقانون. وجعل أينشتين هذا الاصطلاح في متناول مدارك الجمهور، وقد اعتمد أينشتين بشدة في ذلك على "الأفكار الافتراضية" في استنتاجه الخاص بالنسبية وفي جداله ومناقشته مع بور *Bohr* حول الميكانيكا الكمية. والتجارب الفكرية تُستخدم أيضا في الرياضيات وعلم الاقتصاد.

إنّ الكتاب الشهير في العلوم المعرفية بعنوان "مخطوطات، وخطط، وأهداف، وفهم *Scripts, Plans, Goals and Understanding (1997)*" الذي ألفه كل من روجر سي. شانك *Roger C. Schank* وروبرت بي. أبلسون *Robert P. Abelson* مبني على تجارب فكرية ثاقبة (من أجل التجربة الفكرية الشهيرة بعنوان "الغرفة الصينية" التي صممها الفيلسوف الأمريكي جون سيرل *John Searle*. ادخل على الرابط: **www.sagepub.co.uk/gobo**).

ويتم تحقيق هذا النقض أو القلب الفعلي لموقف حقيقي تمت ملاحظته بواسطة أجهزة وأدوات معرفية متعددة من بينها "شروط التحليل بافتراض اختلاف الظروف" (*Van Dijk, 1977: 79 - 81*)، وهو مشغل لفظي يستخدم لتصور أو تخيل عوالم ممكنة أو بديلة. وإنّ بإمكاننا أن نستخدم جملة شرطية لكي نسأل. على سبيل المثال:

إذا كان المشاركون الذين يتضمنهم النشاط أصغر سنا، أو من نفس السن، أو أكبر عمرا من الشخص الذي يحاورهم، هل كان يمكننا أن نشهد نفس الإجراءات التفصيلية الروتينية اليومية أو نفس ردود الأفعال؟ وهكذا يصبح من الممكن هدم أو إعادة بناء الأسس التفاعلية الضمنية للسلطة والعلاقات بين الجنسين، والتدرج الاجتماعي، وما إلى ذلك. وقد استفادت كتابة التاريخ استفادة كبيرة من التحليل بافتراض اختلاف الظروف ليتصوروا ما الذي كان يمكن أن يحدث لو كانت الأحداث قد أخذت اتجاها مخالفا: ماذا لو كان هتلر قد انتصر في الحرب؟ ماذا لو كان نيلسون قد خسر معركة ترافالجار؟ وإذا لم يكن سور الصين العظيم قد تم بناؤه؟ وإذا لم يكن البترول قد تم اكتشافه؟ وإذا كان الجنس البشري عنده حساسية من اللحوم؟ (انظر كوهين *Cohen, 2005*).

ويتم تنفيذ نفس مهمة تحليل البنية هذه باستخدام أسلوب الاستفهام الذي يبدأ بأداة الاستفهام "لماذا" الذي يستخدم لتقليد كيفية مضايقة الأطفال لأبائهم بالأسئلة الممتدة. "لماذا يتكلم هذا الرجل مع تلك السيدة بهذا الشكل؟"؛ "لماذا يستمر في مقاطعتها وهي تتكلم؟"؛ "لماذا رفع صوته؟" إنّ سلوك الطفل المعرفي يشبه السلوك المعرفي للشخص الغريب في أنّ كليهما دخيلان غريبان عن ثقافة محاوريهم.

٩-٢-٢ ملاحظة المشاركين الهامشيين

قانون كريسبين Crespin عن الملاحظة

إنّ احتمالية أن تتم ملاحظة شخص ما لها نسبة مباشرة بغباء الأعمال التي يقوم بها الفرد.

والإستراتيجية الثانية حقيقية بشكل أكبر، وعملية بشكل أقل. وهي تكمن في ملاحظة المشاركين الهامشيين ثقافيا وتنظيميا الذين يسعون أن تقبلهم جماعة أو جالية. وتشبه ممارساتهم لدخول الجماعة أو الجالية إجراءات جارفينكل المعبرة الملهمة، مع وجود فارق مهم وهي أنّها إجراءات تلقائية. وهناك خمسة أنواع رئيسية من المشاركين الهامشيين: الأجانب، والمبتدئون، والأشخاص الذين يعوزهم الانسجام والتكيف مع مجتمعهم، والمشاكسون والغوغائيون الثقافيون ***Schwartz and Jacobs, 197: 249ff***. والأشخاص من ذوي التعليم *المتدني*. وتزود الملاحظة المتأنية الإثنوجرافي بمعلومات حيوية عن الأسس الضمنية للثقافة موضع الدراسة.

الأجانب

أدت الهجرة الأخيرة لأوروبا لتدفق الأجانب داخل التنظيمات والمعاهد والمؤسسات والجماعات الاجتماعية. لذا فإنّه من السهولة بمكان أن يلتقي الإثنوجرافيون بغرباء في المواقع والأماكن التي يدرسونها. ومن هنا، فلو وجد الإثنوجرافيون أنّه من المستحيل عليهم أن يتصرفوا كالأجانب، فإنّه يمكنهم ملاحظة الأجانب الحقيقيين وأن يتعلموا الكثير منهم.

دراسة حالة

زيارة دبلوماسيين صينيين لإنجلترا

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبالتحديد بين عامي ١٨٦٦ و١٨٧٧، أُرسلت مجموعة من الدبلوماسيين الصينيين في بعثة رسمية لأوروبا

والولايات المتحدة الأمريكية. وكانت هذه المجموعة قد تلقت تعليمات من نظير ما يمكن أن نطلق عليها اليوم وزارة الخارجية الصينية بأن يحتفظوا بيوميات تفصيلية عن الأعراف والعادات، والاكتشافات التكنولوجية، ونظم الإنتاج، وأن يرسموا خططًا طبوغرافية، وأن يجمعوا كل المعلومات المفيدة في فهم الحضارة الغربية؛ إلى حد ما مثلما تعود علماء الإثنولوجيا "علم الأعراق البشرية" أن يفعلوه عندما تولوا دراسة ما يُسمى بالثقافات البدائية. وتكشف تقارير رحلات هؤلاء الدبلوماسيين والدهشة التي لاحظوا بها الحياة اليومية الغربية العادية عن الأسس الضمنية والفئات المعرفية للثقافات الأوروبية.

وقد قام الدبلوماسي ليو إكسيهونج *Liu Xihong* بزيارة إنجلترا عام ١٨٧٦، وهذا هو ما رأى عليه وضع المرأة الإنجليزية في ذلك الوقت:

تحظى المرأة باحترام شديد يفوق احترام الرجال في هذا البلد... وتكرم القواعد المنظمة لحياة الأسرة الزوجة، بينما تعطي الزوج أهمية قليلة... وتعطى أهمية كبرى لمولد طفلة بينما تعطى أهمية قليلة لمولد طفل.

علاوة على ذلك، فإنّ النساء كن يسافرن في القطارات مع الرجال، ويحضرن حفلات استقبال، ولهن الحرية في السير في الشوارع، وكان يمكنهن السفر دون أن يصطحبهن أحد، وأن يذهبن للأوبرا. وعندما كان الوفد الصيني يقوم بزيارة لمسئول رسمي، كان أعضاؤه يذهلون عندما كان ذلك المسئول يقدم زوجته لهم. كان الوفد الصيني يعتقد أنّ في ذلك خرقًا للقانون الكونفوشيوسي (الخاص بتعاليم الفيلسوف الصيني كونفوشيوس) الذي كان ينص على أنّ المرأة يجب أن يقتصر وجودها على المسكن الخاص بالزوج، وألا تدخل الأماكن العامة، التي كانت حقًا مقصورًا على الرجال. وكان أي شكل من أشكال مشاركة المرأة للرجل يُعتبر عندهم أمرًا مخزيًا وفاضحًا.

والنساء الصغيرات الجميلات لا يتجنبن الرجال، حتى لو كان اللقاء للمرة الأولى. وكانت النساء يتناولن الطعام مع الرجال في حفلات الطعام، وعندما كنّ يغادرن البيوت، كنّ يجلسن في نفس العربات التي يجلس فيها الرجال، وكنّ يتبادلن الأنخاب مع الرجال، ويضعن سيقانهنّ فوق بعضها كالصليب دون أن يعتبر ذلك أمرًا شريرا أو كريها... وتختار النساء والرجال أزواجين بأنفسين. وعندما يجد رجل أن امرأة تروق له وتسره، فإنه يدعوها لبيته، حيث يستقبلها بترحاب كضيفة عنده. في العادات الغربية، تجد النساء فاجرات فاسقات، بينما تجد الرجال طاهرين عفيفين. وإذا أحبت امرأة رجلاً، فإنّها في غالب الأمر تطلب منه معاشرتها لو كان متزوجا؛ وإذا لم يكن متزوجًا، فإنّها تتقدم له بجرأة ووقاحة طلبا للزواج منه. ولا يجرؤ الرجل على اتخاذ الخطوة الأولى.

ليو إكسيهونج *Liu Xihong (1876 – 77)*، مختارات من "سجلات خاصة عن سفرياتي في بريطانيا"، ترجمة وتفسير العددين ٥٣/ ٥٤ (عدد خاص: انطباعات صينية عن الغرب)، مجلة تحررها جامعة هونج كونج الصينية.

المبتدئون

المبتدئ نوع آخر من المشاركين في البحث له أهمية خاصة عند الإثنوجرافي: وهو الشخص الذي يتعلم مهنة أو حرفة (صبي متمرن في حرفة، أو طبيب حديث متمرن، أو عامل مُعيّن حديثًا) أو شخص أصبح له مؤخرا وضع جديد (طالب جامعي جديد، أو مجند في القوات المسلحة، أو مريض دخل المستشفى مؤخرًا، أو نزيل في سجن ما... إلخ). كلا الفئتين تتطلبان تدريبا في السلوك الاجتماعي (ما أطلق عليه شوتز (١٩٤٤: ٩٥) "التفكير كالعادة": أي المخطط أو الرسم البياني المعرفي، أو مهارات التواصل، أو المهارات الاجتماعية

اللازمة للتفاعل بشكل ملائم في البيئة الجديدة. إنّ مشاكل المبتدئ للتكيف وتعديل السلوك مصدر معلومات مهم للغاية بالنسبة للباحث.



دراسة حالة

مبتدئ في معسكر اعتقال

بريمو ليفي *Primo Levi* *(1919 – 87)*، كيميائي إيطالي ويهودي غير متدين، تم اعتقاله بالإقامة الجبرية في أوشتويتز ***Auschwitz*** ببولندا في فبراير ١٩٤٤، وظل في معسكر الاعتقال لمدة ١١ شهرًا حتى تحرير المعسكر عن طريق الجيش الروسي. هذه التجربة الصارمة دفعت ليفي لكتابة كتاب بعنوان "*إذا كان هذا*

رجلاً" روى فيه مأساة ملايين من الرّجال والنساء والأطفال الذين كانت جريمتهم الوحيدة هي أنّهم ولدوا يهودًا، أو من الغجر أو اللوطيين، أو حدث أن كانوا شيوعيين. والكتاب عبارة عن سرد تفصيلي وواضح ومروّع للتجارب التي مر بها ليفي بدءًا من اعتقاله وحتى الإفراج عنه. وتصف القطعة التي اقتطفناها والتي سنقدمها حالاً التنظيم الاجتماعي لمعسكر الاعتقال كما رأته عينا مبتدئ أو مستجد أُجبر بسرعة على أن يتعلم الأعراف والعادات، والتصنيفات، والقواعد والقوانين لو كان له أن يستحوذ على أي أمل في البقاء على قيد الحياة.

تعلمنا بسرعة أنّ ضيوف المعسكر ينقسمون إلى ثلاث فئات: المجرمون، والسياسيون، واليهود... وتعلمنا أشياء أخرى، بسرعة في الأساس، طبقًا لذكائنا: أن نرد على أي طلب بقولنا "جاوهول" (أي حاضر يا افندم) وألا نسأل أي أسئلة مطلقًا، وأن ندعي دائمًا أننا نفهم. وتعلمنا قيمة الطعام، ونحن الآن نكشط قعر السلطانية بجد واجتهاد بعد ما نجهز على الجراية، ونمسك السلطانية تحت ذقوننا عندما نأكل خبزًا حتى لا نفقد فتاته. ونعرف أيضًا أنّه لا يستوي إعطاؤنا ملء مغرفة من الشوربة من سطح الراقود "وعاء للسوائل" أو من أسفله، وأصبحنا الآن قادرين بالفعل على أن نحكم، طبقًا لسعة القواعيد المختلفة على أنسب مكان نحاول الوصول إليه والوقوف في الصف فيه عندما نصطف لأخذ نصيبنا من الشوربة... إضافة إلى هذا، فهناك ظروف لا تعد ولا تحصى تصبح مشاكل هنا، رغم أنّها عادة ما تكون ليست في صميم الموضوع. وعندما تطول أظافر الواحد منا، يجب أن تُقص: وهذا لا يتم إلا بأسنان الفرد فقط (أما بالنسبة لأظافر أصابع الأرجل، فيكفيها احتكاك الأحذية بها)؛ وإذا انخلع أحد الأزرار، فعلى من حدث له ذلك أن يربطه بقطعة من السلك؛ وإذا ذهب الواحد منا للمرحاض أو الحمام، فيجب حمل كل شيء معك دائمًا وفي كل مكان، وبينما تغسل وجهك، يجب عليك وضع لفة الملابس التي معك بين ركبتيك؛ وفي أي وضع غير هذا، ستُسرق منك ملابسك في ثانية واحدة (١٩٥٨/ ١٩٥٩: ٢٨ – ٢٩).

الأشخاص الذين يعوزهم التكيف مع مجتمعهم

الأشخاص الذين يعوزهم التكيف مع مجتمعهم هم المشاركون الهامشيون الذين يحاولون "المرور داخل الجماعة بنجاح تقريبي" (شورتز وجاكوبس، ١٩٧٩: ٢٦٠). ويقدم جارفنكيل (١٩٦٧) مثالاً لذلك هو: أجنيس ***Agnes***، وهو شخص كان يطالب بأن يعتبره المجتمع امرأة. ويكشف تصوير الطريقة التي واجه بها أجنيس المواقف اليومية عن نواح مهمة للعمل المطلوب لخلق دور اجتماعي والحفاظ عليه.

دراسة حالة

التركيب الاجتماعي للنوع (الجندر)

في أكتوبر ١٩٥٨ ظهرت أجنيس، وهي فتاة غير متزوجة بيضاء اللون، وعمرها ١٩ سنة كانت في ذلك الوقت تعول نفسها بنفسها وتعمل طابعة على الآلة الكاتبة في شركة تأمين محلية، في قسم الطب النفسي في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس... وكان مظهر أجنيس أنثويًا حتى أصبح عمرها ١٧ سنة، (ومع ذلك) أدرك كل من شاهدها بعد ذلك أنها ولد وليس فتاة (***Garfinkel, 1967: 118 – 20***).

لم يكن مؤلف هذه الدراسة مهتمًا بشكل سقيم باكتشاف ما إذا كان أجنيس امرأة حقيقة، وولدت باعتلال جسدي نادر (قضيب رجل بحجمه الطبيعي وخصيتان على جسد امرأة) أو أنّه كان مخلوقًا له الأعضاء التناسلية لكل من الرجل والمرأة. استثناء شاذ وغريب من نزوات الطبيعة (كما أطلقت أجنيس على نفسها) أم أنّها كانت ببساطة ولدًا تحول إلى فتاة، وفي هذه الحالة كانت رجلاً تحول إلى امرأة بعملية جراحية (كما ذكر الأطباء الذين فحصوا أجنيس). كان جارفينكل مهتمًا بدلاً من ذلك بالإستراتيجيات التي استخدمتها أجنيس ليعتبرها الناس امرأة.

وأجرى جارفينكل مقابلات مع أجنيس استغرقت حوالي ٣٥ ساعة من أحاديث سجلها على أشرطة تسجيل.

وأثناء تلك المقابلات، وصف جارفينكل، من بين أشياء أخرى، "الطرق والوسائل التي استخدمتها أجنيس ليعتبرها الناس امرأة" والظروف التي كان من يحاورها فيها يمكن أن يشك في هويتها، ووسائلها الفنية من أجل "تحقيق انطباعات" تهدف إليها مع هؤلاء المحاورين.

وكانت اهتمامات جارفينكل غير متعلقة بالحجج والمراوغات التي كانت أجنيس تقدمها وتقوم بها (إستراتيجيات لتخلص نفسها من المشاكل أو لتصعد من الهاوية)، أو الأكاذيب المطلقة الصريحة "لشخصية عرضية" اضطرت أن تقولها كي تخبئ الحقيقة بأنها لم تكن امرأة حقيقية. وكان اهتمام جارفينكل بدلا من ذلك بأفعال وحركات شخصية مستمرة ومتنامية (انظر ص١٢٦). استطاعت أجنيس أن تبدو امرأة حقيقية من خلالها، وتؤدي هذا الدور بشكل مستمر، وتمرّ على الناس باعتبارها أنثى. ووصفت أجنيس الأعذار والحجج التي استخدمتها لتتجنب عملية الجماع مع صديقها الذكر بيل *Bill*؛ وبعد ذلك كيف تطهو... أطباقًا كي ترضي بها بيل،... وصناعة الفساتين واللوازم والمواد... وأي الملابس ينبغي أن ترتديها... مهارات إدارة البيوت (انظر ص١٢٦)، وليس بأخذ حمام شمس في الخامسة عصرا عند عودة الرجال من العمل لبيوتهم، لأن ذلك كان كريها ويؤذي مشاعره "بيل"، لكنه كان شيئا جذابا بالنسبة لرجال آخرين (انظر ص١٢٦).

وتكشف تجارب أجنيس، الشخصية التي يعوزها الانسجام والتكيف مع مجتمعها، أن النـــوع (الجنـــدر) يمكـــن أن يكـــون أي شيء سوى أن يكون هيئة أو صورة موضوعية يقبلها الناس كما هي على علاتها. لا يكفي أن تقول، "أنا رجل أو "أنا امرأة" كي يقر الناس أنك هذا أو تلك؛ بل يجب على الشخص أن

يصدق على ذلك باستمرار، وأن يعرض الرجولة أو الأنوثة ويظهرها. ويتطلب هذا العرض نشر تفاصيل، وخصائص، وتفاهات، وبالتالي نشر الأدوات والمواد الرمزية التي تشكل أسس ثقافة يمكن للغريب فقط أن يعيها ويفهمها.

التمرين ٩ - ١

اذهب إلى مكان عام (مقهى في الهواء الطلق، مساحة مكشوفة في مركز تجاري، أحد الشوارع، أو الحدائق، أو ما شابه) ولاحظ الناس وهم يدخنون. صف العمل ثم أجب عن الأسئلة التالية:

١. كيف يمسك المدخنون بسجائرهم؟ ما عدد الطرق المختلفة المستخدمة في هذا الغرض؟

٢. كيف يضعون السجائر في أفواههم؟ ما عدد الطرق المختلفة المستخدمة في هذا الغرض؟

٣. ماذا يفعل المدخنون بيدهم الثانية، اليد التي لا تمسك بالسيجارة؟

٤. ماذا يفعل المدخنون بالأجزاء الباقية من أجسامهم؟ ما هو وضع أرجلهم وأذرعهم وعلى ماذا يتكئون؟

والآن اربط هذه الأعمال والحركات بالجنس (ذكر أو أنثى). واضح أنّه في البلاد الأوروبية لا يمكن "تحديد" الجنس في الأماكن العامة مباشرة بالفحص البدني. لذا، فلكي يتعرف الناس عليه أو يصنفوه هناك باعتبار أن كلاً منهم هو الشخص الذي يريد أن يتم اعتباره أو تصنيفه بالقياس إليه، فيجب عليه أن يعرض نوعه باستمرار من خلال أدوات "يمر" من خلالها أمامك أنّه من هذا النوع أو ذاك.
والآن، وعلى أساس ملاحظاتك، حاول أن تجيب عن هذين السؤالين الأخيرين:

---

١. ماذا يجب على العضوة المدخنة أن تفعله "لتمر" على أنها امرأة؟

٢. ماذا يجب على العضو المدخن أن يفعله "ليمر" على أنه رجل؟

وسوف تكتشف أشياء لم تلاحظها مطلقًا من قبل.

المشاكسون الثقافيون

عليك دائمًا بشرح أشياء للكبار... الكبار لا يفهمون أي شيء مطلقًا بأنفسهم، والأطفال هم الذين يشرحون الأشياء لهم إلى الأبد.

A. de Saint-Exupery, The Little Prince, 1943. Ca. 1

المشاكسون والغوغائيون الثقافيون هم:

الأفراد الذين تم تعريفهم على أنهم ناقصون أو متخلفون عقليا أو جسديا في ناحية ما من النواحي الاجتماعية، والذين، لسبب أو لآخر، يُعتبرون غير قادرين على بعض المهام التي تقع على عاتق عضو المجتمع الكبير السوي الطبيعي. ويمكن أن نضم لهذه القائمة الأطفال، والمرضى عقليًا، والمعوقون أو المتخلفون، وأصناف معينة من المجرمين. هؤلاء الأفراد لهم أهميتهم من ناحيتين - الطريقة التي يتعاملون بها مع المجتمع، والطريقة التي يتعامل المجتمع معهم بها: (*Schwartz and Jacobs, 1979: 262*).

دراسة حالة

العالم من خلال أعين الأطفال

إنّ للأطفال موهبة هائلة في الكشف عن الموهبة الضمنية للكبار. وكان الكاتب والطيار الفرنسي أنتوان دي سانت- إكسيوبري (١٩٠٠ - ١٩٤٤) ملاحظًا ثاقبا عندما ضرب مثلاً بذلك قائلاً:

الكبار يحبون الأرقام. وعندما تقول لهم إنك كونت صداقة جديدة، فإنهم لا يسألونك مطلقا أي أسئلة عن أمور جوهرية. ولا يقولون لك مطلقا: "ماذا تشبه نبرات صوته من بين الأصوات التي نعرفها؟ ما الألعاب الرياضية التي يفضلها عن بقية الألعاب الأخرى؟ هل هو ممن يجمعون الفراشات؟ "وبدلاً من ذلك، تجدهم يطلبون الإجابة عن، "كم عمره؟ كم عدد إخوته؟ ما وزنه؟ ما مقدار النقود التي يجمعها أبوه؟" وعندها فقط يعتقدون أنهم يعرفونه *The Little Prince: 1943. Ch. 4*.

من أجل دراسة حالة طفل مُعوَّق، ادخل على ***www.sagepub.co.uk/gobo***

لقد جعل العديد من الأخصائيين الاجتماعيين من ملاحظة الأشخاص الذين يعوزهم الانسجام والتكيف مع مجتمعهم نهجهم المفضل. درس جوفمان (١٩٦٤) السلوك الذهاني (اضطراب عقلي يتسم باختلال الصلة بالواقع أو انقطاعها) كي يكشف النقاب عن الإجراءات الروتينية الأساسية (الدفاع، الارتباك، والسلوك أو التصرف) في النظام الاجتماعي: دوّن ملاحظاته حول انتهاكات تلك الإجراءات ليتمكن من أن يستدل على القاعدة، كما لاحظ إخلالاً باستنتاج قواعد السلوك. أو أنّه قام بتحليل روايات عن عملاء سريين (١٩٦٩)، ووصف الحيل والذرائع التي استخدموها لتقليد إستراتيجيات بناء هوية "البشر العاديين". وتولى سيكوريل وبويس *(Cicourel and Boese 1972)* ملاحظة الأطفال الصم أو العميان كي يفهموا التنشئة الاجتماعية واكتساب اللغة. ويتأسس منهج الأشخاص الذين يعوزهم الانسجام والتكيف مع مجتمعهم على قناعة أصحاب نظرية النسبية بأنّ هناك تضافرا والتحاما مجدولاً لا ينفصم بين الاستواء أو الاعتدال والانحراف، وأنّه يمكن تعريفهما فقط من حيث إنّ أحدهما يكمل الآخر.

التمرين ٩-٢

اختر، أو اختاروا كجماعة، مسرحية أو حفلة موسيقية للأطفال، وعادةً ما تحدد مواعيدهما في عطلات نهاية الأسبوع. اذهب للعرض ولاحظ سلوك وتصرفات الأطفال: كيف يجلسون؟ كيف ومتى يضحكون؟ كيف ومتى يصفقون؟ هل يجلسون وهم صامتون ولا يتحركون؟ هل يقاطعون ممثلاً أثناء كلامه على المسرح؟ ثم قارن ملاحظاتك بما يحدث في عرض مسرحي للكبار.

عليك "أو عليكم" بإعداد قائمة بالأعراف والعادات التي تحكم حدثًا مسرحيًا أو موسيقيًا للكبار بناء على ملاحظاتك لسلوك وتصرفات الأطفال.

وتقدم أحداث وأفعال من لم يبلغوا سن الرشد من (المشاركين الهامشيين) "عن عدم إدراك تقريبًا" للإثنوجرافيين تبصرًا في البنية الاجتماعية الأساسية. وكما كتب شوورتز وجاكوبس:

إنّ الأشخاص الذين يعوزهم الانسجام والتكيف مع مجتمعهم مصدر مستمر للاضطرابات وحالات الإزعاج والتشويش التي تحدث بشكل طبيعي، لأنّهم يخالفون القواعد التي قلّما يخالفها أحد، ويقولون أشياء لا يقولها غيرهم مطلقًا، ويعانون من مشاكل فنيّة لا يعاني منها الآخرون. إنّ أمثال هؤلاء الناس يقدمون لنا تناقضات استفزازية لمشاعرنا لكل ما هو طبيعي وعادي (*1979: 263*)

التمرين ٩-٣

أوجد عربة يد أو كرسيا متحركًا للمقعدين. اجلس عليه لمدة عشر دقائق. لا تقف طوال هذه المدة لأي سبب من الأسباب. افعل كل الأشياء التي

تفعلها عادة، لكن وأنت جالس على الكرسي المتحرك. وبعد مرور الدقائق العشر، فكر في التجربة وما حدث فيها.

اذهب بعد ذلك بالكرسي المتحرك لمكان لا يعرفك فيه أحد (سوق مركزي كبير، أو مكتب بريد... إلخ) وحاول أن تفعل أي شيء يذهب الناس لهذا المكان ليفعلوه. لاحظ كيف يتصرف الناس معك، كيف يتغير التنظيم الاجتماعي لدى وصولك، وكيف يتعاملون مع حالة العجز. وفكر في التجربة هذه المرة أيضًا.

الأشخاص ذوو التعليم *المتدني*

مع أن مستويات التعليم قد ارتفعت بشكل كبير في العقود الأخيرة، لكن مازال هناك أشخاص غير متعلمين نسبيًا: المتسربون من التعليم، وفقراء معينون من الناس، والبدو، وبعض سكان المناطق القروية أو الجبلية... إلخ. (من أجل دراسة حالة مسلية وشيقة بالفعل، ادخل على: ***www.sagepub.co.uk/gobo***

في الفصل الثاني نرى أنّ الأُميين يواجهون صعوبة في تكوين الأشياء المجردة، وفي التعميم، وفي الاستبطان، أي فحص أفكار المرء ودوافعه ومشاعره.

التمرين ٩-٤

شاهد فيلم "وُلد بالأمس". هناك نسختان من الفيلم. نسخة عام ١٩٥٠ الأصلية التي أخرجها جورج كيوكر ***George Cukor*** ونسخة عام ١٩٩٣ أعاد صناعتها لويس ماندوكل ***Luis Mandokl***. خذ أول نسخة تجدها، لأنّ كليهما يخدمان الغرض، إذا علمنا أن النص في الإعادة بملاحظاته البارعة صورة طبق الأصل من النسخة الأصلية للفيلم. تحكي القصة الكوميدية للفيلم عن رجل أعمال يقع في

حب فتاة خرساء تعمل كفتاة استعراض في المسرح، يخجل أشد الخجل عندما يكونان معا في الأماكن العامة. ونتيجة لذلك يستأجر صحفيا ليعلم الفتاة كيف تتصرف في المجتمع.

ولأنّ فتاة الاستعراض هذه دخيلة وغريبة على المجتمع الذي يتردد عليه رجال الأعمال، فإنّها اكتسبت معارف ضمنية عامة وشيقة حول تلك الثقافة، تماما كما فعل تشيوشيارا (نطق الاسم بالايطالية) من تأليف ألبرتو مورافيا. ***Moravia's Ciociara*** والقصة تحولت لفيلم سينمائي بعنوان "امرأتان".

والآن عليك أن:

(١) تكتشــف من فتاة الاستعراض (التي قامت بدورها جودي هوليداي ***Judy Holiday***، أو ميلاني جريفيث ***Melanie Griffith*** في نسخة الفيلم الثانية) الافتراضات والتظاهرات الضمنية لذلك المجتمع، واكتب قائمة بها.

(٢) مثّل برموز صوتية مجموعة العبارات الصوتية الثمانية التي يجب أن تطلقها فتاة الاستعراض في كل مناسبة اجتماعية كي تبدو عضوا كفئا من أعضاء ذلك المجتمع. والعبارات هذه اقترحها لها الصحفي ومُعلّمها الخاص (والذي لعب دوره برودريك كروفورد ***Broderick Crawford*** أو دون جونسون ***Don Johnson*** في النسخة الثانية للفيلم عام ١٩٩٣).

ما الذي تعلمناه من دراسة الحالات الخمس هذه؟ تعلمنا هذا على الأقل: عندما يدخل الإثنوجرافي تنظيما أو جماعة، يجب أن يسعى في الحال إلى تحديد المبحوثين الهامشيين لأنهم مصادر معلومات لا تنضب أبدا. إنّ أفعالهم تفيض بالإبداع والفروض العلمية عن الحقيقة التي تكون غير بديهية أكثر من أي تخيلات موجهة نحو الحاجات والمشكلات الاجتماعية.

ومع ذلك، فإنّ فهم أي ثقافة واستيعابها لا يتحقق بملاحظة منفصلة فقط. لأنّه من الأمور ذات الأهمية القصوى أن يكون الباحث غريبًا عن الموقع أو المكان، وأن يكون أيضًا مشتركًا في الموقف بطرق عملية. لابد أن يكون باستمرار في وضع من يملك تحريك الأشياء (*Schwartz and Jacobs, 1979: 248*). وتوحي الهوة المعروفة جيدًا بين *معرفة الشيء* و*معرفة طريقة* عمله بأنّ الاعتماد الكلي على الملاحظة والمقابلات غير الرسمية مع المشاركين قد يكون عقبة في سبيل الفهم التام لنشاطاتهم. وواضح أنّ هناك طرقًا كثيرة لعمل هذه الأشياء دون أن تصبح مشاركًا غير ملاحظ وبالتالي تفقد المسافة اللازمة.

لو كان الباحث يتولى دراسة سلطة قضائية، فقد يقدم طلبًا لحصوله على شهادة وبالتالي فهو يكشف (تحت ستار مستخدم الطلب) التناقضات في نظام العدالة. وعند دراسة معهد أو مؤسسة علمية، ربما يحاول الباحث استعارة كتاب من المكتبة العامة. وفي المرافق الصحية، ربما يساعد الإثنوجرافي في موقف طارئ ما دون أن يؤثر ذلك على هويته كباحث. باختصار، إنّ أفضل طريقة لفهم أي ممارسة أو عادة هي أن تفعلها، لأنّ هذا يجبر الباحث أن يعتمد على المعرفة الضمنية للمبحوث.

إنّ المكافأة أو الفائدة الكبيرة في مواقف من هذا النوع هي أن يجد المرء نفسه في مواجهة مع ألغاز ومشاكل وقضايا يكاد آخرون غيره في نفس مكانه ألا يشاهدوا أي شيء يستحق ذكره (ولا حتى يعرفون كيف يذكرونه) (*Schwartz and Jacobs, 1979: 249*).

من أجل هذا، فإنّ الباحث لابد أن يوضع في مواقف حيث يكون النجاح والفشل العملي الحقيقي أمورا لا يمكن تجنبها تقريبًا (١٩٧٩: ٢٥٠). وفي حالة الفشل، لا يمكن للباحث أن يلجأ لعذر، 'إنّي إثنوجرافي، ولست خبيرا في

الموضوع"، رغم أنّه ينبغي التفكير في معرفة أسباب أي نقص في النجاح. ولكي تبرز هذه التجارب بكل ثرائها، لابد من ممارستها في بداية البحث العلمي، عندما يكون الباحث لا يزال غريبًا، وقبل أن يصبح الجزء الأكبر من المعلومات معروفًا ومألوفا (2 - *1979: 251*)

التمرين ٩-٥

أمسك بعربة أطفال وادفعها أمامك في الشوارع لفترة معينة. وسيكون من الأفضل حتى لو وضعت فيها طفلاً (لأحد أقاربك أو أحد أصدقائك)، حيث إنّ ذلك سيجعل التجربة أكثر واقعية وحيوية. وحاول أن تسير في طريق معروف جيدًا لك، حتى يمكنك ملاحظة الفوارق. بعد ذلك أجب عن الأسئلة التالية: لأي نوع من المشاة يتم تصميم الشوارع والأرصفة في مدينتك؟ من هو فرد المشاة النموذجي؟ ما هي صفاته ومميزاته؟

٩-٣ ملاحظات ختامية

كثيرا ما تكون النظرية الاجتماعية تنقية وتخصيصنا لنظريات الحس المشترك الموجودة بالفعل في الرأي العام. وإذا أرادت النظرية الاجتماعية أن تحرر نفسها من "النظريات الشعبية"، وإذا أرادت أن تقوم "بقفزة" كيفية فيجب عليها أن تفترض اتجاها منهجيا يساعدها على تعديل طبيعة المواقف والمجتمع الحقيقية. وقد تساعد الإثنوجرافيا ذات التوجه الفينومينولوجي مساعدة كبيرة في هذه الناحية.

النقاط الأساسية

- إنّ أفضل سلوك مقبول عند انخراطك في إثنوجرافيا مبنية على مجال ظاهري يمكن الاعتماد عليه هو سلوك الغريب عن المكان.

- تساعد وسيلة التغريب الثقافية في استكشاف المهارات التي يتعلمها الجميع في ثقافة ما دون أن يكون قد سبق لأي منهم التعلم بشكل صريح.

- إنّ التعلم كغريب (أو أجنبي) أثناء إجراء البحث يعني تعليقًا مستمرًا للسلوك أو التصرف الطبيعي والتوقف مؤقتًا عن العمل به - أو "وضعه بين قوسين"، كما كان يطلق عليه هذا الاصطلاح الفيلسوف الألماني هوسرل ***Husserl***.

- ولسوء الحظ، ولأنّ الإثنوجرافيين غالبًا ما لا يكونون غرباء، ولا يمكنهم أن يكونوا غير ذلك، في المواقع التي يلاحظونها، فإنّه من الصعب تحقيق هذا التعليق أو تأجيله.

- ويمكننا أن نجد العون والمساعدة فيما يُسمى بتقنيات "النزع أو التعديل" أي الطرائق العملية التي تعلق السلوك الطبيعي أو تؤجله وتجبر الإثنوجرافي على رؤية *مجموعات من الأنشطة* في (ما يُفترض أنّها) "الحقائق الاجتماعية".

- ومن أجل تحليل بنية المشهد الذي تتم ملاحظته، وجعل الأشياء العادية المألوفة أشياء غريبة، فإننا يمكن أن نتبنى إستراتيجيتين متممتين لبعضهما، إحداهما عقلية (تجارب الفكر)، والأخرى عملية (ملاحظة المشاركين الهامشيين).

- وهناك خمسة أنواع رئيسية من المشاركين الهامشيين من الناحيتين الثقافية والتنظيمية الذين يسعون لأن تقبلهم جماعة أو جالية، وهم: الأجانب، والمبتدئون، والأشخاص الذين يعوزهم التكيف مع مجتمعهم، والمشاكسون الثقافيون والمشاركون من ذوي التعليم *المتدني*.

المصطلحات الأساسية

الغربة: حالة معرفية يتم خلالها تعليق السلوك الطبيعي "التفكير كالمعتاد" ووقف العمل به، ويضطر الإثنوجرافي أن يشاهد مجموعة من الأنشطة في (ما يُفترض أنّه) "حقائق اجتماعية".

تقنيات الغربة: الطرق العملية لتعليق السلوك الطبيعي ووقف العمل به مؤقتًا.

تجارب الفكر: تكمن في القلب أو النقض "الفعلي" للمواقف التي تتم ملاحظتها. ويمكن أن تُؤدى باستخدام وسائل معرفية منوعة، من بينها التحليل بافتراض اختلاف الظروف (الجملة الشرطية) و(الجملة السببية).

توصية بقراءة

بالنسبة للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد:

Silverman, David (2007)

بالنسبة للخريجين

Mehan, Hugh and Wood, Houston (1975a)

بالنسبة للمتميزين ممن يجرون البحوث:

Cohen, Martin (2005)

اختبار تقييم ذاتي

هل أعددت نفسك للباب التالي؟ راجع معلوماتك ومعرفتك بالإجابة على الأسئلة التالية ذات النهايات المفتوحة:

١. بأي شكل يمكن أن يصبح المرض تجربة غربة؟

٢. ما الذي تعنيه عبارة مارسيل بروست ***Marcel Proust***، "إنّ الرحلة الحقيقية للاكتشاف تكمن في "حوزة المرء على عينين جديدتين" وليس في السعي بحثًا عن المناظر الطبيعية".

٣. ما "الغريب" من وجهة نظر شورتز؟

٤. لماذا كان المؤلفون في الماضي يدرسون المعوقين لكي يفهموا كيف يتواصل الناس الذين لا يعانون من أنواع معينة من العجز؟

الفصل العاشر

ماذا نلاحظ: الأبنية الاجتماعية، والأحاديث والسياق

قانون البحث

إنّ أول مكان تبحث فيه عن أي شيء هو آخر مكان تتوقع أن تجده فيه.

الأهداف التعليمية

- فهم الأهداف الأساسية للملاحظة.
- تعلّم ما الذي نلاحظه.
- الكشف عن الأيديولوجيات الكامنة وراء الأهداف.
- تقدير أدوات الإثنوجرافي المرئية.
- فهم وإدراك الفوارق وسط السياق.

١٠-١ مقدمة

إنّ الغرض الرئيسي لغربة (الباحث) هو جعل المعرفة الضمنية واضحة ومحددة. وتتجسد مثل تلك المعرفة في الإجراءات الروتينية التي يقوم بها

المشاركون مرارا وتكرارا دون أن يعيروها أي اهتمام. وتكشف الغربة عن أسلوب البناء الذي يستند المجتمع ويعيد إنتاج نفسه وفقًا له. ومن هذا المنظور، ينبغي على الإثنوجرافيين أن يركزوا على ثلاث نواحٍ بشكل مستمر ويقدموها في نفس الوقت في مواقف اجتماعية: بنيات اجتماعية، التفسيرات/الشرح البديهي الذي يقدمه المشاركون في حديثهم، وفي سياق ما يؤدونه من أفعال.

١٠-٢ الكشف عن الأبنية الاجتماعية

قانون كونوي *Conway's Law*

يوجد في أي تنظيم اجتماعي دائمًا شخص واحد يعرف ما الذي يحدث ويدور فيه. لابد من طرد هذا الشخص من الخدمة.

إنّ اصطلاح "بنية اجتماعية" اصطلاح غامض للغاية وقد يدل على أشياء كثيرة. البنيات هي في جوهرها الأعراف والعادات الاجتماعية في الإثنوجرافيا المُطلعة وفقًا للفلسفة الظاهراتية (عن الظواهر الاجتماعية وغيرها). ما هو العرف الاجتماعي؟ لكي تفهم معنى هذا الاصطلاح، أدّ التمرين التالي مع مدربك في الفصل.

التمرين ١٠-١

تخيل أنّ مديرًا شابًا من السنغال على وشك الوصول إلى لندن. وهو خبير في أسواق أفريقيا الاقتصادية، ولديه موعد مع نظيره الإنجليزي. وهذه أول مرة يزور فيها لندن وكان له فيما مضى تفاعلات وجهًا لوجه مع زملاء من إنجلترا. لذا تجده عصبي المزاج إلى حد ما لأنه غير واثق من الطرق الصحيحة التي يتبعها في

السلوك والتصرف السليم. وقد دُعيت أنت لتقديم تعليمات وتوجيهات له عن كيفية التصرف كممثل كفء *خلال الثلاث دقائق الأولى* من التفاعل مع زميله الإنجليزي. ما هي نصائحك له؟ على أي حال، عليك بالانتباه وأخذ الحذر، لأنّه إذا كانت مجموعة التعليمات التي ستقدمها له غير مكتملة، فإنّ بداية الاجتماع بينهما ستكون كارثة من وجهة النظر التفاعلية. لذا عليك بالتفكير مليًا في التعليمات التي ستقدمها للمدير السنغالي هذا. حاول أن تتصور موقفًا يمكن أن يخفي السنغالي فيه اصطباغ جلده، ويلغي لهجته في الكلام، ويغير من جرس صوته (كما هو الحال في التفاعل الذي لا يستطيع المتحاورون فيه أن يرى بعضهم البعض لأنّ هناك ستارة تفصلهم عن بعضهم). هنا لن يدرك زميله الإنجليزي أنّه كان يتحدث مع شخص أجنبي. إذن ماذا تقترح؟ اكتب قائمة بالتعليمات، وسوف يكتبها مُعلمك على السبورة.

وبعد عشر دقائق من المناقشة في الصف...

الآن اتركوا مقاعدكم وكوّنوا أزواجًا منكم. وينبغي أن تفعلوا ما أطلب منكم أن تفعلوه. مستعدون؟ هل اختار كل منكم شريكه؟

حسنا. الآن حركوا أطراف أحذيتكم بحيث يلمس طرف حذاء كل منكم طرف حذاء زميله. هل فعلتم ذلك؟

ماذا أحسستم؟ لماذا كنتم تضحكون؟ هل تذكرتم "لا تقف قريبًا جدا مني بهذا الشكل"، الأغنية الفردية التي لاقت نجاحًا عظيمًا عام ١٩٨٠ والتي قدمتها فرقة البوب الغنائية البريطانية المعروفة باسم "الشرطة"؟

لماذا شعرت بالإحراج أو بعدم الراحة؟

(من أجل حصولك على تفاصيل بخصوص دراسة الحالة هذه، ادخل على: www.sagepub.co.uk/gobo

لا يمكن ملاحظة الأعراف والعادات الاجتماعية بشكل مباشر، لكنها تتخذ شكلاً عمليا ماديا في الإجراءات التفصيلية الروتينية اليومية للمبحوثين وقواعد سلوكهم، وفي الممارسات الاجتماعية والأعمال الروتينية التي تفرز ثقافة الجماعة أو التنظيم وتعيد فرزها. وتتكون الممارسات الاجتماعية من إجراءات بسيطة، ومن شعائر عادية تافهة وغير ضرورية أو مجدية، وهي التي تعزز الجماعات والتنظيمات يوما بعد يوم، بل وتغيرها أحيانًا. من أجل هذا، لا ينبغي مطلقًا أن يهمل الإثنوجرافي التفاصيل، لأنها تكون أحيانًا مهمة للغاية من أجل عملية الفهم. وهناك مثل توضيحي يقدمه شورتز وجاكوبس (١٩٧٩) لمنشأة علاجية لمتعاطي المخدرات.

دراسة حالة

مركز علاج متعاطي المخدرات

كان كل من الباحثين ومن يعملون كوسطاء بين مدمني المخدرات الذين يصعب الوصول إليهم وبين مؤسسات تخفيف خطر الإدمان لأدنى درجة ممكنة مهتمين بما شد انتباه مدمني المخدرات لهذا المركز العلاجي. ولو اتبعوا توصيات علم الاجتماع العلمي لانتبهوا للحقائق الاجتماعية. ولو اتبعوا توصيات التفاعلية الرمزية، كما نوجزها ونستعرضها في الفصل الثالث لانتبهوا للأخلاقيات، والمعاني، والدوافع. لكن أي من هذه الأشياء لم يفلح بشكل كبير في تفسير سبب ذهاب المدمنين للمركز. في الحقيقة، اتضح أن الحمام العام "المرحاض" هو الذي كان وراء "اندفاع" الشباب للمركز (لأنّه كان) الحمام العام الوحيد في الجزء الأدنى من المدينة. وقد ذهب كثير من الأطفال والشباب للمركز لدخول الحمام ليس إلا. واضح أنّ الحمام لم يكن السبب الوحيد الذي يجذب الشباب إلى المركز، لكنّه سبب رئيسي لذلك (شوورتز وجاكوبس (١٩٧٩).

إنّ الانتباه للتفاصيل هو الرابط العملي للتوصية بمعالجة الأمور التافهة بجدية. وكما يشير شوورتز وجاكوبس:

بينما يكون العمر، والجنس أو النوع، والحالة الزواجية، والوظيفة متغيرات مستقلة يدركها الجميع جيدًا فـي علـم الاجتماع، فإنّ وجود أو عدم وجود مراحيض أو حمامات ما زال عليه أن يحقق هذه المكانة. إنّ هذا "المتغير"، ومعه عوامل مشابهة، يعتبر عادة عاملاً تافهًا جدًا، ومضحكًا وسخيفًا، و"غير سوسيولوجي" ولا يستحق مثل هذا الاهتمام من جانب علماء الاجتماع. ومع ذلك، فإنّ مثل هذه التفاصيل الوضيعة للوجود العملي لشيء ما قد يتضح أنّ لها أهمية أكبر من العوامل التي تؤثر فينا حاليًا كشيء أخطر، وأكثر أهمية، وأكثر علمية (*1979: 180*).

إنّ بالشعائر والطقوس تقدم نظرات ثاقبة في الأعراف والعادات، وتحملها من هناك إلى الأبنية الاجتماعية (من أجل دراسة حالة مهمة، ادخل علي: ***www.sagepub.co.uk/gobo***

١٠-٢-١ ثلاث طرق لدراسة الطقوس

كما أشار دوركايم ***Durkheim***، تشكل الطقوس جوهر المجتمع: وهي تمد الفاعلين بمعان لأفعالهم، وتضبط إيقاع الحياة الاجتماعية والحياة الداخلية. ويمكن دراسة تلك الإجراءات بثلاث طرق رئيسية.

١. تصنيف الأنشطة

يمكن للباحث أن يبدأ بالأنشطة التي يفصلها عن بعضها ويصنفها. على سبيل المثال، وصف جوفمان (*1961: 1993ff*) معناها: والتواريخ التالية: "الطقوس المؤسساتية" في مستشفى الأمراض العقلية التي تولى دراستها على أنّها تتبدى في: اللقاءات الجماعية، والإشراف على تحرير الجريدة التي تصدر داخل نطاق المستشفى، واليوم المفتوح في المؤسسة، والعروض الخيرية والأحداث الرياضية.

دراسة حالة

العلماء الطبيعيون أثناء العمل

تولى لاتور (*Latour 1995*) إعداد تحليل دقيق وتصنيف للجوانب المختلفة للأنشطة اليومية المعتادة للمبحوثين الاجتماعيين. واتبع ممارسات التحقيق والاستقصاء لفريق من الاختصاصيين بعلم التربة الذين قاموا بمسح شامل في أدغال البرازيل أو غاباتها الكثيفة. وكان الغرض من البعثة هو تقرير ما إذا كانت الأدغال تزحف على السافانا، أو العكس. وأخصائي علم التربة خبير في عمل مسح شامل للتربة، وتصنيفها، وعمل خريطة لها، وتحليلها، والحفاظ عليها (من كلمة *pedon* اليونانية بمعنى: التربة أو الأرض). وقام لاتور بالتقاط صور فوتوغرافية لكثير من الممارسات الروتينية للبعثة، من بينها لحظة أخذ فيها عضو الفريق رينيه بوليت *Rene Boulet* عيّنة من التربة بيده اليمنى ووضعها في وعاء مربع صغير كان يمسكه بيده اليسرى (يشبه رفًا منقسمًا إلى مربعات صغيرة). وهكذا خلّد لاتور اللحظة التي تغيرت فيها حالة قطعة التربة الكبيرة عند مرورها من اليد اليمنى لليد اليسرى، فقد أصبحت التربة لافتة، واكتسبت شكلاً هندسيًا، وبدأت عهدًا جديدا كرمز عددي، وسرعان ما صُنّفت بعد ذلك بلون من الألوان (*165 – 1995*). بمعنى آخر، أصبحت علمًا من العلوم.

---

٢. البدء من مفهوم رئيسي

ويمكن للباحث أن يعمل في الاتجاه العكسي بالبدء من مفهوم رئيسي لمؤسسة محددة، أو "ما يمكن أن نسميه *بالنشاط الأصلي الذي يبدأ بنشاط آخر* (على سبيل المثال في المستشفى): موت شخص *الميت* أو وجود شخص في حالة

احتضار (وملاحظة كل أنواع النشاط الذي يدور حوله (أو حولها) مثل تلك الأنشطة التي تتكون من (*رؤية الموت، وإعلان الموت، والشك في الموت "أو طلوع الروح*"، وما إلى ذلك") (*Sudnow, 1967: 8 - 9*).

دراسة حالة

التركيب الاجتماعي للاحتضار في مستشفى

حالة شائعة جدا تستلزم الاستخدام "غير الصحيح" لنقل المريض إلى أجنحة أخرى داخل المستشفى. إنّ المريض الذي يدخل قسم الطوارئ والذي تدل حالته على أنّه من المتوقع أن يموت بعد قليل يتم نقله أحيانا لجناح طبي أو جناح خاص بإجراء العمليات الجراحية، ويكون الدافع المفترض لذلك أنّه مريض في نهاية عمره وبالتالي فإنّ وضعه في قسم الطوارئ غير مناسب له. ويشك الموظفون في الجناح الذي يستقبل هذا المريض في الدافع الفعلي وهو إبعاد المريض الذي أوشك على الوفاة كي يتحاشوا إلزامهم برعاية الجثة بعد الوفاة. في إحدى الأمسيات تم نقل مريض حالته حرجة جدا من قسم الطوارئ إلى الجناح الطبي للرجال. ورفضت رئيسة الممرضات المسائية قبول دخول المريض الذي كان في حالة احتضار بشكل واضح، واشتكت بأنّ الكاتبة التي تعمل في قسم الطوارئ أرسلته إليهم ببساطة ليموت في قسمها. وأمرت الممرضة بإعادة المريض لقسم الطوارئ، ومعه هذه الرسالة: "عليك بإبلاغ السيدة سميث بلف جثتها في جناحها".

إنّ المريض الذي يُسمح له بدخول المستشفى وهو في حالة تُعتبر قرب حالة الوفاة: على سبيل المثال، يعاني من انخفاض حاد في ضغط الدم، أو دقات قلب غير منتظمة للغاية، ونبض غير واضح أو محسوس أو ضعيف لأقصى درجة، يُترك غالبا على النقالة التي وُضع عليها لدى دخوله المستشفى ويُترك في غرفة

المختبر، أو غرفة الإمداد الكبيرة بها. وفي مثل هذه الحالات، كما شرحت ممرضة هناك، فهم لا يريدون أن يعبثوا بوضع سرير أو يوسخوه، وأنّه، وحيث إنّ المريض سيموت حالاً، لم تكن هناك حاجة لتخصيص سرير له (بعد حدوث الوفاة مباشرة، لابد من نزع فراش السرير بالكامل، ومن تنظيف الغرفة وتعقيمها كلها... إلخ.)، وفي عدة حالات، كانوا يتركون المرضى طوال الليل ليموتوا في غرفة الإمداد، ولو ظلوا أحياء حتى الصباح، كان الممرضون والممرضات يخصصون أسرّة لهم بسرعة. قبل وصول الأطباء / أو أقارب المرضى (*Sudnow 1967: 83*).

ويعامل من يُطلق عليهم "المرضى المصابون بغيبوبة أو فقدان الوعي" باعتبارهم أمواتًا بشكل أساسي. ويعتبر وجود الشخص الذي في حالة غيبوبة تصريحًا للعاملين في المستشفى بأن يتحدثوا حول حالته في "وجوده" بطرق غير مسموح لهم استخدامها لو كان في حالة يقظة (*Sudnow 1967: 88*).

٣. متابعة الهدف

يستطيع الباحث أن ينتقي ويتابـــع مشـــاركًـــا بعينه، ويدع (أو تدع) أفعاله أو تصرفاته تحدد حدود سياق الملاحظة. أو يمكن للباحث أن يختار هدفًا له أهمية خاصة في التنظيم تحت الدراسة ويتابع مساره. في تحليل سياسة ما، على سبيل المثال، يتم اختيار قاعدة، أو تنظيم، أو قانون جديد، ثم يتم ملاحظة تنفيذه. ويتضح عادة أنّ الإجراء لا يتم تطبيقه كما كان يهدف إليه صانع القرار السياسي؛ وبدلاً من ذلك، فإنّه عند مرور القرار من الحكومة المركزية للسلطات المحلية، ومن مكتب لآخر، ومن تفسير لتفسير آخر، ومن مفاوضات حوله لمفاوضات أخرى، كان ذلك القرار يخضع لتغييرات متعددة. لكن الهدف يمكن أن يكون ماديًا ومحددًا وأصغر من ذلك بكثير... فردة حذاء، على سبيل المثال.

دراسة حالة

الأحذية في حياة أحد معسكرات الاعتقال

إذا تسببت فردة حذاء في إصابة المعتقل بجرح، فعليه أن يذهب في المساء لمراسم تغيير الأحذية: وهي تقيس مهارة الفرد الذي يكون عليه أن يتمكن من اختيار فردة حذاء واحدة تكون على مقاسه (ليس زوجين من الأحذية، فردة فقط) في لمح البصر، ووسط حشد لا يمكن تصديقه من البشر. وإذا ما تم الاختيار، فلا يمكن أن يكون له اختيار ثان بعد ذلك.

ولا تعتقد أن الأحذية تشكل عاملاً له أهمية ثانوية في حياة المعسكر. إنّ الموت يبدأ بالأحذية لأنّها تظهر نفسها بالنسبة لمعظمنا على أنّها أدوات تعذيب، تسبب قروحًا مؤلمة وتصبح مُلوثة تمامًا بعد ساعات قليلة من السير بها. ويضطر كل من يُصاب بهذه القروح إلى السير كما لو كان يجر مجرمًا من سلسلة أصفاده (وهذا يفسر طريقة السير الغريبة للجندى الذي يعود كل مساء بعد التفتيش)؛ فيكون آخر من يصلون في أي مكان، ويتلقى ضربات في كل مكان. ولا يمكنه الهرب إذا ركضوا خلفه، وتتورم قدماه، وكلما زاد ورمهما، أصبح احتكاكهما بخشب الأحذية وقماشها لا يُحتمل. وعندها لا يصبح أمامه سوى المستشفى فقط؛ لكنّ دخول المستشفى بتشخيص "قدمان متورمتان" أمر في غاية الخطورة، لأنّه معروف جيدًا لدى الجميع، وخصوصًا ضباط الدرع الواقي النازي في معسكرات الاعتقال هذه، أنّه لا يوجد علاج لهذه الشكوى أو شفاء منها (***Levi, 1958/1959: 29 – 30***).

التمرين ١٠-٢

شاهد فيلم "قطار الحياة" (١٩٩٨) للمخرج الروماني رادو ميهيايلنو ***Radu Mihaileanu***.

تدور أحداث الفيلم عام ١٩٤١. كانت أخبار قد وصلت سكان قرية يهودية في شرق أوروبا بأنّ النازيين قد بدأوا طرد وإبعاد وقتل اليهود الذين يعيشون في القرى المجاورة لهم. وفي محاولة يائسة للبحث عن حل لإنقاذ حياة أهل هذه القرية، خرجوا بفكرة شبه مجنونة، وهي تنظيم قطار نزح خرافي لإبعادهم عن الخطر. وسوف يكونون هم بأنفسهم النازحين، وفي نفس الوقت سيكونون أيضا هم القطار، وطاقم العمل فيه، والجنود والضباط النازيين. وبهذه الطريقة فإنّهم سوف يتمكنون من عبور الخطوط الألمانية ويصلون لبر الأمان.

وخلال لحظات متعددة أثناء عرض الفيلم، كيف يؤدي الضابط النازي المزيف المسئول عن القطار دوره؟ ما المواد والموارد الرمزية التي يعتمد عليها؟ ما إستراتيجيات الاتصال واللغة التي يستخدميا للتفاعل مع النازيين الحقيقيين دون أن يتم اكتشافه؟

١٠-٣ الاستماع للحديث

إن ملاحظة السلوك أمر مهم جدًا، إنّه في الحقيقة أمر حاسم. لكنّ الملاحظة في حد ذاتها، دون أن يصاحبها استماع للحديث الذي يسبق السلوك المطلوب ملاحظته، والحديث الذي يصاحبه أو يليه قد تكون سببًا لوقوع أخطاء. هناك عدد من الأحداث في فيلم "إنهاء هوليود" الذي تم عرضه سنة ٢٠٠٢، من إخراج المخرج وودي ألين *Woody Allen* من مواليد نيويورك، توضح هذه المسألة بشكل جيد. تدور أحداث الفيلم في استوديو أو دار لصناعة الأفلام السينمائية منح أندرو فورد *Andrew Ford* (جودي ماركيل *Jodie Markell*) حق دخوله واستخدامه بالكامل، وهو مخبر صحفي منافق ممن يطعنون أصدقاءهم من الخلف، وكان يعمل في مجلة مشهورة للرجال باسم "السيد المبجل". كان منتج الفيلم قد سمح بدخول

الصحفي هذا حتى يقدم تقريرًا للمجلة ويغري قراءها بمشاهدة الفيلم. وبدلاً من ذلك، يتطفل الصحفي حول مكان التصوير (بإذن من المكتب الرئيسي، لسبب غير مفهوم) بحثًا عن قصة. ومع ذلك، فهو قلما يتحدث مع المخرج، وهو يبعده عنه لأنه يزعجه ويضايقه. وعلى أساس الملاحظة وحدها، ودون الدخول اللغوي والحديث مع المخرج لمعرفة وجهة نظره، يسيء فهم مواقف متعددة، ويرتكب أخطاء فادحة متنوعة.

وبالتالي، فإنّ أنماط السلوك لها معان مختلفة ومنوعة بالنسبة لأولئك الذين يجرون ملاحظة عليها. والاستماع إلى "حديث المشاركين" قد يساعد على حل هذا الغموض الدلالي الطبيعي.

دراسة حالة

الصبية الفاسدون

والصلبان المعقوفة وتعدد معاني العلامات

ما الذي تفكر فيه عندما ترى صليبا معقوفًا على راية، أو سترة، أو وشمًا على ذراع أحد الأشخاص؟ هل تفكر في أنّ الشخص الذي تباهى بوشمه على ذراعه من المتعاطفين مع النازيين؟ قد يكون الأمر كذلك، ولكن أيضًا ليس من الضروري أن يكون كذلك. إنّ اللافتات (الصليب المعقوف في هذه الحالة) لها معان متعددة، وقد تكون أدوات (عون مادي ملموس) لمعان متنوعة. إنّ المعنى يُدمج مع اللافتة لخلق الرمز.

على سبيل المثال، في كتاب عن المظاهر الجمالية للثقافات الفرعية للشباب الإنجليزي، ذكر ديك هيبديج *Dick Hebdige*، وهو ممثل رئيسي لمدرسة الدراسات

الثقافية (انظر الفصل الثالث) أنّ الصبية الماجنين المتشبهين بالهيبيز الذين كانوا يضعون صليبًا معقوفة على ملابسهم لم يعتبروا أنّها رمز للنازية (كما كانت الثقافة السائدة في ذلك الوقت تعتبرها، والتي في ضوئها صُنّفت ثقافة الصبية الفرعية باعتبارها في صف النازية وتدافع عنها). وبدلاً من ذلك، فإنّ الشباب اعتبروها رمزًا للمعارضة والعداء المكشوف.

من ناحية الأعراف والتقاليد، وبقدر ما كان يهم البريطانيين، فإنّ الصليب المعقوف كان يرمز للعدو. ومع ذلك، فقدت الكلمة معناها "الطبيعي" وهو الفاشية عندما استخدمها الشباب الماجن. وكان هؤلاء الشباب لا يتعاطفون بشكل عام مع أحزاب اليمين المتطرف... كان الشباب يرتدي الصليب المعقوف لأنّه كان ضمانهم لإحداث صدمة لمن يشاهده على ملابسهم... هؤلاء "الشباب يحبون أن يكرههم الناس، هذا كل ما في الأمر". كان هذا يمثل ما هو أكثر من مجرد قلب أو توجيه ضربة للمعاني العادية المرتبطة بشيء ما. كان الدال أو الرمز (الصليب المعقوف) قد انفصل عمدًا عن مفهومه (النازية) الذي كان يرمز إليه كجزء من عاداته، ومع أنّه أُعيد إلى وضعه القديم... داخل نطاق سياق ثقافة فرعية بديلة، فإنّ قيمته الأساسية وجاذبيته استُمدت على وجه التحديد من عدم وجود معنى محدد له: من قدرته على الخداع. وقد تم استغلاله كتأثير فارغ ***(Hebdige, 1979: 116)*** .

إنّ كثيرًا من ثقافات الشباب الفرعية تتشكل في حقيقة الأمر من خلال سلسلة من تحولات صادمة (بشكل متعمد) تتم في الأشياء، والقيم، والسلوكيات والتوجهات المتعلقة بالثقافة السائدة من أجل التباهي بأشكال رمزية للمقاومة، ولكن كيف يمكننا أن نفهم كل هذا؟ الملاحظة وحدها لا تكفي بالتأكيد: لا بد من الاستماع لأحاديث المشاركين.

١٠-٣-١ اكتشاف المعاني

إنّ اللافتات (كما شاهدنا في هذا المثال، ولكن انظر أيضًا ٥ - ٢) يمكن أن تكون متعددة المعاني.. كذلك يمكن أن تكون الكلمات أيضًا إذا نظرنا إليها بدقة من وجهة النظر الفينومينولوجية، من حيث إنّها لا شيء سوى أصوات (إذا تكلم أحد عنها)، أو لافتات أو علامات (إذا تم التعبير عنها كتابة).

خذ كلمة "أخت": كم عدد المعاني لهذه الكلمة؟ إنّ لها أربعة معانٍ على الأقل:

(١) قريبة أو نسيبة من الدرجة الأولى باعتبارها ابنة نفس الأبوين؛ تُستخدم في صيغة الجمع، وتُقال عن البنات أو النساء اللاتي يشبهن بعضهنّ جدًا (يبدو وكأنّهن أخوات).

(٢) بالنظر إلى العلاقة الطاهرة الحميمة (إنّهما يحبان بعضهما كحب الأخ لأخته).

(٣) بالنظر للأشياء التي لها انتماءات قريبة أو حميمة (حضارات شقيقة).

(٤) كاسم يشير إلى أي راهبة.

وبالتالي فإنّ الكلمة الواحدة تُستخدم لنقل عدة معان. وتلك مشكلة، لأنّه يمكن أن ينشأ سوء فهم وأحيانًا (واضح أنّ هذا ليس معناه دائما) يحدث صراع أو تعارض أو خلاف. وتقدم دراسات عن توجيهات وإرشادات الطريق، وسوء الفهم الخاص بالقرابة أمثلة متعددة على ذلك. على سبيل المثال، قد يُقدم توجيه للسائقين يقول: "اذهب على طول حتى تمر على قنطرة ثم اتجه يمينا". ومع ذلك، فإنّ التصوير أو التمثيل لكلمة "قنطرة" تفسير متنوع جدًا، (جسر، طريق فوق قناة أو سكة حديد أو طرق أخرى، كوبري علوي، جسر المشاة، ممر أو طريق مرتفع عبر أرض منخفضة أو سبخة... إلخ.) وقد لا يتطابق معنيان لاثنين من المبحوثين.

ويرجع هذا إلى حقيقة أنّ الرصيد المفاهيمي (المعاني) لثقافة ما أكبر بكثير من رصيدها في علم المصطلحات الفنية (الكلمات أو المصطلحات). كان الأمر يصبح رائعًا وعلى ما ... ام (ربما، ولكن ليس دائما، إذا سلمنا بأنّ الغموض في حد ذاته له جاذبيته) لو كان هناك اصطلاح واحد أي كلمة واحدة لا غير لكل معنى من المعاني حتى يصبح سوء الفهم من المستحيلات تقريبًا. ومع ذلك، فإنّ الوضع الفعلي يختلف كثيرًا عن ذلك، ويلعب تعدد معني الكلمات في الإثنوجرافيا دورًا أساسيًا في فهم الثقافات.

دراسة حالة

المفاهيم/ المعاني التي يُكوّنها زبائن التنظيم

منذ بضع سنين، أجرى أحد طلابي بحثًا إثنوجرافيا في محلين تجاريين كبيرين للملابس الرياضية كموضوع رسالة الماجستير الخاصة به، وكان الهدف منها دراسة ثقافات التنظيمات والمنظمات. ولتحقيق هذا الهدف، سعى الطالب جاهدًا، من بين الأشياء التي سعى لتحقيقها، لتعريف الكلمات المفاتيح الرئيسية، والمفاهيم/المعاني المفاتيح الرئيسية أيضًا الموجودة في المنظمتين؛ حيث إنّ ذلك ينتج عنه رؤى مفيدة لثقافتهما. وعندما استمع للمحادثات بين العاملين بالمؤسستين التجاريتين، أدرك أن لديهم ثلاثة مفاهيم على الأقل عن "الزبون".

على سبيل المثال، عندما كان المديرون يستخدمون كلمة "زبون"، كان تفكيرهم ينصب على فرد تجريدي وغير ملموس (كما كان يتضح له عند سماع عبارات من أمثال: "إنّ نجاح الشركة يعتمد على زبائنها" أو "الزبون دائما يأتي في المقام الأول". لذا كان لهم مفهوم مثالي عن الزبون كان يخدمهم أيضًا كأداة بلاغية مفيدة يفرضون قراراتهم على الموظفين بناء عليها.

وعلى النقيض من ذلك، عندما كان رؤساء الأقسام يتحدثون عن "الزبون"، كانوا يشيرون لفرد محدد وواقعي أكثر: الشخص الذي مكنهم من أن يفوزوا بالمنافسة اليومية مع الأقسام الأخرى. في الحقيقة كانت الثقافة التنظيمية للمتجر (بإرادة الإدارة) تقدم علاوة إنتاجية تمنح للإدارة التي حققت أعلى المبيعات بعد مراجعة حساباتها في نهاية العمل اليومي.

وأخيرا، كان "الزبون" بالنسبة للبائعين في المتجر في الأساس مصدر إزعاج ومضايقة، شخص يصرف انتباههم عن تأدية أعمال أهم منه (بالنسبة لهم)، مثل ترتيبهم للسلع المعروضة، أو تعليق الأسعار على المنتجات، أو مراجعة الرصيد على الكمبيوتر، وما إلى ذلك. واضح أنّ البائعين لم يكونوا حمقى للدرجة التي تجعلهم يفضلون متجرا خاليًا من الزبائن؛ كانوا يعلمون جيدًا أن "الزبون" هو المصدر (غير المباشر) لأجورهم. ومع ذلك، فبينما كان شعار مديـري الإدارات أو الأفرع أنّه كلما زاد عدد الزبائن كان ذلك أفضل، (لأنّهم هم الذين سيفوزون بالمنافسة اليومية مع مديري الإدارات الأخرى)، كان المهم للبائعين هو ألا يقل العدد اليومي للزبائن عن الحد الذي يجب تجاوزه والذي يضمن بقاء الشركة في الوجود بينما يتركون هم لمواصلة عملهم في سلام.

١٠-٣-٢ **الممارسات الخطابية**

ينبغي أن يكون من الواضح الآن أنّه لا يوجد إدراك حسي بدون المفاهيم؛ كما لا يوجد فيم للأشياء والأمور، حتى وإن كان ذلك بدرجة أقل (انظر ٥-١). بدون الفهم، تصبح الملاحظة واهنة. كالمثال الذي قدّمه تقييم الدبلوماسيين الصينيين لبعثتهم في أوروبا في القرن التاسع عشر.

دراسة حالة

الدبلوماسيون الصينيون والممارسات الدينية المسيحية

كان زهانج ديي ***Zhang Deyi*** طالبًا ذكيًا عمره ١٩ عامًا تم اختياره لمرافقة أول بعثة صينية للبحث عن الحقائق في أوروبا سنة ١٨٦٦، وفي أثناء رحلته على سفينة فرنسية، في ٨ أبريل ١٨٦٦، ذكر في يومياته ما يلي:

هناك بعثات تبشيرية على ظهر السفينة، وعندما يأتي يوم الأحد كانوا يرتبون أربعة صفوف من الكراسي وكراسي للأساقفة على ظهر السفينة، ويقيمون صليبًا ويضيئون الشموع في منتصف المكان، وبعد ذلك كانوا يجمعون الركاب. وكان كل من يذهب، رجال ونساء، يحملون الإنجيل معهم ويرتلون النصوص المقدسة بصوت خفيض سواء الواقفون منهم أو الجالسون. وكانوا أحيانًا يشيرون إلى أكتافهم وفتحات أفواههم بإحدى يديهم، أو يضربون وجههم ويبدو عليهم أنّهم يبكون. وعلى المنصة أخذ رجل يلقبونه "الآب" يرتدي عباءة طويلة وقبعة بيضاء يقرأ نصوصًا من الإنجيل وتنشد الناس بعض الترانيم بصوت جماعي. وعندما كنا نصل إلى اليابسة أو البر، وفي اليوم المحدد، كانوا يتجمعون في كنائس (زهانج ديي (١٨٦٩) *حكايات غريبة من فوق المحيط*، في أداء تمثيلي أو بالعزف على آلتين برقمى ٥٣ و ٥٤ الربيع والخريف، ٢٠٠٠).

في هذه الحالة، لا يستطيع الملاحظ الصيني فهم معنى المشهد لأنّه لا يمتلك مفاهيم *القداس* و*علامة الصليب*. هذا التقرير، كما عبر عنه الفيلسوف جلبرت رايل ***Gilbert Ryle*** قائلاً، "وصف ضئيل وغير مُكثف". إنّه "ملاحظة للقطة ذهنية ولو رأت هذه الملاحظة أنّ ومضة سريعة بحاجب العين اليمنى لا يمكنها أن تميّز

بين التقلص الإرادي في عضلات العين وبين الغمزة، وهذه الغمزة وسيلة كلاسيكية لإقامة عمل أو كلام جانبي في مجتمعنا" (جوفمان، ١٩٦٣: ١٨٤، ملحوظة ٦). وما ينقص هذه الملاحظة هو "وصف مُكثّف أو تفصيلي" يستخرج معاني الأعمال[١]. بمعنى آخــر، إنّ هذه الملاحظة تلاحظ وتميز، لكنّها لا تفهم أو تدرك بشكل تام وشامل؛ إنها تشاهد، لكنها لا تعي ما تشاهده.

بدلاً من ذلك، إذا كان على الإثنوجرافي أن يفهم، فيجب عليه (أو عليها) أن ينصت لكلام المبحوثين بينما يحدث التفاعل بينهم. إنّ غالبية الأعمال الاجتماعية يسبقها أو يصاحبها أو يليها تعليقات. في الحقيقة، فإنّ التعليقات (أو الحسابات والحكايات كما يسميها علماء منهجية الجماعة) جزء من الفعل أو الحدث ذاته. إذا كانت اللغة شكلاً من أشكال الفعل، كما كون فيلسوف اللغة الإنجليزية جون إل. أوستن ***John L. Austin*** نظرية حول ذلك، فإنّ المحادثات بالتالي تشكل وتعيد إنتاج البنية الاجتماعية، إلى جانب مساعدتها لنا كي نفهم الفعل أو الحدث، وتفسر تعليقات المشاركين معنى الحدث وتصوره لنا. في الحقيقة، وطبقًا لرأي جارفينكل، يتوافق الحدث ويتطابق مع وصفه وتصويره:

إنّ الأنشطة التي يحدد الأعضاء مواقع أو أماكن شئونهم اليومية المعتادة ويديرونها وفقًا لها تتطابق مع إجراءات وخطوات هؤلاء الأعضاء لجعل هذه المواقع ممكن تفسيرها وتعليلها... وعندما أتحدث عن "ممكن تفسيرها وتعليلها" فإنّ اهتماماتي تتوجه لأمور من مثل... ممارسات قائمة للنظر والقول" ***(1967: 1)***.

لذا فإنّ تعليقات الأعضاء ليست مستقلة أو منفصلة عن الممارسات الاجتماعية التي تحدث فيها. وهكذا فإنّ الواضح الجلي هو العلاقة الانعكاسية بين الحدث والتعليق عليه: أحدهما يفسر الآخر، والعكس بالعكس. ويوضح المثال التالي هذه النقطة الحاسمة.

قانون المُدانين أو المحكوم عليهم

يقتبس ويدر ***Wieder*** هذه العبارة "أنت تعلم أنّي لا أشي ولا أنمّ" (*1074: 168*) كاستجابة ورد فعل أحد المقيمين في مركز تأهيل لسؤال طرحه الباحث عليه واعتبره سؤالاً غير ملائم. وكانت هذه العبارة التي تبدو غير مؤذية في نفس الوقت متعددة الصياغة ومتعددة الروابط المنطقية (ص ١٤٥).

في الحالة الأولى (تعدد الصياغة)، أبلغ النزيل معنى رفضه، وبالتحديد (١) كيف كان تصوره عن المحادثة عند هذه النقطة (كطلب المعلومات الداخلية)؛ (٢) حالته العقلية عند تعبيره عن رد فعله؛ (٣) الأسباب التي قد تدفعه لإنهاء المحادثة أو اختصار زمنها؛ (٤) الدور والوضع الاجتماعي الذي كان يُفرّق أو يُميّز بينه وبين الباحث؛ و(٥) التزامه بقانون المُدانين أو المحكوم عليهم.

وفي الحالة الثانية (تعدد الروابط المنطقية) كان التعليق فعلاً أيضا من حيث إنّه (١) كان يعاقب سلوك الباحث (كانت عبارة "أنت تعلم" تعني أنت تعلم جيدًا أنّ هناك قانونًا ضد الوشاية والنّم، لذا لماذا تصر على طرح مثل هذه الأسئلة؟ (٢) أنّها قاطعت المحادثة واعترضتها؛ (٣) تركت الباحث دون حصوله على المعلومات التي كان يبحث عنها؛ (٤) حذرته من أنّ الحديث قد يتحول فيصبح مزعجا وبغيضا إذا لم يعد ليصبح طبيعيا كما كان؛ (٥) ألمحت للمخاطرة التي كان النزيل يتعرض لها ("أنت تفهم" كانت تعني أيضا: "أنت تعلم جيدا جدا أنّني لو تكلمت، فإنّهم سيضربونني أو يوسمون صورة الجرذ فينك بالنار على جلدي) و(٦) كانت تشير إلى أنه، لأنّه من واجب المراقبين والحراس حماية النزلاء إذا هجم أحدهم عليهم، فإنّ المحادثة قد تسبب مشاكل للموظفين أيضا. وأشار ويدر بذكاء:

المحادثات... كانت تعطي تعليمات لكل فرد حول الطريقة التي ترى بها سلوك المقيمين... بتسمية، وتفسير، وتبرير، وحتى التماس النزلاء لفعل شيء محدد، كان النزلاء يعلمون الموظفين والباحث كيف يدركون ظروف النزلاء وسلوكهم من وجهة نظر النزيل. (*1974: 219*).

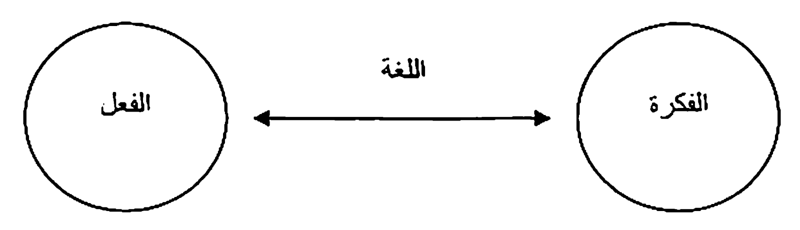
وللمحادثات خاصية أخرى: وهي إمكانية تكرار القياسات الموجودة في التنظيم أو المنظمة من خلال مواقف معينة.

لو أنّ خادما يؤدي عمله خلف منضدة كافيتيريا إحدى الجامعات تلقى طلبا من طالب بأن "يعطيه كمية إضافية من المكرونة الاسباجيتي" فرد الخادم عليه بحدة قائلاً، "كم مرة سيكون على أن أخبرك أنّ نصيب كل طالب من أي طعام نقدمه نصيب محدد؟" فإنّ الخادم في هذه الحالة ينقل للطالب نظاما وتقليدا متّبعا، وهو في نفس الوقت يكرر جزءا من قياسات نظام الكافيتيريا.

بناء على هذا الرأي، يتم "تشكيل" البنية الاجتماعية بالتالي من خلال الأفعال والتفسيرات التي تكشف عنها للجهات الاجتماعية الفاعلة. على سبيل المثال، استخدام تعبيرات لغوية معينة مثل النداءات والهتافات التي تستخدم للفت الانتباه أو التعجب (يا معلم، يا أستاذ!، يا أبت... إلخ) أو الطريقة التي يبدأ اثنان بها حديثا تليفونيا، التي لا تفترض مسبقا علاقة اجتماعية معينة (إخضاع أو تبعية، أو حميمية، أو قوة ونفوذ) فقط، لكنها تفترض أيضا تدعيم وتعزيز هذه العلاقة، أو حتى إنشاء هذه العلاقة من خلال استخدام تعبيرات معينة. بمعنى آخر، إنها من ناحية ما الطريقة التي نتحدث بها للناس والتي تحدد علاقتنا بهم (لاحظ أنّ هذا نقد للتمييز الذي يحدد بشكل تقليدي في علم السلوكيات بين المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة) (*Duranti,1992: 29*).

يمكننا إذن أن نقول إنّ البنية الاجتماعية التي يُعاد إنتاجها أو تولد من جديد من خلال تفاعلات اجتماعية يتم تكوينها أو تشكيلها من خلال تلك التفاعلات بالتحديد (انظر أيضًا "نظرية سلسلة طقوس التفاعلات" التي ألفها راندول كولينز *Randall Collins, 2004*).

لذا فإن الخطابات والمحادثات تقدم للدخول لتفسيرات المشاركين؛ وتقوم أيضًا بدور الشماعات التي نعلق عليها التمثيلات الاجتماعية. ومن هنا، فإنّ اللغة وسيلة ممتازة نخترق من خلالها تفسيرات وأفعال وتصرفات الفاعلين الاجتماعيين (انظر الشكل ١٠ - ١).



الشكل ١٠-١ العلاقة بين الفكرة، واللغة والفعل

١٠-٤ السياق الأساسي للفعل: المكان

يتطلب الفهم الكامل للأفعال؛ الأحاديث (أو الأحاديث - الأعمال إذا شئنا) بعدًا ثالثًا وهو: السياق. إنّ الممارسات الاجتماعية ممارسات قائمة في مواقع وأماكن معيّنة دائمًا، من حيث إنّها تحدث في مواقف مرتبة ومنظمة تشمل نسقًا من موارد للفعل كما تشمل قيودًا تُفرض عليه. وقد يتسبب إهمال تلك القيود في أن يسيء الإثنوجرافي تفسير معاني الممارسات اللغوية التي يتولى ملاحظتها. على سبيل المثال، لاحظت أخصائية العلوم الإنسانية اللغوية إلينور أوتشس *Elinor Ochs (1988: 1)*، في دراستها حول اكتساب الأطفال في ساموا الغربية *Western Samoa* اللغة في البيت أنّ السلوك اللفظي للمشاركين كان يتغير في

مناطق مختلفة من البيت، إلى جانب الاعتماد على المكان الذي كان الباحث يوجد فيه. في المناطق المنزلية التي كانت تُعتبر مناطق عامة، كان المواطنون يتبنون أسلوب لغة رسمية (كان أهل ساموا يطلقون عليها "كلام حسن"). وعلى الجانب الآخر، في الأماكن التي كانت تُعتبر مناطق خاصة، كانوا ينتقلون لأسلوب غير رسمي أكثر (يسمى "كلام سيء"). ونتيجة لهذا، كان لابد من دراسة تطور اللغة داخل نطاق أشمل يتضمن، من بين خصائص أخرى، التنظيم الاجتماعي للمكان في أحد بيوت ساموا.

لذا فإنّ وضع السياق في الاعتبار يعني، قبل أي شيء، ملاحظة المكان أو الموقع الفعلي المادي. وهذا تمثله أساسًا المفروشات والقطع الأثرية التي تحدث فيها الأعمال والتصرفات. وسوف ندرس القطع الأثرية فيما بعد. وما نضعه في الاعتبار الآن هو دور المفروشات في تمكين (وفي نفس الوقت تقييد) حدوث الأعمال والتصرفات؛ دون أن ننسى أنّ المفروشات مؤشرات هي الأخرى لأيديولوجية مصمميها.

التمرين ١٠-٣

طالما كنت أتردد على قاعات المحاضرات في الجامعة، وأنا طالب في المرحلة الجامعية أولاً، ثم كمحاضر بعد ذلك، كنت أُصدم بقلة عدد المرات التي كان الطلبة يتدخلون فيها (بالأسئلة، والتعليقات، والنقد) أثناء إلقاء المحاضرات. كانت هذه المشاركات القليلة النادرة تشكل دائمًا لغزًا بالنسبة لي.

ونحن ندعوك الآن أن تكتشف الأسباب (المتغيرات المستقلة) لهذه الظاهرة بمناقشتها في المحاضرة تحت إرشادات معلمك. ونحن بهذا سنسير خطوة خطوة في ممر يقودنا لحل اللغز مستخدمين (أحيانًا) نوعًا من أنواع التجارب الفكرية.

الخطوة الأولى: انظر إلى قاعة الدراسة؛ انظر إلى تأثيثها. كيف تم ترتيب المقاعد فيها؟ أين يجلس الطلبة؟ أين يقف المدرس؟ هل يبدو كل شيء طبيعيا بالنسبة لك؟ هل تلاحظ أي شيء غريب أو شاذ؟ عليك بصياغة إجابات لهذه الأسئلة.

الخطوة الثانية: بالطبع كل شيء عادي وطبيعي. لقد كان الوضع كذلك دائمًا. هذا التنظيم للأثاث يبدو طبيعيًا بالنسبة لنا؛ نحن نعتبر ذلك أمرًا مفروغا منه. لكن دعنا نحاول أن نُقصي أنفسنا ونبتعد عن هذا الوضع الطبيعي للحظة واحدة، وندعي أننا غرباء ندخل قاعة المحاضرات في جامعة لأول مرة. ابدأ بتجربة فكرة. لماذا يجلس الطلبة والطالبات هناك؟ ماذا كان يحدث إذا كانوا يجلسون بجانب المحاضر؟ وإذا أخذ المحاضر مكان أحد الطلبة، وجلس في منتصف القاعة؟ حاول الإجابة.

الخطوة الثالثة: إنّ قاعات المحاضرات لا تأتي للوجود وهي جاهزة الصنع، إذا جاز التعبير. هناك من يصممها ثم هناك من يُشيدها، عادة مهـــندس معماري أو مهندس. انظر إلى قاعة المحاضرات عندكم: طبقًا لرأيك، ما فكرة العملية التعليمية التي كانت في ذهن المهندس المعماري عند تخطيطه للقاعة؟ ما متطلبات التعليم الجيد، كما تصورها ذلك المهندس؟ في أي بيئة يمكن أن يتم ذلك التعليم؟ أجب.

(من أجل معرفة وجهة نظري وتفسيراتي، ادخل على الرابط: ***www.sagepub.co.uk/gobo***).

التمرين ١٠-٤

ادخل على الرابط

http//www.flickr.com/search/?q=university+classroom وابحث عن حجرة دراسة مثل الحجرة التي وصفناها في الخطوة السابعة. في أي جامعة توجد

هذه الغرفة؟ من بين الألف صورة فوتوغرافية المنشورة في الموقع، كم عدد الحجرات التي تقع من بين القائمة التي وصفناها في الخطوة السابعة؟ ماذا تستنتج من هذا؟

لقد نقل لنا وصف تفاعلات حجرة الدراسة بشكل جيد ومفهوم "الفعل ذو الموقع" الذي يستخدم كثيرًا في *الدراسات المبنية على الممارسة ودراسات موقع العمل*: فالأنشطة المعرفية ليست أنشطة ذهنية فقط؛ ولكي يتم أداؤها، فإنها تتطلب بالضرورة أنواعًا من الدعم المادي الملموس الذي يتولى إرشاد وعون العملية الفكرية في نهاية المطاف. وكما قضت "الرمزية التنظيمية" (***Turner, 1990***)، فإنّ المفروشات تؤدي وظيفة مهمة في هيكلة التفاعلات (من أجل دراسة حالة حول الموقع أو المكان والعلاقات الاجتماعية في مستشفى للطب النفسي، ادخل على ***www.sagepub.co.uk/gobo***).

وتساعد ملاحظة المواقع المكانية المرء على أن يجد قدرًا أكبر من التفسيرات السوسيولوجية لأنماط السلوك البشري على وجه التحديد، وذلك من خلال التقليل من الدور الذي خُصص بشكل تقليدي لتعمد أداء الفعل.

دراسة حالة

التقليل من الوظيفة التفسيرية لمفهوم القصدية

ما زالت العلوم الاجتماعية متأثرة بقوة بنظرية إرادة الفعل (التي تعتبر الإرادة هي المبدأ الرئيسي للفرد)، ومنذ ماكس فيبر ***Max Weber*** كانت هذه النظرية تفسر السلوك البشري بلغة مفاهيم "الاهتمام"، و"التعمد أو القصد" و"مبادئ الصواب والخطأ التي يقر بها الفرد أو المجتمع" و"الرشد" و"الدافعية" و"الضمير

و"ما إلى ذلك (انظر ٢ - ٤). لا ينكر أحد أهمية هذه المفاهيم، ومع ذلك (وكما أكدت الإثنوميثودولوجيا (منهجية الجماعة) فإنّه حدثت مغالاة قطعًا في تقدير قدرتها على التفسير. وأقدم لكم مثالين لإثبات ذلك من تجربتي الخاصة.

١. عندما وُظّفت في الإدارة التي عملت بها في جامعتي، خصصوا لي غرفة مكتب قريبة جدًا من المراحيض. علاوة على ذلك، كانت الغرفة صغيرة الحجم جدًا لدرجة أنها كانت تشبه خزانة مكنسة أكثر منها غرفة مكتب. ونتيجة لهذا كنت دائمًا أترك باب الغرفة مفتوحًا لأتقي شر رُهاب الاحتجاز (الخوف المرضي من الأماكن الضيقة). وعندما أدركت أنّ زملائي كانوا يترددون كثيرًا على المراحيض، ولأنّ بابي كان مفتوحًا دائمًا، تعرفت بسرعة بمن يعملون في الإدارة وانضممت لجماعتهم. وكان مدير الإدارة يستخدم هذه المراحيض أيضًا، لأنّ غرفة مكتبه كانت بالصدفة في نفس الدور الكائنة غرفتي فيه. لذا لم يكن يمر يوم إلا وأقابل فيه مديري وأتحدث معه قليلاً في المقابلة. ويومًا بعد يوم، ومحادثة بيننا بعد أخرى، أصبح يعرف اهتمامات بحثي، واهتماماتي الفكرية والثقافية، والأعمال الكتابية التي كنت أعمل على نشرها، وأشياء أخرى كثيرة. ومن ناحيتي أنا، فقد عرفت الكثير عنه، وأجرينا بعض الأبحاث معًا. ولو كانوا قد خصصوا لي غرفة مكتب غير هذه، أو غرفة في طابق غير الذي كانت غرفتي فيه، لما كان في الإمكان مطلقًا أن تحدث هذه العلاقة الخاصة بيني وبين المدير. على أي حال، بعد ما ذكرته الآن، سأكون مبالغًا لو قلت إنّني حصلت على درجة أستاذ جامعي فقط بفضل المراحيض.

٢. وبعد ذلك ببضع سنين، وبسبب أعمال تجديد في المبنى، انتقلت الإدارة إلى مبنى آخر بشكل مؤقت. ولأنّ هذا المبنى كان أصغر من سابقه، وكان به القليل من المكاتب كبيرة الحجم، فقد خصصوا لكل غرفة كبيرة أربعة من موظفي

الإدارة، وانتهى بي المطاف أن أصبحت مع ثلاثة زملاء في غرفة واحدة، وكنت أعرفهم من قبل معرفة سطحية لأنهم كانوا يعملون في مكاتب موجودة في طوابق مختلفة عن طابق مكتبي في المبنى السابق. ولكن في الموقع الجديد، وبسبب قربنا المادي من بعضنا، عرفنا بعضنا البعض جيدًا، بل وأصبحنا أصدقاء، ثم بدأنا التعاون الأكاديمي معًا. وظللنا عامين في المبنى المؤقت ثم عدنا لمبنى إدارتنا الأصلي عندما انتهى العمل في تجديده.

وخُصصت غرفة لكل واحد منا، علاوة على ذلك، كانت كل الغرف في طوابق مختلفة. ومنذ ذلك الوقت، فترت العلاقات فيما بيننا، وأصبحت الاتصالات بيننا نادرة بشكل متزايد، ويمكن أن تمر أسابيع الآن دون حتى أن نرى بعضنا. وفي نفس الوقت، كونت علاقات جديدة، خصوصًا مع الزملاء الموجودين في مكاتب مجاورة لمكتبي.

وبالتـالي، فقـد نسأل، إلى أي مدى يكون ما يقرر الأعمـال ظرفًا طارئًا أو حالة تظهر بالمصادفة، إلى أي مدى يكون ذلك عن عمد؟ أليس مفهوم "العمل المبني على الموقف" مناسبًا أكثر من هذا وذاك؟

١٠-٥ الأشياء أو الأغراض التي من صنع الإنسان ونتاج براعته

ليس الأثاث وحده هو الذي يقدم موارد للفعل والعمل ويضع قيودًا عليه. الأشياء التي من صنع الإنسان ونتاج براعته تفعل ذلك هي الأخرى؛ وهي التي تؤدي أعمالنا بها. وتقوم هذه الأشياء بدور الوسيط للتفاعلات بشكل متزايد في المجتمعات ذات التكنولوجيا العالية مثل مجتمعنا. في الأوضاع والخلفيات الطبيعية يكون لدينا عادة ثلاثة أنواع متاحة من هذه الأشياء:

- تكنولوجية.
- معرفية.
- تنظيمية.

الأشياء التكنولوجية وسائل تؤدي العمل المادي الملموس، وتعززه، وتضيف إليه وتكمله (ومن أمثلة ذلك المخرطة، والسيور التي تنقل الأشياء أو الطرود من مكان لآخر، وخط التجميع أو خط الإنتاج، ولكن هناك أيضًا القلم الرصاص، والمايكروفون، أو التليفون).

والأشياء المعرفية هي الأشياء التي تُرتِّب وتُنظِّم لتزيد من الطاقة المعرفية: عقدة في منديل، والمفكرة أو دليل التليفون، وقائمة التسوق، والكراس أو الدفتر، والإشارات المرئية أو الصوتية، وطبلية التاج (أو المعداد المعد لتعليم الأطفال العد)، ولوحة الإعلانات، والسبورة، ومصفوفة البيانات، والصورة الفوتوغرافية، والفيلم كليب، والعرض على شاشة موزع النقدية في البنوك، أو الجهاز الموجود في الكمبيوتر الذي تدخل فيه البيانات أو تخرج منه. ويمُد نورمان (***Norman 1991***) مفهوم الأشياء المعرفية لتشمل منتجات العقل البشري: (الحكم والأمثال، تقنيات التذكير والحفظ عن ظهر قلب، وما إلى ذلك). والأشياء المعرفية نظم اصطناعية تخزن وتعالج المعلومات التي تفيدنا في الاستنتاج والتفكير المنطقي وفي اتخاذ القرار.

الأشياء التنظيمية تدعم وتعزز الطاقة البشرية على التنبؤ والتخطيط. وهي تمكننا من توزيع الأعمال في الزمان والمكان المناسبين حتى نقوم بأنشطة معقدة بتنسيق وترابط منطقي داخلي. ومن أمثلة ذلك إجراءات منظمات العمل، ولكن هناك أيضًا توزيع الأدوار في الألعاب الجماعية.

دراسة حالة

الوكلاء من غير البشر

نظرية المؤدي (الفاعل)/ شبكة العمل ***Actor-Network Theory*** (يرمز لها بالحروف الأولى للكلمات فتكون *ANT*) منهج مميز في النظرية والأبحاث الاجتماعية نشأ في مجال الدراسات العلمية. وقد طور هذه النظرية عالمان فرنسيان رائدان في دراسات العلم والتكنولوجيا هما مايكل كالون ***MichelCallon*** وبرونو لاتور ***Bruno Latour*** والأخصـــائي الاجتمــاعي البريطاني جون لو ***John Law***، وآخرون، ويمكن أن يوصف هذا المنهج بطريقة فنية على أنّه منهج مادي-علاماتي (متعلق بعلم العلامات، السيميوطيقا). وهذا يعني أنّه يرسم بالتفصيل وبشكل متزامن علاقات مادية (بين الأشياء) وعلاماتية (بين المفاهيم) ويعتبر أنّ هناك علاقات كثيرة مادية و"علاماتية" في نفس الوقت (على سبيل المثال: تتضمن التفاعلات في البنك كلاً من الأفراد وآرائهم، والحاسوب. جميعهم يشكلون شبكة واحدة).

وتحاول نظرية الفاعل – الشبكة أن تفسر كيف تجتمع الشبكات المادية – العلاماتية لتعمل ككل. إنّ البنك على سبيل المثال، في منهج النظرية، شبكة وفاعل في نفس الوقت يتعلقان ببعضهما، ويؤديان دورهما ككيان واحد. وكجزء من هذا الكيان، فإنّه قد ينظر إلى إستراتيجيات صريحة وواضحة لربط عناصر مختلفة معا في شبكة عمل واحدة كي يشكلا وحدة كاملة متماسكة ظاهريا.

ومع أنّ نظرية الفاعل / الشبكة تُسمى نظرية، فإنها لا تفسر عادة لماذا تأخذ شبكة العمل الشكل الذي تأخذه. إنها تهتم أكثر باستكشاف كيف تم تشكيل العامل / شبكات العمل، وكيف يحتفظون بتماسكهم معًا، أو ينهارون معا أيضا.

تعتبر هذه النظرية أنّ كل العناصر في شبكة العمل، سواء البشرية أو غير البشرية، يمكن، بل وينبغي، أن توصف بنفس العبارات والمصطلحات. ويُسمى هذا بمبدأ التماثل أو التطابق الإثنوجرافي. والمنطق هنا هو أنّ الفوارق بينها تتوالد في شبكة العلاقات، ولا ينبغي أن تكون مُفترضة ضمنًا.

وإذا تحدثنا على نطاق واسع، فهذه نظرية بنائية من حيث إنّها تتجنب التفسيرات الجوهرية للأحداث أو الابتكارات (على سبيل المثال، تفسير نظرية ناجحة بالقول أنّها "صحيحة" وأنّ النظريات الأخرى "زائفة") .http://en.wikipedia.org/wiki/Actor_network_theory

ومن وجهة النظر المنهجية، تؤدي نظرية الفاعل / الشبكة شقلبة مزدوجة (انقلاب تام في الرأي). إنّها تُعطّل الافتراضات النموذجية وتشوش عليها وتقلبها رأسا على عقب، وبالتالي تسبب مشاكل لكل من المنهج التفسيري والمنهج الوضعي. من ناحية أخرى، تنتقد نظرية الفاعل / الشبكة التفرقة بين (ما كان يُسمى في وقت ما) "العلوم الثقافية" (العلوم الاجتماعية) و"علوم الطبيعة" (العلوم الطبيعية والبيولوجية) باعتبارها علومًا عفا عليها الزمن، لأنّه لم يعد هناك وجود لكائنات بشرية وكائنات غير بشرية، هناك فقط "ثنائي معارضة الأقران". من ناحية أخرى، فهي تؤكد أنّه يمكن دراسة كل من الحقائق العلمية والاجتماعية باستخدام منهج البحث نفسه. من ناحية أخرى، فهذه النظرية تؤكد أنّ كلا من الحقائق العلمية والاجتماعية يمكن دراستها باستخدام نفس المنهج. لكنّ هذا ليس منهج القياس أو النموذج (الكمي) الذي طرحه من مدة طويلة أصحاب المنهجية الوضعية، لكنّها بالأحرى منهجية نموذج علم العلامات (السيميوطيقا).

ومع أنّ المقدمات المنطقية لنظرية الفاعل / الشبكة يبدو لأول وهلة أنّها تشبه النظرية الفيزيائية أو المادية (فحواها أن كل ما يوجد في الوجود أشياء مادية

في نهاية المطاف) التي طرحها أوجست كومت *August Comte*، فإن نتائج تلك المقدمات تختلف اختلافا تاما.

من أشهر الدراسات التي أجريت مستخدمة منهج نظرية الفاعل / الشبكة دراسة لاتور (*1985*) *Latour* وهي تدور حول اكتشاف ونهوض وانتشار التطعيمات (في فرنسا في نهايات القرن التاسع عشر) التي قدمها الكيميائي والبيولوجي الفرنسي لويس باستير (*Louis Pasteur 1822 -1895*). ويؤكد لاتور أنه لو أردنا إقامة حقيقة علمية، فلابد أن يكون لها "حلفاء" داخل المختبر وخارجه. في حالة باستير، لم يعترض على اكتشافاته للتطعيم ضد الجمرة (مرض مهلك من أمراض الماشية، وقد يصيب الإنسان) وداء الكلب سوى الأطباء ذاتهم. ومع ذلك، فإنّ انتصار باستير لم يكن نتيجة لعبقريته فقط، التي انتصرت في النهاية على المحن، لكنها كانت ترجع أيضا إلى قدرته على بناء شبكة معقدة من الحلفاء والكتائب الذين تطوعوا لدعم أفكاره والذين تكونوا (طبقا لوجهة نظر لاتور) من أطباء صيدليين، ومسئولين عن الأحوال الصحية، والمزارعين، والبكتيريا ذاتها.

وعلي غرار ذلك، وكما يشير جيراردي *Gheradi*،

فإنّ تأليفنا لكتاب هو حصيلة تكاتف قوى بشرية وغير بشرية: الورق، ومعالج الكلمات، والمشاركين في التأليف، والمخطوطات، والناشر، والتمويل، وآلة الطباعة، ومحرري النسخ، والطباعين، والقراء، والأعمال النقدية، والتنويهات... إلخ. ويتكون إبداعنا وتأليفنا من تصويرات وتكوينات وسائل بشرية وغير بشرية، إضافة لرغبتنا وقدرتنا على الكتابة وبالتالي تحريك وحشد تلك الوسائل البشرية وغير البشرية (*2000: 56*).

لذا، لا يمكن فهم أي تفاعل بالكامل لو تم إهمال دور الأشياء أو الأغراض التي من صنع الإنسان ونتاج براعته. وطبقا لهذا فمن المفيد للإثنوجرافي أن يلتقط

صورًا فوتوغرافية، ويحصل على رسوم بيانية، أو أن يعمـــل رسومًا تخطيطيـــة أو رسومات للمكان أو الموقع الجاري دراسته، حتى يمكنه التفكير والتأمل في الطبيعة المكانية للتفاعلات، وأن ينقل نكهتها ومذاقها للقارئ.

١٠-٦ دعم الإثنوجرافيا البصرية

إذا أجـــرينا مقارنة لكتاب عن العلوم الاجتماعية مع كتاب عن فن المعمار، أو الهندسة، أو الطب، أو الأحياء، سنفاجأ بفارق واضح بينهما؛ وهو الاستخدام الهائل للصور الفوتوغرافية والأرقام والرسومات والرسوم التخطيطية في كتاب من النوع الثاني. لماذا تحتوى نصوص العلوم الاجتماعية على هذا القدر الضئيل من الصور؟ ربما تكون الأسباب متعددة ومعقدة، وليس هناك مجال لمناقشتها هنا. غير أنّي أود أن أؤكد على أنّ هذه الأشياء المعرفية وسائل قوية لزيادة فهم تصوراتنا وأوصافنا، أو لدعم نظرية أو تفسير ما. قبل أي شيء، وكما يقول المثل الشائع، فإنّ أي لوحة أو رسم يساوي ألف كلمة. وهناك مثل واضح لذلك يقدمه كوفي وزملاؤه (*Coffey et al., 2006: 200*) الذي يصف قاعة معروضات لمركز اكتشافات علم التفاعل في ويلز، كما يمكنك أن ترى، كانت المذكرات التي يسجلها العلماء أثناء أو بعد إجراء ملاحظاتهم لظاهرة معينة، تتكون من ١٢٩ كلمة:

عندما تدخل، ترى أمامك قاعة ضخمة جيدة الإضاءة وفوقها صالة عرض. وهي مساحة بيضاء بها أعمدة كبيرة بيضاء ونوافذ كبيرة، لكنّ هناك أيضًا قدرًا هائلاً من الألوان، والضوضاء، والحركة. وعند دخولك، يكون أول ما تراه أمامك كرة من بلاستيك معلقة بوسيلة سحرية كما يبدو أمام هرم مصمت لونه أصفر فاقـــع. ووراء هذا الهرم أهرامات أخرى صغيرة لونها أصفر أو أحمر أو أخضر

أزرق. وحولك في كل مكان تجد مجموعة منوعة من الأجهزة والآلات
ضوعة في أغلفة وخزانات فاقع لونها، ويتحرك الكثير منها ويصدر أصواتًا،
ؤثرات بصرية، وما إلى ذلك عندما يحركها أي مستخدم لها. ويوجد الكثير من
طفال يتنقلون في المكان وهم مبتهجون، وينتقلون بخفة بين المعروضات،
صطدم بعضهم ببعض بين الحين والحين.



الصورة ١٠ – ١ قاعة العرض (المصدر ***Coffey, Renold, Dicks, Soyinka and Mason 2006:***

-٦-١ الرسومات

يصبح من غير الممكن أحيانًا التقاط صور فوتوغرافية للأماكن، وتكون
ـة تسجيل سلوك المشتركين بالفيديو حتى أقل حظًا من ذلك. الكثير من
ليمات والمؤسسات لا تحب أن تُصور أفلام عنها، وقد تطول مدة البحث كثيرًا

بسبب الرغبة في الحصول على تصريح بذلك. والورق والقلم من بين أقل الأدوات الكتابية الغازية، وبالتالي قد يكون صنع الرسوم التخطيطية والرسومات بديلاً مقبولاً.

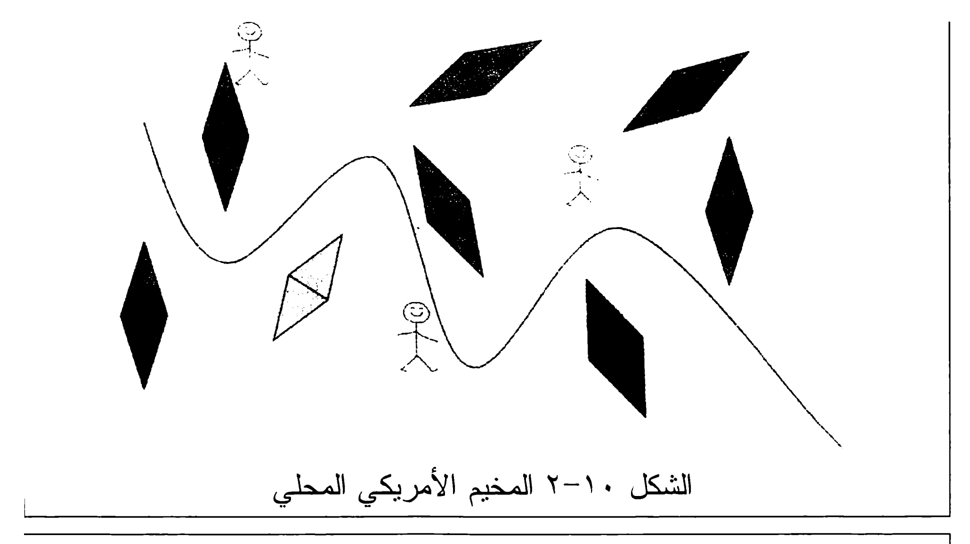
دراسة حالة

التفاعلات بين البائعين في متجرين للملابس الرياضية

لونجوني ***Longoni*** وديكاثلون ***Decathlon*** شركتان من شركات بيع الملابس الرياضية: الشركة الأولى من أصل إيطالي، والثانية من أصل فرنسي، وكلاهما لهما منافذ في أنحاء العالم. وقد أجرى أندريا بارانتشيني ***Andrea Paranchini*** بحثًا إثنوجرافيًا عن الثقافات التنظيمية للشركتين للحصول على درجة الماجستير. وكان من بين اكتشافاته المهمة في دراسته العلاقة بين الديكور والزخرفة وسلوك وتصرفات البائعين.

لونجوني

في هذا المتجر، كانت السلع معروضة في وحدات على شكل معين هندسي يزيد ارتفاعه عن مترين، يعرف في تجارة التجزئة في إيطاليا بالجوندولاس "أي الجندول". وقال البائعون في المتجر إنه كان يشبه "مُخيما أمريكيا محليًا"، لأنه كان فوضويا ظاهريًا، لكنه كان به نظام ضمني، وإن كنت لا تراه في الحال بمجرد دخولك. كان الزبائن يسيرون في ممر محدد بعلامات معينة داخل المتجر وسماه موظفو المتجر ("الممر"، مرة أخرى مستخدمين استعارة المخيم الأمريكي المحلي) كانوا يتجولون فيه إلى حيث يلفت انتباههم سلعة معروضة على الجندول (انظر الشكل 2 – 10).



الشكل ١٠-٢ المخيم الأمريكي المحلي

كان المتجر مبنيًا على مساحة واسعة، وكان للطريقة الخاصة التي تم تأثيث المتجر بها النتائج التالية (بالتأكيد لم يكن مُخطط هذه الطريقة يتنبأ بهذه العواقب):

١. كان بإمكان البائعين في المتجر أن يرى كل منهم الباعة الآخرين، وكان ذلك يشجع على التفاعل بينهم، ويعزز من روح الجماعة.

٢. يساعد عدم وجود حدود دقيقة بين أقسام المتجر على تكوين نظرة عامة أكثر اكتمالاً للمؤسسة ومفهومًا أقل اكتمالاً مبنيًا على واجبات كل وظيفة بدقة ومنفصلاً عنها: وبهذه الطريقة كان بالإمكان تغطية "المناطق الرمادية"، الموجودة دائمًا في تدفق العمل بسهولة أكثر.

٣. حدث كثيرًا "تخطي" قسم على قسم لبائع آخر في المتجر والتعدي عليه، لكنّ ذلك لم يكن يُعتبر غزوًا له.

٤. كان التعاون بين البائعين أمرًا غالبًا عليهم لأنهم كان بإمكانهم أن يروا ما إذا كان أحدهم يواجه مشكلة (على سبيل المثال لو أنّ أحدهم كان أمامه عدد أكبر

من اللازم من الزبائن منتظرين دورهم لشراء متطلباتهم) فيذهبون لمساعدته (أو مساعدتها لو كانت بائعة).

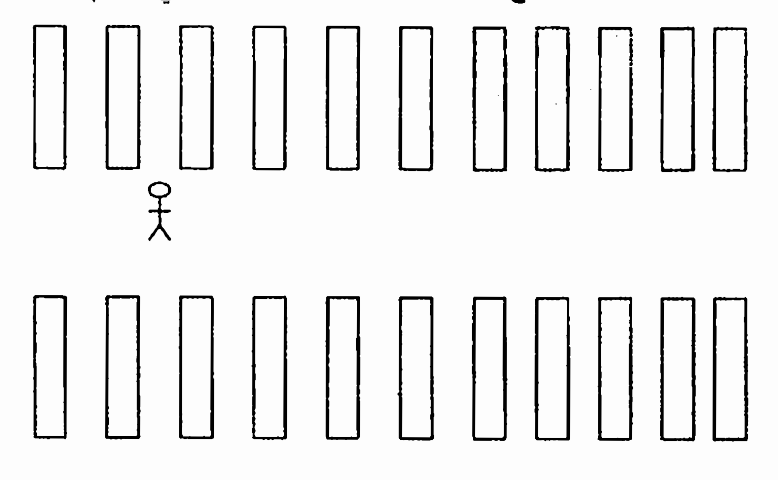
٥. كان باستطاعة البائعين أن يتفاهموا مع بعضهم بالإشارة، وبالتالي لم تكن هناك حاجة لاستخدام التليفون.

٦. كانت القدرة العالية على الرؤية تُشجّع على توزيع المعارف بينهم، بالمشاركة و الإدارة.

٧. كان تصميم وجود مساحات مكشوفة في المتجر يدعم تحكمًا وسيطرة اجتماعية أكبر من جانب الإدارة التي كانت تستطيع رصد العمل بصريًا.

ديكاثلون *Decathlon*

كان لهذا المتجر مبدأ جمالي تنظيمي مختلف تمامًا. وصفه بعض العاملين فيه مستخدمين استعارة "مُعسكر حربي روماني": كان به ممر مركزي عريض يُقسّمه إلى كتلتين كبيرتين. مع وجود ممرات جانبية متعددة في أقسام متنوعة فيه.



الشكل ١٠ – ٣ المعسكر الحربي اليوناني

كانت السلع مُرتّبة في وحدات عرض ارتفاع كل منها من ٣ إلى ٤ أمتار كانت تقطع الطريق أمام خطوط الرؤية الموازية لها. وبهذا النوع من التنظيم المكاني:

١. كان التفاعل من على بعد بين البائعين ممكنًا في الممر المركزي فقط.

٢. كانت تُستخدم أشكال أخرى من الاتصال، بالتليفون أو عن طريق الإنترنت، بدلاً من الاتصال غير اللفظي أو شبه اللفظي السائد في متجر لونجوني.

٣. بسبب الطريقة التي تم بها ترتيب المسافات، كان من الصعب على هيئة البائعين دخول أقسام أخرى. ونتج عن ذلك أن كانت حدة العلاقات و"التعديات" أقل، وكانت مُتعمّدة دائمًا: وكانت النتيجة قلة المشاركة في المعلومات.

٤. كان بالإمكان التواصل وجهًا لوجه في ممر المتجر المركزي فقط.

٥. كان كل قسم في المتجر نظامًا فرعيًا مستقلاً، على عكس التنظيم العضوي أكثر الموجود في "لونجوني". وقد علّق أحد الباعة على ذلك قائلاً: "إنّ قسمي يشبه متجرًا صغيرًا داخل نطاق المتجر، ولدينا كل شيء نحتاج إليه، من أجهزة الحاسوب حتى التليفونات".

١٠-٦-٢ الخرائط، والصور الفوتوغرافية، والفيديو

تتناقص تكلفة التكنولوجيا الشاملة اليوم بشكل متزايد. لذا لا ينبغي أن يجد أي طالب أنّ شراء كاميرا رقمية، أو كاميرا الفيديو أو جهاز تسجيل كاسيت أمرًا مكلفًا بشكل يجعله يحرّم على نفسه شراءه. إنّ التكنولوجيا الرقمية تسمح بإجراء البحث بطرق كانت تُعتبر لا يصدقها عقل منذ عشر سنوات فقط. علاوة على ذلك،

فإنّ تقنيات التسجيل أقل تطفلاً واقتحاما على حياة الناس بكثير: ضع في اعتبارك كم عدد الأشياء التي يمكن أن تؤديها بالهاتف المرئي: أخذ صور فوتوغرافية ولقطات فيلمية وتصفح الإنترنت، وإرسال الملفات. كذلك يمكن أن تمكّن استخدام التقنيات الرقمية ومرونتها من إيجاد أشكال جديدة من البحث الاجتماعي.

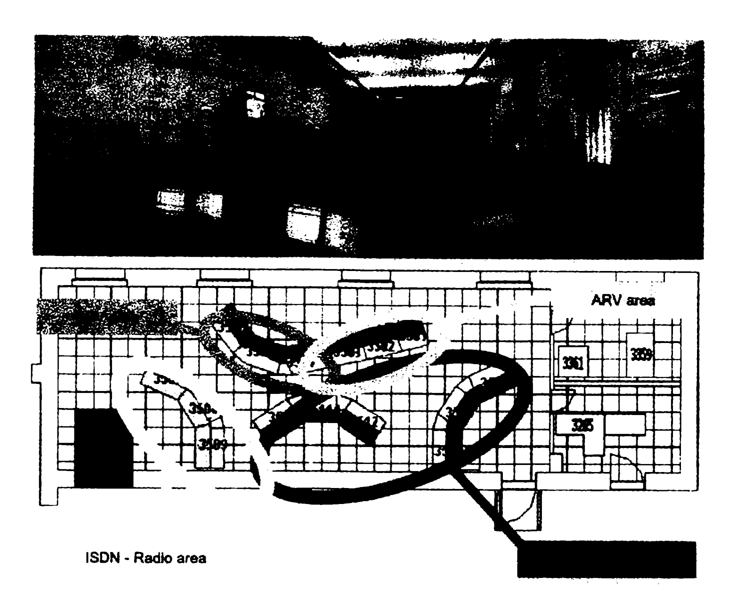
وقد ضاعف مجيء جهاز تسجيل الكاسيت من الدقة التي يمكن للباحثين الاجتماعيين أن يدرسوا اللغة والتفاعلات من خلالها (بل وربما تؤدي إلى ظهور مناهج جديدة أيضا، التحليل المبني على المحادثات، وتحليل الخطابات والمحاضرات). وبالمثل، فقد جعلت التقنيات الرقمية الجديدة تحاليل الباحثين غاية في الدقة. وتخرج للضوء نواحي معينة لم تكن العين المجردة النابضة بالحياة تستطيع رؤيتها.

دراسة حالة

هندسة الاتصال البشرية في مركز أمريكي

للاتصالات في حالات الطوارئ الطبية

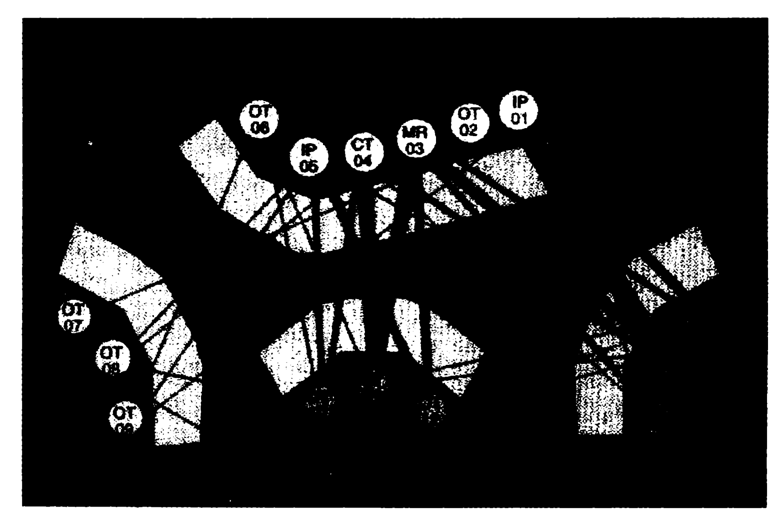
كنت أجري بحثًا لمدة بضع سنوات عن العمل التعاوني المدعوم بالكمبيوتر (*CSCW*). وقد أجريت أبحاثًا إثنوجرافية مع عدد من الزملاء في مراكز أمريكية للاتصالات في حالات الطوارئ الطبية (جوبو وآخرون ٢٠٠٨). هذه المراكز تسلم مكالمات لرقم تليفون للطوارئ يتنوع طبقا للمدينة الموجود فيها: فهو ٩٩٩ في المملكة المتحدة وأيرلندا؛ و ٩١١ في الولايات المتحدة وكندا؛ و ١١٨ في إيطاليا. وما إلى ذلك.



(الشكل ١٠ – ٤) مركز الاتصال والمهام المتعددة التي يقوم بها العاملون به.

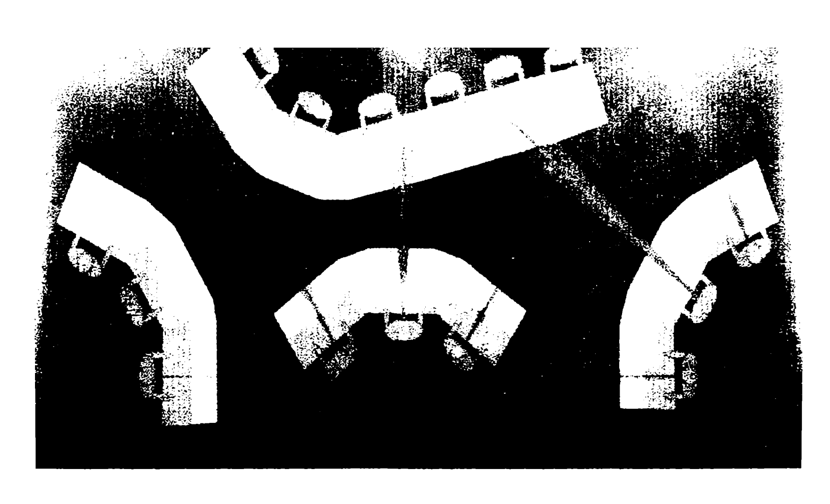
يوجد ١٥ محطة عمل في مركز الاتصال، ويوجد في الشكل ست محطات يشغلها مستقبلو المكالمات. ويسلّم عاملو الشبكة **الرقمية للخدمات المندمجة** ***ISDN*** الردود على المكالمات لقاعدة سيارات الإسعاف (لدى استكمال إرساليتهم) أو الاتصالات مع قوات الشرطة، ورجال المطافئ... إلخ. فقد يكون تدخلهم مطلوبًا في حالة الحوادث الخطيرة على وجه الخصوص. ويشغل الطاقم الطبي محطات مركبات الإنقاذ الرئيسية ***BRV*** الثلاث، وهم يحافظون على الاتصال المستمر بمحطات مركبات الإنقاذ الرئيسية (وهي عربات إسعاف في الأساس) التي يتم إرسالها لمكان الحوادث. وأخيرًا، هناك فريق طبي آخر يجلس في مركبات الإنقاذ المتقدمة ***ARV***، وهذا الفريق على اتصال مستمر بمركبات الإنقاذ المتقدمة (طائرات هيلوكبتر عادة) التي يتم إرسالها في حالات الطوارئ القصوى.

وأثناء ملاحظتنا لتفاعلات مستقبلي المكالمات فيما بينهم، لاحظنا أنّ بعضهم يميل للاتصال بالطاقم الطبي بكثرة. وباستخدام تقنيات هندسة الإثنوجرافيا البشرية التي نشأت في الخمسينيات من القرن العشرين (انظر ٣ – ٨) شرعنا في عد التبادلات اللفظية التي حدثت في فترة زمنية محددة. وتظهر نتيجة هذه الملاحظة التي أجريناها في الشكل التالي، الذي تمثل الأشرطة العريضة فيه كثرة تكرار تبادل الألفاظ (انظر الشكل ١٠ – ٥).



الشكل ١٠ – ٥ خريطة التفاعلات.

وبعد ذلك استفسرنا عن السبب الذي جعل بعض مستقبلي المكالمات يتفاعلون مع الطاقم الطبي أكثر من تفاعلهم مع غيرهم. وبعد ما استبعدنا التفسيرات العاطفية (التعاطف والمشاركة الوجدانية، ومتعة التحادث من أجل تبادل الأحاديث فقط) والتفسيرات النفسية أيضًا، استنتجنا أنّه يمكن تفسير هذه الظاهرة بعبارات واصطلاحات بنائية دقيقة (معرفية ودلالية رمزية) لها علاقة بالتقييدات التي يفرضها التوجه البصري (انظر الشكل ١٠ – ٦).



الشكل ١٠ – ٦ التوجه البصري

يظهر الشكل ١٠ – ٦ "المخروطات المتمركزة في التجويف الضـ
العين" (وهي منطقة رؤية ثاقبة حادة) المتناظرة مع الزوايا النظريـ
ـ الغاية في الاهتمام في مركز المكالمات التليفونية. وقد نتجت هذه التو
ـة من متسلمي المكالمات من موقف دلالي رمزي محدد (لم تم التعبـ
: حيث كان يجلس متسلمو المكالمات).

وهكذا تفسر زوايا الرؤية التي تفيد البشر من الناحية البيولوجية
علاقات مميزة بين متسلمي مكالمات معينين وأعضاء معينين من
ويظهر المثال التالي بوضوح "الاتصال المتعلق بالمكان".

هناك عدة طرق لاستخدام هذه التقنيات. على سبيل المثال، ففي
الذي يتم بالمشاركات" (انظر: ***Lunch and Lunch, 2006***)، يعطي
أو كاميرا الفيديو للمشاركين في البحث ويطلب منهم التقاط
ـافية أو القيام بتسجيلات في الفيديو، والغرض من ذلك هو رؤية الحـ

منظور كل منهم. ومن بين أقدم الأمثلة لذلك أخصائي العلوم الإنسانية الأمريكي سول ويرذ (*1977 – 1922*) *Sol Worth* الذي أعطى كاميرات سينما للنافاجويين الأمريكيين كي يصوروا فيلمًا عن الحياة في قريتهم *the Navajos Worth and Adair, 1972*. على أي حال، ينبغي استخدام هذه التقنيات بحكمة وتعقل لأنّ هناك أماكن عامة (مثل مترو الأنفاق، والأسواق المركزية، وما إلى ذلك) يُحظر فيها التقاط الصور الفوتوغرافية. فقد يخطئ المسئولون ويعتقدون أنّه إرهابي يجمع معلومات استعدادًا لشن هجوم على المكان، أو أنّه لص يعد العدة للسرقة إذا قُبض عليه وهو يلتقط صورًا للبنوك، أو مكاتب البريد، وما إلى ذلك.

١٠-٧ سياقات أخرى

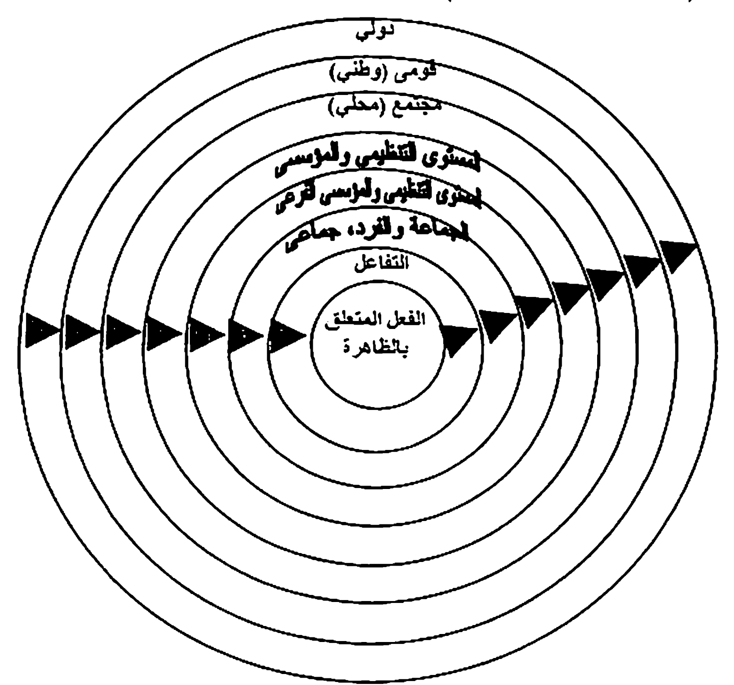
إنّ الطقوس، والخطابات والمحادثات والأماكن هي المرجعيات الأولية الأساسية لممارسة الملاحظة. وعندما يبدأ الإثنوجرافي من هذه المرجعيات، فإنّه يمكنه بعد ذلك أن يتبع سبلاً أخرى بشكل خلاق ويركز على أنثروبولوجيا الفراغ (الحيز)، وشبكات الاتصال ووثائق التنظيم أو المؤسسة، وما إلى ذلك.

ومن الواضح أنّ هناك سياقات أخرى أيضًا. على سبيل المثال، فداخل نطاق أي مؤسسة تحدث ممارسات أعضائها في مكان أو موقع مؤسس *تنظيمي* يمكن إعادة هيكلته من خريطة أو تنظيم المؤسسة التي تظهر واجبات ومهام العاملين وتحدد نطاق عمل المشاركين. ويمكننا بالمثل تحديد إطـــار *معياري* مـــن اللوائح أو القوانين أو عقود التوظيف، ويتبع ذلك مثال لكيف كان العجز في هيئة العاملين (ناحية اقتصادية) وهو المتغير المستقل الرئيسي للممارسة:

> **في بعض أسوأ الأجنحة، الذي كان يرقد فيها أكثر من ستين مريضًا، أبدى الكثيرون أسفهم لمشكلة النقص في عدد العاملين**

بالمستشفى في المناوبة المسائية (من الرابعة مساء حتى الثانية عشرة ليلاً) مما أدى إلى تكديس المرضى كلهم داخل الغرفة الصباحية، وسد الطريق في مدخل المستشفى... في ذلك الوقت سقط الغطاء عما كان كفنًا أو نعشًا بالفعل، وحدث تكثيف للتأثير السلبي، والتوتر، والنزاع والصراع (*Goffman, 1961: 238*).

يمكن إساءة فهم التكثيف الذي صوره جوفمان بدون الإشارة للسياق المعياري. ويضع كل من ستروس *Strauss* وكوربين *Corbin (1990)* الفعل أو التصرف في مركز الرسم البياني (ما يطلقون عليه "المصفوفة الشرطية أو الجدول الشرطي") وبه سبع دوائر متراكزة "أي متحدة المركز" أو سبع مستويات. (انظر الشكل ١٠ - ٧).



الشكل ١٠ - ٧ المصفوفة الشرطية (المصدر: *Strauss and Corbin 1990: 163*).

وعندما نتحرك إلى الخارج بعيدًا عن مركز هذا الرسم البياني أو منتصفه، نواجه السياقات المتعددة التي تؤثر في الفعل أو العمل المركزي، والتي تتأثر هي الأخرى به بدورها.

وهناك بالتالي متغيرات موقفية إضافية، وموارد مادية ورمزية، يجلبها المشاركون للتفاعل من الخارج. على أي حال فنحن لا ننصح الإثنوجرافي أن يُركّز بسرعة على هذه المكونات الموقفية المتشعبة؛ والأحرى أنّه ينبغي عليه (أو عليها) أن يركز على المكونات الثلاثة للموقف وهي: الممارسات، والحديث، والمكان. إنّ التحليل الذي يبدأ بدلاً من ذلك من سياقات خارجية أكثر، إذا جاز التعبير، يعتبر بشكل ضمني وسابق لأوانه (أو كما يمكن أن يعبر أخصائيو الإثنوميثودولوجيا (منهجية الجماعة) عن ذلك بقولهم: أمر مفروغ منه أو أمر معطى) أنّها لها تأثيرها حتى من قبل أن تبدأ الملاحظة الإمبريقية التجريبية. ولذا فإنّ فرصة المخاطرة بأنّ الباحث سوف يلجأ إلى الصور النمطية الثابتة تصبح نسبتها عالية. ومن هنا فمن المستحسن:

> **ألا يتم إجراء أية افتراضات تخص دوافع ونوايا وأغراض المشاركين؛ ولا حول آرائهم، وأفكارهم، وتفاهماتهم؛ ولا حول حالاتهم المزاجية، وعواطفهم، ومشاعرهم بقدر ما يمكن أن يظهر ذلك بوضوح أنّها أشياء يلاحظها المشاركون أنفسهم، ويهتمون بها ويتوجهون إليها في سياق تفاعلاتهم.** *(psathas,1995:47)*.

على سبيل المثال، لا ينبغي التأكيد مسبقا على حالة ومكانة، وسلطة ونفوذ العمال الاجتماعيين على أساس المتغيرات المستقلة التي وُضعت لهم من قبل. والأحرى أن يتم معرفتها عبر دراسة الأثاث وحيز المكاتب التي يشغلها هؤلاء الفاعلون، والمسئوليات الملقاة على عاتقهم، ووجودهم في الاجتماعات المهمة، والاهتمام الذي يوليه الآخرون لآرائهم، ومدى تطبيق توصياتهم، وما إلى ذلك. لذا

ينبغي تحديد أدوات الموقف المتشعبة والأدوات الرمزية طبقًا للموقف[٢]، وذلك لأنّ البنية الاجتماعية لا تنفصل عن الموقف: "فالمواقع والأفعال مرتبطة ببعضها ارتباطًا لا ينفصم". "والأعمال والتصرفات الاجتماعية تقود شئون النظام الاجتماعي". *(Sharrock and Button K 1991:171)* ومع أنّ البنية الاجتماعية والأعمال والتصرفات مرتبطة بشدة ببعضها بالنسبة لعلماء الاجتماع، فعلى الإثنوجرافي أن يتجنب من البداية إقامة هذا الافتراض. وهذا يعني من وجهة النظر الميثودولوجية تجنب:

> **اصطلاحات من أمثال، "مكتب الطبيب"، أو "قاعة المحكمة" أو "قسم الشرطة"، أو "حجرة الدراسة" بغرض وصف المواقع والأماكن وتمييزها... (الأمر الذي) يمكن أن يُعتِّم ويُشوِّش كثيرًا على ما يحدث داخل نطاقها... إذا ما كشف المشاركون أنفسهم توجها لسياقات مُؤسسية أو سياقات أخرى** *Maynard and Clayman, 1991: 406 -7)*.

ولأنّ "الميدان"... في حد ذاته يخضع لآليات انضباطية" *(Turner: 13)* تُستخدم في اختبار الأفراد والجماعات، فمن الضروري أولاً تحديد مجموعة الملامح اللصيقة بالمكان، الطارئة والمشروطة والنابعة من الموقف والموقع، وهي التي تشكل مواقع وأماكن الدراسة، ويضعها بعد ذلك فقط في إطار مؤسستي ويجعل مواقع وأماكن أخرى تتفاعل معها.

١٠ - ٨ ملاحظات ختامية

يدفعنا منظورنا المتمركز على الناحية الإنسانية دائمًا أن نُركز في المقام الأول على المشاركين في البحث ثم نركز بعد ذلك فقط على سياقات أعمالهم. وهذا هو السبب الذي كثيرا ما يجعل أعمال العمال الاجتماعيين مشحونة أكثر مما ينبغي بالمقاصد والاهتمامات والدوافع. ونحن نحتاج أن نعكس اتجاه هذا المنظور ونقلل

من التركيز على العامل الإنساني، كما اقترح جوفمان من قبل بجملته الشهيرة: "ليس... الرجال ولحظاتهم. الأحرى اللحظات ورجالها" (١٩٦٧: ٣). وبتغيير منظور ملاحظتنا سنبدأ في ملاحظة الأثاث والأشياء التي من صنع الإنسان ونتاج براعته، والتقنيات وأشياء أخرى كثيرة أهملناها من قبل. هذا سوف يسمح بإعادة التوازن لتحليلاتنا، وتطابق وتناسق أفضل بين العوامل الإنسانية البشرية والعوامل غير البشرية.

النقاط الرئيسية

- عند ملاحظة الإثنوجرافيين للأفعال، ينبغي عليهم أن يُركّزوا على ثلاث نواحٍ موجودة باستمرار وفي نفس الوقت في المشاهد والمواقف الاجتماعية: الأبنية الاجتماعية، وترجمات / تفسيرات الحس المشترك الذي يظهره المشاركون خلال أحاديثهم، وسياق الحدث.
- في الإثنوجرافيا المُوجهة بالفينومينولوجيا، الذي نعنيه في الأساس باصطلاح الأبنية هو العادات والتقاليد الاجتماعية التي توجه الإجراءات الروتينية المتبعة عادة.
- ويمكن دراسة هذه الإجراءات المتبعة بثلاث نقاط رئيسية:

(١) البدء من الأنشطة، وهي منفصلة ومُصنّفة.

(٢) مواصلة العمل بطريقة عكسية، وذلك بالبدء من مفهوم رئيسي لتنظيم أو مؤسسة معينة، ثم ملاحظة كل الأنشطة التي تدور حولها.

(٣) اختيار واتباع مشارك معين أو هدف مُعين وترك عمله يحدد حدود سياق الملاحظة.

- ملاحظة السلوك والتصرفات أمر مهم جدا؛ لكنّ الملاحظة في حد ذاتها قد تكون مُضللة بدون الإنصات المصاحب لهذه التصرفات التي يتم ملاحظتها، أو الذي يسبقها، أو الذي صاحبها أو يليها.

- ومن أجل هذا فإنّ لتحليل حديث المشاركين أهمية موازية.

- يتطلب الفهم الكامل للأفعال / الأحاديث (أو الأحاديث - الأفعال إذا شئنا) بعدا ثالثًا وهو: السياق. إنّ الممارسات الاجتماعية ممارسات قائمة في مواقع وأماكن معيّنة دائمًا، من حيث إنّها تحدث في مواقف مرتبة ومنظمة تشمل نسقًا من موارد للفعل كما تشمل قيودا تُفرض عليه.

- تؤدي التجهيزات والأثاثات أدوارًا مهمة في بناء التفاعلات.

- ليست الأثاثات والمفروشات وحدها هي التي تقدم مصادر للعمل وتضع قيودا عليه، لكنّ الأشياء التي من صنع الإنسان ونتاج براعته تقدم هذه الطقوس أيضا. يتم التوسط للتفاعلات في المجتمعات التكنولوجية جدا من أمثال مجتمعاتنا عن طريق الأشياء التي من صنع الإنسان ونتاج براعته: وهي لا تدعم التصرفات فقط،، إنما هي تنشئها وتبنيها وتحددها وتكيّفها.

- ويتطلب تصوير الطقوس والإجراءات المتبعة عادة بشكل تام وبدقة بالغة استخدام الرسوم، والصور الفوتوغرافية، وشرائط الفيديو.

- إضافة إلى المواقع والأماكن، من الواضح أنّه يوجد أيضًا سياقات أدوات الموقف المتشعبة: التنظيمية أو المؤسساتية، والمعيارية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية.

- ومع ذلك، فعندما يبدأ التحليل، فمن المستحسن من الناحية الميثودولوجية ألا ندرس هذه الأماكن والمواقع ونتركها في الخلفية، حتى لا نقدم تفسيرات محددة مقدما.

نظرية الشبكة – الفاعل: هذا منهج مميز للنظرية والبحث الاجتماعي الذي نشأ في مجال الدراسات العلمية. وهو يعتبر أنّ كل عناصر الشبكة، البشرية منها وغير البشرية، يمكن وينبغي أن تُصور أو توصف بنفس المصطلحات. ويُسمى هذا بمبدأ التماثل أو التطابق المُعمم للإثنوجرافيين.

الأشياء أو الأغراض التي من صنع الإنسان ونتاج براعته: هي أشياء تؤدي أعمالنا بها أو تدعم وتدفع قدراتنا وطاقتنا وتُكملها. وتقوم هذه الأشياء بدور الوسيط للتفاعلات بشكل متزايد في المجتمعات ذات التكنولوجيا العالية، ويوجد ثلاثة أنواع منها، وهي: تكنولوجية، ومعرفية وتنظيمية.

المصفوفة الشرطية: هي رسم بياني يصور المواقع السبعة أو المستويات المختلفة التي يحدث فيها الفعل، وهي: (١) التفاعل، (٢) الجماعة، (٣) المستوى التنظيمي أو المؤسسي الفرعي "المساحة المادية"، (٤) المستوى التنظيمي أو المؤسسي "البنية المعيارية"، (٥) المجتمع الذي يكون التنظيم أو المؤسسة جزءًا منه، (٦) المستوى القومي للقانون والاقتصاد، وأخيرًا (٧) المستوى الدولي.

الرمزية التنظيمية: المنهج النظري الذي يدرس جماليات "وصف وتفسير الظواهر الفنية والتجربة الجمالية بواسطة علم النفس وعلم الاجتماع التنظيمات والمؤسسات وكيف يعطي الأثاث معنى للأعمال والتصرفات.

أنثروبولوجيا الفـــراغ (الحيز): دراسة التقدير للبشر واستخدام الفراغ (الحيز). والذي قدم هذا المصطلح هو إدوارد تي. هول *Edward T. Hall* عام ١٩٦٣.

الفعل الموقفي: الأنشطة المعرفية ليست تفكيرية وعقلية فقط: ولكي يتم أداؤها، تتطلب بالضرورة أنواعا من الدعم المادي الملموس الذي ينتهي بتوجيه عملية التفكير.

اللقطة الوصفية السريعة: وصف فينومينولوجي حاد وشبه موضوعي من نوع اللقطة الفوتوغرافية للفعل. على سبيل المثال، "شخص٣ يضع يده على كتف شخص آخر".

اللقطة الوصفية العميقة: وصف يفرز معنى الفعل الذي تتم ملاحظته. ولاستكمال المثال السابق نقول، "القيـــام بإيماءة أو لفتة (أ) محبة، (ب) أو حـــب، (ج) أو راحـــة، (د) أو تحـــرش جنـــسي، (هـ) أو مصـــادقة أو مرافقة".

الإثنوجرافيا البصرية: دمج بين منهجية البحث الوثائقي ومنهج البحث الإثنوجرافي. تُجرى الأبحاث الإثنوجرافية باستخدام وسائط الإعلام البصرية والصور الفوتوغرافية واللقطات الفيلمية، ولكي توثق التحليل أيضا على نحو بياني نابض بالحياة.

توصية بقراءة

بالنسبة للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد:

.Tuchman, Gaye (1972)

بالنسبة للخريجين

Heath, Christian (2004)

بالنسبة للمتميزين ممن يجرون البحوث:

Callon, Michel (1986)

اختبار تقييم ذاتي

هل أعددت نفسك للباب التالي؟ راجع معلوماتك ومعرفتك بالإجابة عن الأسئلة التالية ذات النهايات المفتوحة:

١. ادرس المقتطف من رواية بريمو ليفي ***Primo Levi*** "لو أنّ هذا رجل؟". لماذا يمكن أن يكون مثل هذا الشيء غير المهم ظاهريا مثل الحذاء نقطة بداية هامة للملاحظة؟

٢. ماذا يعني القول أنّ اللغة (الكلام أو الحديث) "قول له مكانه وموقعه"؟

٣. لماذا تكون قطع الأثاث موردا للعمل والتصرف وتقييد عليه؟

٤. ما الشيء أو الأغراض المعرفية التي من صنع الإنسان ونتاج براعته.

٥. لماذا يكون الأعضاء من مملكة الحيوان، والخضروات، والمعادن (ما تسميه *ANT* "فاعلون من غير البشر" بهذه الدرجة من الأهمية في دراسة العمل الاجتماعي؟

هامشان

١ - من أجل مناقشة لتميز رايل *Ryle*، انظر: *Geertz, 1973: 6 – 7*.

٢ - هــذا التحــذير المنهجي تحذيــر متكرر في المناقشة العامة عن رابط الضخامة أو الطــول أو الامتداد (في مقابل الصغر أو الدقة أو القصر).

الفصل الحادي عشر

إجراء المقابلة الإثنوجرافية

الأهداف التعليمية

- معرفة الخصائص الرئيسية للمقابلة الإثنوجرافية.
- فهم نقاط الضعف ونقاط القوة فيها.
- تعلّم كيفية إدارة مقابلة إثنوجرافية.
- إدراك أنّ نتائجها مشاركة مهمة في بناء البحث.

١١ - ١ مقدمة

إنّ الخاصية التي تُميّز الإثنوجرافيا عن مناهج البحث الأخرى هي استخدامها للملاحظة باعتبارها المصدر الرئيسي للمعلومات حول الظواهر الاجتماعية (انظر ٢ - ٤). ومع ذلك، فليس معنى هذا أن نلغي أو نستبعد أنّ الإثنوجرافي قد لا يستخدم أحيانًا مناهج بحث أخرى، ما دام هدفه توضيح نواح لا تنجح الملاحظة وحدها في جعلها سهلة الفهم والاستيعاب بشكل تام. وعلى هذا فقد يجري الباحث مقابلات، وينظم جماعات بؤرية" (*Agar and MacDonald, 1995*)، ويجمع ويحلل وثائق تقدمها المؤسسة أو التنظيم، أو ينسخ ويدوّن المحادثات اليومية أو تبادل الألفاظ فيما بين الفاعلين. وهناك منهجيتان أخريان كثيرًا ما يستخدمهما

الباحثون الإثنوجرافيون، وهما: إجراء المقابلات التفاعلية، وتحليل الوثائق. على سبيل المثال. يروي لنا بيكر **Becker** أنّه عندما كان يناقش دراسته عن موسيقي الرقص لدى المحترفين، "نادرًا ما أجريت أية مقابلات رسمية، لكنّي ركّزت بالأحرى على استماع وتسجيل الأنواع العادية من الأحاديث التي كان الموسيقيون يتداولونها" (*1951/1963: 84*).

وبالتالي، فعندما تُستخدم هذه المناهج كجزء من دراسة إثنوجرافية، فإنّها تؤدي دورًا إضافيًا مساعدًا فقط، بمعنى أنّ الباحث يلجأ إليها بغية الحصول على معلومات أو بيانات إضافية. وعلي عكس ذلك، نجد أنّ البحث الذي يستخدم منهجية المقابلة التفاعلية، أو منهجية المسح قد يستفيد من منهجية الملاحظة الإثنوجرافية.

ولقد تم التوسع مؤخرًا في اصطلاح "المقابلة الإثنوجرافية" مثلما تم التوسع أيضا في اصطلاح "الإثنوجرافيا".

في بحوث التسويق، مثلاً، يشير تعبير "المقابلة الإثنوجرافية" عامة إلى ممارسة إجراء مقابلة مع شخص في بيته، أفضل من مقابلته في الوكالة التجارية. ومع ذلك، وفي ضوء المواضيع التي عالجناها آنفا، لا يمكن أن تُعتبر هذه الممارسة إثنوجرافيا بشكل معقول، لكنها أحد متغيرات المقابلة الخطابية التفاعلية (انظر ٢ – ٤). إنّ إجراء البحث الإثنوجرافي معناه البقاء في ميدان البحث أكثر من ساعتين.

١١ – ٢ المقابلة التفاعلية في سياقات الإثنوجرافيا

"المقابلة الإثنوجرافية" نوع خاص من المقابلة التفاعلية، ويجريها الإثنوجرافي أثناء مواصلة إجراء بحثه في الميدان (*Spardley, 1979*). والغرض منها الكشف عن المعاني الثقافية التي يستخدمها المبحوثون، والبحث والتحري عن نواحي الثقافة التي يتم ملاحظتها، والتي تكون لا تزال غير واضحة أو مبهمة برغم أنّها كانت موضع ملاحظة مباشرة ودقيقة.

دراسة حالة

العقاب في المدرسة

في دراسة عن التعليم في المدارس، لاحظ كل من ميهان *Mehan*، هيرثويك، *Heerthweek* وميلس *Meihls (1986: 80)* أنّ مدرسة عاقبت ولدا لأنّه صفع أحد زملائه وهو يداعبه. لكنّ سلوكا مطابقا لهذا في مناسبات أخرى لم يوقّع عليه أي عقاب. لماذا لم يحدث عقاب في المرات الأخرى؟ أجرى ريهان مقابلة مع المدرسة، وعرض عليها الفيلم الذي كان قد سجله للحدث في حجرة الدراسة. وكشفت المقابلة عن أنّ المدرسة تصورت موقفين حول "لعبة لغوية" تتضمن الصفع باليد بدعابة: أحدهما أثناء الحصص الدراسية، والأخرى أثناء الفسحة. وقالت إنّ الصفع في الحالة الأولى يُعاقب عليه، أمّا في الحالة الثانية فهو مسموح به ولا يُعاقب عليه. وهكذا ساعدت المقابلة الإثنوجرافية الباحث على فهم معان وتفسيرات لا يمكن ملاحظتها أو إدراك مفهومها بشكل مباشر (انظر أيضا ١٤ - ٤).

تختلف المقابلات الإثنوجرافية عن المقابلات التفاعلية من عدة نواحٍ. أولاً، في المقابلة الإثنوجرافية، يعرف من يجري المقابلة ومن تُجرى المقابلة معه بعضهما البعض من قبل إجرائها، وسبق أن تكلم كل منهما مع الآخر. وهذا يحدث مناخا وجدانيا عاطفيا بينهما. ثانيا، المقابلات الإثنوجرافية لا يُحدد جدول أو برنامج لها عادة، لكنها تعقد دون تحضير لها أثناء جريان الملاحظة المشاركة. ثالثا، تكون المقابلات الإثنوجرافية في غالب الأمر أقصر زمنا من المقابلات التفاعلية، كما أنّها تركز أكثر من غيرها على موضوعات محددة. ربما يطرح الباحث قليلا من الأسئلة المختصرة حول مشهد لاحظه كي يفهم أسباب

حدوث ردود فعل معينة، أو عن معنى رد فعل أو لفتة معينة. وأخيرًا، فإنّ الباحث يقل اهتمامه بتحقيق هدفه المعرفي في مقابلة واحدة فقط، لأنّه يمكن حل مشاكل الشكوك، والحالات الغامضة وعدم التأكد من تفسيرات معينة في مقابلات تلي المقابلة الأولى خلال الفترة الزمنية التي يُجرى البحث فيها. يمكن استخدام المقابلة الإثنوجرافية التي تُجرى في البداية على أنّها إستراتيجية لكسب القبول، أو تُستخدم لإذابة الجليد، وخلق الثقة وعلاقة تعاونية مع أولي الأمر.

١١ - ٣ مزايا وعيوب المقابلات الإثنوجرافية

قد تكون المقابلة الإثنوجرافية ذات فائدة عظيمة للباحث. وقد تكون كذلك بالتحديد وخلال المرحلة الوسيطة للاستفهام والتحري، عندما يبدأ الإثنوجرافي بالتدريج في معرفة المخطط والرسم البياني الفكري للمبحوثين، وفي تحديد معاني الإجراءات التفصيلية الروتينية اليومية وأنواع السلوك؛ ثم أثناء التصديق على قبول الباحث في الميدان. ومع ذلك، فمن الأفضل للباحث بدلاً من ذلك في المرحلة الأولى للبحث، أن يركز على الملاحظة فقط، لأنّه قد يبدو عليه أنّه عدواني مع الفاعلين الاجتماعيين[١] وقد تضلله أوجه القصور الجوهرية الفعلية في المقابلات.

الفجوة بين الحالة المُعلنة للمبحوث وحالته الفعلية

أول هذه النواقص هي الفجوة التي كثيرًا ما تواجه الباحث بين *الحالة المُعلنة* لمن تُجرى معه المقابلة *وحالته الفعلية*. ويثير هذا مشكلة صحة البيانات وصدقها (انظر ١٤- ٦). قد تكون تقنية المقابلة مناسبة عندما تقترب الحالتان من بعضهما كما هو مفترض، لكنّ التقنية ليست لها فائدة بشكل خاص عندما يكون هناك قدر كبير من عدم التطابق بين الحالتين، لأنّ من تُجرى المقابلة معهم يكونون غير مدركين بأسباب قيامهم بأعمالهم وتصرفاتهم، وبنتائجها التافهة أو العادية أو الروتينية.

دراسة حالة

الرياضيات في الحياة اليومية

وهناك مثل لعدم الإدراك يقدمه باحثون في التربية: هويليس *Hoyles*، وناس *Nass*، وبوزي *Pozzi (2001)* ، وهم علماء في الرياضيات في أوضاع الحياة اليومية، أجروا بحثًا إثنوجرافيا لدراسة، من بين أشياء أخرى، الإستراتيجيات التي تستخدمها الممرضات والممرضين في عد جرعات الدواء التي يعطونها لمرضاهم. ولأنّ هويليس وزملاءه أرادوا أن يدرسوا هذه الإستراتيجيات بشكل مباشر، فقد دخلوا أجنحة المستشفى، وراقبوا الممرضات والممرضين وهم يعدون جرعات الدواء وطلبوا معلومات عن نوع الحسابات التي كانوا يؤدونها. وأجرى الباحثون ملاحظة على مجموعة من ١٢ من خبراء ممرضات الأطفال، تتراوح أعمارهم بين ٢٦ و ٣٥ سنة ولديهم خبرة لا تقل عن ثلاث سنوات عمل في الجناح. تمت ملاحظة كل ممرضة أو ممرض ما بين مرتين إلى سبع مرات، واستمرت دورة كل ملاحظة منهم من ساعة إلى ثلاث ساعات، ووصل مجموع ساعات الملاحظة إلى أكثر من ٨٠ ساعة. وبعد ذلك أجرى الباحثون مقابلات رسمية مع الممرضات والممرضين، واكتشفوا أنّهم استخدموا مجموعة كبيرة من إستراتيجيات حساب ضمني (مبنية إلى حد كبير على إجراءات أعداد نسبية) تختلف عن نظام الحلول الحسابية الخوارزمية الذي كانوا يتعلمونه خلال دوراتهم التدريبية. ومع ذلك، كان الممرضات والممرضون مقتنعين أنّهم استخدموا "حساب التفاضل والتكامل" الافتراضي الذي تعلموه في المدارس دون أن يدركوا أنّهم تصرفوا عمليا بشكل مختلف كثيرا.

إجراء المقابلات الإسقاطية

وبنفس الطريقة، فإنّ السؤال التقليدي، "صف ما تفعله عادة في كل يوم" المستخدم في الدراسات حول العمل. يغلب أن يتلقى إجابات نمطية مقولبة تحذف

الإجراءات التفصيلية الروتينية اليومية الجزئية أو التفاصيل الهامة التي يُبنى النظام الاجتماعي على أساسها (طبقًا لما يراه سيميل، وجوفمان، والإثنوميثودولوجيون). وفي هذا الصدد، اقترح شوتز أنّ على هؤلاء الذين يبحثون ويحققون في هياكل وأنماط الحياة اليومية أن يضايقوا باستمرار من يجرون المقابلات معهم بطرح أسئلة تفصيلية كتلك التي تُستخدم في المقبلات الفينومينولوجية: متى استيقظت هذا الصباح؟، ما أول شيء فعلته؟ هل حدث اليوم أي شيء غير متوقع؟ هل أكلت أي شيء؟ كيف اخترت الملابس التي ترتديها؟ ماذا قلت اليوم لأعضاء أسرتك؟ ولقد تم تدوين هذه الطريقة لجمع المعلومات عن الأمور الروتينية في التقنية المعروفة باسم، "المبحوث القرين".

دراسة حالة

المقابلة مع القرين

على سبيل المثال، استخدمت عالمة الاجتماع التنظيمي الإيطالية سيلفيا جيراردي *Silvia Gherardi* هذا النوع من المقابلات في البحث التنظيمي، وذلك في دراستين إثنوجرافيتين أجرتهما في مصنع للبطاريات ودار نشر كبيرة:

طُلب من الشخص الذي أُجريت المقابلة معه أن يتصور أن من أجرى معه المقابلة نسخة مطابقة له (وكأنّه قرين له) وأن يعطيه كل المعلومات التي يحتاجها ليتولى القيام بوظيفته في اليوم التالي دون أن يلاحظ أي شخص حدوث هذا التبديل. كان من المفترض أن يكون لدى الطرفين نفس القدر من المعلومات حول إجراءات العمل (بعد المرحلة الأولى من البحث)، وبالتالي يكون القرين لديه المعلومات التقنية اللازمة، لكنه يجهل البيانات العلائقية التي كان يحتاجها كي

ينتحل شخصية العضو الكُفء والقدير في المجتمع. لم يتدخل من أجرى المقابلة (أثناء المقابلة) أو يعترض على شيء... وفي نهايتها سأل من أُجريت معه المقابلة أن يقدم قائمة بأهم التعليمات للباحث القرين. وكان الهدف إعطاء من تُجرى المقابلة معه مهمة... يمكن أن تُحفِّزه على تفسير تلك المهمة، ويهيكلها، ويقدّم نفسه وخطابه ومحادثته طبقًا لنظام الأسبقية عنده (*1995: 13 - 14*).

الفجوة بين الاهتمامات المعرفية للباحث ومن تُجرى معهم المقابلات.

والعيب الثاني في المقابلة مُستمد من الفجوة بين اهتمامات وممارسات الباحث، واهتمامات وممارسات من تُجرى المقابلة معهم. أحيانًا يجد العمال الاجتماعيون صعوبة في فهم الغرض من أسئلة الإثنوجرافي، لدرجة أنّ إجاباتهم تظهر تعجبًا وإحراجًا وارتباكًا معينًا، أو سخرية من الإثنوجرافي كإنسان غريب الأطوار.



درس مورمان *Moerman* (*1974*)، عالم الأنثروبولوجيا واللغويات الأمريكي لهجة اللو *Lue* أو لغتهم المحلية (وهم أحد شعوب تايلاند). يروي أن

سؤال، "من هو اللو؟" أو "ما السلوك السليم عند أي فرد من اللو؟" الذي طالما سأله للسكان المحليين هناك كان يفاجئهم ويأخذهم على غرة لأنّ كل سؤال منهما كان يتطلب تعريفا كان السكان المحليون يعتقدون أنه واضح لهم تماما، وبالتالي فهو غير متصل بالموضوع. بمعنى آخر، لم يستطيعوا أن يقولوا من هو اللو، مع أنّهم كانوا يعرفون كيف يتصرفون كما يتصرف أي فرد من اللو.

دراسة حالة

إجراء مقابلات مع أميين

وبالمثل، في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي، عندما أجرى عالم النفس الروسي أليكساندر آر. لوريا ***Alexander R. Luria (1902 – 1977)*** ومساعدوه مقابلات مع الفلاحين الأميين من أوزبكستان ***Uzbekistan***، وهو إقليم في آسيا الوسطى كان من بين أقاليم الاتحاد السوفيتي السابق[٢]، أدركوا أنّه عندما كانت الأسئلة التي كانت تتطلب "تجريدا، أو تعميمًا، أو تصورًا وخيالاً"، توضع في مواضيعهم، لم يستطيعوا تقديم تعريفات، بل كانوا يقدمون فقط أوصافا لتفاصيل واقعية ملموسة. وتجاوبوا بنفس الطريقة مع الأسئلة ذات "التحليل الذاتي":

المبحوث: موزا شيرال، العمر خمسة وخمسون... أمي.

... حسنًا، صف لنا شخصيتك.

"أنا شخص طبيعتي جيدة جدًا. حتى لو أنّ هناك شابا يقف أمامي، فإنّي أستخدم أسلوب التخاطب المهذب وأتحدث معه بكياسة... أنت عليك أن تفهم كل شيء، وأنا لست مطالبا بذلك".

مع ذلك، هل لديك أوجه قصور "أو نواقص"؟

"لدي الكثير منهما: الطعام، الملبس، كل الأشياء".

(*Luria, 1974, transl. 1976: 14 8 - 9*).

حدود الذاكرة البشرية

ويكمن موطن الضعف الثالث في المقابلة في حدود الذاكرة البشرية. فكما رأينا في ٥ - ٢ فيما يخص إجراءات التذكر واستدعاء المعلومات، إنّ للناس قدرات محدودة على التذكر، ونتيجة لذلك، وكما سيعرف العلماء والباحثون الذين يستخدمون طريقة تاريخ الحياة في كتاباتهم، ليس من الحكمة التأكيد أكثر من اللازم على جمل ذكرها المشاركون على أنّها شواهد واقعية حقيقية أو إخبارية. في الحقيقة، قد يخفق الإثنوجرافي لو اعتبر ذاكرة الإخباري مستودعًا أو قاعدة بيانات يمكن الاعتماد عليها كلما رغب في ذلك. تلك هي وجهة النظر عن الذاكرة التي سادت في علم النفس المعرفي حتى الآن، ولكنّ وجهة النظر هذه تنكرها وتنفيها حقيقة أشار إليها الإثنولوجي الإيطالي جيورجيو آر. كاردونا (*Giorgio R. Cardona 1943- 1992*).

إنّ الإخباريين أو الرواة الذين يعرفون مئات النباتات بثقة وقناعة كبيرة، ويظهرون بوضوح أنّهم يحتفظون بأسمائهما جميعًا في ذاكرتهم عند عقد المقارنات، تجد أنّهم (خلال المقابلات) غير قادرين على ذكر ثمانية أو عشرة أسماء لنباتات في صف واحد (*1985: 25*).

إنّ المفهوم العقلي الذي تطور من خلال الدراسات التي تركز على النظرة العقلية وعمليات التفكير، التي نشأت من خلال علم النفس المعرفي. هذا المفهوم

يرى أنّ الذاكرة نتاج عملية تحدث في رؤوس الناس. ولكنّ هذا معناه التغاضي عن حقيقة، وكما أشار العالم المعرفي الأمريكي دونالد إي. نورمان ***Donald A. Norman***:

> **إنّ الكثير من معارفنا اليومية يكمن في الدنيا، وليس في الرأس... والناس تعتمد بالتأكيد على وضع ومكان الأشياء، على نصوص مكتوبة، وعلى المعلومات التي يحتويها أشخاص آخرون، وعلى الأشياء الموجودة في المجتمع التي من صنع الإنسان ونتاج براعته، وعلي المعلومات المنقولة له من خلال الثقافة وبواسطتها. وهناك بالتأكيد قدر كبير من المعلومات موجود في أنحاء العالم، وليس في الرأس (*1988: 19*).**

التذكر بالتالي نشاط مشروط، شكل من أشكال التفكير والاستنتاج العملي. وبدقة أكثر، هو نتيجة التفاعل بين المعرفة الموجودة في الذاكرة كمخططات عقلية وفكرية (معرفة مُخططة) ومعرفة موجودة في الموقف الاجتماعي المحدد للمقابلة (معرفة حالة) (***Cicourel, 1988: 908***). وكنتيجة لذلك، يجب أن تكون المعلومات التي يجمعها الإثنوجرافي موضوعة في سياق أو إطار معين، ويجب أن تتم مساعدة الإخباريين والفاعلين الاجتماعيين على تذكرها.

معنى المقابلة

والعيب الرابع للمقابلة مستمد من الأهمية التي ينسبها من تُجرى المقابلة معه للمقابلة. لـو أنّ البحث تـم بتكليف من مؤسسة خدمة اجتماعية، أو بلدية مدينة ما، أو شركة تابعة لهيئة عامة تقدم خدمة ما، ربما تصور من تجري معه المقابلة (لاسيما إذا كان يتعرض لمشكلة معينّة)، أنّ الإثنوجرافي شخص لديه القدرة على تحسين موقفه. ومن هنا فربما يرد المشاركون على أسئلة تنسب إطار مرجع

للمقابلة يختلف عن الإطار الذي ينسبه الإثنوجرافي لها. ونتيجة لذلك، فإنّ إجابات الممثل للرد على الأسئلة (مفهوم الرغبة في الحصول على شيء معروف جيدًا) لن تكون نادرة الحدوث، أو إجابات المقصود منها إرضاء الإثنوجرافي الذي يجري المقابلة لإنجاز الغرض منها. بمعنى آخر، يُكوّن المشارك فكرة معينة عن الباحث قد تُحدد وتكيّف إجاباته لمدى أكبر أو أصغر بشكل واضح عما يريده الباحث (من أجل دراسة حالة عن هذه المشكلة - بالنسبة لباحث أبيض اللون – لدى إجرائه مقابلة مع طفل أسود اللون، ادخل على الرابط ***www.sagepub.co.uk/gobo***.

ولكي نختتم هذه النقطة نقول إننّا لا ينبغي أن نتوقع من المقابلة التفاعلية المباشرة أن ينتج عنها ما لا تستطيع أن تفرزه. إنّها تفيد (لكن لحد معين فقط) في تذكر أحداث عن الماضي يكون الباحث لم يلاحظها على هذا النحو بشكل مباشر. ويمكن أن تساعد في تعريف وتحديد أنماط الأفكار، والخطط أو الفئات الثقافية والمعاني المشتركة (*McMracken, 1988: 7*). وأخيرًا، يمكن للمقابلة أن تُمكّن الباحث من إعادة هيكلة نماذج الخطاب أو المحادثة، وأنماط الكلام والتركيبات اللغوية المستخدمة في الجدال والمناقشة. لكنّ فائدتها قليلة في وصف الإجراءات التفصيلية الروتينية اليومية والعادات، وقواعد السلوك والتصرفات، أو في إعادة هيكلة عمليات اتخاذ القرار. تكون المقابلات الإثنوجرافية مفيدة فقط كرواية أو سرد لما حدث للمشاركين وليس كتقرير عن الحقائق (***Atkinson and Coffey, 2001***). وتكون المقابلة التفاعلية المباشرة مناسبة في حالة التحري عن الحالات المُدركة، والمعلومات الواضحة الصريحة، والإجراءات الاجتماعية التي يستحوذ من تُجرى معه المقابلة على قدر كبير من معرفتها. ولكن، وكما ناقشنا هذه النقطة من قبل في ٢ – ٤، عندما يتركز اهتمام الباحث على العمل، يصبح من الصعب تصور أي بديل صالح للملاحظة.

١١-٤ إجراء المقابلات

قد يختار الإثنوجرافي من يجري معهم المقابلة بطريقتين مختلفتين: بالاتصال بالمشاركين حول مشهد محدد تمت ملاحظته من قبل، أو بالاتصال بأعضاء من المجتمع الصغير الذي تجري دراسته. في الحالة الثانية يستطيع الإثنوجرافي استخدام إجراءات عينات متطورة رفيعة الثقافة بشكل أو بآخر (انظر ٦ - ٤) طبقًا لمتطلبات البحث الذي يجريه (من أجل دراسة حالة حول إجراء بحث عن الديانات الجذرية الأساسية، ادخل على الرابط www.sagepub.co.uk/gobo)

وهناك حيلة أخرى وهي جعل كل مهمة معرفية (يفرضها السؤال) مألوفة بقدر الإمكـــان لمن تُجـــرى معـــه المقابلـــة. وباستثنـــاء مهنيين معينين (أطباء، أو صحفيون، وعمال اجتماعيون على سبيل المثال) فإنّه تحدث مقابلات مع معظم الناس بشكل نادر جدًا في حياتهم. ونتيجة لذلك، فإنّ محاولة تحويل ما هو تفاعل "غير طبيعي" بشكل جوهري فعلي إلى تفاعل "طبيعي" قد تبدو محاولة متناقضة وغير معقولة، وربما تكون مستحيلة. وتُعتبر الإستراتيجيات التي يستخدمها لوريا *Luria* إستراتيجيات تُوضح هذا المفهوم:

> **وعُقدت هذه المحادثات كثيرًا في مجموعات؛ وحتى في مقابلات مع شخص واحد فقط، وشكّل من يجري التجارب والتابعون الآخرون له مجموعة من شخصين أو ثلاثة، يستمعون جميعًا بانتباه، وأحيانًا يقدمون ملحوظاتهم. وكثيرًا ما أخذت المحادثات شكل تبادل آراء بين المشاركين... وبالتدريج فقط قدّم من يجرون التجارب المهام المُعدة، والتي كانت تشبه "الألغاز" المألوفة لدى السكان، وبالتالي بدت امتدادًا للمحادثات (*1974, transl.1976: 16*).**

ينبغي أن يتم تسجيل المقابلات كلما كان ذلك ممكنا، أولاً لأنّ جهاز التسجيل له ميزة لا شك فيها وهي تقديم وثيقة يمكن الاعتماد عليها أكثر من غيرها، وثانيا لأنّ الإثنوجرافي يكون غير محتاج أن يدون ملاحظات أثناء المدة التي يتكلم فيها من تُجرى معه المقابلة، وبالتالي فهو يركز بدقة أكثر على حديث المشارك.

يجب أن يتم أيضا تكرار طلب استخدام جهاز التسجيل، ولكن بشكل عرضي، كما لو كان هذا الطلب أمر طبيعي تماما. وقد لاحظ محللو المحادثات أنّه عندما يتم هذا الطلب بشكل مهذب وغير متوقع، فإنّه تتم الاستجابة له في معظم الحالات (تنسيق التفضيل)؛ فهذه إحدى الخصائص البنائية للمحادثة التي تهدف إلى المساعدة على الحفاظ على التضامن والتكافل الاجتماعي هيريتيج *(Heritage. 1984: 269)* على أية حال، ينبغي دراسة استخدام جهاز التسجيل بكل حرص قبل البدء في هذه الدراسة، لأنّ من تُجرى المقابلات معهم يميلون إلى مراقبة محادثاتهم أثناء تسجيلها.

١١-٤-١ الأسئلة النابشة (السابرة)

ليس المقصود من كل الأسئلة هو الحصول على المعلومات. قد يرفق من يجري المقابلة أسئلة نابشة بسؤاله الأساسي، ويمكن استخدامها دون مقاطعة المحاور (*Spradley, 1979*). والأسئلة النابشة لها وظائف منوعة: (أ) تشجيع من تُجرى معه الملاحظة على الكلام؛ (ب) تعطيل دفاعاتهم؛ (ج) مساعدتهم على توضيح ما يقولونه؛ (د) التأكد من أن الإثنوجرافي قد فهم إجاباتهم بشكل صحيح؛ (هـ) دفع من تُجرى معه المقابلة على التوسع في الإجابات النمطية وإتقانها. وقد تكون الأسئلة النابشة لفظية، أو شبه لفظية (صيغ تعجب أو عبارات اعتراضية من أمثال: مم، آه، أوه *"mm", "ah" , "uh"*)، أو غير لفظية، تعبيرات جسدية

كايماءات الرأس أو الابتسامات. هناك أنواع متعددة من الأسئلة النابشة، ويمكن ملاحظة البعض منها في التفاعلات اليومية:

- *إعادة صياغة السؤال* إذا لم يكن من تُجرى معه المقابلة قد فهم السؤال.
- *التعليق* ("آه"، "شيء شيّق"، "حقيقي!")، وهذا يوضّح ويبرز المشاركة والاهتمام بما يرويه الضيف، ويحفّزه على مواصلة الاشتراك في المقابلة.
- تكرار *الإجابات* لتشجيعه (أو تشجيعها) على الاستمرار مع وصفه لما يقول.
- *الموجز أو الملخص* (إذن أنت تقول إنّ...) وهذا يقدم فـ تفسير الإثنوجرافي لما يعنيه الضيف، وبذلك يمكنه تصحيح الإثنوجرافي لو لزم الأمر.
- *طلب التوضيح* (بأي معنى؟، "ماذا تقصد بقولك...؟" "هل يمكنك تفسير... بشكل أفضل قليلاً) الهدف منها تعميق موضـوع مـا، وفهم تعـريف ما بشكل أفضل؛ أو توضيح اصطلاح استخدمه المبحوث.
- التحكـم والسيطرة بتقديم موجز متغير أو مُبدل أو غير دقيق للمبحوث، أو بالادعـاء بأنّه أسـاء فهـم الإجابات، وبهذا يدفعه إلى تأكيد ما قاله أو مراجعته وتعديله. افعل ذلك فقط مع المعلومات المهمة، ولا تكثر من هذا؛ وإلا سيعتقد المبحوث أنّك أحمق أو أبله !

ينبغي أن تكون الأسئلة متوازنة من حيث الشكل. بمعنى آخر، لا ينبغي أن تحتوي بالفعل على رأي أو عدة آراء (هل تعتقد أنّ المدير صاح في السكرتيرة لأنّه فقد أعصابه أو لأنه أراد أن يوبّخها أمام باقي الموظفين؟) ولا ينبغي أن يتم تصميمها بحيث ينتزع أو يستنبط إجابة مُعينة أخرى (أسئلة إيحائية). وينبغي أن يحرص الإثنوجرافي أيضا على تجنب "مفاتيح"، أي التعبيرات التي تحدد وتكيّف إجابات من المبحوثين. وينبغي أن يدير الوقفات، وحالات السكوت عن الكلام

بحكمة، ولا يقوم بأي منهما بتسرع كما لو كان يزيل سببا من أسباب الإحراج، وذلك لأنها قد تعطي المبحوث لحظة يراجع فيها أفكاره ويُجمّعها. والسكوت تصرف أيضا (انظر أيضا: *Raley, 2004* بخصوص مسألة النسخ بحرص).

وعند صياغة الأسئلة، من الأفضل عدم استخدام المصطلحات المأخوذة من لغة الإثنوجرافي الاصطلاحية العلمية (الدافعية، الهوية... إلخ.)، وبدلاً من ذلك عليه معرفة واستخدام لغة المبحوث الخاصة من البداية بقدر الإمكان. وينبغي منح أفضلية للأسئلة التي تركز على وصف الإجراءات الاجتماعية ("كيف؟"). وعندما يبدي المبحوث ارتباكا أو صعوبة في التعبير عن حالاته الداخلية (الأحاسيس، والعواطف، والآراء) وهو يكشف للباحث عن نفسيته الودية الحميمة، فمن المستحسن أن يطلب منه وصفا للحالات النفسية الداخلية لزملائه، وبهذا الشكل فهو يحثه ويقنعه بعملية الإسقاط (التنبؤ)[٣].

وإذا كان الغرض من البحث أنثروبولوجيا بشكل ملحوظ، هو إعادة بناء "المجالات الثقافية" (*Spradely,1980: 102*)، فقد يستخدم الإثنوجرافي أسئلة تناقض ثنائي تكاملي (*1980: 125*) - على سبيل المثال "ما الفرق بين المدرس والعالم الاجتماعي؟" - أو أسئلة ثلاثية (*1980: 126*) مثل: إذا تحادثت مع طبيب، وممرضة، وأخصائي في علم النفس، أي اثنتين من المحادثات الثلاث تتشابهان أكثر، وأيهما تكون أكثر اختلافا عن الأخرى؟"

وينبغي أن نضع في اعتبارنا أنّ الأسئلة "تحركات وتنقلات" دائمة (*Goffman, 1976: 24*) بمعنى أنّها إجراءات حقيقية ومناسبة وصحيحة وتحتل مواقف في تبادل تفاعلي، ولها تأثيرات براجماتية واقعية طبقًا للتفسير الذي يعطيه لها من تُجرى معه المقابلة. بمعنى آخر لا يمكن أن تكون الأسئلة إخبارية فقط مطلقا، لكنّها قد تُفسر على أنّها محاولات للنبش والتجسس، كأنها إجراء يتسم

بالوقاحة والغطرسة، وغزو لخصوصيات الناس، أو أنواع من نقد لطقوس المجتمع وعاداته.

١١-٥ ملاحظات ختامية

المقابلة الإثنوجرافية منهجية وراءها تاريخ طويل. في الواقع، كان أعضاء من أول مدرسة في شيكاغو يستخدمونها لفهم وتوضيح المعاني التي لا يمكن فهمها عن طريق الملاحظة وحدها مباشرة. ومع ذلك، ينبغي أن نتذكر، كما يؤكد المنهج النسوي ومنهج ما بعد الحداثة، أنّ ما ينبثق عن المقابلة هو "مشاركة في البناء" بمعنى أنّها لا تنتمي كلّية للشخص الذي تُجرى معه المقابلة، لكنّها نتاج تفاعل بينه وبين الباحث الذي يجري المقابلة. وآراء من تُجرى معهم المقابلة ليست ثابتة لا تتغير. الأحرى أنّها تتكيف مع المحاور الموجود، ومع المكانة الاجتماعية لمن تُجرى معه المقابلة، وعلي الإطار الذي يفرضه من تُجرى معه المقابلة على تبادل التفاعلات.

التمرين ١١ – ١

- اختر جماعة عرقية تشعر أنّك معتاد عليها ومُطّلع على عاداتها (على سبيل المثال: باكستانيين، أو أنجلو ساكسونيين، أو من ويست إنديانز، أو أكراد، أو أرمنيين، أو رومانيين، أو ألبانيين، أو تاميليين، أو صوماليين، أو أفغانيين)
- اكتب على ورقة رأيك في هذه الجماعة العرقية (عاداتها، وشخصيتها، وخصالها الحسنة، وعيوبها).
- والآن تخيل أنّك تجري مقابلة.

- في الحقيقة، تخيل أنّك في صباح نفس يوم المقابلة أجرى أحدهم مقابلة معك حول ما كتبته على الورقة من قبل باحثين أو إعلاميين مختلفين كثيرًا: صديق مقرب إليك، أحد أبويك، أستاذك في الجامعة، أحد اليمينيين المتطرفين، أحد المحافظين، شخص اشتراكي، أحد الأحرار، متطرف من جناح اليسار، و... عضو من الجماعة العرقية التي اخترتها.
- هل ستقول لكل من تجري معهم المقابلات نفس الأشياء تمامًا على أساس ما كتبته على الورقة؟ لماذا؟ ولم لا؟

النقاط الرئيسية

- إنّ ما يُميز الإثنوجرافيا عن مناهج البحث الأخرى هو استخدامها للملاحظة كمصدر محوري عن المعرفة حول الظواهر الاجتماعية (انظر ٢ - ٤). وعلى أية حال، فليس هذا لنقول إنّ الإثنوجرافي قد لا يستخدم أحيانًا مناهج بحث أخرى خلال إجرائه لبحثه. ومن أمثلة مناهج البحث البديلة التي يستخدمها الإثنوجرافيون كثيرًا إجراء المقابلة الاستطرادية الخطابية وتحليل الوثائق.
- يمكن أن تكون المقابلة الإثنوجرافية عونًا كبيرًا للباحث في توضيح نواحٍ لا تستوعبها الملاحظة وحدها بشكل تام، و في استخراج المعاني المخفية.
- ومع ذلك، فلها عدد من أوجه القصور. أولاً، من غير المحتمل أن تكشف المقابلة عن معرفة ضمنية، ذلك المورد الجوهري لفهم العمل أو التصرف. ثانيًا، الذاكرة ليست دقيقة دائمًا في استدعاء كل الأحداث. وثالثًا، ما يريد الباحث أن يعرفه بالضبط يصعب نقله لمن تُجرى معه المقابلة، مع المخاطرة بأنّ الأسئلة يمكن أن يُساء فيهما.

• إضافة لهذا، قد يشكل الأشخاص الذين تُجرى المقابلة معهم عينة، وتوجد إستراتيجيات متنوعة لعمل عينات منهم.

• ينبغي أن يهتم الباحث الذي يجري المقابلة بنواحي متعددة للمقابلة، ينبغي عليه إجراء المقابلات في أنسب الأماكن التي يقدمها موقع البحث: استخدام إستراتيجيات تواصل مناسبة، واستخدام الأسئلة النابشة بذكاء.

• ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار دائمًا أنّ ما تفرزه المقابلة لا يمكن نسبه للمبحوث بشكل تام، فهي دائما "مشاركة في البناء" بمعنى أنّها لا تنتمي كلّية للشخص الذي تُجرى معه المقابلة، لكنّها نتاج تفاعل بينه وبين الباحث الذي يجري المقابلة في سياق وإطار اجتماعي معين.

المصطلحات الأساسية

قضية التقابل الثنائي تُستخدم في الأنثروبولوجيا للكشف عن المجالات الثقافية العامة. وتشير كلمة ثنائي إلى نقطتين، "أو زوج من". وتأخذ أسئلة التقابل الثنائي عضوين من أعضاء المجال وتطرح السؤال التالي: بأي شكل يحدث الخلاف بين هذين الشيئين؟ (سبرادلي، ١٩٨٠: ١٥).

المقابلة الإثنوجرافية: منهجية بحث، وشكل مختلف وبديل للمقابلات التفاعلية المباشرة يستخدمه الإثنوجرافي في إطار بحثه.

المجال الثقافي العام: أسلوب أنثروبولوجي يشير إلى مقولات للمعنى يمكن أن تتجلى في كل موقف اجتماعي تقريبا، (*Spradely 1980:102*).

المقابلة مع القرين: منهجية بحث، أو شكل مختلف وبديل للمقابلات التفاعلية المباشرة. يُطلب من المبحوث الذي تُجرى معه المقابلة أن يتخيل أن الباحث الذي يجري معه المقابلة هو قرين له أو نسخة مطابقة منه، ويعطي الباحث كل ما لديه من معلومات كي يضطلع بعمل المبحوث في اليوم التالي دون أن يشعر أي شخص بهذا التحول.

قاعدة التفضيل: سلوك استجابة في تسلسل أخذ بالدور. لاحظ محللو المحادثات أنّه عند طلب رجاء معين، فإنّه يتم الموافقة عليه في معظم الحالات – وهذه إحدى الخصائص البنائية للمحادثة التي تهدف إلى المساعدة على الحفاظ على التضامن والتكافل الاجتماعي (*Heritage. 1984: 269*).

الأسئلة النابشة (السابرة): أسئلة تكميلية أو إضافية هدفها المجاملة أكثر من جمع المعلومات. والأسئلة النابشة لها وظائف منوعة: (أ) تشجيع من تُجرى معهم الملاحظة على الكلام؛ (ب) تعطيل دفاعاتهم؛ (ج) مساعدتهم على توضيح ما يقولونه؛ (د) التأكد من أن الإثنوجرافي قد فهم إجاباتهم بشكل صحيح؛ (هـ) دفع من تُجرى معه المقابلة على التوسع في الإجابات النمطية وإتقانها. وقد تكون الأسئلة النابشة لفظية، أو شبه لفظية (صيغ تعجب أو عبارات اعتراضية من أمثال: مم، آه، أوه *"mm", "ah" , "uh"*)، أو غير لفظية، تعبيرات جسدية كإيماءات الرأس أو الابتسامات. هناك أنواع متعددة من الأسئلة النابشة، ويمكن ملاحظة البعض منها في التفاعلات اليومية. قضية التقابل الثلاثي هذا النوع من الأسئلة ثلاث مصطلحات أو فئات في وقت واحد. وتأخذ الشكل التالي: أي من الاثنتين تتشابهان أكثر وتختلفان عن الثالثة؟ ويتضمن هذا النوع من الأسئلة البحث عن أوجه الشبه وأوجه التناقض في نفس الوقت. وهو مفيد وبشكل

خاص في الكشف عن التناقضات الضمنية التي يتم التغاضي عنها بسهولة" (*Spradely, 1980: 127*).

توصية بقراءة

بالنسبة للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد:

Rapley, Tim (2004)

بالنسبة للخريجين

Heyl, Sherman Barbara (2001)

بالنسبة للمتميزين ممن يجرون البحوث:

Atkinson, Paul and Coffey, Armanda (2002)

اختبار تقييم ذاتي

هل أعددت نفسك للباب التالي؟ راجع معلوماتك ومعرفتك بالإجابة عن الأسئلة التالية ذات النهايات المفتوحة:

١. ما المقابلة الإثنوجرافية؟

٢. ما أوجه النقص الرئيسية الثلاثة للمقابلة الإثنوجرافية؟

٣. ما الذي يمكن أن نتعلمه من تجربة لوريا (١٩٧٤)؟

٤. ما أنواع الأسئلة النابشة الستة؟

٥. ما الذي نعنيه بقولنا: المقابلة (مشاركة في البناء)؟

الهوامش

(١) يتذكر وايتي *Whyte* اللوم والتوبيخ المنهجي التالي الذي وجهه دوك *Doc* بسبب نزعته المبالغ فيها إلى التعدي على الآخرين. "عليك يا بل *BILL* بالمرور بسهولة على هذه الكلمات" من، ماذا، لماذا، متى وأين) أنت تطرح هذه الأسئلة وسوف يسكت الناس ويرفضون الحديث معك. وإذا قبلك الناس ورضوا عنك، فيجب عليك أن تتسكع، وسوف تعرف الإجابات في نهاية الأمر دون الحاجة حتى لطرح الأسئلة (*1943a: 303*).

(٢) من المثير للاهتمام أن لوريا الذي أمضى عامين في الميدان، غيّر منهجه في البحث وبدله بمنهج آخر يناسب مبحوثيه أكثر من منهجه. كان هدفه الأصلي إجراء اختبارات سيكولوجية، لكنّه أدرك بسرعة أن تلك الاختبارات أثارت مشاكل المبحوثين غير العادية، وغير المرتبطة بنشاطاتهم المعتادة... لذا لم نستخدم اختبارات نموذجية للقياس النفسي، وتعاملنا فقط مع اختبارات طورناها بشكل خاص بحيث وجدها المبحوثون مجدية وجادة، ومفتوحة لحلول متعددة، يشير كل حل منها ناحية ما من نواحي النشاط المعرفي (١٩٧٤ ترجمة ١٩٧٦: ١٦ - ١٧).

لذا اختار لوريا المقابلة الإكلينيكية مع سلسلة من التجارب "ركزنا على الاتصالات التمهيدية مع السكان؛ وحاولنا إقامة علاقات ودية حتى بدت الأفكار التجريبية المستخدمة طبيعية وغير عدوانية... وكقاعدة عامة، بدأت دوراتنا التجريبية بمحادثات طويلة (ومكررة أحيانا) مع المبحوثين في أجواء مريحة في البيت - حيث كان القرويون يقضون معظم أوقات فراغهم، أو في مخيمات في حقول ومراعي الجبل حول نار المخيم في المساء (١٩٧٤ ترجمة ١٩٧٦: ١٦ - ١٧).

(٣) قدّم مفهوم الإسقاط في العشرينيات على يد أخصائي علم النفس المرضي القادم من فينا سيجموند فرويد *Sigmund Freud*. ويمكن تعريفه على أنّه آلية دفاع يحمي بها الشخص نفسه ضد شمائله وسماته غير المرغوب فيها من خلال إلحاقها بالآخرين ووصفهم بها.

الفصل الثاني عشر

صياغة المدونات الإثنوجرافية

الأهداف التعليمية

- فهم فائدة المذكرات الميدانية.
- تعلم كيفية كتابة مذكرات إثنوجرافية.
- فيم أهمية الإحصائيات الإثنوجرافية.
- العثور على طريق المرء وسط الوثائق المتعددة للمؤسسة أو التنظيم.
- استخدام المواد السمعية البصرية.

١٢ - ١ مقدمة

كثيرًا ما اعتبرت مادة علم المناهج العلمية المطبوعة أنّ الإثنوجرافيا ينقصها الدقة والانتظام، وأنّ لها حساسية مفرطة لميول الباحث ونزعاته. ويزعمون أنّ نقاط الضعف الرئيسية في الإثنوجرافيا هي أنه من الصعب التحقق من قواعدها وأسسها التجريبية، وأنّه يمكن التلاعب بسهولة في المعلومات التي تجمعها. إذا كان مردود أو إنتاجية المسح الشامل هو إحصائيات جدولة متغايرة متعارضة، وأنّ مردود المقابلة نص مكتوب ومصدر معلومات، ومردود تحليل المحادثة هو نسخ كتابي للغة المنطوقة، فما مردود أو إنتاجية الإجراء الإثنوجرافي؟ علاوة على ذلك، وكما يشير كورسارو *Corsaro* وهيس *Heise*،

فإنّ النماذج الأصلية العظيمة للإثنوجرافيا السوسيولوجية – مثل كتاب (وايتي *Whyte 1955*)، و(بيكر *Becker 1963*)، وجوفمان *(Goffman 1961, 1971)* – نماذج ثرية من الناحية النظرية بالتأكيد، لكنّها لا تخبرنا كيف نُركّز المعلومات والبيانات الإثنوجرافية للتقديم أو العرض السوسيولوجي أو كيف نربط بوضوح البيانات الإثنوجرافية بالنظريات ذات الاختصاص السوسيولوجي (*1990: 1 – 2*).

على أي حال، كانت التقنيات الدقيقة والمنهجية المنتظمة (والمصقولة أيضًا) مُتاحة لجمع وتحليل البيانات الإثنوجرافية. وهي قادرة على علاج بعض من أوجه النقص المنهجي.

دراسة حالة

الإجراءات التفصيلية الروتينية

للدخول في طقوس مرحلة ما قبل المدرسة في أمريكا

يرغب الأطفال غير المهتمين باللعب المستمر في الدخول في أوجه نشاط مشترك ويريدون أن يكونوا جزءًا منه. ولأنّ محاولات دخولهم تتم مقاومتها بشكل مستمر، فهم يدركون أنّهم لابد أن يكونوا مثابرين ومصرين. ومع مرور الوقت، يواجه معظم الأطفال تحدى المقاومة، وينشئون مجموعة معقدة من إستراتيجيات الدخول. تأمل في دراسة الحالة التالية التي تتضمن ثلاث فتيات عمرهنّ أربع سنوات في مدرسة أمريكية لمرحلة من مراحل ما قبل الدراسة.

تلعب جيني *Jenny* وبيتي *Betty* الآن حول صندوق رمل في الفناء الخارجي للمدرسة. وأنا جالس على الأرض أشاهدهما بالقرب من صندوق الرمل. الفتاتان تضعان الرمل في قدور ومقلاة كعك في قوالب وأباريق الشاي. وأحيانا تحضر الفتاتان لي كعكة رملية لأدعي أنني آكل منها. وديبي *Debby* تأتي الآن لصندوق الرمل وتقف بالقرب مني، وتراقب الفتاتين الأخريين. وبعد مراقبتهما بحوالي خمس دقائق، لفت حول الصندوق ثلاث مرات وتوقفت مرة أخرى ووقفت بجواري. وبعد دقائق قليلة أخرى من المراقبة، انتقلت ديبي لصندوق الرمل وأخذت تحاول الوصول لإبريق شاي. وأبعدت جيري الإبريق عن ديبي وتمتمت، "لا"، وابتعدت ديبي ووقفت مرة أخرى بالقرب مني، وأخذت تراقب نشاط جيني وبيتي. ثم سارت بالقرب من بيتي وهي تملأ مقلاة الكعك بالرمل.

ديبي تراقب بيتي لثوان قليلة فقط، ثم تقول، "نحن أصدقاء، أليس كذلك يا بيتي؟"، وتستمر بيتي في وضع الرمل في المقلاة وتقول، "هذا صحيح"، وهي لا ترفع رأسها لتنظر إلى ديبي.

تنتقل ديبي الآن بجوار بيتي، وتأخذ إناء وملعقة، وتبدأ في وضع الرمل في إناء، وتقول، "أنا أصنع قهوة".

وترد بيتي عليها قائلة. "أمّا أنا فأصنع كعكًا في قوالب".

تلتفت بيتي الآن تجاه جيني وتقول، "نحن أمهات. أليس كذلك يا جيني؟"

وترد جيني: "تمام".

وتستمر "الأمهات الثلاث" في اللعب معا لمدة عشرين دقيقة أخرى، حتى أعلنت المدرسات أنّه قد حان وقت تنظيف أنفسهن (*Corsaro,1997: 124 – 5*).

يصف المؤلف ما يراه في هذا المثال. لكنّ روايته هذه (ينبغي أن يكون ذلك واضحا الآن) ليست وصفا للحقيقة. والأحرى أنّها تفسير للحقيقة قام بـه الباحـث، وصف كان الوسيط فيه هو اهتماماته المعرفية، والقوالب النمطية، وربما انحيازاته وتعصباته. وكما عبّر عن ذلك الأنثروبولوجي الأمريكي جيمس كليفورد ***James Clifford*** قائلا: إنّ المذكرات الميدانية عبارة عن "كتابات ومخطوطات" بمعنـى أنّها أعمال وإجراءات اعترضت "تدفق العمل أو الإجراء أو الخطاب أو المحادثـة، فتحـول وفقا لها إلى كتابة" ***(1990: 51)***. وكما يؤكد ذلك أيضا بـول أتكينسون ***Paul Atkinson*** أخصائي علم الاجتمـاع الإنجليـزي قائـلا: "لا تـوجد معطيات أو معلومات بشكل مستقل عما يكتب عنها بأشكال تقليدية عاديـة، بعـض منهـا بصري (فيلم، فيديو، فوتوغرافي)، لكن الأغلبية العظمى منها يُعبّـر عنهـا فـي نصوص كتابية". ***(1992: 16)*** .

وكل الكتابات والمخطوطات، وكل عملية توثيق بشكل عام، هي بالتحديـد إجراءات جزئية لأنّها تفترض وجهة نظر جزئية بالضرورة. وقد أوضـح محلـل الأحاديث الأمريكي إمانيويل إي. تشيجلوف ***Emanuel A. Schegloff*** هذه النقطـة بعناية بإظهار الطرق المختلفة التي يمكن وصف وضع الشئون الراهنة بها:

> **إذا كان لي أن أصيغ في كلمات شيئا عـن مكـان مـذكراتي، فسيكون مـن الصحيح أن أقـول إنّهـا: أمامي تمامًـا، أو بجانـب التليفـون، أو على المكتب، أو في مكتبي، أو فـي مكتـب العمـل، أو في الغرفة رقم ٢١٣، أو في قاعـة لويـسون، أو فـي الحـرم الجامعي، أو في المدرسـة، أو فـي كولومبيـا، أو فـي مرتفعـات مورننجسايد، أو في الجانب الغربي العلوي في مانهاتن، أو في مدينة نيـويورك، أو فـي ولايـة نيـويـورك، أو فـي الشمال الـشرقي،**

أو الساحل الشرقي للولايات المتحدة... إلخ. كل كلمة أو عبارة ذكرتها يمكن أن تكون صحيحة... لو كان لها صلة بالموضوع رهن البحث (مكان المذكرات) (*1972: 81*).

وليست المذكرات الميدانية وحدها نماذج ملاحظة مرتبطة بإطار نظري، ولكن هناك أيضًا حقيقة

"الميدان"... هو في حد ذاته نتاج "تقنيات نظامية انضباطية". فالسجون، والمدارس، والمستشفيات، والعيادات الطبية، لم تعد جميعها تُعامل بعد كمواقع متاحة تحدد مواقعها بنفسها للتحريات العلمية في حياتها اليومية (*Turner, 1989: 13*).

١٢- ٢ ثلاث مبادئ ميثودولوجية للحفاظ على التباين اللغوي

طبقًا لما ذهب إليه سبرادلي عالم الأنثروبولوجيا، ينبغي أن تُجمّع البروتوكولات الإثنوجرافية بدقة خاصة. وينطبق هذا الكلام على وجه الخصوص على أولئك الذين يجرون أبحاثًا في المجتمع الذي ينتمون إليه والذي يعرفون لغته بالفعل من قبل، ففي الحقيقة:

عندما يتولى الأنثروبولوجيون إجراء البحث الإثنوجرافي في مجتمعات غير غربية، فإنهم يُواجهون فوارق لغوية مدهشة... (و) تكون أول مهمة لهم هي تعلم اللغة الوطنية. وبسرعة تصبح المذكرات الميدانية مملوءة بالمصطلحات المحلية، ومن السهل التمييز بين لغة الإثنوجرافي في المذكرات الميدانية ولغة الشعب الذي تتم دراسته.

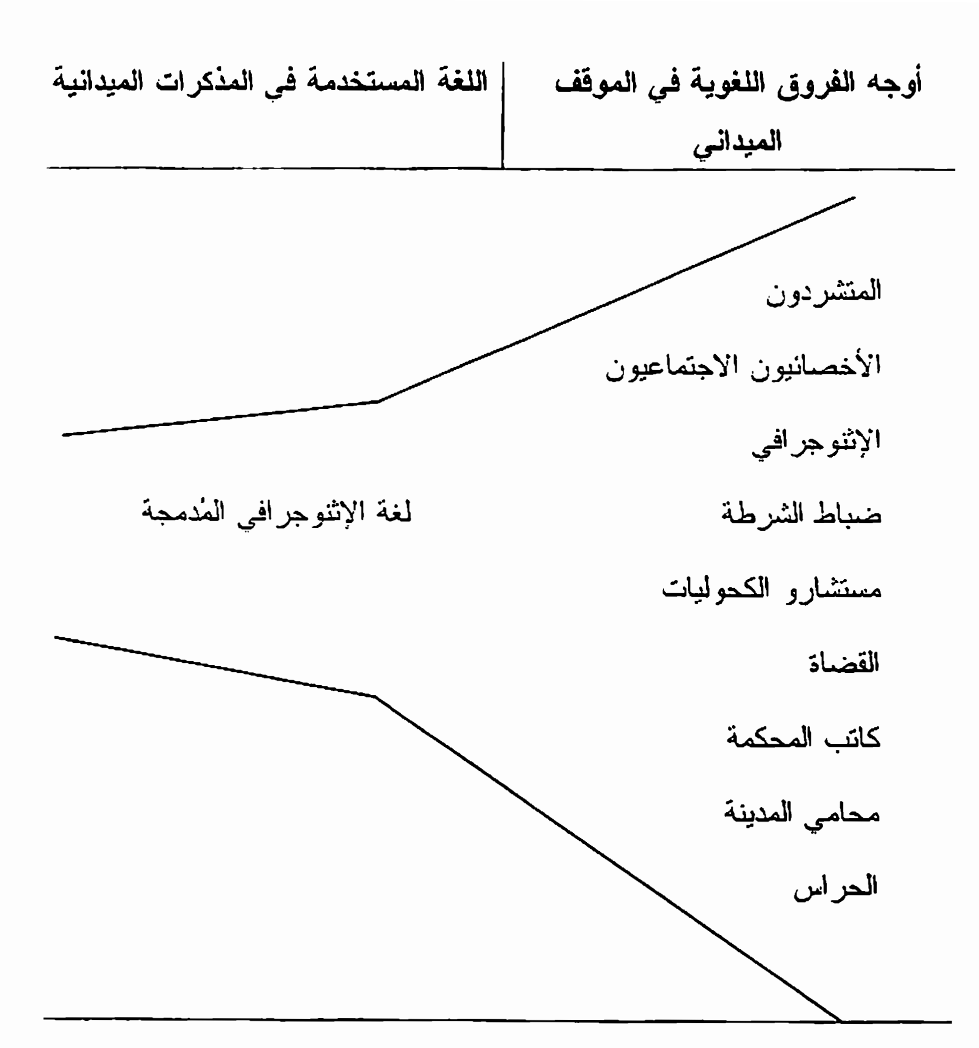
ومع ذلك، فعندما تجري بحثا إثنوجرافيا في مجتمعك أنت، فمن السهل التغاضي عن الفوارق اللغوية، وبالتالي فإنك تفقد مفاتيح هامة للمعنى الثقافي. ويكون السؤال الرئيسي الذي يواجهه كل إثنوجرافي عند أخذه ملاحظات ميدانية هو: ما اللغة التي سوف تستخدم في القيام بتسجيل إثنوجرافي؟ (*Spradely , 1980: 65*).

ثم يدعو سبرادلي الباحثين لاحترام ثلاثة مبادئ ومعايير عند أخذهم ملاحظات إثنوجرافية.

١٢ - ٢ - ١ المبدأ الأول: تحديد هوية اللغة

لكي يقدم سبرادلي المبدأ الأول، يصف لنا أولاً المشاكل التي واجهها عندما كان يجري بحثا عن "رجال منطقة صف التزلج" في مدينة سياتل ***Seattle*** (*Spradley, 1970*). كان هؤلاء الناس متشردين، معظمهم من مدمني المشروبات الكحولية كثيرًا ما دفع بهم شجارهم وعراكهم والصخب والضوضاء التي يثيرونها وهم سكارى إلى المحاكم. وخلال عمله الميداني، تقابل سبرادلي مع ضباط شرطة، وقضاة، وأخصائيين اجتماعيين، وصحفيين، وبدو من المناطق الحضرية. ولأنّ كل هؤلاء المبحوثين كانوا يتحدثون باللغة الإنجليزية، شرع سبرادلي في كتابة موجز لتفاعلاتهم استخدم فيه أحيانًا كلمات أو تعبيرات كان وقعها بالتحديد يبدو غريبًا على مسمعه. ولكنه نسي وهو يفعل ذلك أنّ لكل فئة مهنية التقى بها مصطلحاتها الخاصة، وأنّها مُكوّنة ليس فقط من استخدامات محددة لكلمات وعبارات، ولكنها مكونة أيضا من أنواع محددة من خطاب وأحاديث التنظيم أو المؤسسة التي ينتمي إليها: نظام هرمي للموضوعات، وسرد للأحداث يُعتبر سردا له مغزاه، وأحكام لها تعبيراتها، وتصنيفات وتقسيم لفئات.

وبقيام الإثنوجرافي بإيجاز وتقليص حجم المحادثات، سواء التي أجراها أو التي سمعها لتصبح موجزًا مكتوبا بلغة الباحث (أو الباحثة)، فإنه يقلل من الاختلاف والتغيير اللغوي بين فئات المشاركين (انظر الشكل ١٢ - ١) ويقدّم "لغة مدمجة مع لغات أو لهجات أخرى".



شكل رقم (١٢-١) أنماط اللغة (المصدر: *Spradley , 1980:66* والشكل ١٠)

وإلى جانب كون مذكرات الإثنوجرافي المكتوبة بلغة مُدمجة بلغات أخرى غير دقيقة، فإنّها تصبح غير مُستخدمة بعد مرور بعض الوقت. وعندما يعيد الباحث قراءتها بعد بضعة شهور، يصبح (أو تصبح) غير قادر على إقامة علاقات بين فئات المشارك ومحتوى خطابه وحديثه. لذا فإنّه قد يقدّم تحريفات خطيرة عند

تحليله لمواد البحث. على سبيل المثال، نسب فكرة فئة اجتماعية معينة لفئة أخرى. لذا يُستحسن تدوين المقابلات في صفحات منفصلة ثم تجميعها طبقا للفئة الوظيفية لكل منهم.

١٢-٢-٢ المبدأ الثاني: طريقة استخدام الكلمات حرفيًا، كلمة كلمة.

ادرس المثال التالي المأخوذ من دراسة سبرادلي (السبعينيات من القرن العشرين)

دراسة حالة

ثقافة المشردين

النص الحرفي لما قاله الإخباري، "صنعتُ الدلو ذات مرة في سياتل من أجل بركة السباحة.. وسألت شخصا كم كان يحمل في الإبريق واتضح أنّه جامع الخرق والنفايات من الشوارع، وقرصني".

مدخل المذكرة الميدانية، 'تحدثت مع جو *Joe* حول تجربته حينما تم القبض عليه في منطقة صف التجلد في الوقت الذي لم يكن مخمورًا فيه".

في ذلك الوقت، بدا أنّ هذا المدخل الموجز المركز كان كافيا؛ وبالتأكيد لم أشعر أنّه كان إرباكًا وتشويشًا لما قاله جو. إنّي لم أفهم كل كلماته بشكل تام. لكنّي اعتقدت أنّي عرفت معناها بالتقريب. ومع ذلك، يمثل هذا المدخل بعضا من أهم مفاتيح ثقافة الإخباري. مفاتيح جاءت من ألفاظ ومصطلحات هؤلاء القوم مثل *بركة السباحة* (روتين معقد أو مركب للمساهمة في اعتماد مالي لشراء شيء ما)، و*الدلو* (سجن المدينة)، و *جامع الخرق والنفايات من الشوارع* (نوع معين من رجال الشرطة)، و*قرصني* (قبض عليّ) ***(Spradley 1980: 67)***.

نأخذ من هذه الفقرة أننا ينبغي علينا، بجانب تحديد هوية المتحدثين، أن نسجل بدقة ما يقولونه. إنّ نسخ الكلمات (حرفيًا) التي يستخدمها المبحوثون لوصف، وتصنيف، والتعليق على الحدث وتبريره بأمانة قد يفيد في إعادة بناء المعاني المنسوبة للفعل أو العمل. مجازًا، الكلمات والمصطلحات هي الخطاف الذي يُثبت المعاني (المفاهيم)، ويمكن أن نستخدمها للبحث والتحري عن مخططات المشاركين الفكرية وأنماط أفكارهم.

لكن ماذا ينبغي على الإثنوجرافي نسخه من ذلك التدفق الضخم من الكلمات التي تشكل المحادثة؟ ليس من السهل الإجابة على هذا السؤال، إذا ما علمنا أنّ الإثنوجرافيين، كأعضاء من جماعة اللغة التي يقومون بدراستها، نادرًا ما يقابلون كلمات غريبة، أو كلمات مجهولة تمامًا بالنسبة لهم. وليس مطلوبًا من الإثنوجرافيين في حالة جهلهم التام بالكلمات فقط أن يبذلوا جهدًا خاصًا، لأنّ الكلمات تفرض نفسها بشكل أو آخر على اهتمامهم (من أجل دراسة حالة أخرى حول مدمني منهجية الجماعة لخداع الطبيب، ادخل على (***www.sagepub.co.uk/gobo***

لذا، فكثيرًا ما يقابل الباحثون كلمات مألوفة بالنسبة لهم من قبل. لكنهم يميلون لتجاهل هذه الكلمات بعد أن يفشلوا في إدراك معانيها كمصطلحات تواصل للمشاركين تشير لممارسات معينة. لذا يمكن أن ينخدع الباحثون بأنّهم يعرفون ما يدور الكلام حوله.

جمع الكلمات حرفيًا، كلمة كلمة

خلال المرحلة الأولى من العمل الميداني، وعندما تكون المواقف لا تزال "جديدة"، يجب على الإثنوجرافي بالتالي أن يدوّن الكلمات والعبارات الاصطلاحية

التي قد لا يبدو في البداية أنها تستحق أن يكلف نفسه العناء من أجلها. لأن الكلمات والاصطلاحات التي لم يكن لها مغزاها وأهميتها في البداية على وجه الخصوص قد تصبح كذلك أثناء التقدم في إجراء البحث؛ أو قد تكشف عن فوارق في تلك المعاني التي افترضها الباحث في بداية الأمر. وعلى وجه الخصوص. ينبغي أن يهتم الباحث *بالتعريفات* - أي الجمل التي تحتوي على فعل "يكون" - التي تصدر من المبحوثين. وهي تستخدم عادة لتوضيح حدث ما، أي لإقامة رابط بين الكلمة أو المصطلح وبين المفهوم.

إنّ ممارسة الإثنوجرافيين إعادة صياغة المحادثات مستخدمين كلماتهم، وليس الامتثال لمبدأ جمع كلمات المبحوثين حرفيا، كلمة كلمة، قد تمنعهم من تحقيق هدف وصف مصطلحات المبحوثين وتفصيل مفرداتها، كما رأينا في مثال سبرادلي وثقافة المتشردين. ونتيجة لذلك، فإنّ الملاحظات الإثنوجرافية "الموجزة المكثفة" أو "المُجمّعة" قد تحدث إرباكًا وتشوشًا؛ أو قد تنقصها معلومات مهمة من الصعب علاجها إذا ما ترك الباحث ميدان العمل في ذلك البحث.

وبدون تسجيل سمعي أو بصري للمشهد، يصبح من الصعب نسخ ما قاله المبحوث بالضبط: ليس فقط لأنه بعد دقائق قليلة من حدوثه يكون الباحث قد نسي كلمات واصطلاحات معيّنة منه، ولكن أيضًا لأنه من المستحيل نسخ وتدوين ما رآه الباحث أو سمعه في الحال في بعض المواقف. وكما ينصحنا جوفمان، عليك أن تتعلم أن:

> **تتجنب تدوين ملاحظات أثناء مرحلة حدوثها. بمعنى ألا تكتب ملاحظاتك على العمل أو التصرف الذي تلاحظه لأنّ الناس ستعرف عندها ما الذي تسجله. حاول أن تضبط نفسك بحيث تكتب ملاحظاتك قبل أن يكون الحدث قد بدأ، أو بعد أن يكون قد بدأ حتى لا يتمكن الناس**

من أن يكتشفوا منذ متى بدأت في تدوين ملاحظاتك ومتى تتوقف عن كتابتها وما الحدث الذي تكتب ملاحظاتك عنه (*1989: 130*).

وتكثر الحكايات والنوادر حول هذه العملية، واستُخدمت أكثر الأماكن التي لا يتوقع أحد استخدامها في المؤسسات أو التنظيمات كملجأ يذهب إليه الباحث مضطرًا لتدوين ملاحظة أو حوار: مرحاض المؤسسة مثلاً أو البار أو بئر السلم. وبالمثل، إذا افتقد الباحث مفكرته، فإنّ تقريره الموجز عما يحدث ينتهي به المطاف فوق أي سطح يُتاح أمامه: ورق شفاف، أو غطاء مائدة، أو مناديل ورق، أو جرائد، أو أبواب، أو حتى جدار مرحاض أو حمام. أو قد يأخذ الإثنوجرافي منهجًا مختلفًا فيخبر المشاركين بوضوح أنه يريد أن يكتب مفكرات وملاحظات، وقد يدعم طلبه هذا بتعليق يطمئنهم قائلا: "إنّ ما تقولونه لي شيء مهم وشيق جدًا، هل يضيركم أن أكتبه، بعد إذنكم طبعًا؟ وإلا سوف أنسى هذا الموضوع وأتركه تماما".

وعندما ينسحب الباحث من تفاعل ما ليدون ملاحظاته، فأفضل شيء هو أن يفعل ذلك بالطرق التي تستخدمها المؤسسة، وأن يتبع إجراءاتها المعتادة (على سبيل المثال، أن يستأذن بأنّه ذاهب للمرحاض، أو استراحة يشرب خلالها فنجان قهوة) حيث يكون ابتعاده لائقًا من الناحية الحضارية. وقد يكون من المفيد أحيانًا أن يحمل جهاز تسجيل، ويسجل عند انتهاء فترة الملاحظة تعليقاته وهو في طريقه لبيته أو لمكتبه في العمل.

١٢ – ٢ – ٣ المبدأ الثالث: وصف الممارسات الرئيسية

إنّ ثقافة الجماعة أو المؤسسة تظهر وتتضح في الممارسات الاجتماعية الرئيسية. ويتطلب إدراك هذه الممارسات والإقرار بها مجهودا أكبر من

الإثنوجرافي العضو في المجتمع الذي يتولى إجراء البحث فيه عما يتطلبه من الأنثروبولوجيين (انظر ٢ - ٤). ولو كان في تخطيط الباحث أن يصور أنشطة المشاركين وما يقومون به بدقة، فيجب عليه أن ينسخ الأحداث والتصرفات الصغيرة التي تكوّن كل شيء في الممارسات الاجتماعية التي يتم ملاحظتها. لذا فإنه عند تدوين المذكرات الإثنوجرافية، ينبغي على الباحث تبني "لغة معينة ومحددة وملموسة" كما عبّر عن ذلك سبرادلي *(1980: 8)* ويقدم المثال التالي توضيحا لهذه النقطة.

دراسة حالة

ثقافة رجال الإطفاء: تلقي الإنذار

قبل أن يخبو صوت الدقة الأولى للطبلة الصغيرة، يكون رجال الإطفاء يخلعون أحذيتهم ويلبسون أحذية العمل ذات الرقاب الطويلة، ويرتدون المعاطف والخوذات... ويلتقط الضابط الذي حلّ عليه الدور في نوبة المراقبة في النهار (أو الليل) التليفون المخصص للحرائق، ويعطي رقم مبنى سيارة الإطفاء، ويكتب عنوان وموقع المكان الذي شب فيه الحريق وأي معلومات إضافية يقدمها له من يبلغه بالحريق، والتليفون به وصلة للإنتركوم أو نظام الاتصال الداخلي في البناية حتى يمكن لأي شخص أن يسمع من يبلغ عن حدوث حريق. وخلال ما بين عشرين إلى ثلاثين ثانية، كان القائد يراجع ويتأكد بنفسه أنّ رجال الإطفاء أصبحوا مستعدين وأنّ السائق قد أسرع بعيدًا عن رصيف دار الإطفاء تاركا أبواب الجراج لتُغلق أوتوماتيكيا على اثني عشر زوج من الأحذية كان رجال الإطفاء قد خلعوها، بينما تقف بالخارج ثلاث مقطورات تلمع ألوانها (*Judy Woods, 1972: 225*).

يتعلق أسلوب السرد المستخدم في هذه الملاحظة الإثنوجرافية بما أطلقنا عليه الوصف "الطبيعي" أو "السريع" (انظر ١٠ - ٣ - ٢). وهو الأساس الضروري للوصف "المكثف" (*Brekhus, Galliher and Gubrium, 2005*). لذا فإن الأوصاف السريعة والمُكثّفة مرحلتان مميزتان من الناحية الزمنية والناحية المعرفية: تتضمن المرحلة الأولى جمع المعلومات، وتتضمن الثانية تحليل تلك المعلومات.

ولضمان استخدام اللغة الواقعية المحددة ينبغي ألا تشمل المذكرات الإثنوجرافية كلمات ومصطلحات مُشتقة من الرموز والمصطلحات اللغوية والمعرفية للعلوم الاجتماعية مثل: *الدور، التفاعل الاجتماعي، الفاعل، الشعيرة، الطبقة، المكانة، النسق، إستراتيجية، المواقف الاجتماعية، الثقافة، الرموز، الرسم البياني أو المخطط العقلي، التنشئة الاجتماعية، متعلق بالحفل المراسمي، اللامساواة، الأنواع... إلخ*. وإلى جانب كون هذه المصطلحات جزءًا من مخزون مفاهيمي وذات علاقة بمصطلحات فنية دخيلة على ممارسات المشاركين في البحث، فهي تعميمات لأفعال أو تصرفات أو أحداث معينة:

> **رغم أنك ستحتاج لعمل تعميمات خلال البحث الذي تجريه، فمن الضروري أن تبدأ بحقائق مادية ملموسة تراها بنفسك، وتسمعها، وتتذوقها، وتشمها، وتشعر بها. ولو امتلأت مذكراتك الميدانية باللغة الاصطلاحية المجردة للعلوم الاجتماعية الخاصة بجماعة معينة، ستجد من الصعب عمل تعميمات من تعميمات.**

إذا كان صحيحا، كما يقول جيرتز *Geertz (1973)*، أنّ الإثنوجرافي يعمل مع "تفسيرات لتفسيرات" بشكل حتمي، و"توضيحات لتوضيحات"، وما إلى ذلك، فمن الضروري أكثر تجنب استخدام مفاهيم سوسيولوجية عند كتابة المذكرات

الميدانية. ويعبر شوتز عن ذلك بقوله إنّ هذه المفاهيم، "مُنشآت (عن طريق التركيب العقلي) ليياكل الحس المشترك أو العام، أو "مفاهيم من المستوى الثاني".

التمرين ١٢- ١

يروي لنا سيلفرمان *Silverman* (22 :2007) طُرفة لكاتب الأغاني الأمريكي العظيم في الأربعينيات سامي خان *Sammy Kahn*، حول سؤال طُرح عليه كثيرا، وهو: "عندما تكتب أغنية، ما الذي يأتي أولا - الكلمات أم الموسيقى"؟ وكان جواب خان هو: "لا، ليس الكلمات ولا الموسيقى - إنّ ما يأتي أولاً هو المكالمة التليفونية". ما هو المغزى الهام لطرفة خان؟

(للحصول على إجابة سيلفرمان، ادخل على *www.sagepub.co.uk/gobo*)

١٢ - ٣ أربعة أنواع من المذكرات الإثنوجرافية

بعد مرور أيام قليلة من العمل الميداني، سيكون الإثنوجرافي المُدقق - لاسيما إذا كان قد اتّبع مبادئ سبرادلي الثلاثة - قد جمّع بالفعل عدة صفحات من المذكرات الموجزة والملاحظات. وسوف تزداد مواده المكتوبة بسرعة أكثر وأكثر، وعند مرور بضعة أسابيع سيسيطر عليه إحساس بالحيرة والارتباك، وهنا يقول الإثنوجرافي: "والآن، ماذا سأفعل بكل هذه المذكرات والملاحظات"؟ إنّ خوفه أنّه يغوص في كتلة ضخمة من المذكرات المختصرة وقصاصات الورق والملاحظات له ما يبرره. يعرف هذا القلق جيدا كل من أجرى بحثا إثنوجرافيا. وكما يتذكر جوفمان قائلا:

هناك مشكلة حول: متى يتوقف الباحث عن تدوين ملاحظاته.
يحدث هذا فقط عندما يكرر ما حصل عليه ودوّنه من قبل. عليه أن

يتذكر أنّه يحصل على ما بين ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ صفحة من المذكرات المطبوعة بتركه مسافة واحدة بين الكلمات في سنة واحدة. وهذا قدر كبير جدا من الصفحات بحيث يصعب قراءته أكثر من مرة أو مرتين في عمره كله. لذا فعليه ألا يدون مذكرات *أكثر من اللازم* بكثير. (١٩٨٩: ١ - ١٣٠)

ولتفادي الفوضى، يقترح شاتزمان ***Chatzman*** وستروس ***Strauss*** ***(1973: 99-101)*** وكورسارو ***Corsaro*** ***(1986: 295)*** أنّ المذكرات الميدانية ينبغي أن تقسّم بين أربع ملفات مختلفة، يحتوي كل ملف منها على نوع محدد من المواد. ويحدد شاتزمان وستروس ثلاثة أنواع من المذكرات: مذكرات متعلقة بالمشاهدة أو المراقبة (ويرمز لها بالحرفين ***ON***)، ومذكرات متعلقة بالنظريات (ويرمز لها بالحرفين ***TN***)، ومذكرات منهجية (ويرمز لها بالحرفين ***MN***) (١٩٧٣: ٩٩). ويضيف كورسارو اقتراحا رابعا يسمّيه "مذكرات شخصية" ولكننا سنطلق عليه "مذكرات وجدانية" (ويرمز لها بالحرفين ***EM***) ليكون معناها صحيحا أكثر من سابقه. ويمكن هذا التصنيف الباحث من تنظيم ملاحظاته والتقليل من تعقيد عمله[١].

١٢ - ٣ - ١ المذكرات المبنية على الملاحظة

القانون الأول للذعر التطبيقي

عندما تراجع مذكراتك قبل أي امتحان، سيكون أهمها مكتوبا بخط لا يمكنك قراءته.

المذكرات المتعلقة بالمشاهدة أو المراقبة وصف غير مُكثّف وتفصيلي للأحداث والأفعال التي يشاهدها الباحث بشكل مباشر. وينبغي أن تمتثل المذكرات

المتعلقة بالمشاهدة أو المراقبة بشدة بالمبادئ الثلاثة التي وصفناها في الفقرة السابقة. لذا ينبغي أن تحتوي على أقل قدر ممكن من التفسير الذي يقدمه الباحث[٢]. وهذا يعني أنّ تلك الملاحظات لا ينبغي أن تزيد (بقدر الإمكان) عن تصوير ووصف واضح وبسيط للأحداث، وأنّها ينبغي أن تتحاشى، على سبيل المثال، وصف وتحديد الصفات (أجزاء الجملة التي تقدم معلومات عن الأسماء)[٣]. علاوة على ذلك، ينبغي أن يدوّن الإثنوجرافي مذكرات وملاحظات واضحة وبسيطة من هذا النوع أثناء فترات الملاحظة، أو فور انتهائها. ولا ينبغي أن يشغله حينئذ هجاء الكلمات أو إعرابها: سيتوفر لديه الوقت فيما بعد لتصحيحها وتهذيبها. وكما يكتب أتكينسون قائلاً:

> **كلما كان الكلام المنقول أو غير المباشر *مفهومًا* وسهلاً قراءته، وجب أن يكون غير حقيقي أو جدير بالتصديق إلا بالقدر القليل. وكلما قل تدخل الإثنوجرافي، أمكنه نسخ ما يراه ويسمعه برقة وكياسة، وقلت إمكانية القدرة على قراءة نص الكلام المنقول أو غير المباشر (١٩٩٢: ٢٣).**

وما يلي هو مثال مأخوذ من كورسارو (*1985: 24 – 5*) وتخص روتينًا معينًا (لعبة) في إحدى مدارس الحضانة.

المذكرات المبنية على الملاحظة
التاريخ: ٢٩ أكتوبر
الحلقة الصباحية: ٥
المشهد: صندوق رملي خارجي

المشاركون: ريتا (ر)، وبربارا (ب)، وجاك (ج)، وبل (بي)، وليندا (ل)، وريتشارد (ريتش).

خمسة أطفال (ر. و ب. و ج. و بي. و ل.) يلعبون الآن حول الصندوق الرملي الخارجي. الأطفال يدّعون أنّهم يصنعون الكعك/ والفطائر... إلخ. وذلك بوضع رمل في مقالٍ وأواني طهي أخرى. وهناك حنفية لعبة وفرن لعبة بالقرب من صندوق الرمل. وفي معظم الوقت يبدو الأطفال أنّهم منهمكين في لعب مواز (يلعب الأطفال فيه وهم ومتقاربون من بعضهم، لكنهم لا يلعبون مع بعضهم وإن كان اللعب يتضمن تفاعلاً تعاونيًا بينهم، إذ يكون اهتمامهم مشتركًا بنفس اللعبة، وكل منهم يعتبر أنّها لعبته هو أو هي) لكن هناك مفاوضات لفظية عندما يحتاج الأطفال أن يتشاركوا في الأواني أو الدعائم.

ب بي: أحتاج الحصول على بعض الماء. بي يقف بالقرب من مقدمة حوض الماء وينتقل لأحد جانبيه عند اقتراب ب

بي ب: لا يوجد ماء بالحوض. ويشير إلى أنّ حنفية الماء ليست حقيقية.

ب بي: حسنًا، إنّه ماء مُدعى وغير حقيقي. وتشير لحقيقة أنّ الحنفية ليست حقيقية.

بي ب: وهو كذلك.

ب بي: علينا أن نتقاسم جميعًا الحنفية الوحيدة.

وحدث بعد ذلك مثال آخر يتضمن التعاون والمشاركة.

ب – ج: جاك؟

ج – ب: ماذا؟

ب – ج: سأضع هذا في الفرن.

ج – ب: وهو كذلك. ب تضع المقلاة في الفرن

ب – ج: هنا. هذا فرني يا جاك. ج يمسك المقلاة الآن بينما تضع ب الرمل فيها.

ج يبحث الآن عن مغرفة في صندوق الرمل.

ج – ب: هذه مغرفتي.

ب – ج: لا. يمكنك أخذ هذه. ب تسلم ج ملعقة.

وبعد لحظات من هذا التبادل بالكلمات والأشياء، تترك ب المنطقة دون كلام وتدخل المدرسة.

ويبقى الآن ر. وج. و ل. وهم يلعبون حول صندوق الرمل. ريتش يقترب الآن ويراقب الأطفال الآخرين دقائق قليلة. ريتش يسير بعد ذلك تجاه ج ويقول:

ريتش – ج: حان الوقت للتنظيف.

ويتناول ريتش مقلاة جاك المملوءة بالرمل ويحاول تفريغه منها. ج يقاوم ريتش ويفرغ الرمل بنفسه. ويدخل ج في المدرسة. ويبقى ريتش عدة دقائق ويلعب في صندوق الرمل ثم يغادر المكان. ر. و ل. يلعبان (ويتبادلان ألفاظا فيما بينهما) حتى تعلن مساعدة مدرّسة أنّه قد حان وقت التنظيف.

ويقترح إيمرسون، وفريتز، وشو ***(Emerson, Fretz and Shaw (1995)*** أنّ المذكرات المبنية على الملاحظة ينبغي أن تشمل الباحث أيضًا، حيث يحدد فيها موقفه المكاني وعلاقته بالفاعلين أو المبحوثين وقت إجرائه للملاحظة.

ويمكن جعل المذكرات المبنية على الملاحظة أكثر دقة بكثير، وذلك بجمع "أوراق الملاحظة النظامية": كما فعل لود همفريز ***(Laud Humphreys 1970)*** في دراسته عن نشاط اللواط للرجال في مراحيض ("مقاهي") حديقة عامة في إحدى المدن. وهناك مثال لمثل هذه الأوراق أعيدت طباعتها في مجلة ***TearoomTrade*** (انظر ***Humphreys, 1070: 35)***:

> **وقد سُجِّلت مجموعة من البيانات: تاريخ ويوم الأسبوع، وحالة الطقس، عدد الناس في الحدائق ونوعيتهم، الحجم الرئيسي لنشاط اللواط، والمكان، والمشاركون في لقاءات مثليي الجنس في الأماكن العامة (الملاحظ، المتحرش الرئيسي والمشاهد الشاهد السلبي مشارك سلبي، ومشاركون آخرون، والموظفون المكلفون بتنفيذ القانون)، والوقت الذي تم فيه اللقاء الجنسي، والوقت الذي انتهى فيه اللقاء، ورسم بياني بالتحركات داخل نطاق اللقاء، ووصف روائي للفعل الفاضح *(Brekhus, Galliher and Gubrium 2005: 8)*.**

١٢-٣-٢ المذكرات المنهجية

أثناء إجراء البحث، قد يواجه الإثنوجرافي عدة مصاعب تعوق ملاحظته أو تقيدها. وأحيانًا يتم التغلب على هذه المصاعب مع استمرار العمل في البحث؛

ولكنّها تظل باقية أحيانًا أخرى عندما تُختتم إجراءات البحث. والمذكرات المنيجية هي في الأساس أسئلة أو تأملات حول كيفية علاج المشاكل والمصاعب التي تنشأ في الميدان. لذا فقد تشمل أسئلة لم تُعرف ليا إجابات حتى الآن، ونفس الحال مع تقييمات، وتوصيات، وإستراتيجيات محددة الغرض منها تحسين منهجية البحث المُستخدمة:

> **المذكرة الميثودولوجية بيان يعكس فعلاً تنفيذيًا استُكمل، أو تم التخطيط له: هي أحد التعليمات التي يوجهها الباحث لنفسه، ورسالة تذكير له، ونقد لتكتيكات الباحث؛ (هذا النوع من الحاشيات التفسيرية) مذكرات عن الباحث نفسه وعن العملية المنهجية ذاتها (*Schatzman and Strauss,1973: 101*).**

المذكرات الميثودولوجية
أريد أن ألاحظ تفاعلاً حول صندوق الرمل الخارجي عندما أبدأ الملاحظة بالمشاركة. لا ينبغي أن يكون هذا أمرًا صعبًا، حيث إنّي استطعت أن أجلس بجانب صندوق الرمل وأكون على نفس طول الأطفال. ويكون الإقحام والتدخل بدرجة أقل للمشكلة التي تنشأ حول صندوق الرمل عنها لو نشأت في المبنى الصغير المُعد للعب الأطفال أو قضبان القفز.

١٢ - ٣ - ٣ المذكرات النظرية

تقفز الأفكار والفرضيات (العلمية) أو التفسيرات في عقل الإثنوجرافي من لحظة دخوله الأول في الميدان. ولكي يمكن فصل هذه البديهيات عن الملاحظات

الواقعية المحددة بدرجة أكبر، وتوضح المذكرات النظرية المعنى النظـري العـا
للمذكرات المبنية على الملاحظة: ينشئ الباحث "مفاهيم جديدة، ويربطهـا بمفـاهيم
أقدم، أو يربط أي ملاحظة بأي ملاحظة أخرى بهذا الجهد الخـاص فـي الوقـت
الحاضر لخلق علم اجتمـاعي،(*Schatzman and Strauss, 1973: 101*). وتـشير
المذكرات النظرية للعناصر التي تضمن استكشافًا آخر، أو تدعو الباحث لإدراك أن
الفعل الذي تتم ملاحظته مثال إمبيريقي (تجريبي) لمفهوم معين، أو لفرضية علمية
أو نظرية سوسيولوجية.

المذكرات النظرية

(١) إنّ حقيقة أنّ الأطفال انتقلت مما كان يبدو أنّه لعـب مـواز إلـى تفاعـل اجتماعي ليتفاوضوا حول المشاركة في الأشياء أمر مهم، وينبغي بذل المزيد من البحث والتحري فيه. وتقترح هذه الحقيقة أهمية عوامـل الـسياق فـي استخدام الأطفال للكلام الاجتماعي والكلام المتصل بالأنانية أيضًا.

(٢) كما حدث في حلقات سابقة، لم يُظهر الأطفال انصراف بعضهم من مكان اللعب بتعبيرات لفظية تدل على ذلك، ولم يبد أنّهم افتقدوهم بعد مغادرتهم المكان.

(٣) يتشابه لعب الأطفال حول خارج إطار صندوق الرمل مع لعـبهم فـي دور اللعب الصغيرة المخصصة لذلك في أنّ الأطفال يستخدمون الأدوات المنزلية العادية أو يصنعونها (الطهي، والتنظيف... إلخ.) ومع ذلـك، فإنّـه لا يـتم توزيع أدوار محددة عليهم في اللعب حول صنـدوق الرمـل (دور الأم، أو الأب، أو الطفـل... إلخ.)، كما تُوزع كثيرًا وهم في دور اللعب الـصغيرة (*Corsaro, 1985: 26*).

وتدبر المذكرات النظرية أيضا مكائد لمسار الباحث المعرفي. ولدى قراءة هذه المذكرات بشكل معني بالظواهر، مثل الملامح اللغوية، لأنها تتغير بمرور الزمن، بعد بضعة شهور من العمل الميداني، يستطيع الإثنوجرافي أن يعيد تشكيل الطريقة التي تغيرت بها فرضياته النظرية، وتفسيراته، ومخططاته المعرفية بمرور الزمن. وهناك طريقة نافعة للاستفادة من هذه التأملات، وهي أن يسأل المرء نفسه بعد كل دورة من دورات الملاحظة. "ما الأشياء الجديدة التي تعلمتها اليوم؟"

١٢- ٣ - ٤ المذكرات الوجدانية

أنكرت الوضعية والنزعة العلمية المفرطة لفترة طويلة دور العواطف والنواحي الوجدانية في النشاط العلمي. ولحسن الحظ، فإنّ هذا الوضع أفسح الطريق بشكل كبير في العلوم الاجتماعية للرأي القائل بأنّ العواطف ليست مهمة فقط، لكنّها لا يمكن إزالتها أو عدم استخدامها. لقد أظهرت العلوم المعرفية (١) أنّ الأحداث التي تتم ملاحظتها، والدعاوى النظرية، وحالات الفهم المسبق يتم تكثيفها بشكل لا سبيل إلى الخروج منه في قالب تفسير لها، و(٢) أنّنا نتعلم على أساس عواطفنا. لذا فإنّ العواطف والنواحي الوجدانية (التقمص الوجداني "أو الاعتناق" على سبيل المثال) موارد جوهرية للفهم. أو على العكس من ذلك، قد تكون السبب في حدوث سوء الفهم.

ويكتب كورسارو (*1985: 295*) أنّ الغرض من المذكرات الوجدانية هو الاستيلاء على مشاعر الباحث، وأحاسيسه، وردود أفعاله تجاه المعالم المحددة للحدث الذي يجري ملاحظاته عليه. بمعنى آخر ينبغي أن تقدم تقريرا عن نتائج نوع من تحليل الذات. ويقدم سيكوريل (*1986: 51 - 52*) مثالا لهذا الاتجاه التحليلي:

على سبيل المثال، إذا وجدت لدى قراءتك لملف صبية صغيرة أنّ والديها منفصلان بالطلاق، ما هو رأيك، وفيم تفكر؟ كيف يمكن أن يؤثر ذلك فيك عندما تبدأ في توجيه اهتمامك بتلك الفتاة؟... وإذا أساءت إليك الفتاة أو عاملتك معاملة سيئة، كيف يؤثر ذلك في الطريقة التي تحلل بها المعلومات؟ يجب علينا أن ندرك ونحدد بوضوح كل الظروف التي يمكن أن تؤثر في الباحث... كيف تعكس ردود أفعالنا عن البيانات والمعلومات نماذجنا الفكرية والعقلية عن الناس عامة، وعن أشخاص معينين كثيرًا ما نحتك بهم؟

إنّ المذكرات الوجدانية، التي تظل هي الأدوات الخاصة للباحث، تساعد على إدراك الصور النمطية والأحكام المسبقة (بقدر ما يكون ذلك ممكنًا من الناحية الإنسانية)، والمخاوف والمعتقدات التي يمكن أن يحتفظ بها الإثنوجرافي تجاه الفاعلين أو المبحوثين الذين يُجري دراسته عليهم. وقد تشمل هذه المذكرات أيضًا الإحباطات التي يتعرض لها الباحث، كما هو موضح في المثال التالي الذي قدمه كورسارو (*1985: 26*).

المذكرات الوجدانية

وجدت في وقت سابق أنّ أي محاولة لتسجيل كل شيء قاله الأطفال محاولة عقيمة وغير مثمرة. ونتيجة لذلك، كنت كثيرًا ما أعتمد على الملخصات في هذا المجال. لقد بدا أنّ ريتشارد قال إنّه قد حان وقت التنظيف حتى يتمكن من تفريغ رمل جاك، لكن كان من الواضح أنّ جاك لم تنطل عليه حيلته

لو قُرنت المذكرات الوجدانية بطريقة متعلقة بالظواهر، مثل المعالم اللغوية، وهي تتغير بفعل الزمن، فإنّها تخبر الباحثين عن مدى التغير الوجداني الذي حدث داخليم خلال إجراء البحث، مشيرين للمسافة بين حالتيم النفسية في بداية البحث ثم في نهايته.

١٢- ٣ - ٥ التلخيص

يمكن تلخيص عمل تدوين المذكرات في المراحل التالية:

(١) في أول أسبوعين أو ثلاثة، اغمس نفسك طوال الوقت في المكان الذي تجري فيه ملاحظتك (***Schwartz and Jacobs, 1979: 251***). وسوف يفرز هذا فوائد التوجه المعرفي للغريب. وكما يؤكد جوفمان: "هناك دورة نشاط وحيوية عند دخول الميدان. سوف ترى في أول يوم أكثر مما ستراه في أي يوم آخر، وسوف ترى أشياء لن تراها مرة أخرى، لذا ينبغي عليك تدوين ملاحظات طول الوقت في أول يوم" (١٩٨٩:١٣٠). ومع ذلك، فمن الأسبوع الثالث وما بعده، تضعف هذه الحساسية وتهبط بسرعة، ويبدأ الموقع في أن يصبح مألوفًا لديك بعاداته وطقوسه.

(٢) دوّن باختصار وعلى عجل في الحال (***Emerson, Fretz and Shaw, 2001: 356***) ما تلاحظه، وأقوى أحاسيسك وانفعالاتك، والأفكار التي تقفز في عقلك، وحدسك وبديهتك: "اكتب (مُذكراتك الميدانية) بغزارة بقدر الإمكان، وبحرية تامة بقدر الإمكان، طول الوقت الذي تقحم نفسك فيه في العمل" (***Goffman 1989: 131***)؛ ولكي تُسهّل من مهمة جمع المذكرات النظرية والميثودولوجية أو الوجدانية، يمكنك حمل جهاز مسجل صوت صغير

والتكلم فيه كما هو الحال مع "ديل كووبر" العميل السري بمكتب التحقيقات الفيدرالي بالولايات المتحدة في المسلسل التليفزيوني الأمريكي "القمتان التوأم"، وهو يقوم بتسجيل أفكاره على جهاز تسجيله أثناء البحث والتحقيق.

(٣) عليك بعد ذلك بإعادة قراءة مذكراتك، ثم تولى تصنيفها، ولخصها في عبارات قصيرة (*Corsaro, 1985: 295*) وكلمات مفتاحيه، وضعها في الملفات الأربع التي تحوي مذكرات الملاحظة، والمذكرات الميثودولوجية، والمذكرات الوجدانية، والمذكرات النظرية.

(٤) خطط لتحديد وقت معين خلال اليوم لكتابة وتنظيم مذكراتك. وينبغي أن يُخصص لهذا الغرض وقت يتساوى مع الوقت الذى خصصته لإجراء الملاحظة (***Lofland, 1971: 104***) ينبغي أن تطبع مذكراتك الميدانية كل ليلة (و) عليك أن تفعل ذلك كل ليلة لأنّ لديك قدرًا هائلاً من العمل ينبغي أن تؤديه بعد ذلك، وسوف تبدأ في نسيان ما ينبغي تسجيله الليلة (***Goffman, 1989: 130***). وإذا كانت الملاحظة فارضة نفسها عليك بحيث لا تستطيع تدوين مذكراتك في الوقت المناسب، فمن الأفضل "تبديل فترات الملاحظة مع فترات الكتابة بالتناوب" (***Hammersley and Atkinson, 1983:L 150***) حتى لا تهمل الكتابة. وهناك اقتراح بجدول زمني، وهو: تخصيص ٢٥% من وقتك للملاحظة؛ و٢٥% لكتابة المذكرات الميدانية؛ و ٢٠% لتحليل التوثيق الميداني؛ و ٣٠% لكتابة تقرير البحث.

(٥) وبعد مرور بعض الوقت، أعد قراءة مذكراتك التي أصبحت مُقسمة الآن ومخزونة في ملفات مختلفة، وحاول إثراءها بتأملات من عندك أو بتفاصيل جديدة.

اختيار وثائق مفيدة

قانون المكتب

تظهر الأوراق الحيوية المهمة حيويتها وأهميتها بانتقالها بشكل تلقائي من المكان الذي تركتها فيه إلي حيث لا يمكنك إيجادها.

تمتلئ المؤسسات والجمعيات والجماعات بالوثائق التي تصدرها تلك المؤسسات أو الجمعيات أو الجماعات (كتيبات، تعليمات وتنظيمات، رسائل... إلخ.) أو التي كُتبت عنها (مقالات صحفية، دعايات... إلخ.)، وتُخزّن هذه الوثائق في الأرشيف (رقمي، أو مستند على الأوراق) أو أنّها يمكن استرجاعها على الإنترنت. ولو كان للمؤسسة أو الجماعة وثائق قليلة فقط، فلن يكون هناك صعوبة في قراءتها. لكن لو كان هناك مئات من الوثائق، فكيف تستطيع أن تجد ما تصبو إليه من وثائق من بينها؟ ابدأ دائمًا من موضوع البحث، وابحث عن الوثائق المتصلة به. على سبيل المثال، لو كان موضوعك هو ممارسات عمل العمال الميكانيكيين لأحد مراكز الاتصال، قد يكون من المفيد حصولك على نصوص الاستجابة التي يتبعونها عند تلقيهم مكالمات من الزبائن (نشاط داخلي)، أو عندما يتصلون بالزبائن لبيع منتجاتهم (نشاط خارجي). وقد يكون من المفيد أيضًا أن تقرأ العقد الذي يحدد حقوق العمال الميكانيكيين وواجباتهم. وقد تكون الإعلانات، والدعايات، والمعلومات التي تُنشر في لوحة الإعلانات مفيدة جدا أيضا؛ وبالمثل هناك أيضًا وثائق اتحاد النقابات المهنية أو التقارير والإحصائيات الصادرة من الشركة (على سبيل المثال، عن حجم الأعمال، ودوران المبيعات الإجمالية بين العمال الميكانيكيين، رقم الاتصالات التليفونية... إلخ.) وأخيرا، قد يكون المخطط البياني لتنظيم الشركة مصدرا قيما للمعلومات. لاحظ، مع ذلك، أنّه من الأفضل دائمًا قراءة هذه الوثائق بعد ما تكون قد انتهيت من إجراء دورات ملاحظة متعددة، وبعد

ما تكون قد حاولت أن تفهم عادات وتقاليد المؤسسة الاجتماعية وثقافتها: وبهذه الطريقة سوف لا تتأثر *مقدمًا أو بشكل قبلي* (كما رأينا عند مناقشة مفهوم "السياق" في ١٠ - ٧). وبالتالي عليك بقراءة ممارسات المؤسسة (التي تكون غير رسمية في معظم الأحيان) من خلال الوثائق (التي تكون رسمية في معظم الأحيان). ولأنّ المذكرات الميدانية والوثائق أنواع نصوص مختلفة، ينبغي عليك استخدام الوثائق لتفسير مذكراتك الميدانية، وليس لتستبدلها بها أو تجعلها تحل محلها. وبهذه الطريقة، تساعد الوثائق على تأطير ملاحظاتك واستدلالاتك، وأن تُثبت وتعزز، أو تدحض وتفنّد فرضياتك.

١٢ - ٥ الإحصائيات الإثنوجرافية

يبني الباحثون الإثنوجرافيون قاعدة بياناتهم بالملاحظة وكتابة مذكراتهم عنها في المقام الأول، وقد يحتفظون بمذكراتهم الميدانية كنصوص مكتوبة، أو قد يحولونها إلى الشكل الرواني الذي يُستخدم في الإحصائيات الوصفية بشكل نموذجي قياسي.

أجرى عالم النفس الأمريكي ديفيد إل. روسينهان ***David L. Rosenhan*** وزملاؤه بعض التجارب صغيرة الحجم لإصدار دراستهم (انظر ٥ - ٨) حول البناء التنظيمي للأمراض العقلية. وتركزت إحدى هذه التجارب على "ردود أفعال العاملين (أي أطباء الأمراض العقلية، وجهاز التمريض والمساعدون) على الاحتكاكات والاتصالات المباشرة مع المرضى" (*1973: 132*) واختبروا الفرضيات التالية:

لقد عُرف منذ وقت طويل أنّ مقدار الوقت الذي يقضيه أي شخص معك يمكن أن يكون مؤشرا لأهميتك عنده، فلو بادر وحافظ على تلاقي عينيه مع عينيك، فيكون لك سبب يجعلك تعتقد أنّه يدرس طلباتك واحتياجاتك، ولو توقف عن الدردشة والحديث معك

أو وقف بالفعل بعد أن كان جالسًا وتكلم على هذا النحو، هنا يكون لديك سبب تستنتج من خلاله أنّه يتفرد ويريد أن يفصل نفسه عنك (١٩٧٣: ١٣٢).

ولكي يجري روسينهام وزملاؤه (الذين كانوا قد نجحوا في دخول عدة مستشفيات بزعم أنهم مرضى عقليون) ملاحظة على العناية التي يوليها العاملون في المستشفيات للمرضى، كانوا يقتربون من الأعضاء العاملين ويوجهون لهم بأدب أسئلة واقعية محددة ملائمة للموقف: على سبيل المثال، متى سيقدمونهم للقاء هيئة العاملين بالمستشفى، أو متى سيكتبون لهم الخروج منها؟ [٤]

ويقارن الجدول ١٢ - ١ بين الاتصال الذي يبادر مدعو المرض (روسينهان وزملاؤه) بإجرائه مع الأطباء النفسيين، وبين الاتصال مع جماعات مهنية أخرى (كلية جامعية وأطباء المركز الطبي لجامعة ستانفورد). ويظهر الجدول أن الأطباء النفسيين لم يبذلوا أي اهتمام تقريبًا بمرضاهم.

الجدول ١٢-١ اتصال المبادرة الذاتية التي قام بيا مدعو المرض مع أطباء الأمراض العقلية، والممرضين والممرضات، والمساعدين، مقارنة مع اتــصالاتهم ومقابلاتهم مع جماعات أخرى.

	مستشفيات الأمراض العقلية		الحرم الجامعي	أطباء المركز الطبي		
الاتصال	(١) الأطباء النفسيون	(٢) الممرضون والمساعدون	(٣) الكلية	(٤) البحث عن طبيب نفسي	(٥) البحث عن طبيب باطني	(٦) لا يوجد تعليق إضافي
ردود الفعل						
ينتقل لمكان آخر، مع تغيير اتجاه الرأس لتجنب التقاء العيون %	٧١	٨٨	٠	٠	٠	٠
يقوم باتصال عيني (%)	٢٣	١٠	٠	١١	٠	٠
توقفات وحديث ودردشة (%)	٢	٢	٠	١١	٠	١٠
وقوف وأحاديث (%)	٤	٠,٥	١٠٠	٧٨	١٠٠	٩٠
متوسط عدد الأسئلة التي تمت الإجابة عنها (الدرجة النهائية ٦)	٠	٠	٦	٣,٨	٤,٨	٤,٥
المستجيبون (بالعدد)	١٣	٤٧	١٤	١٨	١٥	١٠

* غير قابل للتطبيق

(المصدر: *Rosenhan, 1973: 134, Table 1*)

كان اللقاء كثيرًا ما يأخذ الشكل الغريب التالي: (مدعي المرض النفسي: "عفوًا، هل تتفضل بإخباري متى أكون مؤهلاً لدواعي الامتيازات؟" (الطبيب): "صباح الخير يا ديف. كيف حالك اليوم؟" (ثم يبتعد دون انتظار أي رد) (*1973: 133*).

ويسود الاعتقاد أنّ الأساتذة الجامعيين بصورة عامة والجامعات البارزة مشغولون جدًا لدرجة أنّهم لا يجدون وقتا لطلابهم. ومع ذلك، ادعت فتاة أنّها طالبة واقتربت من أعضاء هيئة تدريس في إحدى الكليات كلاً على حدة، وكانوا يسيرون كما يبدو وفي نيّتهم التوجه لاجتماع هام أو لارتباط كل منهم بموعد محاضرة علمية، وألقت عليهم أسئلة ملائمة (كانت تتطلب إجابات طويلة في بعض الأحيان) وكانت دائمًا، وبلا استثناء تتلقى ردًا على كل سؤال طرحته لأي منهم: "بصرف النظر على مدى العجلة التي كانت تميزهم جميعًا، فإن كل المستجيبين لم يكتفوا بالتقاء أعينهم بعينيها، إنما توقفوا عن السير كي يتحدثوا معها. في الواقع، غيّر كثير من المستجيبين طريقهم كي يوجهوا السائلة للمكتب الذي كانت تسأل عن مكانه، أو ليصطحبوها بأنفسهم له..." (*1973: 135*). وفي الختام:

إنّ الدرجة العامة لردود الفعل التعاونية أعلى كثيرًا بالنسبة للجماعات الجامعية تلك عما كانت تلك الدرجة بالنسبة لمُدّعي المرض في مستشفى الأمراض العقلية. وحتى مع ذلك، فإنّ الفوارق كانت واضحة داخل نطاق موقع كلية الطب. وبمجرد أن أشارت إلى أنّها كانت تبحث عن طبيب نفسي، فإنّ درجة التعاون المُستنبطة كانت أقل عما كانت عليه عندما كانت تبحث عن طبيب باطني (*1973: 135*).

الإحصائيات الإثنوجرافية مقابل إحصائيات المسوح

من المهم ألا نخلط بين الإحصائيات الإثنوجرافية وإحصائيات المسح (المسحية). وكما سبق أن شرحنا باستفاضة أكبر في 2 .7 .1، فإنّ البحث الإثنوجرافي يختلف عن منهجية المسح من حيث إنّه نادرًا ما يحاول قياس الظواهر. والأكثر تواترًا، أنه يحسب ويعد فقط – كما هو الحال في المثال المذكور أعلاه حول الاتصالات البصرية بين العاملين في المستشفى والمرضى. القياس يتكون من أشياء مستمرة ودائمة (على سبيل المثال: الوقت، والدخل، والطول... إلخ.) بينما يتكون الحساب والعد من أشياء يمكن أن تُعد (على سبيل المثال، الناس في غرفة انتظار الطبيب، أعضاء الفرقة الموسيقية، الكتب في المكتبة العامة، الملفات التي تتعامل المكاتب الرسمية بها) ونادرًا ما تجد قياسات في البحث الكيفي، ومع أنّها تبرز على نحو غير متوقع أحيانًا في البحث في تحليل المحادثات عندما يُجرى قياس عن فترات التوقف والصمت (والصمت هو الذي يقاس بشكل أعم)، فإنّهما رغم ذلك لهما أهمية قليلة في تحليل من هذا النوع.

ويُستخدم العد والحساب في الإثنوجرافيا للحصول على معلومات لغرضين:

(١) لتحديد مدى الظاهرة التي تتم ملاحظتها.

(٢) لتوثيق الفرضيات.

وقد تكون الظاهرة التي يتم عدّها وحسابها بالأرقام أفعال تفاعلية (على سبيل المثال: عدد الأسئلة التي يتم طرحها في مقابلة ما، عدد مرات مقاطعة المتحدث في محادثة، أو المدة الزمنية لإجراء طقس معين).

دراسة حالة

الحساب والعد

عندما كان ميهان، وهيرتويك وميلز يدرسون البنية الاجتماعية للفشل الأكاديمي الذي واجهه الطلبة المعوقون، تولوا جمع التفسيرات أو "نظريات المعلمين" التي قدمها ١٥ معلمًا من المدرسة التي أُجريت عليها الملاحظة. ثم قام المؤلفون بتصنيف "نظريات المعلمين" تلك إلى ١٢ فئة (عدم قدرة معرفية، مشاكل سيكولوجية، الحالة البدنية... إلخ.) ثم قاموا بعد ذلك بمسح أكثر تفصيلاً حول الفئات الثلاث التي يذكرها المدرسون في معظم الأحيان. وساعد المسح الإحصائي المدرسين على التركيز على التفسيرات التي أُوليت أعظم الأهمية في الممارسات التعليمية.

بدلاً من ذلك، وفي دراسة عن التفاعل بين الأطباء ومرضى السرطان، استخدم (*Silverman, 1984*) العد لدعم انطباعه بأنّ المقابلات مع الأطباء الخصوصيين أقصر بشكل كبير من المقابلات التي تتم مع الأطباء الذين يعملون في المستشفيات العامة. واكتشف سيلفرمان أنّ هذا الاختلاف لم يكن يعتمد على مهنية الأطباء الخصوصيين (في الحقيقية، وفي أثناء العلاج، كان المرضى الخصوصيون يشاركون أكثر في التفاعلات، وكانوا يطرحون ضعف عدد الأسئلة المعتاد طرحها في المقابلات التي تُعقد مع أطباء القطاع العام). والأحرى أنّ ذلك كان يرجع إلى جدول المواعيد الذي كان يحدد مقابلات متعددة خلال الساعات المخصصة لعياداتهم حتى يمكن علاج أكبر عدد ممكن من المرضى: كانت هذه البيانات والمعلومات الكمية مراجعة مفيدة على المطالب المفعمة بالحماس حول درجة الاختلاف بين العيادات العامة والعيادات الخاصة (*Silverman 2000,147*).

العد بالتالي يمكِّن الإثنوجرافيين من توثيق البديهيات، والأحاسيس أو الانطباعات الأولية بدقة أكثر.

وأخيرًا، يُمكّنهم العد أيضًا من مراجعة المدى الذي تكون الظاهرة التي يتم ملاحظتها تمثل فيه المؤسسة أو التنظيم الذي تُجرى عليه الدراسة.

١٢-٦ اقتناص لحظة "حياتية" عابرة: جمع الصور

تستخدم الإثنوجرافيا المعاصرة التقنيات الإلكترونية استخدامًا متزايدًا. كانت أنماط السلوك يتم تدوينها فيما مضى بالقلم على الورق (المذكرات الميدانيةَ، والرسومات، والاسكتشات) ثم جاءت الكاميرات، وتلاها مسجلات الصوت ثم كاميرات الفيديو فيما بعد. وأصبحت أجهزة التسجيل الإلكترونية أو الرقمية متاحة اليوم على نطاق واسع. لكنّها لا تحل محل الأسلوب القديم للمذكرات الميدانية بالورق والقلم؛ لكنّها بالأحرى دعّمت الأسلوب القديم وأصبحت إضافة وتكملة له. وكما يُعبر عن ذلك أخصائي الأنثروبولوجيا أليساندرو ديورانتي *Alessandro Duranti* قائلاً:

> **الكتابة تقنية فقيرة لوصف ثراء التجربة، (لأنّ) تسجيل الفيديو جيد النوعية، أو الفيلم ذي المدرج الصوتي (أو الحامل للتسجيل الصوتي) للحدث يحتوي على قدر أكبر من المعلومات عما يحويه وصف كتابي له. وفي نفس الوقت، صحيح أيضًا أنّنا لا يمكننا أن نصنع تسجيلات بصرية وسمعية لكل شيء... وأنّه قد يكون هناك مواقف يكشف التسجيل الكتابي عن مكنونها أكثر مما يكشفه التسجيل البصري؛... يمكن أن تضيف المذكرات الإثنوجرافية أبعادًا للوصف والتصوير لا يمكن أن يلتقطها شريط التسجيل ولا حتى شريط الفيديو(*1997a: 113: 109*).**

التمرين ١٢ - ٢

أجر هذه التجربة: شاهد تسجيلاً لشريط فيديو لمكان لم تقم بزيارتـه مطلقـا من قبل، ثم شاهد تسجيلاً لشريط فيديو لمكان آخر قضيت فيـه بعـض الوقـت، وسوف تحصل على إحساسين مختلفين كثيرا عن بعضهما، لأنّـه فـي مـشاهدة الشريط الثاني "هناك بُعد اختباري ذاتي بأنّك" كنت هناك "أي أنّـه لـيس مـرئيا أو مسموعا على شريط" (*Duranti, 1997a: 115*).

كمـا ذكـرنا في مقدمة هذا الباب، حيث تمت مناقشة انتقائية الوصف التي لا يمكن تجنبها، فإنّ أي وسيط أو وسيلة يمكن أن تفرز تفسيرا جزئيا فقط. ومـن المؤكد أنّ هذا الوسيط يمكنه أن يفهم ويعي النواحي المختلفة للظاهرة التي يريد أن يستولي عليها. وما هو أكثر من ذلك، فإنّه من المؤكد أنّه يفقد نواحي متعددة منهـا أيضا، كما يحدث مع الترمومتر تماما، فإنّ "قوة الترمومتر... هي بالـضبط أنّـه يمكنه أن يتجاهل أي شيء عدا قياس درجـة الحـرارة" (*Duranti,1997a: 114*)، وبالتالي فإنّ قوة أي وسيط (جهاز تسجيل، أو آلة تصوير، أو جهاز فيـديو) هـي أيضا نقطة الضعف فيه. على سبيل المثال، من المؤكد أنّ جهاز التـسجيل أفـضل من الذاكرة أو المذكرات الميدانية في تسجيل محادثات كاملة، مهما كنا متفوقين في الاستماع والتذكر. لكن جهاز التسجيل أيضا أداة لا تميز بين البشر، وبالتالي فهـو (في هذه الحالة) في النهاية أداة غبية، لأنّه يقلّص كل شيء لتصبح الأشياء جميعـا في نفس المستوى المنخفض، وهو يعامل كلام المشارك في البحث بنفس قدر أهمية احتكاك كرسيه على البلاط. كلاهما ضوضاء بالنسبة لجهاز التسجيل (وغني عـن القول أنه أخصائي عظيم في الفلسفة الظاهراتية)، وهو يسجلهما بكثافة متساوية.

يمكن استخدام تسجيلات الفيديو لالتقاط تفاصيل مهمة للتفاعلات بحيث يمكن إعادة مشاهدتها عدة مرات، لكنها تستغرق لحظات عابرة. و"بينما يختار الكاتب (الذي يستخدم المذكرات الميدانية بذكاء) ما ينبغي أن يلقي عليه الضوء، وما ينبغي أن يهمله ويتغاضى عنه... هناك قدر أقل من التنظيم الهرمي في الصورة" (*Coffey et al., 2006: 22*) – انظر التناقض بين المذكرة الميدانية والصورة في (*10 – 5*). ومع ذلك، فقد يكون هناك أشياء كثيرة مهمة أخرى تحدث خارج نطاق محدد المنظر في كاميرا جهاز الفيديو، لأن المشاركين يتحركون خلفها، أو ببساطة لأنهم يذهبون لأماكن أخرى في المؤسسة. وكما يكتب ديورانتي قائلاً: "لقد وجدت أنّ المذكرات الميدانية تحتوي على معلومات في غاية الأهمية تساعدني على وضع ما سجلته على شريط في إطاره الصحيح (*1997a: 166*).

وميزة إعطاء كل وسيلة من هذه الوسائط ما تستحقه من أهمية هي أنّنا "لا نضطر أن نشغل أنفسنا في البحث بلا أمل عن أداة التسجيل الممتازة أو الوصف التام والمطلوب فعلاً... وما نحتاج فعله بدلا من ذلك هو فهم الخصائص المحددة لمثل هذه الوسائط" (*Duranti, 1997a: 114*).

١٢–٦–١ إرشادات ونصائح

بدأت ممارسة الباحث للتسجيل بالفيديو في الانتشار في بدايات السبعينيات. وأصبح لدينا تبعا لذلك كم هائل من مجموع ما كُتب وصُوّر في ما يخص الطرق التي يمكن بها تسجيل حدوث التفاعلات على الفيديو بشكل طبيعي.

النزوع للتطفل

هناك قضيتان اشتد الجدال حولهما عندما أصبح جهاز الفيديو متاحا على نطاق واسع لأول مرة، وهما نزوعه للتطفل وتدخله من غير مبرر في أمور ليست من شأنه، وقدرته على استمالة المشاركين على اللجوء للسلوك المصطنع الذي ليس

من طبيعتهم. ومع ذلك، فقد هدأت حدة هذه الشواغل والاهتمامات بمرور الوقت. أولاً، لأنّ جهاز الفيديو ليس أكثر تطفلاً وتدخلاً واقتحامًا لحياة الآخرين من الإثنوجرافي (ربما كان أقل منه حقيقة) علاوة على ذلك، فإنّه من حيث المبدأ، لا يوجد شيء مما نُسمّيه سلوكًا "طبيعيًا": إنّ كل سلوك يتكيف مع إطاره ومحيطه، وينبغي مراعاة الاهتمام أيضًا بطرق استخدام المشاركين له (*Wolfson, 1976*). وكما يشير ديورانتي:

> **من المؤكد أنّ وجودنا كملاحظين يتسم بتطفل وتدخل أكثر في بعض المواقف عن بعضها الآخر. وهناك فرق بين المشي بالكاميرا في أيدينا داخل غرفة يتبادل فيها اثنان الحديث، وبين إحضار الكاميرا لحدث عام يتواجد فيه العشرات من الناس (*1997a, 118*).**

إضافة إلى هذا، فقد أصبح مجتمعنا مجتمعًا تقنيًا بدرجة عالية مقارنة بمجتمع السبعينيات، كما أصبحت كاميرا الفيديو شيئًا مألوفًا، وفي متناول اليد بسرعة وسهولة، ويستخدمها غير الباحثين أيضًا. وقد اكتشفت ممارسة البحث أنّ المشاركين في البحث يشعرون أنّ جهاز الفيديو يكون متطفلاً عندما تحدث أول دورات تسجيل عن طريقه. وبعد ذلك، ووسط خضم الأحداث والأمور الروتينية، ينسون وجود ذلك الجهاز "الطائش":

> **ربما باستثناء *سلوكيات واضحة أمام الكاميرا* (على سبيل المثال، أنواع معينة من الاهتمام بالكاميرا وإدراك وجودها أو تقديم التحيات لها كالتحديق فيها والابتسام أمامها)، فإنّ الناس عادة لا يخترعون سلوكيات اجتماعية، بما في ذلك اللغة، على نحو غير متوقع... فهم يكونون مشغولين أكثر من اللازم في إدارة شئون**

حياتهم الخاصة بحيث لا يفكرون في تغيير تصرفاتهم بشكل ملموس بسبب وجود آلة جديدة أو شخص جديد عليهم (*1997a 118*).

دراسة حالة

كشف التطفل

هناك مؤشرات يمكن أن تكشف مدى تطفل أو عدم تطفل كاميرا الفيديو. في المركز الأمريكي للاتصالات في حالات الطوارئ الطبية الذي قدمناه في ١٠- ٦- ٢، هناك مشهد يمر فيه عامل تشغيل فنّي من أمام كاميرا الفيديو. نجده ينظر للكاميرا ثم يواصل أداء أنشطته وأعماله المعتادة. وفي مناسبات أخرى متعددة، نجده يحك (يهرش) المنفرج ما بين رجليه، وهذه حركة مبتذلة يعتاد بعض الرجال فعلها. ويمكن أخذ حقيقة أنّ ذلك العامل الفنّي لم يكبح نفسه، رغم أنّه كان يعرف أنّهم يصورونه في فيلم وثائقي، كمؤشر جيد للتطفل والتدخل الضئيل في كاميرا الفيديو في ذلك السياق.

وهناك طريقة مفيدة لتقليل تطفل كاميرا الفيديو، وهو وضعها، وهي مغلقة، في مكان التصوير بمجرد البدء في الملاحظة، حتى تصبح مألوفة بالنسبة للمشاركين بالتدريج باعتبارها زخرفة أو زينة أو إحدى قطع الأثاث في المكان (كورسارو، ١٩٨٢). وأخيرًا، ينبغي أن نضع في الاعتبار أيضًا أنّ هناك مهنيين معينين (قضاة، ومحاميون، ورجال سياسة، وشخصيات المشاهير ممن يقدمون كل أشكال الترفيه، وصحافيو التليفزيون... إلخ.) والذين تكون ملاحظتهم جزءًا من عملهم أنّه يمثلون أو يتصرفون باستمرار أمام جمهور من المشاهدين.

جمع الصور

ليس من الضروري دائما جمع البيانات بشكل مباشـــر (***Silverman,2000***)؛ وبالمثل، ليس من الضروري دائما التقاط صور فيديو أصلية. في الحقيقة، تـصدر المؤسسات العامة والخاصة وثائق متعددة على هيئة صور يمكن تحليلها. وتُركّـب الآن كاميرات فيديو في عدد كبير من الأمــاكن العامــة: الـشوارع، والميــادين، والحدائق العامة، والبنوك، ومكاتب البريد، والمطارات، ومحطات القطارات، ومــا إلى ذلك. ويمكن للباحث الحصول على هذه المواثيق بغرض التحليل الأولي علــى أقل تقدير[٥].

ومع ذلك، فإذا تطلب موضوع البحث تـسجيلات فيـديو أصـلية، فعليـك الاعتماد على الخبرات السابقة لباحثين آخرين واتباع نصائحهم. ينبغي أولاً تثبيـت الكاميرا في مكان معين، بمعنى أنّها ينبغي أن تظل مُوجّهة بـشكل مـستقر علــى المشهد. إنّ تقنيات تصوير الأفلام التليفزيونية ليس لها إلا فائدة قليلة فــي البحــث الاجتماعي: ينبغي ألا تُستخدم كاميرا الفيديو لفحــص الموضــوع بـشكل أفقــي باستمرار كي يظهر المتحدث في صورة من صور فيلم سينمائي (كما في البــرامج الحوارية) أو تُكبّر تفاصيل وجه المتحدث أو الجزء العلــوي مــن جـسمه علــى الشاشة[٦]. اجر سلسلة من الاختبارات لتستقر على أفضل زاوية للكاميرا، الزاويــة التي تقدم إطارًا للمكان بشكل تام بقدر الإمكان. وفي الغــرف الـصغيرة، عليـك باستخدام عدسة زاويتها عريضة، وينبغي أن تظل الكاميرا مُثبتة لتسجيل التفاعلات في السياق. وحدد أفضل مسافة للحصول على تسجيل صوتي مفهوم. ولــو كــان المكان فسيحا، استخدم ميكرفونات خارجية أو جهاز تسجيل سهل الحمل وضـعها بالقرب من المشاركين، لأنّ الميكروفونات المُركبة في كاميرات الفيديو عــادة مــا تكون ضعيفة.

١٢-٧ مجيء إثنوجرافيا الوسائط النشطة

مع مرور الوقت، كانت الإثنوجرافيا ولا تزال تثري نسقها من تقنيات جمع المعلومات بشكل مستمر. وقد تم إضافة وإلحاق أشكال توثيق أخرى بالتدريج للمذكرات الميدانية التقليدية:

وبدلاً من العمل بأسلوب أو طريقة واحدة (على سبيل المثال، المنطوقة، أو المكتوبة، أو المرئية)، يبدأ الإثنوجرافيون الآن في دمج هذه الطرق المختلفة معاً، وذلك باستخدام وسائل إعلام مختلفة (مثل تسجيلات الفيديو الرقمية المسموعة، والصور الفوتوغرافية، إضافة إلى المذكرات الميدانية، والوثائق، ونصوص المقابلات). ومع ذلك، فإنّ خلط الوسائط مع وسائل الإعلام مهمة معقدة، وتثير تحديات عملية وميثودولوجية كبيرة للعمل الكيفي (Coffey et al.,2006:15).

ولم يتم التوصل لتحول الإثنوجرافيا حتى الآن. في الحقيقة، إنّ الأمر ديناميكي أكثر، وقد بدأت مناقشات في الآونة الأخيرة حول *إثنوجرافيا الوسائط النشطة* (**Coffey et al.,2006**) أو الإثنوجرافيا متعددة الوسائط (**Coffey et al.,2006:15**)

وتجمع الوسائط النشطة بين مفهومين: الوسائط المتعددة والنص التشعبي. وتشير الوسائط المتعددة لاستخدام، والدمج في معظم الأحيان، بين وسائل الإعلام المختلفة والسيميوطيقا "علم العلامات" (الذي يشمل في غالب الأمر الصور الثابتة والمتحركة، والصوت والرسومات البيانية، إضافة للنص المكتوب) فيكون الجميع بينة واحدة. والنص التشعبي (الإبحار والعبور داخل موادنا

الإثنوجرافية) من خلال ارتباط تشعبي يمكن النقر بالماوس عليه يجعل من الممكن إنشاء وقراءة (صفحة بعد صفحة، ونص بعد نص) شبكات معلومات متعددة الخيوط... وبالتالي فإنّ الوسائط النشطة تستخدم مفهوم وممارسة الارتباط التشعبي، بمواد الوسائط المتعددة أو البيانات (*Coffey et al. 2006: 17*).

ومع ذلك، فإنّ الإثنوجرافيا متعددة الوسائط ليست مجرد بنية اجتماعية مكونة من وحدات صغيرة متعددة، أي خليط من المواد تم تجميعها من وسائل إعلام مختلفة. وعوضا عن ذلك، فإنّه يمكنها إنشاء سيميوطيقا متعددة جديدة يُقدَّم المعنى فيها من خلال العلاقات المتبادلة بين ووسط وسائط مختلفة أو أشكال من البيانات. هل ستحافظ إثنوجرافيا الوسائط النشطة على وعودها، أم هل سوف تثبت أنّها مجرد خدعة؟ سوف نرى خلال السنوات القليلة القادمة.

١٢-٨ ملاحظات ختامية

تتطلب صناعة التسجيلات الإثنوجرافية ببراعة التحلي بالصبر، كما تتطلب دقة وإحكامًا، ومنهجية. وهذه صفات لا تتواجد أحيانًا في الإثنوجرافيات المعاصرة المعنية أكثر من غيرها بمشاكل العمل الميداني (الدخول في العمل، والأخلاق، وعلاقات ميدان العمل) وليست المشاكل المتعلقة بتجميع وتحليل الأدوات والمواد. ومن هنا ينبغي للمرء أن يضع في اعتباره تحذير كليفورد جيرتز ***Clifford Geertz*** في كتابه "الضوء المتاح"، وهو أحد أواخر أعماله، حيث يقول، "لكون العالم أصبح مليئا بعدد كبير من الأشياء، فإنّ الاندفاع في الحكم على الأشياء يُعتبر أكثر من مجرد خطأ، إنّه جريمة" (*2000: 61*).

التمرين ١٢ - ٣ (الجماعة)

القاعدة الثامنة لفينجيل ***Fingale***

العمل كفريق أمر جوهري، فهو يسمح لك أن توجه اللوم لشخص آخر.

لكي تطبق المبادئ التي عرضناها في هذا الفصل والفصل السابق، عليك بأداء التمرين التالي.

(١) شكّل جماعات تتكون كل جماعة من ثلاثة طلاب.

(٢) ينبغي على كل جماعة أن تختار وحدة تجميع معلومات. و"تجميع معلومات" يعني موضوعًا نظريًا (على سبيل المثال، تفاعل بين ساق أو نادل في حانة وأحد الزبائن، أو عند الفحص في المطار اتباع لتعليمات أمن المطار، أو الوقوف في الصف عند مدخل أحد الأندية، أو السينما أو الحفل الموسيقي). وعندما يقع اختيار الجماعة على وحدة تجميع معينة، ينبغي عليها أن تركز على عمل بعينه وله حدود معينة. (على سبيل المثال، شعيرة معينة، أو مناسبة احتفالية قصيرة).

(٣) وبعد اتخاذ القرار الخاص بوحدة التجميع، ينبغي أن تختار الجماعة الموقع الذي ستجري فيه ملاحظاتها. ويُفضّل اختيار موقعين على الأقل (على سبيل المثال، دار سينما في وسط المدينة أو في إحدى ضواحيها، حانتان يتردد عليهما فئتان عرقيتان مختلفتان من الزبائن) لأنّ المقارنة تكشف بسهولة المعالم المميزة للموقع.

(٤) وعند اختيار المواقع، من الأفضل اختيار أماكن عامة، وبهذا لن يكون من الضروري التفاوض على السماح بدخول ميدان العمل. ولأنّ هذا مجرد تمرين (وليس مشروع بحث)، فلا يستحق الأمر تكلفة النفس عناء إجراء

مفاوضات طويلة. وهناك العشرات من المنظمات والمؤسسات التي لها دخول "مفتوح": الحانات، ومطاعم البيتزا، ومنافذ الطعام السريع، والمطاعم، ومكاتب البريد، ومكاتب التذاكر في محطات السكة الحديد، والقطارات، والأتوبيسات، والأسواق التجارية المركزية، والمحلات الكبيرة، ومراكز التسوق أو المجمعات التجارية، والمطارات، والمتاحف، وأقسام الطوارئ بالمستشفيات، والكنائس، والميادين، والمكتبات العامة، وقاعات الجمنازيوم الرياضية، والنوادي الرياضية ... إلخ.

(٥) وما ينبغي اتخاذ قرار نحوه بعد ذلك هو العينة، أي الأحداث التي ستتم ملاحظتها. وإذا كان الطقس المعتاد الذي يقع الخيار عليه يستغرق وقتا قليلاً، (على سبيل المثال: شراء تذكرة مترو أنفاق من ماكينة البيع الأوتوماتيكية) فإنه ستتم ملاحظة عدة حالات في ساعة واحدة فقط. وبدلا من ذلك، لو كان الطقس المعتاد يستغرق وقتا طويلاً نسبيا، (على سبيل المثال: طقس ديني) فسيتم ملاحظة حالة واحدة، أو اثنتين على الأكثر، في ساعة واحدة.

(٦) ينبغي أن يخصص كل عضو في الجماعة دورتين للملاحظة في كل نصف يوم. ويفضل أن تكون دورة منهما في الصباح والأخرى عصر نفس اليوم، وذلك حتى يمكن للجماعة أن تشاهد ما إذا كان الطقس يتغير طبقا للوقت في النهار أم لا.

(٧) ينبغي أن يعطى لكل ثلاثة أعضاء في الجماعة مهمة محددة: يجري العضو الأول منهم ملاحظة الأعراف، والقواعد، والمعايير التي تحكم إجراء الطقس؛ وينبغي على الثاني الاستماع لمحادثات المشاركين؛ وعلى الثالث أن يرسم بالتفصيل ويصف المعالم الرئيسية للمكان المادي الذي تجري فيه

الملاحظة. وليس من الضروري بالنسبة لكل الملاحظين الثلاثة أن يكونوا موجودين في الميدان في وقت واحد: فالطقوس ثابتة واعتيادية أي تعود وتتكرر حتى إنّ الملاحظين على اختلافهم وعلي اختلاف أوقات الملاحظة يشاهدون نفس الأشياء إلى حد كبير. لكن لو كان الملاحظون الثلاثة موجودين في نفس الوقت، فسيكون التمرين ذا فاعلية أكبر.

(٨) وعلى كل واحد من الثلاثة أعضاء تدوين مذكرات إثنوجرافية تتعلق بالمهمة المنوطة بكل منهم وهم في ميدان العمل. وينبغي أن تتبع كتابة مذكرات الملاحظة مبادئ التعريف اللغوي، والترجمة كلمة بكلمة، والواقعية.

(٩) وبمجرد انتهاء كل دورة من دورات الملاحظة، ينبغي على الإثنوجرافي أن يعيد قراءة المذكرات الإثنوجرافية، وأن يصنفها بطريقة نظامية إلى مذكرات ملاحظة، ومذكرات نظرية (فرضيات، ومفاهيم جديدة... إلخ.) ومذكرات وجدانية وميثودولوجية.

(١٠) إذا اعتقدت أنّك حددت أحد الأعراف، وإذا أحسست أنّه من المناسب، حاول أن تُصمم إجراء يخرق ويخالف هذا العرف لتتأكد من وجود ذلك العرف ذاته، ومدى إمكانية انتهاكه.

(١١) اكتب تقريرًا لا يزيد طوله على ١٥ صفحة.

النقاط الرئيسية

- كثيرًا ما اعتُبرت الإثنوجرافيا أنّها ينقصها الدقة والانتظام. إنّ نقاط الضعف الرئيسية في الإثنوجرافيا هي أنه من الصعب التحقق من قواعدها وأسسها التجريبية، وأنّه يمكن التلاعب بسهولة في المعلومات التي تجمعها.

- المذكرات الميدانية عبارة عن كتابات ونقوش.
- إنّ أي وصف (مذكرة ميدانية) هو وصف جزئي بالتحديد، بمعنى أنّه يفترض بالضرورة وجية نظر انتقائية.
- المذكرات الميدانية ليست مجرد تركيبات وإنشاءات فقط، لكنّ المجال نفسه أيضًا نتاج تقنيات تنظيمية.
- يقترح سبرادلي ثلاثة معايير أو مبادئ ينبغي اتباعها عند كتابة المذكرات الإثنوجرافية: تحديد اللغة، الترجمة كلمة بكلمة وحرف بحرف، والواقعية.
- هناك أربعة أنواع من المذكرات الإثنوجرافية على الأقل: تلك الخاصة بالملاحظة، والمذكرات النظرية، والميثودولوجية، والوجدانية.
- ينبغي كتابة المذكرات المبنية على الملاحظة واضعين في الاعتبار المبادئ الثلاثة المذكورة أعلاه.
- ويمكن كتابة أنواع أخرى من المذكرات كما يرغب الباحث.
- ينبغي فحص الوثائق المتعددة لأي تنظيم أو مؤسسة، مع الاحتفاظ بالوثائق ذات الصلة بالبحث فقط.
- وينبغي الوضع في الاعتبار إمكانية جمع الإحصائيات الإثنوجرافية.
- الإثنوجرافيا المعاصرة هي بالضرورة مشروع متعدد الوسائط تُدمج فيه المذكرات الإثنوجرافية التقليدية (التي لا تزال ليا فعاليتها وأهميتها القصوى) بالأدوات والأجهزة السمعية والبصرية.

المصطلحات الرئيسية

اللغة المدموجة: نتاج تبسيط الباحث للتغاير اللغوي وإدخاله في لغته.

المذكرات الوجدانية: تسعى المذكرات الوجدانية للوصول لمشاعر الباحث وأحاسيسه، وعواطفه، وردود أفعاله حول الحدث الذي تتم ملاحظته. بمعنى آخر، ينبغي أن تسجل المذكرات الوجدانية نتائج نوع من أنواع التحليل الذاتي.

الإحصائيات الإثنوجرافية: الإحصائيات الإثنوجرافية: نتيجة حساب أو عد مرات وقوع حدث محددو/أو عدد الناس والأشياء الموجودة في موقع الحدث. والإحصائيات الإثنوجرافية مفيدة في:

(١) تحديد حجم وأهمية الظاهرة التي يتم ملاحظتها.

(٢) توثيق الفرضيات.

إثنوجرافيا الوسائط النشطة: أسلوب إثنوجرافي يدمج نتاج الوسائط المتعددة (النصوص، والأصوات، والصور) وبحث النص المتشعب.

التغاير اللغوي: أنواع اللغات المختلفة، والهياكل الروائية، والأساليب اللغوية الموجودة في المواقع التي تتم ملاحظتها عن طريق الإثنوجرافيين.

المذكرات المنهجية: هي في جوهرها أسئلة أو تأملات حول كيفية التعامل مع المشاكل والمصاعب التي تنشأ في ميدان العمل.

المذكرات المبنية على الملاحظة: المذكرات المتعلقة بالمشاهدة أو المراقبة وصف غير مكثف وتفصيلي للأحداث أو الأفعال التي يشاهدها الباحث أو يسمعها.

مبدأ الواقعية: ينبغي أن تحتوي المذكرات الإثنوجرافية المبنية على الملاحظة أوصافا مكثفة وطبيعية للممارسات الأساسية.

مبدأ تحديد اللغة: هو مبدأ يساعد على الحفاظ على المتغيرات اللغوية. عمليًا، يحتوي المبدأ على تعيين هوية أو شخصية المتحدث بجانب النصوص المُدوّنة للمحادثات أو تبادل الألفاظ.

مبدأ جمع الكلمات حرفيا: كلمة كلمة إلى جانب تحديد هوية وشخصية المتحدثين، يجب على الإثنوجرافي تسجيل ما يقولونه بأمانة.

المذكرات النظرية: هي تطوير للمعنى النظري العام للمذكرات المبنية على الملاحظة.

الوصف المُبسّط (المباشر): وصف فينومينولوجي بسيط وصريح من نوع "اللقطة الفوتوغرافية السريعة".

توصية بقراءة

بالنسبة للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد:

Ball, Mike and Smith, Greg

بالنسبة للخريجين

((Emerson,Robert M. Fretz., Rachel I. and Shaw, Linda L. 2001

بالنسبة للمتميزين ممن يجرون البحوث:

Duranti,Alessandro(1997b)

اختبار تقييم ذاتي

هل أعددت نفسك للباب التالي؟ راجع معلوماتك ومعرفتك بالإجابة عن الأسئلة التالية ذات النهايات المفتوحة:

(١) ما الذي كان يعنيه جريتز بقوله "ولكون العالم مليئا بعدد كبير من الأشياء، يكون الاندفاع بالحكم على الأشياء أكثر من مجرد خطأ، إنه جريمة "؟

(٢) أنت تعرف بالفعل أنّ الوصف المكثف التفصيلي مهم جدا، لكن لماذا يكون الوصف الطبيعي "البسيط" مهما هو الآخر؟

(٣) ما "التفسير للتفسير"، و"الشرح للشرح"؟ وكيف يمكن تجنبهما؟

(٤) ما هو الفرق بين إحصاء المسح الشامل والإحصاء الإثنوجرافي؟

(٥) هل جعلت التسجيلات التي تم تجميعها والتي تستخدم تقنيات سمعية بصرية المذكرات الميدانية قديمة وعفا عليها الزمن؟ لم / لم لا؟

الهوامش

١ - هذا بالتأكيد ليس التصنيف الوحيد للمذكرات الإثنوجرافية. على سبيل المثال، يتحدث الدليل المفيد للممارسة الذي قدمه إمرسون، وفريتز (١٩٩٥) عن "المذكرات الفكرية أو الذهنية"، و"المذكرات المكتوبة على عجل وبإيجاز"، و"كلام يقال على انفراد"، و"تعليقات" و"مذكرات سير العمليات"، وما إلى ذلك.

٢ - لا ينبغي أن نأخذ هذه النصيحة بمعناها الحرفي، لأنّه معنى غير قبل للتطبيق من الناحية التحليلية. في الحقيقة، من وجهة النظر المعرفية، نحن نفسر الأشياء دائمًا، وحتى الأحداث الأساسية هي من تفسيراتنا دائمًا (انظر الباب الرابع).

٣ - إذا وصفنا حجرة ما بأنّها "مرتبة، ونظيفة، وأنيقة" وما إلى ذلك، فهذا ليس وصفًا واقعيًا. هذه الصفات التي تحدد معنى كلمة أو كلمات لا تقدم معلومات عن الحجرة، ولكنّها بدلاً من ذلك تقدم معلومات عن صور نمطية مكررة للإثنوجرافي. على سبيل المثال، فبدلاً من وصف المكان بأنّه أنيق، من الأفضل وصف تفاصيل تلك الأناقة: "كانت الأوراق مرتبة بشكل نظامي على المنضدة، وكانت كل الكراسي مرتبة حول المنضدة، وكانوا قد أزالوا الغبار من على الأثاث"... إلخ.

٤ - للحصول على تفاصيل عن ميثودولوجية هذه التجربة، انظر روزينهان (١٩٧٣: ١٣٢).

٥ - ومع ذلك، ينبغي أن يقرر المرء حالة بعد حالة. في الحقيقة، إنّ تسجيلات الفيديو المتعددة ليس لها فائدة لتحليل التفاعلات. إنّ تسجيلات الفيديو لبعض المؤسسات والتنظيمات (البنوك، ومترو الأنفاق... إلخ.) لا تقدم التفاعلات بين الزبائن أو المستهلكين جميعًا بالتمام والكمال، لكنها تقدم فقط سلسلة متتابعة من صور ساكنة في فيلم تليفزيوني أو سينمائي، وهناك أمثلة لذلك في: *http//earthcam.com/usa/newyork/timessquare/.*

٦ - نفس الشيء ينطبق على النمط الحالي في تصوير حلقات بكاميرات الفيديو القابلة للارتداء (انظر */http//www.justin.tv*). تكون الصور المجمّعة ميزوزة ومركزة على شخص واحد فقط أكثر من اللازم (وليس على الفاعل).

الجزء الثالث

تحليل المادة

الفصل الثالث عشر

تكوين التسجيلات الإثنوجرافية وتحليلها

قانون ماري آن Mary Ann

يمكنك أن تجد دائمًا الذي لا تبحث عنه.

معرفة الأهداف

- اكتساب نظرة عامة للعمل الصبور الذي يتطلبه تحليل البيانات والمعلومات.
- اكتساب معرفة تفصيلية حول الخطوات الثلاث لتحليل البيانات.
- معرفة كيفية تنظيم المواد المُجمّعة.
- التعود على تحليل الوثائق والصور.
- فهم كيفية اختبار الفرضيات والتعامل مع الحالات المنحرفة.
- عمل مسح لحدود وإمكانيات البرمجيات الرئيسية للتحليل الرقمي للمواد المتعلقة بالنص.

١٣-١ مقدمة

إنّ كُتيبات الإثنوجرافيا وكتبها عادة ما تكون مُجردة من توجيهات وتعليمات حول كيفية إجراء تحليل للبيانات. وهي تفضل أن تُسهب في مشاكل تخص نظرية المعرفة حول البحث وفلسفته، والعلاقة بين الباحث والمبحوثين، أو تقنيات جمع

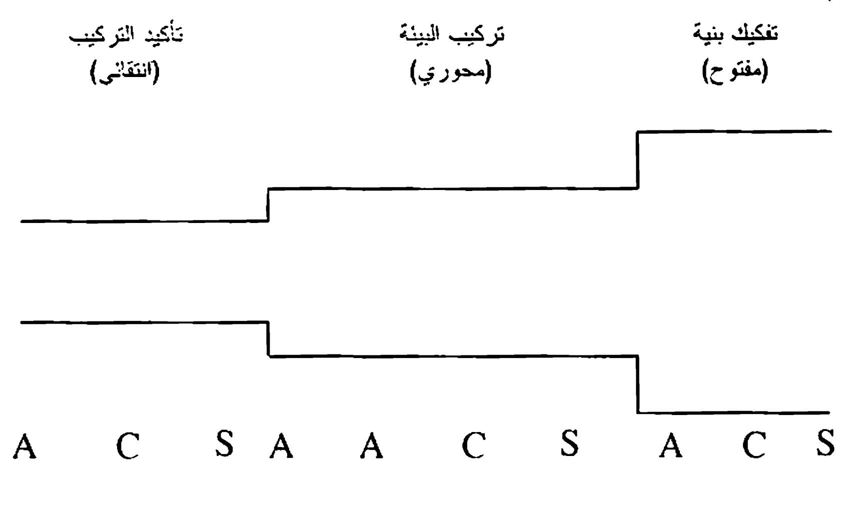
المعلومات. ومن بين الاستثناءات النادرة لذلك ممثلو وأنصـــار النظــرية المُوثّقة أو المؤسسة على بيانات (*Glaser and Strauss - see 3 - 5*) على وجه الخصوص، اللذين قدما إضافات أصلية ميمة متعددة حول هذا الموضوع. وسوف أعتمد على هذه الدراسات في وصف هذه المرحلة الحساسة من العمل الإثنوجرافي.

١٣-٢ التحليل في ثلاث خطوات

ينبغي أن نتذكر أنّه لا يحدث مطلقًا أن يتم تحليل البيانات الإثنوجرافية عقب تحصيلها وتجميعها. وطبقًا لما ذكره الكثير من المؤلفين (ومن بينهم جلاسر وستروس، ١٩٦٧؛ ووايزمان ***Wiseman***، ١٩٧٠؛ وسبرادلي، ١٩٨٠؛ وستروس وكوربن ***Corbin***، ١٩٩٠؛ وتشارمز ***Charmaz***، ٢٠٠٠)، فإنّ تحصيل وتجميع وتحليل البيانات (المذكرات الميدانية، والوثائق، والمواد البصرية) ليست على مراحل مميزة بوضوح. وبدلاً من ذلك، فهي عمليات موصولة ومتشابكة بشدة مع بعضها البعض تتحرك وتتقدم بشكل دائري في تفاعل تبادلي، وذلك لأنّ تحليل البيانات يُحرّك ويدفع تصنيف واختيار العينات وجمع المعلومات التي يتم التركيز عليها بقوة.

ويطرح ستروس وكوربن (١٩٩٠: ٥٩) اقتراح إجراء ترميز وتنظيم البيانات بحيث ينقسم إلى ثلاث خطوات متوالية ومتواترة: تحليل بنية (ترميز وتنظيم مفتوح)، وإنشاء وبناء (ترميز وتنظيم محوري) وتأكيد وتأييد (ترميز وتنظيم انتقائي). وهذا إجراء متطور ومعقد يُمكّن من إجراء تحليل نظامي وفعال. ويفرز هذا الإجراء عملية انعكاسية حلزونية لولبية يتكرر فيها تصنيف واختيار العينات *(S) Sampling* وجمع المعلومات *(C) Collecting* وتحليلها *(A) Analysis*

تضيق بؤرته شيئا فشيئا في كل مرحلة من المراحل الثلاث (انظر الشكل ١٣ - ١).



(قصة)

الشكل ١٣-١ عملية التكوين أو الترميز

ومن ثم فإنّ تجميع البيانات والمعلومات (المذكرات الميدانية، والوثائق، والمواد البصرية) يحدث في كل خطوة من الخطوات الثلاث، لكنّها تخدم هدفًا مختلفًا في كل خطوة منهم: يسعي الإثنوجرافي في مرحلة تفكيك البنية للكشف عن الأعراف والاصطلاحات المنظمة للتفاعلات الجاري ملاحظتها؛ وفي مرحلة التركيب أو إعادة البناء يصمم الإثنوجرافي قصة (نظرية) عن الظاهرة الجاري ملاحظتها؛ وفي خطوة التأكيد تُستخدم المعلومات التي تم تحصيلها وجمعها في توثيق الفرضيات التي تحتويها القصة (النظرية) بطريقة دقيقة وتنظيمية.

وقد أكدت عالمة الاجتماع الأمريكية كاثي تشارماز *Cathy Charmaz* *(2000)* أن *النظرية الموثقة (المؤكدة)* لابد أن تتحرر من مقدماتها المنطقية

الوضعية اليقينية الأصلية المتقنة، وأن تتحرر من الأسس والدعائم الموضوعية، وأن تتطير من افتراضات قوية معينة (السببية، وأعمال تنفيذية، واختبار الفرض "العلمي"، وقابلية التحقق، والتأكيد وعدم التأكيد، والتنبؤ، والقدرة على التناسخ والتناسل، وما إلى ذلك.) بالطبع، لا بد أن تتطور النظرية الموثقة في اتجاه نزعة تصورية بدرجة أكبر. ومع ذلك، وكما أكدت خلال هذا الكتاب، هناك مخاطرة القضاء على شيء جيد ونحن نحاول التخلص من شيء سيئ: يمكن الإبقاء على العديد من الاصطلاحات الموجودة في المعجم الوضعي، بدلاً من إزالتها داخل نطاق منطق نظرية المعرفة.

١٣-٢-١ تفكيك البنية (ترميز مفتوح)

تفكيك البنية مرحلة استكشافية يفحص الإثنوجرافي فيها ميدان العمل سعيًا للحصول على مفاهيم (أو قوائم وفئات) يمكن أن تفسر الظاهرة التي يتم إجراء الملاحظة عليها.

وكما رأينا في الفصل العاشر، فإنّ الإثنوجرافي يمضي قدمًا في عمله بشكل غير نظامي في هذه المرحلة موليًا اهتمامه بكل الأحداث المهمة. وهو يتبنى موقف الاستماع والإنصات، ويكون على استعداد لتغيير تركيزه كلما يحدث فعل أو رد فعل جديد بالملاحظة. وقبل ذلك، وبعد قضاء بعض الوقت في الموقع، ثم يشرع في التحليل بعدما يكون قد دوّن عددًا معينًا من المذكرات الإثنوجرافية (وهي مذكرات مبنية في الأساس على الملاحظة، لكنّها تكون أيضًا نظرية، وميثودولوجية ووجدانية).

وهناك ثلاث إستراتيجيات يمكن أن يبدأ الإثنوجرافي تحليل مذكراته المبنية على الملاحظة من منطلقها:

(١) استخدام قائمة فحص أو شبكة مفاهيم كي يستجوبيا.

(٢) استخدام إطار عمل.

(٣) التصنيف.

وتتضمن هذه الإستراتيجيات الثلاث درجات مختلفة من الكد والاجتهاد. لذا فسوف أبدأ بأبسط إستراتيجية من بينها وأُنهي بأكثرهم تعقيدًا.

قائمة الفحص

اقترح أتكينسون (*1992: 455 -9*) وسيلفرمان (*1993: 39 – 41;2006: 89 – 92*) أول إستراتيجية. وهي تتكون من استخدام قائمة فحص (ورقة ترميز وتصنيف، أو استمارة أو صيغة ترميز وتصنيف، أو شبكة مفاهيم) مع عدد صغير نسبيًا من المداخل أو الفقرات أو العناصر (حوالي ٢٠) لاستنباط واستخراج المعلومات من المذكرات المبنية على الملاحظة[١]. وكما يؤكد سيلفرمان (*2006: 89*)، يجب عدم *الاعتماد* على صيغة الترميز أو التنظيم قبل بدء العمل الميداني. والأحرى أنّه ينبغي استثماره بعد إجراء عدد لا بأس به من الملاحظات، وبعد مناقشة واسعة وشاملة مع الزملاء والمشاركين للإثنوجرافي في إجراء البحث إذن كان قد أشركهم معه في العمل.

ويستلزم أسلوب العمل هذا أن:

> **يتم استعراض البيانات وفحصها من أجل تحديد المقولات والأمثلة والمقترحات. و... العمل على تقسيم بيانات النصوص (المذكرات، والخطوط) لتتحول إلى شظايا متناثرة، ثم يُعاد تجميعها بعد ذلك تحت سلسلة من العناوين الرئيسية الموضوعية** *Atkinson, (1992: 455)*، اقتبست في كتاب سيلفرمان، *(2006: 92)*.

دراسة حالة

تفاعل بين طبيب ومريض في وحدة لقلب الأطفال

في بداية الثمانينيات، أجرى ديفيد سيلفرمان دراسة حول التفاعلات بين طبيب ومريض في وحدة القلب لطب الأطفال. وأثناء إجراء البحث، كان التركيز مقصورًا على كيفية تنظيم وإعلان القرارات (أو الترتيبات). وبدا من المحتمل أنّ طريقة الطبيب في إعلان القرارات كانت تتعلق بشكل نظامي ليس فقط بالعوامل الإكلينيكية (مثل حالة قلب الطفل) ولكنها كانت تتعلق أيضا بعوامل اجتماعية (مثل ما يمكن أن يقوله الطبيب لوالدي الطفل في مراحل العلاج المختلفة) (*2006: 89*).

وبعد ملاحظة أكثر من عشر حالات لمرضى غير مقيمين في المستشفى، أعد سيلفرمان وزميله في العمل روبرت هيلارد **Robert Herald** ورقة الترميز أو التنظيم التالية لتسجيل ملاحظاتهم التي نقدم جزءًا منها فقط (وللحصول على الورقة كاملة، ادخل على: **www.sagepub.co.uk/gobo**).

٩ مرحلة العلاج:

الاستشارة الأولى

ما قبل الأمر بإدخال المريض للإقامة في المستشفى

بعد القسطرة (الاختبار الذي يتطلب دخول المريض للعلاج داخل المستشفى) بعد إجراء العملية الجراحية

١٠ نتيجة الاستشارة

خروج المريض من المستشفى أو إحالته لمكان آخر

توقف متابعة حالة المريض داخل المستشفى

إمكانية إجراء قسطرة أو جراحة أخرى في النهاية

قسطرة

جراحة

لا قرار

١٤ حجم الاستشارة

الأسرة الطبيب

قبل العلاج

التاريخ

خارج القلب (احتمال حدوث جلطة)

الحالات البدنية

نمو الطفل

سلوك الطفل

إجراءات الأسرة العملية القابلة للتنفيذ أو الحضور

إجراءات علاج الطبيب العملية القابلة للتنفيذ أو الحضور

حالات القلق والمشاكل العاطفية بالنسبة للأسرة

الوضع الاجتماعي للأسرة

إدارات العلاج الخارجية

تقديم ١٥ عائلة لتاريخ مرجعي

١٦ تصميم لسؤال الطبيب الأولي الذي يريد أن يستنبط وضع المريض من خلاله (مثلاً: كيف حاليا؟ هل هي بحالة جيدة؟...)

١٩ بيان التشخيص:

(أ) استخدام كلمة "حسن، جيد" من جانب (الطبيب / الأسرة / كلاهما)

(ب) استخدام كلمة "طبيعي" من جانب (الطبيب / الأسرة / كلاهما)

(ج) ذكر التشخيص المحتمل (٠ / ١ / > ١)

٢٠ القرارات:

(أ) ذكر التشخيص المحتمل (٠ / ١ > ١)

(ب) تحديد التفضيل الطبي (نعم / لا)

(ج) ذكر طرق العلاج الطبي للمريض (نعم / لا)

(د) طلب موافقة الأسرة (نعم / لا)

(هـ) السماح للأسرة باتخاذ قرار (نعم / لا)

(و) التطوع بتحقيق رغبات الأسرة (نعم / لا)

(م) معارضة الأسرة اقتراح الطبيب بمغادرة المريض المستشفى (نعم / لا)

المصدر: ***Silverman, 2006: 90 – 91 Table 3 – 2***

وقد مكنت ورقة الترميز أو التبرير هذه الباحثين من تحديد بعض الأنماط السلوكية:

على سبيل المثال، من خلال ربط الفقرة ١٤ في مجال الاستشارة بتصميم القرار (الفقرة ٢٠)، تمكنا من رؤية بعض الفوارق بين الاستشارات التي تتضمن أطفال داون ***Down*** وآخرين غيرهم. علاوة على ذلك، اتضح أيضا أنّ هناك

فوارق مهمة بين هاتين المجموعتين في كل من شكل وتأليف سؤال الاستنباط (الفقرة ١٦)، وبيان التشخيص (الفقرة ١٩).

... ومن الواضح أنّه عند صياغة المذكرات الميدانية لا يسجل المرء البيانات فقط، لكنّه يحللها أيضا. وسوف تكون الفئات والقوائم التي تستخدمها مُشبّعة من الناحية النظرية بشكل حتمي - سواء أدركت ذلك أم لم تدركه! لذا فقد عكست صيغة الترميز والتنظيم... اهتمامي بمفهوم جوفمان (١٩٧٤) حول "التأطير". وكان هذا يعني أنّي حاولت تدوين أوجه النشاط التي تمكّن المشاركون من خلالها من إثبات هويتهم. على سبيل المثال، لاحظت وسجلت المدة التي كان الطبيب والمريض يقضيانها في "حديث قصير" اجتماعي، وكيف تم ترتيب مواعيد لاحقة لهذا الحديث.

وتظهر هذه الاهتمامات كيف تدفع المفاهيم المحددة من الناحية النظرية لإجراء بحث إثنوجرافي جيد... وهي تظهر بوضوح أيضا كيف يطور المرء تحليل البيانات الميدانية بعدما يتم تحديد أي مشكلة من مشاكل البحث بعناية (*Silverman, 2006: 92*).

ولهذه الإستراتيجية ميزتان وعيب واحد. والميزتان هما أنّها تُبسّط التحليل بالتقليل من تعقيد المعلومات، وأنّه يمكن تحديد الأنماط والنماذج في الحال وذلك بالإسناد الترافقي، أي إحالة الفقرة أو جزء منها لفقرة أخرى، للمعلومات المذكورة في الفقرات. أمّا العيب فهو أنّ ورقة وشكل الترميز والتنظيم أداة مُقيّدة بدرجة كبيرة ومن الصعب الهروب منها (أتكينسون، ١٩٩٢: ٤٥٩)، بحيث يصبح الإثنوجرافي غير قادر من الناحية المعرفية على أن يفهم جيدا المعلومات والأنشطة التي لا تُدرج في شبكة المفاهيم في الحال. ولعلاج هذا العيب (بشكل جزئي). نقول إنّه قد يكون من المفيد للإثنوجرافي أن يعود من وقت لآخر لمذكراته الميدانية وأن

يسترجع المعلومات عن الأنشطة التي حَجبت عنه أو التي لم تضعها الشبكة في اعتبارها (سيلفرمان، ١٩٣٣: ٣٩). علاوة على ذلك ففي حالة كل من سيلفرمان وهيلارد *Hilliard*، فقد سجلا كل التفاعلات على شرائط تسجيل حتى يمكنهما من إعادة ترميزها وتنظيمها كلما تطورت فرضياتهما العلمية.

إطار العمل

وأساس الإستراتيجية الثانية هو استخدام إطار العمل في تحليل روتينيات التنظيم أو المؤسسة. وكما هو الحال في الإستراتيجية السابقة، فإنَّ إطار العمل يتم بناؤه بعد عدة ساعات من الملاحظة في ميدان العمل.

دراسة حالة

إيجاد سيارة إسعاف

ناقشت في الفقرات ١ – ٢ – ٦ – ١٠ بحثًا كنت أجريه لعدة سنوات متتالية، وكان معي آخرون ممن شاركوني العمل فيه في عدد من المراكز الأمريكية للاتصالات في حالات الطوارئ الطبية. وبعد فترة من الملاحظة، قمنا بتصميم إطار عمل لتفسير أنشطة العامل الميكانيكي (انظر: *Gobo et al. 2008*). وكان هذا الإطار يتكون من ستة مداخل:

(أ) هدف العامل الميكانيكي (كعامل التليفون أو التلغراف).

(ب) إستراتيجية التفاعل بين الفاعلين (المبحوثين) لتحقيق الهدف.

(ج) المشاكل والصعوبات التي تواجه العامل الميكانيكي.

(د) احتياجات العامل الميكانيكي.

(هـ) نواحي عدم الكفاءة في نظام المعلومات المُحول إلى النظام الإلكتروني.

(و) المذكرات النظرية أو النتائج.

وقد حدث أحيانًا أن طلب أحد متسلمي المكالمات التليفونية إرسال سيارة إسعاف في وقت لم تكن أي سيارة إسعاف موجودة فيه؛ إذ إنّ جميع المركبات في المركز كانت حينئذ تتعامل مع حالات طارئة. في هذه الحالة، كان إطار العمل مجمّعًا لمذكرات مبنية على الملاحظة، كما يلي:

(أ) هدف العامل الميكانيكي

ينشأ هذا الموقف كلما كانت كل المركبات تتعامل بالفعل مع حالات طارئة ويتلقى متسلم المكالمات طلبًا عاجلاً طالبًا المساعدة. وقد يكون الموقف في غاية الخطورة ويُصنّف "بالرمز الأحمر" ولكن مع عدم وجود أي سيارة من سيارات الإسعاف، وإذا كانت حالة متسلم المكالمة تُعتبر حالة عاجلة للغاية، فيكون هدفه هو الحصول على سيارة إسعاف تُخصص لحالته هذه بأسرع ما يمكن، وكي يفعل ذلك، يجب عليه أن "ينتزع" سيارة إسعاف تكون قد خُصصت للتعامل مع حالة أخرى أقل خطورة (حالة مُصنفة "بالرمز الأخضر" على سبيل المثال).

(ب) إستراتيجيات التفاعل بين العاملين لتحقيق الهدف

الإستراتيجية ١ - يطلب متسلم المكالمة من زميل لهُ ممن يستلمون المكالمات، وبصوت عال، أن يُغير مسار سيارة الإسعاف (التي يكون قد أرسلها لتوه في مأمورية أخرى) ويأمرها بأن تتجه إلى موقع الحالة الطارئة الأكثر

خطورة. ويتم الطلب عندما يدرك متسلم المكالمة أنّ زميله أرسل سيارة إسعاف لموقع قريب من الموقع الذي تسلم منه المكالمة ذات الأسبقية الأعلى في التعامل معها.

الإستراتيجية ٢ – ومرة أخرى يطلب متسلم المكالمة بصوت عال من العمال الميكانيكيين الذين يتعاملون مع إعادة انتشار المركبات وهم يجلسون في محطات منطقة الخدمات المتكاملة للشبكة الإذاعية الرقمية ***ISDN-Radio Area stations*** في الشكل (١٠ – ٤. ١٠ – ٦ – ٢) ما إذا كان هناك سيارات إسعاف يمكن أن توجد بسرعة، وإن لم تكن موجودة على شاشاتهم حتى تلك اللحظات.

وقد يكون هناك أحيانًا عدة طلبات دفعة واحدة لسيارات إسعاف، فيُنادى عليهم جميعًا بصوت عالٍ، وتتداخل الطلبات لزيادة الضجيج في غرفة العمال الميكانيكيين (الشكل *2 - 13*).



الشكل ١٣ – ٢ طلب متسلم المكالمة للعمال الميكانيكيين

في محطات منطقة الخدمات المتكاملة للشبكة الإذاعية الرقمية.

(ج) مشاكل العمال الميكانيكيين

(أ) يواجه متسلم المكالمة صعوبة في توصيل ونقل طلبه للزميل الذي يكون قد أرسل لتوه سيارة إسعاف لمواجهة حالة طارئة. وكلما كان العمال الميكانيكيين بعيدين جسديا عن بعضهم البعض، وجب عليهم الصياح بصوت عالٍ وهم يتقدمون بطلباتهم. وبسبب ارتفاع أظهر كراسي المكاتب التي يجلسون عليها وارتفاع (المرقاب أو الشاشة) أيضا، لابد أن يقف متسلمو الرسائل على أقدامهم كي يروا وجوه زملائهم.

(ب) يجد متسلم المكالمة صعوبة في التواصل والحديث مع منطقة الخدمات المتكاملة للشبكة الإذاعية الرقمية بسبب بعد المسافة بينها وبينه. لذا عليه أن يصيح بصوت عال حتى يسمعوه هناك.

(د) احتياجات متسلم المكالمات

- أن يلفت اهتمام زميله على وجه السرعة.
- أن يلفت اهتمام العاملين في منطقة الخدمات المتكاملة للشبكة الإذاعية الرقمية على وجه السرعة.
- أن يحصل على رد سريع حول إمكانية الحصول على سيارات الإسعاف.
- أن يعرف ما إذا كانت المركبات سوف تصبح متاحة بسرعة أم لا، وأي مركبات هي بالتحديد.

(هـ) نواحي عدم الكفاءة في نظام المعلومات المُنفذ بواسطة الكمبيوتر

- يُعتبر نظام التليفون الداخلي الذي يُستخدم فيما بين العاملين نظام تليفونات مغلق صغير (الذي له سماعات) ونسخه الاحتياطي أو دعمه بنظام الرسائل

القصيرة (*SMS*) للاتصال عن طرق توسط الكمبيوتر في ذلك، نظامًا غير كافٍ للاتصالات العاجلة.

- من أجل هذا، يفضل العاملون الاتصال المباشر وجهًا لوجه.
- لكن ما يعوق الاتصال المباشر هو تصميم أو نظام تخطيط محطات العمل.

(و) المذكرات النظرية أو النتائج

تُلقي المذكرات المبنية على الملاحظة الضوء على أنّ التقنيات المتشابهة "القديمة" (المنطوقة، وغير اللفظية) يمكن أن تكون أي شيء غير أن تكون قد عفا عليها الزمن. في الحقيقة، يفضل العاملون الاتصال بحيث تكون السماعات مغلقة (مع استخدام الطلبات بصوت عالٍ، ومجرد كلمات لسد الفراغ، وما إلى ذلك) أفضل من استخدامهم لنظام التليفون الداخلي مع أو دعمه بنظام الرسائل القصيرة (*SMS*)، لأنهم يجدون ذلك وسيلة سريعة ويمكن الاعتماد عليها أكثر. في الحقيقة، وفي حدث آخر سبق أن أُجريت عليه الملاحظة، ساعدت طريقة إغلاق السماعات هذه - والتي لا يتوقعها نظام تبادل المعلومات عن طريق الكمبيوتر - إحدى الممرضات في التصنت على معلومات حاسمة لنهاية ناجحة لعملية إنقاذ كانت ترصدها وتستمع إليها عن طريق الراديو.

ومن هنا، يمكن أن يؤدي نظام المعلومات مهمته بشكل صحيح بما يُسمّى "التقنيات اللينة" (تلك التقنيات التي لها محتوى رسمي وهندسي منخفض). ولا بد بالضرورة أن يصوّر تصميم الأنظمة والخدمات المبنية على المعلومات والمعرفة الاجتماعية للمستخدم، وليس للمصمم، الدمج بين التقنيات الرقمية والتقنيات المتشابهة، بدلاً من استثناء التقنيات المتشابهة.

التصنيف

والإستراتيجية الثالثة هي تصنيف المذكرات المبنية على الملاحظة التي تُطبق معايير التشابه/عدم التشابه. ويُعيّن لكل مذكرة رمز أو نظام يشير لمفهوم معين، ويُعيّن نفس الرمز لمذكرات بها محتوى مماثل. ومع ذلك، فقد تشير نفس المذكرات أيضا لمفاهيم و ملصقات أو تسميات متعددة، وتظل تُصنّف بشكل متكرر تحت عناوين مختلفة (*Hammersley and Atkinson, 1983: 170*)[٢]. ادرس، على سبيل المثال، المذكرة المبنية على الملاحظة التالية، والمأخوذة من ديفيد روزينهام (*1973: 133*) عندما كان مُدّعيًا المرض في مستشفى للأمراض النفسية. ويمكن تصنيف سلوك الطبيب برموز أو تسميات مختلفة.

الجدول ١٣ - ١

الفاعلون	تبادل الألفاظ	الحركات الجسدية	الرموز أو التسميات
مدعي المرض	عفوًا. دكتور *X*. هل يمكن أن تخبرني، من فضلك، عن موعد مؤهل لمزايا مشاهدة التليفزيون أو التنزه في طرق المستشفى		
الطبيب	صباح الخير يا ديف، كيف حالك اليوم؟	(يبتعد دون أن ينتظر رد المريض عليه)	١. عدم اهتمام ٢. وقاحة ٣. ليس شخصا (هكذا يعتبر المريض)

والغرض من التصنيف هو تفكيك أو تحليل بنية الأحداث والأفعال والحركات التي تمت ملاحظتها وفصلها وتخصيصها في عدد من المفاهيم. وهناك ثلاث طرق لاختيار كلمات الرموز التي تحدد في المذكرات الإثنوجرافية، وذلك اعتمادًا على ما يفضله الباحث، وهي:

(١) اختراع اصطلاحات جديدة.

(٢) استخدام اصطلاحات مأخوذة من التراث.

(٣) استخدام اصطلاحات يستخدمها الفاعلون (المبحوثون).

والخيار الأول هو الخيار المفضل عن غيره حتى الآن لأنّه يثير غريزة الخلق والإبداع لدى الباحث، ويتجنب خطر الخلط بمفاهيم أو نظريات موجودة بالفعل (ستروس وكوربين، ١٩٩٠: ٦٨). ومع ذلك، يجب الوضع في الاعتبار أنّ تعيين أو تخصيص رمز لعمل ما ليس تصرفًا محايدًا، لأنّه يرجع أو ينسب *وظيفة أو مهمة* للعمل بسرعة، ويحدد لها إطارًا معينًا.

إنّ عملية تفكيك مجموعة من المذكرات المبنية على الملاحظة معناها *تعديل طبيعتها الأصلية*، أي تفتيت أو إلغاء تكاملها الزمني والمكاني. وعن طريق التصنيف، يفض الباحث التدفق الطبيعي للأحداث والتصرفات (التي تكون لا تزال موجودة في مذكراته المبنية على الملاحظة) بغرض إعطائها معنى أو مفهومًا جديدًا.

ويمكن أداء نشاط التفكيك بطرق مختلفة، من بينها استخدام شروط التحليل بافتراض اختلاف الظروف، الذي تمت مناقشته في ***9 – 2 – 1***.

١٣ – ٢ – ٢ التركيب (الترميز المحوري)

في المرحلة (التركيبية) الثانية، يعيد الباحث المفاهيم التي نشأت في المرحلة السابقة ويضعها في شكل أو نموذج جديد، والغرض هو تركيب إطار عمل أوّلي

متناسق ومترابط. ويفعل ذلك طبقا للنموذج الذي اقترحه ستروس وكوربين (١٩٩٠) والذي يتضمن الخمس عناصر التالية: الظروف العرضية، وظروف التدخل والاعتراض، والسياق، والأفعال الدقيقة الصغيرة، والعواقب أو النتائج:

(أ) الظروف العرضية ←

(ب) ظروف التدخل والاعتراض ←

(ج) سياق الكلام ←

(د إستراتيجيات الفعل / التفاعل ←

(هـ) العواقب أو النتائج ←

الشكل ١٣ - ٣

وبهذا يمكن إنشاء وتنظيم إطار عمل منطقي أولي لكل ظاهرة. وعلى أساس هذه النتائج البدائية، يتولى الإثنوجرافي تنفيذ إجراء اختيار وتصنيف ثانٍ للعينات، ولكنّه يتركز في هذه المرة على المفاهيم التي يكون قد قرر استكشافها بقدر أكبر[٣]. في المرحلة الثانية هذه، يركز تجميع البيانات والمعلومات على كل جانب من الجوانب الخمسة في الشكل ١٣ - ٣. وتقدّم المذكرات المبنية على الملاحظة النسبية الأساس للتحليل البناء الذي يحدد العلاقة بين المفهوم (عادة ما يكون حول طقس من الطقوس أو سلوك روتيني تدور حولها أفعال دقيقة أخرى) وصفاته وخواصه. (انظر ٥ - ٦).

وفي هذه المرحلة يمكن استخدام المقابلات والمحادثات غير الرسمية التي تجرى في ميدان العمل استخداما مثمرا (انظر الباب ١١). وهي تساعد الباحثين والباحثات على فهم ما قاموا به من ملاحظات، وعلى كشف المعاني المخفية داخل نطاق الشعائر التي سجلوها في مذكراتهم المبنية على الملاحظة. وهذا إجراء

تحليلي تم استخدامه لبعض الوقت. على سبيل المثال، ذكر همفريز (١٩٧٠) في دراسته التي قدمناها آنفا حول نشاط اللواط عند الرجال (انظر *12 - 3 - 1*) لوحات رخصة السيارة لمستخدمي مكان صف السيارات في مطاعم تناول الوجبات والشاي والمرطبات في المدينة، واقتفى أثر أسماء الملاك، واتصل بهم، ثم أجرى معهم مقابلات. وبرغم القضايا الأخلاقية الهائلة التي أثارتها تصرفات همفريز (التي حدثت حولها مناظرات كثيرة لدى نشر كتابه)، فإنّ مقابلاته أظهرت فطنة ونفاذ بصيرة في ممارسات المشاركين في البحث. في الحقيقة، وكما يؤكد كل من بريكهوس، وجاليهار، وجوبريام.

إنّ التناقض بين الوصف البؤري الدقيق للمشاركين في مطعم حديقة المدينة لتناول الوجبات والشاي والمرطبات والوصف المُكثف لشخصيات المشاركين، وعائلاتهم، والأحياء المجاورة للمطعم تعطي الموضوع الجديد نشاطًا وحيوية إمبيريقية (*2005: 15*).

١٣-٢-٣ التأكيد والتأييد (الترميز الانتقائي)

في المرحلة الثالثة (التأكيد والتأييد)، يُوثق الإثنوجرافي/ويفحص ويراجع الفرضيات التي تشكلت خلال المرحلة المُقيدة، ثم يثبتها ويلحقها بنظرية. وتتضمن المرحلة النهائية خطوتين من تحليل الأدوات والمواد (انظر الشكل ١٣- ١) الذي يدمج البيانات والمعلومات في مستوى من العمومية أعلى مما كان عليه في المرحلتين السابقتين. ويؤلف الإثنوجرافي "*قصة*، حكاية وصفية حول الظاهرة الرئيسية في الدراسة" (*Strauss and Corbin,1990: 116*) تتكون من حوالي عشر جمل (رغم أنها تظل تأخذ شكل الفرضية) حول العلاقات بين المفهوم الرئيسي ومؤشراته.

دراسة حالة

إدارة عوامل المخاطرة المرتبطة بالحمل

في منتصف الثمانينيات، أجرت عالمة اجتماع الصحة الأمريكية جولييت كوربين *Guliet Corbin* دراسة مُركّزة حول "قضية الطريقة التي تصرفت بها ٢٠ امرأة كانت تعاني من مرض مزمن تجاه حالة حملهن". كانت تلك النسوة موضع دراسة وعناية طبية في نهاية الفصل الأول أو بداية الفصل الثاني من فصول السنة، وتوبعت حالتهن لمدة ستة أسابيع بعد الولادة ***(Strauss and Corbin,1990: 118)***.

وقد أدمج كوربين في المرحلة المتقدمة من عمله الميداني المراحل المتعددة لتحليل جولييت كوربين السابق كي يُقدّم قصة (أو مبنية على القائمة الرئيسية) بعنوان "إدارة عوامل *المخاطرة* المرتبطة بالحمل/ المرض":

تبدو القصة الرئيسية أنّها حول الطريقة التي تصرفت بها نساء في حالة حمل جعلها مرض مزمن عسيرة وصعبة إزاء مخاطر اعتقدن أنّها مرتبطة بحملهن. ويمكن أن يقال إنّ كل حالة حمل/مرض تسير في الاتجاه الصحيح، تشير أنّه يتم التعامل بنجاح مع المخاطر، أو أنّها تسير بعيدا عن المسار الصحيح، أي أنّه لا يتم التعامل مع المخاطر بنجاح. والنساء هنا يتصرفن مع المخاطر المرتقبة كي يضعن أطفالاً أصحاء. ويبدو أنّ هذه النتيجة المرجوة هي القوة الدافعة الأساسية التي تجعلهنّ يعملن كل ما هو ضروري لتقليل حجم المخاطر. على أي حال، فهن لسن متلقيات سلبيات للعناية التي يتلقينها من المستشفى، لكنّهن يلعبن دورا مهما في نجاح الإجراءات العلاجية. وهنّ مسئولات ليس فقط عن تنظيم ومراقبة حالاتهنّ المرضية وحالات حملهنّ في بيوتهن، لكنّهن يتخذن أيضا قرارات إيجابية حول الرجيم الذي يُطلب منهن اتباعه. وفي حالة الرجيم هذه، فإنّهنّ يضعن

في الاعتبار الضرر الذي قد يحدث للطفل نتيجة إجراءات مثل فحص السائل الذي يحيط بالجنين في الرحم، أو من أخذ جرعات زائدة من أدوية معينة أثناء الحمل. وهنّ يزنّ المخاطر بعناية ويصدرن أحكامًا عن الشيء الصحيح الذي ينبغي عليهن القيام به. وإذا اعتقدن أنّ الطبيب مخطئ، فإنّهن يفعلن ما يعتقدن أنّه واجب فعله. (*1990: 119 – 120*).

وبعد ما يكون الإثنوجرافي قد روى قصته، يعود للميدان ويأخذ على عاتقه القيام بإجراء أخذ عينات نهائية كي يجمع معلومات أخرى يختبر بها بياناته. وتتخذ العلاقات، التي يتم توثيقها بطريقة مرضية، شكل نماذج متميزة يمكن تمثيلها وتقديمها في قالب غير عددي (انظر الجدول ١٣- ٢، ١٣- ٧ – ٤).

ويؤكد كل من ستروس وكوربين (*1990*) أنّ الفرق بين مراحل تفكيك البنية، ومرحلة التركيب، والتأكيد فرق تحليلي فقط. فالواقع أنّ الثلاث مراحل تتداخل وتتشابك عند الممارسة الفعلية العملية. أو ربما تتكرر هذه المراحل في نهاية البحث إذا أدرك الإثنوجرافي أنّ بعض المفاهيم ما زالت غير واضحة، أو أنّ بعض العلاقات لا تزال مُعرفة بشكل ضعيف وغير كاف ***Strauss and Corbin,*** (***1990: 58; Silverman 1993: 46***) وتختلف إستراتيجيات التحليل بوضوح طبقًا لدرجة معرفة الباحث بموضوع دراسته. وكما لاحظنا في القسم الخاص بالمخططات التجريدية النظرية "المفاهيمية" (٥ – ٦)، فقد يكون لدى الإثنوجرافي نظرية مُحدّدة ومُعرّفة جيدا (كونها خلال بحث سابق، أو استمدها من مؤلف آخر)، حتى إنّه يمكنه أن يبدأ بحثه من المرحلة الثانية (الإنشاء والبناء) مباشرة، أو من المرحلة الثالثة (التأكيد والتأييد). وإلى جانب الواقع الافتراضي لكل مرحلة، لا ينبغي على المرء أن ينسى أنّ تحليل المذكرات المبنية على الملاحظة يخدم في

عملية تحليل بنية البيانات والمعلومات وتفكيكها، وفي جعلها تجريدية (مفاهيمية)، ثم إعادة تجميعها في شكل جديد (*Strauss and Corbin, 1990: 57*)، وبذلك يخلق توازنا مناسبا بين عملية الخلق والإبداع، والقوة والنشاط، والاتساق، وفوق كل شيء، الحساسية النظرية. وكما يشير ديورانتي قائلا:

التحليل، برغم كل شيء، عملية انتقائية لتقديم ظاهرة محددة بغرض إلقاء الضوء على بعض خواصها. التحليل الذي يحاول تقديم نسخة كاملة وتامة لموضوع لا يعتبر تحليلا، بل إنه يعيده إلينا بالشكل الذي كان عليه قبل التحليل. التحليل يقتضي ضمنا حدوث تحول وانتقال، من أجل هدف ما (*1997: 114*).

١٣-٣ استخدام الوثائق

كما سبق وذكرنا في ١٣ - ٤، ينبغي على الباحث المشغول بتحقيق إثنوجرافي فحص الوثائق التي حصل عليها، ليس في حد ذاتها ولا حول ما فيها، ولكن بالأحرى في ضوء خطة ملاحظته. بمعنى آخر، تعتبر المذكرات الميدانية لب وأساس البحث الإثنوجرافي، وما كل المواد والأدوات الأخرى (المذكرات والصور) إلا أشياء مساعدة ومكملة له. من أجل سببين: الأول هو أننا نتعامل مع منهج بحث إثنوجرافي، وليس منهج بحث وثائقي (انظر ٢ - ٤)؛ والثاني هو أنّ الوثائق قُدّمت، ليس من خلال نظرة الإثنوجرافي المحدقة الخاصة بالظواهر والمسوخات المنزوعة أو المعدلة طبيعتها، ولكن من خلال تنظيم أو مؤسسة أو جماعة. لذا فإنّ للبحث الإثنوجرافي وضع يختلف عن وضع المذكرات الميدانية، ولابد من تفكيكها وتحليل بنيتها مسبقا. كيف يتم ذلك؟

أولاً: يمكن تنفيذ عملية تفكيك البنية بحيث لا نعامل الوثيقة بالطريقة العادية أو الطبيعية (أي بقراءتها من البداية للنهاية). يمكن "تجزئة" الوثيقة كوحدة واحدة: على سبيل المثال بتحليل صفحات تُقتطف من الوثيقة بشكل عشوائي، أو باستخراج صورة طبق الأصل من الوثيقة ثم خلط أوراقها، أو بقراءتها في الاتجاه المعاكس، أي من نهايتها إلى بدايتها.

ثانيا: هناك تمرين مهم يكمن في الإجابة على سلسلة من الأسئلة التالية التي اقترحها هامرسلي وأتكينسون (*1983: 142 – 3*):

(١) ما الطريقة التي تمت بها كتابة نصوص الوثيقة؟

(٢) كيف تُقرأ هذه النصوص؟

(٣) من الذي كتبها؟

(٤) من الذي يقرأها؟

(٥) ولأي غرض؟

(٦) وفي أي المناسبات؟

(٧) وبأي نتائج؟

(٨) ما الشيء المُسجل فيها؟

(٩) وما الشيء المحذوف منها؟

(١٠) ما الشيء المُسلم بصحته فيها؟

(١١) ما الذي يبدو أنّ الكاتب يُسلّم به تجاه القارئ، أو القراء؟

(١٢) ما الذي يحتاج القراء معرفته كي يفهموا نصوص الوثيقة؟

تمكّن الإجابة عن هذه الأسئلة الباحث من تحليل بنية الوثيقة ومن إظهار هياكلها الأيديولوجية وسرد حكاياتها، وبالتالي تجنب المحتوى البسيط أو تحليل النصوص البلاغية بها.

ثالثا: يجب أن يمتنع الباحث عن "التوحد" المتأصل في التحليل الروائي. وكما أكد جيبرام ***Gubrum***:

لقد ركز الكثير من التحليل "الروائي" على التنظيم الداخلي للقصص. وأولى النقاد اهتمامًا أقل بإنتاجها، وتوزيعها، وتداولها في المجتمع... لقد وجدت أنّ التنظيم الداخلي للقصص، في والوقت الذي يكون من المهم فهمه في حد ذاته، فإنّه لا يقول لنا الكثير عن علاقة القصص بالعالم الذي يتم تداولها فيه.

وكما أكد ليندساي برايور (***Lindsay Prior 2004***) بحق، أنّنا لا نفعل أشياء بالكلمات وحدها (تلخيصًا لعنوان كتاب أوستن الشهير الذي صدر عام ١٩٦٢)، لكنّنا نفعل أشياء بالوثائق أيضًا. تمامًا كما أنّ الكلمات لا تنفصل عن الأفعال، فإنّ الوثائق لا تنفصل عن الفعل والعمل. وهي ذاتها أفعال وحركات من حيث إنّها تتدخل في الحقيقة كي تغيرها وتعدلها وتأثر فيها. إنّ اعتبار الوثائق عوامل وأدوات غير بشرية (انظر نظرية ***ANT*** في ***10 – 5***) يسمح للمرء بالهروب من التحليل اللغوي الصرف وبالانتقال لمنهج براجماتي واقعي ذرائعي.

١٣-٤ تحليل الصور

إنّ التوصية باستخدام الوثائق التي ذكرناها لتونا تنطبق على استخدام الصور أيضًا. وينبغي أن يخدم تحليلها في دمج المذكرات المبينة على الملاحظة، ولولا ذلك لامتدّ البحث وتوسع للحد الذي يجعله بلا نهاية مطلقًا.

دراسة حالة

تفسيرات المدرسين لسلوك الطلبة

استخدم كل من ميهان ***Mehan***، وهيرتويك ***Hertweek***، وميهلس ***Meihls*** *(1986)* نهجا تكامليا في دراستهم عن اتخاذ قرار حول المناهج التعليمية لطلبة المدارس الأولية (انظر دراسة حالة في ١١ – ٢). وكان هدفهم المحدد هو فهم تفسيرات المدرسين لسلوك الطلبة. وعقب قضاء فترات طويلة من ملاحظة "إحالات" الطلبة في فصول مختلفة في المدارس الأولية (على أساس اختبارات مبنية على أساس اختبارات مواقف نفسية، واختبارات ذكاء، وتشخيصات طبية... إلخ.)، عرض ميهان وزملاؤه على المدرسين وقائع مختلفة كانوا قد سجلوها بالفيديو في الفصول. وهذا مثال لما عرضوه عليهم:

تم عرض سلوك مماثل لطالب إحالة ولطالب آخر ليس طالب إحالة في غرفة دراسة أخرى. تمت إحالة الطالب المدعو إدي ***Eddie*** لعدة أسباب، كان أحدها "ضرب أفراد آخرين". بدأ يضرب الطالب الجالس بجواره عند بداية درس القراءة الذي تم تصويره بالفيديو. وأوقف المدرس شريط الفيديو خلال فترة مشاهدته عند هذا المشهد، وحدده على أنّه مثل للسلوك الذي تمت إحالة إدي بناء عليه. وبعد ذلك، وفي نفس حصة القراءة هذه، ضرب طالب آخر لم يكن قد تمت إحالته إدي على رأسه. ولم يوقف المدرس الشريط، ولم يعلق على هذا الحدث *(1986: 80)*.

وكشفت هذه الواقعة للباحثين أنّ:

المدرسين ليس لهم ردود أفعال تجاه المعلومات المنفصلة غير المترابطة؛ ولا يبدو عليهم أنّهم يفصلون ويفرّقون سلوك الطالب ويحللون بنيته (على سبيل

المثال: ضرب طفل أو قول (هذا شيء صعب جدا بالنسبة لي) من الظروف التي تحيط به. وبدلا من الاهتمام بسلوك يحدث معزولا عن الأحداث، تجدهم يهتمون بالفعل في سياق ما يحدث ككل. ويشمل السياق بدوره الطالب، والعمل، والدرس، والموقف الذي يتم فيه الحدث... وعلى هذا فإنّ "صفعة على الوجه" تأخذ معاني مختلفة عند وضعها في سياق ما يحدث في غرف دراسية أخرى (*1986: 80 – 81*).

وعلى وجه التحديد لأنّ مواد الفيديو المسجلة تحفظ أفعال المشاركين وقت حدوثها، فهي تُعير نفسها بشكل أفضل لتآلف أو إجماع الذوات عما تقوم به المذكرات المبنية على الملاحظة، وهي مفيدة على وجه الخصوص للبحث الذي يجريه فريق عمل، وليس باحث واحد، بالإضافة إلى ذلك، وكما لاحظ ديورانتي،

> **ويمكن أن يشاهد أشخاص مختلفون مثل هذا التسجيل، وأن يخضع للتحليل بطرق مختلفة تمامًا عن الطرق التي تسمح بها رواية لملاحظ للحدث نفسه (*1997: 119*).**

أمّا بخصوص الوثائق المكتوبة، والصور أيضًا، فإنّ تفكيك البنية هو الخطوة الأولى لتحليلها. وبالتأكيد يمكن أن تكون مشاهدة تسجيل فيديو أمرًا مفيدًا، لكنه لا يحقق مهام النظرة الظاهراتية المركّزة. ويتطلب مسخ وتغيير طبيعة الفيديو تفصيص كليته وكماله: ويحصل الباحث على فائدة جزئية من تسجيل الفيديو، وبجداول زمنية مختلفة عن جداول المشاهدة المستمرة والمتكاملة غير المُجزّأة. وهناك طرق متعددة لمسخ الممارسات الاجتماعية التي يحفظها تسجيل الفيديو وتغيير طبيعتها. ويقدم كريستيان هيث وبول لاف *Christian Heath and Paul Luff*، وهما ممثلان شهيران لدراسات مكان العمل مثالا لذلك وهو، نسخ الصوت وتسجيله. وبعد ذلك تخطيط وتصوير السلوك البصري (*1993: 325*). ويمكن

للباحث أن يقرأ النصوص قبل أن يسمع شريط مسار الصوت؛ أو يمكنه أن يغلق الفيديو (أو يغطيه) ويتولى تحليلاً أوليا وهو يستمع للصوت فقط، والعكس بالعكس. وفي الحقيقة فإنّه من الصعب تحليل وثيقة في الوقت الحقيقي لإصدارها. لأنّ تراكم معلومات زائدة عن الحد في وقت واحد يكون له تأثيره السلبي على الباحث الذي يجب عليه أن يتابع شريط مسار الصوت ولقطات الفيديو. وبدلاً من ذلك، فإن استخدام الحركة البطيئة في الفيديو أو تجزئة الإيقاع الطبيعي للوثيقة يسهّل عملية التحليل ويساعد على تفكيك البنية. علاوة على ذلك، ولإبراز الاصطلاحات والأعراف الكامنة المُنظّمة لأنماط السلوك، يمكن أداء تحليل سلسلة متعاقبة تلو الأخرى عن طريق مشاهدة نفس الواقعة عدة مرات (أو في حالة المقابلات المسجلة بأشرطة إذاعية، عن طريق الاستماع عدة مرات لنفس الواقعة). وبعد تكرار عرض الشريط عدة مرات، يبدأ الباحث يشعر بإحساس تغريب وقطيعة فيكشف عن المعلومات الضمنية. وكما يلفت ديورانتي انتباهنا قائلاً:

> **إنّ تقديم آلات التسجيل مثل جهاز التسجيل، وكاميرا الفيديو له عدد من المزايا التي لا تتوفر في الطريقة التقليدية للملاحظة المشاركة المبنية على مهارة الباحث في الاستماع والمشاهدة، و(أهم منهما) التذكر – سواء بمساعدة المذكرات المكتوبة أو بدونها أيضًا. إنّ القدرة على إيقاف تدفق الحديث وتواصله هو والحركات البدنية، والعودة لنقطة معينة في الشريط ثم إعادة عرضها يسمح لنا بالتركيز على ما يكون أحيانًا تفصيلة صغيرة جدًا في حينها، بما في ذلك صوت معين أو حركة أو إيماءة صغيرة لأحد الأشخاص** *(Duranti ,1997: 116)*.

ويختتم ديورانتي كلامه قائلاً:

ومع أنّ شريط الفيديو في هذه النقطة (وإن يكن محدودًا) يُعتبر أفضل طريقة لدينا للتسجيل لو كنا مهتمين بدمج الكلام بالحركات الجسدية، وبشكل عام أكثر، بالتواصل البصري، فما زلنا نحاول أن نتعلم كيف نستغل مثل هذه الأداة أفضل استغلال *(Duranti, 1997: 115).*

١٣-٥ توثيق الفرضيات

قانون البحث عند مورفي

يتجه البحث الكافي لدعم أي نظرية مهما كانت.

قبل أن نبحث كيف تتم مراجعة وفحص الفرضيات، هناك قضية معرفية ينبغي توضيحها. كثيرًا ما يسمع المرء أو يقرأ عن تعبير "التحقق أو التأكد من صحة فرض علمي ما". غير أنّ هذا يختص بشكل عفا عليه الزمن من التفكير العلمي ("منهج الاستقراء" الذي ابتكره الفيلسوف البريطاني السير فرانسيس بيكون) الذي أكد على ضرورة إثبات صحة الفرضيات بالرجوع إلى الواقع (للحصول على تفاصيل لهذا الموضوع، ادخل على *www.sagepub.co.uk/gobo.*). وهناك تعبيرات أخرى من أمثال، "اختبار" أو "مراجعة وفحص الفرضيات" (رغم أنّها أقل في الوضعية الجديدة) لا تتناسب دائمًا مع منظور النزعة التصورية لأنّها تعتقد أنّه من الممكن أن نصل للحقيقية.

وأحدث ما تم التوصل إليه هو أنّه وسط نظرية ما بعد الحداثة والتحول الانعكاسي، يبدو أنّ أنسب تعبير معرفي هو "توثيق الفرض". وأيا كان الحال، لا ينبغي على المرء مطلقًا استخدام تعبير "التحقق من صحة الفرض".

١٣- ٥-١ الإجراء المنطقي لتوثيق الفرض

منذ عدة سنوات، اقترح كل من بيكر ***Becker*** وجير ***Geer*** (***1960***) إجراء منطقيًا لاختبار الفرض. وكان هذا الاختبار ينتقل خلال أربع مراحل:

(١) مقارنة الفرض داخل نطاق مجموعات مواضيع مختلفة.

(٢) التأكد من أنّ الفرض يغطي كل الأحداث التي تمت ملاحظتها وثبت أنّها مرتبطة بموضوع البحث.

(٣) الاهتمام لأقصى حد بالحالات "المنحرفة" أو الاستثناءات التي لم يفسرها الفرض بشكل تام ومناسب.

(٤) إجراء اختبار إحصائي (لو كانت الأحداث قد تم عدّها) بغرض حساب عدد الحالات المنحرفة.

وقد أضاف كل من ميهان (*1979: 21*) وسيلفرمان (*2000: 180*) هذا الإجراء باقتراحهما أنّه ينبغي اختبار الفرض على جزء أساسي محدود من الأمثلة. وإذا لم تنجح هذه الطريقة، فينبغي أن تتم مراجعتها من أجل تطويق الأمثلة المنحرفة. وطبقًا للميثودولوجيين البريطانيين نيجيل فيلدينج وجين فيلدينج، في الدراسات الكيفية، فإنّه:

لا يوجد اختلاف أو تفاوت في الخطأ العشوائي. ويتم إزالة كل الاستثناءات بمراجعة الفرضيات حتى تصبح كل البيانات صحيحة ومناسبة. ونتيجة هذا الإجراء هو أنّ الاختبارات الإحصائية (في البحث الكيفي) لا لزوم لها في الواقع بمجرد الخلاص من الحالة السلبية (*1986: 89*).

يتبنى هؤلاء المؤلفون إذن موقفًا أكثر تطرفًا بذكرهم أنّه يجب استبعاد وإزالة كل الاستثناءات (انظر ١٣- ٨).

ومراجعة الفرض وفحصه من خلال عمليات استقرائية واستنباطية، وتصبح هذه العملية أكثر سهولة لو تمكن الإثنوجرافي من تكوين فرضياته في شكل شبه تجريبي. وهذا ما فعله روزينهان (١٩٧٣) عندما صمم بحثًا مضادًا كان لابد أن تصبح نتائجه عكس نتائج البحث السابق، وذلك إذا كان لنظرته أن تكون صحيحة وصالحة (انظر ٥ - ٨).

والبديل لذلك هو توثيق الفرضيات بإجراء اختبارات في الميدان على نطاق ضيق. وذلك بتشكيل النتائج التي ينبغي أن تترتب عليها *مقدمًا* لو كانت الفرضية صحيحة (لأنّ المثل المعروف يقول، "من السهل أن تكون حكيمًا بعد وقوع الحدث").

دراسة حالة

سلوك مُمتثل في صالة عرض فنية

منذ بضع سنوات، أجرى ثلاثة طلبة لم يتخرجوا بعد تمرينًا إثنوجرافيًا صغير الحجم في صالة عرض فنية. وبعد قضاء عدة ساعات في ملاحظة سلوك الزوار، كونوا فرضيتهم: عندما يدخل زوار قليلو الخبرة (أي أولئك الذين ليس لديهم معلومات فنية متخصصة) غرفة فنية، فإنّهم يتجهون أولاً للرسوم واللوحات التي ينظر إليها أكبر عدد من الناس (مذكرة نظرية). ويمكن أن نُسمي هذا "نظرية امتثال".

ولتوثيق هذه الفرضية، في غُرفة تم اختيارها عشوائيا، وضع الطلبة أنفسهم أمام إحدى الصور (وتم اختيارها هي الأخرى بشكل عشوائي) التي رسمها فنان يعرفه القليل من الناس. فحصوا هذه الصورة بعناية وباهتمام بالغ، وهو يدّعون أنّهم يتبادلون الانطباعات وأنّهم يدونون ملاحظات عليها.

وبعد وقت قصير، دخل الغرفة زوجان متوسطا العمر. وبدون تردد، اقتربا معًا من الصورة التي تنال مثل هذا الاهتمام الواضح من الطلاب، وقرآ التعليق التوضيحي الموجود تحتها لمعرفة اسم الرسام. وبدا عليهما خيبة الأمل. بل إنّهما حاولا أن يختلسا النظر لقراءة مذكرات الطلاب، ولكنّهما خرجا من الغرفة لأنهما لم يتمكنا من قراءة المذكرات. ثم دخل زائران آخران الغرفة. وفي الحال توجها أيضًا للصورة التي كان الطلاب مستمرين في دراستها، وحدقا فيها لعدة ثوان، ثم سأل أحدهما الآخر وهو يبدو على وجهه الارتباك، هل تعرفه؟ وكانت الإجابة لا، ونظرا للصورة لعدة ثوان أخرى، ثم شقا طريقهما خارج الغرفة.

ويمكن تلخيص الإجراء المنطقي الذي اتخذه الطلاب كما يلي:

١. بعد ما فحصنا الموقف على السمتين اللتين وضعتهما فرضيتنا في الاعتبار (مستوى المعرفة بالفنون؛ وكثافة الزوار الذين شاهدوا اللوحة)،

٢. وبعدما راجعنا الوجود المحتمل للمتغيرات المتداخلة التي تفسر سلوك الزوار (على سبيل المثال، عددهم، والجاذبية الفعلية المادية لوجود الطلاب هناك... إلخ.)،

٣. وبعدما أجرينا ملاحظة على عدد كاف من الأفراد أو الزوار، أو أمثلة لهم.

٤. وبعد ما درسنا أيضًا توقعاتنا لما يمكن أن يحدث بعد ذلك.

٥. يمكن اعتبار أنّ فرضية السلوك الممتثل قد تم توثيقها بالقدر الكافي.

٦. يمكن إجراء اختبار مضاد وذلك بملاحظة زوار ذوي "خبرة" وملاحظة وتدوين ما إذا كان سلوكهم أقل امتثالاً، ويوجههم ذاتيا بشكل أكبر ممن لاحظناهم آنفا.

(ولكي ترى مشروع بحث كامل أجراه أحد أشهر علماء الإثنولوجيا "الأعراق البشرية" في أوروبا، مع إعادة هيكلة تفصيلية لإجراء اختبار فرضيته، ادخل على *www.sagepub.co.uk/gobo.*).

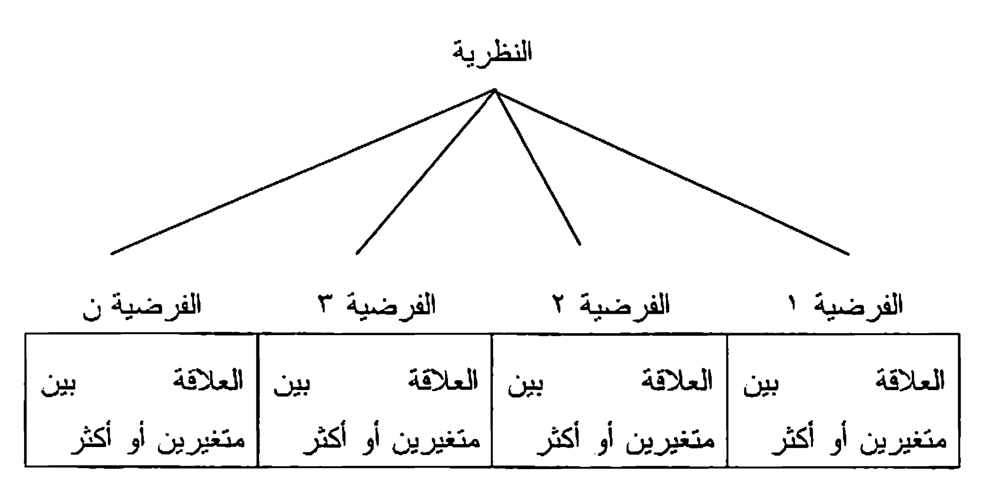
إنّ أكبر مخاطرة تواجه الباحث لدى مراجعته وفحصه للفرضيات هي أنّه قد يوجد وينسخ تحيزاته وافتراضاته المُسبقة (انظر ٥ – ٥). وكي يتحاشى الباحث هذه المخاطرة بشكل جزئي، فقد يجد أنّه من المفيد أن ينصب لنفسه "فخًا معرفيًا" متعمدًا كي يُبطّئ من حججه ومنطقه ويجعلها حذرة (*Gobo 1993*)، على سبيل المثال، عن طريق عكس التسلسل الزمني للأحداث، "بخلط" المذكرات المبنية على الملاحظة، وما إلى ذلك، ويؤدي ذلك إلى ضبط الاستعدادات الفكرية للباحث، وإحباط الاستنتاجات المتسرعة للغاية التي قد تعوقه عن توقع ما هو غير متوقع.

١٣- ٦ بناء النظرية

إنّ الفرق بين "الفرضية" و"النظرية" هو أي شيء إلا أن يكون واضحًا في المادة المطبوعة. وبالتأكيد فليس هذا مكان التعامل مع هذه القضية الشائكة. أما بالنسبة لأهدافنا العملية، فيمكن أن نُعرّف النظرية على أنّها مجموعة من التأكيدات التي تستند على مفاهيم لم تُعط بعد تعريفات جاهزة للعمل (انظر ٥ – ٤)، وبالتالي لم يلاحظها أحد بشكل مباشر. ومن هنا، يتبع ذلك أنّ النظريات، على عكس الفرضيات، ليست قابلة للاختبار بشكل مباشر.

تتكون النظرية إذن من سلسلة من الفرضيات تمت مراجعتها وتوثيقها. وللنظرية علاقة ذات وساطة (من خلال الفرضيات) فقط بالمستوى الإمبيريقي

التجريبي. ويمكن وصف العلاقة بين النظرية والفرضيات وتصويرها بشكل بياني بالشكل ١٣ - ٤ التالي:



الشكل ١٣ - ٤ العلاقة بين النظرية والفرضية

كيف يمكننا بناء نظرية؟ لقد قدمنا إجابة محددة في ١٣ - ٣، عندما كنا نناقش بناء قصة. ويمكننا أن نقول إنّ القصة (التي هي مجموعة من الفرضيات) عبارة عن نظرية في حالة الصنع. والاختلاف الرئيسي هو أنّ القصة مجموعة من الفرضيات لا تزال تحتاج للاختبار، ولكن إذا ما تم اختبارها، تصبح القصة نظرية.

١٣ - ٧ مثال للبحث: البناء التنظيمي لفقدان البصر

لكي نضرب مثلاً للإجراءات التي قدّمناها حتى الآن، سوف أورد تقريرا عن إستراتيجيات تحليل البيانات التي استُخدمت في دراسة عن البناء التنظيمي

للعمى الذي أجريت تنسيقًا له منذ بضع سنوات (جوبو، ١٩٩٧). وقد تم إجراء البحث في أحد فصول الصف الثالث (١٦ تلميذًا) في مدرسة أولية إيطالية وتم تعيين فتاة كفيفة (تُسمى ياسمين، وعمرها ثماني سنوات) لتكون محور البحث. وكان الهدف الأولي للبحث (وبالتالي كان لا يزال هدفًا عامًا) هو دراسة المصاعب التي تواجه الشخص المعاق في النظام التعليمي.

١٣-٧-١ تفكيك البنية (الترميز أو التنظيم المفتوح)

بعد قضاء بضعة أسابيع في ملاحظة عن كثب لتفاعلات الفتاة الكفيفة مع زميلاتها، وبعد ما جمعت مذكراتي الإثنوجرافية وقارنت بين نصوصها، بدأت في تحليل النصوص بتصنيف محتوياتها. وقد أسفر هذا التحليل عن قائمة أولية عن قوائم (مفاهيم) من الشعائر. وأعطيت اسمًا على ملصق لكل قائمة: "الوصول للمدرسة"، "الاستعداد لدخول حجرة الدراسة"، "الذهاب للمرحاض"، "طرح أسئلة على الطلبة"، إستراتيجيات أخذ الدور "في التحدث في الفصل"، "اختيار زميل في اللعب"... إلخ. على سبيل المثال، خصصت واقعة لهذه القائمة الأخيرة - سجلتها مذكرة مبنية *على الملاحظة* - عندما سأل أحد الأولاد مساعدة المُدرسة لماذا لم تستطع ياسمين (الفتاة العمياء) المشاركة في اللعبة. وكانت إجابة مساعدة المُدرسة كما يلي: "لأنَّها لا تبصر، وبالتالي فقد تجرح نفسها". وفي مذكرة *نظرية متعلقة* بالموضوع وضعت فرضية فحواها أنّ فقدان البصر ليس تقريبًا هو الظاهرة البديهية التي قد يصدقها المرء. لقد أوحت حقيقة أنّ الولد كان قد سأل مثل هذا السؤال الواضح ظاهريًا أنّ للأطفال تصورات فكرية عن فقدان البصر تختلف اختلافًا شديدًا عن فكرة الكبار (والباحثين أيضًا) عنه. في بداية العام الدراسي، ربما لم يكن لزملاء ياسمين بيان أو تصور اجتماعي دقيق عن الشخص الفاقد

البصر[٤]. بمعنى آخر، إنهم لم يكونوا يعرفون ما هو الشخص الذي لا يبصر (بعيدًا عن الفكرة المبتذلة بأنّه شخص لا يستطيع أن يرى)، وقبل أي شيء ما يستطيع غير المبصر وما لا يستطيع أن يفعله. ودلّ على ذلك حقيقة أنّهم طلبوا من ياسمين في البداية أن تشترك معهم في نفس الألعاب التي اقترحوها على أطفال آخرين. وعند هذه المرحلة من مراحل البحث، افترضت من أجل ذلك أنّ عدم الإبصار (فيما يخص ملامحه السلوكية) كان في الأساس "عملية"، نتاج تجريدي أو تصوري ينشأ في التفاعلات اليومية في المدرسة فيما بين تلاميذها، وأعضاء هيئة التدريس بها والعاملين من غير هيئة التدريس أيضًا. وتذكرت دراسة سابقة أجراها سادناو ***Sudnow (1967)*** من عدة سنوات حول التنظيم الاجتماعي لحالات الوفاة في المستشفى، حيث دعّم بالوثائق كيف أنّ الوفاة ظاهرة *اجتماعية* قبل أن تصبح ظاهرة بيولوجية. كانت وفاة المريض تحدث قبل وفاته الجسدية تمامًا، وذلك عندما يقرر العاملون في المستشفى - سواء بشكل صحيح أم لا - أنّه كان في حالة احتضار. وبعد ذلك تم الإعلان عن سلسلة من الممارسات التنظيمية التي تُخصص لحالات الوفاة، وكانت النتيجة أن المريض وجد صعوبة بالغة في إنقاذ نفسه.

١٣ - ٧ - ٢ التركيب (الترميز المحوري)

وبعد أن كوّنت هذه الفرضية، المبنية على المادة الإثنوجرافية، والتي أوحت بها لي دراسة سادناو، انتقلت للمرحلة التالية (مرحلة التركيب) وتوليت جمع مواد أخرى تُوثّق الممارسات التنظيمية، والقيود التي تفرضها البيئة المدرسية التي ساهمت بشكل حاسم في بناء وتكوين فكرة أو نظرية محددة عن حالات العجز، وهوية الفتاة فاقدة البصر على وجه التحديد. واستخدمت نموذج عناصر ستروس وكوربين الخمسة (*1990*) لبناء إطار عمل مبدئي: الظروف العرضية، وظروف

التدخل غير المرغوب فيه، والسياق، والأفعال على مستوى الوحدات الصغرى، والعواقب. وبهذا الشكل أصبح هدف البحث الأولي والعام أكثر دقة واهتمامًا بالتفاصيل. وإذا كان التلاميذ قد كونوا مفهومًا عن فقدان البصر أساسًا من خلال الممارسات التنظيمية والطقوس التي تمت حول الطفلة فاقدة البصر، كان لابد إذن من إجراء ملاحظات منهجية في المباني المدرسية التي أشارت ملاحظاتي إليها خلال مرحلة تفكيك البنية على اعتبار أنها ذات أهمية قصوى: رواق المدخل، والسلالم، ودورات المياه، وحجرة الدراسة. لذا جمّعت عينة محددة أكثر للقائمة الجديدة: ممارسات المساعدة (منهجيات الحياة) التي سنتها مساعدة المدرسة لياسمين في تلك الأماكن الخمسة. وقد حددت لكل مكان منها أكثر الأفعال تكررا، والتي خصصت عينة لكل منها بعد ذلك.

١. الاستراحة (الفُسحة)

علي سبيل المثال، كان هناك من يصطحب الأطفال لدورات المياه قبل بداية الحصة التالية، وذلك أثناء فترة الاستراحة (أو الفسحة).

المذكرة المبنية على الملاحظة ٢٣

كانت ياسمين عادة تقضي وقتًا أطول من صديقاتها في تناول وجبتها الخفيفة، وفي مناسبة ما، أخذت مساعدة المدرسة تحثها على أن تأكل بسرعة أكبر. "هيا يا ياسمين.. شدي حيلك.. أنت دائما الأخيرة". ونتيجة لذلك، كانت ياسمين تذهب لدورة المياه بعد زميلاتها بقليل. وبينما كانت زميلاتها داخل دورة المياه، كانت مدرسة الصف تقف في انتظارهن عند الباب تاركة الأطفال وحدهم بالداخل. وعلى النقيض من ذلك، كانت مساعدة المدرسة دائما تصاحب ياسمين وتدخل معها دورة المياه.

المذكرة النظرية ٦

من المحتمل أن يكون هذا التصرف قد غيّر من مفاهيم الأطفال لكلمة "خاص" و"جسم" فيما يخص ياسمين.

المذكرة المبنية على الملاحظة ٤٦

كان الأطفال كثيرًا ما يرشون بعضهم بالماء بشكل هزلي وهم في دورات المياه، إلا أنهم لم يمارسوا هذه المزحة مطلقا مع ياسمين. وعند انصرافهم من دورة المياه، كانت أياديهم تتشابك مع بعضهم البعض، ثم يصطفون ويدخلون حجرة الدراسة، تاركين ياسمين ومساعدة المدرسة خلفهم في دورة المياه، وكانتا تعودان لحجرة الدراسة فقط عندما يكون الأطفال الآخرون قد استقروا في مقاعدهم.

وبالنسبة لي، لكي أقرر أنّ الأطفال لم يمزحوا "مطلقا" مع ياسمين، أو أنّ مساعدة المدرسة كانت تصطحبهم "دائمًا" داخل حجرة الدراسة، كان لزامًا على أن أجمع عددًا معينًا من وقائع تشبه ذلك بشكل واقعي ملموس. وفي هذه الحالة، فمن إطار تحديد عينات لعدد ٢١٦ استراحة (فسحة) (من بين عدد الاستراحات في العام الدراسي)، استخلصت ٤٣ حالة كانت تُمثّل ٢٠ % لكل وقائع روتين "الذهاب لدورة المياه". وكانت العينات تتكون بالمثل من أهم وأبرز الطقوس (وحدات التحليل) التي كانت تتم في أماكن أخرى في المدرسة.

٢. رواق المدخل

ياسمين في مدرسة المرحلة الأولية. كان الجرس يدق للمرة الأولى في تمام الساعة الثامنة والثلث ليطلب من الأطفال الاستعداد للصعود لغرف الدراسة. وكان الجرس يدق مرة ثانية في الثامنة والنصف. فيشكل الأطفال أزواجا يصطفون

ويذهبون لغرف الدراسة لبدء دروسهم. وأثناء أنشطتهم التنظيمية تلك، حدثت سلسلة من التصرفات شكلت "اختلاف" ياسمين عن غيرها: (أ) بينما كان الأطفال الآخرون يذهبون كل بمفرده أو بمصاحبة آبائهم، كانت ياسمين تذهب ومعها مرافقة مكلفة من قبل الخدمات الاجتماعية بالمدرسة؛ (ب) بينما كان على الأطفال أن يصلوا للمدرسة قبل أن يدق الجرس الأول، كانت الإدارة تتحمل تأخير ياسمين، وكانت تصل أحيانًا حتى بعد الجرس الثاني؛ (ج) بينما كان الأطفال يلعبون ويمزحون فيما بينهم انتظارًا لدق الجرس الثاني، كانت مساعدة المُدرسة تأخذ ياسمين جانبا، وكانتا تتحدثان معًا منفصلتين عن بقية الصف والمدرسات؛ (د) بينما كانت الأطفال تشكل أزواجًا لتصعد لحجرة الدراسة، كانت ياسمين ومساعدة المدرسة إما يسبقان الآخرين للصف أو يدخلانه عقب دخول بقية التلميذات. ويبدو أنه من المحتمل من خلال تلك المذكرات المبنية على الملاحظة أنّ هوية وحقيقة ياسمين (لاسيما ما الذي يعنيه أن تكون فاقدة البصر بالمصطلحات المعرفية) كانت تتشكل بشكل تنظيمي.

٣. حجرة الدراسة

كانت طاولات العمل مُرتبة بحيث تواجه مكتب المُدرّسة. وكانت ياسمين تجلس في الصف الخلفي، بجوار مكتب مساعدة المدرسة. وكانت الأطفال تتبادل الأماكن خلال العام الدراسي حتى يمكنهم التفاعل مع زميلات أخريات في الفصل. لكن ياسمين بقيت في نفس طاولة العمل على مدار العام الدراسي بالكامل، لأنها كانت بجوار مكتب مساعدة المدرسة. ودونت في المذكرة أيضا أنّ الأطفال الذين أظهروا حالة من الود والصداقة تجاه ياسمين هم أولئك الذين كانوا يجلسون في الطاولة التي كانت أقرب ما يكون لها؛ كان القرب الجسدي يولد العاطفة والحب

بينهم. وكان هناك اختلاف آخر ظاهر وهو الاستخدام المختلف لمراسم الاحترام والتقدير (*Goffman, 1956a*): بينما كانت الأطفال يخاطبون مُدرسة الفصل بكلمة "مس"، سمحت المدرسة لياسمين بأن تخاطبها باسمها الأول. وقد تكون المواد المُختلفة التي كانت تُدرّس خلال اليوم الدراسي قد ضاعفت من الاختلافات بين ياسمين وبقية الصف. على سبيل المثال، وخلال حصة الجغرافيا، كانت مدرسة الصف تصف المعالم المورفولوجية الخاصة بالشكل أو الهيئة (الجبال والسهول والأنهار) لمنطقة إيطالية. ووقفت التلميذات حول مكتب المُدرسة التي كانت تعرض عليهم الخريطة. ومدّت ياسمين يديها لتلمس الخريطة، فقالت لها المدرسة إنّها كانت بفعلتها هذه تمنع التلميذات من متابعة الوصف، وإنّه في أي الأحوال لم تكن للخريطة "تضاريس كافية" تمكن ياسمين من الفهم عن طريق لمس الخريطة بيدها. وحدث نفس الشيء بينما كانت المدرسة تشرح طريقة عمل البوصلة: حاولت ياسمين فتح الآلة(٥).

وبينما كانت المدرسة تشرح نقطة ما، كانت ياسمين أحيانًا ترفع يدها لتطرح أسئلة أو لتقدم ملحوظات، فكانت بذلك تقاطع الدرس وتضايق زملاءها وزميلاتها في الصف. وفي مناسبات أخرى كانت ترفع يدها لتسأل عن دورها في الكلام، لكنّها كانت تتكلم قبل أن يُسمح لها صراحة بذلك. كان هذا الحدث شائعًا بشكل كبير: مما أفسد العرف السائد لوجوب انتظار التلميذة أو التلميذ لإشارة تعطيها المدرسة لها أو له قبل الشروع في الكلام، لأنّ الأطفال نسقوا أنفسهم بشكل مختلف؛ كانوا ينظرون لمن رفع يده أولاً، أو لو كانت هناك أيادٍ ما زالت مرفوعة يطلب أصحابها الكلام، كانوا يتصرفون دون انتظار إشارة المدرسة. ومن الواضح أنّ هذه المهارات المعرفية والاجتماعية لم تكن متاحة لياسمين العمياء، وكان أمرًا سخيفًا وغير متوقع أن تؤنب المدرسة ياسمين بقولها لها "انتظري دورك. هناك من رفع يده قبلك".

وقد شكلت الدروس الأسبوعية في التعليم الديني (الكاثوليكي) وفي اللغة الإنجليزية بشكل غير مبرر خلافًا بين ياسمين وبين بقية الصف. لقد تبنى مدرس التربية الدينية (وهو قسيس) موقفًا وقائيًا ومتساهلاً ومتسامحًا تجاه ياسمين، ولم يحدث أن أظهر هذا المدرس ذلك التوجه للتلاميذ الآخرين. وبالمثل كان مدرس اللغة الإنجليزية متسامحًا ومتساهلاً أكثر من اللازم مع ياسمين بالفعل، وقد صرخ أحد التلاميذ يومًا ما قائلا: "لماذا تحصل ياسمين دائمًا على تقدير "جيد جدًا" بينما لا نحصل نحن على هذا التقدير أبدًا تقريبًا؟" وكان تفسير المدرس لهذا هو أنّه لابد أن يساعد ياسمين لأنها فتاة مُعاقة.

١٣-٧-٣ إطار عمل

وباستخدام اقتراحات ستروس وكوربين (*1990*) أنشأت بعد ذلك إطار العمل التالي، وله خمسة جوانب (انظر ١٣ - ٢ - ٢):

١. الظروف العارضة = النموذج المهني الذي استخدمته مساعدة المعلمة في تعاملها مع التلاميذ المعاقين.

كانت الملامح الرئيسية للنموذج المهني لمساعدة المعلمة هي المبادئ التي تأسس عليها. وكانت تلك المبادئ تتضمن ما يلي: لا تترك الطلبة المعوقين وحدهم مطلقًا؛ دعهم يكونوا بجوارك دائمًا؛ قدم لهم الحب؛ لا تدعهم يشعرون أنّهم وحدهم؛ ساعدهم؛ تبنّ وعزز علاقاتهم مع الأطفال الآخرين، كن مرشدهم ودليلهم في تحركاتهم؛ لا تجعلهم يشعرون أنّهم مختلفون عن غيرهم أكثر من اللازم... إلخ.

وكما ذكر ستروس وكوربين (*1990: 100*) فإنّ السلوك المعتاد نادرًا ما يكون له سبب واحد فقط، فعادة ما يكون تتبع الأسباب أكثر تعقيدًا. على سبيل

المثال، نوع التدريب الذي يتلقاه مساعد أو مساعدة المعلمة أو المعلم ومعتقداته أو معتقداتها الدينية وسيرة أي منهما، كل هذه الأشياء يمكن أن تكون من بين الظروف العارضة.

وفي مذكراتي المبنية على الملاحظة (التي أقدمها بعد قليل في 5. الفعل/ وإستراتيجيات التفاعل)، يشار للظروف العارضة باستخدام أداة الربط "بينما" التي تتكرر كثيرًا في تقديم الأوصاف والتصورات.

٢. الظاهرة (المفهوم الرئيسي) = ممارسات الدعم من جانب المعلمة

كنت مهتمًا بالخواص التالية لممارسات الدعم من جانب المعلمة.

(أ) الهدف الرئيسي من ممارسات دعمها وعونها.

(ب) التواتر والتناغم الذي تكررت به هذه الممارسات.

(ج) توقيتها.

كان مؤشر تلك الخواص هو درجة *الاستقلالية* التي استطاعت ياسمين اكتسابها على مدار العام الدراسي. وعندما سلّمت بأنه كان مؤشرًا عامًا بشكل مبالغ فيه، ركزت على أحد مؤشراته (الفرعية): حجم المبادأة التي منحتها المعلمة لياسمين.

كان مؤشر "تواتر وتناغم" الخواص هو *تكرار* إجراء المساعدة.

وكان مؤشر "توقيت" الخواص هو "*مدة*" إجراء المساعدة.

وكان لابد من التفكير بعناية في اختيار المؤشرات، وكان لابد لهذا الاختيار أن يركز على النواحي المهمة للغاية للممارسة التي تتم دراستها، لأن المؤشرات كانت تستخدم فيما بعد كمتغيرات وبدائل للقوالب والمصفوفات التي لا يمكن عدّها.

واخترت بالنسبة لمؤشر درجة *الاستقلالية* متغيرًا مكونًا من أربع صيغ أو أساليب تشمل: لا توجد/ منخفضة/ متوسطة/ وعالية. واستخدمت بالنسبة لتكرار مؤشر المساعدة متغيرًا مكونًا من خمس صيغ أو أساليب تشمل: بدون أي مساعدة / نادرًا / أحيانًا / في معظم الأوقات/ ودائمًا. وأخيرًا، وبالنسبة لمدة مؤشر المساعدة حصرت المتغير لثلاث صيغ فقط وهي: لا يوجد فعل/ فعل مختصر/ وفعل مطول.

٣. أفعال التدخل = النموذج الفكري لمعلم (أو معلمة) الصف (أو مفهوم فقدان البصر) ربما يكون هذا النموذج قد ساعد الأفعال البسيطة (الصغيرة).

٤. السياق = قيود البيئة، سلوك المعلمين الآخرين، وهيئة العاملين بالمدرسة وزملاء وزميلات ياسمين على امتداد العام الدراسي، وتصرفات آباء الأطفال.

٥. الفعل / إستراتيجيات التفاعل = (أ) الوصول للمدرسة، (ب) التحكم في الالتزام بالمواعيد، (ج) الانتظار في ردهة المدخل، (د) الوقوف في الصف.

على سبيل المثال، لقد حددت، واخترت عينات، وأجريت ملاحظات منهجية لأربعة أفعال بسيطة (صغيرة) في ردهة المدخل (ودونت مذكراتي المبنية على الملاحظة بين قوسين)، كما يلي:

(أ) الوصول للمدرسة (بينما كان الأطفال يجيئون للمدرسة مع آبائهم، كانت مرافقة لياسمين هي التي تحضرها للمدرسة).

(ب) *طقس الالتزام بالمواعيد* (بينما كان الأطفال ملزمين بالوصول للمدرسة قبل أن يدق الجرس الأول - الساعة الثامنة والثلث - كانت ياسمين يُسمح لها بالتأخير حقيقة، بل إنها كانت تصل أحيانا بعد الجرس الثاني في الثامنة والنصف).

(ج) *الانتظار في ردهة المدخل* (بينما كان الأطفال يلعبون ويمزحون فيما بينهم في الردهة، كانت مساعدة المعلمة تقابل ياسمين، وكانتا تتحدثان معا - وهما منفصلتان عن الصف والمدرسين - وهما منتظرتان دق الجرس الثاني).

(د) الوقوف في طابور (بينما كانت الأطفال تصطف أزواجا قبل الذهاب لحجرة الدراسة، كانت ياسمين ومساعدة المعلمة إما تسبقان الجميع للصف أو تتوجهان لها بعدهم).

٦. النتائج = مفهوم الإعاقة الذي اكتسبه زملاء ياسمين وزميلاتها في الصف.

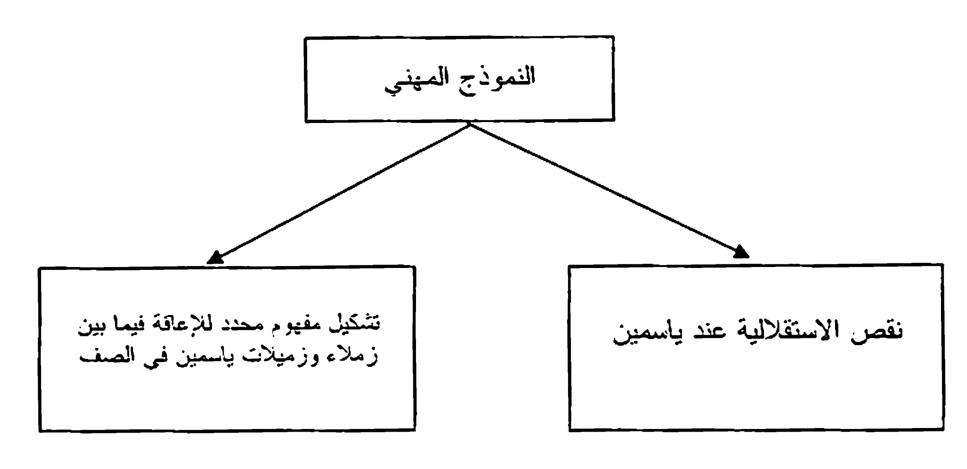
كما ذكرنا، تشكلت هوية ياسمين بشكل تنظيمي - لاسيما فيما يرمز له فقدان البصر بالمصطلحات المعرفية. وربما كانت السلسلة العارضة لهذا التشكيل كما يلي:

(١) كان النموذج المهني لمساعدة المعلمة هو الذي يوجه ممارستها في العون والمساعدة، وكانت تلك الممارسات بدورها؛ (٢) سببًا في نقص الاستقلالية عند ياسمين و(٣) شكّلت مفهوم زملائها وزميلاتها عن الإعاقة.

وكانت التأكيدات الثلاثة فرضيات قوية جدا كان لزامًا أن يتم اختبارها وتوثيقها بدلائل تجريبية مساوية لها في القوة. لذا شكّل الترميز المحوري تأكيدات حول المفهوم (الذي كان يرتبط عادة بفعل ما) وخواصه.

١٣ - ٧ - ٤ التأكيد (ترميز انتقائي)

بدأت المرحلة الثالثة بتأليف قصة (***Strauss and Corbin, 1990: 119***) مُكوّنة من عدد محدود من البيانات الافتراضية (حوالي ١٠)، وهي التي شكلت بمجرد اختبارها إطار العمل للنظرية. وكان الهدف من البحث في الحقيقة هو تقديم نظرية، وليس مجرد أوصاف وتصورات. كان عنوان القصة "ممارسات الدعم والعون" (القائمة الرئيسية)، وكانت تأكيداتها الافتراضية هي:



الشكل ١٣-٥ النموذج المهني

ممارسات الدعم والعون

١. لقد تعلمت مساعدة المعلمة نموذجًا مهنيًا في المساعدة والتعاون.

٢. اتجه هذا النموذج (دون وعي؟) لجعل ياسمين في حالة من الاعتماد على الغير.

٣. وفي الحقيقة، فإنّ ياسمين لم تكن قد كوّنت درجة ذات شأن من درجات الاستقلالية بعد حتى قرب نهاية العام الدراسي.

٤. ولم تكن مُساعدة المُعلمة فقط هي التي تعوق استقلالية ياسمين، إذ كانت قيود البيئة في المدرسة أيضًا تعوق تكوين تلك الاستقلالية.

٥. ولقد ساهمت بشدة ممارسات المساعدة التي كانت تتعاقب على ياسمين في تكوين مفهوم الإعاقة البصرية بين زميلاتها وزملائها، لاسيما في ما يخص ما يمكن لفاقد البصر أن يفعله، وما لا يمكنه أن يفعله أيضًا.

٦. وأدت نفس المهمة أيضًا (وإن كان في نطاق أضيق) العقوبات والمكافآت التي كانت توزعها مدرسة الفصل، ومعلمو مادة الدين ومادة اللغة الإنجليزية.

٧. وخلال العام الدراسي، غيّرت زميلات وزملاء ياسمين الطريقة التي كانوا يعاملونها بها.

٨. وحتى قرب نهاية العام الدراسي لم تكن ياسمين قد كونت أي علاقة وثيقة أو ذات معنى مع زميلاتها وزملائها.

٩. كانت علاقتها الوثيقة الوحيدة مع مساعدة المدرسة.

وبعد أن استعرضت وأوجزت القصة، كانت الخطوة التالية هي العودة (للمرة الثالثة) للميدان واختيار عينات للأفعال والأحداث المرتبطة بكل توكيد من التوكيدات، وبالتالي جمع معلومات أخرى أُوثّق بها صحتها. ومن الواضح أنّه لم يحدث أن أُهملت البيانات والمعلومات التي سبق تجميعها: إذ إنه من المعلوم أنّ البحث الإثنوجرافي عملية طويلة وشاقة، ومن الضروري للغاية أن يستغل الإثنوجرافي كل المعلومات لأقصى مدى، لاسيما المعلومات التي يكون قد تم جمعها. لذا عدت أنا لمذكراتي "القديمة" لأحقق هدفا جديدا، وهو تأكيد معلومات القصة أو دحضها وإثبات بطلانها.

كان كل توكيد (الذي لم يكن أكثر من مجرد بيان أو تقرير) يحتاج أن يتم دعمه وتأييده بوصف دقيق. بمعنى آخر، كان لابد أن يتم إثراؤه بالتفاصيل والوقائع التي تعطيه قوة وصلابة في أعين القراء (مفهوم "الوصف المُكثف"). وبهذا الشكل توسعت في القصة، وكونت نموذجًا معقدًا، وأعطيت مزيدًا من التطور لنظريتي. وفي بعض الحالات، كانت العلاقات التي تمّ تأكيدها نماذج وأنماط صريحة يمكن أن تُقدّم في قوالب غير عددية (انظر الجدول ١٣- ٢)، كتلك التي اقترحها التحليل التكويني (قارن *pradely ,1980: 130ff*) أو تلك التي قدّمها التصنيف لأكثر من سمة واحدة في نفس الوقت.

الجدول ١٣ - ٢ أنماط السلوك

الأعمال المصغرة	درجة المبادأة الممنوحة لياسمين	مدة عمل مساعدة المدرسة
الوصول للمدرسة	لا توجد	--
التحكم في الحرص على المواعيد	عالية	--
الانتظار	لا توجد	طويلة
تكوين الصف	لا توجد	طويلة
أخذ الدور	عالية	ليس هناك فعل
المشاركة فى أنشطة عند مكتب المدرسة	عالية	ليس هناك فعل
طرح أسئلة	عالية	ليس هناك فعل
دوران التلاميذ حول طاولات العمل	لا توجد	ليس هناك فعل
كتابة موضوعات تعبير	عالية	قصيرة
دخول التواليت	منخفضة	مطولة
رش الماء	--	--
ترك الحمام	منخفضة	مطولة

وتُقدم المصفوفة تمثيلاً مقتضبا لنموذج العلاقات، ومع ذلك فهو قالب ثابت مثله مثل كل تصنيف ودراسة للرموز، ودراسة المبادئ والتصنيفات. لذا يجب على الإثنوجرافي أن يحوله لقالب ديناميكي من خلال وصفه للعمليات والإجراءات. وهنا يجب أن ترتبط المعلومات التي يحتويها القالب بالأفعال حتى يتمكن القارئ من فهم وإدراك دلالة ونسبية معنى التفاعل الذي يوجد من وراء التمثيل المقتضب الذي يقدمه القالب.

١٣ - ٧ - ٥ المقترحات التنفيذية

من الواضح أنّه ليس من الضروري أن تنهي دراسة البحث عمليا باقتراحات عملية إلى جانب الاستنتاجات النظرية (وهي إلزامية إجبارية). ومع ذلك، فليس هناك من ضرر إذا اقترح شباب الباحثين تطبيقات تستغل ثراء ملاحظاتهم الإثنوجرافية. والنقطة بسيطة للغاية: إذا لم يكن للبحث أي فائدة اجتماعية، هل ينبغي أن يدفع الجمهور مقابلاً لهذا البحث؟ واضـــح أنّ هذا الأمر لا جدال فيه، ينبغي أن يكون كل بحث اجتماعي بحثًا تطبيقيًا؛ ولا شيء سوى ذلك. ومع ذلك فإنّ اعتبار البحث الاجتماعي كبحث اجتماعي محض فقط أمر مؤذ لكل من البحث والمجتمع على حد سواء.

أمّا ما يخص الحالة التي درسناها هنا، فقد بدأت أفكر في إجراءات يمكن أن تُصمم بحيث تشجع دمج الفتاة فاقدة البصر في المدرسة. ومن وجهة النظر تلك يمكن اقتراح مجموعة من التغييرات التنظيمية.

أولاً: كان ينبغي أن تُقلّل مساعدة المعلمة من تدخلاتها الفردية لأنّها كان لها تأثيرات ضارة: بإيجاد درجة اعتماد زائدة عن الحد عند ياسمين، الأمر الذي أعاق

تحقيق التقدم في استقلالها. علاوة على ذلك، فإنّ تدخل مساعدة المعلمة في حياتها لم يُشجع على تطور العلاقات بين ياسمين وبين زميلاتها وزملائها: وبدلاً من تبني مساعدة المُعلمة وتعزيزها للتضامن والاندماج الاجتماعي، كانت هي أحد عوامل الاستبعاد والإقصاء الاجتماعي لياسمين.

ثانيًا: كان ينبغي أن تُعلّم مساعدة المعلمة الصف بالكامل، وليس ياسمين بمفردها. ويمكن تصميم الفوارق العملية الوظيفية لهذا الغرض في الوقت الذي تتحاشى فيه التداخل والتشابك بين دور كل من المعلمتين، الأصلية والمساعدة.

ثالثًا: وبخصوص المشكلة المحددة بفقدان البصر، فقد كان بالإمكان توعية زملاء وزميلات ياسمين بمصطلحات عملية من خلال توزيع جماعي للمسئولية تجاه حالة ياسمين. والتأكيد على النواحي العملية هنا له أهميته. وقد أظهرت دراسة قام بها سبيرستين ***Siperstein*** وباك ***Bak (1980)*** في إنجلترا، حيث تلقى الأطفال في مدرسة ابتدائية دروسًا لزيادة وعيهم حول فقدان البصر، أنّ التعليمات التقنية الفنية الصرفة تفرز تحسينات فيما يتعلق بالكياسة وأدب الأخلاق، والعناية والحذر تجاه الزملاء والزميلات فاقدي البصر، لكنّها لا تفرز صداقات معهم أو معهن. كان ينبغي بدلاً من ذلك تطوير تحميل زملاء وزميلات ياسمين المسئولية من خلال مهام عملية يقومون بها: على سبيل المثال، كان بالإمكان تفويضهم بكثير من الأنشطة التي قدمناها في الأقسام السابقة، وبالتالي الحث على قدر أكبر من التضامن في الصف.

رابعًا: كان ينبغي إعطاء ياسمين قدرًا أكبر من حرية الحركة حتى تتمكن من إنشاء وتطوير حكم ذاتي واستقلال فكري والاستقلال المرتبط بالنشاط الحركي أو العضلي المتصل بالعمليات الفكرية. كان يمكنها أن تذهب للحمام بمفردها، وأن تشق طريقها إليه بلمس حوائط الرواق بأصابعها، وكان يمكنها توجيه نفسها من خلال الأصوات والضوضاء في المدرسة، وباستخدام عواميد الدرابزين على

السلالم. وكان بالإمكان تركيب أجهزة مريحة أخرى خصيصًا لها. وكان من الأهمية بمكان لياسمين أيضًا أن تتعلم فنيات السقوط أو الوقوع (للأمام أو على أحد الجانبين... إلخ.) كي تزيد من استقلالها الذاتي.

١٣-٨ التعامل مع الحالات المنحرفة (أمثلة)

قانون ماير *Maier's Law*

إذا لم تتطابق الحقائق مع النظرية، فيجب التخلص منها.

كثيرًا ما يصادف الإثنوجرافي ملاحظات أو أمثلة تتضارب وتتعارض مع فرضياته أو نظريته (من أجل دراسة حالة قدميا دي مارتينو ***de Martino*** عالم الإثنولوجيا، ادخل على الرابط. ***www.sagepub.co.uk/gobo***

ويؤكد ميهان (*1979*) وسيلفرمان (*2000: 181*) أنّه يجب إعادة صياغة النظرية حتى يمكن إزالة *كل* الحالات المنحرفة. ويمكن إجراء هذا العمل بشكل أسهل إذا جمعت البيانات المسجلة على أشرطة الفيديو أو أشرطة تسجيل؛ وبالتالي يمكنك الرجوع إليها لمراجعة الحالات المنحرفة ظاهريًا، وهذا أمر صعب للغاية إذا كان لديك مذكرات ميدانية فقط.

وهذا أمر يُوصى به بالتأكيد، وينبغي على الباحثين بذل كل الجهود في هذا الاتجاه. ومع ذلك، فليس بالإمكان دائمًا حل التناقض بين الفرضية والأمثلة. وكما يشير كل من ستروس وكوربين (*1990: 140*)، قد يكون هناك عدة أسباب لهذه الثغرة: وجود ملاحظات تختلف بشكل ملحوظ عن معظم الحالات (القيم البعيدة عن معظم القيم الأخرى في مجموعة من البيانات)؛ أو الملاحظات التي تمثل حالات انتقال (الدخول والخروج) في السلوك الذي تجرى عليه الدراسة؛ أو التأثيرات

المختلفة التي قد تفرضها الظروف على حالات سمة أو خاصية معينة، وبدون ذلك تبطل العلاقة التي أُلقي الضوء عليها. ونشير في هذا الصدد إلى القياس والمناظرة التي اقترحها جيري جاكوبس ***Jerry Jacobs*** (ليبرر حقيقة أنّ صياغته - المتعلقة بظاهرة الانتحار - كانت صياغة صالحة لكل المائة واثنتي عشرة مذكرة التي أفرزتها حالات الانتحار تقريبا باستثناء عشر حالات فقط):

> **ادرس هذا العبارة العلمية "إنّ الضوء ينتقل في خط مستقيم"، إلا لو قابل شيئًا غير شفاف، وإلا في حالة انكسار الضوء، وإلا في حالة انحراف الضوء أو انكسار الأشعة، وما إلى ذلك. والمرء لا يقول عن هذه الاستثناءات إنّها تميل لنفي مبدأ الانتشار المستقيم للضوء. إنّها ببساطة تعمل لتضييق حجم انتشار الضوء وتعيين حدوده... للحد الذي يصبح المرء فيه قادرًا على تفسير "الاستثناءات" بالطريقة التي تكون هذه التفسيرات متناسقة بها مع الدلائل، ويشكل المجموع الكلي لهذه التفسيرات فهمًا أكثر تفصيلاً وشمولاً عن الضوء (*Schwartz and Jacobs, 1979: 195*).**

١٣-٩ استخدام الحاسوب في تحليل البيانات والمعلومات الإثنوجرافية

قانون برمجة الحاسوب

> **إنّ أي برنامج معين يصبح باليًا وعفا عليه الزمن عند بثه وتشغيله.**

كما ذكرت من قبل، شهدت السنوات الأخيرة انتشار برامج الحاسوب التي يمكن أن تكون ذات عون عظيم في تحليل المواد. ولتقديم اختلاف أو فرق تقريبي إلى حد ما، يمكننا أن نقول إنّ هناك نوعين من برامج العقل الإلكتروني في السوق: برامج كيفية "برامج تحليل البيانات الكيفية بمساعدة الحاسوب: وتختصر بهذه الحروف الأولية لكلمات بالإنجليزية "*CAQDAS*" وبرامج إحصائية.

١٣-٩-١ برامج تحليل البيانات الكيفية بمساعدة الحاسوب "CAQDAS"

إنّ برامج تحليل البيانات الكيفية بمساعدة الحاسوب التي يُرمز إليها بكلمة *CAQDAS* (أي الكلمة المُركّبة من أوائل حروف) مسمى البرنامج وهو ***Computer-Assisted Qualitative Data Analysis Software*** تتشابه مع البرامج التي نشأت في الأساس لتحليل النصوص (لاسيما نصوص المقابلات والوثائق) ومنها***NVIVO, ETHNOGRAPH, ATLAS, QUALOPRO*** وما إلى ذلك.

كانت هذه البرامج في البداية برامج أجهزة إلكترونية "قص ولزق"، ولكنّ بعضها (*NVIVO* على سبيل المثال) امتدت إمكانياته لتحليل المواد البصرية أيضًا، بدءًا من المبدأ السيميائي الذي يرى أنّ الصور أيضًا ليست سوى نصوص.

ومن الواضح أنّ تعلم مثل هذه البرامج يتطلب وقتًا وموارد، لكنّه استثمار يستحق الجهد الذي يُبذل من أجله وجدير بالاهتمام[٦]. علاوة على ذلك، هناك عدة وجهات نظر عامة ممتازة (***Seale, 2000; Fielding 2001; Kelle, 2004***) تفسر استخدام هذه البرامج. وأنا هنا أقدم فقط المراجع لهذه المنشـــورات والكتب، إذ إنّه لا يوجد مساحة كافية لمناقشتها مناقشة تامة.

ما المزايا الرئيسية لهذه البرامج "مع الوضع في الاعتبار أنّ المذكرات الميدانية ليست سوى نصوص"؟

١٣-٩-٢ خمس مزايا لبرامج *CAQDAS*

أولاً، تساعد هذه البرامج الباحثين عند فرز وتصنيف مذكراتهم الميدانية الإثنوجرافية. ينبغي أن نتذكر أنّ تحليل المذكرات الإثنوجرافية لا يتم في يوم واحد، إنّها عملية تستمر شهورًا، لذا فمن السهل نسيان تفاصيل ما تم من أعمال في السابق.

والفرز والتصنيف اليدوي عملية معقدة دائمًا: وينسى الباحث الرموز والمصطلحات التي استخدمها في السابق، أو ينسى معانيها الأصلية؛ وما تم تخصيصه من معان لرموز ومصطلحات تلك المذكرات لا يكون ثابتًا ومتناسقًا في كل الأحوال. ويتبع ذلك نشوء مشاكل فيما يخص دقة الفرز والتصنيف وإمكانية الاعتماد عليه (انظر ١٤ – ٣)، وفي حدوث خلط وارتباك في بناء نظرية متناسقة ومتسقة.

أمّا مع استخدام برامج الحاسوب بدلاً من ذلك، فيكون لدى الباحث نظرة عامة وشاملة وحاضرة باستمرار لقائمة الرموز والمصلحات التي اخترعها (القائمة الأصلية) ولمعانيها. علاوة على ذلك، فإنّ المذكرات الإثنوجرافية التي تم فرزها وتصنيفها بناء على رموز مصطلحات معينة يمكن استردادها وإصلاحها في لحظات، بل وتغييرها وإعادة تسميتها أو تنقيحها وتعديلها، هذا إذا لزم الأمر. ورغم ذلك، فإنّ هذه الإمكانيات والقدرات، والسهولة النسبية التي يمكن تعيين الرموز والمصطلحات بها يمكن أن يكون لها أضرار أيضًا لأنّها تثير أوهام القدرة الكلية. وقد حذّر العديد من المؤلفين أنّ هذه البرامج (لو استُخدمت بتهور) قد تفرز وفرة من الرموز والمصطلحات التي يصعب التعامل معها في المراحل التالية للتحليل *(Bryman, 1988: 83-7; Silverman, 1993: 47)*. ومن هنا فإنّ قانون دايكسترا ***Dykstra*** الشهير – "إذا كان التصحيح هو عملية إزالة الشوائب، فإنّ البرمجة لابد أن تكون عملية إدخال هذه الشوائب"– ينطبق على هذه البرامج أيضًا.

ثانيًا: بدءًا من الرموز والمصطلحات الرئيسية، يمكن استخدام برنامج '***CAQDAS***' "بشكل أكثر دقة وتطورًا" لسرد وتعديد الرموز والمصطلحات (وبالتالي تقدم إحصائيات على النحو المحدد في (١٢ – ٥)، وخلق رموز ومصطلحات متزامنة تظهر العلاقات بين القوائم والفئات، وإنشاء نظم قوائم هرمية. وتتكون هذه النظم من قوائم الرموز والمصطلحات التي يمكن تصفحها.

ثالثا: تضاعف طريقة العمل هذه من شفافية عملية تصنيف المْذكرات الميدانية وتزيد من تآلف الذوات أو إجماع الذوات. وهذا يُسهّل من البحث الذي يجريه فريق عمل: يمكن أن يتبادل الباحثون الرموز والمصطلحات وأمثلة للتصنيف، وأن يتفقوا على تفسير أحداث معينة. كل هذا يُحسّن من الدقة والموثوقية إلى حد كبير.

رابعًا: يساعد تحليل البيانات الكيفية بمساعدة برنامج "*CAQDAS*" في صيغته المتطورة في عملية "بناء نظرية". ويجب تحديد معنى هذا التعبير، لأنّ البرنامج لا يقدم النظرية للوجود بوفرة وبشكل إلى أوتوماتيكي عندما يكون قد صنّف المذكرات الإثنوجرافية. ولو كان الأمر كذلك ! فإنّ ما يمكن للبرنامج عمله هو مساعدة الباحث في المراجعة والفحص الدقيق للفرضيات. على سبيل المثال، إنّ *NVIVO* برنامج له تسعة مفاتيح بول "نسبة لعالم الجبر والرياضيات جورج بول الذي مهدت نظرياته العلمية لاختراع الكمبيوتر الرقمي" (منها *AND/OR/XOR,NOT,IF,THEN,EXCEPT* وما إلى ذلك)، وبمجرد دخول المذكرات المبنية على الملاحظة في برنامج الحاسوب، يُمكنها مراجعة فرضيات هذه المذكرات أوتوماتيكيا من خلال تصفح وفحص محتويات هذه المذكرات. وتكون نتائج ومخرجات هذا التصفح والفحص أجزاء من النص (في هذه الحالة: من المذكرات الإثنوجرافية) تم تجميعها بعمل مفاتيح بول ويمكن مشاهدتها في الحال على شاشة الحاسوب.

وأخيرًا: فإنّه يمكن تصوير ووصف الفرضيات والنظريات بالرسومات البيانية.

ومنذ بداية التسعينيات، انتشر استخدام تحليل البيانات الكيفية باستخدام برنامج "*CAQDAS*"، مدعوما بأمل جماعي غير مُدرك أنّ برامج الحاسوب

للمعالجة الأوتوماتيكية والموحدة لبيانات النص والتي أصبحت متاحة أخيرا - وهي تشبه إلى حد كبير الحزم والإجراءات الإحصائية التي ساهمت مساهمة كبرى في نجاح البحث الكمي- أمّا الآن، على أي حال، فقد تلاشت هذه الآمال: فلا يوجد أي شيء مُعجز بخصوص تحليل البيانات الكيفية باستخدام برنامج "*CAQDAS*"، ولا بد لمن يستخدمون مثل هذه البرامج أن يكونوا مجتهدين وصابرين. وفي الحقيقة، فقد ظهرت عدة انتقادات ضد هذه البرامج:

> **اتجهت مناهج تقليدية لاستخدام برنامج *CAQDAS* لتطبيع الانقسامات بين إدارة البيانات، والتحليل والتمثيل، وبالتالي أصبح هناك نزوع لإهمال إمكانيات التكنولوجيا الرقمية لنقل كل مراحل عملية إجراء البحث... وفي الوقت الذي تُمكّن فيه بعض حزم البرامج الإلكترونية الآن البيانات المرئية من أن تكون من بين مجموعة البيانات، لم يبق سوى مجال ضيق لدمج أنواع البيانات داخل نطاق التحليل التفسيري (*Coffey et al.2006: 18*).**

١٣-٩-٣ النظم الإحصائية الآلية لجمع البيانات وتحليلها

أدّى التقدم التكنولوجي الذي حدث مؤخرًا أيضًا لنشأة عدد من النُظم شبه الآلية لتجميع البيانات المبنية على الملاحظة وتسليمها فورًا. وهي منتشرة جدًا خصوصًا في علم النفس الإثنوجرافي الذي كان ولا يزال يلعب دورًا متخصصًا في علم النفس منذ أسسه أخصائي علم النفس الاجتماعي الأمريكي روبرت إف بولز **Robert F. Bales** *(1916- 2004)* ومن المفترض أنّ هذه النظم تُسّهل الملاحظة بتحسين موثوقية ودقة التسجيل مقارنة بطرق الورقة والقلم المرهقة والبطيئة. وبجعل جمع البيانات وعمل رسوم بيانية لها أكثر كفاءة. ونتيجة لهذا اكتسب

استخدام الحاسب الآلي في تسجيل وتحليل البيانات أهمية كبيرة متزايدة في العمل العيادي فضلاً عن الأبحاث.

وتُستخدم برامج الحاسوب هذه في الأساس في تحليل مواد الفيديو. على سبيل المثال، يمكننا أن نسجل بالفيديو التفاعلات بين أم وطفلها، أو بين أطفال وهم يلعبون ويمرحون، ثم نصنف ما يحدث أثناء فترة من الوقت (ثلاث ثوان مثلاً). وتُصبح العملية أسهل من خلال حقيقة أنّ مادة الفيديو تتفاعل مع برنامج الحاسوب بشكل متكامل.

وتمكن برامج الحاسوب هذه من يستخدمها من تسجيل حتى ١٠٠ رد فعل واستجابة مختلفة أثناء الدورة، ولها القدرة على تسجيل تكرار الاستجابة، ومدتها الزمنية، والفواصل وفترات الراحة (مدة متغيرة)، وعينات زمنية، والاختباء والاستتار، وزمن الفاصل بين الاستجابات، وعواقب السلوك السابق، والتجارب المنفصلة. وتُمكّن خصوصية النص من تسجيل مذكرات الحالات الفريدة والشاذة (غير القياسية). علاوة على ذلك، تسمح خصوصية التوقف المؤقت بمقاطعة وإعاقة دورات الملاحظة عند الضرورة، ويمكن تحرير أخطاء الدخول التي ارتُكبت أثناء التسجيل. ويعطي برنامج تحليل البيانات المستخدم حرية اختيار عد أو حساب ردود الأفعال (العدد الإجمالي والمّعدّل)، والمدة الزمنية، وفترات الكمون وتقنيات الإنترنت ذات الصلة، والنسبة المئوية لفترات الاستراحة، والنسبة المئوية للتجارب والاختبارات، والاحتمالات الشرطية. ويمكن للمستخدم أن يحدد أيضا الجماعات الفرعية التي تتضمن تركيبات مختلفة من ردود الأفعال (*A or B, A and B*).

ويعرض برنامج الحاسوب أيضا فرصة اختيار حساب مقاييس إحصائية كمقاييس النزعة المركزية (الوسط والوسيط)، والتباين (المدى والتوزيع التكراري) والدلالة الإحصائية. وهناك أكثر من ٢٠ مقياسا أبرزها: الملاحظ، وإستراتيجية

تقييم السلوك، والتصنيف ونظام ملاحظ السلوك. من أجل نظرة شاملة لمعالمها، انظر *Kahng and Iwata 1998* ومن أجل عرض برنامج *"الملاحظ"*، ادخل على الرابط **http://www.noldus.com/site/doc200401012**.

١٣-١٠ ملاحظات ختامية

أظهر هذا الباب كيف تتولى تحليل المواد الإثنوجرافية. ويمكن أن يتم مثل هذا التحليل يدويا، أو عن طريق وسائل التكنولوجيا الرقمية، وهي السبب في وجود حالة تفاؤل شديد. ومع ذلك، لا ينبغي أن ننسى ما حدث في الطرق الكمية خلال الستينات. وكما سطّر أخصائي مناهج البحث الإيطالي ألبرتو ماراديAlberto Maradi قائلاً:

> **قبل عصر الكمبيوتر، كان تحليل البيانات يتطلب توظيف قدر هائل من الوقت والقدرات. لذا اعتبر الباحثون أنّ الدقة في جمع البيانات هي الضمان لعدم ضياع جهودهم في بيانات مشتتة ولا يمكن الاعتماد عليها. والآن وقد أصبح من الممكن تقديم مئات من التبويب أو التصنيف المزدوج أو مصفوفات العلاقة والارتباط في ساعات قليلة... فإنّ ذلك يعلن انتهاء الحاجة النفسية لهذا الضمان. ورغم ذلك فعند قراءة تقارير البحث، يحصل المرء على انطباع بأنّ التقنيات الإحصائية المتطورة بشكل متزايد يتم تطبيقها على بيانات قليلة القيمة وغير ملائمة (*1980: 4*).**

لذا أصبح من الواضح أنّنا قد بدأنا لتوّنا في إجراء تجاربنا مع التقنيات الرقمية، وأنّنا ما زلنا بعيدين عن فهم إمكانياتها. لكنّه مما لا شك فيه، وكما يؤكد ديورانتي:

فإنَ اختراع أدوات جديدة يمكن استخدامها لتخزين المعلومات، وإعادة عرضها، ومعالجتها ببراعة، ونسخها واستنطاقها حول التفاعل البشري لا يقدم فقط حلولاً جديدة لمشاكل قديمة، لكنه يفتح لنا المجال أيضا لاكتشاف أسئلة تحليلية جديدة (١٩٩٧أ: ١١٥).

النقاط الرئيسية

- يتحرك تحليل البيانات والمعلومات من خلال ثلاث خطوات رئيسية: تفكيك البنية (ترميز مفتوح)، وتركيب البنية (ترميز محوري)، وتأكيد وتثبيت البنية (ترميز انتقائي).
- بالنسبة للخطوة الأولى (تفكيك البنية) يمكن توظيف ثلاث إستراتيجيات بديلة. (أ) استخدام ورقة ترميز وتوظيف؛ (ب) استخدام إطار عمل؛ (ج) تصنيف المذكرات الإثنوجرافية.
- وما نقيمه في الخطوة الثانية هو إطار عمل مكون من خمسة عناصر (الظروف العرضية ← ظاهرة (تحت الدراسة) ← السياق ← ظروف التدخل ← إستراتيجيات الفعل / التفاعل ← النتائج) تبدأ في وضع الخطوط العريضة للمعالم الرئيسية لما سيصبح القصة بعد ذلك.
- وتنتهي الخطوة الثالثة (إعادة البناء) بكتابة قصة تحتوي على الفرضيات الرئيسية التي يفرزها تحليل المواد وتشكل لب النظرية النهائية.
- ويمكن دمج تحليل المذكرات الإثنوجرافية مع تحليل الوثائق، والمواد السمعية والبصرية بشكل مفيد.

- وهناك جزء جوهري للتحليل هو تكوين فرضيات وتوثيقها بأوصاف مكثفة (تفصيلية) وأخرى ضئيلة وغير تفصيلية.
- تتكون النظريات من مجموعة من الفرضيات تم توثيقها بالقدر الكافي والملائم.
- ليست كل الأحداث التي يتم ملاحظتها يجري تفسيرها بشكل صحيح؛ لذا فالبعض لا يغطيها التفسير وتتخذ وضع الأمثلة الشاذة.
- يجب على الإثنوجرافي بذل أقصى جهد متصور في مراجعة وتصحيح وتنقيح الفرضيات حتى يمكن تحسين ومعالجة غالبية الحالات المنحرفة.
- قد يكون تحليل البيانات الكيفية بمساعدة الحاسوب باستخدام برنامج *CAQDAS* أداة مفيدة في تصنيف مواد النصوص، وفي إقامة وبناء نظم قوائم هرمية، واختبار الفرضيات، وبناء نظريات بشكل أسرع وأدق عما يحدث إذا لم يتم تحليلها بهذه الطريقة.

المصطلحات الرئيسية

التحليل: عملية انتقائية يتم تمثيل ظاهرة وفقا لها حتى يمكن التأكيد على خواص وصفات معينة. والهدف من أي تحليل ليس تقديم نسخة كاملة عن موضوعه، فهو يتضمن عوضا عن ذلك تحول، تدخل معرفي، في الحقيقة التي تمت ملاحظتها.

الترميز المحوري التركيب: هي المرحلة التي يبدأ الإثنوجرافي عندها في إعادة تجميع (وبأشكال مختلفة) المفاهيم التى نشأت في المرحلة السابقة للترميز المفتوح، والهدف من ذلك هو تقديم إطار عمل أولي متسق.

CAQDAS برنامج تحليل البيانات الكيفية بمساعدة الحاسوب، وتُستخدم في تحليل النصوص.

ورقة الترميز: شبكة نظرية (مفاهيمية) بها عدد صغير نسبيًا من الموضوعات أو العناصر تستهدف استنباط واستخراج المعلومات من المذكرات المبنية على الملاحظة.

الأمثلة الشاذة: (المنحرفة) أحداث وملاحظات في حالة خلاف مع الفرضية أو النظرية التي تسعى أي منهما لفهمها وتفسيرها.

إطار العمل: (إطار تصوري) مخطط متسق مُكوّن من مجموعة محدودة من عناصر تُجمع عليها المُذكرات المبنية على الملاحظة.

الترميز المفتوح: تفكيك البنية مرحلة استكشافية يختبر الإثنوجرافي فيها الميدان بحثًا عن مفاهيم (أو فئات وقوائم) يمكن أن تفسر ظاهرة تمت ملاحظتها.

الترميز الانتقائي: إنّ مرحلة التأكيد، التي يتم فيها اختبار الفرضيات المنبثقة من الترميز المحوري وتوثيقها بقوة، ثم تُثبت لتصبح نظرية.

القصة: سرد يرتكز على مفهوم أو موضوع البحث الرئيسي. وهو يحتوى على حوالي ١٠ تأكيدات (رغم كونها لا تزال تأخذ شكل الفرضيات) حول العلاقات بين المفهوم الرئيسي ومؤشراته ودلائله. والقصة بناء للنظرية الكاملة.

النظرية: مجموعة من التأكيدات مبنية على مفاهيم لم تُعط بعد تعريفات جاهزة للتنفيذ، وبالتالي فهي لم تتم ملاحظتها بشكل مباشر. والنظريات، بخلاف الفرضيات، ليست قابلة للاختبار بشكل مباشر. وتُشكّل الفرضيات المتناسقة والمتسقة بالتبادل والتي تم تأكيدها وتأييدها بشكل ملائم ما نسميه بالنظرية.

توصية بقراءة

بالنسبة للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد:

Seale, Clive (2000)

بالنسبة للخريجين

Fielding, Nigel (2001)

بالنسبة للمتميزين ممن يجرون البحوث:

(Emerson, Robert M. (2004

اختبار تقييم ذاتي

هل أنت مستعد للباب التالي؟ راجع معلوماتك بالإجابة عن الأسئلة التالية ذات النهايات المفتوحة:

١. هناك ثلاث إستراتيجيات مُقترحة لتحليل المذكرات المبنية على الملاحظة (ورقة الترميز، وإطار العمل، والتصنيف). ما الإستراتيجية التي تفضلها من بينها؟ ولماذا؟

٢. ما الفرق الرئيسي بين النظرية والفرضية؟

٣. هل ينبغي للتحليل، وبالتالي للنظرية، السعي لتحقيق تطابق تام مع الحقيقة التي تمت ملاحظتها؟

٤. ما المقصود "بالاستخدام التكاملي" للوثائق وللمواد البصرية؟

٥. لماذا يُفضل تعبير "توثيق الفرضية" عن التعبير الأكثر شيوعًا "التحقق من الفرضية"؟

٦. هل برنامج *CAQDAS* بديل حقيقي وأصيل لتحليل البيانات الإثنوجرافية اليدوي التقليدي؟ وهل ترى أي مخاطر من استعارته أشياء من التحليل اليدوي؟

الهوامش

١ - هذه الإستراتيجية منتشرة جدا في علم النفس ولها إرهاصات موثوق بها في بيكس *Bakes (1951)* على سبيل المثال، وفي سيرس، رو، وألبرت (*Sears, Rau, and Alpert 1965*)، الذين وضعوا قائمة قصيرة من قوائم السلوك ثم أصروا على وجودها أو خلاف ذلك (أهميتها وتكرارها) في الأحداث التي تم ملاحظتها بشكل ملموس.

٢ - كانت برامج الكمبيوتر متاحة لبعض الوقت، وهي التي تقدم مساعدات مفيدة للغاية مع تصنيف بسيط أو مركب. وهي تناقش بتفصيل أكبر في ١٢ – ٩.

٣ - أطلق لوفلاند (*Lofland 1971: 123*) على هذه العملية اسم "دراما الاختيار" لأنّ الباحث يكون مجبرًا على تقييد تركيزه وبؤرة اهتمامه. ويستلزم هذا استبعاد بعض المواد، وربما يكون الباحث متعلقًا بها أكثر من غيرها لوفرة التفاصيل الميمة بيا. ومع ذلك، يجب على الباحث اتخاذ اختيارات جذرية وعنيفة خشية تكاثر المواضيع وضياع إجراء ملائم ومتناسق.

٤ - لاحظ جوفمان *Goffman* ظاهرة مماثلة في مستشفى الأمراض النفسية التي أجرى فيها بحثه: "إنّ أطفال الأطباء المحليين المقيمين كانوا هم الفئة الوحيدة من غير المرضى التي وجدت أنّها لم تبرهن أو تظهر بوضوح مسافة طبقة اجتماعية بعيدًا عن المرضى؛ لماذا لا أعرف" (*1961: 218, note 2*).

٥ - طلب المدرس من التلاميذ بعد إعطاء حصة في متحف المدينة أن يكتبوا مواضيع تعبير عن زيارتهم. وقدّمت ياسمين لموضوعها كما يلي: "ربما يكون موضوع التعبير الخاص بي ليس بجودة مواضيع زميلاتي وزملائي لأنّني لم أستطع رؤية الأشياء الموجودة بالمتحف بشكل جيد لأنّيا كانت هناك مطوّقة داخل خزائن العرض". وما هو واضح في نظام ياسمين المعرفي هو المعادلة: يرى = يلمس.

٦ - لو كنت مهتما بالندوات والحلقات الدراسية حول البرامج المتعددة للحاسوب، وورش العمل التمهيدية ليا، والأحداث الخاصة المعدّة طبقا لمواصفات محددة، وورش عمل المتابعة،

وخطوط المساعدة الاستشارية، وفن وصف الكتب والمخطوطات والتعريف بها الخـــاص بـــ *CAQDAS* وروابط الويب لمصادر أخرى، وما إلـــى ذلـــك، ادخـــل علـــى الـــرابط:
http://caqdas.soc.surrey.ac.uk.

الفصل الرابع عشر

سياسة المحاسبية

القانون الأول للمناظرة

لا تتجادل مع شخص أبله - فقد لا يعرف الناس الفرق.

الأهداف التعليمية:

- اكتساب نظرة عامة عن المناظرة حول شرعية البحث الكيفي.
- فهم لماذا يكون من المهم معالجة مشكلة تقييم بحثك وإعطائه الشرعية
- تحديد مستويات التقييم الرئيسي القابلة للتطبيق في الدراسة الإثنوجرافية.
- مراجعة وتنقيح هذه المستويات من منظور "عملي".
- معرفة كيف تُعمّم تعميماتك ضد النقد وتدافع عنها.

١٤-١ مقدمة

ربما كان موضوع الشرعية أكثر المواضيع التي عالجناها حتى الآن تعقيدًا. لقد أثار خلافات وجدالاً غاية في السخونة، وحظي بأقل موافقة بين الخبراء

المختصين حول منهجية البحث الكيفي. لكنّ الشرعية أيضًا ربما! كانت أهم القضايا، لأنّ سمعة وشهرة الإثنوجرافيا، والبحث الكيفي، والعلوم الاجتماعية ذاتها بشكل عام تعتمد عليها. وسوف أسعى لإظهار السبب في ذلك بمثال بسيط ومباشر.

دراسة حالة

كم كانت درجة ارتفاع أصوات المسافرين؟

أدّى جماعة من ثلاثة أفراد من طلابي تمرينًا معينًا. كان أول طالب من صقلية (بجنوب إيطاليا)، وكان الثاني من فلورنسا (من وسط إيطاليا)، والثالث من أليساندريا (مدينة في شمال إيطاليا). كان الطلاب الثلاثة قد أجروا ملاحظاتهم على تصرفات ركاب حافلة "باص" في سينًا *Siena* (مدينة قريبة من مدينة فلورنسا في وسط إيطاليا) واستمعوا لمحادثاتهم، وقالوا في التقرير الذي قدموه لزملائهم في الصف إنّهم لم يستطيعوا أن يتفقوا على درجة ارتفاع أصوات المسافرين من كبار السن. بالنسبة للطالب القادم من صقلية كان مستوى صوت الركاب منخفضًا؛ وبالنسبة للطالب القادم من فلورنسا، كان مستوى أصواتهم عاليًا؛ بينما بالنسبة للطالب القادم من أليساندريا كان صوت الركاب جميعًا سواء من صغار أو كبار السن عاليًا. والواضح من هذه الحالة هو الدور الذي تلعبه خلفيات الفطرة السليمة للملاحظين الثلاثة: ففي صقلية، ربما كان حجم الصوت المُستخدم في المحادثات العامة أعلى، وكان نتيجة ذلك أن اعتقد الطالب الصقلّي أن مستوى صوت كبار السن من ركاب الباص في سينًا كان منخفضًا.

ويأخذنا هذا المثال مباشرة لجوهر المشكلة: ما درجة التوافق والتشابه التي يمكن أن توجد بين تفسيرات الإثنوجرافي والظاهرة التي يُجري ملاحظته عليها؟

إذا كان الباحث يعيش في مكان بعيد ليس له فيه اتصالات بالعالم الخارجي، فقد لا تكون هذه مشكلة مهمة. ولكن حيث إنّ معظم الباحثين يجب عليهم الاتصال مع مجتمعهم (لعدة أسباب تتراوح بين النرجسية والأنانية وعشق الذات، مرورًا بالحاجة لإقناع أعضاء لجنة أبحاثهم، لالتزامهم بالنشر المفروض على الأكاديميين)، لابد للإثنوجرافي أن يتعامل مع هذه المشكلة عند نقطة معينة من نقاط البحث.

وإذا تخلينا عن الفكرة الوضعية القائلة بأن الحقيقة الموضوعية المُدركة بالحواس موجودة بشكل مستقل عن الملاحظ، تنتقل مشكلة صحة وصدق ما يقوله الإثنوجرافي لبُعد أكبر، تكون الحقيقة فيه (التي من المستحيل تأكيدها في معظم الأحيان، كما سنرى) ليست هي الشيء المهم، وما يهم أكثر هو قدرة الباحث على إقناع جمهوره بمصداقية استنتاجاته. لذا فإنّه في الإطار المعرفي هذا تكون للإستراتيجيات البلاغية أهمية قصوى، أو بمعنى آخر، "للبلاغة والسياسة" هذه الأهمية للتحقق من نتائج البحوث وفاعليتها (انظر أيضًا الباب ١٥).

١٤ - ٢ أزمة الشرعية

قانون ترومان *Truman*

إذا لم تستطع إقناعهم، فعليك بإرباكهم.

في التراث المنهجي المثالي، كانت مشكلة إجازة نتائج البحث وجعلها قانونية وشرعية تُعالج من خلال مفهومين رئيسيين: *الدقة والموثوقية* (الخاصة بأداة القياس) *وصحة وشرعية* (البيانات). نشأ هذان المفهومان في العلوم الأساسية (علم الفلك والقياس النفسي على وجه الخصوص)، حيث كان المقصود منهما منع كل

من الأخطاء المنهجية والعرضية. وبعد مقاومة طويلة الأمد، وفي بداية الثمانينيات تم إدخالهما في البحوث الكيفية أيضا، مع تعديلات جوهرية كبيرة أدخلها أخصائيون في مناهج البحث الكيفي من أمثال كيرك وميلار ***Kirk and Miller (1986)*** وهامرسلي (***1990 and 1992***)، وسيلفرمان (***1993 and 2000***). كان هذا التطور مهمًا لأنّه ساعد البحث الكيفي على دحض النقد الخاص برومانسيته وذاتيته المبالغ فيها، وعلى تأسيس مستويات لمصداقية واتساق وتطابق نتائجه. وقد تم تلخيص المناظرة بالكامل بشكل جيد بتعبيرات "جودة البحث الكيفي" (***Seale,1999***) و"مصداقية البحث الكيفى" (***Silverman, 2006: 271 ff***).

وقد حدث هجوم على هذا المدخل باعتباره "مجرد اهتمام وضعي" أنتجته انتقادات الحركة النسوية، وانتقادات ما بعد الحداثة (انظر ٤ -٣ و ٤ - ٤)، اللتان تُشخصان "أزمة شرعية" (***Denzin and Lincoln, 2000: 17***) وهما يعنيان بهذا التعبير أنّه لا يمكن تقييم البحث الكيفي بمعايير تقليدية مألوفة.

والسؤال الآن، هل هناك من سبيل للخروج من هذا الطريق المسدود؟ هناك حجج وبراهين جيدة على الجانبين. ولكن ما ينقص هو *منهاج عملي* يعالج هذه المشكلات بشكل منفصل حدث بحدث، وحالة بحالة، ودراسة بدراسة، ومنهج بحث بمنهج بحث، وطريقة بطريقة، وهذا هو ما سوف أسعى للخوض فيه في الأقسام التالية من هذا الفصل. على سبيل المثال: لو كان الغرض من مفاهيم الدقة والمصداقية، والصحة والصدق هو منع الأخطاء المنهجية النظامية والعرضية غير المقصودة، فإنّ منهج البحث الإثنوجرافي يتمتع بالفعل بمزية لا تتوفر في أنواع أخرى من مناهج البحث، لأنّ بعض هذه الأخطاء يمكن تصحيحها مع استمرار العمل في البحث (على وجه التحديد بسبب الطبيعة الدائرية للبحث الإثنوجرافي).

إنّ مفاهيم الدقة والمصداقية، والصحة والصدق بالتأكيد مفاهيم مخففة ومختزلة، لأنّها تهمل عددًا من الأسئلة المهمة تخص عملية تفسير المواد. علاوة على ذلك، لو كان في الإمكان دائمًا من وجهة نظر وجودية للتأكد والتحقق من صحة وصدق (البيانات)، فلن يكون هناك حاجة لمراجعة دقة ومصداقية الأداة المستخدمة، وذلك لأن الدقة والمصداقية تقتضي ضمنًا وتفترض الصحة والصدق. لكنّه يمكن التحقق من الدقة والمصداقية في أحداث معينّة فقط (انظر الفقرة ١٤ - ٦ - ١)، هنا تصبح شرعية الإثنوجرافيا هي العمل المضني الخاص بجمع الدلائل. وهو يشبه في هذا عمل لعبة بانوراما اللغز، حيث إنّ كل جزء (أو كل بند من بنود الأدلة) له أهمية ضئيلة في حد ذاته، لكنّه يكتسب معنى كجزء من صورة أكبر وأشمل. ومع ذلك، ينبغي أن نضع في الاعتبار أيضًا أنّ عمل الشرعية يشبه تركيب قطع بانوراما اللغز التي قد يكون من المستحيل إكمالها لفقدان بعض قطعها أو أجزائها. ومع ذلك، فإنّ الإثنوجرافي يقدم لجمهوره عناصر تقييم مشروع معارفه شيئًا فشيئًا. وطبقًا لهذا، فإنّ المناظرة حول تشريع البحث الكيفي تستفيد كثيرا إذا حدث "تحول عملي في هذا الصدد".

١٤ - ٣ ثبات (مصداقية) أداة جمع البيانات

قانون سيجال

> **الرجل الذي يحمل ساعة يعرف الوقت بها. أمّا الرجل الذي يحمل ساعتين فلا يتأكد من صحة الوقت مطلقًا.**

إنّ الجانب الأول الذي يجب وضعه في الاعتبار هو ثبات (مصداقية) *الأداة*. وعندما تقدّم كُتيبات منهجيات البحث مفهوم "الثبات"، فإنها تضرب لها مثلاً

بالترمومتر، أو بكفتي ميزان. إذا وزنّا شيئًا واحدا عدة مرات وحصلنا على نتائج متشابهة، وإذا كان الوزن هو نفسه ولم يتغير مع استخدام كفتي ميزان آخر، فيمكننا أن نقول حينئذ إنّ الميزان الأول (والثاني أيضا بشكل انعكاسي وتكرارا لنفس المعنى لسنا في حاجة لذكره) ميزان دقيق ويمكن الاعتماد عليه. لذا فإنّ الثبات (المصداقية) تخص ثقتنا في اتساق أداة التجميع - قدرتها على تكرار النتائج. والافتراض الذي يشكل أساس مفهوم الثبات (المصداقية) هو أنّ الشيء لا يتغير بين وقتي الوزنين (من أجل تفاصيل حول ضعف مفهوم الثبات (المصداقية)، ادخل على الرابط *www.sagepub.co.uk/gobo* .

هذا الافتراض لا يبدو مناسبا للبحث الذي يُجرى بالمسح أو بمنهجية بحث المقابلة التفاعلية التي قد يتغير فيها الرأي أو الاتجاهات والميول بمرور الوقت. في الحقيقة، قد يتغير الرأي أو الاتجاهات والميول كنتيجة لأداة القياس المستخدمة (التغيير العمدي)، في أنّ مناقشة قضية ما أثناء التفاعل في المقابلة قد يغير رأي من تجرى معه المقابلة؛ ولأنّ الآراء قد تكون متقلبة وعرضة لتأثير وسائل الإعلام عليها، على سبيل المثال (التغيير الطبيعي). وهذا يتطلب من المرء أن يضع في الاعتبار بعناية مصداقية ودقة تقارير الإخباري في الدراسات الميدانية.

ومن هنا، فإنّ المخاطر المصاحبة لمفهوم الثبات أو المصداقية موجودة بالتأكيد في الملاحظة بالمشاركة[1]. ولكن (ومن منظور عملي) لا ينبغي المبالغة في هذه المخاطر. **أولاً**: إنّ التجميع عملية طويلة الأمد وتتضمن ملاحظات متعددة. وكنتيجة لذلك، فإنّ المعلومات الخاطئة التي تتجمع من خلال الملاحظات الأولى يمكن تصحيحها من خلال الملاحظات التالية لها. **ثانيًا**: وعلى عكس الآراء، فإنّ الممارسات الاجتماعية (الشعائر والأمور الروتينية والطقوس والاحتفالات) عمليات مستقرة وراسخة ومن غير المحتمل أن تتغير أثناء فترة إجراء مشروع البحث. هذا إذا لم تستمر عدة سنوات، أو إلا إذا اعتبر الإثنوجرافي جاسوسا أو مُخبرا محترفا

(الأمر الذي قليلا ما يحدث). **ثالثًا**، يسمح العمل الميداني بحذف وإزالة حالات سوء الفهم التي قد تكون قد أثارتها أسئلة معينة، والتي ربما تكون قد جعلت المعلومات غير دقيقة. وأخيرًا، فإنّ العمل الميداني يجعل المشاركين فيه أيضًا معتادين على منهجية البحث الإثنوجرافي. وبهذا فإنّه يقلل من حالات التدخل - مع أن هذا لا يزال هو العامل الذي يؤثر لأقصى درجة في ثبات ومصداقية الأداة.

ويمكن تجميع المعلومات المتعلقة بثبات أو مصداقية الملاحظة الإثنوجرافية بواسطة إجراءات تثليث (*Denzin,1970*، *Jic, 1979*؛ وفيلدينج وفيلدينج، *1986*). وقد أُخذ هذا الاصطلاح من الإستراتيجية والملاحة العسكرية[٢] وهو يشير في العلوم الاجتماعية إلى الاستخدام المشترك والمركب لمنهجيات مختلفة في تحليل الظاهرة. ويمكن مقارنة البيانات التي تفرزها المقابلات الفردية، والجماعات البؤرية، والاستفتاءات، أو الإحصائيات الرسمية النتائج بالبيانات الإثنوجرافية. وقد تؤكد النتائج المتسقة مصداقية أو الثبات الإثنوجرافي. لكن لو كانت النتائج متسقة جزئيًا فقط، أو غير متسقة على الإطلاق، فقد يستنتج المرء أنّ (أ) الإثنوجرافيا غير دقيقة أو لا تتحلى بالمصداقية؛ (ب) منهجيات البحث الأخرى لا تتحلى بالمصداقية[٣]؛ أو (ج) الباحث كان مهملاً.

١٤ - ٤ دقة الباحث

قاعدة الدقة

عندما تعمل في اتجاه إيجاد حل لمشكلة ما، إذا كنت تعرف الحل فهذا يساعدك كثيرًا دائمًا.

تمنح الملاحظة بالمشاركة الباحث قدرًا كبيرًا من الاستقلال الذاتي. ويصبح له حرية كبيرة في التصرف في اختيار كيف يمضي قدمًا في عمله، ومتى يواصله. ومع ذلك، قد لا يكون من المؤكد أن تعكس المعلومات التي يدونها الإثنوجرافي

بصدق الأحداث التي يجري ملاحظته عليها, وقد آثار أخصائيو الإثنوميثودولوجيا هذا الشك، على سبيل المثال، فيما يخص دراسات جوفمان. لذا فقد يشك الجمهور في دقة الباحث وقدرته على الإنصات والفهم. وهناك أيضا إمكانية حدوث أخطاء عرضية.

وهناك جانبان بارزان في مشكلة دقة الباحث: أحدهما جانب "داخلي" ويخص الباحث نفسه؛ والآخر "خارجي" ويخص القارئ والمجتمع العلمي.

١٤-٤-١ الدقة الداخلية

يستطيع الباحث أن يُحسّن من دقته بتقديم إجراءات صارمة ودقيقة في كل مرحلة من مراحل البحث. إنّ تصميم ونية الباحث والتعاريف الخاصة بالعمل (الفصل ٥) وإستراتيجيات الدخول في ميدان العمل (الفصل ٧)، وإجراءات الملاحظة (الفصل ٩)، وتعليمات المقابلة (الفصل ١١)، وتقنيات جمع المعلومات (الفصل ١٠)، ومبادئ نسخ المحادثة، ومنطق تحليل البيانات (الفصل ١٣، وتنسيقات متابعة الكتابة (الفصل ١٥) - كل هذه الأشياء تقدّم للباحث مساعدة مستمرة ومرجعيات. ولكن لا ينبغي اعتبار هذه التقييدات عقبات تقف في طريق تقدم الإثنوجرافي بسهولة ويُسر، لأنّها (قبل أي شيء) موارد يمكن للباحثين - لاسيما المبتدئ منهم - أن يعتمدوا عليها باستمرار.

دراسة حالة

هل المؤشرات مفيدة بالفعل؟

وصفت رسالة الدكتوراه الخاصة بي في الفقرة ٥ - ٧ - ١ وكيف اتخذت الأسلوب الإجرائي مع مفهوم "الصعوبة في الإجابة على أسئلة الاستفتاء".

ومكنني اتخاذ الأسلوب الإجرائي مع هذا المفهوم من تحليل تبادل الكلمات المسجلة أصواتها على أشرطة (عملية سؤال - جواب) بانتظام ودقة وصرامة أشد وأكبر. هل كنت حينئذ قادرًا على أن أظل مخلصًا للتعريف الخاص بالعمل عندما قمت بتحليل موادي؟ هذا ما كتبته منذ زمن بعيد، وذلك عام ١٩٩٢:

كان لتكوين مؤشرات من أجل تحليل التفاعلات هدفًا معينًا وهو تنظيم التحليل وتهذيبه وجعله تحليلاً موضوعيًا وذاتيًا معًا بالنسبة للقارئ، لكنني وجدت أنّه من الصعوبة بمكان أن أظل مخلصًا للمؤشرات والدلائل. وهكذا، ولحسن الحظ، نشأت أفكاري أحيانًا بشكل مستقل عنها؛ لأنّه في بعض المناسبات كنت أنبعج تحت الجهد ذاتي الانعكاس؛ وفي مناسبات أخرى، وبسبب تحليل آخر لمقابلات قليلة مسجلة، شعرت أني كنت مُدربًا تدريبًا كافيا، وكان على أن أجبر نفسي على الاستمرار بالإشارة لقائمة مؤشراتي ودلائلي.

لذا فإنّ تلك المؤشرات كانت تذكرني بأن أكون منهجيًا منظمًا في تحليلي. لكنها لم تكن دائمًا تقود تحليلي كما كنت أريد. ولهذا أصبح الدليل أو المؤشر في النهاية هو "ملاك حارس" للملاحظة والتحليل أكثر منه ضابطًا متشددًا صلبًا وغير مرن. هل المؤشرات (الصريحة) مفيدة؟ أليست مرهقة ومتعبة بشكل كبير لعملية التحليل؟ هذه أسئلة أوجهها لقراء هذا البحث ليجيبوا عنها. عنّي أنا شخصيًا، فإني أعتقد أنّ كوني قد قُيدت بالمنهجية والانتظام أمر ساعدني على ملاحظة الأحداث غير المتوقعة، وكان ذلك يحثني على مراجعة وتنقيح فرضيات إثنوميثودولوجيا معينة، مثلاً أنّ كل شيء قابل للنقاش والتفاوض في شأنه.

١٤- ٤ - ٢ المحاسبية،

ومعلومات لتقييم الجمهور للبحث (الدقة الخارجية)

إنّ القارئ يرى الأشياء بطريقة مختلفة. إنّه يريد أن يعرف كيف يراجع ويتحقق من دقة الباحث. وهذا يقدّم مشكلة "عملية التفتيش والمراقبة" لقواعد البيانات: بمعنى أنه، وكما يشير ألان برايمان ***Alan Bryman***، "نادرًا ما يمكن الحصول على المذكرات الميدانية؛ وقد تكون لها فائدة كبيرة من حيث إنها تسمح للقارئ بتكوين شعوره وأحاسيسه" *(1988: 77)*. *والمحاسبية* هي الحل. وهذا يعني بالنسبة للباحث نشر التوثيق التجريبي الذي أسس بحثه عليه. لذا فعليه أن يعرض المواد الرئيسية (المذكرات الميدانية، ونصوص الحوارات والصور الفوتوغرافية، ورسومات الأماكن التي تمت ملاحظتها التي أقام استنتاجاته على أساسها). ومن الواضح أنّ هذا يمكن أن يتم لحد جزئي؛ ولكي يدعم الباحث به أهم اكتشافاته فقط، إذ إنّه ليس أمامه سوى مساحة محدودة متاحة للنشر يسمح له بها ناشرو الكتب والمجلات. ومع ذلك، فبهذه الطريقة، يسمح الإثنوجرافيون للقراء، والمجتمع العلمي ككل بالحكم عليهم، بناء على ستة معايير رئيسية:

(١) **الكمال والإتمام**: يجب أن تصاحب الأوصاف تفاصيل السياق.

(٢) **تشبع الفئات**: يجب أن تُغطي المفاهيم المقترحة كل الأحداث، مع حذف أنواع من التنافر المعرفي، وتقييم الفائدة أو المنفعة الهامشية للأحداث المحدودة.

(٣) **الأصالة و الصحة**: يجب أن يشهد الجميع بأنّ العمل الميداني أصيل وصحيح.

(٤) **التطابق والاتساق**: هو الاتساق والتماثل الذي تُخصص فيه الأحداث التي تمت ملاحظتها في مناسبات مختلفة لنفس الفئة أو القائمة.

(٥) **المصداقية**: الاتساق والتناسق بين الأوصاف والتفسيرات. ولابد من تحقيق المتطلبات التالية: أن تتوافق النتائج مع النظرية التي تم تبنيها؛ وأن تكون

المفاهيم مرتبطة بصورة منهجية؛ وأن تكون العلاقات السببية قد نشأت وتطورت بشكل صحيح.

(٦) **المعقولية:** التناسق بين استنتاجات الباحث والمعرفة الموحّدة والمبلورة لمجتمعه العلمي. ومع ذلك، فلا ينبغي تطبيق هذا المعيار بقوة زائدة عن اللزوم، وإلا تصبح الاستنتاجات مجرد نسخة مكررة من نظام الأمر الواقع.

وطبقًا لما ذكره راندول كولينز ***Randall Collins***، فإنّ هذا المعيار الأخير هو أهم معيار على الإطلاق:

إنّ أهم طريقة يمكن من خلالها تأسيس صحة وصدق أي نظرية هي إظهار الاتساق والترابط بين مبادئ تفسيرها مع نظرية أخرى لها أساس متين... على سبيل المثال، فإنّ سوسيولوجيا الجماعات الصغيرة الكيفية أو الدراسات التنظيمية المبنية على الملاحظة لم تعتمد على الإحصائيات. إنّ صحتها وصلاحيتها ومساهمتها لمعلوماتنا - التي أستطيع أن أقول إنّها كانت مساهمات وإضافات عظيمة - تأتي نتيجة لدرجة اتساقها وترابطها مع جميع مبادئنا النظرية المتراكمة *(1988: 504 - 5)*.

لو أنّ هناك فريق عمل يجري بحثًا، فإنّ قضية الدقة تفترض وجود ملامح مختلفة: وقد يكون وجود عدة باحثين مشكلة لكنّه أيضا مورد مهم. ومع أنّ المشكلة تنشأ من الاتساق والتوافق في تخصيص الأحداث لنفس القائمة *(Hammersley 1992: 67)*، فإنّه يمكن تصحيح الأخطاء والتشويهات أو التقليل منها بعقد مقارنات فيما بين الباحثين. ويمكن زيادة الاتساق والتوافق بين الرموز والمصطلحات إذا أنتجتها برامج الكمبيوتر أشبه ببرنامج *CAQDAS*. وهذه البرامج

تزودنا بشفافية أعظم وتُسهّل من الموافقة الموضوعية الذاتية فيما بين الباحثين، وتضمن بذلك درجة أكبر من الدقة.

١٤-٥ ملاءمة الصياغة التصورية

لازمة يانج *Young*

كلما عظُم التمويل، استغرق حدوث خطأ وقتًا أطول.

ينشئ الإثنوجرافي علاقة بين المفهوم العام والمؤشرات (أو المفاهيم المحددة) من خلال الصياغة التصورية (انظر ٥ - ٤).

دراسة حالة

إستراتيجيات هيئة التمريض في دار رعاية وتأهيل المرضى

بعد قضاء أسبوع في ملاحظة سلوك هيئة التمريض في دار رعاية وتأهيل المرضى، قرر الإثنوجرافي أنّ إستراتيجية وضع المقيمين من كبار السن فوق أسرّتهم أطول مدة ممكنة كانت علامة (أو مؤشرًا) لوجود ممارسات تم تصميمها لتحقيق قدر كبير من السيطرة الاجتماعية. ومع ذلك، وفي الأسبوع التالي، ولدى التحدث مع مدير الدار، وبعض الممرضين والممرضات الذين عملوا فيها بعضًا من الوقت، اكتشف الإثنوجرافي أن هذه الممارسة كانت قد أُدخلت على الدار في الآونة الأخيرة فقط كنوع من التجاوب التنظيمي لنقص في هيئة العاملين بسبب انخفاض في التمويل العام.

وهكذا، اعتقد الإثنوجرافي في بادئ الأمر أنّ الإستراتيجية كانت مؤشرًا مناسبًا لجمع المعلومات عن ظاهرة محددة (مفهوم أو فئة)، لكنّه أدرك بعد ذلك أنّه شكّل مفهومه هذا بشكل خاطئ.

إنّ طرح مشكلة ملاءمة تشكيل المفاهيم يعني الاستفسار عمّا إذا كانت المؤشرات التي وُضعت في الاعتبار تُشكّل تعبيرات صحيحة وصالحة عن المفهوم موضع النقاش أم لا. وكما يشير كل من كارمانيز **Carmines** وزيلار **Zeller** (***1969: 101***)، هذه مشكلة فنية (كما هو الحال في التعريفات الإجرائية) أقل من كونها مشكلة نظرية بارزة.

ومع ذلك، فإنّ تقييم ملائمة المؤشر أمرًا صعبًا. إنّ تشكيل المفاهيم يحدث "ضد تيار" التعريف الإجرائي، وبالتالي فإنّه لا يمكن التأكد من صحته بالتعريف الإجرائي هذا. وطبقًا لهذا، فلا يمكن اكتشاف أي أخطاء في بناء الإطار التصوري من خلال تجميع الإجراءات والخطوات، لأنها تقع مع "اتجاه تياره". بمعنى آخر، إنّ التحيز المنهجي في تشكيل المفاهيم بسبب التحيز أو الافتراض المسبق له تأثير الضربة القاضية خلال استمرار عملية الجمع. وتُعدّ "نظرية الحرمان الثقافي" مثالاً كلاسيكيًا لذلك (انظر ٥ – ٥)؛ لكنّ كل النظريات، لاسيما إذا كان لها محتوى أيديولوجي قوي، أو إذا كانت جزءًا من نموذج مهيمن، تنزلق في هذه المخاطرة (من أجل دراسة حالة حول المناظرة الأيديولوجية، في أواخر الستينيات، حول: لماذا أظهر الأطفال من ذوي البشرة السوداء في المدارس داخل المدينة إنجازًا تعليميًا منخفضًا، ادخل على الرابط: **www.sagepub.co.uk/gobo**.

إنّ الهروب من هذه الدائرة الأيديولوجية أمر صعب (ومستحيل أحيانًا)، مع أنّ الإثنوجرافي الانعكاسي، المستقبل للإشارات الميدانية، والذي يتوقع ما هو غير متوقع، يمكنه تعديل تشكيل مفاهيمه أثناء *الاستمرار في إجراء البحث*.

والبديل لذلك، مرة أخرى، هو *المحاسبية*، أي تزويد القارئ بالتوثيق اللازم لتقييم ملاءمة بناء الإطار التصوري للباحث. ويتطلب هذا البديل من الباحث تبرير

قراراته واختياراته بشكل صريح. وعلى عكس التوجيات الموضوعية - الاتجاه لاعتبار المواضيع والمؤشرات "أشياء"، وليست أدوات معرفية - يكون اختيار مفهوم واحد من بين عدة مفاهيم كمؤشر عملية تقديرية دائمًا يقوم بها الباحثون. وهم بالتالي ملزمون بتبرير اختياراتهم، وذلك بتقديم أسباب العلاقة التي تأسست بين المفهوم والمؤشر. ويجب أن تتسم هذه العلاقة بالشفافية تجاه النقد: لا يُسمح للباحث استخدام استعارات غامضة أو اللجوء للتصوير المبهر للجو.

١٤ - ٦ أمانة ودقة البيانات والتفسيرات

قانون بروك *Brook*

> **إذا لم تحقق نجاحًا في البداية، فعليك بتغيير مجموعة بياناتك ومعلوماتك.**

دعنا نفترض أنّ عملية بناء الإطار التصوري (أي علاقة المؤشر) كان ملائما؛ وأنّ عملية تحويل مفهوم نظري تجريدي أو نظرية إلى موضوع تجريبي قابل للاختبار (أيِ الانتقال من المؤشرات للمتغيرات النسبية غير المطلقة) كانت عملية صحيحة؛ وأنّ التقنيات المتعددة للملاحظة المشاركة كانت فعالة وجديرة بالثقة؛ وأنّ الإثنوجرافي كان دقيقًا ومهتمًا بالتفاصيل. هل يمكن أن نتأكد أنّه تولى تفسير المواقف التي تمت ملاحظتها بشكل صحيح؟ لا، لا يمكننا ذلك، لأنّه يمكن دائمًا حدوث شكلين من أشكال عدم الدقة:

(١) على مستوى البيانات والمعلومات: تعارض أو تناقض بين الحالة التي قام بتسجيلها والحالة الفعلية الواقعية (*Marradi , 1990: 82*).

(٢) على مستوى التفسير: درجة التعارض والتناقض بين تفسيرات الباحث والظاهرة الاجتماعية التي تشير التفسيرات إليها *(Hammersley, 1990: 57)*.

وتقدم الافتراضات التي يتضمنها هذان البيانان قضية معرفية على وجه التحديد. وهي تخص "نظرية الحقيقة" التقليدية العادية والمبنية على التطابق والتوافق بين الملاحظة والحقيقة والواقع، والتي تعتبر أنّ:

هناك عالم الناس الحقيقي والأحداث والظروف الحقيقية من جهة، كما أنّ هناك ملاحظات المرء الخاصة وتصوراته عن هذا العالم من جهة أخرى. وتعتمد الملاحظة المخلصة والوافية بالغرض في الأساس على تحقيق علاقات رسمية معينة بين عالم الناس والملاحظة المخلصة - بتقديم "صور" جيدة للحقيقة *(Schwartz and Jacobs 1979: 256)*.

هذه النظرية الواقعية عن "الحقيقة"، والتي أفرزت مفهوم "الصحة والشرعية" تفترض مسبقا أنّ هناك حالة موجودة قابلة للمعرفة: وهذا افتراض هاجمه أنصار ما بعد الحداثة عشرات السنين بضراوة. ومع ذلك فما زال غائبًا عن المناظرة معالجة هذه القضية الهامة من وجهة نظر عملية، حالة بعد حالة، وتجنب الصراع الذي نشب على المبادئ والمشايعين والأنصار فقط. دعنا إذن نحاول أن نضع إطارًا لمشكلة الصحة والشرعية من وجهة نظر عملية.

١٤ - ٦ - ١ وضع إطار جديد للصدق (صدق البيانات)

أول ما يُشار إليه هنا هو أنّه، عمليًا، هناك بعض المواقف التي تتواجد فيها "حقائق" أو حقيقة موضوعية؛ وهناك بعض المواقف لا تتواجد فيها "حقائق". بمعنى آخر، هناك مستويات مختلفة من "حالة وجود حقيقة". ومن هنا، فإنّ تبني نظرية

"حقيقة" مبنية كلية على التطابق تعتبر إشكالية في العلوم الاجتماعية لأنه، وكما يشير مارادي (*Marradi (1990: 81*)، يمكن تطبيقها فقط على القليل من السمات الفردية للعالم الاجتماعي الذي يُقام بشكل عام على عمليات بيروقراطية (رغم أهميتها): على سبيل المثال، السمات والخصائص الديموغرافية (الجنسية، ومكان الميلاد والإقامة، والمؤهل العلمي، وما إلى ذلك)، وعمومًا كل تلك السمات مثل الحصول على رخصة قيادة، وأن تكون في السجل الانتخابي، ووجود سوابق جنائية، وأن تكون قد دفعت غرامة من قبل، وما إلى ذلك). والملمح المميز لهذه السمات هو أن السجل الرسمي (الذي تفرزه البيروقراطية) لا يسجل وضعها أو حالتها فقط، لكنه *يُشكلها* أيضًا. وكما تؤكد نظرية شبكة الفاعل (انظر ١٠ – ٥): في حين أنه صحيح أنّ كل شيء اختراع، فإنّه عندما يتم اختراع شيء ما فإنّ هذا الشيء يصبح حقيقيًا، ويحدد أفعالنا ويتحكم فيها بشكل موضوعي. ونتيجة لذلك، فمع أنّ السجلات الرسمية بالتأكيد نتائج من صنع الإنسان أنشأها شخص ما، فإنّها تصبح حقيقة بمجرد إقامتها. لذا فقد تصبح النظرية الواقعية عن الحقيقة ملائمة لسمات أو خصائص معينة، من حيث إنّه يصبح في الإمكان مراجعة وفحص ما إذا كان هناك المدعي عليه الذي يكذّب تلك النظرية. على سبيل المثال، لا يمكننا أن نقول (بشكل ذاتي) إنّنا من مواطني المملكة المتحدة إذا لم يكن هناك سجل في أي مكان يسجل (بشكل واقعي موضوعي) وضعنا هذا. وهذا يعني أيضًا أنّ نظريات ما بعد الحداثة التي تعارض أي نظرية واقعية حقيقية ينبغي أن تُعدّل من تبعتها لتأكيداتها.

وبدلاً من ذلك، فإنّ أي نظرية واقعية حقيقية لا تنطبق على غالبية الخصائص التي يشغل الإثنوجرافيون أنفسهم بها "إذا علمنا أن الأوضاع الطبيعية الواقعية حول أي خاصية مستمرة غير معلومة لدينا، وأنّ الخصائص المتميزة المتفردة غير قابلة للقياس بالمعنى الحرفي الدقيق للكلمة" (***Marradi, 1990: 82***).

بمعنى آخر، إنّ الاتجاهات والميول، والدوافع، والآراء ليس لها أوضاع مؤثرة (من أجل دراسة حالة حول ضعف مفهوم "الاكتشاف"، ادخل على الرابط: _www.sagepub.co.uk/gobo_).

ويتضمن الوضع الغامض وغير المؤكد معرفيًا لأي نظرية عن الحقيقة مشكلة أخرى. وهي تختص بالثغرات الموجودة بين: (أ) تصوير الممارسة الاجتماعية، (ب) قائمة التعليمات اللازمة لتكرارها، و(ج) أداء الممارسة ذاتها. ويسأل كل من شورتس وجاكوبس - فيما يخص الاقتراحات الراديكالية الجذرية بأنّه ينبغي تقديم تعليمات للقراء حول الممارسات التي تتم ملاحظتها، وليس مجرد أوصاف لها كما أشار (_Mehan and Wood's 1975: 225 – 38_) ، كما يلي:

> **(لماذا) نعطي زملاءنا صورة عن صورة أناس آخرين عن الحقيقة؟... لماذا لا نتخطى الترجمة؟ لماذا لا نخلق تلك الحقيقة بشكل مباشر، بدلاً من مجرد وصفها من خلال بيانات رمزية؟ بالتأكيد هذه إحدى أقوى الطرق الممكنة لنقل المعلومات عن حقيقة أخرى (_Schwartz and Jacobs, 1979: 257_).**

ويتضمن وصف التعليمات وتقديمها مستويين مختلفين من الأمانة والإخلاص. ويتعقد الموقف أكثر من خلال الاختلاف المعروف بين "المعرفة" و"معرفة الطريقة". ويقدّم جيرتز _Geertz_ المثال التالي:

> **إذا كنت تريد أن تقوم باتفاق تجاري في مراكش، فعليك أداء أشياء معينة بطرق معينة (من بينها ذبح رقبة حمل غير مُشوّد أمام الشبان الأعضاء المجتمعين من قبيلتك في الوقت الذي تُتلى فيه**

آيات قرآنية عربية) وأن تتحلى بخصائص سيكولوجية معينة (من بينها الرغبة في الأشياء البعيدة). لكنّ الاتفاق التجاري ليس قطع الرقبة، ولا هو تلك الرغبة، رغم أنّ هذا أمر واقعي حقيقي بلا شك (... 1973: 12).

وكما يشير بساثاس *Psathas (1995)*، يستطيع الشخص أن يتعلم الكثير جدا عن السباحة من الكتب التي تم تأليفها عن هذا الموضوع، لكنّه مع ذلك يظل لا يستطيع أن يسبح.

لذا من الضروري التخلي عن مفهوم الأمانة والإخلاص، ووضع مفهومين معرفيين أكثر ملاءمة منهما بكثير، وهما أمانة المعلومات وصدقها، وأمانة التفسير وصدقه. وسوف نرى الآن كيف يتم تطبيقهما عمليًا:

١٤- ٦ - ٢ الأمانة والإخلاص عبر التنبؤ الناجح

مبدأ أو قاعدة جاف *Jaffe*

هناك بعض الأشياء يستحيل معرفتها، لكنّه من المستحيل أن تعرف ما هي هذه الأشياء.

هناك معيار واحد يمكنك تقييم التبيان أو العبارة من خلاله وهو درجة نجاحه في التنبؤ. وكما تؤكد فيلسوفة العلوم الإنجليزية ماري هيس ***Mary Hesse*** في جدلها وهجومها العنيف على أصحاب النزعة التصورية الراديكاليين أنّ حقيقة أنّ عددًا معينًا من الأمراض المميتة التي تمت السيطرة عليها وتخفيض نسب الإصابة بها من خلال تحديد شيء ما والتحقق منه (الفيروس على سبيل المثال) يمكن عرضها على الملأ، تقدم لنا قدرة البشر على أن يتفقوا على حقيقة خارجية ويعملوا طبقا لها. والنجاح دليل على هذا التوافق. وبشكل عام أكثر، يشيد بقاء الشيء على

قيد الحياة بنجاحه. وهو دليل على أنّه ليست كل الاستقراءات والإجراءات المعرفية تعسفية أو اعتباطية بكل معنى الكلمة أو عادية تقليدية بشكل تام.

وبالمثل، فإنّ القدرة على تقليد ممارسات المشاركين للحد الذي يصل المرء فيه برغم كل أغراضه العملية إلى أن يصبح عضوًا مختصًا وقديرًا في المجتمع الذي يدرسه (مثل أخصائي الأنثروبولوجيا ريتشارد كي. نيلسون *Richard K. Nelson*، الذي تعلم كيف يصطاد مثل سكان الإسكيمو) قد تكون مؤشرًا ودليلا على صدق وصحة بيانات الباحث. وهذا أيضًا يبدو أنّه رأي جوفمان فيما يخص دراسة المرض العقلي:

> **كما اقترح هارولد جارفينكيل *Harold Garfinkel*، أنّه ينبغي أن نكون في وضع عام (غير مرغوب فيه في حد ذاته، لكنّه مرغوب فيه كاختبار لنظرية) مرتبط بجنون البرنامج والظروف المحيطة به، أي أن نقلل لأقصى حد من التعليمات التي يمكن أن نفرضها على موضوع تجريبي كي نمكنه من أن يتصرف بجنون بشكل جميل (*1964: 140*).**

وهناك اعتراضان واضحان على هذا الوضع. وقد أثار الاعتراض الأول جيرتيز وأخصائيون إثنوميثودولوجيون آخرون: من المستحيل أن تقدم تعليمات كاملة، لأنّه على وجه التحديد فإنّ التعليمات غامضة وغير نهائية بشكل جوهري (*Mehan and Wood, 1975: 233 – 5; Schwartz and Jacobs, 1979: 258*). والاعتراض الثاني هو أنّ مواقف البحث لا تسمح دائمًا بهذه المحاولة، ومع ذلك، فإنّه لا يزال تقديم تنبؤات وتكهنات ضيقة النطاق كلما أمكن ذلك وملاحظة نتائجها أمرًا مفيدًا لأقصى درجة. إنّ تحقيق تنبؤات معينة أو تأكيد فرضية ما قد يضاعف من صحة وصدق بيانات الباحث وتصريحاته، ويُعلي من قدر الذاتية والموضوعية معًا في نظر قرائه. لكن هذا لا يمكن أن يضمن التأكد التام من التنبؤات والفرضيات، لأنّ ذلك النجاح قد يعود على المتغيرات المتداخلة المجهولة بالنسبة للباحث.

١٤ - ٦ - ٣ صدق المشارك والتحقق من صحته

وهناك معيار آخر ينبغي أن تتبناه الإثنوجرافيا الانعكاسية عند تقييم صدق البيانات أو التفسيرات (أو رواية الباحث) والتحقق من صحتها وهو معيار الحصول على تأكيد أو إنكار المشاركين في البحث (سواء شفهيًا أو كتابيًا). ولقد أُطلق على هذا الإجراء بشكل منوع *تأكيد العضو للحقيقة، وتأكيد المضيف للحقيقة، واختبار العضو لصدق المعلومة والتحقق منها، والتحقق من صحة المستجيب، وتحليل للتغذية الراجعة الجماعي، وتحقق العضو من صحة المعلومة*. ويجري الباحث مقابلات فردية أو يتولى تنظيم جماعات مناقشة مع الفاعلين من أجل هذا الغرض. ويتطلب هذا الإجراء من الإثنوجرافي أن يبسط تصوره أو نظريته ببساطة ووضوح تمشيًا مع "فرضية الدقة أو شرطها الضروري" الذي قدّمه (*Schutz 1953: 45*) حتى يمكن للمشاركين فهم النماذج العلمية للفعل أو العمل الاجتماعي. وهذا لا يعني أنّه ينبغي أيضًا وجود مفاهيم ذات نظام عال لأنّ الباحثين والفاعلين لهم مفرداتهم التخصصية المختلفة وحصيلتهم العلمية المختلفة أيضًا.

وقد يُطلب من المشاركين أن يؤيدوا ويتحققوا من صحة البيانات الوصفية (البيانات أو الوضع الاجتماعي المسجل) والبيانات التفسيرية (شرح شيء ما، أو فرضية، أو نظرية). هاتان مشكلتان معرفيتان مختلفتان. وفي الحقيقة هي مشكلة أكثر في الحالة الثانية، لأنّ إنكار الفاعلين للفرضيات والنظريات قد يتسبب في مناقشات ومفاوضات طويلة ومُعذّبة حول مصداقية البيانات التفسيرية.

دراسة حالة

التحقق من صحة بيانات العضو في مؤسسة علاج نفسي

أجرى الإثنوجرافيان الأمريكانيان روبرت إم إيمرسون *Robert M. Emerson* وميلفين بولينار *Melvin Poliner* (*1988*) بحثًا عن إدارة حالات

الطوارئ في مستوصف صحة نفسية في مجتمع إقليمي جنوب كاليفورنيا. وأجرى العالمان ملاحظاتهما لمدة ستة شهور حول مهام فرق العمل في حالات الطوارئ النفسية، وهي وحدات متحركة مكونة من موظفين في الطب النفسي ينتشرون في المجتمع تلبية لمكالمات تستدعيهم للعمل.

وبعد حوالي سنة من انتهائهما من بحثيهما الميداني، كانا قد أكملا مسودات ورقتي بحث عن فرق العمل في حالات الطوارئ النفسية، وقدّما الورقتين لجمعية مكونة من ٣٥ شخصا، كان من بينهم حوالي ١٠ أشخاص ينتمون للمستوصف الإقليمي. وكان هدفهما استنباط واستخراج تغذية راجعة من أعضاء فريق تم ملاحظته بشكل مباشر. وعلى عكس ما توقع كل من روبرت إم إيمرسون وميلفين بولينار حول تلقيهم لتغذية راجعة واضحة، حصلت محاولتهما للتأكد من صحة بيانات ومعلومات الأعضاء على نتائج غاية في الغموض. ومكّن تسجيل الأحداث الذي قام به روبرت إم إيمرسون وميلفين بولينار من إعادة تشكيل العقبات التي وقفت في طريق التغذية الراجعة الشفافة بالتفصيل:

- لم يفهم المشاركون الورقتين فهمًا تامًا لأنّهم لم يكونوا متعودين على لغة الباحثين غير المألوفة بالنسبة لهم.
- لم يستطيعوا التعرف على أنفسهم في أوصاف الباحثين وتفسيراتهم لأنّهم لم يكونوا على علم بدوافع سلوكهم ولا بعواقبها.
- اعتبروا أنّ الورقتين ليستا "علميتين" فقط، ولكنّهما كانتا "سياسيتين" أيضًا، واعتقدوا أنّ اكتشافاتهما الخطيرة والحاسمة كانتا تهدد وجود مؤسستهما.
- اتفق بعض المشاركين مع روايات الباحثين، واختلف آخرون جزئيًا أو كليًا معها.

- كانت ردود فعل المشاركين واستجاباتهم غامضة، بمعنى أنّهم لم يرفضوا روايات الباحثين، ولكنهم لم يوافقوا عليها أيضًا؛ ومن هنا فلم يكن من الواضح ما إذا كانت تلك الروايات تؤكد وتثبت تفسيراتهما أو أنّها كانت تربكها.

استنتج إيمرسون وبولينار أنّه كان أمرًا طبيعيًا تمامًا أن يخلط تقييم تقرير البحث بين الاهتمامات متعددة الأنواع (العلمية والسياسية والشخصية... إلخ.) لأن التصديق والصحة لا يحدثان من فراغ مطلقًا، لكنهما يحدثان دائمًا في سياق اجتماعي وتنظيمي. ومع ذلك، فقد كانا لا يزالان متفائلين بخصوص فائدة هذه التقنية:

مع أنّ "التحقق" من المعلومات والإجراءات... مريب وغير ثابت... لأنّ وقائع وأحداث التحقق من صحتها تتضمن لحظات انفعالية شديدة للحياة التنظيمية والتفاعلية قادرة على الكشف عن جوانب تخص الموقع أو المؤسسة في ضوء جديد (*1998: 189*).

وكما أشرت عندما كنت أناقش دور الباحث (انظر الفقرة ٥ - ٢)، فإنّه، وبسبب خاصية العمل الانعكاسية، لا تقوم الروايات الإثنوجرافية بمجرد وصف الأشياء؛ لكنها تتولى أيضا القيام بتقييمات خلقية، وتفرز عواقب سياسية وخلقية واجتماعية، وما إلى ذلك. إنّ الأوصاف "تؤدي" دائما تقريبا لأشياء أكثر بكثير في الموقف الاجتماعي عن مجرد "كتابة تقرير" عن مجموعة من الأحداث (*Schwartz and Jacobs, 1979: 51*). في الحقيقة، يؤكد كل من *Fielding and Fielding, 1986: 43*) بالإضافة إلى بلور *Bloor* (١٩٨٣)، أنّ التحقق من صحة العضو هو مجرد مصدر آخر من مصادر المعلومات. ومع أنّه يفرز معلومات

إضافية قيّمة تثري التوثيق التجريبي الذي يجمعه الإثنوجرافي، فهو ليس وسيلة لتقييم صحة وصدق للسرد الإثنوجرافي.

والسبب لعدم الفهم المحتمل بين الإثنوجرافي والمشاركين هو سبب عملي، لكنّه أيضا سبب علمي معرفي وهو: عدم القابلية للقياس بين مناظير الملاحظ وما يتم ملاحظته. وكما يكتب شولتز:

> **إنّ معنى الحدث هو بالضرورة معنى مختلف (أ) للفاعل؛ (ب) وشريكه المشترك معه في التفاعل... و(ج) وللملاحظ غير المشترك في مثل هذه العلاقة. لذا فإنّ طرق وترتيبات الملاحظ تختلف عن تلك التي يستخدمها المشاركون في التفاعل، إذا لم يكن لأي سبب آخر عن حقيقة أنّ غرض الملاحظ يختلف عن أغراض من يتفاعلون، وبالتالي فإنّ نُظم علاقاتهم المرتبطة بمثل تلك الأغراض مختلفة هي الأخرى** *(1953: 24 and 26–7)*.

أما وقد علمنا هذه الاستحالة، فإنّ الإثنوجرافيين يحتاجون "فقط" إلى أن يُركزوا اهتمامهم على الفهم الصحيح لمعنى الفطرة السليمة والمنطق السليم الذي يمد الحدث المشاركين بهما؛ ولا ينبغي عليهم إقناعهم بذلك المعنى. وكما أكد أخصائي العلوم الإنسانية مويرمان *Moerman (1974: 68)*، ينبغي على العلماء الاجتماعيين وصف وتحليل الطرق التي يستخدم المشاركون المفاهيم بها، وليس مجرد - كما يفعل المواطنون - استخدامها كتفسيرات. ومع أنّه لا ينبغي أن تتجاهل التفسيرات العلمية المعاني التي يعبر عنها الفاعلون، فإنّها تقع في مستوى مختلف عن تلك المعاني. وقد يقبلها المشاركون وقد يرفضونها، لكنّ ذلك لا ينبغي أن يؤثر بالضرورة في بيانات وتصاريح الباحث التفسيرية. وكما يعبر عن ذلك فيلدينج وفيلدينج:

لا يوجد سبب لافتراض أنّ للأعضاء مكانة اجتماعية مميزة كمعلقين على أفعالهم.. لا يمكن اعتبار مثل هذه التغذية الراجعة كتحقق من صحة أو رفض صحة استدلالات الملاحظ *(1986: 43)* وقد تم اقتباسه من *(Silverman,2000: 208)*

أيضا لأنّ، وكما يُذكّرنا سادناو، الإثنوجرافيا طريقة للملاحظة غريبة على الملاحظ من الطبقة المتوسطة، ونتيجة لذلك فهي "تُبتلى باستمرار باستيراد مثل هذه التحيزات الوصفية" (*1967: 176*).

١٤ - ٧ العلاقة المرتبطة بالملاحظة

إنّ صدق البيانات لا يعتمد على تشكيل المفاهيم، والتعريف الإجرائي، ودقة الباحث، وتفاعلية أو رجعية أداة التجميع وحدها. فهي تعتمد على عوامل أخرى أيضًا، وهي عوامل قد تكون خارجة عن نطاق سيطرة الباحث إلى حد كبير: الصورة التي يريد الفاعلون نقلها عن أنفسهم؛ والتقييدات البيروقراطية على عمل الباحث؛ أو مدى الملاحظة التي يرغب المشاركون أن تتم عليهم. في هذه الحالة، وبعد ما يكون الإثنوجرافي قد حاول معالجة هذه المشاكل خلال العمل في البحث، يصبح الخيار الوحيد أمامه هو إعطاء القارئ معلومات ("*حكايات انطباعية*" كما يسميها جون فان مانين ***Maanen***) حول العلاقة المرتبطة بالملاحظة حتى يحصلوا على مواد أخرى لتقييم دقة أو صدق البيانات. وقد تكون هذه المعلومات عن الظروف والأحوال التي تم إجراء البحث فيها؛ وعن القيود التي تُفرض على

الباحث والتي ضيقت من ميدان الملاحظة وقيدته؛ والمساعدة والعوائق التي واجهها الباحث والتي كان المشاركون مسئولين عنها. والالتماسات والتصاريح التي لبّاها أو رفضها؛ والمشاكل الخاصة بالتكيّف مع ميدان العمل؛ والاهتمامات الخاصة التي نبعت نتيجة للمقابلات، ومن المراسلات، ومن الأحاديث أو المحادثات التليفونية. على سبيل المثال، عندما كان البحث يُجرى حول مشاكل الفتاة العمياء في المدرسة (انظر ١٣ - ٧) رفضت إدارة المدرسة إعطاء تصريح بإجراء لقاءات مع زملائها وزميلاتها. ونتيجة لذلك، لم يكن في الإمكان اختبار الفرضيات الخاصة بالطريقة التي كوّن زملاؤها وزميلاتها مفهومهم عن الإعاقة. ويتذكر سيكوريل (*1968*) أنّه بعدما كان قد نشر نتائج بحثه حول محاكم الأحداث فقط، علم أنّ المشاركين من رجال الشرطة (برغم صراحتهم الظاهرة)، كانوا متحفظين دائمًا. ويتذكر أنّه بعد أن كان ضباط الشرطة قد فرغوا من قراءة كتابه، كان تعليقهم له تقريبًا كما يلي "لو كنا قد علمنا أنّ هذا هو الغرض من بحثك، لكنا قد قلنا لك كمية ضخمة من أشياء أخرى...".

إنّ نشر هذه المعلومات يُعدّ نوعًا من التاريخ "الطبيعي" للأبحاث، يخصص له المرء فصلاً لكتابة تقرير عنه، كما فعل وايتى ***Whyte*** (*1955*) بعنوان "ملحق بحثه"، وسيكوريل (*1974*) في فصل بعنوان "هوامش حول السياق الأرجنتيني التاريخي وبعض الانطباعات الإثنوجرافية حول بيونيس أياريس"، أو ما قدمه ميهان، وهيرتويك وميلس (*1986*) في الباب الثالث بعنوان "السياق الإثنوجرافي للدراسة". هذا التاريخ الطبيعي، مثله مثل الجوانب التي عالجناها في أقسام سابقة من الكتاب، لا يضمن موثوقية وصحة الأوصاف الإثنوجرافية، لكنه يعطي القارئ

بالفعل، والمجتمع العلمي بشكل عام، أرضيات جيدة ليقرروا ما إذا كانوا يقبلون هذه الأوصاف أو يرفضونها. ومما يتصل بالتاريخ الطبيعي أيضًا، طبقًا لما ذكره ستروس وكوربين (*1990: 253*): تفسير المعيار الذي تم اختيار العينة بناء عليه؛ وكيف ومتى تم تشكيل كل من الفئات أو القوائم والفرضيات؛ ولأي الأسباب تم استبعاد فرضيات أخرى. وأخيرًا، ومن الأهمية المماثلة أيضًا تحديد القواعد التي اتُبعت في تأكيد وتعزيز الفرضيات.

١٤-٨ القابلية لتعميم نتائج البحث



إنّ عملية التعميم أحد أكثر القضايا إثارة للجدل (إن لم تكن أكثرها جميعًا) داخل نطاق وحول البحث الكيفي. لقد فرقت تلك القضية بين أخصائيي منهجية البحث، وتسببت في ارتباك وإحراج شديدين. ونتيجة لهذا أصبح عمل الإثنوجرافي (وبالتالي الباحث الكيفي أيضًا) عند استخلاص النتائج محفوفًا بالارتباك والشك والحيرة. وسوف أوجز أولاً سبب الخلاف والجدل، ثم أقدّم بعض الاقتراحات.

١٤ - ٨ - ١ الخطيئة الأصلية، طبقًا للنقد الكمّي

كما ستكون قد قرأت بالتأكيد في كتب المنهج، لقد أكّد علماء المناهج الكمية، منذ أكثر من قرن من الزمان، أنّ الدراسات التي تستخدم المعاينات "الاحتمالية" فقط (عينات عشوائية بسيطة، ومنهجية، طبقية بشكل نسبي، وطبقية بشكل غير نسبي، ومتعددة المراحل، وما إلى ذلك) هي التي يمكنها تعميم نتائجها لإطار المعاينات. ويسير الجدال على النحو التالي:

> **إنّ العيب الواضح للمعاينة غير الاحتمالية هو أنّه حيث إن احتمال اختيار شخص يكون غير معروف، فإنّ الباحث العلمي لا يمكنه أن يؤكد بشكل عام أنّ عينته تمثل السكان بحجمهم الأكبر. وهذا يحد بشكل كبير من قدرة الباحث على تعميم نتائج بحثه فيما وراء نطاق العينة المحددة التي تمت دراستها. وقد تثبت المعاينة غير الاحتمالية أنها ملائمة تمامًا إذا لم يكن للباحث رغبة في تعميم نتائج بحثه فيما وراء نطاق العينة (*Bailey, 1978: 92*).**

لقد سعى الوضع التقليدي (دون أن ينجح في ذلك) لعزل البحث الكيفي والحط من قدره وأن يضعه في الدور الهامشي المنحصر في تقديم عون ودعم إضافي للمسح. وقد أكدت في *Gobo (2008)* بالدلائل ووثّقت بوفرة أنّ هذا التشويه المنهجي لسمعة البحث الكيفي تشويه قاسٍ بشكل مبالغ فيه وليس له ما يبرره،

وذلك لثلاثة أسباب رئيسية، وهي التي سوف أوجزها باختصار. أولا، لأنّ استخدام المعاينات الاحتمالية والاستدلال الإحصائي في البحث الاجتماعي يثبت في كثير من الأحوال أنّ له إشكالياته (بسبب النقص المتكرر في إطارات المعاينة، وغياب ردود الأفعال... إلخ). ثانيا لأن هناك نظمًا انضباطية متعددة (مثل علم الحفريات، وعلم الآثار القديمة، والجيولوجيا أو علم طبقات الأرض، وعلم الأخلاق أو السلوك المقارن، وعلم الأحياء، وعلم الفلك، والأنثروبولوجيا، والعلوم المعرفية، واللغويات، وعلم النفس التجريبي)، التي تُبنى نظرياتها بشكل حصري على البحث الذي يُجرى على حالات قليلة فقط. وثالثًا لأنّ، بقياس مسار الفكرة المنهجية، أهم جزء في المعرفة المرتبطة بعلم الاجتماع يتمثل في جزء الكتابة بالرموز، المبني على حالات قليلة أو حتى على عينات عشوائية (انظر ٦ - ٢ - ٣):

> **لقد تم تنفيذ الكثير من أفضل الأعمال في علم الاجتماع باستخدام الطرق الكيفية بدون اختبارات إحصائية. كان هذا صحيحًا بالنسبة لمجالات البحث التي تتراوح بين الدراسات المتصلة بالمؤسسات أو المجتمعات الصغيرة والدراسات المصغّرة للتفاعل وجهًا لوجه والدراسات الكبيرة للنظام العالمي (*Collins 1988: 502*).**

١٤ - ٨ - ٢ التعميم كما يراه علماء المناهج الكيفية

على مدار السنين، تفاعل علماء المناهج الكيفية بأشكال مختلفة تجاه الرأي القائل بأنّ أولئك الذين لا يستخدمون المعاينات الاحتمالية لا يمكنهم التعميم. وهناك خمسة مفاهيم على الأقل للتعميم (انظر مرة أخرى: ***Gobo 2008***)، الذي يتراوح ما بين مواقف راديكالية للغاية إلى مواقف أكثر اعتدالاً. ومن بين الأشخاص الأكثر راديكالية أولئك الذين وضعهم في الاعتبار لينكولن ***Lincoln*** و جوبا ***Guba*** ***(1979)*** ودنزين ***Denzin*** ***(1973)*** والذين ينتهون (بشكل متناقض) بقبول الوضع

الكمي التقليدي (انظر: *Gomm, Hammersley and Foster, 2000: 98*) بأنّ البحث الكيفي عبارة عن سرد الاتجاهات الفردية وليس له الحق في استخدام الاتجاهات التعميمية. إنّ نورمان كي. دينزين واضح وصريح للغاية في هذا الصدد:

> **يرفض أخصائيو البحث التأويلي أو الاستدلالي التعميم كهدف ولا يهدفون مطلقًا لتقديم عينات مختارة بشكل عشوائي للتجربة البشرية. إنّ كل مثل من أمثلة التفاعل الاجتماعي بالنسبة لهم، إذا تم وصفه بغزارة (*Geertz, 1973*)، يمثّل شريحة من العالم المتوهج النابض بالحياة الذي يُعتبر الموضوع المناسب للتحقيق الاستدلالي... ولا بد من الوضع في الاعتبار بأنّ أي موضوع يعبر عن منطقه، ومغزاه، ونظامه، وبنيته، ومعناه الخاص به (*1983: 133 – 4*).**

وتؤكد المواقف الأكثر اعتدالاً بدلاً من ذلك أنّ هناك نوعين من التعميم (جرى وصفها بطرق متعددة): عددية (إحصائية) مقابل استقراء *التحليل*؛ *وتصويرية شكلية* علمية مقابل تعميم *طبيعي واقعي*؛ أو *توزيعية* مقابل تعميم *نظري*. ويتضمن أول نوع من أنواع التعميم تقدير توزيع ملامح أو ميزات معينة داخل نطاق إطار المعاينة أو السكان؛ والثاني، وهو نظري بشكل بارز، يختص "فقط" بالعلاقات بين المتغيرات في العينة. لذا فإن التعميمين يُصنعان بطريقتين مختلفتين تمامًا(٤).

دراسة حالة نوعان من التعميم
تم رسم التمييز بين نوعي التعميم بتوضيح نموذجي قدّمه عالم الاجتماع الإيطالي ألبيروني *Alberino* وزملاؤه الذين كتبوا في مقدمتهم عن دراسة حول ١٠٨ نشطاء سياسيين في الحزب الشيوعي الإيطالي والحزب الديمقراطي المسيحي كما يلي:

إذا كنا نريد أن نعرف، على سبيل المثال، كم عدد النشطاء في كلا الحزبين في البلد كلها من عائلات لها تقاليد كاثوليكية أو شيوعية، فإن (هذه) الدراسة لا جدوى منها. وبالعكس، إذا كنا نريد أن نعرف هل خلفية الأسرة مهمة في تحديد ما إذا كان أي مواطن سوف يكون نشطًا في حزب شيوعي وليس في حزب ديمقراطي مسيحي، فإنّ هذا البحث يمكن أن يقدم الإجابة الصحيحة. إذا كنا نريد أن نكتشف النسب المئوية "للأنواع" المختلفة من النشطاء وماذا كانت تلك النسب في كلا الحزبين من قبل، فإنّ الدراسة لا فائدةَ منها، بينما إذا كنا نريد أن نُظهر أن هذين النوعين موجودان، فإنّ الدراسة تقدم إجابة معينة.. إنّ الدراسة لا تهدف إلى تقديم وصف كمّي موضوعي لمذهب النشطاء الإيطاليين، لكنّها يمكن أن تساعد على فهم بعض جوانبه الجوهرية، ودوافعه الأساسية، وتجاربه الحاسمة، ومواقفه النموذجية التي أفرزت مذهب النشطاء الإيطالي وساعدت على بقائه حيًا (*1967: 12*).

ولقد تَبنّى هذا الوضع المعتدل غالبية علماء المناهج الذين سعى بعضهم لتأكيد الفرق بين التعميم الإحصائي والتعميم "الكمّي" من خلال صياغة اصطلاحات محددة للتعميم الكيفي. ولقد تسببت هذه المحاولة في نشوء خليط مشوّش من المصطلحات، ربما تكون قد قابلت وقرأت من قبل مصطلحات مثل "تعميم طبيعي واقعي"، و"قابلية التحول" و"تعميم تحليلي"، و"استقراء"، و"تعميم استدلالي"، إلى جانب مصطلحات أخرى.

---

١٤ – ٨ – ٣ هل نحتاج لمفهومين للتعميم أم يكفي تعميم واحد؟

إنّ الوضع الدفاعي والمعتدل الذي يذكر أنّ هناك نوعين للتعميم كان له الفضل بلا شك في تهدئة النزاع مع علماء المناهج الكميّة، وتشريع طريقتين لإجراء الأبحاث. ومع ذلك، كان لهذه التسوية السياسية نتيجتان ضارتان على الأقل.

أولاً: أنّها لم تُحفّز على التفكير العميق في كيفية تحرير التعميم "الكيفي" من تبعيته للاستدلال الإحصائي. ويستمر علماء المنهج التقليديين في نسب الحالة الرديئة للبحث الكيفي، على أساس أنّه ليس له سوى امتداد محدود، مع أنّه يمكن أن يقدم نتائج مهمة.

ثانيًا: ضاعت فرصة لإعادة مناقشة القضية برمتها، والتعامل معها باصطلاحات سياسية أكثر (وليست نظرية فقط) بغية تقديم نظرية معاينة جديدة: نظرية الاتجاهات الفردية، تكون متحدة ومتضامنة ومتساوية مع النظرية الإحصائية، وهي التي تعالج سلسلة من حالات سوء الفهم المترسخة:

> **إنّ رفض وإنكار قدرة بحث دراسة الحالة في دعم التعميم الإمبيريقي "التوزيعي" كثيرًا ما يبدو أنّها تعتمد على الافتراض الخاطئ بأنّ هذا الشكل من أشكال التعميم يتطلب معاينة إحصائية. وهذا يُقيّد ويحُد من فكرة تمثيله لنصّه الإحصائي؛ إنّه يربك ويخلط بين وظيفة التعميم التجريبي الإمبيريقي واستخدام تقنيات إحصائية لتحقيق ذلك الهدف. ورغم أنّ هذه التقنيات أساس فعال للغاية للتعميم، فهي مع ذلك ليست تقنيات جوهرية** ***(Gomm, Hammersley and Foster, 2000: 104).***

ولكن هل نحتاج بالفعل لمفهومين للتعميم؟ ألا يكفي مجرد مفهوم واحد؟ إنّ الكثير من التخصصات التي تجري الأبحاث مبنية على حالات قليلة فقط - مثل (مع تقديم الاعتذار للتكرار) علم الحفريات، وعلم الآثار القديمة، والجيولوجيا أو علم طبقات الأرض، وعلم الأخلاق أو السلوك المقارن، وعلم الأحياء، وعلم الفلك، والأنثروبولوجيا، والعلوم المعرفية، واللغويات، وعلم النفس التجريبي - ليس هناك في هذه العلوم مفهومان للتعميم. هل هي أكثر اقتصادًا وشُحًا عن العلوم

الاجتماعية؟ ربما. وإذا كنت تستخدم مفهومًا واحدًا فقط، لم لا نفعل نحن ذلك أيضًا؟

لذا دعنا نر لماذا يكفي مفهوم واحد للتعميم.

١٤ - ٨ - ٤ نحو حل سريع لمشكلة ما، مبدأ التباين

رأينا في الفقرات ٥ - ٢ - ٣ و٥ - ٢ - ٥ كيف يتم تكوين العينة الممثلة. وما نضيفه الآن هو أنه، أثناء ما يكون ذلك موضع التنفيذ، ينبغي وضع المبدأ (الإحصائي) للتباين في الاعتبار دائمًا. نعم، الكلمة هي "الإحصائي" لأنّ "الإحصاء" لا ينبغي التخلي عنه بشكل تام.

وعلى عكس القصد المعياري والميل للتلقائية لمبدأ الاحتمال، فإنّ التباين معيار يتطلب من الباحث أن يفكر ويستخدم المنطق، وأن يجري تحليلاً قرينًا سياقيًا، وأن يتخذ قرارات فورية. ويقرر التباين أنه من أجل تحديد حجم العينة، لابد أن تعرف البيانات الإحصائية أولاً مدى التباين الذي ينوي الباحث قياسه (باصطلاحات دقيقة بالقدر الكافي على الأقل)، لأنّه من المحتمل أنه، إذا كان مدى التباين للمتغير مرتفعًا، فإنّ عدد الأفراد الذين ينبغي إجراء مقابلات معهم يزداد هو الآخر، بينما لو كان المدى محدودًا (لنموذجين أو حالتين فقط على سبيل المثال)، فإنّ عددهم سيكون محدودًا هو الآخر. ومن هنا، فمن المحتمل أكثر أن تكون العينة مصغرًا لإطار المعاينة (السكان) إذا كانت متجانسة بشكل منحاز ولها هدف معين، والاحتمال أقل أن تكون كذلك إذا كان إطار المعاينة غير متجانس أو متغير الخواص. ونتيجة لذلك، لو كان التباين مرتفعًا، سيحتاج الباحث لعدد كبير من الحالات (كي يضم كل بعد من أبعاد الظاهرة التي تتم دراستها في عينته). أمّا إذا

كان التباين منخفضًا، فمن المفترض أن يحتاج الباحث حالات قليلة فقط، وربما احتاج حالة واحدة فقط في بعض الأحوال... بمعنى آخر:

من المهم أن ندرك أنه كلما زاد عدم التجانس بين السكان، كثرت مشاكل التعميمات الإمبيريقية التجريبية المبنية على حالة واحدة، أو على حفنة من الحالات. وإذا استطعنا أن نفترض بشكل منطقي أنّ عدد السكان يتكون من وحدات متجانسة تقريبًا، فلا يوجد مشكلة في ذلك الوقت *(Gomm, Hammersley and Foster, 2000: 104)*.

وكما أشار باين وويليامز *Payne and Williams* أيضًا:

يمكن أن يكون اتساع التعميم ممتدًا أو ضيقًا، ويعتمد هذا على طبيعة الظاهرة تحت الدراسة وعن افتراضاتنا عن العالم الاجتماعي الأوسع... (ومن هنا) فقد يتطلب التعميم مستويات أعلى من دقة التقديرات أو أقل منها... وستكون مشروطة بالحالة الأنطولوجية (الوجودية) للظاهرة المعنية. ويمكننا أن نقول ما هو أكثر، أو نقدم تبريرات أقوى حول أشياء أكثر من أشياء غيرها. وقد يبدو تصنيف للظاهرة مثل هذا: ١. الأشياء المادية وخواصها الاجتماعية؛ ٢. الأبنية الاجتماعية؛ ٣. الملامح والملاحظات والنتائج الثقافية غير الدقيقة؛ ٤. الرموز؛ ٥. علاقات الجماعة؛ ٦. العلاقات الثنائية؛ ٧. تصرفات / سلوك سيكولوجي... وتظهر الخطوط العريضة لهذا التصنيف أنّ التعميمات تعتمد على مستويات الظواهر الاجتماعية التي تجري دراستها *(2005: 306 - 7)*.

ويذكرنا محلل المحادثات هارفي ساكس (*Harry Sacks 1992, vol.1: 485* واقتبسه سيلفرمان سنة ٢٠٠٠ صفحة ١٠٩) بأخصائي الأنثروبولوجيا واللغويات بينجامين لي هوورف *Benjamen Lee Whorf*، الذي تمكن من أن يعيد بناء قواعد نافاجو *Navago* اللغوية من خلال إجراء مقابلة على نطاق واسع مع متحدث هندي واحد. وقواعد اللغة عادة لها تباين منخفض. ومع ذلك، لو أنّ هوورف أراد أن يدرس كيف كان النافاجو يعلمون أطفالهم، وكيف كانوا يرفّهون عن أنفسهم، وما إلى ذلك، (ربما) كان قد وجد تباينا أكبر في الظاهرة واحتاج لحالات أكثر. وبهذا المنطق، فإنّ المنطق السوسيولوجي (وليس الإحصائي) المبني على التفكير الممكن حدوثه حول الأبعاد الخاصة بالظاهرة التي يتم بحثها وأهداف المعرفة الخاصة بالبحث هي التي تقدم المعلومات للمعايير الرسمية التي ترشد المعاينة وتتضمنها.

وهذا يعني أنّه من الممكن إيجاد حالات يمكن أن تمثل في حد ذاتها ملمحا مهمًا لظاهرة ما. ويختص التعميم، كما يتم تصوره، بتركيبات عامة أكثر، وهو منفصل عن الممارسات الاجتماعية الفردية، التي هي مثال لها فقط. بمعنى آخر، العالم أو المثقف لا يعمم المثال الفردي، الذي يؤكد ماكس فيبر *Max Weber* أنّه لا يتكرر، لكن بالأحرى الملامح الهيكلية الرئيسية التي يتكون منها، والتي يمكن أن توجد في حالات أو أحداث أخرى تنتمي لنفس العينة أو الفئة. وكما أشار هوارد بيكر:

> **هناك مجموعة من الممارسات الاجتماعية - أشكال من حالات الزواج، أو العمل، أو الإقامة في سكن - التي لا يطرأ عليها تغيير كبير، برغم أن الناس الذين يؤدون هذه الممارسات يذهبون ويحل محلهم آخرون بحكم العملية الديموغرافية السكانية العادية للميلاد، والموت، والهجرة، والنزوح (*2007: 6*).**

وبناء على وجهة النظر هذه، فإن مسألة التعميم تستحوذ على أهمية مختلفة: على سبيل المثال، يكتب بيراكليا *Perakyla* في استنتاجات دراسته التي أجراها حول العلاقة بين طبيب نفساني ومريض يعاني من مرض الإيدز:

> **لم تكن النتائج قابلة للتعميم كتصوير لما يفعله مستشارون أو مهنيون محترفون آخرون؛ لكنها كانت قابلة للتعميم كتصوير لما يمكن أن يفعله أي مستشار أو مهني محترف مع زبائنه بالنظر إلى أنّه له نفس نسق الكفاءات التفاعلية مثله مثل المشاركين ويحدث شيء مماثل لهذا في منتجات الأفلام والإذاعة بالمعاينة الصوتية. في دورة الإيدز الاستشارية (مقتبسة من:*Silverman, 2000: 109*).**

ويحدث شيء مشابه في الإنتاج السينمائي والإذاعي الذي يُجسد عينات من الضوضاء. إنّ صوت الباب المرتفع (الذي يجعلنا نحس بقشعريرة عندما نشاهد فيلمًا مثيرًا أو فيلم رعب)، لا يُمثل صوتًا آخر لكل الأبواب، لكننا نربطه بيا. ونحن لا نفكر في أوجه الخلاف بين صرير تلك الأبواب والصرير الذي يحدثه بابنا الأمامي في الفيلم؛ لكننا نلاحظ أوجه الشبه فقط. هاتان طريقتان مختلفتان للتفكير، وتسعى غالبية العلوم الاجتماعية لإيجاد أنماط من هذا النوع.

١٤ - ٨ - ٥ كيف نُعمّم؟

لقد شاهدنا من قبل كيف أنّ بناء عينة مُمثلة هو عملية تفاعلية تصاعدية متدرجة و متكررة (انظر الفقرة ٥ - ٢ - ٥).

> **المعاينة النظرية معاينة تراكمية. وهذا لأنّ المفاهيم وعلاقاتها تتراكم وتتجمع هي الأخرى من خلال التفاعل المتبادل**

لجمع البيانات والمعلومات والتحليل... حتى يتم الوصول للتشبع النظري لكل قائمة (*Strauss and Corbin, 1990: 178 and 188*).

والتفاعل بين المعاينة واختبار الفرض العلمي أمر مطلوب لأنّ:

(١) العينات الممثلة لا يتم التنبؤ بها مقدمًا لكنّها توجد، وتُنشأ وتُكتشف في الميدان بالتدريج.

(٢) وهي تعكس تجربة الباحث، ودراسته السابقة، وما كُتب عن الموضوع من قبل. بمعنى آخر، يعرف الباحث تباين الظاهرة بشكل تراكمي، ملاحظة بعد أخرى، ودراسة بعد دراسة. وكما يقُر كل من جوم وهامرسلي:

من الممكن أن تبنى الأبحاث العلمية اللاحقة على ما قدمته أبحاث سابقة، وذلك بتقديم حالات إضافية، لكي نؤسس بمرور الوقت عينة تسمح بتعميم فعال وله أثره. وفي الوقت الحاضر، يُعتبر هذا النوع من التراكم أمرًا غير عادي... ولا يتم اختيار الحالات عادة بالطريقة التي تُكمل بها عملاً سابقًا (*2000: 107*).

(٣) تُستخدم العينات الممثلة لتبرير أقوال وتصريحات الباحث.

من الممكن أن تؤسس كثير من التعميمات على المذكرات النظرية التي تُكتب أثناء إجراء الملاحظة وتُعمقها (١٢ - ٣ -٣). والمحفزات من الميدان هي المنصة التي تُبنى عليها الأفكار التجريدية ذات البؤرة التي تزداد ضيقًا شيئًا فشيئًا.

وتتضمن عملية التعميم استدلالات واستنتاجات تنزع الأوصاف الإثنوجرافية وتحولها إلى عبارات ذات درجة عالية من العمومية. وتحدث هذه العملية من خلال حذف التعبيرات ذات إمكانية التأشير أو الدلالة – تلك التي تضع الظاهرة موضع الدراسة في إطار محدد. على سبيل المثال، انتقل العلماء الذين وصفهم برونو

لاتور (انظر ٥ - ٢) من بيانات من *النوع* ٢ (أوصاف) إلى بيانات من *النوع* ٤ (الحقائق المتخصصة) وذلك باستبعادهم من كل مرجع لعمل المختبر.

دراسة حالة

التعميم من أمثلة قليلة

فعل جارفينكل نفس الشيء عندما وصف نتائج بحثه عن اتخاذ القرار من جانب هيئة المحلفين (انظر ١ - ٥):

في المادة التي نقدم تقريرًا عنها هنا، لم يكن للمحلفين قدر من الفهم للظروف التي تحدد القرار الصحيح إلا بعد أن اتخذوا القرار بالفعل. وقررت الهيئة بالرجوع إلى الوراء وبالتفكير فيما مضى من أحداث فقط ما فعلوه والذي جعل قراراتهم قرارات صحيحة. وعندما كانت النتيجة في متناول الجميع، عادوا بتفكيرهم للخلف ليبحثوا عن إجابات عن السؤال "لماذا"، أي المقدمات التي أدت إلى النتيجة، ثم لكي يعطوا قراراتهم بعض النظام، حددوا هذه المقدمات في ما يتمتع به قرارهم من رسمية القرار (*1967:114*).

ينتقل جارفينكل في الفقرة التالية إلى مستوى تجريدي فوق بحثه المادي الواقعي:

لو كان الوصف المذكور أعلاه وصفًا دقيقًا، لكان اتخاذ القرار في الحياة اليومية بناء على هذا، كملمح حاسم، هو مهمة صانع القرار *لتبرير* مسار العمل. إن قواعد اتخاذ القرار في الحياة اليومية، أي قواعد اتخاذ قرار في قرارات روتينية ومحترمة من وجهة النظر الاجتماعية بوجه عام، قد تكون مشغولة بمشكلة تحديد نتائج تاريخهم الشرعي أكثر من انشغالها بمسألة تقرير الظروف التي يتم فيها

انتخاب نتيجة منها من بين مجموعة من مسارات عمل بديلة ممكنة قبل المناسبة الفعلية للاختيار (***1967:114***)

لذا فإنّ التعميم يزيل تفاصيل السياق الذي تجرى فيه الملاحظات. وكمثال لهذا الإجراء المعرفي، يروي لنا هوارد بيكر حكاية عن زميله برنارد بيك ***Bernard Beck***. عندما أراد طلاب بيكر استقراء أو استنتاج نظرية من بياناتهم، قدّم لهم التعليمات التالية: "قولوا لي ما الذي اكتشفتموه، لكن دون أن تستخدموا أي صفة مميزة من الصفات التي تحدد الحالة الفعلية" (***1998a: 126, quoted in Silverman , 2000: 87***).

١٤ - ٨ - ٦ القابلية للتمثيل والقابلية للتعميم: وجهان لعملة واحدة؟

والجانب الأخير الذي سوف نضعه في الاعتبار هو العلاقة بين التمثيل والتعميم. تصف كتب العلوم الاجتماعية التعميم عادة باعتباره النتاج الطبيعي لإجراء مسبق متوقع حدوثه. بمعنى آخر، إنّ الظرف الضروري للقيام باستدلال إحصائي هو استخدام سابق لمعاينة احتمالية. ومع ذلك فنحن ننسى أنّ الاحتمالية/ التمثيل، والتعميم ليستا وجهين لعملة واحدة، فالاحتمالية/ التمثيل سمة من سمات *العينة*، بينما يختص التعميم *بنتائج* البحث. ضع أيهما بين تكوين العينة وتأكيد وتثبيت فرض علمي، وهنا يتدخل في الوضع مجموعة معقدة من الأنشطة (كما رأينا من قبل) تنتمي لسبعة مجالات على أقل تقدير:

(١) الجدارة بالثقة للتعريفات الإجرائية والعمليات الإجرائية.

(٢) الثبات المنهجي لأداة تجميع البيانات.

(٣) ملاءمة الإطار التصوري.

(٤) دقة تفاصيل وأوصاف وتصنيفات و/أو قياسات الباحث.

(٥) النجاح في استخدام العلاقات المرتبطة بالملاحظات (أو بالميدان).

(٦) صحة البيانات وصدقها.

(٧) صحة التفسير وصدقه.

*وقد تضر هذه الأنشطة، وأخطاؤها النسبية (التي تسمى تقليديًا بأخطاء القياس) بالعلاقة بين الاحتمالية / التمثيل والتعميم، وهو حدث يتكرر بشكل أو بآخر في نشاط معقد مثل الأبحاث الاجتماعية.

لكنّ وجود هذه المشاكل لا يعني أنّه ينبغي التخلي عن أبحاثنا وعدم إجرائها. المطلوب فقط هو أن نتبنى توجهًا انعكاسيًا أكبر، وأكثر حذرًا، وقبل كل شيء، أكثر تواضعًا، وذلك عند تقديم النتائج.

١٤-٩ بين سيلا (النزعة المعيارية) وكاريبيدس (نزعة ما بعد الحداثة) اختياران كلاهما مر

كان سيلا ***Scylla*** وكاريبيدس ***Charybdis*** حيوانين مخيفين في الميثولوجيا الإغريقية، وكانا يحرسان ممرًا مائيًا ضيقًا بين إيطاليا وصقلية في تلك الأساطير. وكان جانبا القناة قريبين جدًا من بعضهما حتى إنّ البحارة الذين كانوا يحاولون تحاشي كاريبيدس يمرون بالقرب جدًا من سيلا، والعكس بالعكس. وتعبير بين سيلا وكاريبيدس يعني اليوم أن تقع بين خطرين، حتى إنّ تحاشي أحدهما يعنى التحرك بالقرب من قبضة الخطر الثاني.

والدعوة لـ "تحول عملي" بالنسبة للقضايا التي تخص شرعية البحث الكيفي لا تستتبع أو تستلزم التخلي عن كل مطلب فرضي أو مكتسب بحق التقادم، أي نبذ كل تقاليد كيفية إجراء الأبحاث. ويؤكد المنهج العملي في مقابل المنهج المعياري (المبني على قواعد) للمنهجية التقليدية وفي مقابل التوجه التحرري (الخالي من القواعد) لراديكالية ما بعد الحداثة، وهي تدلل الفوضوية المنهجية وتضعها في اعتبارها، يؤكد المنهج العملي أنه يمكن حقيقة بناء التقاليد المنهجية، لكنها يجب أن تشتق وتستمد من الملاحظة الدقيقة لممارسات الأبحاث (والتفكير العميق فيها). ومع ذلك فيحدث كثيرًا أن تخاطب المناهج المعيارية ومنهج ما بعد الحداثة القضايا المنهجية فقط من مستوى المبدأ التجريدي. هل بالإمكان الجمع بين محاولة معيارية (جزئية) ونظرية المواقف المنهجية؟ من الوهلة الأولى، لا يبدو الأمر كذلك. ومع ذلك، فهناك عدد من الأمثلة تدل على غير ذلك.

دراسة حالة

طريقة سادناو *Sudnow* للعزف على البيانو

حول ديفيد سادناو، بعد دراساته الإثنوميثودولوجية عن المستشفيات (١٩٦٧) وعن المحاكم الجنائية (١٩٦٥)، اهتمامه لإثنوميثودولوجية الموسيقى. وتولى نشر كتابين - "طرق اليد": *تنظيم تصرف الارتجال* (١٩٧٨) و"*جسم الكلام*: تأمل بين لوحتي مفاتيح (١٩٧٩) - مبنيين على تحليل فينومينولوجي لتجاربه في تعلم كيفية العزف على بيانو الجاز ***jazz piano*** والارتجال في العزف حتى أصبح قادرًا على أن يعزف أمام الجمهور.

ويقول سادناو إنّ الموسيقى شكل من أشكال التواصل ولها تعليمات كتابية (النوتات الموسيقية) وتعليمات وتفسيرات شفهية كتلك التي يقدمها المعلم في الفصل. ومع ذلك، ولكي تصبح عازفا حقيقيا، وخصوصا في ارتجال نغمات موسيقى الجاز، فلابد أن تتخلى عن هذه التعليمات أو الإرشادات.

ويفكر سادناو في العلاقة بين الموسيقى وآلته الموسيقية، ويصف بالتفصيل كيف أنّ أبسط الأنشطة (ظاهريًا) تُنظّم بالضغط على مفاتيح البيانو بطريقة محسوبة للموسيقي وهو ضمن موسيقيين آخرين؛ ومدى حركة يدي عازف البيانو على لوحة المفاتيح؛ وكيف يظهر صوت الوتر بترتيب الأصابع بطريقة معينّة؛ ومبحث التداني لجسم العازف الموسيقي مع لوحة المفاتيح؛ اتباع إيقاع معين (سريع أو بطيء).

ولا يهتم سادناو بالمفهوم التحليلي "للموسيقى". وهو يقدم عوضا عن ذلك سردًا إجرائيًا يرتكز على ما يفعله البدن: ومن هنا فهو ليس على الموسيقى في حد ذاتها، ولكن على صناعة الموسيقى، "التفكير، وليس الأفكار؛ وتناسق الأصوات، وليس الألحان" (١٩٧٩: ٥٧). والخبراء المتخصصون في البيانو هم أولئك الذين تتحرك أيديهم بطريقتها الخاصة (فهي "تعرف" أين تذهب)، وتبتعد وتقترب من نفسها لتجد المكان الأنسب والأدق الذي يعيش الصوت المطلوب فيه: إنّ باستطاعتهم العزف حتى وأعينهم مُغلقة، ودون أن يفكروا فيما يفعلونه.

قدّم عمل سادناو الإثنوميثودولوجي "طريقة سادناو"، وهي "وسيلة فنية ناجحة لأقصى درجة للعزف على البيانو" (انظر الرابط ***www.sudnow.com***.. ويعدنا سادناو أنّه بعد مضي شهرين، على أقصى تقدير، تتمرن فيه لمدة نصف ساعة يوميا، فإنّ كل من عمره ١٤ عامًا فأكثر وليس له خبرة سابقة سوف يكون قادرا على عزف أول أنغامه. وخلال من ستة إلى ثمانية شهور، سيصبح قادرا

على عزف ١٢ نغمة. وفي خلال سنة، يصبح المبتدئ قادرا على العزف في حفلة. وكل ذلك مقابل مبلغ مالي متواضع وقدره ٧٤,٩٥ دولار أمريكي، بما فــي ذلــك النقل البحري والمعالجة.

١٤ - ١٠ ملاحظات ختامية

يُعد المثال الذي قدّمه سادناو مثالاً مضيئا لأنّه، بدراسة الممارسات، تمكــن من تصميم طريقة لتدريس الموسيقى (وبالتالي شيء إرشادي توجيهي مــن صــنع الإنسان) فائدته أكبر من الكثير من أمثال تلك الطرق. ويرجع ذلك إلى أنّه اخترع، ليس قواعد وضع الكلمة أو الفكرة في سياق خاص أو مبادئ عامة تقــف وحــدها (مــن أجــل مناقــشة تفــصيلية انظــر: ***Gubrium and silverman, 2004: 1ff*** ***Seale,Gobo,)***، ولكن تقاليد مبنية على معرفــة ضــمنية وملاحظــة لممارســات المشاركين.

ويعلمنا هذا المثال أنّ أزمة الشرعية، كما وثّقتها ما بعد الحداثة بحق، يمكن حلّها عن طريق سياسات شرعية جديدة مبنية على تشكيل وتفسير مفاهيمي مختلف لعملية الشرعية والصدق والصحة. وقد أخفى طريق العدم أو العدميــة - المتعلــق بالتخلي عن أي مرجع لمصداقية البحث الكيفي (الذي قد يبدو أنّه يحــرر ويكــسر القيود) - المزالق، وذلك كما يؤكد كلايف سيلي ***Clive Seale***:

يسعى بعض المؤلفين، خلال بحثهم عن نماذج جديدة، إلى الاستعاضة بالقيم الأخلاقية والأوضاع السياسية كضمانات لمستويات: وبذلك يصبح تعزيز الحــوار وتحرير المقهورين المظلومين، وتقوية الضعفاء هو هدف البحث الاجتماعي. لكــن النسبية المعرفية التي كثيرا ما يطالب بها هؤلاء الكتّاب تكون في وضع متنــاقض

ملحوظ مع نظرياتهم السياسية المؤيدة للحكم المطلق. ورأيي أنّ مثل هذه المحاولات لحل مشكلة المعايير باللجوء للقيم السياسية محاولات ضعيفة بشكل مخيف - ذلك النوع من الأشياء التي، كما أظهر التاريخ الأوروبي - يمكن أن تُمحى في ليال قليلة من حرق الكتب بشكل مركز. وقد تأثرت أيضًا بالملاحظة العامة: أنّ تحرر شخص ما قد يكون هو نفسه ظلم لشخص آخر، وأنّ الأوضاع التحررية كثيرًا ما تتضمن عقولاً مغلقة (*2004: 409*).

النقاط الأساسية

- لم تعد المستويات المعيارية التقليدية المستخدمة في شرعية نتائج البحث تتناسب مع النظرية المعرفية الجديدة.
- وتؤكد هذه النظرية أنّه، في حالات كثيرة، لا سند لأي نظرية حول الحقيقة المبنية على التطابق والتوافق بين تقرير الباحث وبين الحقيقة التي يلاحظها ولا يمكن الدفاع عن هذه النظرية.
- لذا فإنّ أزمة الشرعية تتطلب اختراع طرق جديدة لتأكيد مصداقية البحث الإثنوجرافي (والبحث الكيفي عامة).
- والمفاهيم التقليدية عن الثبات والموثوقية والصدق والمصداقية ليست كافية لتحقيق هذا الغرض: من جهة لأنّها ليست لها مكانة معرفية موثوق بها، ومن جهة أخرى لأنها تفشل في تغطية سبع جوانب أخرى على الأقل: (١) الجدارة بالثقة للتعريفات الإجرائية والأعمال الإجرائية؛ (٢) الثبات المنهجي لأداة تجميع البيانات؛ (٣) ملاءمة المواقف التجريدية؛ (٤) دقة الأوصاف، ومجموعات الفئات، و/أو القياسات التي يقدمها الباحث؛ (٥) النجاح في استخدام العلاقات المرتبطة بالملاحظات (أو بالميدان)؛ (٦) صحة البيانات وصدقها؛ و(٧) صحة التفسير وصدقه.

- ويجب أيضا إعادة تأطير مفاهيم التعميم التقليدية (الكمية والكيفية معا) بمصطلحات عملية أكثر، وأقل تجريدية.
- وبهذه الطريقة فقط، يصبح من الممكن إعادة التفكير في مصداقية البحث الكيفي، وتجنب كل من المنهج المعرفي التقليدي (المبني على قواعد)، ومنهج ما بعد الحداثة (المنهج المتحرر من القواعد).

المصطلحات الأساسية

الأصالة (الصدق مع الذات): هي شهادة بالوجود الفعلي للباحث في الميدان.

الكمال والتتميم: يجب أن يصاحب الأوصاف تصوير تفصيلي للسياق.

التطابق أو الاتساق: هو الاتساق والتماثل الذي تُخصص فيه الأحداث التي تمت ملاحظتها في مناسبات مختلفة.

المصداقية: هي نتيجة لعملية الشرعية.

أمانة المادة: درجة التعارض أو التناقض بين الحالة التي تم تسجيلها والحالة الفعلية الحقيقية.

أمانة التفسيرات: درجة التعارض والتناقض بين تفسيرات الباحث والظاهرة الاجتماعية التي تشير تلك التفسيرات إليها.

التعميم: العملية التي تنتقل من خلالها النتائج المتعلقة بالعينة لتعمم على السكان أو إطار المعاينة.

التغيير العمدي (القسري): تغيير في وضع المشارك في سمة ما من سمات مفهوم بسبب تأثيرات تحدثها الطريقة المُستخدمة.

الدقة الداخلية: دقة الباحث في كل مرحلة من مراحل عملية البحث.

شرعية العمل الخطابي (البلاغي): الذي يسعى الباحثون من خلاله لإقناع جماهيرهم بصحة نتائج أبحاثهم. ويشبه العمل المتصل بالشرعية هذا عمل أحجية الصور المقطوعة عندما قد يكون البعض من تلك القطع مفقودًا.

التغيير الطبيعي: تغيير في وضع المشارك في سمة من سمات مفهوم ما طبقًا لأسباب غير مرتبطة بالطريقة المستخدمة في جمع تلك الحالة.

صدق المشارك: والتحقق من صحته الحصول على صحة وتأكيد أو إنكار المشاركين (سواء شفهيا أو كتابيا) لروايات الباحثين وتفسيراتهم كي تصبح نظيرًا قريبًا للحقيقة التي يتم ملاحظتها.

المعقولية: الاتساق بين استنتاجات الباحث والظاهرة الاجتماعية التي تشير إليها.

التحول العملي: انتقال فكري راديكالي يتم فيه مخاطبة القضايا المعرفية والمشاكل المنهجية بطريقة سياقية وعملية بدون حقوق الشفعة الأيديولوجية، على أساس ممارسات إجراء البحث المادية المحددة.

الثبات (المصداقية): دقة الأداة أو الطريقة المستخدمة للقياس.

التشبع: يشهد التشبع ويثبت أنّه قد تم تحديد كل الأحداث للمفاهيم المقترحة مع حذف أشكال التنافر المعرفي وتقييم الفائدة الهامشية للحالات المحدودة.

الصدق: التطابق بين رواية الباحث والظاهرة التي يجري ملاحظتها. وهو مفهوم مشابه لمفهوم الحقيقة.

مبدأ التباين: يقرر هذا المبدأ أنّه لكي نحدد حجم العيّنة لابد أن نعرف أولاً مدى تباين الظاهرة. إذا كان التباين مرتفعا، فإنّ هذا يعني أنّ الظاهرة غير متجانسة أو متغايرة الخواص؛ ومن هنا يحتاج الباحث لعدد كبير من الحالات (كي يضم كل بعد من أبعاد الظاهرة التي يتم دراستها في عينته). أمّا إذا كان التباين منخفضا، فهذا يعني أنّ الظاهرة متجانسة إلى حد كبير؛ ومن هنا فمن المفترض أن يحتاج الباحث حالات قليلة فقط.

توصية بقراءة

بالنسبة للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد:

Gobo, Giampietro (2004)

بالنسبة للخريجين:

Gobo, Giampietro (2008)

بالنسبة للمتميزين ممن يجرون البحوث:

Gomm, Roger; Hammersley, Martyn and Foster, Peter (2000)

اختبار تقييم ذاتي

هل أنت مستعد للباب التالي؟ راجع معلوماتك بالإجابة عن الأسئلة التالية ذات النهايات المفتوحة:

١. لماذا كان من المهم في الثمانينيات تقديم مفاهيم الثبات (المصداقية)، والصدق في البحث الكيفي؟

٢. ما معنى التعبيرات التالية "توعية البحث الكيفي" (***Clive Seare***) و"مصداقية البحث الكيفي" (***David Silverman***)؟

٣. لماذا لا يكون التمثيل والتعميم وجهان لعملة واحدة؟

٤. ما الذي يمكن أن نتعلمه من تجربة ديفيد سادناو ومن طريقته في العزف على البيانو؟

الهوامش

١ - ومما يتناقض مع هذا هو أن هذه المخاطرة غير موجودة في الملاحظة غير المشاركة، لأنّ المشاركين لا يهتمون بالملاحظ. ولا يشعرون بوجوده.

٢ - في الملاحة، يُصنع تسعة مواقع للسفينة عادة لتحديد الموقع البحري.

٣ - إن هامرسلي وأتكينسون (*1983: 199*) وسيلفرمان (*1993: 156 – 158; 2000: 99*) وماسون (*1996: 27*) ينتقدون التثليث بشدة، ويشكّون في الصحة المنهجية لمقارنة البيانات التي تم جمعها بأدوات مختلفة ونوايا ومقاصد معرفية.

٤ - في الحقيقة، هناك البعض الذين يتفقون على أنّ التعميم قد يكون الكلمة الخاطئة لما يسعى الباحثون الكيفيون لتحقيقه: "التعميم هو... كلمة.. يجب حجزها وتخصيصها للمسح فقط" (*Alasuutari, 1995: 156 -157*).

الجزء الرابع

المتلقون (جماهير القراء)

الفصل الخامس عشر

نقل النتائج، وكتابة الأبحاث الإثنوجرافية

الأهداف التعليمية

- فهم دور الكتابة في القراءة والكتابة.
- إدراك أنّ الكتابة ممارسة تؤدى في كل مراحل البحث، وليس في نهايته فقط.
- الإلمام بمشكلة وجود نوعين من الجماهير.
- اختراع طرق تجعل الجمهور يقدر عملك.

١٥-١ مقدمة

نحن نعيش ثقافة قراءة وكتابة تشكل الكتابة والطباعة ركيزتين مهمتين فيها، وليس صدفة أن يتكون جزء كبير من نشاطكم كطلاب من القراءة، وتدوين الملاحظات، والكتابة. وسوف يظل الوضع هكذا على الأقل حتى مرور بعض الوقت في المستقبل... لقد اعتاد بعض واضعي النظريات حول وسائل الإعلام، مثل أخصائي الإعلام الكندي مارشال ماكلوهان ***Marshal McLuhan*** وضع نظرية فحواها أنّ مجيء السينما، والإذاعة، والتليفزيون (وسائط تتضمن القليل جدا من النصوص المكتوبة) سوف يحدث عودة للثقافة الشفهية - الثقافة التي سبقت معرفة القراءة والكتابة - التي أضافت الكثير لمعارفنا ومعلوماتنا (ضع في اعتبارك أنّ سقراط كان أميًا وأنّه كان لأفلاطون دائما علاقة حب/ كراهية بالكتابة).

ومع ذلك، فإنّ الإنترنت يعود بنا لثقافة القراءة والكتابة (هذا لو كنا قد تركناها فيما سبق). وفي الحقيقة، إنّ الإنترنت (بكل ما يتضمنه، من جماعات الأخبار إلى غرف الدردشة) يُشكل عالمًا تسود فيه النصوص المكتوبة وتطغى على الصور. وينطبق هذا على الجامعات، وهي أماكن تغص بالنصوص المكتوبة. وتستند المهن الأكاديمية في الواقع على الكتابة. وقد حصل الأساتذة الذين يحاضرونكم في الكليات على المكانة التي وصلوا إليها من خلال مقالات مكتوبة، وكتب، ووثائق أكثر من خلال حضورهم لمؤتمرات شاركوا فيها. والمحاضرات، التي كانت منذ بضعة عقود مضت شفهية تمامًا تقريبًا، مع وجود بعض الشفافيات من صور ورسوم أو كتابة على السبورة، أصبحت الآن، ومنذ قدوم برامج الباوربوينت ***Powerpoint***، تستند بقوة أيضًا على النصوص المكتوبة. لذا فإنّ الكتابة (وسوف تظل كذلك لبعض السنين القادمة) ممارسة تشكل جزءًا لا يتجزأ من الأبحاث العلمية.

١٥ - ٢ لماذا نكتب؟

قد يبدو السؤال الأول تافهًا: ما الغرض من النص المكتوب؟ والسؤال واضح للغاية بل وحتى مبتذل حتى إنّ موضوع الكتابة ظل مهملاً إلى حد كبير منذ مولد منهجية البحث الإثنوجرافي. وربما لأنّه ساد الاعتقاد بأنّه إذا كانت كل مراحل مشروع البحث قد نُفذت بالشكل الصحيح، لبرز تقرير البحث من البيانات أوتوماتيكيًا (مع الوثائق والمقالات والكتب المتعلقة به). وكان علم الأنثروبولوجيا هو الوحيد الذي أخذ المسألة مأخذ الجد من حوالي ٣٠ سنة، مع مساهمات وإضافات مهمة (كما سوف نرى) (***Rainbow, 1977; Clifford, 1988***). وبعد ذلك أصبح هذا العلم يعامل الكتابة على أنّها موضوع تحليل خاص ومحدد (***Clifford and Marcus, 1986***). وتُعد الكتابة مهمة لسببين رئيسيين:

- لأنّها تحثنا على أن نقدم أوصافًا كتابية بيانية للثقافات والتقاليد التي يتم ملاحظتها لأولئك الذين لم يشاهدوها، أو لم يمروا بتجربتها.
- ولأنّها تعطي الشرعية لعمل الإثنوجرافي وللنتائج التي يصل إليها.

١٥-٢-١ الدجاج ومسكنه

إنّ كل ما تمت مناقشته في الفصل السابق ويتعلق بمصداقية نتائج البحث يأخذ الشكل المادي الملموس من الكتابة. ويمكننا أن نقول إنّ "المصداقية، والموثوقية أو الثبات، والصدق والصحة، والاتساق والدقة، والأصالة، والمعقولية، وما إلى ذلك، مثلها مثل الدجاج "يعود لبيته ليستريح" وبيته هنا هو الكتابة. وبالتالي فإنّ النص المكتوب يصبح المقياس المعتمد والمحك لتقييم البحث. وقد يكون الباحث قد أدار ما يعتقد أنّ ما قدّمه هو بحث ممتاز وبارز، لكنّه إذا ما وُصف هذا البحث للجمهور بطريقة غير مناسبة تنظيميًا، فإنه سيفقد مصداقيته. ولسوء الحظ، فإنّ عكس ذلك لا يحدث: إذا كان التقرير جذابًا ومقنعًا، فإنّه يعطي بريقًا للبحث أيضًا – حتى لو كانت بياناته زائفة وكاذبة، أو لو كان إجراء البحث غامضًا وغير محدد. وهذا هو التناقض، كما سوف نرى بعد قليل، الذي أثار مناقشات كثيرة بين المهتمين بالكتابة.

١٥-٢-٢ مشكلة وجود نوعين من الجماهير

ولعلماء الاجتماع مشكلة إضافية فيما يخص زملاءهم في العلوم الفيزيائية والبيولوجية. إنّ عليهم إقناع نوعين من الجماهير، وهما: جمهور العلماء، وجمهور المشاركين في أبحاثهم. ومن هنا فإنّ لديهم نوعين من القراء، وبالتالي نوعان من

النقاد المرتقبين. ومع أنّ المسألة قد تبدو تافهة، فإنها تمثل أكبر خلاف بين العلوم الاجتماعية والعلوم الفيزيائية والبيولوجية. لن يجادل أي إليكترون نظرية أي فيزيائي أو يعارضها. وبالمثل، فإنّ الخلية لا يمكن مطلقًا أن تتخلى عن الاعتراف بعالم البيولوجيا الذي يتعامل معها. وحتى على مستوى أقل من ذلك، لم يستطع خنزير البحر الهندي (حيوان صغير من القوارض في أمريكا الجنوبية استخدم كحقل تجارب) أن يعقد مؤتمرا صحفيا ليحتج ضد المعاناة التي سببها استخدام الحيوانات في التجارب. وبدلا من ذلك، فليس أمرا قليل الحدوث بالنسبة لعلماء الاجتماع أن يحدث نزاع معهم وأن ينتقدهم المشاركون في الأبحاث، أو أولئك الذين يعتقدون أنّهم مشاركون فيها، بل وحتى يضربوهم بعنف. على سبيل المثال، انتقد سكان المدينة القروية الصغيرة (سبرنجديل *Springdale*) بشدة الكتاب الذي ألفه فيديتش ***Vidich*** وبنسمان ***Bensman*** ***(1958)*** اللذان أجريا دراسة على تلك المدينة الصغيرة في كتابهما. وحدث نفس الشيء للكاتبين روبرت ***Robert*** وهيلين ليند ***Helen Lynd*** وكتابهما ميديلتاون ***Middletown*** ***(1929)*** والكاتبين للويد وارنر ***Lloyd W. Warner*** ولانت إس بول ***Lunt S. Paul*** وكتابهما "الحياة الاجتماعية لمجتمع حديث" ***(The Social Life of a Modern Community 1941)***، وهو أول كتاب في سلسلة كتب "مدينة يانكي" ***The Yankee City*** (انظر ٦ – ٢ – ٤).

كان المشاركون غير راضين عن أوصاف الباحثين فعبروا عن عدم رضاهم.

ونتيجة لذلك، لن تستطيع العلوم الاجتماعية مطلقًا أن تنافس العلوم العلمية الدقيقة (إذا استمرت في البقاء راسية في المصطلح الغربي) لأنها يجب أن تتعامل باستمرار مع تعقيد ذي شقين: إقناع نوعين من الجمهور.

١٥ – ٣ متى نكتب؟

وهناك اعتقاد شائع آخر، حدث نزاع حوله في الآونة الأخيرة فقط، وهو أنّه ينبغي كتابة التقرير عند الوصول لختام البحث فقط. كان يجب أولا إنتاج تصميم

للبحث؛ ثم كان الباحث يدخل الميدان لجمع البيانات والمعلومات (وأنا أستخدم هنا استعارة زراعية)؛ ثم يُجرى تحليل مكتب في غرفة مغلقة؛ وكانت نتائج البحث تُكتب كمرحلة أخيرة لإجراء البحث. وبدلاً من ذلك أصبح من المتفق عليه بشكل كبير الآن *(Strauss and Corbin, 1990; Silverman, 2000)* أنّ الكتابة ليست عملاً معزولاً في البحث، وأنّه من الأفضل أن تحدث الكتابة بشكل مستمر (من بداية البحث حتى نهايته)، وليس في ختام العمل الميداني فقط.

١٥-٣-١ الكتابة هي التفكير

التمرين ١٥ - ١

- حاول وصف أو تفسير مفهوم علمي (على سبيل المثال: "دور" أو "هوية" لأحد أصدقائك.
- افعل ذلك شفهيا أولاً (مع تسجيل ما تقول).
- بعد ذلك افعل نفس الشيء، ولكن من خلال كتابة رسالة بريد إلكتروني بوضوح لصديق آخر.

سوف تلاحظ أنّ النصين يختلفان كثيرا عن بعضهما. وهذا يعني أنّ الكلام والكتابة أيضا شكلان (مختلفان) من أشكال التفكير. عندما نكتب فنحن لا نكون راضين مطلقًا: نكتب جملة ثم نمحوها؛ ونحاول مرة أخرى مستخدمين كلمات مختلفة، ونضيف تفاصيل أخرى أو أمثلة، وذلك لأن النص لا يبدو واضحا بالقدر الكافي لنا مطلقًا. وبعد ذلك نجد روابط جديدة مع مفاهيم أخرى، وهكذا. وإذا احتجت أثناء التمرين لدقائق قليلة لشرح المفهوم شفهيا، تجد أنّ كتابته عوضا عن ذلك استغرقت وقتًا أطول بكثير. وهذا ليس فقط لأنّ الكلام أسرع من الكتابة، ولكن أيضا بسبب البطء الفطري والمتأصل في نشاط الكتابة، حتى إنّ الكاتب يمكن أن يفكر ويتأمل فيما كتبه (انعكاسية) ثم يتوسع في محتواه. الكتابة إذن شكل من أشكال

النشاط الذهني مناسب أفضل من غيره للتفكير والتأمل، والمناقشة، والتحليل، والنشاط العلمي.

١٥- ٣ - ٢ الكتابة تواصل (فعلي وحقيقي مع القارئ)

مع أنّه عندما يكتب النّاس فإنّهم يكتبون وحدهم ومن تلقاء أنفسهم، ولكنهم ليسوا كذلك مطلقًا من وجهة النظر النفسية والسوسيولوجية. فعندما يكتبون، فهم يضعون في ذهنهم مرجعًا دون أن يدركوا ذلك، وهذا المرجع قارئ فعلي حقيقي، أو جمهور معين. أطلق عالم العلامات (أو السيميوطيقا) الإيطالي أمبرتو إكو ***Umberto Eco*** (*1979*)، عليه مصطلح "القارئ النموذجي" ولكي يكتب المرء، يجب عليه أن يتخيل القارئ في المستقبل. على سبيل المثال، فإنّي، وأنا أكتب، أفكر فيكم أيها الشباب من الطلاب المختلفين عنّي اختلافًا كبيرًا، فأنا أبلغ من العمر ما يجعلني في مثل عمر آبائكم. لقد حاولت أن أكون مفهومًا بقدر الإمكان، واضعًا في الاعتبار ما قد تكون عليه معرفتكم، وأذواقكم، واهتماماتكم. ولكي أفعل ذلك، قدّمت عدة أمثلة ربما تثير اهتمامكم، فتوليت تبسيط البعض منها، وتعمقت في البعض الآخر. وبعمل ذلك، طوّلتُ في النص بقدر كبير (وبذلك أغضبت وأغظت ناشر كتابي هذا بشدة). وأنتم تفعلون ذلك عندما تدخلون امتحانًا يتطلب منكم شرح وتفسير مفهوم أو نظرية ما. إنّكم تفكرون في المدرس الذي سوف يتولى تقييم عملكم، ماذا يتوقع منكم، والأمثلة التي يريد منكم أن تقدموها، ومع أسلوب العرض التفصيلي أو الإيضاحي الذي يمكن أن يتوقعه، وأفضلياته في كل ذلك. ومع ذلك، فأنتم تعرفون مدرسكم؛ لكنّي لا أعرفكم. وموقفي هو الموقف الذي يجد الباحثون أنفسهم فيه بشكل عام: فهم لا يعرفون قراءهم، لكنهم يتخيلونهم. في الحقيقة "القارئ المثالي" ليس هو القارئ الفعلي بلحمه ودمه، لكنّه نوع القارئ، دور نظري تجريدي: جمهور خيالي، يختار الإثنوجرافي من أجله خيارًا في الأسلوب من بين عدة خيارات، وتعبيرات متشابهة وأخرى غير متشابهة.

لذا فإنّ نشاط الكتابة يضع الباحث في حالة تواصل مع "القارئ المثالي".

١٥ - ٣ - ٣ الكتابة جهد متواصل لتحليل المادة

باستخدام الشكل المكتوب للاتصال مع القارئ، وبوضع *القارئ النموذجي* في الحسبان بشكل مستمر، يُوضح الباحثون عباراتهم وبياناتهم لأنفسهم وللآخرين. ونجدهم يقدمون أفكارًا جديدة ويطورونها، ويصقلون مفاهيم جديدة وينقحونها، ويخترعون فرضيات جديدة (ويستبعدون فرضيات أخرى)، ويبنون أجزاء من نظريات، ويتولون تعميم جزء من نتائجهم، ويجرون اختبارًا على البناء الجدلي الخاص بهم، وأحيانًا فإنّهم يخضعون أنفسهم للرقابة حتّى يتجنبوا الادعاءات التي لا أساس لها أو التفسيرات الخاطئة. من أجل هذا فلنا أن نقول إنّ الإثنوجرافي يستمر في تفسير بياناته ومعلوماته وهو يكتب. علاوة على ذلك، فلو بدأ في الكتابة في الحال (كما نصحنا بذلك في ١٢ - ٣ - ٣ و ١٣ - ٢ - ٢) فإنّه سوف يبدأ في الحال أيضًا في تغيير تصميم بحثه وفقًا للفرضيات والنظريات التي تبرز أمامه، كما هو الحال في أفضل تقاليد *النظرية المُوثقة*.

١٥ - ٤ كيف نكتب

ولقد ركز جزء كبير من التفكير في الكتابة على "الطرائق والكيفيات الإيضاحية التفسيرية" التي يستخدمها المؤلف؛ بمعنى آخر، الإستراتيجيات الأسلوبية والبلاغية والتواصلية التي يستخدمها الإثنوجرافيون لإقناع قرائهم بجودة ونوعية تحليلاتهم.

١٥-٤-١ ثقافة الورق "الوثائق"

لا يملك معظم قراء أي كتاب (أو مقالة) معرفة مباشرة لثقافة وتقاليد الجماعة أو المؤسسة التي تقدّم لهم. لذا فإنّ القارئ يتعلم الكثير عن تلك الثقافة

والتقاليد من خلال النص (إلا إذا كان خبيرًا بشكل بارز في هذا الشأن). إنّ الكتاب بالنسبة للقارئ ليس تمثيلا أو تصويرا واحدًا من بين عدة تمثيلات ممكنة أخرى لثقافة أو تقليد ما؛ بل إنّه يصبح تلك الثقافة ذاتها. بمعنى آخر، بالنسبة لمعظم القراء، ينتهي المطاف بالثقافات "الحقيقية" بمطابقتها وتوافقها مع الثقافة النصية (الوثائق). وإذا تعاملنا مع المسألة من وجهة نظر فينومينولوجية، فلابد أن نتفق أنّها لا شيء سوي تقاليد ورقية ووثائقية، ولنفس السبب أطلق عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو (*1987*) على الجماعات الاجتماعية التي حددها علماء الاجتماع بمصطلح "طبقات ورقية"، وذلك عندما كان يناقش نظريات تقسيم المجتمع إلى طبقات اجتماعية.

وإذا كانت هذه هي الطريقة التي تسير عليها الأمور، لا يمكننا إلا أن نشعر بالحيرة. ويطفو على السطح في الحال عدد من الأسئلة: هل يعني هذا أنّ التقاليد التي توصف في الكتب غير موجودة؟ هل يعني أنّها جميعًا من اختراعات الإثنوجرافيين؟ أشياء وهمية مزيفة؟ لا، ليس هذا في الواقع. وما يجري التأكيد عليه هنا ببساطة أكثر هو القدرة والقوة الدافعة التي تقنعك بالنص المكتوب، وهي أيضًا الدور الرئيسي لعملية المجادلة وتقديم الحجج والبراهين. (من أجل تفاصيل عن الحركة البلاغية الحديثة ودور الجدال والمناقشة، ادخل على: **(*www.sagepub.co.uk/gobo*)**.

١٥-٤-٢ مساهمة أنثروبولوجيا ما بعد الاستعمار

في بداية الثمانينيات، استمر أخصائيون أمريكيون في الأنثروبولوجيا - بشكل جذري أكثر وبمنظور ما بعد الحداثة - على الطريق الذي يميزه علم البلاغة الحديث (وقد تم معالجة بعض من آرائهم في ٤ - ٤). وكان اهتمامهم بنوع محدد

من الكتابة: النص الإثنوجرافي. دعا كل من جورج ماركوس ***George Marcus*** وديك كوشمان ***Dick Cushman (1982)*** أخصائيا الأنثروبولوجيا لإجراء دراسة وفحص انتقادي عن الطريقة التي تم بها إنشاء النصوص الإثنوجرافية حتى ذلك الوقت. وكان جيمس كليفورد ***James Clifford (1986)*** من بين آخرين، قد استنكر التمركز حول سلالة الأنثروبولوجيا التقليدية وعدم قدرتها على وصف تقاليد أخرى بشكل كاف. وأفرزت هذه المحاولة تفكيرًا جماعيًا حول الطريقة التي تُبنى عليها النصوص الإثنوجرافية، ثم أدت إلى نشر الكتاب الشهير ذي العنوان المعبر القوي "كتابة الثقافة: البلاغة، والسياسة في الإثنوجرافيا" والذي رأس تحريره كل من كليفورد وماركوس (١٩٨٦). وضع هذا الكتاب بشكل نهائي المعرفة الأنثروبولوجية داخل نطاق حدود وأيديولوجيات النماذج المعرفية الغربية، وأقر بأنّ تحمل عدم المساواة في السلطة قيّد بوضوح الممارسة الإثنوجرافية ***(Clifford, 1986:8)***. وهكذا كانت الكتابة - مثلها مثل القراءة - في الجوهر عملاً سياسيًا *لبناء المعنى*.

وهناك ثلاثة أنواع رئيسية للسرد: الواقعي، والإجرائي والانعكاسي، وسوف نناقش الأنواع الثلاثة فيما يلي:

١٥-٤-٣ السرد الواقعي

برغم كل شيء، فإنّ الأسلوب الواقعي التفسيري أو الإيضاحي هو الأسلوب الأكثر استخدامًا اليوم في العلوم. وهو يُستخدم لتقديم القليل من التفسير (الذاتي) للحقيقة باعتباره لقطة فوتوغرافية له. ومجاز "اللقطة الفوتوغرافية" هذا استعارة قوية لأنّها لا تترك مجالاً للوساطة والإصلاح وتؤكد على وجهة نظر ظاهرية وغير واقعية عن الحقيقة. ومن هنا، فما يقدمه الأسلوب الواقعي ليس سردًا من بين

عدة أنواع ممكنة من السرد للحقيقة لكنه *الحقيقة* ذاتها: وهذا هو وصفها الممكن الوحيد.

ويستجيب الأسلوب ويمتثل لاصطلاحات السرد والرواية المحددة بدقة حول الطريقة التي يتم بها شرح وتبسيط نتائج البحث: على سبيل المثال، ينبغي إعداد المرجع للعلماء والطلاب الموثوق بهم، وللنظريات المؤسسة على مادة واقعية بشكل جيد، وينبغي أن تتم إضافة حواشي وهوامش للصفحات، وتقديم المعلومات ذات المصدر والاستخبارات المفتوحة، وما إلى ذلك - والغرض من ذلك إظهار أنّ الكاتب عضو كفء (وموثوق به لو أمكن) في المجتمع العلمي. وتُحكى رواية عن كيف وجد هارفي ساكس ***Hrvey Sacks*** أنّه من الصعب الحصول على الموافقة على رسالته العلمية لأنّها لم تلتزم بهذه الأنماط في الأسلوب. وحدث نفس الشيء، قبل ذلك بكثير، مع وليام إف وايتي ***William F. Whyte*** أثناء المناقشة المفعمة بالحيوية لرسالته العلمية التي ناقشها مجلس يضم أكاديميًا مميزًا وهو لويس ريث ***Louis Writh***، وقد هوجم بشراسة لعدم استخدامه الجهاز المفاهيمي لمدرسة شيكاغو.

ويسعى السرد الواقعي، وهو يدرك العمل التفسيري للباحث، لإخفاء هذا بتقديم الإثنوجرافي كفاعل مجهول (قادم من مكان لا نعرفه)، على هامش المشهد حتى لا يفسده. ويتسم أسلوب الكتابة باستخدام صيغة الغائب، والحديث أو الخطاب الوثائقي، والمستقل غير المتحيز. ويحاول أن يميز نفسه بعيدًا عن المبدأ الحسي للخطاب الصحفي ، وعن تحيز ومحاباة الخطاب السياسي، وعن صراحة وإخلاص الفطرة السليمة، وخيالية الخطاب الأدبي. وتخفي النصوص الواقعية عواطف الباحث، وانخراطه الشخصي في شئون المشاركين، وتعاطفه الوجداني، والأشياء التي يكرهها، والحساسيات الفريدة الخاصة. وأيضا كل حالات فشله خلال العمل

الميداني.. ويلاحظ كليفورد (5 :1986) أنّ مثل تلك اللغة تسعى لفصل الذاتية (من أجل الموضوعية)، والأسلوب البلاغي (من أجل خاصية الخطّية والرصانة)، والأسلوب الخيالي (من أجل ذكر الحقائق): ليس فقط ذاتية الإثنوجرافي، ولكن أيضًا ذاتية المشاركين، الذين يصبحون ممثلين لقائمة عامة، ومواضيع نموذجية (من الزمن والتاريخ)، وليسوا أشخاصًا من لحم ودم.

ولكي يطمئن المؤلف القارئ أن التقرير ليس نتيجة تفسير شخصي، ولكنّه تمثيل صادق (لوجهة نظر المحليين)، فإنّه يلجأ لاصطلاحات أسلوب محدد، مثل تقديمه لمقتبسات، أو لمقتطفات من مقابلات تُقدّم ذاتيتها بشكل عام من خلال معلومات ديموغرافية عمن تُجرى معه المقابلة: "أنثى، السن ٢٤ سنة، حاصلة على شهادة البكالوريا، وقضاء شهور قليلة في كلية الفنون؛ الأب: قطاع خاص" مأخوذ من بورديو (Bourdieu, 1979/1984:151). وما يُسمى "صوت الوطنيين" مفصول بالرسم البياني عن بقية النص من خلال مُربعات، أو حروف طباعة مائلة، وحجم خط أصغر.

والتفاصيل الدقيقة والوفيرة هي أدوات نصّية لإضفاء الشرعية على دقة الملاحظة وشمولها، لكنّها أيضًا طريقة لنقل الوجود الفعلي للباحث في المكان الذي تمت فيه الملاحظة (*Van Maanen, 1988: 49*).

وتُعتبر كتابات أخصائي علم الإنسان الاجتماعي البريطاني إدوارد إي. إيفانز – بريتشارد ***Edward E. Evans-Pritchard* (1902 -73)** أمثلة ممتازة للموضوعية غير المتأثرة بالمشاعر الشخصية؛ وعلى النقيض من ذلك، فإنّ أمثلة أخصائي علم الإنسان في ما بعد الحداثة الأمريكي فينسينت كرابانزانو ***Vincent Crapanzano*** (كما سنرى) تُوجه إليها التُهم بتشتيت المعلومات وتجزيئها، وبالذاتية.

دراسة حالة

السرد الواقعي

في الثلاثينيات، أجرى إيفانز برتشارد **Evans-Pritchard** دراسة حول النوير، وهم اتحاد كونفدرالي لقبائل في جنوب السودان وغرب إثيوبيا يكرسون حياتهم في الزراعة وتربية الماشية. ونشر دراسته في الأربعينيات. وهي عبارة عن دراسة علمية عن موضوع واحد يلخص "وضع مؤلف" الإثنوجرافيا. والنص خطّي، وشفاف وتوكيدي. ويتميز بأسلوب كتابي واقعي وواثق من نفسه.

ما زالت قبائل النوير مُنشقّة إلى قطاعات. ويطلق على أكبر القطاعات هناك اسم قطاعات قبلية أولية، وهي بدورها تنقسم إلى قطاعات قبلية ثانوية، وهي تنقسم بدورها إلى قطاعات قبلية إقليمية. وتُظهر التجربة أنّ الأولية والثانوية والإقليمية مصطلحات كافية للتعريف، وربما تكون مصطلحات قليلة مطلوبة في أصغر القبائل. ويتكون قطاع الإقليم القبلي من عدد من المجتمعات القروية تتألف من أقارب وجماعات أهلية محلية (*1940: 139*).

إنّ كل قطاع منقسم في حد ذاته وهناك معارضة بين أجزائه. ويتّحد أعضاء أي قطاع للحرب ضد القطاعات المتاخمة في نفس النظام ويتحدون معهم في مواجهة قطاعات أكبر (*1940: 142*).

في الرسم البياني ص ١٢٢ (انظر الشكل ١٥,١) عندما يقاتل قسم **Z1** قسم **Z2**، لا ينخرط في القتال أي قسم آخر. وعندما يقاتل قسم **Z1** قسم **Y1**، يتّحد قسما **Z1** و **Z2** كقسم **Y2**. وعندما تقاتل **Y1** قسم **X1**، يتّحد قسما **Y1** و **Y2** ويتّحد أيضًا **X1** و **X2**.. وعندما يقاتل **X1** قسم **A**، يتحد أقسام **X1** و **X2** و **Y1** و **Y2** كقسم **B**. وعندما تشن **A** غارة على الدينكا **The Dinka**، فقد تتحد **A** و **B** (*1940: 143 – 4*).

A	B	
	X	Y
	X^1	Y^1
	X^2	Z^1 ----------- Z^2

الشكل ١٥ – ١

١٥ – ٤ – ٤ السرد الإجرائي

كتب أخصائي الأنثروبولوجيا الأمريكي بول رينبو ***Paul Rainbow*** عن كتابه "رواية عن تجربتي في اليمن" كما يلي:

> **لقد حاولت أن أقتحم المأزق أو القيد المزدوج الذي عرّف علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) في الماضي. فنحن كطلاب خريجين يُقال لنا إنّ "علم الإنسان يساوي التجربة"؛ وأنت لست أخصائيًا في علم الأنثروبولوجيا حتى تُلم بتجربةَ إجرائه. ولكن عندما يعود المرء من الميدان، فإنّ الذي يحدث في الحال هو العكس: فعلم الإنسان ليس بالتجارب التي جعلت منك عضوًا في جمعيته، ولكن البيانات الموضوعية فقط التي عدت بها هي التي تجعلك أخصائيًا في علم الإنسان (*1977: 4*).**

يبدأ السرد الإجرائي من هذا التناقض. وخلافًا للسرد الواقعي الحقيقي، فإنّه ينظر إلى النص الإثنوجرافي على أنّه تقرير لتجربة "فهم الآخر" (*1977: ix*)، الخاص بالنشوء والتطور المعرفي للباحث: تمثيل عملية البحث في منتج تلك العملية ذاتها. والاستعارة الأساسية هي استعارة المعرفة على أنّها رحلة: يكون الإثنوجرافي تائهًا تمامًا، لديه مجموعة من المعلومات (افتراضات نظرية مسبقة وتحيزات) ذات فائدة ضئيلة في فهم معاني الأحداث. وتُمكّن مشاركة الإثنوجرافي في الأفعال الروتينية اليومية المعتادة، ومحادثاته مع المشاركين، ومشاركته في لحظات السلوك الاجتماعي، وانخراطه في الأحداث التافهة العادية، "وتسكعه" حول الأحداث الذي قد يبدو غير مثمر من اكتشاف العالم الاجتماعي الذي ينغمس فيه ومن استيعاب معانيه ببطء ودون أن يعي ذلك. ويكون الهدف في نهاية عملية البحث هو تحقيق التطابق والتوافق بين وجهة نظر الإثنوجرافي ووجهة نظر المواطنين، بين حسابات الباحث والمبحوث (انظر ٢ - ٧).

ويكون التقرير والحساب مليئًا بالحكايات، والمفاجآت، والحوادث المؤسفة، والحالات العرضية، وانقلاب الأحوال الفجائي، والمحادثات النابضة بالحياة. وبينما يميز السرد الواقعي الوضع النموذجي والطبيعي، فإنّ السرد الإجرائي يميز الوضع غير العادي والاستثنائي. ويسعى السرد إلى غمس القارئ في قلب العالم الذي يصوره مباشرة؛ ويجعله يتصور أصوات وروائح وأذواق تلك الثقافة، وأن يشركه فيها بكل المعاني والأحاسيس. وعلى عكس السرد الواقعي، المرئي، والذي يُعتبر من نتاج ثقافات متعلمة أو "ثقافات الرؤية بالعين"، فإنّ السرد الإجرائي سرد سمعي، وينتسب أكثر للثقافات الشفهية، أو ثقافات "الأذن".

ويستخدم السرد الإجرائي، لكي تجعل الثقافة نابضة بالحياة، ولكي تثيرها في عقل القارئ. (الذي لا يعرف تلك الثقافة)، أدوات تشبه إلى حد كبير أدوات

النوع أو الأسلوب الأدبي. (من أجل الحصول على تفاصيل عن الإثنوجرافيا باعتبار أنها "نوع مطموس وغير واضح المعالم"، ادخل على الرابط: (***www.sagepub.co.uk/gobo***).

ويستفيد السرد الإجرائي من ضمير المتكلم المفرد. يتكلم المؤلف أحيانًا عن نفسه (بتهكم على الذات) أو عن عواطفه، أو أخطائه، أو عن الأشياء التي يفضلها، أو عن نقاط ضعفه، وهو يسعى لإقامة علاقة حميمة ومباشرة مع القارئ. ويستغني المؤلف عن اللهجة المنفصلة والمُطهرة الخاصة بالخبير كي يضع نفسه في نفس مستوى القارئ.

وتُبنى صحة وصدق نتائج الباحث ليس فقط على أوراق الاعتماد الأكاديمية عن الدلائل المباشرة، ولكن أيضًا على شرح وإثبات أنّ المواطنين تقبلوه وأدركوا كفاءته في فهم عالمهم (عند نقطة معينة من نقاط عملية البحث) ويُستشهد بوصف الباحث لدعوة وُجّهت إليه لحضور مراسم احتفال معين كان قد استُبعد عنه في وقت سابق، أو مشاركته في الحفاظ على سر أو مسائل شخصية لا يجوز البوح بها للآخرين على نجاح عملية جمع المعلومات، وهكذا فإنّ مفهوم الصدق تم استبداله بمفهوم الأصالة والصحة.

وأكثر أشكال السرد الإجرائي انتشارًا هي الحوار، والمذكرات، والاستبطان السوسيولوجي، والخطابات اللغوية المتضاربة في أي مجال لغوي.

في الحالة الأولى (الحوار) يكون النص تسلسلاً وتتابعًا من المحادثات بين الباحث والإخباري في الدراسة الميدانية. وهناك مثل يقدمه تُيامي ***Tuhami:*** صورة مغربي من تأليف كرابانزانو ***Crapanzano*** (***1980***) حول صانع بلاط عربي يروي قصة حياته باسم المتكلم المفرد ويجيب عن أسئلة مختصرة يقدمها له الأنثروبولوجي. وتشكل رواية تهامي كُلا مُجزءًا، بنهايات مفككة متعددة وتناقضات.

علاوة على ذلك، هي قصة، ليست عن ممثل لثقافة عربية مغربية، ولكن كليا عن شخص غير سوي وغير قادر على التأقلم مع بيئته ويعتقد أنّه ملبوس من أرواح ومتزوج من جنّية. وهذه أحجية أو لغز يطلب من القارئ تفسيره بفاعلية.

ويرفض كرابانزانو القدرة التفسيرية الكلية للباحث، ولأنّ الإثنوجرافيين أيضا يميلون لخلط ما يعتقدون أنّ السكان الوطنيين يفكرون في ما يشعرون به بالفعل. ويرجع هذا الخطأ للمحاولات التي يقوم بها المؤلفون لفرض سلطتهم على دقة نصوصهم. عندما يفشل الكاتب في التمييز بين وجهة نظره الخاصة ووجهة نظر الوطني، يتجه القراء لنسيان أنّ صوت المؤلف وحده هو الذي يسمعونه في النص، وبالتالي فهم يعتقدون أنّ النص ينقل لهم حقيقة موضوعية، ليس فيها تحيز أو تفسير يقدمه المؤلف.

دراسة حالة

الحوار

يتحدث كرابانزانو مع تهامي عن التوجهات الجنسية لأبناء المغرب:

ويشرح له تهامي أنّ الطريقة السليمة الوحيدة التي يجتمع الرجل بها جنسيا مع زوجته هي وضع الانبطاح أو الاستلقاء الغالب. ومن الممكن أخذ أوضاع أخرى في الجماع مع المومسات أو العاهرات. (وعلى عكس ما ذكره بعض الرجال المغربيين الذين طرحت أسئلة عليهم، أقر تهامي بالوضع الذي تكون المرأة فيه منفرجة الساقين أمام الرجل. وقال لي إنّ ذلك يسمى "المهبل فوق المئذنة"). وعندما سألته لماذا يمكن للرجل الجماع مع زوجته في وضع واحد فقط، أجاب: "لقد أعطانا الله زوجاتنا كما أعطانا شجرة أمام بيوتنا، وعلينا أن نرويها ونتركها

وحدها، وبعد ذلك تحمل الشجرة فاكهتها"، والنساء - حتى الزوجات منهن، كما صرّح لي - يتلذذن بالفعل من الجماع الجنسي.

- دائمًا يشعرن باللذة والمتعة. وتصبح عضلاتهن مسترخية للغاية لدرجة أنّك يمكنك أن تلقي بهنّ في المحيط دون أن يصرخن. كل نساء العالم لهنّ فكرة واحدة، وهي الجماع مع الرجال. وفي عهد الرسول، كان باستطاعة الرجل الجماع أربعين مرة مع زوجته كل ليلة (١٩٨٠: ١١٠).

- ولا يمكن أن يعرف ما إذا كانت المرأة التي يجتمع بها جنسيًا سوف تحمل منه أم لا. والمرأة يمكنها أن تخبر بذلك لأنّها تشعر به. وهي تحس بالطفل يتحرك في أحشائها. إنّ معدة المرأة تشتعل قليلاً في الليلة التي يبدأ فيها حملها. ويمكنها التأكد من ذلك بعد ثلاثة أيام فقط. وتجدها متعبة دائمًا. وتبدأ في كراهية زوجها بعد ذلك بشهر. وتغضب منه وتحاول خربشة وجهه. وتطلب أنواعًا خاصة من الغذاء: دجاج ولحم الضأن. وتنظر دائمًا لما أحضره زوجها من السوق. وتكف عن طلب أنواع خاصة من الطعام بعد ثلاثة أشهر. وهناك نساء يطلبن أشياء كثيرة ويرفضن كل شيء. وتنظر بعض النساء للقرود والخنازير وهنّ حوامل؛ وبعد ذلك يجدن أنّ أطفالهنّ يشبهن تلك الحيوانات - وجوههم فقط.

- كيف يتكون الطفل؟

- يكون الطفل الذكر ناحية اليمين دائمًا. وتكون البنات ناحية الشمال دائمًا. والبنت ترى كل شيء وهي في رحم أمّها. وتشاهد أباها وهو يجتمع جنسيا بأمها. أمّا الولد فلا يرى شيئًا. ويرقد على جنبه في الوقت الذي يجتمع فيه أبوه مع أمّه جنسيًا. يكون الولد بهذا قد تعلم أن يكون مؤدبا في الوقت الذي يولد فيه... أما البنت فهي فضولية محبة للاستطلاع دائما.

- من أين يأتي الطفل؟

- عندما يجتمع الرجل والمرأة جنسيا، يخرج سائل من الرجل ويدخل المرأة. وينشأ الطفل وينمو من هذا السائل. الله خلق هذا السائل. وعندما يدخل السائل رحم المرأة، ترعاه الملائكة، ويمدون في طوله قليلاً كل شهر. ثم يأمرهم الله بمغادرة المكان. والطفل يشبه البذرة. وتنتفخ البذرة. ويمكنك عندها أن تقول: لقد تم زرع البذرة، الطفل، في الأرض.

- ما الذي تسهم به المرأة؟

- هناك جيب يتمدد فيها.

- هل تعطي المرأة أي شيء للطفل؟

الطفل يكون هناك بالفعل في سائل الرجل، ولكن ليس على هيئة طفل. وفي ليلة تكون المرأة فيها مثارة أكثر من العادة، يمكنك أن تتأكد أنّها سوف تحمل طفلاً. ولقد أنعم الله عليهما بطفل لأنّ الملائكة الموجودين على جانبيهما يبلغان الله بأنّهما كانا طيبين وجيدين. وتأخذ الملائكة شيئًا قليلاً مما أكلته الأم وتعطيه للطفل (*1980: 111 – 112*).

والشكل الثاني الذي يتخذه السرد الإجرائي بشكل نموذجي هو المذكرات. وهناك مثال لذلك في علم الاجتماع وهو "الصحبة الطيبة" (*1982*) من تأليف الأمريكي دوجلاس هاربر ***Douglas Harper***، وهو إثنوجرافيا أُجريت وسط صعاليك السكك الحديدية في ولاية واشنطون. في علم الإنسان، هناك مثال كلاسيكي موجود حتى الآن وهو: تأملات في العمل الميداني في موسكو (*1977*) من تأليف رابيناو ***Rabinow***. والكتاب يتكون كلية من مذكرات يدون المؤلف فيها تجاربه كغريب استهل عمله بمعرفته بالعالم العربي المغربي: لقاءات، واتصالات،

وتبادلات، ووقائع (تبدو غير مهمة)، و"التسكع في مقاهي شرب الشاي" (*1977: 42*)، وتجارب من كل نوع. ويدعو شكل المذكرات القارئ للسفر جنبًا إلى جنب مع المؤلف في انعطافه "المعرفي" في دخوله المجهول والخروج بمعرفة جديدة وغير متوقعة. وتجعل المذكرات القارئ يشارك، صفحة وراء الأخرى، وحدثًا بعد حدث، وواقعة بعد واقعة، في هذه العملية لفهم الثقافة المضيفة.

دراسة حالة

المذكرة اليومية (المفكرة)

في عامي ١٩٦٨ و١٩٦٩ أجرى بول رينبو ***Paul Rainbow*** عملاً ميدانيًا في المغرب. وعمل تحت توجيه مستشاره كليفورد جيرتز. وبعد ذلك بخمس سنوات، أعاد هيكلة وبناء التجربة:

كان دريس بن محمد، وهو شاب مرح، وبدين، وهادئ ومتمهل، قد رفض بإصرار أن يعمل كإخباري في الدراسات الميدانية. وبمرور الوقت، وتعمق صداقتي به، كنت أتعلم أكثر وأكثر منه... وكنا نقضي كثيرًا من الساعات الدافئة معًا... وكان لنا عرضنا سلسلة متعرجة من المحادثات. ومع أننا تحدثنا في أشياء كثيرة، ربما كانت أهم مجموعة مناقشات دارت بيننا حول علاقاتنا مع تقاليدنا المنفصلة. وكان من المستحيل تقريبًا أن تجـري مثل تلك المحادثات مع ألو ***Alo*** أو مالك ***Malik*** (وهما إخباريان في الدراسات الميدانية) إلا بعد أن أوقعناهما في شرك شبكة عالمهم الوطني المحلي..

كانت العقيدة الأساسية للدين الإسلامي، بالنسبة لدريس بن محمد، هي أنَ كل المؤمنين سواسية أمام الله، برغم أنَ الكبرياء والفخر، والأنانية، والجيل تخفي هذه

الحقيقة وتشوش عليها. وقليل جدا جدا، من وجهة نظره، هم الذين يؤمنون بالفعل بالإسلام. ومعظمهم يتبع نظرة "ضيقة" فقط: فهم يعتقدون أنّهم إذا اتبعوا التعليمات الأساسية فقط، فهم بذلك يكونون مسلمين. بالنسبة لدريس انقلب التوتر في نظرة عالمه على هذين البديلين المغربيين، وكان مستقبل المغرب بعيدا كل البعد لأن يصبح مستقبلاً براقا... لم يستطع أهل المغرب تجاهل المغرب. وتطلب هذا التوجه استعارة، ودمج، وإزالة ممارسات معينة قديمة وجائرة، لكنّ ذلك لم يكن يعني مجرد تقليد الغرب؛ وأهم من كل شيء أنّ ذلك لم يتطلب ترك الدين الإسلامي.

وكان المفروض أن أتوقف عند هذه النقطة من التعميم مع معظم الإخباريين، ولكنّي كنت أشعر مع بن محمد أنّني يمكنني الاستمرار فيما هو أكثر من ذلك. لاحظت خلال إقامتي في المغرب أنّ اللون الأسود كانت له قيمته السلبية بعدة أشكال. وبأوسع المعاني نطاقا، كان اللون الأبيض عمومًا يعادل الخير، بينما كان اللون الأسود يعادل الشر. وكان مالك على وجه الخصوص يبدو مهتمًا باستمرار بالتمييز بين الألوان، وما يرمز إليه كل لون. بالنسبة لوجهة نظره، كان اللون الأسود شيئًا سيئًا، لونًا يليق بالكلاب. وكلما كان لونك أخف سوادا، كنت شخصًا أفضل، وأشرقت في عيني الله. وكان مالك يمزح في يوم ما حول قروي فقير. وقال إنّ الرجل كان فقيرًا جدا لدرجة أنّه كان مضطرًا للزواج من فتاة سوداء. وعندما كنت أُريه صورًا من أمريكا، كان دائمًا يقدم رأيًا خاصًا بقوله إنّه لم يكن يعرف ما إذا كان السود رجالاً أم نساء. وكان ينزعج ويضطرب كثيرًا عندما يكتشف أنّ أغنية من بين أغانيه المفضلة في الراديو كانت تؤديها جماعة سوداء. وبعد ذلك، كان يحرص على معرفة لون المغني قبل أن يقدم أي رأي حول الموسيقى... وكان واثقا جدا من نفسه... وكان القرآن هو مصدر السلطة العليا بالنسبة له *(1977: 142 - 6)*.

والنوع الثالث من السرد الإجرائي هو *الاستبطان السوسيولوجي*، ويأخذ أيضًا اسم *الإثنوجرافيا الذاتية* (انظر ٤ – ٤). وهو يعالج حياة الإثنوجرافي وتجاربه كمادة إثنوجرافية ينبغي تحليلها.

وإستراتيجية السرد الأخيرة هي *الخطابات اللغوية المتضاربة في أي مجال لغوي*. قدّم هذه الإستراتيجية الناقد الأدبي الروسي مايكل باتشتين **Michail Bachtin**، والاصطلاح هذا يعني أنّ الصوت يُعطى لكل أعضاء المجتمع أو الجالية، بما في ذلك المنشقون. والنص اللغوي المتضارب نص "متعدد الأصوات" من حيث إنّ صوت الباحث وتفسيره يكونان محاطين بأصوات وتفسيرات الإخباريين والمشاركين في البحث. وبالتالي فإنّ صوت الإثنوجرافي يندمج ويتحد مع أصوات الأعضاء، رغم أن تعدد الأصوات التي تتحدث في النص لا يشكك في سلطة المؤلف (الإثنوجرافي) الذي جعلهم يتحدثون.

دراسة حالة

الخطابات اللغوية المتضاربة في أي مجال لغوي

بين عامي ١٩٦٠ و١٩٦٩، درس عالم الإثنولوجيا الأمريكي دونالد إم. بهر **Donald M. Bahr** ثقافة البيما ***Pima***، وهم جماعة من الهنود الأمريكان يسكنون في منطقة هي الآن أريزمونا المركزية والجنوبية. (الولايات المتحدة الأمريكية) وسونورا ***Sonora*** (المكسيك) والاسم يعني "أهل النهر" الذين يرتبطون عن قرب بالتوهنو أوودهام ***Tohono O'odham*** (بمعنى "أهل الصحراء" وكان يُطلق عليهم من قبل باباجو ***Papago***). ويبدو أنّ اسم بيما مشتق من عبارة معناها "لا أعرف" وهي تُستخدم بشكل متكرر في مقابلاتهم الأولية مع الأوروبيين.

وكان موضوع بحث بهر هو الطب والدواء الوطني، و"نظرية البيما في المرض" على وجه الخصوص. ولتحقيق هذا الهدف، "قضى بهر سنة ونصف سنة وهو يطرح أسئلة على طبيب ساحر من باباجو بخصوص مرض شعبه" (*1974: 7*). وكانت نتيجة هذه التجربة كتابًا صدر بالتعاون بين طبيب هندي ساحر من باباجو يدعى (جوان جريجوريو *Juan Gregorio*)، ومترجم هندي من باباجو يدعى (ديفيد لوبيز *David Lopez* وهو ممن يتحدثون لغتين بطلاقة)، وأخصائي لغوي هندي من باباجو يدعى (ألبرت ألفاريز *Albert Alvarez*) ومفسر غير هندي (بهر). وكان من الممكن في سياق آخر ألا يصبح أول ثلاثة متعاونون مشاركين في تأليف الكتاب. كان يمكن أن يتم ذكرهم في صفحة الشكر والتقدير، ولكن في معظم الحالات كان يمكن ألا تظهر أسماؤهم على غلاف الكتاب. في الواقع، ينحصر دور الإخباري المواطن في كثير من دراسات علم الإنسان في ذكر الحالات، بينما تئول المهام المُصنفة تحت دور التأليف لأخصائي علم الإنسان. وأراد "بهر" قلب هذا الوضع (*1974: 7*). وبهذا أصبح الكتاب نصًا تعاونيًا لكل من اشترك في تأليفه مكانة متساوية. وكان أخصائي علم الإنسان مجرد واحد منهم وبالتالي فقد احتكاره المطلق لتفسيره. لذا أصبح الكتاب خطابًا لغويًا متضاربًا متعدد الأصوات.

ومع ذلك، وعلى عكس إثنوجرافيا ما بعد الحداثة، فهذا كتاب موضوعي وحقيقي تحقق هدفه المعرفي في فهم المرض في ثقافة البيما من خلال عمل تعاوني.

ولقد وُجه للسرد الإجرائي الكثير من النقد. يذكر "لاتور" (*1988*) أنّه في حرارة الاستبطان وسبر الغور، تضيع الرؤية لموضوع البحث. ويجادل جيرتيز (*1988*) ويؤكد أنّ وضع تجربة الإثنوجرافي الشخصية في قلب أهمية التحليل وسيلة

واختراع، بمعنى أنّ المشاركين يدخلون قائمة الممثلين للعمل فقط بقدر ما لهم من تأثير على الملاحظ. علاوة على ذلك، فإنّ الممارسة تنغمس في حالة من الرضا الذاتي الزائد عن الحد والإعجاب بالنص، والنرجسية (*Marcos and Fischer, 1986*): يصبح الإثنوجرافي هو المركز بينما ينبغي أن يكون الحد الخارجي فقط. بمعنى آخر، تصبح "وجهة نظر الوطني" هي "وجهة نظر الإثنوجرافي". في هذا الصدد، كتب أخصائي الأنثروبولوجيا الأمريكي مارشال دي. ساهلينس *Marshal D. Sahlins* حوارًا هزليًا بين أخصائي علم الإنسان في ما بعد الحداثة وأحد الوطنيين، يطلب الوطنـــي فيـــه بأدب ويتـــوسل للأخصائي قائلاً، "ولكن ألا يمكننا أن نتكلم قليلاً عنّي أيضًا؟"

وأخيرًا، ولأنّ القراء لا يمكنهم مراجعة دقة تحليلات الباحث، فإنّهم يمكنهم فقط التعبير عن حكمهم الأدبي عن الطريقة التي تمكن بها المؤلف من جعل تجربته تجربة حيّة، ومهمة، ومثيرة ومُحفّزة.

١٥-٤-٥ السرد الانعكاسي

وللمرء أن يسأل: هل هناك طريقة بديلة لكتابة ما يؤدي لطريق وسط بين سيلا وكاريبيدس للسرد الواقعي والإجرائي، وأخذ أهم الجوانب في كل منهما؟ هذا سؤال من الصعب الإجابة عليه. ومع ذلك، فمن وجهة نظري الخاصة، فقد تمكن أخصائيون في علم الإنسان مثل كليفورد جيرتيس ومايكل روسالدو، وعلماء اجتماع مثل برونو لاتور وستيف وولجار، والإثنوميثودولوجيا بشكل عام من فعل ذلك وإيجاد الطريق الوسط وذلك من خلال تبنيهم لأسلوب سردي يمكن أن نسميه *انعكاسي*". والمقصود من هذا الأسلوب من جهة هو التأمل في الطبيعية البنائية بشكل جوهري لمنهجية البحث أو الميثودولوجيا وللطرق المُستخدمة؛ ومن جهة

أخرى، عرض الظروف التي قدّمت فيها التحليلات (Latour and Woolgar, 1979) – خلف كواليس المعرفة "إذا جاز التعبير".

وتعني الصراحة التي تحدد ظروف عملية تقديم المعرفة أنّ "التقارير" حول الجوانب التالية لعملية البحث ينبغي أن يشملها النص. وينبغي أن تهتم بما يلي:

- **اهتمامات نظرية:** ما كان ينوي الباحث تدارسه وفحصه وبحثه؛ وما إذا كانت هذه الاهتمامات قد تغيرت خلال فترة إجراء البحث، وبسبب أي أحداث واعتبارات تغيرت هذه الاهتمامات وكيف تغيرت؛ والفرضيات والنظريات التي كانت ترشد الباحث (من أعلى لأسفل).
- **اهتمامات حقيقية أو واقعية:** لماذا اختار الباحث ذلك الموضوع بالتحديد، ما الاهتمامات والأهداف الملموسة والمشروطة التي حركته وحثته على الاهتمام بموضوع البحث هذا وليس بغيره؛ وماذا كانت نواياه العلمية الإضافية.
- **العلاقات المؤثرة الثقافية والأيديولوجية:** اتجاه الباحث الوجداني أو العاطفي للموضوع الذي يتم دراسته؛ والمشاكل الشخصية في التكيّف مع ميدان العمل. ومن الواضح أنّ هناك عنصراً خاصًا مهمًا في تفكير ومنطق الباحث غير ملائم أو ضروري أن يجعله واضحًا وصريحًا. ومع ذلك، فإنّ الكشف عن هذا العنصر بشكل ما يسمح للباحث بتصحيح ملاحظات معينة. على سبيل المثال، يمكننا أن نسأل بإنصاف وعقلانية ما إذا كانت حقيقة أنّ الباحث مدمن خمر أو تدخين (أو ما إذا لم يكن كذلك) قد أثرت في إجرائه لبحثه عن المشروبات الروحية وتعاطي المخدرات. وإذا كان الباحث من طائفة البروتستانت، كيف سيكون رد فعله لمواضيع بحث من مثل هذا النوع باعتباره ظواهر دينية معاصرة، أو سلوكًا وعادات جنسية أو نظما عقائدية؟ وكذلك الحال لعدد لا حصر له من مواضيع بحث أخرى.

المذكرات المثودولوجية: كيف توصل الباحث لإدراك إجابات، واقتراحات وتفاصيل معينة كأشياء منسجمة ومناسبة لاهتماماته؛ ولماذا يعتقد أنّ تفسيراته معقولة ومقنعة؛ وكيف قرر أنّ الأحداث التي اختارها كانت أحداثًا مهمة، وسوف تمكنه من قبول أو رفض فرضيات أو تفسيرات محددة.

المعرفة النظرية: نوع المادة المطبوعة التي يرجع الباحث لها لاستشارتها، والمناهج النظرية التي يتبناها، والفئات السوسيولوجية التي يستخدمها لترميز الأحداث وتصنيفها.

الوسائل الفنية: التقنيات المُستخدمة والمشاكل التي نشأت أثناء تطبيقها؛ والمواد الرئيسية المستخدمة، حتى يمكن لباحثين آخرين أن يكرروا التحليل.

الموارد والتقييدات: التي كانت تحدد مدى عمله في جمع المعلومات: والظروف التي تم فيها إجراء البحث، وكيف ساعدته أو أعاقته؛ وطلبات الدخول على المواقع أو الموافقة على التمويل أو رفضه؛ ردود فعل الزملاء، تشجيعهم أو تثبيطهم لهمته.

الاتصالات: الاتصالات العرضية، والمقابلات غير الرسمية، والمراسلات والمحادثات، والمكالمات التليفونية المهمة، والنصائح والنقد الموجه عقب نشر أول كتابة لنتائج البحث.

كلمة أو تعبير يُفهم المقصود منه من السياق السريع لتقرير البحث: إدراك خضوع صحة بيانات المرء للصدفة، واعتبار أنّ خطابات ومحادثات علماء الاجتماع تعتمد على السياق الذي يُقدمون فيه، أي الخطابات والمحادثات المرتبطة بالمناسبات والتي تخضع لنفس التقييدات التي تنطبق على محادثات المشاركين في البحث.

الاستبطان (التأمل الذاتي) مقابل المسئولية والمحاسبية

بينما يقدّم الراوي الإجرائي الاستبطان أو التأمل الذاتي في نصوصه، يقدم الراوي الانعكاسي المسئولية والمحاسبية بدلاً عن ذلك. ويتفق الراوي الإجرائي أنّه، ولأنّه من المستحيل وصف الحقائق الخارجية، ليس أمامه بديل آخر سوى أن يتحدث عن حقيقته "الداخلية"، بينما يجعل الراوي الانعكاسي أنّ مسئوليته هي التعبير عن وجهة نظر لا تكرر؛ وجهة نظر المشاركين في البحث فقط. وتشمل هذه الخطوة حاسة من الالتزام الأخلاقي.

١٥-٤-٦ النسخ والتدوين، والترجمة أو التحويل... والخداع

وهكذا فإنّ أخصائيي علم الإنسان ينقلون الانتباه للنص، ولكن من الواضح أنّهم ليسوا وحدهم الذين يفعلون ذلك. ويؤكد جيرتيز، وهو أحد أوائل الأنثروبولوجيا التفسيرية، بطريقة معبرة أنّ الحقيقة ليس لها "أسلوبها المميز الخاص بها"، (*1988: 151*). ومن هنا فإنّ عمل الإثنوجرافي، مثله مثل عمل أي باحث، يتكون مما يلاحظه في الميدان بطريقة واضحة ومفهومة لجمهوره. بمعنى آخر، أمام الراوي الإجرائي مهمة صعبة وهي نقل الثقافة والتقاليد التي يلاحظها (الهدف أو الرحيل) إلى ثقافة وتقاليد القارئ (أو الوصول). وباستخدام مصطلحات "نظرية شبكة الفاعل ***Actor-Network Theory*** (انظر ١٠ – ٥)، يضطر الإثنوجرافي لأداء عملية "نقل أو تحويل" تغير المعنى بشكل حتمي. إنّ كل عملية للتمثيل عملية "خلاقة" بشكل جوهري، بمعنى أنها تقدم شيئاً مختلفاً عن الثقافة والتقاليد التي تمت ملاحظتها في الأصل.. لذا فإنّها تقدّم "خداعا" (بشكل غير إرادي) من جانب الملاحظ.

١٥ – ٤ – ٧ نشاط وضع إطار للاستعارات، والمجاز المرسل والقياس

شهدت أواخـــر السبعينـــات تمشيًا مع موجة البلاغة وفن الخطابة الجديد، ما أُطلق عليه "التحول اللغوي"، وكان من بين أسلافه فيتجينشتاين ***Wittgenstein*** وفلسفــة التحليــل. ومـــع ذلك، فإنّ الفيلسوف الأمريكي ريتشارد رورتي ***Richard Rorty***، ومن بعده كثيرون من أصحاب النظريات المؤثرة في مجالات مختلفة، وهي – الفلسفة،[٢] وعلم الاقتصاد (***McCloskey, 1986***)، واللغويات (***Lakoff and Gohnson, 1980***)، والدراسات التنظيمية (***Morgan, 1986***)، والعلوم الاجتماعية عامة – هم الذين أظهروا أنّ اللغة تؤدي دورًا أساسيا في بناء الحقائق. والرأي القائل بأنّ اللغة "تشكل" الحقيقة يخالف الفطرة السليمة ومعظم التقاليد الفلسفية الغربية. وكان الرأي التقليدي هو أنّ الكلمات تلعب دور علامات وتسميات الحياة (انظر ٢ – ٢). ومع ذلك، فإنّ قوة اللغة، في العبارات المجازية البلاغية بتحديد أكثر، يمكن رؤيتها بسهولة أكثر في الخطابات والمحادثات التاريخية. على سبيل المثال، إنّ حقيقة أنّه في بدايات العقد الأول من القرن السابع عشر، وصف الطبيب الإنجليزي وليام هيرتلي ***William Hurtley*** القلب على أنه مضخة نتج عنها ثورة ميكانيكية آلية في عالم الطب. أو اصطلاح "طبقة اجتماعية" الذي استخدم لتعريف وتمييز جماعات من البشر (***Gobo, 1993; 1995***)، نقل فكرة هرمية منظمة وتكاد تكون عسكرية عن المجتمع. ومرة أخرى، في عام ١٩٨٨، أظهرت الكاتبة الأمريكية سوزان سونتاج ***Susan Sontag*** أنّ:

> **يمكن أن يُقال إنّ التفكير الطبي الحديث يبدأ عندما يصبح المجاز العسكري الشامل محددًا... لقد أوحت الاستعارات والمجازات العسكرية وصف وتعريف الباثولوجيا "علم الأمراض" الطبية. ويُعتبر المرض كأنّه غزو لكائنات حية غريبة، يتجاوب معها الجسم من خلال عملياته الحربية الخاصة به مثل تعبئة "وسائل دفاعه"**

المناعية، وأنّ الدواء "هجومي عدواني" كما يُطلق عليه في معظم طرق معالجة الأمراض بالمواد الكيميائية (*2001: 97*).

وهناك كلام كثير عن "المعارك" في الطب بين الكُريّات، و"حرب" على البكتيريا، و"أسلحة" "لهزيمة" الأمراض، وعن الفيروس الذي "يُهاجم"، وتُعتبر جميعها "أعداء" و"غزاة" و"تهديدات" و"أجسام مضادة" و"مراكز القيادة والسيطرة" "للنظام المناعي"، وما إلى ذلك.

التمرين ١٥ - ٢

صوّر عالم الأحياء السويدي كارولوس لينايس (*1778 – 1707*) مؤسس علم النبات الحديث، الطبيعة كنوع من اتحاد فيدرالي مُكون من ثلاثة عوالم مميزة (الحيوان، وعالم الخضراوات، وعالم المعادن). لماذا أطلق عليها مصطلح "ممالك" وليس "جمهوريات"؟ ولماذا وضع الله على رأس هذا الاتحاد الفيدرالي؟

وتظهر هذه الأمثلة ثلاثة أشياء على الأقل: أنّ المفاهيم العلمية كثيرًا ما تتأثر بالحقبة التاريخية التي يؤدي فيها العلماء أبحاثهم وأعمالهم؛ وأنّ التفكير والمنطق السليم له تأثير عظيم على العلم؛ وأنّ الاستعارات أو المجازات ليست مجرد أشكال للتعبير، أو التقديم بشكل أفضل أو نشر مفهوم معين. على العكس من ذلك، الاستعارات، مثلها مثل الكناية أو المجاز المرسل، والتجانس أو التشبيه الجزئي، أشياء ذات أهمية أكبر من ذلك بكثير: إنّها تبني شيئًا معرفيًا وأيديولوجيا، وهي تخلق طريقة لتصور ورؤية الشيء ذاته (من أجل بعض دراسات للحالات حول استخدام الاستعارات في دراسات المؤسسات وتنظيمها، ادخل على الرابط: (*www.sagepub.co.uk/gobo*).

الاستعارات إذن ليست أدوات بلاغية محايدة. والأحرى أنّها تعكس رؤية محددة للعالم، أيديولوجية، يشارك فيها العلماء الذين يستخدمونها. علاوة على ذلك، فإنّ الاستعارات ليست مجرد أدوات سلبية تعكس الطريقة التي يفكر الناس بها؛ فهي أيضًا وقبل أي شيء أدوات إيجابية، لأنّها تقدم تلك الطريقة للتفكير باستمرار وتعيد تقديمها.

١٥-٤-٨ التحول الأدبي

طبقًا لما ذكره أتكينسون (*1990*)، فقد مهّد التحول اللغوي الطريق "لتحول أدبي" كان إيذانًا بتدشين أسلوب أدبي مختلف، وطريقة مختلفة لكتابة العلوم الاجتماعية باستخدام أشكال أدبية جديدة: المسرحية، والقصيدة الخماسية على النمط الأمريكي، والباروديا أي المحاكاة التهكمية الساخرة، والمثل أو الحكاية الرمزية، والحوار، والتمهيد المضاد، والمقدمة المضادة، وتحليل النص الموازي والهدف الموازي، وملصقات السرد، والمحاضرة، والموسوعة، والامتحان، والتقرير الصحفي. وبالإضافة لكل هذه الأشياء، فقد تم استخدام عرضي لمثل تلك الأدوات ذات المرجع الذاتي مثل الصورة الفوتوغرافية ذات الاجتياح الذاتي، والمذكرات ذاتية المرجعية وأنشوطات غريبة (انظر: *Ashmore, 1989: 66*) حول المؤلفين الذين استخدموا هذه الأدوات). ومع ذلك، فهذه الأشكال الأدبية الجديدة ليست أكثر من محاولات لعمل إطار للانعكاسية فيما يخص المعالجة البارعة – تحليل بنية النص. ولذا فإنّها تبدو أحيانًا سخيفة ونرجسية إلى حد ما، وليست لها فائدة دائمًا للأسلوب الانعكاسي. علاوة على ذلك، لقد نسوا أيضًا أنّ هناك تقييدات مؤسسية على الشكل الذي يمكن أن يأخذه النص كي يقبله المجتمع العلمي.

١٥-٤-٩ نصائح للمسئولية والمحاسبية، حيل للخروج من مأزق الكتابة

يبدو أنّ أولئك الذين يقترحون الأشكال الأدبية التي قدمناها لتونا ينسون أحيانًا السبب الأصلي للاهتمام بالأشكال البلاغية لبناء النص: اكتشاف أنّ الكتابة

العلمية مجمع لإستراتيجيات ذات ترميز عال ومُحددة بشكل مؤسسي. ونتيجة لذلك، لا يجرؤ أي مؤلف، اللهم إلا لو كان شهيرًا، وله سمعة ذات أساس متين، ألاّ يطبقها ويخالف الاصطلاحات التقليدية بشكل استفزازي. لكن الطالب، أو الباحث الصغير، لا يمكنه عدم مراعاتها دون أن يخاطر بأن يُنبذ أكاديميًا. لذا فالمشكلة *العملية* هي كيف تحدث توازنًا بين المتطلبات المؤسسية والانعكاسية، كيف نمتثل ونستجيب لهذه الممارسات التقليدية في الوقت الذي نتحايل عليها وندور حولها بكياسة أيضًا.

دعنا نر بعض الإستراتيجيات العملية البديلة، أو "تكتيكات الكتابة" .(*Fischer, 1986: 707, 232 and 233*)

أولاً: يمكن للمرء أن يتبنى *أسلوب ما بعد البلاغة*. وهو أسلوب يهدف إلى إقناع القارئ بدرجة أقل من تقديم مواد تشركه في العملية الخلاقة واستنباط أو استخراج فرضيات مختلفة عن فرضيات المؤلف. ووفرة المواد تكون أمرًا جوهريًا لهذا الغرض، وكذلك كثرة التفاصيل الخاصة بالشعائر، ووصفها بدقة (انظر ١٠ – ٣).

ثانيًا: يمكن أن يحد الأسلوب التفسيري من الأشكال غير الشخصية للتعبير التي تُستخدم لنقل فكرة "الموضوعية" مثل ("يستنتج المرء أنّ"، "ومن الجدير بالملاحظة أنّ"، "ويُستنتج من ذلك أنّ")، ومن استعارات بصرية مثيرة للصور الذهنية، مثل، "من الواضح أنّ"، "ومن الأمور الجلية أنّ". ومن الواضح أنّ المذكرة التمهيدية ينبغي أن تشرح لماذا سيتم استخدام لغة غير ظاهرية أو مزعومة في النص؛ لأنّه إن لم يحدث ذلك، فقد يعتقد القارئ أنّ الكاتب تنقصه الثقة في استنتاجاته، وبالمثل فقد يكون من المفيد الحد من استخدام الأفعال المتعلقة بالصيغة الدلالية "التي تدل على شيء"، حيث إنّ ذلك ينقل إحساسًا من الثقة واليقين بأنّه يجري استخدام استنتاج استدلالي لا يقبل الجدل.

وبقدر الإمكان، يمكن استبدال الشكل غير الشخصي بصيغة *المتكلم المفرد أو الجمع* (ولكن في الحالة الأخيرة "صيغة المتكلم الجمع" فقط عندما يكون هناك

أكثر من كاتب واحد بالفعل، لأنّ أداة البلاغة "نحن" - التي كثيرًا ما يستخدمها رجال السياسة - تمكّن الباحث من تحويل اعتقاده ورأيه الشخصي إلى توكيد جماعي). وعندما يكتب الباحثون "أنا" أو "نحن" فإنهم يعلنون أنّ التفسيرات التي يقدمونها تفسيرات شخصية: فهي ليست التفسيرات الوحيدة الممكنة، ولا هي القراءات الصحيحة الوحيدة للبيانات والمعلومات. وكما يقترح أخصائي الأنثروبولوجيا الأمريكي هاري إف. وولكوت ***Harry F. Wolcott***:

> **اكتب بصيغة المتكلم المفرد، إلا إذا منعك محرر متجهم الوجه أو لجنة من لجان الرسائل العلمية منعًا باتًا من ذلك. ضع نفسك في المشهد تمامًا، لكن لا تأخذ مكانًا في الصدارة. إنّ العالم لا يحتاج جملاً أكثر من النوع الذي يبدأ بـ "يبدو لهذا الكاتب أنّ..." أو "وما يُقال هنا"... حاول أن تتجنب الإسهاب والإطناب، والتركيبات السلبية أو الملتوية، والكلمات الطويلة والعبارات الطنانة الرنانة (*1990: 47*).**

ويمكن أن يصاحب استخدام صيغة المتكلم المفرد أفعال تكشف عن وجود مؤلف خلف النص (*Geertz, 1998*). ومن أجل هذا الغرض، ولتجنب تقديم رواية أو سرد واقعي، يمكن أن تسبق بشكل مفيد توكيدات الباحثين تعبيرات مثل، "نحن نؤمن أنّ"، و"وبدا لنا أن"، "نحن نعتقد أنّ".

علاوة على ذلك، يمكن أن تحل أشكال شرطية تنقل للقارئ أنّ عبارات الإثنوجرافي مشكوك فيها، وقابلة للجدال، وتجريبية مؤقتة محل الأفعال المتعلقة بالصيغة الدلالية. أو إذا كانت الأفعال الدلالية هذه مطلوبة، فيمكن استخدامها مع أفعال مثل، "يبدو"، أو "ربما"، أو "تشبه" بدلاً من "فعل الكون". هذا الفعل، الذي كثيرًا ما يحل بدلالة الألفاظ محل "يوجد" يمكن أن يوضع قبله أحد الأفعال الناقصة المساعدة مثل، "يمكن" و"يجب"، وهي أفعال تخفف وتضعف من الإحساس بالحقيقة المطلقة.

أمّا الظرف المعبر عن التأكيد مثل ("في الحقيقة" و"طبيعي أنّ" و"بالضبط" و"بالتأكيد" و"بلا شك" و"بالتحديد" و"نهائيًا" و"تمامًا" و"مطلقًا" و"بشكل قاطع") فيمكن استبداله بظرف يعطي معنى الشك مثل ("ربما" و"يحتمل" و"بصورة عامة" و"تقريبًا" و"من المفترض")، ويمكن استخدام المصطلحات المؤكدة للمعنى، مثل ("الحقيقة" و"يكتشف" و"يظهر" و"يفيد أنّ" و"يكشف أنّ" و"يشرح" و"يثبت أنّ" و"البرهان" و"الحقيقة" و"نحن نسلّم أنّ") بتقتير شديد، وبحذر كبير أو تستبدل بعبارات مثل "يوثق" و"أحداث "وظواهر" و"معلومات" و"نتيجة" و"يفسر".

وينبغي على المرء تجنب استخدام "استنتاجات" صريحة لأنّ البحث، من وجهة النظر المعرفية، لا "يستنتج" أو "يتوصل إلى قرار"، لكنّه فقط يتوقف استمرار العمل فيه.

وطبقًا لكـــل المظاهر، فهذه الأشكال الأدبية حيل ليست خطيرة أو مهمة ولا تؤثر في مادة النص. وبدلاً من ذلك، وبتغيير وتعديل المفردات اللغوية، فإنّها ترشدنا في الانتقال والتحول من اللغة التوكيدية إلى أسلوب تجريبي أكثر سهولة.

وأخيرًا: إذا قدّمت مقالتك لمجلة أو جريدة تُنشر في الكومنولث، فلا ينبغي أن تستشهد قائمة المراجع والمسارد النقدية بنصوص تكون قد ظهرت بلغة غير اللغة الإنجليزية، لأنّ هذا سوف يكشف أنّك ربما لا تنتمي لإحدى دول الكومنولث. في الحقيقة، لا ينوّه غالبية علماء الاجتماع في تلك البلاد إلا نادرًا بما يُنشر من مطبوعات غير مكتوبة باللغة الإنجليزية. وبالتالي فإنّ تصرفك سيجعل المراجعة العمياء "مرئية" أكثر. افعل ذلك فيما بعد، عندما تكون مقالتك قد تمت الموافقة عليها.

التمرين ١٥-٣

انظر للمقتطفات في التمرين ٣ - ٨ من بيكر، وجوفمان وسادناو. ضع ما يلي في الاعتبار:

- الطرق التي يُوثق المؤلفون الثلاثة بياناتهم بها. ما الإستراتيجيات البلاغية التي يستخدمونها.
- كيف يقيمون قوة ووزن النص الإثنوجرافي؟
- كيف يقيمون معقوليته وجدارته بالتصديق؟
- ما المعلومات التي يقدمونها حول الظروف التي ظهرت فيها النتائج؟
- ما الإستراتيجيات التي يستخدمونها لإقناع القارئ؟
- ما درجة تفصيل ودقة رواياتهم؟
- ما الهدف الذي يُفترض أن يخدمه النص؟

١٥-٥ ملاحظات ختامية

مع أننا نعيش في عصر عدم وضوح الأساليب الأدبية، فإنّ النص العلمي ليس رواية أدبية. وهو ليس كذلك لأسباب كثيرة تناولناها في هذا الباب. ولكن فيما يخص معظم الأساليب البنائية فقط، ينبغي الوضع في الاعتبار أنّ دور النشر التي تتاجر في الروايات الأدبية لا تنشر في العادة نصوصًا علمية. ومع ذلك فيمكن أن يكون لقراءة الروايات عون هائل في كتابة النصوص العلمية، كما يقترح سيلفرمان:

أنت لست في حاجة للاستمتاع بقراء روايات أدبية من هذا النوع لإجراء البحوث الإثنوجرافية، وإن كان ذلك يساعد كثيرًا بالتأكيد. على أقل تقدير، سوف تحتاج في نهاية المطاف لتقدير قيمة (وجمال) التفاصيل الحياتية العادية الدقيقة للوجود. (*Silverman, 2007: 11*).

كثيرًا ما تصادفنا كتب ومقالات مكتوبة بنثر ملتو ولا يمكن الخوض في أغواره؛ أو تُبسط فيها الفرضيات والنظريات وتُفسر بشكل هزيل، أو يكون المنطق والحجة والتفسير فيها معقدًا وملفوفًا. وفي المقابل، فإنّ أولئك الذين قرأوا لمؤلفين واسعي الانتشار ومفضلين لدى الجميع من أمثال إرنست هيمنجواي، وجراهام جرين، وأيان ماكيوان، وبول أوستر، ووينفريد جي. سيبالد، يمكنهم أن يكتبوا نصوصًا جيدة البناء، وواضحة ومقنعة. لذا فعليك بالقراءة... عليك بالقراءة، عليك بالقراءة.

النقاط الرئيسية

- إذا كان لنتائج البحث أن تصل لجمهور عريض، فلابد لها من أن تأخذ شكل النص المكتوب.
- يجب أن يتعامل علماء الاجتماع باستمرار مع نوعين من الجماهير على الأقل: زملائهم والقراء الذين يفهمون المشاركين في الأبحاث ويتعاطفون معهم.
- يُستحسن البدء في الكتابة بشكل فوري، دون الانتظار حتى يكون البحث قد أوشك على النهاية. الكتابة تساعدك على التفكير؛ وهي تدربك على التواصل مع جماهير المستقبل؛ وترغمك على تحليل البيانات باستمرار وبشكل متكرر.
- هناك ثلاثة أنواع رئيسية على الأقل للسرد: الواقعي، والإجرائي، والانعكاسي.
- أكثر أشكال السرد الإجرائي انتشارًا هي الحوار، وكتابة المذكرات، والاستبطان السوسيولوجي، والخطابات اللغوية المتضاربة في أي مجال لغوي.
- المؤلف الإجرائي يقدم الاستبطان في نصوصه؛ أمّا المؤلف الانعكاسي فيقدم نص المسئولية والمحاسبية.
- أي محاولة لوصف ثقافة ما بالقوائم التفسيرية للإثنوجرافي خيانة دائمًا. ورغم ذلك فهي خيانة لازمة لأنّ الحقيقة ليس ليا لغة خاصة بها.

- تستخدم أشكال السرد الجديدة (إجرائية كانت أم سردية) روايات قصصية أدبية وأدوات وأساليب بلاغية.
- الأساليب المبتكرة، وأنواع القياس، والكنايات هي أقوى الأساليب لنقل النظريات والمناهج الجديدة.
- إذا كنت تريد أن تكتب بطريقة فعالة ومفهومة، فإنّ قراءة الأدب القصصي تكون لها فائدة كبيرة بالتأكيد.

المصطلحات الأساسية

القياس: (التشابه الجزئي) صورة بلاغية تقدم تشابهًا بين شيئين أو حقيقتَيْن متباينتين غير متشابهتين. ويحل هذا الإجراء المعرفي محل المقارنة (باستخدام: مثل) مع ذكر التماثل أو التجانس (مع عدم استخدام: مثل). على سبيل المثال: بدلاً من أن نقول: إنّ "مرض الإيدز يشبه وباء الطاعون"، نقول "الإيدز وباء". لاحظ أنّ هذين التعبيرين اللذين يتشابهان ظاهريًا لهما تأثيران مختلفان. في المثال الأول نكون مازلنا نتخيل شيئين مختلفين عن بعضهما (الإيدز ووباء الطاعون) أمّا في المثال الثاني فإننا يخطر على بالنا شيء واحد (وهو الإيدز).

التحول اللغوي: الرأي القائل بأنّ اللغة "تُشكّل" الحقيقة.

التحول الأدبي: مجيء أشكال أدبية تجريبية جديدة تشمل: النصوص، والمسرحية، والليمريكية (قصيدة خماسية فكاهية)، والبارلاوديا (المحاكاة التهكمية الساخرة)، والمثل أو الحكاية الرمزية، والحوار، وما إلى ذلك.

ثقافة التعلم: ثقافة تكون للكتابة والطباعة فيها أهمية قصوى.

الاستعارة: إبدال اصطلاح باصطلاح أخر رمزي أو مجازي متبعا تغييرا للصورة.

ونحن كثيرا ما نستخدم تعبيرات في لغتنا اليومية المعتادة، مثل "التهمت الكتاب" (كما لو كنت قد أكلته). ويمكننا بالطبع أن نقول "لقد قرأت الكتاب باهتمام بالغ"، لكن الاستعارات يسهل استخدامها أكثر، فضلاً عن أنها مُعبّرة أكثر.

الكناية: "المجاز المرسل" صورة بلاغية تتكون من قلب أدوار المرجعيات، على سبيل المثال، استخدام اسم الوعاء عوضا عما يحتويه الوعاء، (شربت زجاجة) أو المادة بدلاً من الشيء (رفع الحديد) بمعنى: رفع الأثقال، أو مكان إنتاج أو أصل الشيء المنتج، "زجاجة شنتي ***Chianti***" (زجاجة خمر أحمر بدأت صناعته في هذه البلدة الإيطالية)، أو ذكر الشيء التجريدي بدلاً من الشيء الواقعي الملموس "يراوغ المراقبة"، أو ماركة السلعة بدلاً من محتواها، "أشرب موسوعة جينيس" (اسم نوع من البيرة)، أو اسم المؤلف عوضا عن إنتاجه "قرأت كانت ***Kant***" (فيلسوف ألماني).

القارئ النموذجي: ليس القارئ الفعلي الحقيقي "بلحمه ودمه" ولكن نوع القارئ، دور تجريدي. قارئ أو جمهور خيالي يتولى الإثنوجرافي اختيار أساليب محددة بشأنه بغرض التواصل معه بشكل فعال.

البلاغة الجديدة: دراسة تقنيات الاستطراد التي تهدف إلى إثارة العقول أو موالاتها للأطروحات أو الفرضيات التي تُطرح عليها.

الثقافة الشفهية: الثقافة التي سبقت معرفة القراءة والكتابة.

توصية بقراءة

بالنسبة للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد:

Silverman, David (2006)

بالنسبة للخريجين:

(Czarniawska, Barbara (2004

بالنسبة للمتميزين ممن يجرون البحوث:

(Denzin, Norman (2007

اختبار تقييم ذاتي

هل أنت مستعد للباب التالي؟ راجع معلوماتك بالإجابة عن الأسئلة التالية ذات النهايات المفتوحة:

١. لماذا يجب علينا أن نكتب؟

٢. ما المقصود بتعبير "الثقافات الورقية "؟

٣. قال عالم الاجتماع الفرنسي إدجار مارين ***Edgar Marin*** مؤخرًا إنّ تقديم السيميائية أو علم العلامات في المدارس كان له تأثيرات مشنومة: إنّ الطحن الناتج عن تفكيك النصوص، أو تشريحها للكشف عن أدوات الأسلوب والبلاغة جعل الطلبة تفقد الاهتمام بالقراءة ومتعتها. ما رأيك، هل حدث لك هذا من قبل؟

٤. إذا كان عليك أن تكتب تقريرًا عن بحث، أي أشكال السرد الثلاثة (الواقعي، أو الإجرائي أو الانعكاسي) تختار؟ ولماذا تختاره؟

٥. يؤكد أولئك الذين ينقدون علم الإنسان في مرحلة ما بعد الاستعمار أنّه نزع "وجهة نظر الوطني" ووضع "وجهة نظر أخصائي علم الإنسان" مكانها. هل توافق على هذا؟ ولماذا؟

---

٦. هناك من يؤكدون أنّ هناك فرقًا بسيطًا بين السرد الإجرائي والسرد الانعكاسي. ما رأيك في هذا؟

٧. ويؤكد آخرون أنّ الأسلوب الانعكاسي يفقد أرضيته. وأنّ الأسلوب الواقعي أكثر تأثيرًا وفاعلية بكثير، ولن يحل محله أي أسلوب آخر. ما رأيك؟

الهوامش

١. هناك صلة وثيقة في كثير من البلاد بين الأبحاث والتمويل. ونتيجة لذلك، يتم اختيار مواضيع الأبحاث ليس طبقًا لاهتمامات الباحثين بقدر ما هو طبقًا لإمكانية الحصول على منح ماليـــة، والضغوط التي تمارسها المؤسسات الحكومية، والطموحات الشرسة لبعض الباحثين، الـــذين يختارون لهذا الغرض مواضيع شاذة أو مألوفة يمكن أن تدعم وتزيد من شهرتهم بسرعة.

٢. وينتمي للتقاليد البنيوية (البنائية) وما بعد هذه التقاليد، من بين آخرين، الفيلـــسوف الأمريكـــي جوديث بتلر ***Gudith Butler***، والمحلل النفسي والفيلسوف الفرنسي لوس ايريجاراي ***Luce Irigaray***، والفيلسوفة البلغارية – الفرنسية والناقدة الأدبية جوليا كريستيفا ***Julia Kristeva***، والفيلسوف الفرنسي جاك ديريدا ***Jacques Derrida***.

الفصل السادس عشر

ترك الميدان

الأهداف التعليمية

- فهم الوقت الذي يحين فيه ترك ميدان العمل.
- إدراك أهمية تصميم إستراتيجية خروج فعال من الميدان.
- معرفة المصاعب الرئيسية لفك الارتباط.
- تعلم كيف يستأذن المرء ليغادر المشاركين.
- اكتساب معرفة طرق البقاء على الاتصال المستمر.

١٦-١ مقدمة

إنّ أحد أكثر المشاكل المُهملة في مجموع ما كُتب عن الإثنوجرافيا هو كيفية ترك ميدان العمل. عندما ننخرط في تفاعل ما، فهناك طقوس وإستراتيجيات نبدأ بها هذا التفاعل، وأخرى نحافظ بها على استمراره، ثم طقوس أخرى لاختتامه. على سبيل المثال، لقد درس محللو المحادثات مثل هذه الإستراتيجيات دراسة وافية في تفاعلات التليفون. وعلى النقيض من ذلك، فإنّ مجموع ما كُتب عن الإثنوجرافيا يتضمن قدرا هائلاً من المناقشة حول كيفية دخول الميدان والعيش فيه، لكنه يقول القليل جدا عن عملية فك الارتباط.

١٦-٢ خذ النقود واجر (اخطف واجري)

هذا الإهمال أمر مشبوه ومشكوك فيه. وربما يرجع هذا للعقلية السلبية الجشعة التي لا تزال سائدة بين الإثنوجرافيين والباحثين الاجتماعيين بشكل عام. إنهم يهتمون اهتمامًا بالغًا بطريقة جمع البيانات والمعلومات، ولكنهم بمجرد أن يملأوا حقائبهم بها، تجدهم يفرون هربًا بغنيمتهم، حريصين على ألا يراهم أحد مرة أخرى أبدًا.

ومع أنّ اتجاه "اخطف واجري" يكون أكثر شيوعًا عند استخدام منهجيات بحث معينة مثل طريقة المسح، وطريقة المقابلة التفاعلية، فإن الإثنوجرافيين غير معفيين أو مستثنين من النقد. القليل النادر منهم فقط هم الذين يفكرون في أفضل الطرق لترك الميدان؛ مع مراعاة مشاعر المشاركين، والحفاظ على العلاقات معهم بعد انتهاء إجراء البحث. والسائد بدلاً من ذلك هو الاتجاه "الاستعماري" الذي يستغل الإخباري في البحث وكأنّه منجم (معلومات) والمشاركين وكأنّهم أشجار فواكه.

ويمكن أن يكون لهذا الاتجاه عواقب ضارة لأنّه قد "يؤثر بقوة في جهود الباحثين والمحققين المستقبليين في نفس المواقع أو المواقع المشابهة لها" (*Gallmeier , 1983*). كما أنّ هذا يثير مشكلة "التراث الإيكولوجي أو البيئي" (انظر ٨ – ٩): بمعنى واجب الإثنوجرافي الأخلاقي ألا "يحرق" "الميدان" أمام الأبحاث التالية.

والخبر السار هو أنّ هذا الاتجاه يتغير تدريجيًا، وأنّ هناك ازدهارًا في الدراسات التي تشد الانتباه لهذه القضية. وتستمد هذه الدراسات ما تقدمه من الأبحاث الموجهة لخدمة السياسات، والإثنوجرافيا النقدية (بحث نوعي يطبق نظرية نقدية) (انظر ٤ – ٢) والدراسات الخاصة بالمجتمعات الصغيرة والجاليات.

١٦-٣ متى تذهب: بين الواجب والمتعة

ما الوقت المناسب والصحيح لترك ميدان العمل؟ الإجابة سهلة للغاية بالنسبة لبعض منهجيات البحث، لكنّها أكثر تعقيدًا بالنسبة للإثنوجرافي. يترك باحثو المسح الميدان (بافتراض أنهم سبق أن دخلوه من قبل، مع التسليم بأنّ من يجرون المقابلات قاموا عادة بزيارة الميدان فقط) عندما يكونون قد جمعوا العدد الضروري من الاستفتاءات أو الاستبيانات. ونجد أنّ الباحثين الذين يتعاملون مع المقابلات التفاعلية يفعلون نفس الشيء تقريبًا (رغم أنّهم قد يعودون أحيانًا لإجراء مقابلات إضافية). ويختتم الباحثون القائمون بتجارب أبحاثهم عندما يكونون قد أنهوا تصميمات أبحاثهم. وأخيرًا، فإنّ الميزانية هي التي تحكم جدول أعمال الأبحاث. لكنّ كل شيء يصبح أكثر غموضًا، وأندر، وأكثر ذاتية في حالة البحث الإثنوجرافي. ومن أجل ذلك يكون السؤال "كيف أعرف أنّه قد آن الأوان لترك ميدان العمل" أي شيء سوى أن يكون سؤالاً عاديًا ومبتذلاً. في الحقيقة، مع أنّ الإجابة الواضحة هي، "عندما يتم جمع بيانات كافية لكي يسهل الرد بالقدر الكافي على أسئلة كانت موجودة من قبل، وأسئلة أخرى يمكن أن تظهر على السطح في المستقبل" (*Snow, 1980: 101*)، كما يُظهر سنو نفسه، فإن الأمور تختلف.

١٦-٣-١ متى يجب أن نذهب؟

يصبح تقرير موعد ترك الميدان سهلاً عندما... تتخذ الأحداث القرار نيابة عنّا. هناك أسباب متعددة يمكن أن تجبرنا على أن ننهي وجودنا في الميدان. أول مجموعة أسباب مجموعة تنظيمية: عندما تكون منحتنا قد انتهت، وتكون إجازة التفرغ قد انتهت. أو لم يعد لدينا وقت آخر متاح لنا، وعلينا أن نعود لواجباتنا التنظيمية (التدريس، النشر، تنسيق وتنظيم الأحداث... إلخ).

والمجموعة الثانية المحتملة من المسببات مجموعة شخصية متداخلة. "مثل صراع الدور بين دور الباحث ودور القرين أو أحد الوالدين": (*Snow, 1980: 107*). ولأنّ العمل الميداني يستهلك الكثير من الوقت، فقد تصبح عائلاتنا قد تعبت وملت لعدم رؤيتنا في عطلات نهاية الأسبوع، وفي الأمسيات أو العطلات الرسمية. والأسوأ من ذلك إذا كانوا قد تم "ترحيلهم" لبلد آخر، بعيدًا عن الأصدقاء ووسائل الراحة الموجودة في وطنهم وبيوتهم. بدعوى أن يكونوا قريبين منك أثناء شهور العمل الميداني.

وأخيرًا، فإنّ المجموعة الثالثة من الأسباب هي أسباب داخل الشخص نفسه، "مثل حالة الإرهاق العقلي والبدني المطلق". (*Snow, 1980: 107*). إنّه شيء مضجر وممل لعائلاتكم أن تُحرم من وجودكم معها، ويمكن أن يكون الوضع كذلك بالنسبة لك أنت أيضًا. علاوة على ذلك، أن تكون دائمًا "علي خشبة المسرح" (انظر ٧ – ٣) ويكون عليك أن تؤدي دور الباحث، فذلك أمر مرهق كلما طالت مدة العمل. والنتيجة هي أنّك، وعند نقطة معينة، تشعر بحاجة بدنية أن تنهي العمل في الميدان وتعود للأمور الروتينية العادية، ولو لفترة معينة على أقل تقدير.

وطبقًا لما يراه سنو، سواء كانت هذه:

> **القيود والضغوط الذرائعية الواقعية... تشكل الأسباب الرئيسية لفك الارتباط في معظم الدراسات الميدانية أمر صعب قوله. يتجه علماء الاجتماع أن يلتزموا الصمت بشكل واضح تجاه مثل هذه الأمور... (ومع ذلك)، فأنا أشك أن مثل تلك العوامل، أو أحدها نافذة المفعول... في معظم الدراسات.**

هذه المبادئ التوجيهية واضحة جدا، وبالتأكيد ينبغي أن يضعها المرء في الاعتبار عندما يقرر متى يترك الميدان، ومع ذلك، فإنّ الأبحاث لا تتمتع دائما بنعمة البساطة وخاصية النظم المرتبة والخطى المستقيمة. والنتيجة أنّ هذه المبادئ التوجيهية ليست سهلة التنفيذ في كل الأحوال. متى يمكننا أن نقول، بدرجة معقولة من الثقة واليقين، إنّ كل شيء أصبح الآن مألوفا أو تكراريًا، أو أنّ لدينا نظرية منهجية بين أيدينا؟ وأكثر من ذلك، أنّه في كثير من الأحيان، حتى في نهاية بحثنا، نستمر في اكتشاف بيانات متناقضة، أو أمثلة منحرفة مازلنا لا نستطيع تفسيرها بطريقة مُرضية. وهذا يجبر الإثنوجرافي على أن يظل فترة أطول عما كان ينبغي عليه أن يبقى لجمع بيانات جديدة، وبيانات أكثر بجانبها. ولقد أطلق جلاسر وستروس بجدارة على هذا الاتجاه مصطلح "علموية قهرية" (*1967: 227 - 8*) وهو يحث الإثنوجرافي أن يجمع بيانات أكثر بكثير مما يمكنه تحليلها في ذلك الوقت (انظر ١٢ – ٣). وبدلاً من ذلك، فحسب معلوماتي، فإنّ أفضل الباحثين هم أولئك الذين أجروا أبحاثًا قليلة فقط (أربعة أو خمسة) طوال حياتهم، أجروها بشكل جيد، ثم تولوا تحليل البيانات لمدة عدة سنوات بعد ذالك!

١٦–٤ كيفية ترك الميدان: إستراتيجيات الخروج

سواء كنّا قد قررنا ترك ميدان العمل بأنفسنا، أو ألزمتنا القيود والضغوط الذرائعية الواقعية على ذلك، فيجب علينا في كلتا الحالتين تصميم إستراتيجيات للانسحاب بكرامة وشرف مهنيين. ومع ذلك، فقد نواجه ونحن نفعل ذلك عقبات متعددة في سبيل فك الارتباط من جانبنا.

وربما كانت أولى تلك العقبات هي العلاقة الوثيقة بين الباحث الميداني وبين إخبارييه من الجنسين. وينطبق هذا الكلام أكثر على أخصائيي الأنثروبولوجيا، الذين كثيرًا ما ينغمسون كلية في الميدان وفي مجتمع القرى التي يجرون أبحاثهم فيها.

وإذا كان المشاركون متعاونين للغاية، وكان الإثنوجرافي قد كوّن علاقات قوية معهم (أو حتى قد توحد مع الجماعة كلها) فإن ذلك يستتبع ظهور عقبة أخرى تتمثل في إحساس بالمديونية أو الالتزام. وعلى وجه الخصوص، لو كان المشاركون يعانون من مصاعب أو مشاكل أو حرمان اجتماعي، فإنّ تركهم قد يبدو "خيانة"؛ أو ما هو أسوأ من ذلك، وهو "استغلال" لأشخاص تم استخدامهم، أو أسيء استخدامهم ببساطة، كحقل تجربة غريبة أو شاذة يرويها لزملائه في المهنة.

لكنّ الاستئذان بترك الميدان لا يكون بالتأكيد بالأحضان الدافئة وعبارات الوداع الحارة دائمًا، ففي بعض الأحيان، يشعر المشاركون بسرور بالغ برؤية ظهر الإثنوجرافي وهو يودع المكان، لاسيما إذا لم يكن قد اندمج معهم بشكل جيد، أو إذا كانوا قد وجدوا أنّ وجوده أصبح مملاً ومتعبًا.

على أي حال، تمامًا كما يهتم ممثل المسرح بتفاصيل خروجه من على خشبة المسرح في نهاية العرض، كذلك ينبغي على الإثنوجرافي أن يُعد بعناية إستراتيجية خروجه هو الآخر. والتقاليد لسوء الحظ لا تقدم عونًا كبيرًا في هذا المضمار، ويُستبعد جدًا أن يصبح من المتاح وجود منهج عملي لحل المشكلة.

وإذا كان الباحث قد كوّن علاقة إيجابية مع المشاركين والإخباريين، فإنّه يمكنه (قبل ذلك ببضعة أسابيع) أن يختار بعقلانية مواضيع معينة للخطاب والحديث معهم عن رحيله كي يُعدّهم لهذا الرحيل. وفي بعض الحالات يستطيع الباحث أن يساعد المشاركين على اختبار مشاعرهم حول رحيله وأن يسمح لهم بإظهارها، وذلك تمشيا مع مبدأ المعاملة بالمثل والتطابق والتناظر الذي ينبغي أن يتصدر عملية البحث بالكامل (انظر ٨ – ٦). ويمكن أن يكون من المفيد أن يعطي الباحث وعدا بتقديم تغذية راجعة، أو تشاورًا رقيقًا أو خفيفًا مع المشاركين حتى يمكنهم أن يستفيدوا هم أيضا من نتائج البحث. وهناك طريقة أخرى للاستئذان بترك الميدان

وهي أن يعدهم الباحث بأن يظل على اتصال بهم، وأن يستمر في علاقته بهم من على بعد.

وعندما يقول الباحث، "إلى اللقاء" يمكنه أيضًا أن يلخص ما حدث خلال فترة العمل الميداني، وأن يحدد النواحي الإيجابية لعلاقته مع المشاركين، أو أن يعبر عن مشاعره حول مفارقتهم. وإذا كان لدى الباحث إخباري واحد على وجه الخصوص، فيمكنه أن يعطيه بطاقته أو صورة فوتوغرافية له.

ولو قدّم الباحث أي وعود، على سبيل المثال بأنّه سيعود لزيارة المشاركين في البحث، أو أنّ البحث سوف يُستأنف في المستقبل، فينبغي عليه الوفاء بهذه الوعود، لأنّها يمكن أن يكون لها أهمية كبرى لمن يهمهم الأمر. وإذا لم يكن الباحث متأكدًا من الوفاء بوعوده، فينبغي ألا يعد بها، حتى تكون أي زيارة لهم في المستقبل مفاجأة سارة.

١٦-٥ حافظ على الاتصال المستمر

هناك طرق كثيرة للحفاظ على الاتصال المستمر، وهي طرق مشروطة بعوامل متعددة. في بعض الأحيان، تظل العلاقات مع المشاركين باقية خارج نطاق الضرورة العلمية، كما هو الحال في البحث الطولي. على سبيل المثال، أجرى كورسارو *Corsaro (1996)* إثنوجرافيا طولية مُقارنة لفهم انتقال الأطفال من دور الحضانة لمرحلة الدراسة الابتدائية. ومن هنا كان يعود من فترة لأخرى لدور الحضانة التي سبق له أن أجرى ملاحظته عليها حتى يمكنه أن يرى التغييرات في كل من الأطفال والمؤسسة التربوية ذاتها. وحصل جالمبير *Gallmeier (1983)*، الذي تابع مجموعة من لاعبي الهوكي في دوري الأشبال لمدة موسم واحد، على سجل "أو قاعدة بيانات"

بها عنوان أحد إخبارييه. وبهذه الطريقة تمكن من الاتصال باللاعبين ومعرفة كيف تطور مستقبل كل منهم، وما الأحداث الاجتماعية التي تدخلت فيه. واقترح الإخباري على جالميير أيضًا أن يشترك في "أخبار الهوكي" حتى يتمكن من الاطلاع المستمر على الأحداث في عالم الهوكي. واكتشف أنّ هذه النشرة في الشبكة الإعلامية هذه كانت تؤدي مهمة لها قيمتها الكبيرة.

والحفاظ على الاتصال أفضل إستراتيجية تمكن من العودة "لمسرح الجريمة".

١٦-٦ العودة للميدان: زيارة المواقع من جديد

العودة للأماكن الإثنوجرافية تجربة متناقضة تحمل وجهتي نظر. من جهة، فإن رؤية بيئة مألوفة لدى الإثنوجرافي شيء ممتع؛ ومن جهة أخرى، فإنّها قد تثير إحساسًا بالغربة وأنّ الإثنوجرافي أصبح دخيلاً على تلك المواقع. وتقدم تجربة أليساندرو ديورانتي مثلاً للإحساس بالغربة هذا. فقد حدث أن عاد من لوس أنجليس إلى قرية فاليفا ***Falefa*** (ساموا ***Samoa***) بعد مضي عشر سنوات على آخر عمل ميداني هناك بسبب حدث مأساوي: جنازة زوجة فاآتوأولوا مايالا ***Fa'at'oloau Mauala***، القس البروتستانتي للمجتمع هناك، والإخباري الأساسي لديورانتي. وعلى عكس ما كان يحدث في مناسبات سابقة، "لذلك كان قرار الرحيل في تلك المرة تمليه عواطف ومشاعر، وليس منطق البحث" (*2002: 166*). كان سكان القرية متأثرين للغاية بوجوده في الجنازة:

> **وعلق كل شخص هناك أنّ عودتي للجنازة كانت دليلاً حقيقيًا على شفقتي وأيضًا على أصالة التزامي "بعائلة ساموا" والطائفة الدينية... لقد كنت في أعينهم الغريب الذي لم يكتف بدراستهم فقط،**

لكنّه الآن قدّم دليلاً على رحمتـــه وشـــفقته واحترامـــه، كمـــا هـــو المطلوب في مثل هذا الحدث المتمثل فـــي جنـــازة زوجـــة راعـــي أبرشيتهم (*2002: 167 and 177*).

أمّا جالميير فقد عانى من تجربة الإحساس بالغربة. عندما عاد لزيارة فريق الهوكي في الموسم التالي، وجد بعض المشاركين "القدامى"، ولكنّه وجد أيضا العديد من الوجوه الجديدة، كما هو الحال دائما مع كل الفرق الرياضية، التـــي لابـــد وأن تعيد تجديد نفسها بشكل مستمر. ونتيجة لذلك شعر جالميير بالحيرة والارتباك، وأنّه منفصل عن الفريق، وغريب عنه مرة أخرى: "كنت أفتقد العلاقة التي بذلت الكثير من أجل تطويرها" (*1983: 405 - 6*).

لكنّ العودة للمواقع الإثنوجرافية الماضية تجربة لها، قبل كل شيء، مغزى وأهمية نظرية. وكما يؤكد ميتشيل بيـــوراوي ***Michael Burawoy***، فـــإنّ إعـــادة الزيارة هي الوسيلة الأساسية لتحرير الإثنوجرافيا "من الحاضر الأبدي":

إنّ الإثنوجرافيين السوسيولوجيين، وأصحاب النظرية المُوثّقة منهم على وجه الخصوص... كثيرًا ما يظلون محاصرين بمـــا هـــو معاصر، مشدودين إلي مواقعهم ومشمولين فيها، ومن هنا يجهدون فكرهم في طرح أسئلة حول التغير التاريخي، والعمليات الإجرائيـــة، والسياقات الأوسع، والتقاليد النظرية، إضـــافة لعلاقـــاتهم الخاصـــة بالأشخاص الذين يجرون عليهم دراساتهم (*2003 646*).

ويميّز بيوراوي بين إعادة الزيارة الإثنوجرافية وأشـــكال أخـــرى مماثلـــة، **بمعنى:**

إعادة التحليل الإثنوجرافي، الذي يتضمن استجواب أو استنطاق إثنوجرافيا موجودة بالفعل بدون أي ميدان عمل آخر... (التحديث الإثنوجرافي)، الذي يعيد الدراسة الإثنوجرافية للوقت الحاضر لكنّه لا يعيد إدخالها... أو (النسخ المتماثل)، (الذي) يختص بتقليل التدخل لأقصى حد من أجل السيطرة على أحوال البحث مع تقليل تنوع الحالات لضمان استمرارية النتائج (*2003: 646 – 7*).

دراسة حالة

إعادة الزيارة المُركزة

عاد بيوراوي (*1979*) لزيارة مصنع كان أخصائي التفاعلية للمؤسسة دونالد روي *Donald Roy*` قد أجرى دراسة عليه:

أجرى روي (*1952*)، أحد الإثنوجرافيين العظام في مدرسة شيكاغو دراسة على شركة جير *Geer Company* عامي ١٩٤٤ - ٤٥، وأجريت أنا دراسة على ذلك المصنع نفسه بعد ذلك بثلاثين عامًا، عامي ١٩٧٤ - ٧٥، بعدما كان قد أصبح قسم الآلات "للشركة المتحدة". وكما حدث لروي، تم تعييني هناك كمُشغّل آلات. بالنسبة لكلينا، كانت هذه الوظيفة مصدرًا للدخل إضافة لكونها ميدان عمل لدراسة الدكتوراه. واكتشفت في الحقيقة سلسلة من التغيرات الصغيرة، لكنها كنت تغييرات مهمة في المصنع. أولاً، تبددت العلاقة الاستبدادية بين الإدارة والعمال. واتسمت تلك العلاقة باختفاء "رجال الوقت والدراسة"، الذين كانوا يسجلون ساعات العمل بالساعة المخصصة لذلك للعمال عندما كانوا يديرون ظهورهم، سعيًا وراء أسعار القطعة التي كان يمكن أن تنكمش. وثانيًا، إذا كان التوتر الرأسي قد خفت

حدّته، فإنّ حدّة الصراعات الأفقية كانت قد اشتدت. وبدلاً من التواطؤ بين العاملين المساعدين الذين وصفهم روي، لاحظت عداوة وخصومة وتنافرًا. وكان سائقو الشاحنات، والمفتشون، وعمال مخزن قطع الغيار هم لعنة عمري ومصدر قلقي (*Buraway,2003 – 650 - 1*).

وطبقًا لما ذكره بيوراوي (*2003: 651 – 3*)، يمكن أن تُعزى التناقضات بين نتائج الإثنوجرافيين التي تم التوصل إليها في فترات تاريخية مختلفة لأربعة أنواع من الاختلافات، وهي اختلافات في:

(١) العلاقة بين الإثنوجرافي والمشاركين.

(٢) النظرية التي يقدمها الباحث لميدان العمل (استخدم روي التحسن في نظرية العلاقات البشرية، بينما كان بيوراوي ماركسيًا).

(٣) العمليات الإجرائية داخل نطاق موقع الميدان نفسه، كتغيرات مؤسساتية وإدارية.

(٤) القوى الخارجة عن مواقع الميدان، مثل امتصاص المصانع داخل قطاع الاحتكار والتحولات القومية العلمانية في العلاقات الصناعية.

من أجل هذه الأسباب لا يمكن مطلقًا اعتبار إعادة الزيارة الإثنوجرافية نسخة مطابقة.

وفي الختام، إنّ البحث الميداني طويل الأجل أو المرتبط بالزمن الذي يحدث أن يعيد فيه الإثنوجرافيون، الذين يعملون إمّا كأفراد أو كفريق عمل، زياراتهم للميدان بانتظام خلال سنوات كثيرة (أكثر من عشر سنوات على أقل تقدير) في محاولة لفهم التغيرات والاستمراريات التاريخية لا مفر له من تجنب التحليل المتزامن.

١٦-٧ ملاحظات ختامية

يمكن أن يكون ترك ميدان العمل أي شيء إلا أن يكون إجراء آليًا ليس له نواح منهجية مهمة. على العكس من ذلك، إنه عملية يجب أن تؤدى وتدار بعناية. خصوصًا لو كان القصد هو العودة لنفس الميدان مرة أخرى فيما بعد.

والعودة ليست رحلة بسيطة من خلال الشوق والحنين للماضي. فقد تكون أيضًا:

> **تجربة تعيد فتح الأفق التفسيري المحفور في الذاكرة وفي ما ننشره من أعمال، والذي يفجر أساس معرفتنا (لا يمكن تجنب الالتزام بملاحظة السلوك وتوثيقها أو اعتبارها أمرًا مفروغًا منه) مثل بعض الافتراضات المعرفية المسبقة والمتعلقة بعلم الوجود التي تدفع الأبحاث في العلوم الاجتماعية وتحركها (*Duranti, 2002: 17*).**

وبالتالي، فإنّ زيارة موقع إثنوجرافي مرة أخرى فرصة لإعادة تشكيل الفرضيات والنظريات باصطلاحات تاريخية أكثر، وأقل سرعة في الزوال.

النقاط الرئيسية

- لتجنب العقلية "الاستعمارية" للاستغلال البسيط للإخباريين والمشاركين، ينبغي على الإثنوجرافي أن يدرس بعناية الطريقة التي يترك بها ميدان العمل.
- إلى جانب القضايا الأخلاقية غير المتوقعة والمحتمل حدوثها، فإنّ ترك الميدان يأخذ على عاتقه مشكلة "التراث الإيكولوجي"(المتعلق بالبيئة): الواجب الأخلاقي بألا "يحرق" الميدان لأبحاث تالية يجريها زملاء باحثون آخرون.
- هناك منطقان (غالبًا ما يكونان مُكمّلين لبعضهما) يوجّهان إجراء فك الارتباط: أوليهما منطق نظري (أمر مفروغ منه ولا يمكن إنكاره، والتشبع، والثقة

الزائدة). والمنطق الآخر منطق براجماتي واقعي أكثر (مؤسسي، وخاص بالعلاقات بين الأشخاص، وقيود وضغوط داخل نفس الفرد وعقله).

- ولأنّ فك الارتباط لا يشكل مشكلة منهجية أو خلقية للبحث، لكنّه يشكل مشكلة وجدانية عاطفية أيضًا، يجب على العامل في الميدان أن يصمم إستراتيجيات خروج مناسبة من الميدان.
- وتكون هذه الإستراتيجيات مفيدة على وجه الخصوص لو كان الإثنوجرافي ينوي العودة للميدان مستقبلاً.
- مع أن زيارة المواقع من جديد ممارسة نادرة نسبيًا (لكنه أمر يحدث كثيرًا في مجال علم الإنسان)، فقد تكون الزيارة هذه حاسمة إذا كان للإثنوجرافيا أن تتحرر "من الحاضر الأبدي" حتى يمكن تأطير نتائجها داخل نطاق تغيرات تاريخية وسياقات أكبر حجمًا.

المصطلحات الأساسية

النزعة العلمية الملزمة: الشعور بانعدام أمن مفرط بخصوص اتساق بيانات المرء والنتائج التي يصل إليها. وهذا يحث الباحثين على البقاء فترة أطول عن المدة التي ينبغي عليهم قضاؤها في ميدان العمل، وعلى جمع بيانات أكثر بكثير مما يمكنهم القيام بتحليلها.

فك الارتباط: الطريقة التي يفك الإثنوجرافي من خلالها ارتباطه بالميدان، ويفك هذا الارتباط على وجه الخصوص من الإخباريين والمشاركين.

إستراتيجية الخروج: تقنية تفاعلية منهجية البحث لفك الارتباط.

إعادة زيارة المواقع: العودة لأماكن إثنوجرافيا سابقة.

التشبع: النقطة في عملية البحث التي لا يمكن عندها لأي بيانات جديدة أن تلقي أي ضوء آخر على معالم الفئة أو القائمة أو الجماعة أو الموقف الذي تتم دراسته. وعلامات التشبع هي الملاحظة المستمرة لما هو معروف من قبل بالفعل، والمذكرات الميدانية المتكررة.

توصية بقراءة

بالنسبة للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد:

Whyte, William F. (1993)

بالنسبة للخريجين:

Snow, David (1980)

بالنسبة للمتميزين ممن يجرون البحوث:

Burawoy, Michael (2003)

اختبار تقييم ذاتي

هل أنت مستعد للباب التالي؟ راجع معلوماتك بالإجابة عن الأسئلة التالية ذات النهايات المفتوحة:

١. ينقد بيوراوي الإثنوجرافيا الحديثة بأنّها لا تهتم بالعمليات التاريخية والاجتماعية التي تشكل المجال أو الميدان الذي تتم ملاحظته.

هل توافق؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا؟

٢. ما أكثر النواحي إحراجا وإرباكًا في عملية فك الارتباط؟

---

٣. ما القضايا الأخلاقية التي يتضمنها ترك الميدان؟

٤. لو كان عليك دخول الميدان مع أفراد أسرتك، أو مع أحد شركائك، ما الذي يفعله حينئذ لجعل مدة إجراء البحث أقل مللاً بالنسبة له، ووجوده أقل تـوترًا وإجهادًا لأعصابك؟

الفصل السابع عشر

"مجتمع الملاحظة": فرصة للإثنوجرافيا التطبيقية

الأهداف التعليمية

- فهم العلاقات بين العلم والمجتمع فيما يتعلق بالملاحظة.
- القدرة على مناقشة اتجاه جديد في المجتمعات المعاصرة: مجتمع الملاحظة.
- إجراء مسح لمنهجيات الملاحظة الرئيسية التي تُستخدم في المهن.
- اكتساب نظرة عامة عن فرص التوظيف التي تقدمها منهجية الإثنوجرافيا.

١٧-١ مقدمة

كما أظهر ٢ - ٤ بوضوح، نحن نكتسب المعرفة من خلال حواسنا. والنظر أحد هذه الحواس، وهو أساس الملاحظة؛ والملاحظة بدورها أساس الإثنوجرافيا.

واضح أنّ المراقبة، والمشاهدة، والملاحظة، وإجراء البحث الإثنوجرافي ليست نفس الشيء، برغم أنها مترابطة ببعضها. ومما لاشك فيه أنّ إجراء البحث الإثنوجرافي أكثر هذه الأنشطة تعقيدًا، لأنّه يتطلب منا ليس فقط أن نلاحظ، ولكنَه يتطلب أيضا أن نفعل ذلك بشكل منهجي (انظر البابين ٩، ١٠)، بينما ندون أيضا

مذكرات عن ملاحظاتنا مستخدمين طريقة سرد محددة وتقنيات أساليب (انظر الباب ١٠). كذلك فإنّ المراقبة والمشاهدة ليستا نفس الشيء: فالمراقبة نشاط سلبي (كما هو الحال عندما نشاهد التليفزيون، بينما المشاهدة نشاط إيجابي أكثر وتتضمن إدراك الشيء واكتشافه.

واضح من هذه الملاحظات المختصرة أنّ الملاحظة فقط في المقام الأول نشاط التفكير السليم الذي يصبح بالتالي تفكيرًا علميًا. وتطورت الملاحظة بتقنياتها الخاصة في كلا المجالين (مجال التفكير والمنطق السليم ومجال العلم). والغرض من هذا الباب تقديم نظرة عامة لتقنيات الملاحظة التي تُبنى عليها مهن معينة في المجتمع المعاصر. ومع ذلك، فقبل أن تفعل ذلك، المطلوب إجراء مناقشة حول كيف يتطور المجتمع تدريجيًا فيما يتصل بالملاحظة.

١٧-٢ من مجتمع المقابلة لمجتمع الملاحظة

يتفق الكثير من المؤلفين على أننا نعيش في مجتمع ما بعد الحداثة. ومع ذلك، فما زالت تبقى عناصر ونواح من المجتمع الحديث، ومجتمع ما قبل الحداثة. في الحقيقة، فإنّ هناك معتقدات سحرية معينة، والعديد من المعتقدات الدينية، والكثير من الاتجاهات الثقافية، مثل النزعة العلمية المفرطة والذكورية ومذهب السلطة المطلقة للقيم (الذي ينطبق تمامًا على المجتمعات الحديثة، ومجتمعات ما قبل الحداثة) مستمرة التعايش والتفاعل مع عناصر مجتمع ما بعد الحداثة. ويمكن أن يؤكد المرء، بالمثل، أننا الآن على مشارف مجتمع الملاحظة، لكنّه يتعايش مع مجتمعين آخرين: مجتمع المقابلة، ومجتمع المحادثة.

١٧-٢-١ مجتمع المقابلة

أشار كل من أتكينسون وستروس (*1997*) بذكاء إلى أنّنا نعيش في "مجتمع المقابلة"، مجتمع أصبح إجراء المقابلة فيه نشاطًا أساسيًا، ويبدو أنّ المقابلات قد أصبحت أمرًا حاسمًا يجعل الناس يدركون المراد من حياتهم. من جهة، أصبحت المقابلة (بمعناها العريض) اليوم أحد أكثر الأشكال الاجتماعية لجمع المعلومات انتشارًا: حيث ينخرط رجال الشرطة، والأطباء، والعاملون في المحال التجارية، والقضاة، والعاملون الاجتماعيون، والمديرون، والمدرسون، والأطباء النفسيون، والقساوسة، والصحفيون، والأفراد المجندون، وعمال أو مُشغّلو مراكز الاتصال، في شكل من أشكال المقابلة خلال القيام بأعمالهم الروتينية. ومن جهة أخرى، يبث الراديو والتليفزيون باستمرار وباجتياح التعبير (أحيانًا التباهي) عن النفس في بيوتنا: برامج حوارية، وبرامج منوعات، وبرامج وثائقية، ومقاطع صوتية مستنبطة في نهاية الأحداث الرياضية، أو الانفعالات المسروقة من ضحايا مشاهد المآسي أو الكوارث.

يمكن تفسير انتشار المقابلة (بشكل انعكاسي) بحقيقة مؤداها أنّ معظم الأبحاث الاجتماعية تُبنى على المسح والمقابلة التفاعلية، وكلاهما (ورغم اختلافهما الكبير في جوانب أخرى)، تستخدمان نفس التقنية في جمع المعلومات: طرح الأسئلة. وأبرز فوكو ***Foucault*** (*1975*) أنّ المقابلة تشارك في كثير من ملامحها وميزاتها اعتراف الكاثوليك والمقابلة التحليلية النفسية. ومن هنا، فإنّ المقابلة والمجتمع شيئان جوهريان تأسيسيان بالتبادل للدرجة التي تجعلنا نعلن أنّنا نعيش الآن في "مجتمع المقابلة".

ومما لاشك فيه أنّ "مجتمع المقابلة" هو النموذج المجتمعي المهيمن. ومع ذلك، فهو ليس النموذج الوحيد، لأنّ هناك أشكالاً اجتماعية أخرى موجودة بالتوازي معه، ويمكن أن تحل محله في المستقبل: نذكر اثنين منها فقط، "مجتمع المحادثة" و"مجتمع الملاحظة".

١٧-٢-٢ مجتمع المحادثة

وفيما يخص مجتمع المحادثة، والذي كان مجتمعا بارزًا ومرموقًا في الصحافة لبعض الوقت، وفي التليفزيون بشكل أقل، كان هناك وجود متزايد للنصوص له بكثرة. وتلك النصوص ليست من نتاج المقابلات، لكنها نتاج مناقشة تحدث بشكل طبيعي، وهي مشتقة من تسجيلات ظاهرة أو عن طريق التصنت على المكالمات الهاتفية (بمعنى تسجيلات ظاهرية). ويصبح الجمهور العام حذرًا وقلقًا بشكل متزايد من أن المحادثات الخاصة يمكن أن ينصت المرء إليها ويسجلها.

وتتم التسجيلات الظاهرة من خلال "صناديق سوداء" تُركب في الطائرات، والقاطرات، والسفن، والمسارح العاملة - وفي السيارات الخاصة في المستقبل أيضًا - لتسجيل البيانات أثناء الحركة والحفاظ عليها. والصندوق الأسود قادر على مقاومة الضغوط ودرجات الحرارة العالية لأقصى حد، وفي حالة وقوع حادثة، فإنّ المعلومات التي يحتويها الصندوق تجدها محفوظة وسليمة وغير مصابة بأذى. وتُستخدم الصناديق السوداء لتولي عملية التحقيقات في حوادث تهشم وتحطم وسائل المواصلات، عندما يتقرر "ما حدث بالفعل" من المحادثات التي تم تسجيلها. ومن هنا فليس هناك مبالغة في القول أنّ الكلام والحديث هو الذي يُشكل حقيقة ما حدث.

وإلى جانب التسجيلات الظاهرة، فإنّه يتم الكشف عن العديد من الفضائح والجرائم من خلال التسجيلات الخفية (التي تأمر السلطات القضائية بتنفيذها) التي يتم الحصول عليها من الهاتف المثبت والنقال، أو بواسطة وسائل تصنت وميكروفونات خفية (تجارة مزدهرة). ويزداد انتشار هذه الأشكال من التصنت. وفي حقيقة الأمر، لقد اكتُشف أنّ هناك نظام مراقبة منتشرًا في العالم كله (يُسمى الإيكولين *ECHELON*) أنشأه عدد من البلاد أثناء الحرب الباردة، وتديره الآن الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، وأستراليا، وكندا ونيوزيلاندا.

١٧-٣ مجتمع الملاحظة

لقد جعل التقدم التكنولوجي، إلى جانب حالات الاعتراض والإيقاف، تقنيات الملاحظة متفشية أكثر وأكثر مرونة وقابلية للتكيف. وأينما نذهب (في البنوك، والمحلات التجارية، والملاعب الرياضية، والحدائق العامة، والشوارع، ومترو الأنفاق) هناك دائمًا كاميرا تليفزيونية جاهزة لتصوير تحركاتنا وأفعالنا (وهي مجهولة بالنسبة لنا). وكاميرات الهواتف، وهي العيون الرقمية الحقيقية التي تلتقط اللحظات العابرة، والتي تدعم الآن النمط والطريقة السائدة لعمل تسجيلات فيديو حديثة لكل المواقف حتى الشخصية منها والأكثر خصوصية، وإرسالها على الإنترنت. أو الاتجاه لتسجيل الدخول إلى كاميرات الويب الموجهة لشوارع المدينة، والمعالم الأثرية، والمناظر الطبيعية، والنباتات، وعشش الطيور (*www.birdcam.it*)، وقدور القهوة، والجبنة القديمة (*www.cheddarvision.tv*)، والجدران المطلية حديثًا (*www.watching-pasint-dry.com*) ... إلخ لملاحظة الحركات، والتطورات والتغييرات. وهناك بدعة كاميرات الويب التي يرتديها الناس حتى يتمكنوا من أن يقودونا فعليًا وعمليًا خلال حياتهم اليومية. (*www.justin.tv*). وليست كل هذه الأشياء حالات شاذة ثانوية لأشخاص غريبي الأطوار، لكنها مواقع ويب يزورها ملايين من الناس في كل أنحاء العالم.

إنّ ملاحظتك للآخرين وملاحظة الآخرين لك سمتان مهمتان للمجتمعات الغربية المعاصرة. فعن طريق الملاحظة، يمكن الحفاظ على السيطرة والتحكم في منطقة ما ومن يقيمون فيها، ويمكن التجسس على أنواع السلوك العاطفي الحميم (اختلاس النظر والحب المرضي للتفرج الجنسي)، ويمكن منع الأفعال التي تُعتبر مضرة. وأخيرًا، هناك طلب متزايد في قطاعات متعددة في المجتمع - من التسويق للأمن، ومن التليفزيون لصناعة الأزياء - للملاحظة وللإثنوجرافيا. وكل تلك القطاعات ترى أنّ مجتمعنا يمشي بخطى ثابتة نحو مجتمع الملاحظة.

١٧-٤ نموذج "مجتمع الملاحظة": برنامج المنوعات: الحقيقة

"برنامج الحقيقة" نوع من البرامج التليفزيونية المنوعة يبث مواقف درامية وهزلية ليس لها سيناريوهات معينة، ولكن الأحرى أنّ أبطالها يؤدون أدوارها كما لو كانت جزءًا من حياتهم تمامًا.

وأهم جانب لمثل هذه البرامج هو أنّها تبدو غير لائقة للتليفزيون بالمرة، فهي تتكشف ببطء (كما يحدث في الحياة اليومية المعتادة) وتبرز وتعرض، لمدة ساعات طوال، الأمور الروتينية اليومية التي لا يحدث فيها شيء مهم أو له مغزاه. ومع ذلك، أصبحت هذه البرامج أهم بدعة تليفزيونية في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين. والسمة المميزة لها هي أنّها تجعل الحياة اليومية الخاصة للبشر علنية وشائعة: في الحقيقة، لا تُصنّف البرامج الوثائقية وغير الخيالية كنشرات الأخبار والبرامج الرياضية عادة على أنّها برامج لعرض الحقيقة.

١٧-٤-١ أصول تليفزيون الحقيقة

رغم أن برامج الحقيقة التليفزيونية أصبحت برامج شعبية محبوبة بشكل غير متوقع منذ نهاية العقد الأخير من القرن العشرين، فإنّها كانت موجودة دائمًا قبل ذلك في برامج التليفزيون. يرجع تاريخ أوائل البرامج التليفزيونية التي تقدم الناس في مواقف ليست لها سيناريوهات مكتوبة للأربعينيات من القرن العشرين، فقد صوّر برنامج ألين فانت ***Allen Funt*** "الكاميرا الخفية" الذي أُذيع لأول مرة عام ١٩٤٨: أعضاء غير متوقعين من الجمهور في ردود أفعالهم للخدع التي يتعرضون لها، وأخذ البرنامج عنوان، "نوع برامج التليفزيون عن حقيقة الأجداد".

كانت السنة الحاسمة، والتي لم تكن لها علاقة تقريبًا ببرامج المنوعات عن الحقيقة لكنّها منعت وأعاقت مولد اتجاه وميل، هي سنة ١٩٦٩: ما بين ٢٠ و ٢١ يوليو من تلك السنة، هبط رائدا فضاء على سطح القمر، وشاهد الحدث في بث تليفزيوني مباشر أكثر من ٥٠٠ مليون من البشر على مدار ثمانية وعشرين ساعة متواصلة.

• وقد شهدنا منذ السبعينيات نشأة ثم فرقعة برامج المنوعات عن الحقيقة في مئات من البلاد حول الكرة الأرضية.

وقد ذكر بعض المعلقين أنّ اصطلاح "تليفزيون الحقيقة" وصف غير دقيق لأساليب متعددة مشمولة في هذا النوع من البرامج. ففي البرامج المبنية على المنافسة وبرامج منوعات حية خاصة عن البيئة، يتم تصميم شكل وبنية البرنامج والسيطرة والتحكم في الأنشطة والبيئة، وذلك لخلق عالم ملفق ومختلق بشكل تام تحدث فيه المنافسة.. ومع ذلك فإن الصدق وصحة المعلومات ليس لهما أهمية لنا في هذا المقام، لكنّ المهم هو وقع وتأثير هذه البرامج على المجتمع، لأنّها من بين العوامل المسئولة عن الاهتمام المتزايد بالملاحظة والطلب المتزايد على الإثنوجرافيا.

التمرين ١٧-١ شاهد برنامجًا منوعًا عن الحقيقة. حاول أن تفهم لماذا تهتم الشركة المنتجة لسلع معينة لسوق الجملة باستخدام منهجية الإثنوجرافيا لأبحاث السوق. ثم ناقش رأيك مع زملائك.

١٧-٥ الطلب الجديد على الإثنوجرافيا ومهن الملاحظة

تبنى مهن متعددة على الملاحظة. ومع أنّ هذه المهن أقل من حيث العدد من المهن المبنية على المقابلة (انظر ١٧ - ٢)، فإنّها تتكاثر اليوم ويبدو أنّها في طريقها للزيادة بمعدل أكثر مما هي عليه الآن.

١٧-٥-١ أدوات تسوق جديدة: الإثنوجرافيا التجارية

يبدأ نجاح برامج التليفزيون المنوعة عن الحقيقة في التأثير على تجارة التسويق. وهي تفعل ذلك من جهة، في التسويق بالجملة (تسويق منتج ما لجمهور عريض)، ومن جهة أخرى، في معاهد أبحاث السوق، التي تبحث باستمرار عن تقنيات مسح جديدة. وتحاول الشركات المنتجة لسلع الاستهلاك الكبير دخول عقول المستهلكين، وتحديد المعاني التي ينسبونها للسلع ولعملية الاستهلاك، ودراسة سلوكهم اليومي. وتمشيًا مع موجة نجاح البرامج التليفزيونية عن الحقيقة، تعتقد هذه الشركات أنّه بالإمكان تحقيق ذلك النجاح عن طريق الأبحاث الإثنوجرافية. ويبدو أنّ الشعار الجديد في هذا الصدد هو *"داخل الكائن الحي"*، كمقابل لـ *"خارج الجسم الحي"*، لو كان الغرض هو اكتشاف علاقات المستهلكين بالبسكويت مثلاً، فيجب على من يجرون أبحاثًا عن السوق أن يدخلوا بيوت الناس ويشاهدوهم وهم يتناولون طعام الإفطار على الموائد حتى يمكنهم فهم الأشياء المحفزة على الاستهلاك والفوائد الاجتماعية للبسكويت، وذلك وسط حالة فوضى الصباح المبكر. تشعر الشركات بعدم رضاء متزايد تجاه لجان خبراء المستهلكين أو جماعات التركيز. كانت تلك اللجان أو الجماعات أنصار أبحاث السوق في الثمانينيات والتسعينيات، لكنها الآن في حالة انحدار تدريجي لأنّ نتائجها تُعتبر سطحية أكثر من اللازم. وبدلاً من ذلك، فإنّ الإثنوجرافيا تُعتبر الآن، بحق أو بشكل خاطئ، منهجًا جديدًا قادرًا على اتخاذ واستخدام مفاتيح سياقية واتجاهات غير توضيحية تراوغ منهجيات بحث أخرى.

إنّ الإثنوجرافيا التجارية أداة نفهم من خلالها كيف يحدث التفاعل بين المنتجات وبين الناس. وهي تُمكّن الشركات من التعامل مع الناس في مواقعهم وأماكنهم "الطبيعية"، وجمع المعلومات عن بيئتهم وثقافتهم وتقاليدهم، والحصول على

توصيات واقعية ملموسة وعملية حول الطريقة التي يتم بها تحسين كل من المنتجات والعمليات والإجراءات، واكتساب رُؤى وبصيرة نافذة فيما يُسمى "بالتجربة التي تم التعايش معها على الطبيعة" وسلوك المستهلكين.

أسلوب المتسوق السري (الخفي) وما يرتبط به من أساليب

"التسوق السري" يعني القيام بالمشتريات مع اختفاء شخصية المشترى أو القيام بها متنكرًا. ومع ذلك، فإنّ التقنية في الأصل لم تكن لها صلة بالمشتريات، لكنّ المحققين والمخبرين الخاصين كانوا يستخدمون هذه الوسيلة لتحديد سرقة الموظفين ومنعها، لاسيما في البنوك ومحلات البيع بالتجزئة.

وقد تمت الصياغة اللغوية لهذا التعبير في الآونة الأخيرة فقط، في الأربعينيات، وذلك عن طريق الاستشاريين الأمريكين الذين بدأوا استخدام هذه التقنية لتقييم رضاء الزبائن وأحوال مكان العمل. (مع اهتمام خاص بالصحة والنواحي الأمنية). ومنذ قدوم "مجتمع الخدمات"، أصبح التسوق السري وسيلة لتقييم أي نوع من أنواع الخدمات. وهو يعمل جوهريًا وفعليًا كما يلي: تريد الشركة التي تبيع منتجات (عادة بالتجزئة على نطاق واسع) أن ترصد كيف يتعامل البائعون فيها (كل من الموظفين في الشركة ومانحي الامتياز فيها). وتفوض الشركة شركة أبحاث سوق لزيارة محلاتها التجارية وكتابة تقرير عنها. وترسل شركة أبحاث السوق سلسلة متعاقبة من المُقيّمين يُطلق عليهم "المتسوقون السريون". ويدّعي هؤلاء الأشخاص أنّهم زبائن عاديون ويزورون محلات التجزئة التجارية التابعة للشركة، ويمرون بكل مراحل تجربة التسوق المعتادة بدءًا من دخول المحل حتى الخروج منه: ويطلبون معلومات ومساعدة، وفي بعض الحالات يشترون سلعًا من المحل أيضًا. وبعد ذلك يُعد الباحث استمارة تقييم لما حدث.

إنّ أسلوب التسوق السري أداة فعالة للغاية يتم من خلالها قياس أداء البائعين في الدكان؛ وربما كانت الوسيلة الوحيدة القادرة على تقييم رضاء الزبون في نفس الوقت، وتحديد وذكر أسباب هذا الرضاء أو عكس ذلك "عدم الرضاء". ومن هنا، فقد يفتح هذا الطريق لسيناريوهات تشجيع ودعم ولاء الزبون للمحل.

وهناك عدة أنواع من التقييم السري، وذلك طبقًا للمجال المختص:

- المتسوق السري: المحلات التجارية ومؤسسات تقديم الطعام.
- الضيف السري: خدمات النقل (مترو الأنفاق، القطارات المحلية والقومية، شركات الطيران) أو صناعة الضيافة (الفنادق، المطاعم، الرحلات الجوية).
- الزبون السري: البنوك، شركات التأمين، الخدمات البريدية، تجار السيارات، صناعة البترول وكبار تجار التجزئة.
- طالب المكالمة السري: خدمات زبائن التليفون (مراكز الهاتف).
- المحلات أو المتاجر التنافسية: خدمة الزبون وأسعار المسابقات.
- تقييم التاجر: الشركات التي توزع المنتجات والخدمات لتقييم ولاء التجار.
- تقييم أداء المبيعات: تقييم قدرة هيئة البائعين على فهم احتياجات الزبائن، واقتراح الحلول، وعقد المبيعات.
- موقع ملائكة الإنترنت: خدمة العناية بالزبون لمتسوقي الإنترنت.
- الويب (الشبكة) السري: تقييم مواقع الويب.
- المريض السري: الرعاية الصحية، العيادات والمستشفيات.
- الجمهور السري: المدارس والجامعات – البلديات لتقييم الامتثال لعقود الإمداد.
- المفتش أو المراقب السري: الامتثال لنظام تحليل المخاطر وتحديد نقاط التحكم الحرجة (*HACCP*) إلخ. الصحة وتعليمات السلامة.

التمرين ١٧-٢

شاهد فيلم "كبير *Big*" للمخرج بيني مارشال ***Penny Marshall***. يقدم الفيلم عند نقطة معينة ماكميلان (شخصية يلعبها روبرت لوجيا)، وهو صانع لعب أطفال. بينما كان ماكميلان يفتش في أحد محلاته التجارية، تقابل مع جوش ***Josh*** (لعب توم هانكس دوره) وهو موظف متواضع يحب تجربة لعب الأطفال المعروضة للبيع، وتعجب ماكميلان لحماس جوش الطفولي - وهو في الحقيقة طفل وقع في فخ جسم رجل بالغ - فأعطاه وظيفة جديدة، وهي فحص لعب الأطفال واختبار صلاحيتها طول اليوم، لأنّه كان يريد أن يكتشف "ما لا تقوله تقارير التسويق". ويعتلي جوش بسرعة التسلسل الهرمي للشركة بسبب فطنته في ما يباع أكثر للأطفال. وشيدت الشركة أيضا غرفة يمكن أن يلعب الأطفال فيها بنماذج لألعابهم الجديدة بينما يلاحظهم خبراء تسويق الشركة وهم يلعبون، امتدادا لطريقة جماعة التركيز).

وعندما تكون قد شاهدت هذه المناظر، هل يمكنك أن تقول أي الأشياء تغاضت عنها تقارير التسويق، وتم الكشف عنها من خلال منهجية البحث المبني على الملاحظة؟

١٧-٥-٢ في خدمة صناعة الموضة: الصائد البارد

ظهر من بضع سنين نوع جديد من المشتغلين بالمهن الاحترافية، وهو يقع وسط الطريق بين التسويق والموضة، ويطلق على من يعمل به "الصائد البارد"، ومهمته اكتشاف الاتجاهات الناشئة وتحويلها إلى أفكار مبتكرة وقابلة للتسويق. ويعمل الصائدون الباردون عند الواجهة الواقعة بين الإنتاج والاستهلاك. ويطوف هؤلاء الصائدون في الشوارع والنوادي وهم يحملون كاميرات حول أعناقهم، ولديهم قوى جيدة قادرة على الملاحظة والإبداع. بغرض جمع المنشورات

والنشرات الإعلامية، وبرامج المعارض والحفلات والبرامج المنوعة، والتقاط الصور، وزيارة الأسواق، وصالات العرض، والمحلات التجارية، وتجدهم يهتمون بأخذ واختيار وتذوق عينات من الطعام، وتجريب الآلات الصغيرة الجديدة التي يمكن أن تصبح أسلوبًا جديدًا يغزو السوق. باختصار، "الصيد البارد" مهنة (دوام جزئي عادة) مبنية على الحدس والقدرة على ملاحظة وتفسير الاتجاهات الثقافية والاجتماعية. وتستخدم الشركات التقارير التي يرسلها الصائدون الباردون في تحديد إستراتيجيتها للتسويق.

وهناك الآن مناهج دراسية وبرامج للحصول على درجة الماجستير في الصيد البارد. وعلى من يهمه الأمر الحصول على معلومات من مواقع شبكات الويب، مثل الرابط: *www.coolhunting.com*.

١٧-٥-٣ من دراسات الإدارة إلى البحث الإجرائي؛ التعقب خلسة وتقنيات أخرى

هناك مساحة أخرى عريضة لإجراء البحوث والدراسة تستخدم تقنيات تشتقها من الملاحظة والإثنوجرافيا. وهي تشمل تخصصات مختلفة ومتمازجة ومحابكة: دراسات إدارة، علم اجتماع إكلينيكي، دراسات تنظيمية ومؤسسية، أبحاث تقييم، أبحاث عمل، وما إلى ذلك. وما يلي هو مسح موجز حول المنهجيات الإثنوجرافية الرئيسية التي تستخدمها تلك التخصصات.

تقنية التعقب خلسة

التعقب خلسة معناه تتبع شخص معين (كظله) في بيئته الطبيعية في الوقت الذي تتم فيه ملاحظته (دون التدخل أو التعرض) لأفعاله وردود أفعاله، وكيف يقوم بأعماله التجارية، وما إلى ذلك. ولأنّ التعقب خلسة يتطلب كشفًا وإفشاء كاملًا لوجود الباحث ولاهتماماته، فينبغي أن يتم تمييزه عن منهجيات ميدان قوية أخرى في هذا المجال، مثل التصنت، والاختباء والترصد (انظر *Czarniawska. 2007*).

ولقد انتشرت هذه الطريقة في قطاعات متعددة (التعليم، والدراسات الحضرية، والدراسات حول المستهلكين... إلخ.)، التي غيّرت دراسات الإدارة فيها طبيعتها إلى حد ما. وهي تُستخدم لتعليم المبتدئين وظائفهم بسرعة أكبر؛ ولضبط وكشف التفرقة في فرق العمل التابعة للمديرين التنفيذيين؛ ولتحقيق سياسات فرص متساوية. والهدف من التعقب خلسة هو دخول استشاري لأشخاص يعملون في مجالات معينة، حتى يمكنه ملاحظتهم في مواقعهم اليومية. والملاحظ لا يؤدي عملاً فعليًا في مهمة التعقب خلسة هذه، لكنه يراقب الشخص الآخر وهو يقوم بها. ويقدم التعقب خلسة الفوائد التالية:

- فرصة لمراقبة شخص ما وهو "يقوم بعمل ما".
- فرصة لطرح أسئلة على أشخاص معينين وهم يؤدون عملاً ما بالفعل.
- فرصة للاستشاري لمراجعة وفحص بعض من افتراضاته واقتراحاته حول مجال العمل موضع الدراسة.

ويتعلم الملاحظ أكثر وأكثر عن الوظيفة، والشركة والصناعة؛ وينشئ هو نفسه اتصالات مع شبكات جديدة.

التمرين ١٧-٣

اقرأ "يوم عمل" *A Day's Work (1975)* من تأليف ترومان كابوت *Truman Capote*، أو "عمل لطيف" (*Nice work, 1998*) من تأليف ديفيد لودج *David Lodge*.

ما الذي تعلمه المتعقبون خلسة في هذين الكتابين حول الأشخاص الذين كانوا يلاحظونهم؟ اكتب قائمة ببنود المعرفة والمعتقدات التي حصلوا عليها منهم.

١٧-٥-٤ بيئة العمل، وعلوم الحاسب الآلي، وتقنية المعلومات ووسائل نقلها

كما رأينا في ٣ - ٨، انتقلت بيئة العمل بعد الحرب العالمية الثانية لدراسة مستخدمي الأشياء في بيئتهم الطبيعية، وفعلوا ذلك ردا على النقد الذي وُجه إليهم حول الأبحاث التي تُجرى في المختبرات (وتُسمى أيضا أبحاث الغرفة البيضاء). في الحقيقة، فإنّ أداء أي مهمة - على سبيل المثال، إنّ طهي الطعام باستخدام نموذج للأجهزة الكهربائية المنزلية - في بيئة طبيعية أمر يختلف كثيرًا عن أداء نفس العمل في مطبخ البيت. وفي الآونة الأخيرة، تم استخدام التقنيات الإثنوجرافية في مجالات علوم الكمبيوتر، والمعلومات وتكنولوجيا الاتصالات (*ICT*). ولقد أنشأت هذه القطاعات طرقًا متعددة لدراسة المستخدمين في بيئتهم الطبيعية، وأبرزها المرافقة والإثنوجرافيا المركزة.

المرافقة

تمت استعارة هذه التقنية من المنهجيات الإدارية لتسهيل الدخول على وظيفة جديدة. في بعض مواقع العمل يصاحب الموظف المبتدئ (مُوظف تم تعيينه حديثًا على سبيل المثال) أحد أصحاب الخبرة الطويلة في العمل نفسه. وتُستخدم نفس التقنية "برغم استخدامها في أغراض مختلفة" في مجال علوم الكمبيوتر من أجل تحسين برنامج العقل الإلكتروني أو لاختبار بيان جديد. ويُحدد لعينات من المستخدمين مهام لابد لهم من أدائها باستخدام برنامج العقل الإلكتروني موضع البحث. ويرافق المستخدمين باحثون يلاحظون أداءهم ويدونون مذكرات وملحوظات (بمرجعية عادة) حول كل المشاكل التي تواجههم: تصور ضعيف للأوامر، أو فشل في فهم الرموز، أو عدم قدرة على أداء المهمة... إلخ. وقد أثبتت المرافقة أنّها مفيدة للغاية في الكشف عن المعرفة المعروفة ضمنًا، والإستراتيجيات

التفاعلية مع الكمبيوتر ووسائط التفكير والمنطق؛ وفي تصميم برامج العقل الإلكتروني المُركزة على المستخدم، أي، البرامج التي تحل المشاكل ولا تعقد الإجراءات.

الإثنوجرافيا المُركّزة

صاغ عالم الاجتماع الألماني هيوبرت كنوبلوتش ***(Hubert Knoblauch 2005)*** تعبير الإثنوجرافيا المُركّزة للدلالة على نوع محدد من الإثنوجرافيا السوسيولوجية التي تتبناها الأبحاث التطبيقية على وجه الخصوص. وتتضمن الإثنوجرافيا المُركّزة زيارات ميدانية قصيرة الأجل نسبيًا، لأنّ قصر مدتها الزمنية يتم تعويضه من خلال الاستخدام المكثف للتقنيات السمعية البصرية لجمع البيانات والمعلومات وتحليلها. وفي نواح معينة يمكن تشبيه الإثنوجرافيا المُركّزة بالإثنوجرافيا التجارية التي تمت مناقشتها في ١٧- ٥ – ١. والإثنوجرافيا المُركّزة لا تُعنى بالجماعات والتنظيمات والمؤسسات أو وسائل الإعلام، ولكنها تعنى بالمواقع، والأماكن، والأنشطة (أو الأداء) ذات الأهمية للمبحوثين أنفسهم. وهي تُركز على المحدد والمخصوص، أي تفاصيل الأداء في حالة ومكان معينين كما يحدث بشكل طبيعي في التفاعلات الاجتماعية اليومية. لذا فالإثنوجرافيا المُركّزة تحلل عادة أبنية وأنماط التفاعل مثل تلك التي يتضمنها تناسق أنشطة العمل، والمناقشات العائلية أو الاجتماعات.

والهدف من الإثنوجرافيا المُركّزة هو اكتساب المعرفة الخلفية اللازمة لأداء الأنشطة المعنية. ومع ذلك، فهي لا تستفيد من الرصيد الثقافي للمعلومات، لكنها تكتسب بعضًا من العناصر (المتضمنة جزئيًا) المتعلقة بالنشاط. ولدى دراسة الأنشطة التكنولوجية، يكون التركيز فقط على تلك العناصر ذات الصلة بفهم الممارسات التي يتضمنها التعامل مع التقنية.

١٧-٥-٥ ملاحظون مهنيون آخرون

إنّ ممارسة الملاحظة منتشرة في كثير من القطاعات والمهن الأخرى، وفي الهوايات أيضًا:

- الملاحظة مألوفة وعادية في العلوم الطبيعية، لاسيما علم الفلك وعلم الحيوان، ولكنّها مألوفة أيضًا في علم السلوك (الثدييات) وعلم الطيور (الطيور - وارتباطه بهواية مراقبة ودراسة الطيور).
- هناك العديد من المهنيين المتخصصين في صناعة الترفيه وقضاء وقت الفراغ الذين يراقبون ويراعون سلامتنا: على سبيل المثال، المنقذون في حمامات السباحة، وحدائق المياه، والشواطئ الخاصة والعامة.
- هناك أنواع مختلفة من الأنشطة في عالم الأنباء (مثل صحافة التحقيقات والبحث، والتقييم والصحف الشعبية)، وتعتمد جميعها على الملاحظة في المقام الأول.
- وفي العديد من الألعاب الرياضية، يبني حكام الكثير من المسابقات الرياضية، واللاعبون و... المتفرجون أعمالهم على ما يشاهدونه في الميدان.
- وفي صناعة الأمن والسلامة يستفيد رجال الشرطة، وأعضاء لجان الأمن الأهلية، والحرس الخاص، وحراس السجون، وعملاء الخدمات السرية استفادة هائلة من تقنيات الملاحظة (التعقب، والدوريات، والتسرب، والجولات الأمنية، والمراقبة... إلخ) لمنع الجريمة وقمعها.
- ويفعل المجرمون والإرهابيون مثلهم في سياساتهم وزعزعة الاستقرار.

التمرين ١٧ - ٤ اكتشاف أفضلياتك

أجرى هذا الباب مسحًا للمنهجيات الرئيسية للإثنوجرافيا التطبيقية. والآن أجب عن الأسئلة التالية:

- أي هذه الطرق تحبها أكثر من غيرها؟
- وأيها تعتقد أنك تجدها الأسهل في استخدامها؟
- وأي المهن التي تمت مناقشتها تحب أن تمتهنها؟

١٧-٦ ملاحظات ختامية

استخدمت المهن الملاحظة دائمًا لأداء عملها أو لتحسينه. تمامًا كما استفادت من المقابلات. ومع ذلك، فقد تضاعف الاتجاه والميل لاستخدام الملاحظة بشكل كبير في الآونة الأخيرة، وصاحب ذلك ظهور مهن جديدة مبنية على الملاحظة.

وقد انتشر هذا الاتجاه الآن في عالم الخيال والأدب القصصي. ونحن نعرف أن الأعمال الأدبية كثيرًا ما تنبأت بقدوم ظواهر واتجاهات اجتماعية؛ وقد حدث هذا في حالة علم الاجتماع أيضًا. وفي الحقيقة، فقد قام بارك ***Park***، وهو أحد مؤسسي مدرسة شيكاغو، ببذل جهود حثيثة لإقناع العلماء الاجتماعيين بأن يفعلوا في مجالهم ما فعله من قبلهم كتّاب من أمثال إيميل زولا (انظر ٣ - ٢) في رواياتهم القصصية: تقديم أوصاف حيّة وتحليلية ومشاركة لمشاكل المجتمع.

ونحن اليوم نشهد عودة القصص الواقعية لتحل محل نوع ما بعد الحداثة الذي كان يمثله دون دي ليلو، وتوماس بينشون، وكيرت فونيجات.

وهي تستخدم الملاحظة بالمشاركة للتحقيق والبحث في العوالم والظواهر التي ليس لدينا منها سوى انطباعات غير واضحة. وينقل الكتاب والصحفيون صورًا اجتماعية قوية تثير سخطنا بشكل أكبر بكثير عما يمكن أن تفعله الكثير من الكتيبات السياسية والتحاليل السوسيولوجية، وهي تحيي تراث الدراسات الحضرية

التي بدأت بمدرسة شيكاغو. على سبيل المثال، يصف الصحفي والكاتب الأمريكي روبرت نيوويرث **Robert Neuwirth**، في "*مدن الظل: بليون ممن يحتلون أرضا بوضع اليد*"، و"*عالم حضري جديد*" (*2005*)، تجاربه وهو يعيش لعدة أشهر في أربعة مجتمعات صغيرة ممن يحتل أهلها أرضا بوضع اليد في مدن كبيرة (ريو دي جانيرو، ونيروبي، ومومباي **Mumbai** وإستانبول)، ويقدّم صحفي وكاتب أمريكي آخر وهو مارك كوبر **Marc Cooper** في "آخر مكان فاضل في أمريكا" (*2005*) تحليلاً رائعا لمدينة لاس فيجاس (التي عاش فيها لمدة ستة شهور)، وهي تعتبر أفضل مكان لفهم الروح الحقيقية للولايات المتحدة الأمريكية المعاصرة. أو، وكي نختتم هذا المسح الموجز، كتاب بقلم الصحفية الأمريكية أدريان نيكول لوبلانك **Adrian Nicole LeBlanc**، "*العائلة العشوائية* **Random Family**": *الحب، والمخدرات، والمشكلة*، قدوم العصر في برونكس **Bronx**" (*2004*) تحكي فيه إقامتها التي بلغت عشر سنوات في حي الأقليات اليهودية الشهير في نيويورك.

وكما سعيت أن أعرض في هذا الباب، فإنّ الملاحظة والإثنوجرافيا تكتسبان حيوية وأهمية متجددة، ربما بسبب التحرر من وهم منهجيات بحث أخرى معينة. والسؤال هو: هل سنستفيد منهما لأقصى درجة؟

النقاط الرئيسية

- إنّ المشاهدة، والنظر إلى الأشياء، والملاحظة والإثنوجرافيا ليست نفس الشيء، مع أنّها أنشطة مرتبطة ببعضها.
- والإثنوجرافيا بالتأكيد أكثر هذه الأنشطة تعقيدا لأنّها تتطلب منا، ليس فقط أن نلاحظ، ولكن أيضا أن نفعل الأشياء بشكل نظامي منهجي، وأن ندون

مذكرات عن ملاحظتنا أيضًا، وذلك باستخدام طريقة سرد محددة وتقنيات ذات علاقة بأسلوب العرض.

- نحن نعيش في "مجتمع المقابلات". ومع ذلك، فهناك علامات على نشوء نوعين آخرين من المجتمعات، وقد يحلان محل مجتمعنا هذا، وهما "مجتمع المحادثات" و"مجتمع الملاحظة".
- في المجتمعات الغربية المعاصرة، ترتبط الملاحظة وتتوحد مع أشكال وعلاقات اجتماعية مُنوّعة: التحكم والسيطرة، والهيمنة، واختلاس النظر، و"جعل السلوك العادي سلوكًا مثيرًا للإعجاب".
- برنامج المنوعات عن الحقيقة هو النموذج الأصلي لمجتمع الملاحظة.
- تستخدم قطاعات ومهن كثيرة الملاحظة (بدلاً من المسح والمقابلة الخطابية، أو بالتضامن معهما): على سبيل المثال، التسويق، الموضة، وقت الفراغ، الصحافة، الأمن والسلامة، الجريمة. الإدارة، والبحث الإجرائي، الهندسة البشرية، وعلم الكمبيوتر، وتقنية المعلومات والاتصالات.
- وقد طوّرت هذه القطاعات تقنيات التحقيق والاستعلام المبني على الملاحظة أيضًا.

المصطلحات الأساسية

مراقبة ودراسة الطيور: تتضمن ملاحظة ودراسة الطيور بالعين المجردة، أو باستخدام أجهزة بصرية، وأكثرها شيوعا المجهر ثنائي العينين. ويلاحق معظم مراقبي ودارسي الطيور هذا النشاط لأسباب ترفيهية أو اجتماعية، بخلاف علماء الطيور المهتمين بالدراسة العلمية الرسمية للطيور.

الإثنوجرافيا التجارية: الإثنوجرافيا التجارية أداة نفهم من خلالها كيف تتفاعل المنتجات والناس، وهي تمكّن الشركات من الاشتراك مع الناس في "مواقعهم" الطبيعية، ومن جمع المعلومات عن البيئات والثقافات، واكتساب توصيات واقعية ملموسة قابلة للتنفيذ حول كيفية تحسين كل من المنتجات والعمليات والإجراءات، واكتساب نفاذ بصيرة في ما يُسمى "تجربة حية" وسلوك المستهلكين.

مجتمع المحادثة: ينبثق "مجتمع المحادثة" جنبًا إلى جنب مع مجتمع المقابلة، حيث يتم جمع الحديث الذي يحدث بصورة طبيعية (المأخوذ من تسجيلات ظاهرة أو اعتراضات مستترة). وهناك اهتمام زائد بأنّ محادثات الناس يتم الاستماع إليها وتسجيلها.

الصيد البارد: هو النشاط المهني في مجال الموضة، ويتضمن اكتشاف الأصدقاء وتفسير الأساليب الناشئة، حتى يمكن ترجمتها لأفكار مبتكرة ويمكن تسويقها.

المرافقة: الطريقة التي يحيط الباحث من خلالها بمستخدمي برامج العقل الإلكتروني ويلاحظ مستخدميها ويدون مذكرات عن المصاعب والمشاكل.

الإثنوجرافيا المركزة: هي نوع محدد من الإثنوجرافيا السوسيولوجية يتم تبنيها في الأبحاث التطبيقية على وجه الخصوص. وتتضمن زيارات قصيرة الأجل نسبيًا، ويتم تعويض قصر مدتها بالاستخدام المكثف للتكنولوجيا السمعية البصرية لجمع المعلومات وتحليلها.

مجتمع المقابلة: لاحظ أتكينسون وسيلفرمان (*1997*) بذكاء أننا نعيش في "مجتمع المقابلة". وهو مجتمع أصبح إجراء المقابلة فيه نشاطًا أساسيًا، ويبدو أنّ المقابلات قد أصبحت حاسمة للناس لتجعل لحياتهم معنى.

صحافة التحقيقات والبحث: نوع من الصحافة يجري المخبرون الصحفيون فيه تحقيقات مكثفة لقصة خبر، كثيرًا ما يتضمن الجريمة، أو الفساد السياسي، أو نوعًا آخر من السلوك المخزي من أجل كشف الحقيقة.

المنقذون في حمامات السباحة: مهنة مسئولة عن سلامة مستخدمي تسهيلات الترفيه المبني على الماء، مثل حمامات السباحة، وحدائق الماء، أو الشواطئ الخاصة أو العامة.

التسوق السري: تقنية تُستخدم لتقييم الخدمة وأداء الموارد البشرية لمحل يبيع بالتجزئة.

مجتمع الملاحظة: أن تُلاحظ وأن تجعل غيرك يلاحظك وجهان أساسيان للمجتمعـــات الغـــربية المعاصرة. أينما نذهب، هناك دائمًا كاميرا تليفزيون أو كاميرا تسجل الصوت مُعدّة لتصوير أفعالنا وتحركاتنا.

برنامج المنوعات الحقيقية: نوع من البرامج التليفزيونية يبث مواقف درامية وهزلية ليس لها سيناريو ولكنّ أبطالها يقومون بأدوارها كما لو كانت (كما هو مزعوم) بالضبط جزءًا من حياتهم الحقيقية.

التعقب خلسة: هو تتبع شخص معين في بيئته الطبيعية (كظله) أثناء إجراء ملاحظة (دون التدخل في) أفعاله وتحركاته وتفاعلاته، وكيف يقوم بأعماله التجارية، وما إلى ذلك. وحيث إنّ تعقب الفرد كظله يتطلب الكشف عن وجود الباحث واهتماماته، ينبغي أن تتميز وتختلف عن طرق الميدان القوية الأخرى، مثل اختلاس السمع، أو الاختباء والتربص أو "تثبيت عين المرء على شيء معين".

توصية بقراءة

بالنسبة للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد:

Eraut, Gill (2004)

بالنسبة للخريجين:

Chambers, Erve (2000)

بالنسبة للمتميزين ممن يجرون البحوث:

Jordan, Brigitte and Dalal (2006)

اختبار تقييم ذاتي

راجع معلوماتك بالإجابة عن الأسئلة التالية ذات النهايات المفتوحة:

١. لماذا تصبح الإثنوجرافيا متماشية مع العصر بشكل متزايد؟

٢. هل من الصحيح أن نُصنف الإثنوجرافيا على أنَّها من بين منهجيات التفسيرية؟

٣. لماذا يمكن أن تصبح الإثنوجرافيا أداة للهيمنة الاجتماعية؟

٤. هل المهن المبنية على الملاحظة أكثر شيوعًا وانتشارًا من المهن المب المقابلة؟

الفصل الثامن عشر

الخاتمة

لو كنت قد تمكنت من الوصول لنهاية هذا الكتاب، فأنت الآن قادر على البدء في إجراء بحثك الخاص. ومع ذلك، هناك قضيتان يثيرهما الطلاب أحيانًا لم أذكرهما بعد:

- هل يمكن دراسة أي موضوع مهما كان بالإثنوجرافيا؟
- هل أي شخص مؤهل لإجراء بحث إثنوجرافي؟

هاتان قضيتان معقدتان تُهملهما الكتب الدراسية والمقالات المتعلقة بمناهج البحث.

فمن الناحية النظرية، يمكن دراسة كل المواضيع بطرق الإثنوجرافيا. أذكر أنّي كنت موجودًا في مؤتمر طرح فيه أحد الحاضرين سؤالاً على المتحدث بشكل استفزازي حول ما إذا كان من الممكن دراسة حياة الأسرة بطريقة إثنوجرافية، "ربما بالاختباء تحت السرير؟"، هكذا طرح السائل سؤاله متهكمًا. وردّ عليه المتحدث ببرود أنّ وجهة النظر الاعتيادية المألوفة القائلة بأنّ بعض مواضيع البحث (الأسرة على سبيل المثال) هي التي يمكن دراستها فقط بمنهج بحث المقابلة، وهي تعكس التحامل والتحيز القائل بأنّ العائلات توجد فقط في الشئون المنزلية. على العكس من ذلك، فإنّ العائلات تقوم بمشترياتها وبنزهات في الهواء الطلق،

وتذهب للاستاد، والكنيسة، والمطار، وما إلى ذلك. علاوة على ذلك، فإنّ المصطلحات البلاغية حول "الأسرة" أمر عادي ومألوف في كثير من المواقع المؤسساتية (من المسلسلات حتى قاعات المحاكم). وفي الختام، قال المتحدث إنّ هناك العديد من المواقع يمكن ملاحظة ما تفعله الأسر فيها.

ومن هنا يمكن دراسة أي موضوع من الناحية الإثنوجرافية. وربما تكون المشكلة الحقيقية مشكلة أخرى: وهي أنّه ليست كل المواقع صالحة لأن يدخلها كل إنسان.

دراسة حالة

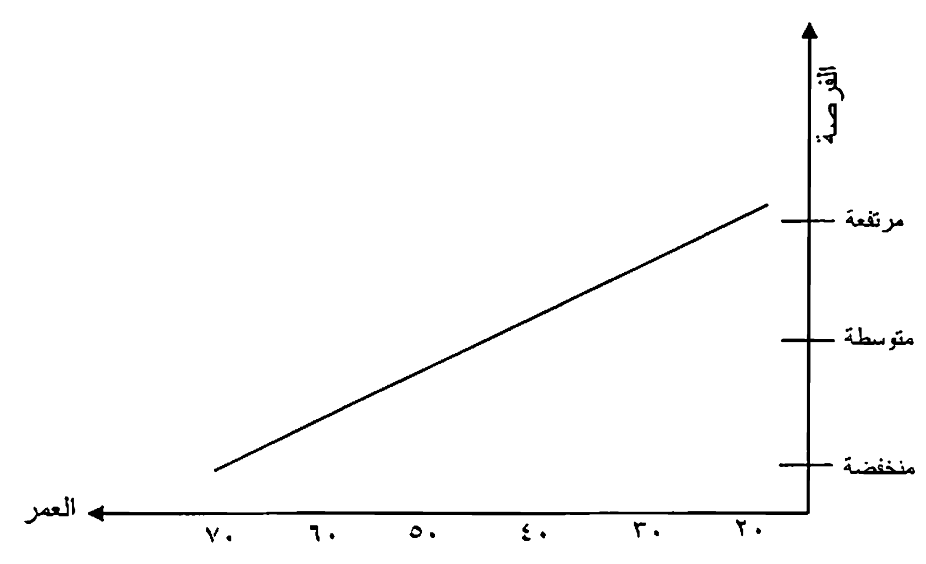
النوع والهوكي

إنّ الهوية التي ينسبها لنا المشاركون يمكن أن تجعل من الصعب على وجه الخصوص الدخول على بعض المواقع والثقافات. اقرأ السرد الإثنوجرافي الذي حصلنا عليه من بحث حول مجموعة من لاعبي دوري هوكي الشباب:

> كان فريق *الصواريخ* متحيزًا ضد النساء للغاية، وكنت قد ضقت ذرعًا بالعملية المنطوية على العلاقات الاجتماعية بين أشخاص من نفس الجنس، وخاصة بين جنس الرجال، (انظر ***Brod 1987***) التي كانت تحدث دائمًا. كان اللاعبون يتحدثون "كلام أطفال" بشكل مستمر، ويمكن أن يصفوا النساء بأوصاف مثل "الخنازير"، أو "من يسعين لهاجس الجنس"، أو "بالاشتراك مع نجوم أو مشاهير"، أو "بنات الفريق" أو "نساء منغمسة في الملذات الجنسية" وكان فريق "الصواريخ" أيضًا مشغولا بما سماه (***Brod 1987: 8***) "حب الاختلاط مع نفس الجنس" وقد كانوا يستمتعون أيضًا بكشف الأعضاء التناسلية (***Gallmeier 1983: 403***).

والآن اسأل نفسك: هل يمكن للإثنوجرافيا أن تجري بحثًا في هذه الثقافة المنطوية على العلاقات الاجتماعية بين أشخاص من نفس الجنس؟ على سبيل المثال، هناك مواقع وأماكن لا يذهب إليها إلا المراهقون بشكل حصري تقريبًا، حيث قد يصبح الباحث المُحنَّك جيدًا مضحكًا ومثيرًا للسخرية. لذا ينبغي أن ندرك أنّه ليس كل الباحثين يمكن أن يكونوا مؤهلين للإثنوجرافيا.

علاوة على ذلك، فإنّ حالات الطوارئ في هذه الحياة، ومسئولياتنا التي لا مفر منها تجاه عائلاتنا وأعمالنا قد تحد بشكل جذري من قدرتنا على إجراء البحث الإثنوجرافي بشكل مباشر. إنّي أشك أنّ هناك علاقة خطية بين عمر الإنسان والقدرة على إجراء البحث الإثنوجرافي: أي كلما صغر عمر المرء، كثرت فرصه (انظر الشكل ١٨ - ١)؛ ومع ذلك، فيمكننا دائمًا تنسيق البحث الإثنوجرافي بين أفراد فريق عمل يتولى إجراءه.



الشكل ١٨ - ١ العمر والقدرة على إجراء البحث الإثنوجرافي بشكل مباشر

وبناء على هذا: أسرع، أسرع. لا تُضيع الوقت !

١٨-١ التفكير السليم والتحيز والحكم المسبق حول الإثنوجرافيا

قبل أن نستأذن بالرحيل، أود أن أناقش باختصار بعض أشكال التحيز والأحكام المسبقة الشائعة حول الإثنوجرافيا. وهي تتكون من بعض الآراء والعبارات التي سمعت عنها أو قرأتها من قبل.

١٨-١-١ الإثنوجرافيا طريقة ذاتية بشكل كبير

هناك الكثير من الناس الذين يؤكدون أنّ الإثنوجرافيا ذاتية بشكل كبير، بمعنى أنّ لها حساسية شديدة تجاه مواقف الباحث وتصوراته. بمعنى آخر، لو زار باحثون مختلفون نفس الموقع، فإنّهم سيشاهدون أشياء مختلفة، وسوف تسجل مذكـراتهم الإثنوجرافية جوانب مختلفة. وعوضًا عن ذلك، فقد يحصـل الاستفتاء أو المقابلة التفاعلية المنطقية، لو تم إجراء أي منهما بشكل صحيح، على إجابات مماثلة (ثبات منهجي ما) بصرف النظر عن شخصية من يجري المقابلة. ومع ذلك، تظهر التجربة أنّ لهذه الفكرة أسسًا تجريبية هزيلة.

منذ فترة وجيزة، أجرى بعض من أصدقائي إثنوجرافيا في حانة. زارت مجموعتان (كل مجموعة منهما عبارة عن ثلاثة طلبة) نفس الحانة، تفصل زيارة المجموعة الأولى إليها أيام قلائل عن زيارة المجموعة الثانية. والحقيقة أنّ هاتين المجموعتين اختارتا نفس الحانة بشكل عرضي وبالصدفة تمامًا، بمعنى أنّهما لم يتفقا مقدمًا على الذهاب لنفس الحانة. ومع ذلك، كان للمجموعتين تصميم بحث محدد: دراسة طقوس واحتفالات وسلوك الاستهلاك في الحانات. ثم قدّمت كل مجموعة منهما تقريرها. واكتشفت، لشدة دهشتي، أنهما لاحظتا واكتشفتا نفس الأشياء من الناحية العملية.

ومـــن هنا، فـــإنّ تصميم البحث يشكـــل إضافة عظيمة لاكتشاف البيانات أو (إنشائها) تزيد عن الإضافة التي يقدمها الباحث نفسه. لذا، فإنّ الإثنوجرافيا هي أي شيء سوى أن تكون طريقة بحث ذاتية بشكل كبير (حتى لو كانت الذاتية موجودة دائمًا، كما هو الحال في كل مناهج البحث).

١٨-١-٢ السلوك أكثر اتساقًا عن الاتجاهات والآراء

ماذا تنبئنا به التجربة التي قدّمناها لتونا من الناحية النظرية؟ بمعنى آخر، لماذا لاحظ ستة ملاحظين مختلفين في نفس الحانة نفس الأشياء بشكل علمي؟ ولأنّ ما تلاحظه الإثنوجرافيا في الأساس هو السلوك (طقوس وأعمال روتينية واحتفالات)، وهي أشياء أكثر ثباتًا واستقرارًا عبر الزمن عن الاتجاهات والآراء (وهي المجالات المميزة للبحث والتقصي للمقابلات الاستطرادية التجريبية والمسح). ويعرف من يتعامل مع المؤسسات جيدًا أنّ تغيير سلوك ما يتطلب وقتًا أكبر من تغير اتجاه، ناهيك عن تغيير الآراء، التي تكون أحيانًا متقلبة وسريعة الزوال حتى إنّها تتغير من يوم لآخر.

١٨-١-٣ هل يمكن نسخ أو إعادة إنتاج البحث الإثنوجرافي؟

ومن هنا، فإنّ ما يتبع ذلك هو أن، ولأنّ أنواع السلوك تكون ثابتة ومستقرة بشكل مؤقت، نتائج البحث الإثنوجرافي يمكن تكرارها وإعادة إنتاجها.

وهناك مطلبان لما يلي:

- وجود تصميم بحث دقيق ينير الطريق في إجراء البحث.
- لم تحدث تغيرات مهمة في الأمور الروتينية بين بحث والبحث الذي يليه.

١٨-١-٤ الإثنوجرافيا والتعميم

من أجل هذه الأسباب فإنّه ليس من الغريب مطلقًا أنّ نتائج البحث الإثنوجرافي يمكن أن يتم تعميمها. وإذا كان تركيز اهتمامنا على السلوك، وإذا سلمنا بأنّها مستقرة وثابتة في وقتها، إذن فمن المحتمل أن تكون التعميمات ممكنة. ومن الواضح، أنه لابد من اتباع معايير دقيقة في اختيار العينات. ومع ذلك، (وكما رأينا في ١٤ - ٨)، فإنّ الإثنوجرافيا لا تُستبعد من عمل تعميمات لها.

١٨-١-٥ مُعاينة الحالات أو الأمثلة؟

من الواضح الآن أنّ البحث الإثنوجرافي يستخدم اصطلاح "حالة" على نحو غامض. في المسح والمقابلات الاستطرادية، تتطابق الحالات مع عدد الأشخاص الذين تتم مقابلتهم (المعاينة)، وهم الذين يتم إجراء مقابلة معهم مرة واحدة عادة. في الحقيقة، فمن النادر أن تُجرى العديد من المقابلات مع نفس الشخص (خلال إجراء بحث واحد). ومن هنا تُنفذ الحسابات الإحصائية وتحليلات نصوص المقابلة على الحالات.

يختلف البحث الإثنوجرافي اختلافًا كبيرًا (انظر ٦ - ٢ - ٢). وما يُشار إليه عادة على أنّه "حالة" (المؤسسة أو الجماعة التي يتم دراستها) هو الموقع أو المكان في حقيقة الأمر. وبدلاً من ذلك فإنّ الحالات هي مئات الأمثلة (التي تتعلق بالطقوس والاحتفالات والأعمال الروتينية) التي يجري الباحث ملاحظاته عليها، أو عشرات الأفراد الذين يقابلهم عشرات المرات خلال وجوده في ميدان العمل. الباحث لا يهتم بالمؤسسة (أو الجماعة) في حد ذات أي منهما، ولكنّه بالأحرى يهتم بأنماط السلوك التي تحدث داخل نطاقيهما. ونتيجة لذلك، وكي لا نخلق خلطًا وارتباكًا مع مناهج بحث أخرى، فمن الأفضل التخلي عن اصطلاح "حالة" وأن نستعمل اصطلاح "مثال" بدلاً منه في البحث الإثنوجرافي.

١٨-١-٦ المؤشرات، والمتغيرات، والمعاينات، والفرضيات:

هل يمكننا أن نستغني عنها حقيقة؟

يؤكد بعض الباحثين الكيفيين أنّ المؤشرات، والفرضيات، والمعاينات، والمتغيرات تنتمي لحزمة الوضعية، وبالتالي فإنّها لا تخص البحث الكيفي. ولكن، وكما ناقشت وأكدت في الأبواب ٤، و٥، فهي ليست سوى أدوات معرفية، مُكونات جوهرية للعمليات الفكرية اليومية للفاعلين الاجتماعيين. بمعنى آخر، فإنّ الناس عادة ما يفكرون ويجادلون مستخدمين المؤشرات والمتغيرات، وينشئون العينات، ويصنعون فرضيات بشكل مستمر. هل يعتبر الإثنوجرافيون (والباحثون الكيفيون بشكل عام) أنفسهم خاصين ومختلفين جدًا عن المشاركين الذين يجرون ملاحظتهم عليهم؟

قانون تشيتشولم *Chicholm*

> **إذا شرحت بوضوح أنّه لا يمكن لأي فرد أن يسيء الفهم، فسيكون هناك من يفعل ذلك. الباحثون الكيفيون.**

ببليوجرافيا

Adler, P. A. (1985), *Wheeling and Dealing*, New York: Columbia University Press.

Agar, M. (1986), *Speaking of Ethnography*, London: Sage.

Agar, M. and MacDonald, J. (1995), 'Focus Group and ethnography,' *Human Organization*, 54(1): 78–86.

Alasuutari, P. (1995), *Researching Culture*, London: Sage.

Alberoni, F. et al. (1967), *L'attivista di partito*, Bologna: Il Mulino.

Alexander, J. C., Giesen, B., Münch, R. and Smelser, N. J. (1987) (eds), *The Micro-Macro Link*, Berkeley: University of California Press.

Anderson, R. C. and Pickert, J. W. (1978), 'Recall of previously unrecallable information following a shift perspective,' *Journal of Verbal Learning and Verbal Behavior*, 17: 1–12.

Ang, I. (1991), *Desperately Seeking the Audience*, London: Routledge.

Ashmore, M. (1989), *The Reflexive Thesis: Wrighting Sociology of Scientific Knowledge*, Chicago: University of Chicago Press.

Atkinson, P. (1990), *The Ethnographic Imagination*, London: Routledge.

Atkinson, P. (1992), *Understanding Ethnographic Texts*, London: Sage.

Atkinson, P. and Coffey, A. (1997), 'Analysing Documentary Realities.' In D. Silverman (ed.) op. cit.: 45–62.

Atkinson, P. and Coffey, A. (2002), 'Revisiting the relationship between participant observation and interviewing.' In J. Gubrium and J. Holstein (eds), *Handbook of Interview Research*, Thousand Oaks, Ca.: Sage: 801–14.

Atkinson, P. and Hammersley, M. (1994), 'Ethnography and participant observation.' In N. K. Denzin and Y. S. Lincoln (eds), op. cit.: 248–61.

Atkinson, P. and Silverman, D. (1997), 'Kundera's *Immortality*: The Interview Society and the Invention of Self,' *Qualitative Inquiry*, 3 (3): 324–45.

Atkinson, P., Coffey, A., Delamont, S., Lofland J. and Lofland L. (eds) (2001), *Handbook of Ethnography*, London: Sage.

Back, L. (2004), 'Politics, research and understanding.' In C. Seale, G. Gobo, J. F. Gubrium and D. Silverman (eds), op. cit.: 261–75.

Bahr, D. M., De Gregorio J., Lopez, D. I. and Alvarez, A. (1974), *Piman Shamanism and Staying Sickness*, Tucson: University of Arizona Press.

Bailey, K. D. (1978), *Methods in Social Research*, New York: Free Press.

Bales, R. F. (1951), *Interaction Process Analysis*. Cambridge, Mass.: Addison-Wesley Press.

Ball, M. and Smith, G. (2001), 'Technologies of realism? Uses of photography and film.' In P. Atkinson, A. Coffey, S. Delamont, J. Lofland and L. Lofland (eds), op. cit.: 302–19.

Barley, S. (1990), 'The aligment of technology and structure through roles and networks,' *Administrative Science Quarterly*, 31: 61–103.

Becker, H. S. (1951), 'The professional dance musician and his audience,' *American Journal of Sociology*, 57(2): 136–44.

Becker, H. S. (1998a), *Trick of the Trade*, Chicago and London: University of Chicago Press.

Becker, H. S. (1998b), 'Sampling.' In H. Becker, op. cit.: 67–107.

Becker, H. S. (2007), 'Calvino, as urbanologist.' In H. S. Becker, *Telling About Society*, Chicago: University of Chicago Press.

Becker, H. S. and Geer, B. (1960), 'Participant observation: The analysis of qualitative field data.' In R. Adams and J. Preiss (eds), *Human Organization Research*, Homewood, Ill.: Dorsey: 267–89.

Becker, H. S., Geer, B., Hughes E. C. and Strauss, A. L. (1961), *Boys in White*, Chicago: University of Chicago Press.
Bell, C. and Newby, H. (1977), *Doing Sociological Research*, London: Allen and Unwin.
Benedict, R. (1934), *Pattern of Culture*, New York: Houghton.
Bloor, M. (1983), 'Notes on member validation.' In R. Emerson (ed.), *Contemporary Field Research*, Boston: Little Brown.
Blumer, H. (1956), 'Sociological analysis and the "variable",' *American Sociological Review*, 21: 633–60.
Blumer, H. (1969), *Symbolic Interactionism*, New York: Prentice-Hall.
Boelen, W.A.M. (1992), 'Street Corner Society: Corneville Revisited,' *Journal of Contemporary Ethnography*, 1: 11–51.
Bourdieu, P. (1979), *La distinction*, Paris: Les éditions de minuit, transl. *Distinction*, London: Routledge & Kegan Paul.
Bourdieu, P. (1987), 'What Makes a Social Class? On the Theoretical and Practical Existence of Groups,' *Berkeley Journal of Sociology*, 32: 1–17.
Brannen, J. (1992), *Mixing Methods*, London: Gower.
Brekhus, W. H., Galliher, J. F. and Gubrium, J. F. (2005), 'The Need for Thin Description,' *Qualitative Inquiry*, 11(6): 1–19.
Bruni, A. (2006), 'Access as Trajectory: Entering the Field in Organizational Ethnography,' *Management*, 9(3): 129–44.
Bryman, A. (1988), *Quantity and Quality in Social Research*, London: Unwin Hyman.
Bryman, A. (2001), *Ethnography*, London: Sage, 4-volume set.
Bulmer, M. (1984), *The Chicago School of Sociology*, Chicago: University of Chicago Press.
Burawoy, M. (1979), *Manufacturing Consent*, Chicago: University of Chicago Press.
Burawoy, M. (2003), 'Revisits: an outline of a theory of reflexive ethnography,' *American Sociological Review*, 68(5): 645–79.
Burawoy, M., Blum, J. A., George S., Gille, Z., Gowan, T., Haney, L., Klawiter, M., Lopez, S. H., Riain, S. O. and Thayer, M. (2000), *Global Ethnography*, Berkeley: University of California Press.
Callon, M. (1986), 'Some elements of a sociology of translation.' In J. Law (ed.), *Power, Action and Belief*, London: Routledge: 196–233.
Cardona, M. (1997), *Lo specchio, la rosa e il loto*, Roma: Seam.
Cardona, G. R. (1985), *La foresta di piume: Manuale di etnoscienza*, Bari: Laterza.
Carlspecken, P. F. (1996), *Critical Ethnography Research*, New York: Routledge.
Carmines, E. G. and Zeller, R. A. (1979), *Reliability and Validity Assessment*, Beverly Hills: Sage.
Cassell, J. (1988), 'The relationship of observer to observed when studying up.' In R. G. Burgess (ed.), *Studies in Qualitative Methodology*, Greenwich: JAI Press.
Chambers, E. (2000), 'Applied Ethnography.' In N. K. Denzin and Y. S. Lincoln (eds), op. cit.: 851–68.
Charmaz, K. (2000), 'Grounded Theory: objectivist and constructivist methods.' In Denzin and Lincoln (eds), op. cit.: 509–5.
Cicourel, A. V. (1964), *Method and Measurement in Sociology*, New York: Free Press.
Cicourel, A. V. (1968), *The Social Organization of Juvenile Justice*, New York: John Wiley.
Cicourel, A. V. (1974), *Theory and Method in a Study of Argentine Fertility*, New York: Wiley.
Cicourel, A. V. (1986), 'Intervista a Cicourel.' In F. Faccioli (ed.), *Dei delitti e delle Pene*, 1: 43-62.
Cicourel, A. V. (1988), 'Elicitation as a problem of discourse.' In U. Ammon, N. Dittmar and K. J. Mattheier (eds), *Sociolinguistics*, Vol. II, Berlin and New York: de Gruyter.
Cicourel, A. V. and Boese, R. (1972), 'Sign language acquisition and the teaching of deaf children.' In D. Hymes et al. (eds), *The Functions of Language*, New York: Teacher College Press.
Clifford, J. (1986), 'Introduction: partial truths.' In J. Clifford and G. E. Marcus (eds), op. cit.: 1–26.
Clifford, J. (1988), *Predicament of Culture*, Cambridge, MA: Harvard University Press.
Clifford, J. (1990), 'Note on (field)notes.' In R. Sanjek (ed.), *Fieldnotes: The Makings of Anthropology*, Ithaca, NY: Cornell University Press, 47–70.
Clifford, J. and Marcus, G. E. (eds) (1986), *Writing Culture: Poetics and Politics of Ethnography*, Berkeley: University of California Press.

Coffey, A., Renold, E., Dicks B., Soyinka, B. and Mason, B. (2006), 'Hypermedia ethnography in educational settings: possibilities and challenges,' *Ethnography and Education*, 1(1): 15–30.
Cohen, M. (2003), *101 Ethical Dilemmas*, London and New York: Routledge.
Cohen, M. (2005), *Wittgenstein's Beetle and Other Classic Thought Experiments*, Oxford: Blackwell.
Collett, P. and Marsh, P. (1974), 'Patterns of public behavior: collision avoidance on a pedestrian crossing,' *Semiotica*, 12: 281–99.
Collins, R. (1981), 'Micro-translation as a theory-building strategy.' In K. Knorr-Cetina and A. V. Cicourel, op. cit.: 81–108.
Collins, R. (1986), 'Reflections on the Death of Erving Goffman,' *Sociological Theory*, 4: 106–13.
Collins, R. (1988), *Theoretical Sociology*, San Diego: Harcourt, Brace, Jovanovich.
Collins, R. (2004), *Interaction Ritual Chains*, Princeton: Princeton University Press.
Comte, A. (1839), *Cours de philosophie positive*, Vol. IV, Paris: Bachelier.
Converse, J. M. (1987), *Survey Research in the United States*, Berkeley: University of California Press.
Corsaro, W. A. (1982), 'Something old and something new: the importance of prior ethnography in the collection and analysis of audiovisual data,' *Sociological Methods and Research*, 11(2): 145–66.
Corsaro, W. A. (1985), *Friendship and Peer Culture in the Early Years*, Norwood, N.J.: Ablex Publishing Corporation.
Corsaro, W. A. (1996), 'Transitions in Early Childhood: The Promise of Comparative Longitudinal Ethnography.' In R. Jessor, A. Colby and R. Shweder (eds), *Ethnography and Human Development*, Chicago: University of Chicago Press, 419-58.
Corsaro, W. A. (1997), *The Sociology of Childhood*, Thousand Oaks: Ca.: Pine Forge Press.
Corsaro, W. A. and Heise, D. (1990), 'Event structure models from ethnographic data,' *Sociological Methodology*, 20: 1–57.
Crapanzano, V. (1980), *Tuhami. Portrait of a Moroccan*, Chicago: University of Chicago Press.
Crapanzano, V. (1986), 'Hermes' dilemma. The masking of subversion in ethnographic descriptions.' In J. Clifford and G. E. Marcus, op. cit.: 51–76.
Creswell, J. W. (1998), *Qualitative Inquiry and Research Design*, London: Sage.
Czarniawska, B. (2004), 'Writing social science monograph.' In C. Seale, G. Gobo, J. F. Gubrium and D. Silverman (eds), op. cit.: 561–75.
Czarniawska, B. (2007), *Shadowing, and Other Techniques for Doing Fieldwork in Modern Societies*, Frederiksberg (Denmark): Liber/CBS Press.
Dalkey, N.C. and Helmer O. (1963), 'An experimental application of the Delphi Method to the use of experts,' *Management Science*, 9(3): 458–67.
Dalton, M. (1959), *Men who Manage*, New York: Wiley.
Davis, F. (1973), 'The martian and the convert: ontological polarities in social research,' *Urban Life*, 3: 333–43.
de Martino, E. (1961), *La terra del rimorso*, Milano: Il Saggiatore, transl. *The Land of Remorse: A Study of Southern Italian Tarantism*, London: Free Association Books, 2005.
Delamont, S. (2004), 'Ethnography and participant observation.' In C. Seale, G. Gobo, J. F. Gubrium and D. Silverman (eds), op. cit.: 217–29.
Denora, T. (2002), 'Music into action: performing gender on the Viennese concert stage, 1790–1810,' *Poetics*, 30(2): 19–33.
Denzin, N. K. (1970), *The Research Act*, New York: McGraw-Hill.
Denzin, N. K. (1971), 'Symbolic Interactionism and Ethnomethodology.' In J. D. Douglas (ed.), *Understanding Everyday Life*, London: Routledge and Kegan.
Denzin, N. K. (1983), 'Interpretive Interactionism.' In G. Morgan (ed.), *Beyond Method*, Beverly Hills, CA: Sage: 129–46.
Denzin, N. K. (1997), *Interpretive Ethnography*, Thousand Oaks, CA: Sage.
Denzin, N. K. (2007), 'Sacagawea's nickname, or the Sacagawea problem,' *Qualitative Research*, 7(1), 103–33.
Denzin, N. K. and Lincoln, Y. S. (eds) (2000), *Handbook of Qualitative Research* (2nd edn), Thousand Oaks, CA: Sage.
Denzin, N. K. and Lincoln, Y. S. (2000), 'The Discipline and Practice of Qualitative Research.' In N. K. Denzin and Y. S. Lincoln (eds), op. cit.: 1–28.

Deutscher, I. (1973), *What we Say/What we Do*, Glenview, Ill: Scott Foresman.
Dickens, L. (1983), 'Is feminist methodology a red herring?' Letter to the Editor of *Network* (Newsletter of the British Sociological Association): 26 May.
Duranti, A. (1992), *Etnografia del parlare quotidiano*, Roma: NIS.
Duranti, A. (1997a), *Linguistic Anthropology*, Cambridge: Cambridge University Press.
Duranti, A. (1997b), 'Appendix: Practical tips on recording interaction,' in A. Duranti, op. cit.: 340–7.
Duranti, A. (2002), 'Il ritorno come epifania etnografica: Samoa 1978–1999.' In L. Brutti and A. Paini, *La terra dei miei sogni*, Roma: Meltemi: 161–79.
Eco, U. (1979), *Lector in fabula*, Milano: Bompiani.
Edwards, R. and Mauthner, M. (2002), 'Ethics and feminist research: theory and practice.' In M. Mauthner, M. Birch, J. Jessop and T. Miller (eds), *Ethics in Qualitative Research*, London: Sage: 14–31.
Ellis, C. (1995), *Final Negotiations*. Philadelphia, PA: Temple University Press.
Ellis, C. and Bochner, A. (2000), 'Autoethnography, personal narrative, reflexivity: researcher as a subject.' In N. K. Denzin and Y. S. Lincoln (eds), op. cit.: 733–68.
Emerson, R. M. (2004), 'Working with "Key Incidents."' In C. Seale, G. Gobo, J. F. Gubrium and D. Silverman, op. cit.: 457–72.
Emerson, R. M., Fretz, R. I. and Shaw, L. L. (1995), *Writing Ethnographic Fieldnotes*, Chicago: University of Chicago Press.
Emerson, R. M., Fretz, R. I. and Shaw, L. L. (2001), 'Participant observation and fieldnotes.' In P. Atkinson, A. Coffey, S. Delamont, J. Lofland and L. Lofland (eds), op. cit.: 339–51.
Emerson, R. M. and Pollner, M. (1988), 'On the use of members' responses to researchers' account,' *Human Organization*, 47: 189–98.
Ereaut, G. (2004), 'Qualitative market research.' In C. Seale, G. Gobo, J. F. Gubrium and D. Silverman (eds), op. cit.: 504–20.
Fielding, N. (2001), 'Computer applications in qualitative research.' In P. Atkinson, A. Coffey, S. Delamont, J. Lofland and L. Lofland (eds), op. cit.: 453–67.
Fielding, N. (2004) 'Working in hostile environments.' In C. Seale, G. Gobo, J. F. Gubrium and D. Silverman (eds), op. cit.: 248–60.
Fielding, N. G. and Fielding, J. L. (1986), *Linking Data*, London: Sage.
Fischer, M. M. J. (1986), 'Ethnicity and the post-modern arts of memory.' In J. Clifford and G. E. Marcus (eds), op. cit.: 194–232.
Fossey, D. (1983), *Gorillas in the Mist*, Boston, MA: Houghton Mifflin.
Foucault, M. (1975), *Surveiller et punir*, Paris: Gallimard, transl. *Discipline and Punish*, Harmondsworth: Penguin, 1977.
Gallmeier, C. P. (1983), 'Leaving, revisiting, and staying in touch: neglected issues in field research.' In W. B. Shaffir and R. A. Stebbins (eds), *Experiencing Fieldwork*, Thousand Oaks: CA: Sage: 224–31.
Gans, H. J. (1968), 'The Participant-Observer as a Human Being: observations on the Personal Aspects of Fieldwork.' In H. S. Becker, B. Geer, D. Riesman and R. S. Weiss (eds), *Institutions and the Person*, Chicago: Aldine, 300–17.
Gans, H. (1999), 'Participant observation in the Era of "Ethnography,"' *Journal of Contemporary Ethnography*, 28(5): 540–8.
Garfinkel, H. (1962), 'Common sense knowledge of social structures: the documentary method of interpretation in lay and professional fact finding.' In J. M. Scher (ed.), *Theories of the Mind*, New York: The Free Press.
Garfinkel, H. (1967), *Studies in Ethnomethodology*, Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.
Geertz, C. (1972), 'Deep Play: Notes on the Balinese Cockfight,' *Dedalus*, 101: 1–37.
Geertz, C. (1973), *The Interpretation of Cultures*, New York: Basic Books.
Geertz, C. (1988), *Works and Lives*, Stanford: Stanford University Press.
Geertz, C. (2000), *Available Light*, Princeton, NJ: Princeton University Press.
Gelsthorpe, L. (1992), 'Response to Martin Hammersley's paper "on feminist methodology,"' *Sociology*, 26(2): 213–18.
Gherardi, S. (1995), 'When will he say: "Today the plates are soft?" Management of ambiguity and situated decision-making,' *Studies in Cultures, Organizations and Societies*, 1: 9–27.

Gherardi, S. (2000), 'Practice-based theorizing on learning and knowing in organizations: an introduction,' *Organization*, 7: 211–21.
Gilbert, N. and Mulkay, M. (1983), 'In Search of the Action.' In N. Gilbert and P. Abell, (eds) *Accounts and Action*, Aldershot: Gower.
Glaser, B. G. (1978), *Theoretical Sensitivity*. Mill Valley, CA: Sociology Press.
Glaser, B. G. (2002), 'Constructivist Grounded Theory?,' *Forum Qualitative Social Research*, 3 (3), www.qualitative-research.net/fqs-texte/3-02/3-02glaser-e.htm.
Glaser, B. G. and Strauss, A. L. (1964), 'The social loss of dying patients,' *American Journal of Nursing*, 64(6): 119–21.
Glaser, B. G. and Strauss, A. L. (1967), *The Discovery of Grounded Theory*, Chicago: Aldine.
Glazier, S. D. (1993), 'Responding to the anthropologist: when the spiritual Baptists of Trinidad read what I write about them.' In C. Brettell (ed.), *When They Read What We Write*, Westport, CT: Bergin and Garvey: 107–18.
Gobo, G. (1993), 'Class; stories of concepts. From ordinary language to scientific language,' *Social Science Information*, 32(3): 467–89.
Gobo, G. (1995), 'Class as metaphor: On the unreflexive transformation of a concept into an object,' *Philosophy of the Social Sciences*, 25(4): 442–67.
Gobo, G. (1997), 'La costruzione organizzativa della cecità.' In M. La Rosa (ed.), *Governo delle tecnologie, efficienza e creatività*, Bologna: Monduzzi, 65–8.
Gobo, G. (2004), 'Sampling, representativeness and generalizability.' In C. Seale, G. Gobo, J. F. Gubrium and D. Silverman (eds), op. cit.: 435–56.
Gobo, G. (2006), 'Set them free: Improving data quality by broadening an interviewer's task,' *International Journal of Social Research Methodology*, 9(4): 279–301.
Gobo, G. (2008), 'Re-conceptualizing generalization: Old issues in a new frame.' In P. Alasuutari, J. Brannen and L. Bickman (eds), *The Handbook of Social Research Methods*, London: Sage.
Gobo, G., Rozzi, S., Zanini, S. and Diotti, A. (2008), 'Routine dell'emergenza: il caso del 118.' In S. Gherardi (ed.), *Apprendimento tecnologico e tecnologie di apprendimento*, Bologna: Il Mulino.
Goffman, E. (1955), 'On face-work: an analysis of ritual elements in social interaction,' *Psychiatry*, 18(3): 213–31.
Goffman, E. (1956a), 'The nature of deference and demeanor,' *American Anthropologist*, 58: 473–502.
Goffman, E. (1956b), 'Embarrassment and Social Organization,' *American Journal of Sociology*, 62(3): 264–74.
Goffman, E. (1959), 'Preface.' In E. Goffman (1959), *The Presentation of Self in Everyday Life*, New York: Doubleday Anchor.
Goffman, E (1961), *Asylums*, New York: Doubleday Anchor.
Goffman, E. (1963), *Behavior in Public Places. Notes on the Social Organization of Gatherings*, Glencoe: The Free Press.
Goffman, E. (1964), 'Mental symptoms and public order,' *Disorders in Communication*, 42: 262–9.
Goffman, E. (1967), *Interaction Ritual*, New York: Doubleday Anchor.
Goffman, E. (1969), *Strategic Interaction*, Philadelphia: University of Pennsylvania Press.
Goffman, E. (1976), 'Replies and Responses,' *Language in Society*, 5: 257–313
Goffman, E. (1989), 'On fieldwork,' *Journal of Contemporary Ethnography*, 18(2): 124–32.
Gomm, R., Hammersley, M. and Foster, P. (2000), 'Case study and generalization.' In R. Gomm, M. Hammersley and P. Foster (eds), *Case Study Method*, London, Sage: 98–115.
Goodenough, W. (1957), 'Cultural anthropology and linguistics.' In P. L. Garvin (a cura di), *Monograph Series on Languages and Linguistics*, 9, Institute of Languages and Linguistics, Washington, DC.
Gouldner, A. W. (1954), *Patterns of Industrial Bureaucracy*, New York: The Free Press.
Gouldner, A. W. (1970), *The Coming Crisis in Western Sociology*, New York: Avon Books.
Grahame, P. R. and Grahame, K. M. (2000), 'Official knowledge and the relations of ruling: Explorations in institutional ethnography,' *Journal for Pedagogy, Pluralism, & Practice*, 5. www.lesley.edu/journals/jppp/5/grahame.html.

Guba, E. G. (1981), 'Criteria for assessing the trustworthiness of naturalistic enquiries,' *Educational Communication and Technology Journal*, 29(2): 75–92.

Guba, E. G. and Lincoln, Y. S. (1982), 'Epistemological and methodological bases of naturalistic inquiry,' *Educational Communication and Technology Journal*, 30: 233–52.

Gubrium, J. F. (1988), *Analyzing Field Reality*, Newbury Park: Sage.

Gubrium, J. F. (1988a), 'Field Reality: Orientations.' In J. F. Gubrium, op. cit.: 23–39.

Gubrium, J. F. (2005), 'Narrative Environments and Social Problems.' *Social Problems*, 52 (4): 525–8

Hammersley, M. (1989), *The Dilemma of Qualitative Method*, London: Routledge.

Hammersley, M. (1990), *Reading Ethnographic Research*, London: Longmans.

Hammersley, M. (1992), *What's Wrong with Ethnography*, London: Routledge.

Hammersley, M. (1992a), 'On feminist methodology,' *Sociology*, 26(2), 187–206.

Hammersley, M. (1996), 'The relationship between qualitative and quantitative research: paradigm loyalty versus methodological eclecticism.' In J. T. E. Richardson (ed.), *Handbook of Research Methods for Psychology and the Social Sciences*, Leicester: BPS Books: 159–79

Hammersley, M. (2006), 'Ethnography: problems and prospects.' *Ethnography and Education*, 1(1): 3–14.

Hammersley, M. and Atkinson, P. (1983), *Ethnography: Principles in Practice*, London: Tavistock.

Hammersley, M. and Atkinson, P. (1983a), 'Research design: problems, cases, and samples,' in M. Hammersley and P. Atkinson, op. cit.: 23–53.

Haraway, D. (1991), *Simians, Cyborg and Women*, London: Routledge.

Harding, S. (1987), *Feminism and Methodology*, Bloomington: Indiana University Press.

Hartley, J. (1987), 'Invisible fictions: television audiences, paedocracy, pleasure,' *Textual Practice*, 1(12): 121–38.

Hayek, F. A. (1949), *Individualism and Economic Order*, London: Routledge & Kegan Paul.

Heath, C. (2004), 'Analysing face-to-face interaction: video, the visual and material.' In D. Silverman (ed.), op. cit.: 266–82.

Heath, C. and Luff, P. (1993), 'Explicating face-to-face interaction.' In N. Gilbert (ed.), *Researching Social Life*, London: Sage: 306–26.

Hebdige, D. (1979), *Subculture: The Meaning of Style*, London and New York: Routledge.

Heritage, J. (1984), *Garfinkel and Ethnomethodology*, Cambridge: Polity.

Heyl, S. B. (2001), 'Ethnographic interviewing,' in P. Atkinson, A. Coffey, S. Delamont, J. Lofland and L. Lofland (eds), op. cit.: 369–83.

Hine, C. (2000), *Virtual Ethnography*, London: Sage.

Hobson, D. (1982), *'Crossroads:' the Drama of Soap Opera*, London: Methuen.

Holdaway, S. (1982), '"An inside job:" a case study of covert research on the police.' In Martin Bulmer (ed.), *Social Research Ethics*, London: Macmillan Press: 59–79.

Hoyles, C., Noss, R., and Pozzi, S. (2001), 'Proportional reasoning in nursing practice,' *Journal for Research in Mathematics Education, 32*(1), 4–27.

Hughes, E. C. (1971), *The Sociological Eye: Selected Papers*, Chicago: Aldine.

Hughes, J. and Sharrock, W. (2008), *Participant Observation*, London: Sage, 4-volume set.

Humphreys, L. (1970), *Tearoom Trade: Impersonal Sex in Public Places*, Chicago: Aldine.

Hymes, D. H. (1978), 'What is ethnography?' Sociolinguistics Working Paper #45, Southwest Educational Development Laboratory, Austin, Texas.

Jankowski, M. S. (1991), *Islands in the Street*, Berkeley: University of California Press.

Jarvie, I. C. (1972), *Concepts and Society*, London: Routledge & Kegan Paul.

Jick, T. D. (1979), 'Mixing qualitative and quantitative methods: triangulation in action,' *Administrative Science Quarterly*, 24: 602–11.

Jordan, B. and Dalal, B. (2006), 'Persuasive encounters: ethnography in the corporation,' *Field Methods*, 18(4): 359–81.

Kahng, S. W. and Iwata, B. A. (1998), 'Computerized systems for collecting real-time observational data,' *Journal of Applied Behavior Analysis*, 31(2): 253–61.

Kanter, R. M. (1977), *Men and Women of the Corporation*, New York: Basic Books.

Kasper, A. S. (1994), 'A feminist, qualitative methodology: a study of women with breast cancer,' *Qualitative Sociology*, 17(3): 263–81.
Keiser, R. L. (1969), *The Vice Lords*, New York: Holt, Rinehart and Winston.
Kelle, U. (2004), 'Computer-assisted qualitative data analysis.' In C. Seale, G. Gobo, J. F. Gubrium and D. Silverman (eds), op. cit.: 472–89.
Kincheloe, J. L. and McLaren, P. L. (1994), 'Rethinking critical theory and qualitative research.' In N. Denzin and Y. Lincoln (eds), *Handbook of Qualitative Research*, Thousand Oaks, CA: Sage: 138–57.
Kirk, J. and Miller, M. (1986), *Reliability and Validity in Qualitative Research*, London: Sage.
Kitzinger, C. (2004), 'Feminist approaches.' In C. Seale, G. Gobo, J. F. Gubrium and D. Silverman (eds), op. cit.: 125–40.
Knoblauch, H. (2005), 'Focused Ethnography,' *Forum: Qualitative Social Research*, 6(3), www.qualitative-research.net/fqs-texte/3-05/05-3-44-e.htm.
Knorr-Cetina, K. and Cicourel, A. V. (1981) (eds), *Advances in Social Theory and Methodology*, London: Routledge & Kegan Paul.
Korzybski, A. (1933), 'Science and sanity: an introduction to non-Aristotelian systems and general semantics,' Chicago: International Non-Aristotelian Library, Institute of General Semantics.
Kuhn, T. S. (1962), *The Structure of Scientific Revolutions*, Chicago: University of Chicago Press.
La Piere, R. T. (1934), 'Attitudes vs. Action,' *Social Force*, 12: 230-7.
Labov, W. (1972), 'Academic Ignorance and Black Intelligence,' *The Atlantic Monthly*, 6: 59–67.
Lakoff, G. and Johnson, M. (1980), *Metaphors We Live By*. Chicago: Chicago University Press.
Lather, P. (1988), 'Feminist perspective on empowering research methodologies,' *Women's Studies International Forum*, 11(6): 569–81.
Latour, B. (1988), 'The politics of explanation – an alternative.' In S. Woolgar (ed.), op. cit.: 155–76.
Latour, B. (1995), 'The 'pedofil' of Boa Vista: A photo-philosophical montage,' *Common Knowledge*, 4(1): 147–87.
Latour, B. and Woolgar, S. (1979), *Laboratory Life*, London: Sage.
Levi, P. (1958), *Se questo è un uomo*, Torino: Einaudi, transl., *If this is a man*, New York: Collier, 1959.
Lincoln, Y. S. and Guba, E. G. (1979), *Naturalist Inquiry*, Beverly Hills, CA: Sage: 27–42.
Lindeman, E. C. (1924), *Social Discovery*, New York: Republic.
Lofland, J. (1971), *Analyzing Social Settings*, Belmont, CA: Wadsworth.
Lofland, L. H. (1980), 'Reminiscences of Classic Chicago: "The Blumer-Hughes Talk,"' *Urban Life*, 9(3): 251–81.
Loseke, D. R. and Cahill, E. S. (2004), 'Publishing qualitative manuscripts: lesson learned.' In C. Seale, G. Gobo, J. F. Gubrium and D. Silverman (eds), op. cit.: 576–91.
Lull, J. (1980), 'The social uses of television,' *Human Communication Research*, 6(3): 197–209.
Lull, J. (1988), *World Families Watch Television*, London: Sage.
Lunch, C. and Lunch, N. (2006), 'Insights into participatory Video: a handbook for the field,' Oxford: Insight, www.insightshare.org/training_book.html.
Luria, A. R. (1974), *Ob istoricheskom razvitii poznavatel'nykh protsessov*, Moscow: Izdatelstvo "Nauka", transl. *Cognitive Development. Its cultural and social foundations*, Cambridge, Harvard University Press, 1976.
Lynd, R. S. and Lynd, M. H. (1929), *Middletown*, New York: Harcourt Brace and Company.
Lynd, R. S. and Lynd, M. H. (1937), *Middletown in Transition*, New York: Harcourt Brace and Company.
Madge, J. (1962), *The Origins of Scientific Sociology*, New York: The Free Press of Glencoe.
Malinowski, B. (1922), *Argonauts of the Western Pacific*, London: Routledge and Kegan.
Mann, L. (1969), 'Queue culture: the waiting line as a social system,' *American Journal of Sociology*, 75: 340–54.
Marcus, G. E. (1986), 'Contemporary problems of ethnography in the modern world system.' In J. Clifford and G. E. Marcus (eds), op. cit.: 165–93.
Marcus, G. E., and Cushman, D. (1982), 'Ethnographies as texts,' *Annual Review of Anthropology*, 11: 25–69.

Marcus, G. E. and Fischer, M. J. (1986), 'The Anthropologist as Hero.' In G. E. Marcus and M. J. Fischer, *Anthropology as Cultural Critique*, Chicago: University of Chicago Press.
Markham, A. N. (2005), 'The methods, politics and ethics of representation in online ethnography.' In N. K. Denzin and Y. S. Lincoln (eds), *Handbook of Qualitative Research* (3rd edn), Thousand Oaks, CA: Sage.
Marradi, A. (1980), *Concetti e metodi per la ricerca sociale*, Firenze: La Giuntina.
Marradi, A. (1990), 'Classification, typology, taxonomy,' *Quality and Quantity*, 24: 129–57.
Mason, J. (1996), *Qualitative Researching*, Newbury Park: Sage.
Matthew, D. (2005), *Case Study Research*, London: Sage, 4-volume set.
Maynard, D. (1989), 'On the ethnography and analysis of discourse in institutional settings.' In J. Holstein and G. Miller (eds), *Perspective in Social Problems*, vol. 1, Greenwich, CT: JAI Press: 127–46.
Maynard, D. and Clayman, S. (1991), 'The diversity of ethnomethodology,' *Annual Review of Sociology*, 17: 385–418.
Maynard, M. (1994), 'Methods, practice and epistemology: the debate about feminism and research,' in M. Maynard and J. Purvis (eds), *Researching Women's Lives from a Feminist Perspective*, London: Taylor & Francis.
McCall, M. M. (2000), 'Performance ethnography: A brief history and some advice.' In N. K. Denzin and Y. S. Lincoln (eds), op. cit.: 421–33.
McCloskey, D. N. (1986), *The Rhetoric of Economics*, Madison: University of Wisconsin Press.
McCracken, G. D. (1988), *The Long Interview*, Newbury Park: Sage.
McHugh, P. (1968), *Defining the Situation*, Indianapolis: Bobbs-Merrill.
Mehan, H. (1979), *Learning Lessons*, Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
Mehan, H., Hertweck, A. and Meihls, L. J. (1986), *Handicapping the Handicapped:* Stanford: Stanford University Press.
Mehan, H. and Wood, H. (1975a), *The Reality of Ethnomethodology*, New York: Wiley.
Mehan, H. and Wood, H. (1975b), 'Becoming the phenomenon,' in H. Mehan and H. Wood, *The Reality of Ethnomethodology*, op. cit.: 225–38.
Merleau-Ponty, M. (1945), *Phénomenologie de la perception*, Paris: Gallimard, transl. *Phenomenology of Perception*, London: Routledge & Kegan Paul, 1962.
Miles, M. B. and Huberman, M. A. (1984), *Qualitative Data Analysis*, London: Sage.
Mitchell, R. and Karttunen, S. (1991), 'Perché e come definire un artista?' *Rassegna Italiana di Sociologia*, 32(3): 349–64.
Moerman, M. (1974), 'Accomplishing ethnicity.' In R. Turner (ed.) *Ethnomethodology*, Harmondsworth: Penguin: 34–68.
Moores, S. (1993), 'Approaching audiences.' In S. Moores, *Interpreting Audiences*, London: Sage: 1–10.
Morgan, G. (1986), *Images of Organization*, London: Sage.
Morley, D. (1992), *Television, Audiences and Cultural Studies*, London: Routledge.
Murphy, E. and Dingwall, R. (2001), 'The ethics of ethnography.' In P. Atkinson, A. Coffey, S. Delamont, J. Lofland and L. Lofland (eds), op. cit.: 339–51.
Norman, D. A. (1988), *The Psychology of Everyday Things*, Basic Books, New York.
Norman, D. A. (1991), 'Cognitive artifacts.' In J. M. Caroll (ed.), *Designing Interaction*, Cambridge: Cambridge University Press: 17–38,
Ochs, E. (1988), *Culture and Language Development*, Cambridge: Cambridge University Press.
Oddone, I., Re, A. and Briante, G. (1977), *L'esperienza operaia, coscienza di classe e psicologia del lavoro*, Torino: Einaudi.
Pascual-Leone, A., Amedi, A., Fregni, F. and Merabet, L. B. (2005), 'The Plastic Human Brain Cortex,' *Annual Review of Neurosciences*, 28: 377–401.
Payne, G. and Williams, M. (2005), 'Generalization in Qualitative Research,' *Sociology*, 39(2): 295–314.
Peräkylä, A. (1997), 'Reliability and Validity in Research based upon transcripts.' In D. Silverman (ed.), *Qualitative Research*, London: Sage: 201–19.
Platt, J. (1983), 'The Development of the "Participant Observation" Method in Sociology: Origin, Myth and History,' *Journal of the History of the Behavioural Sciences*, 19(4): 379–93.
Platt, J. (1996), *A History of Sociological Research Methods in America, 1920–1960*, Cambridge, Cambridge University Press.

Pole, C. (2004), *Fieldwork*, London: Sage, 4-volume set.
Pollner, M. and Emerson, R. M. (2001), 'Ethnomethodology and Ethnography.' In P. Atkinson, A. Coffey, S. Delamont, J. Lofland and L. Lofland (eds), op. cit.: 118–35.
Prior, L. (2004), 'Doing Things with Documents.' In D. Silverman (ed.), *Qualitative Research*, London: Sage: 76–94.
Psathas, G. (1995), *Conversation Analysis*, London: Sage.
Rabinow, P. (1977), *Reflections on Fieldwork in Morocco*, Berkeley: University of California Press.
Radcliffe-Brown, A. R. (1948), *A Natural Science of Society*, New York: Free Press.
Ragin, C. C. (1987), *The Comparative Method*, Berkeley: University of California Press.
Ragin, C.C. and Becker, H. S. (eds) (1992), *What is a case?* Cambridge: Cambridge University Press.
Ramazanoglu, C. (1992), 'On feminist methodology: male reason versus female empowerment,' *Sociology*, 26(2): 207–12.
Rapley, T. (2004), 'Interviews.' In C. Seale, G. Gobo, J. Gubrium and D. Silverman (eds), op. cit.: 15–33.
Reale, E. (2004), 'New perspective for women's health studies.' In F. Cantù and N. Serina (eds), *Women in Science*, European Conference Proceedings, Genova: Brigati: 95–110.
Reed-Danahay, D. E. (2001), 'Autobiography, intimacy and ethnography.' In P. Atkinson, A. Coffey, S. Delamont, J. Lofland and L. Lofland (eds), *Handbook of Ethnography*: 407–25.
Richardson, L. (1995), 'Co-Authoring "The Sea Monster": A Writing-Story,' *Qualitative Inquiry*, 1(2): 189-203.
Robbins, T., Anthony, D. and Curtis, T. E. (1973), 'The limits of symbolic realism: problems of emphatic field observation in a sectarian context,' *Journal of the Scientific Study of Religion*, 12: 259–72.
Roethlisberger, F. J., Dickson, W. J. and Wright, H. A. (1939), *Management and the Worker*, Cambridge, MA: Harvard University Press.
Rosenhan, D. L. (1973), 'On being sane in insane places,' *Science*, 179: 250–8.
Roy, D. (1952), 'Quota restriction and goldbricking in a machine shop,' *American Journal of Sociology*, 57: 427–42.
Ryen, A. (2004), 'Ethical issues.' In C. Seale, G. Gobo, J. F. Gubrium and D. Silverman, (eds), op. cit.: 230–47.
Sacks, H. (1992), *Lectures on Conversation*, Oxford, Blackwell: vol. 1.
Said, E. W. (1978), *Orientalism*, London: Routledge and Kegan Paul.
Schatzman, L. and Strauss, A. L. (1973), *Field Research*, Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.
Schein, E. H. (1988), *Process Consultation: Its Role in Organizational Development*, Reading, Mass.: Addison-Wesley.
Schegloff, E. A. (1972), 'Notes on conversational practice: formulating place.' In D. Sudnow (ed.), *Studies in Social Interaction*, New York: Free Press: 75–119.
Schutz, A. (1944), 'The stranger: an essay in social psychology,' *American Journal of Sociology*, 49(6): 499–507.
Schutz, A. (1953), 'Common-sense and scientific interpretation of human action,' *Philosophy and Phenomenological Research*, 14: 1–38.
Schutz, A. (1962), *Collected Papers I. The Problem of Social Reality*, The Hague: Martinus Nijhoff.
Schwartz, H. and Jacobs, J. (1979), *Qualitative Sociology*, New York: The Free Press.
Seale, C. (1999), *The Quality of Qualitative Research*, London: Sage.
Seale, C. (2000), 'Using computers to analyse qualitative data,' in D. Silverman, op. cit.: 154–74.
Seale, C. (2004), 'Quality in Qualitative Research.' In C. Seale, G. Gobo, J. F. Gubrium and D. Silverman (eds), op. cit.: 409–19.
Seale, C., Gobo, G., Gubrium, J. F. and Silverman, D. (eds) (2004), *Qualitative Research Practice*. London: Sage.
Sears, R. R., Rau, L. and Alpert, R. (1965), *Identification and Child Rearing*, Stanford, CA: Stanford University Press.
Sharrock, W. W. and Button, G. (1991), 'The social actor: social action in real time.' In G. Button (ed.), *Ethnomethodology and the Human Sciences*, Cambridge: Cambridge University Press: 137–75.

Silverman, D. (1984), 'Going private: ceremonial forms in a private oncology clinic,' *Sociology*, 18, 191–202.
Silverman, D. (1993), *Interpreting Qualitative Data*, London: Sage.
Silverman, D. (2000), *Doing Qualitative Research*. London: Sage.
Silverman, D. (2005), *Doing Qualitative Research*, London: Sage (2nd edn).
Silverman, D. (2005a), 'Selecting a topic.' In Silverman, 2005 op. cit.: 77–94.
Silverman, D. (2005b), 'Selecting a case.' In Silverman, 2005 op. cit.: 125–37.
Silverman, D. (2005), 'Choosing a methodology.' In Silverman, 2005 op. cit.: 109–23.
Silverman, D. (2006), *Interpreting Qualitative Data*, London: Sage (3rd edn).
Silverman, D. (2006a), 'Ethnography and observation.' In Silverman, 2006 op. cit.: 65–70.
Silverman, D. (2006b), 'The range of qualitative methods.' In Silverman, 2006 op. cit.: 18–29.
Silverman, D. (2006c), 'The ethnographic focus.' In Silverman, 2006 op. cit.: 70–8.
Silverman, D. (2006d), 'Research design: some broader issues.' In Silverman, 2006 op. cit.: 9–20
Silverman, D. (2006e), 'Writing your report.' In Silverman, 2006 op. cit.: 336–45.
Silverman, D. (2007), 'Innumerable inscrutable habits: Why unremarkable things matter.' In D. Silverman, *A Very Short, Fairly Interesting, Quite Cheap Book about Qualitative Research*, London: Sage: 11–36.
Silverman, D. and Gubrium, J. F. (1994), 'Competing strategies for analyzing the contexts of social interaction,' *Sociological Inquiry*, 64(2): 179–98.
Siperstein, G. N. and Bak, J. (1980), 'Improving Children's Attitudes Toward Blind Peers,' *Journal of Visual Impairment and Blindness*: 74(4).
Skeggs, B. (2001), 'Feminist Ethnography.' In P. Atkinson, A. Coffey, S. Delamont, J. Lofland and L. Lofland (eds), op. cit.: 426–42.
Smith, B. M. (1979), 'Some perspectives on ethical/political issues in social science research.' In M. Wax and J. Cassell (eds), *Federal Regulation: Ethical Issues and Social Research*, Boulder, CO: Westview Press, 11–22.
Smith, D. E. (1986), 'Institutional Ethnography: A Feminist Method,' *Resource for Feminist Research*, 15: 6–13.
Snell, B. (1953), *The Discovery of the Mind*. Cambrige: Harvard University Press.
Snow, D. (1980), 'The disengagement process: a neglected problem in participant observation research,' *Qualitative Sociology*, 3(2): 100–22.
Soloway, I. and Walters, J. (1977), 'Workin' the corner: the ethics and legality of ethnographic fieldwork among active heroin addicts.' In R. S. Weppner (ed.), *Street Ethnography*, Beverly Hills: Sage: 159–78.
Sontag, S. (2001), *Illness as Metaphor and AIDS and its Metaphors*, New York: Picador USA.
Spenser J. (2001), 'Ethnography after post-modernism.' In P. Atkinson, A. Coffey, S. Delamont, J. Lofland and L. Lofland (eds), op. cit.: 443–52.
Spradley, J. P. (1979), *The Ethnographic Interview*, New York: Holt, Rinehart and Winston.
Spradley, J. P. (1980), *Participant Observation*, New York: Holt, Rinehart and Winston.
Stanley, L. and Wise, S. (1983), *Breaking Out*, London: Routledge.
Strauss, A. L. and Corbin, J. (1990), *Basics of Qualitative Research*, Thousand Oaks: Sage.
Strauss, A. L., Buchner, R., Ehrlich, D., Schatzman, L. and Sabshin, M. (1964), *Psychiatric Ideologies and Institutions*, Glencoe: The Free Press.
Sudnow, D. (1967), *Passing On*, Englewood Cliffs: Prentice Hall.
Sudnow, D. (1978), *Ways of the Hand*, MA: Harvard University Press.
Sudnow, D. (1979), *Talk's Body*, New York: Alfred A. Knopf.
Travers, M. (2001a), 'Feminism and Qualitative Research.' In M. Travers, *Qualitative Research through Case Studies*, London: Sage: 133–50.
Travers, M. (2001b), 'Postmodern Ethnography.' In M. Travers, *Qualitative Research through Case Studies*, London: Sage: 151–72.
Tuchman, G. (1972), 'Objectivity as strategic ritual: an examination of newsmen's notions of objectivity,' *American Sociological Review*, 77: 660–79.
Turner, B. A. (1988), 'Connoisseurship in the study of organizational cultures.' In A. Bryman (ed.), *Doing Research in Organizations*, London: Routledge & Kegan Paul.
Turner, R. (1989), 'Deconstructing the field.' In J. F. Gubrium and D. Silverman (eds), *The Politics of Field Research*, London: Sage. 13–29.

Turner, B. A. (1990) (ed.), *Organizational Symbolism*, Berlin: de Gruyter.
Van Dijk, T. A. (1977), *Text and Context*, London: Longman.
Van Dijk, T. A. (1987), *Communicating Racism*, Newbury Park: Sage.
Van Maanen, J. (1983), 'The moral fix: On the ethics of the fieldwork.' In R. M. Emerson (ed.), *Contemporary Field Research*, Prospect Heights: Waveland Press: 269–87.
Van Maanen, J. (1988), *Tales of the Field*, Chicago: University of Chicago Press.
Van Maanen, J. (2006), 'Ethnography then and now,' *Qualitative Research in Organizations and Management*, 1(1): 13–21.
Vidich, A. J. and Bensman, J. (1958), *Small Town in Mass Society*, Princeton: Princeton University Press.
Warren, C. A. B. (1988), *Gender Issues in Field Research*, Newbury Park: Sage.
Warren, C. A. B. and Rasmussen, P. (1977), 'Sex and Gender in Fieldwork Research,' *Urban Life*, 6: 359–69.
Webb, E. J., Campbell, D. T., Schwartz, R. D. and Sechrest, L. (1966), *Unobtrusive Methods*, Chicago: Rand McNally.
Wheatley, E. (1994), 'How can we engender ethnography with a feminist imagination? A rejoinder to Judith Stacey,' *Women's Studies International Forum*, 17(4): 403–16.
Whyte, W. F. (1943a), *Street Corner Society*, Chicago: Chicago University Press.
Whyte, W. F. (1943b), 'Social Organization in the Slums,' *American Sociological Review*, 8(1): 34–9.
Whyte, W. F. (1955), *Street Corner Society*, Chicago: Chicago University Press (enlarged edn).
Whyte, W. F. (1984), *Learning from the Field*, Newbury Park: Sage.
Whyte, W. F. (1993), 'Revisiting Street Corner Society,' *Sociological Forum*, 8(2): 285–98.
Wieder, D. L. (1974), *Language and Social Reality*, The Hague: Mouton.
Williams, M. (2000), 'Interpretativism and generalization,' *Sociology*, 34(2): 209–24.
Wilson, J. Q. and Kelling, G. (1982), 'Broken windows,' *The Atlantic Monthly*, 249(3): 29–39.
Wiseman, J. P. (1970), *Stations of the Lost*, Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.
Wissler, C. (1937), 'Introduction,' in R. S. Lynd and M. H. Lynd, op. cit.: 1–13.
Wolcott, H. F. (1990), *Writing up Qualitative Research*, Newbury Park: Sage.
Wolf, M. (1996), 'Afterword: musing from an old gray wolf.' In D. Wolf (ed.), *Feminist Dilemmas in Fieldwork*, Oxford: Westview Press: 215–21.
Wolfson, N. (1976), 'Speech events and natural speech. Some Implications for Sociolinguistic Methodology,' *Language in Society*, 5(2): 189–209.
Woods, J. (1972), 'Fire call: ethnography of fire fighters.' In J. Spradley (ed.), *The Cultural Experience*, Chicago: Science Research Associates: 221–39.
Woolgar, S. (1988) (ed.), *Knowledge and Reflexivity*, London: Sage.
Worth, S. and Adair, J. (1972), *Through Navajo Eyes*, Bloomington, IN: Indiana University Press.
Yin, R. K. (1984), *Case Study Research*, Thousand Oaks: Sage.
Zimmerman, D. H. and Pollner, M. (1970), 'The everyday world as a phenomenon.' In H. Pepinsky (ed.), *People and Information*, Oxford: Pergamon Press.

المؤلف في سطور

جيامبيترو جوبو ***Giampietro Gobo***

يعمل جيامبيترو جوبو أستاذًا مساعدًا في جامعة ميلان، وتتركز اهتمامات أبحاثه على دراسات أماكن العمل في غرف التحكم والسيطرة، ومراكز الدعوة ومراكز الطوارئ.

المترجم في سطور

محمد رشدي محمد سالم

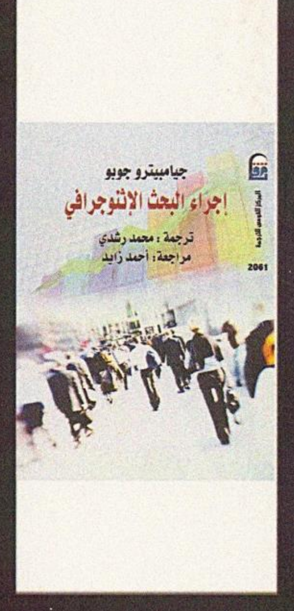
من مواليد محافظة الشرقية سنة ١٩٤٠م. تخرج من كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة عام ١٩٦٠، وعمل مدرسا للغة الإنجليزية في المدارس الثانوية المصرية ثم في الكلية الحربية المصرية، وضابط اتصال لضباط الأمم المتحدة العاملين على الجبهة المصرية حتى حرب أكتوبر المجيدة. وأعير للعمل كمدرس لغة إنجليزية في دولة الكويت من عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٨٠ ثم مدرسًا وموجهًا للغة الإنجليزية بدولة الإمارات العربية إلي أن أحيل للمعاش عام ٢٠٠٠م. حصل على شهادة مترجم قانوني من وزارة العدل في دولة الإمارات سنة ٢٠٠٠م. مارس مختلف أنواع الترجمة من وإلي اللغة الإنجليزية في دولة الإمارات منذ عام ١٩٨٥م . وبعد عودته لمصر عام ٢٠٠١ اشترك في ترجمة الموسوعة التي ألفها الدكتور مهاتير محمد، رئيس وزراء ماليزيا السابق، فترجم المجلد الخامس منها. وتولى ترجمة كتاب "تعلم الأطفال الصغار"، وهو الكتاب رقم ٨٨٤ التابع للمشروع القومي للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، كما ترجم كتاب "الإسكندرية بين الواقع والخيال" لمكتبة الإسكندرية. وترجم كتاب "قلاع العولمة" للمشروع القومي للترجمة أيضا.

المراجع في سطور

أحمد عبد الله زايد

أستاذ علم الاجتماع السياسى بكلية الآداب جامعة القاهرة حاصل على جائزتى الدولة للتفوق (٢٠٠٥) والتقديرية (٢٠٠٧) رئيس مجلس العلوم الاجتماعية والسكان بأكاديمية البحث العلمى، ونائب رئيس الجهة العربية لعلم الاجتماع، ورئيس تحرير المجلة العربية لعلم الاجتماع. له مؤلفات وبحوث متنوعة فى مجالات الاجتماع السياسى والثقافى. ومن أحدث إصداراته كتاب "الأسرة العربية فى عالم متغير" وترجمة كتاب "المجال العام" يصدر عن المركز القومى للترجمة.

التصحيح اللغوى: أيمـــن عـــامـــر
الإشراف الفنى: حســــن كامــــل



" إجراء البحث الإثنوجرافي " مرجع أساسى لأي باحث وطالب يسعى إلى مباشرة العمل بنفسه في دراسة إثنوجرافية أو مبنية على أساس الملاحظة؛ إذ يعرض الكتاب بوضوح أسس هذا المنهج الذى تشيع شعبيته واستخدامه بشكل مطلق. ويصف جيامبيترو جوبو بوضوح ومهارة كثير من المظاهر والمراحل المتعددة لإجراء تحقيق واستعلام إثنوجرافي، ويقدم أمثلة متعددة للممارسة الإثنوجرافية، ودراسات حالة واختبارات تقييم ذاتى، كما يعرض اقتراحات ونصائح للإثنوجرافيين المبتدئين.

تصميم الغلاف: عبدالحكيم صالح